الفكر الصوفي
في ضوء الكتاب والسنة

عبدالرحمن عبدالخالق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعتين الثالثة والرابعة

الحمد لله لا نحصي ثناء عليه كما أثنى على نفسه. فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، له الحمد كالذي نقول وخيراً مما نقول وله الحمد أن هدانا لحمده، وعرفنا به، ونسأله تعالى أن يرزقنا الإيمان به، والثبات على الإيمان حتى نلقاه.

والصلاة والسلام على نبي الهدى والرحمة، الذي بلّغ البلاغ المبين، وأدى الأمانة كاملة، وكان العبد الكامل لسيده ومولاه، والرسول الكامل، والنبي المبجل والمكرم والإمام فصلوات الله عليه وسلامه. وبعد،،،

أخي القارئ هذه هي الطبعة الثالثة من (الفكر الصوفي) تمتاز عن سابقتيها بتدارك الأخطاء المطبعية واللغوية، وزيادة الفصل الخاص بالطريقة الرفاعية من صفحة 562 إلى صفحة 596. وقد نبهنا إلى منهجنا في هذا الكتاب في مقدمة الطبعة الثانية.

وقد أصبح هذا الكتاب بحمد الله موسوعة ومرجعاً لكل من أراد التعرف على هذا الفكر، والإحاطة بمباحثه المتفرقة، وتصور عقائده وشرائعه، وطرائق أهله في الفكر. وكذلك الرد على معظم ما انتحلوه من عقيدة وشريعة. وبهذا تيسير -بحمد الله- على طلاب العلم معرفة الفكر الصوفي في يسر وسهولة، وتعلم طريقة الرد على زندقتهم وخرافاتهم ودجلهم، ومعرفة أمهات الكتب عندهم، وأساطين فكرهم، وكيف تطورت العقيدة والشريعة الصوفية. ونرجو بهذا أن نكون قد مهدنا الطريق إلى القضاء على هذا الفكر المنحرف، وفتحنا الطريق أمام ناشئة المسلمين إلى الاعتصام بالكتاب والسنة، وإزالة عقبة كأداء كانت تحول بينهم وبين ذلك. والله سبحانه هو المسئول أن يجعل هذا خالصاً لوجهه، وأن يكتب له القبول في الأرض، والرفعة مع الأعمال الصالحة إلى السماء إنه هو السميع العليم.

وكتبه عبدالرحمن عبدالخالق

في الكويت

في رجب الحرام سنة 1406هـ

أبريـــــــل سنة 1986م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، سبحانه وأشهد أنه لا ند له ولا شريك وأنه بذاته فـوق عرشه عال على جميع مخلوقاته ومخترعاتـه ومصـنوعاته وأنـه هـو الذي خلق الخلق وأوجد هذا العالم من العدم وأنه ما خلق الملائكـة والجن والإنس إلا ليعبـــدوه ويوحـــدوه ويمجـــدوه وأن الســـموات والأرض وما فيهمـا جميعـاً كـل لـه خاضـع وأن الجميـع وفـق أمـره، ورهن مشيئته، فمـا شـاء كـان ومـا لم يشـأه لم يكن، وأثـني عليـه سبحانه وأصلي وأسلم على عبده ورسـوله محمـد الـذي بعثـه اللـه إماماً للناس وهادياً ومرشداً ومفرقـاً بين الضـلالة والهـدى، والكفـر والإيمان، والشـرك والتوحيـد {فَمَن يَكْفُـرْ بِالْطَّاغوت ويـؤْمِن بِاللـهِ فقَدِ اسْتمسَك بالعُروَة الوُثقى لا انفصام له والله سميع عليم}.

وبعد:

فـإن أعظم فتنــة ابتلي بهـا المســلمون قـديماً وحـديثاً هي فتنــة التصوف. هذه الفتنة التي تلبست للمسـلمين بـرداء الطهـر والعفـة والزهـد والإخلاص، وأبطنت كـل أنـواع الكفـر والمـروق والزندقـة، وحملت كل الفلسفات الباطلة ومبادئ الإلحـاد والزندقـة. فأدخلتهـا إلى عقائـــد الإســـلام وتـــراث المســـلمين على حين غفلـــة منهم، فأفسدوا العقول والعقائد. ونشـروا الخرافـات والـدجل والشـعوذة، ودمروا الأخلاق، وأتوا على بنيان دولة الإسلام من القواعد إذ حارب المتصوفة العلم والجهاد والبصيرة في الدين، بـل والـزواج والعمـل والكسب، فنصبوا للقرآن والسنة حرباً لا هوادة فيها، وحرفوا الناس عن تعليمها بكل سبيل زاعمين تارة أن القــرآن والسـنة علم أوراق وظـــواهر وأن علمهم البـــاطني علم أرواح وحقـــائق واطلاع على الغيب ومشاهدة وتارة أخرى زاعمين أن أورادهم وأذكارهم تفضـل ما في القرآن والسنة آلاف بل عشـرات الآلاف من المـرات وتـارة ثالثـة واصـفين كـل علمـاء الشـريعة بـأنهم محجوبـون مرتزقـة ظـاهريون جامــدون، لم يتــذوقوا الحقــائق ولم يشــاهدوا الغيب، واختص المتصوفة أنفسهم وهم بوجه عام من الزنادقـة المبتـدعين والكفار المستترين بأنهم أهل العلم اللدني، والحقيقة..

واستطاعوا بذلك أن يدخلوا كـل مـا سـطره الكفـار والزنادقـة إلى عقائد المسلمين وأول ذلك ما يسـمى بعقيـدة وحـدة الوجـود الـتي تنادي بأن الوجود كله وحدة واحدة فلا خالق ولا مخلوق، الكـل عين واحــدة، وحقيقــة واحــدة في زعمهم تعــددت وجوداتهــا، وتغـيرت صـفاتها ولكنهـا شـيء واحـد فالجنـة والنـار، والرسـل والشـياطين، والمؤمنون والكفار، والطهارة والنجاسة، والشـرك والتوحيـد شـيء واحد وذات واحدة، ولا فـرق -بتاتـاً- عنـدهم بين موسـى وفرعـون، وإبليس أفضل من محمد صـلى اللـه عليـه وسـلم وفضَّـل شـيخهم الأكبر كما يـدعون فِرعـون على موسـى لأن فرعـون علم الحقيقـة التي يدعيها الصـوفية -حيث قـال (أنـا ربكم الأعلى)!! وهكـذا خـرج المتصوفة على المسلمين بـدين، هـذه مبادئـه دين يـرى في إبليس مثـالاً للفتـوة والتوحيـد. لأنـه لم يـرض أن يسـجد إلا للـه بـزعمهم، وبفرعون إماماً لأهل الإيمان الصوفي.. لأنه عرف الحقيقة وأنه هــو الله، والحال عندهم أنه ليس في الكون إلا اللــه.. دين لا يفـرق بين خالق ومخلوق وشرك وتوحيد، وكفر وإيمان، وطهر وفجـور.. وجنـة ونار.

أقول لقد استطاع المتصـوفة إفسـاد عقائـد المسـلمين في قـرون متطاولة، واستطاعوا كذلك إفساد أعمالهم وشـرائعهم وكـانت لهم اليــد الطــولى في هزيمــة العــالم الإســلامي وســقوطه تحت نــير الاستعباد والذل والتبعية لـدول الكفـر، كـان التصـوف هـو المعـبرة الــتي عــبر عليهــا الملحــدون والزنادقــة والمفســدون في الأرض والعباءة التي تستر بها كل من يريد التخريب والتدمير لأمة الإسـلام ورسالة القرآن ثم بعد ذلك كـان التصـوف هـو الجسـر الـذي ركبـه وعــبره كــل من يريــد الوصــول إلى تعظيم النــاس لــه، واســتعباد الآخرين، وأكل أموالهم بالباطل فقد تحـول الزنادقـة ومن لا أصـول لهم معروفة من الأعاجم والملاحدة فدخلوا في التصوف، وانتســبوا زوراً إلى أهـل بيت النبـوة وادعـوا الكرامـات والكشـوف والعلـوم الإلهية اللدنية التي تـنزل عليهم، ومن ثم سـخروا النـاس لخـدمتهم بــل وعبــادتهم من دون اللــه أحيــاءً وأمواتــاً، فحملت لهم الهبــات والهدايا. وانهالت من كل حدب وصوب، وقدسهم الناس وعظموهم تعظيماً لم تعرفه الملوك ولا أبناء الملـوك من الجبـابرة المفسـدين واستطاع هـؤلاء الزنادقـة المتسـترون أن يقيمـوا إقطاعـات دينيـة، وممالك طائفية تربعوا على عروشـها، وجعلوهـا وراثـة في أولادهم من بعدهم.

سبب تأليف الكتاب:

لقد كانت رؤية هذا الخطر الماحق على أمة الإسلام هو السبب الذي حداني إلى أن أؤلف هذا الكتاب، كاشفاً القناع عن الحركة الصوفية قديماً وحديثاً، مبصراً المسلمين بأبعادها، مبيناً مخاطرها وأهدافها.

منهج الكتاب وتقسيماته:

وقد صدر أصل هذه الرسالة سنة 1975م وقد شملت الجانب العقائدي فقط من التصوف وانشغلت عن إتمام الكتاب بمشاغل أخرى ثم يسر الله سبحانه وتعالى أن يتم الكتاب بالصورة التي كنت أطمع فيها حيث قسمت الكتاب إلى أبواب ستة جعلت الباب الأول لبيان الخطوط العريضة لعقيدة الإسلام في الكتاب والسنة، وأنه لا عقيدة إلا من القرآن والسنة، ولا شريعة كذلك إلا منهما وأن كل ما خالفهما فهو باطل. وذلك حتى تتضح هذه الحقيقة التي هي أصل الدين وأساسه والتي عمل الصوفية كل همهم لنقضها وهدمها، فالتصوف يقوم أول ما يقوم على هدم هذين الأصلين توحيد المعتقد، وتوحيد العمل، فعند الصوفية كل ما اعتقده الناس جميعاً مؤمنين وكفاراً وزنادقة وفلاسفة وعلى أي ملة ومذهب فهو حق، وكل عمل وشريعة فهي حق وأما الإسلام فإنه يقوم أول ما يقوم على أنه لا هدي إلا هدي الإسلام ولا عقيدة حق إلا عقيدة الكتاب والسنة ولا شريعة واجبة الإتباع إلا شريعة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وأنه لا صراط يوصل إلى الله إلا صراطه. وأما المتصوفة فكل الطرق نافعة وصالحة وكل الشرائع مهما كانت فعينها واحدة.

وخصصت الباب الثاني لمجمل تاريخ التصوف: كيف بدأ التصوف، وكيف انتشر وما هي المراحل التي مر بها إلى يومنا هذا والخطوط العريضة للفكر الصوفي في العقائد والشرائع.

وأما الباب الثالث فهو أوسع الأبواب، وقد شمل ثلاثة عشر فصلاً كلها في تفصيل المعتقد الصوفي كيف بدأ وكيف تطور إلى أن وصل إلى غاياته ونهاياته في القول بوحدة الوجود، والمناداة بوحدة العقائد جميعاً، والأديان جميعاً وجعل كل المتناقضات حقيقة واحدة (لله في زعمهم) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ثم عرضنا لعقيدة المتصوفة النهائية فشرحناها بحمد الله فصلاً فصلاً بدأنا بما سموه

بالحقيقة المحمدية ويعنون بـذلك أن الرسـول هـو أول موجـود في الكون وهو المستوي على عرش الله فوق السماوات السـبع، وأنـه هو الذي خلق هذا العالم من نوره وهو الذي أرسـل الرسـل وأنـزل الشـرائع وأن كـل العـوالم السـفلية والعلويـة من فعلـه وصـنعته وتدبيره وأنه بذلك المظهـر الحسـي للـه في زعمهم. اللـه الـذي لا يعدو كونه عندهم هو مجموع هذا العالم!!

شرحنا عقيـدتهم هـذه بالنصـوص من كتبهم، ورددنـا عليهم، ثم بينـا معتقدهم في الخضر عليه السلام والذي جعلـوا لـه صـورة وحقيقـة غير ما جاء في الكتاب والسنة. ثم بينا عقيدتهم في علم الغيب وما سموه بالكشف، ثم قولهم في معراج الروح إلى السـماوات ونقلنـا نقـولاً مستفيضـة من خرافـاتهم وترهـاتهم ثم بينـا كـذلك أقـوالهم وعقائدهم في الولايـة الصـوفية وشـرحنا كيـف خلعـوا كـل صـفات الربوبيـة على أوليـائهم المزعـومين. وبينـا مـراراً الولايـة عنـدهم وتقسـيماتهم لهـا، ثم خصصـنا فصـلاً لمعتقـدهم فيمـا سـموه بختم الولاية ومن قال بذلك منهم قديماً وحديثاً ثم في عقيدتهم الخرافية في الديوان الذي يحكم العالم من جبل حراء بمكة!!.

وأمـا البـاب الرابـع: فقـد خصصـناه للشـعائر الصـوفية فعرضـنا لشـعائرهم في الـذكر وكيـف يتلقـون أذكـارهم في زعمهم من الرسـول يقظـة لا منامـاً ومن اللـه -في زعمهم- مكتوبـة!! وكيـف يتلقـون من القبـور. وبينـا أيضـاً مـا زعمـوه من فضـائل لأذكـارهم المكذوبة. ثم بينا منهجهم وطريقتهم فيما سموه بالشطح. وشـرحنا منهجهم في التربيـة الصـوفية وكيـف يغسـلون الأمخـاخ ويحولـون العقلاء إلى مجـانين ومجـاذيب ودراويش سـائمة يسـهل قيـادتهم وتوجيههم. وبينا في الفصل الرابع من هذا البـاب الطـرق الصـوفية وشرحنا بالتفصيل طريقة حديثة مشهورة هي الطريقة التجانية لمـا لهـذه الطريقـة من شـهرة وانتشـار. وفي الفصـل الخـامس نقلنـا بالنص مناظرة شيخ الإسلام ابن تيمية لأتباع الطريقة الرفاعيـة في وقته.

وأما الباب الخامس: فقد شرحنا فيه الصـلة بين التصـوف والتشـيع وأنهما كانا دائماً وجهين لعملة واحدة. عملاً لأهداف واحدة وأخذ كل منهما عن الآخر.

وأما الباب السادس: والأخير فقد بينا فيه موقف طائفـة من علمـاء المسلمين قديماً وحديثاً من الفكر الصوفي بـدءاً بالإمـام الشـافعي

رحمه الله الذي كان له السبق الأول في الكشف عن هـذه الفـرق الباطنية، ثم الإمام أحمد الذي فضح مسلكهم وحارب أوائلهم حـتى اختفوا إلى أن ماتوا. وختمنا هـذا البـاب بشـهادة لـرجلين متـأخرين كانا من رجال التصوف البارزين فهداهما الله إلى الإسـلام الصـحيح وكتب كل منهما في فضح التصوف وهما الشيخ الدكتور تقي الـدين الهلالي والشيخ الراحل عبدالرحمن الوكيل.

هذا وإني لأسأل الله أن ينفع بهـذا الكتـاب المسـلمين في مشـارق الأرض ومغاربها وأن يكون هذا الكتاب النـور الهـادي للأمـة لكشـف غمة التصوف حتى تنزاح إلى غير رجعة عن وجه العالم الإسلامي.

وقد حاولت جهدي أن أسهل العبارة وأشـرح الغـامض وأختصـر في الرد وأبسط وأسترسل في النقل من كتب القـوم وذلـك لعلمي أن ظهور عقائد هؤلاء الزنادقة كاف في إبطالها وذلك أنها عقائـد ينفـر منها كل قلب سليم وكـل فطـرة لم تتنجس. وإنـه ليكفي فقـط أن نكشف الهالة الزائفة التي أحيطت بالتصوف لتظهر الحقيقة العارية البغيضة المشينة والتي إذا علمها أي مسلم لا بد أن ينكرها.

مميزات هذه الرسالة عن غيرها:

وأحمد الله أن هذا الكتاب قد تمـيز عن كتب كثـيرة كتبت في بيـان حقيقة الصوفية أنه كان موضوعياً مفصلاً وهو أول كتـاب فصـل بين العقيدة الصـوفية والشـريعة الصـوفية وشـرح كـل بـاب من أبـواب المعتقـد الصـوفي على حـدة وكـل شـريعة لهم على حـدة. وبـذلك تكتمل الصورة عند القـارئ ويفهم مغـاليق التصـوف ويتعـرف على دروبه وسراديبه الخفية.

وفي الختام أسأل الله ثواب هذا العمل من عنـده إنـه هـو السـميع العليم وصـلى اللـه وسـلم على عبـده ورسـوله الأمين وأصـحابه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

عبدالرحمن عبدالخالق

الكويت في يوم الاثنين

9 من ذي القعـــدة سنة 1404هـ

الموافق 6 من أغسطس سنة 1984م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذي وصف نفسه في كتابه، وعلى ألسنة رسله، فهدانا وعلمنا، وشرح صدور أهل الإيمان إلى توحيده وعبادته وتقديسه، فشهدوا شهادة الحق أن الله إله واحد سبحانه، كما قال عز وجل {شهدَ اللهُ أنَّه لا إلهَ إلا هوَ والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسطِ لا إلهَ إلا هوَ العزيزُ الحكيمُ} (آل عمران:18).

أحمده سبحانه، وأستعينه وأستغفره، وأسأله أن يجعلني أحد أولئك الذين شهدوا له بالوحدانية، وأصلي وأسلم على عبده ورسوله، محمد الداعي إلى سبيل ربه على بصيرة، الذي وصف ربه بما أوحي إليه، فأقام، للناس دينهم الحق، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه، ومن سار على نهجه القويم إلى يوم الدين.

وبعد:

فالحركة الصوفية حركة قديمة، نشأت في منتصف القرن الثاني الهجري، وبلغت قمتها العقائدية في أواخر القرن الثالث، أي بعد مرور مئة وخمسين سنة تقريباً على نشأتها. وأصبحت عقيدة عامة، وديناً عاماً لعموم المسلمين إلا قليلاً في القرون التاسع والعاشر والحادي عشر، وكانت هذه القرون قرون ظلام وجهل، أفاق العالم الإسلامي بعدها على الغزو الأوربي لأراضيه. وكان العالم الإسلامي في ذلك الوقت في حالة بلغت منتهى السوء، فإن كثيراً من علماء المسلمين لم يجدوا ما يجابهون به الفاتحين من الفرنسيين إلا أن يقرؤوا كتاب البخاري!! وكان ذلك في القاهرة وفي الأزهر ثم اصطحاب نابليون وإلباسه جبة المشيخة، وإدخاله في حلقة من حلقات الذكر!!.

وأما في المغرب فإن أتباع الشيخ أحمد التجاني كان لهم شرف خدمة الفرنسيين في ترسيخ أقدامهم في شمال أفريقيا وغربها، وأما في السودان فإن السيد الميرغني والطريقة الختمية قد وطأت الناس لدخول الإنجليز، والقضاء على الثورة المهدية.

وهذه الحركة الصوفية ما زالت تعيش إلى يومنا هذا، بل هي في حالة بعث جديد تقوم عليه اليوم مراكز تعليمية كبيرة في بلاد الغرب وفي بلادنا الإسلامية، وهناك حركة نشطة لبعث التراث

الصوفي، ليكون دعامة لبعث إسلامي في زعم القائمين على نشـر هذا الفكر.

ولقد كانت صلتي بدراسة التصوف قديمة، وذلك للموقف المتناقض الذي وقفه كثير من الباحثين والعلمـاء من هـذه الحركـة الصـوفية، ومن فكرها الذي نشأ عنها، وكذلك للاختلاف الشديد حـول رجالهـا، فكم من رجل من رجال التصـوف اتهمـه أنـاس بالزندقـة والإلحـاد، ووصـفه آخـرون بالقديسـية والقطبيـة والغوثيـة. ولقـد كـان هـذا التنـاقض والاختلاف في موقـف علمـاء الإسـلام إزاء هـذه الحركـة، وهذا الفكر باعثاً لي على النظر والتفكير والبحث.

فمكثت مدة طويلـة أجمـع القـول إلى القـول، وأقـف عنـد العبـارة الغامضة طويلاً، وأفسر كلام القـوم بعضـه ببعض. وأظن أنـني الآن بحول الله قد عرفت مغاليق هذا الفكر، ومساربه الخفيـة، ولم يكن هذا الأمر سهلاً قط، بل يعلم الله أنني تحملت فيـه كثـيراً من الآلام النفسية المرهقـة، وذلـك أن أسـاطين القـوم قـد مارسـوا تشـويهاً لكتاب الله عز وجل، وقلباً لمفاهيم السنة الصحيحة، لا يحيط بـه إلا الله، ولا يطيق الوقوف عليه مسلم جاد!!

ولقد تجشمت مشقة ذلك لعلمي بعد الدراسة والجهد أن هذا الفكر هو أخطر مـا يجابـه المسـلمين في الـوقت الحاضـر من مشـكلات، فمشكلة الفكر الصوفي مشكلة عقائدية، والمشـاكل العقائديـة هي أخطر ما تقابله الأمـة، فالأمـة يتحـول عملهـا كلـه بتحـول عقيـدتها، فالتتر عندما أسلموا حقيقة، تركـوا حـرب المسـلمين، والمسـلمون عندما تركوا الإسلام، وعقيدة الجهاد رضوا بالمسـتعمرين، وتخلقـوا بأخلاقهم، وتثقفوا بثقافتهم.

وهـذا الكتـاب الـذي بين يـديك أيهـا القـارئ هـو بحث في العقيـدة الصوفية: ما هي؟ وما الغاية الـتي تسـعى المتصـوفة إلى غرسـها؟ وما الفروق بين هذه العقيدة وعقيـدة أهـل السـنة؟ وهـذه العقيـدة أنقلها لـك بنصوصـها من الكتب والمراجـع الصـوفية، الـتي يعتبرهـا المتصـوفة من أنقى كتبهم وأشـهرها، كـاللمع للطوسـي، والتعـرف على مذهب أهل التصوف للكلابـاذي، وطبقـات الصـوفية للسـلمي، وغير ذلك من الكتب التي كتبت بأقلام رجال التصوف بأنفسهم.

وسـتعلم من هـذه الدراسـة أن التصـوف عقيـدة فلسـفية قديمـة، نشـأت قبـل الإسـلام في الفلسـفة الاستشـراقية المنسـوبة إلى

(أفلوطين). والفلسفة الهندية القديمة، والتي ما زالت عقيدة الهنـد إلى اليوم، وهي القول بوحـدة الوجـود، وهـذه العقيـدة هي عقيـدة كثير من شعراء الفرس قبـل الإسـلام، وبعـد الإسـلام كجلال الـدين الرومي.

وهذا يعني أن التصوف غير الزهد المعروف في العقيدة الإسـلامية، فالزهد شيء، والتصوف شيء آخر، يختلف عنـه كـل الاختلاف، بـل هنـاك فـرق بين الزهـد في عقيـدة الكتـاب والسـنة، والزهـد في العقيـدة الصـوفية. فالتصـوف فلسـفة كاملـة، وعقيـدة غايتهـا فتح القلب على علـوم غيبيـة، لا تتلقى عن الرسـل، بـل تتلقى بطريـق (الكشـف) عن اللـه رأسـاً، أو عن الرسـول (حسـب زعمهم). ثم التحقق بعد ذلك أن لا موجود في الكون إلا الله، وبذلك يصبح العبد هو الـرب، والـرب هـو العبـد، بـل الكـل شـيء واحـد في الحقيقـة، متفرّق في الصور فقط!! وطريـق الوصـول إلى هـذا العلم الغيـبي (الكشف هو المجاهدة بصور كثيرة). وتختلف هذه الصـور بـاختلاف الزمان والمكان، والأشخاص والديانات!! ويجمعها أمـور واحـدة هي تعذيب النفس، وترديد أذكار معينة، والعزلة وترك الطهارات.

ولا يعـني هـذا أن كـل رجـل نسـب إلى التصـوف كـان يعتقـد هـذه العقيدة، بل من وصل الغايـة منهم وصـل إلى هـذا، ومن لم يعـرف التصوف لم يصل إلى هذه الغاية، ووقـف عنـد مرحلـة من مراحـل الطريـق الصـوفي، الـذي ينتهي بتلـك النهايـة. فـالطريق الصـوفي مراحل، وكلام كل إنسان فيه يدل على المرحلة التي انتهى إليها.

والجـوانب الـتي يجب أن يتعـرض لهـا بحث كامـل عن التصـوف جوانب كثيرة، لا يسعها هذا البحث، ولذلك فقد اقتصرت في البحث الذي بين يدي القـارئ الآن على بحث الجـانب العقائـدي فقـط في الفكر الصوفي، جواباً عن سؤال هام: ما هو التصوف؟ وما العقيـدة التي ينتهي إليها؟ وما موقف هذا الفكر من قضية الكتـاب والسـنة؟ وأسأل الله أن يوفقني قريباً إلى إخراج هـذا البحث كـاملاً، معالجـاً جميع القضايا التي أثارها هذا الفكر في العبادات والسـلوك وتزكيـة النفس، ثم الآثـار السياسـية والاجتماعيـة لهـذا الفكـر، مـع تعريـف برجالاته، منذ ظهوره إلى يومنا هـذا، سـائلاً اللـه تبـارك وتعـالى أن يجعل في هذه الرسالة الميسرة هداية ونوراً لأبناء أمتي الإسلامية، الذين يعزهم الطريق المستقيم إلى رب العالمين سـبحانه وتعـالى،

في وقت تختلط فيه السبل، وعلى كل سـبيل شـيطان يـدعو إليـه، وأسأله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

عبدالرحمن عبدالخالق يوسف

الكويت في غرة جمادي الآخرة لـ 1394

21 يونيـــــــــــو 1974

الباب الأول

الكتاب والسنة عقيدة ومنهجا

أ- الكتاب والسنة عقيدة

1- بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في عصر قـد انطمسـت فيه معالم الإيمان بالحق تبارك وتعالى:

أ- فـالعرب يعتقـدون في وجـود اللـه، وأنـه خـالق الكـون، ومـنزل المطر، ولكن هذا الإله في نظرهم لا يستطيع إحياءهم بعد المـوت، وليست له غاية من خلق الناس غير هـذه الـدنيا الـتي خلقهم فيهـا، فليس هناك قيامة ولا حساب، ثم هو إله كملوك الأرض يتوسل إليه من أجل الـرزق والمطـر، والنصـر على الأعـداء بكـل حـبيب عنـده كالملائكة والصالحين.

ب- وأما النصارى فقد درس دينهم الحـق، ولم يبـق عليـه إلا أفـراد قلائل، وأما الكثرة الغالبة فقد اعتقـدت أن عيسـى هـو اللـه أو ابن الله -تعالى ربنـا عمـا يقولـون- وجعلـوا علمـاءهم ورهبـانهم أربابـاً، ينفذون أقـوالهم في كـل شـيء، ولـو خـالف ذلـك نصـوص الكتـاب عندهم، ورفعوا الصالحين منهم إلى منزلة التقديس والتأليه.

ج- وأما اليهود فقد غالوا في تشـبيه اللـه بخلقـه، ونسـبوا إليـه كـل القبائح التي تنسب إلى البشر من الكذب والبخـل، والغفلـة، وعـدم العلم بالمستقبل.

د- وفي بلاد فارس والهند عاشت فلسفات كثيرة، كل فلسفة تصور معبودها بصورة تروق في عقل قائلها:

- ففلسفة نادت بـإلهين للعـالم: إلـه للنـور وآخـر للظلمـة، وزعمت صراعاً بينهما، ودعت الناس إلى مساعدة إله الخير والنور، بإشعال النيران لينتصر الحق على الباطل.

- وفلسفة نادت بخالق للكون، يجب على الإنسان أن يجاهـد نفسـه بصنوف من المجاهدات حتى يفنى فيه ويلتحق به، ولا تنسـخ روحـه مرة ثانية بعد الموت إلى هذا العالم.

- وفلسفة نادت بالوجود الكلي لذات واحدة، تعددت وجوداتها بتعدد صفاتها، ولهج الشعراء والكتاب من الفرس بحب هـذه الـذات الـتي تتراءى لهم في كل شيء، وتظهر لهم في كل موجود.

هـ- وفي اليونان ظهرت فلسفات كثيرة نادى معظمها بخالق للكون سموه واجباً للوجود أو علة للعلل، عنه نشأ العالم وصدر، ولكن هذه الفلسفة وقفت حائرة عاجزة أمام الغاية والهدف الذي من أجله خلق هذا الخالق الكون، والنهاية التي يسير إليها الناس.

2- وكل هذه الفلسفات السابقة كانت محاولات بشرية لمعرفة الغيب، وما وراء هذا العالم المشاهد، وبديهي أن تنتهي هذه المحاولات البشرية بالإخفاق الذريع، إذ لا سبيل للبشر إلى معرفة الغيب إلا الظن والحدس والتخمين، أو الجن والشياطين.

3- بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ليرشد كل أولئك الحيارى الضالين إلى ربهم وخالقهم سبحانه وتعالى، وليعلمهم الحكمة التي من أجلها خلقهم، والغاية التي إليها يسيرون، والمنهج الذي يحبه الله لعباده ويرضاه لهم.

4- وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس الدليل الكامل على أنه رسول من الله تبارك وتعالى، يأتيه الوحي من السماء، فقال لهم: هذا كلام الله، أقرؤه عليكم، وإن لم تصدقوني فأتوا بسورة واحدة من مثله.

5- وكان على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يواجه كل هذا الركام من الأفكار والعقائد والمذاهب والفلسفات، وأن يقيم الحجة والبرهان على فسادها جميعاً، وصحة ما يدعو هو الناس إليه، وكانت المعركة عقائدية.

6- وتركزت هذه الحرب حول أصلين اثنين يتفرع عنهما فروع كثيرة:

أ- فالأصل الأول هو توحيد الله وحده، وهذا يعني أنه الإله الخالق وحده، المعبود وحده، الذي لا يشاركه في صفاته وأفعاله أحد سبحانه وتعالى، والذي يتصف بكل صفات الكمال والجمال والجلال، وينتفي عنه أضداد ذلك.

ب- والأصل الثاني هو توحيد الطريق إليه، فلا يحكم في شؤون الناس غيره، ولا يتقرب إليه بما شرع هو سبحانه وتعالى، وكان هذا هو معنى "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" فلا إله إلا الله: الأصل الأول، ومحمد رسول الله: الأصل الثاني.

7- ولقد نُوزع رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين الأصلين:

أ- فأما المشركون من العرب فقالوا: {أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنَّ هذا لشيءٌ عُجابٌ} (الزمر:3) وقالوا عن آلهتهم: {ما نعبُدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زُلفى} (الزمر:3) وقالوا: {هؤلاءِ شُفعاؤُنا عندَ اللهِ} (يونس:18).

وكان رد الله تبارك وتعالى: قل: {لَو كانَ فيهما ءالهَةٌ إلا اللهُ لفسدَتا} (الأنبياء:22)، {قُل للهِ الشَّفاعَة جميعاً} (الزمر:44).

وعن الأصل الثاني: قال تعالى هادماً تشريعاتهم الباطلة في الحلال والحرام والتقرب: {أم لهم شركاؤا شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله} (الشورى:21).

ب و ج- وأما اليهود والنصارى فزعمت كل طائفة أن طريقها هو الصواب، وأن معبودها هو الحق، وأن الجنة خالصة لهم من دون الناس، فكان رد الله تبارك وتعالى: {قل إن هدى الله هو الهدى} (البقرة:120)، {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} (آل عمران:31).

والقرآن كله بيان لجهاد الرسول صلى الله عليه وسلم مع هذه الطوائف الثلاث في شأن هذين الأصلين.

8- وآمن بالرسول صلى الله عليه وسلم رجال أخلصوا دينهم لله، فأحبوه وآثروه على كل شيء، وأحبوا رسوله صلى الله عليه وسلم، وافتدوه بأرواحهم وأنفسهم، وبذلوا الجهد في متابعته وطاعته، وفي تنزيه الله وتقديسه وعبادته، وتحققوا بهذين الأصلين، وقاموا بها خير قيام حتى أثنى عليهم الحق سبحانه وتعالى في آيات كثيرة من كتابه. من ذلك قوله جل وعلا:

{محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود}..الآية (الفتح:29)، فرضي عنهم سبحانه ورضوا عنه، وعرفوه حق معرفته، وقاموا بدينه خير قيام.

وأثنى عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم فقال: [خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم] (رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود، وغيرهم عن غيره)، وشهد لأفراد منهم بالجنة والفضل، وكان من هؤلاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه، الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : [وزنت بالأمة فرجحت، ووزن أبو بكر بالأمة -لست فيها- فرجح، ووزن عمر بالأمة -لست

فيها وأبو بكر- فرجح] (رواه أحمد (2/76) بنحوه وإسناد ضعيف، فيه عبيد الله بن مروان أورده ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل-5/334) ولم يحك فيه جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في الثقات، وفيه أيضاً أبو عائشة أورده صاحب (الجرح والتعديل-9/417) ولم يحك فيه كذلك جرحاً ولا تعديلاً، وعلى هذا فهما مجهولان وباقي رجاله ثقات. وروى أحمد (5/44 و 50) وأبو داود (4634) والترمذي (2389-تحفة) وصححه، كلهم عن أبي بكرة أن أحد الصحابة رأى في منامه أن ميزاناً دلي من السماء، فوزن به النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، فرجح النبي صلى الله عليه وسلم، ثم وزن به أبو بكر وعمر، فرجح أبو بكر، ثم وزن عمر وعثمان، فرجح عمر، ثم رفع الميزان. وقد قواه أستاذنا الألباني في (تخريج المشكاة-3/233) بطريقيه).

وقال: [لو كان نبي بعدي لكان عمر] (رواه بنحوه أحمد (4/154) والترمذي (2/293) وحسنه والحاكم (3/85) وصححه وغيرهم، كلهم عن عقبة بن عامر مرفوعاً، وحسنه أستاذنا الألباني في (السلسلة الصحيحة-327) وفي (صحيح الجامع-5160))، وقال لبلال: [إني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة] (رواه البخاري (3/376)-من الفتح) وأحمد (2/333 و439) عن أبي هريرة، ولفظ البخاري: قال النبي صلى الله عليه وسلم لبلال عند صلاة الفجر: [يا بلال، حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة] قال: ما عملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهر طهوراً في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي. ودف النعل هو صوت حركتها الخفيف وسيرها اللين)، ونحو ذلك كثير جداً.

9- ومع ذلك فقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم طيلة حياته على بقاء أصلي التوحيد "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" نقيين صافيين، فما كان يسمح بتاتاً يخدش هذين الأصلين، ولو من أحب الناس لديه وآثرهم عنده صلى الله عليه وسلم.

ومن الأدلة على ذلك:

أ- أنه رأى يوماً بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورقة من التوراة، وكان عمر قد أعجبه ما فيها، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً، وقال لعمر: [أهذا وأنا بين أظهركم، لقد جئتكم بها بيضاء نقية.. والله لو كان موسى حياً لما وسعه إلا أن

يتبعني] (رواه بنحوه الإمام أحمد في مسنده (3/387) والبيهقي في شعب الإيمان، والدارمي(1/115-116) بأتم منه، قال أستاذنا الألباني في (تخريج المشكاة-1/63): "وفيه مجالد بن سعيد، وفيه ضعف، ولكن الحديث حسن عندي لأن له طرقاً كثيرة عند اللالكائي والهروي وغيرهما، وقد خرجت بعضها في (الإرواء-1589)")، وفي هذا الحديث من الفقه:

أولا: أن الرسول صلى الله عليه وسلم تعجب أن يبدأ الاهتداء بغير الكتاب والسنة وهو ما زال حياً. ومن مقتضى الإيمان بالكتاب والسنة أن يعتقد أن الهدي فيهما وحدهما.

وثانيا: أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء بالدين نقياً خالصاً، لم تشبه شائبة من تغيير أو تبديل أو تحريف، والصحابة يتلقونه غضاً طرياً خالصاً، فكيف ينصرفون عنه ويهتدون بما شابه التحريف والتبديل والزيادة والنقص.

وثالثا: أن موسى عليه السلام نفسه الذي نزلت عليه التوراة لو أنه حي موجود لكان اللازم في حقه هو متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وترك شريعته التي بلغها للناس.

وهذا الحديث أصل في بيان منهج الكتاب والسنة، وأنه لا يجوز لأحد أن يهتدي بعلم يقرب إلى الله، ويصلح النفس غير الذي بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لو كان أصله من شريعة منزلة علي أحد الأنبياء السابقين.

ب- والدليل الثاني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع خطيباً يخطب بين يديه فكان مما قاله: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : [بئس خطيب القوم أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله فقد غوى] (رواه مسلم (6/159-بشرح النووي) وأحمد (4/256 و 379).

فهذا الخطيب قد قاطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبَّح قوله أمام الناس، والسبب أنه جمع بين الله ورسوله في ضمير واحد [ومن يعصهما] فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يعيد ذكر الإسم الظاهر لله ولرسوله، حتى لا يُظن ولو من بعيد أن منزلة الرسول كمنزلة الله عز وجل. وهذا الحرص من الرسول صلى الله عليه وسلم دليل على وجوب صون جناب توحيد الله

تبارك وتعالى صوناً كاملاً، ووجوب التفريــق التــام بين مــا يجب للــه عز وجل، وما يجب لرسوله صلى الله عليه وسلم.

ج- والدليل الثالث أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه، وكــان من خيار الصحابة، لما تــوفي، وحضـر عنـده الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم سمع الصـحابية الجليلـة أم العلاء تقـول: شـهادتي عليـك أبـا السائب أن الله قد أكرمك.. فرد الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم قائلاً: [وما يدريك أن الله قد أكرمه؟] وكـان هـذا تنبيهـاً عظيمـاً من الرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم لهـذه الصـحابية بأنهـا قـد حكمت بحكم غيـبي، وهـذا لا يجـوز، لأنـه لا يطلـع على الغيب إلا اللـه عـز وجل، ولكنها ردت قائلة: سبحان الله يـا رسـول اللـه!! ومن يكـرم الله إذا لم يكرمـه؟ أي إذا لم يكن عثمـان بن مظعـون رضـي اللـه عنه ممن يكرمهم الله تبارك وتعالى فمن بقي منا حتى يكرمه اللـه تبارك وتعالى.

وهذا رد في غاية البلاغة والفهم. ولكن رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم رد عليهـا بمـا هـو أبلـغ من ذلـك حيث قـال لهـا: [واللـه إني لرسـول اللـه لا أدري مـا يفعـل بي غـداً] وكـان هـذا نهايـة الأمـر وحسمه، فالرسول بنفسه وهو من هو صـلوات اللـه وسـلامه عليـه يجب أن يظل خائفاً مترقباً (يحذر الآخـرة ويرجـو رحمـة ربـه) وهنـا وصلت أم العلاء إلى الحقيقـة الشـرعية العظيمـة فقـالت: واللـه لا أزكي بعــده أحــداً أبــداً (رواه البخــاري (3/358 و6/223 و224 و8/266 و6/49 و69-من الفتح) وأحمـــــــد (6/436) عن أم العلاء الأنصارية بنحوه).

وهذا الأصل مقرر في الشريعة في آيات وأحاديث كثيرة، منها قوله تبارك وتعالى: {ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً* انظر كيف يفترون على الله الكـذب وكفى به إثما مبينـا} (النسـاء:49 و50) ومنهـا قولـه: {ليس بأمـانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد لـه من دون اللـه وليا ولا نصـيرا} (النسـاء:123)، وكـان هـذا رداً على اليهـود الـذين قــالوا: نحن أهــل الجنــة، ونحن شــعب اللــه المختــار، ورداً على النصـارى الـذين قـالوا: بـل نحن أهـل الجنـة، لأننـا أتبـاع ابن اللـه المخلص للبشــر من خطــيئتهم، ورد أيضــاً على المســلمين الــذين قالوا: بل نحن أهل الجنـة لأننـا أتبـاع رسـوله محمـد خـاتم الرسـل والموحدين، فأخبر تعالى أن الجنـة ليسـت بالأمـاني، وإنمـا بالعمـل

الصالح، وأن من عمل سوءاً يجز به، ولا تنفعه نسبته وروي في الحديث: [من قال أنا في الجنة فهو النار] (فيه إشارة إلى ضعفه، وقد أورده الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة ص423 ضمن الحديث على حديث: [من قال: أنا مؤمن فهو كافر، ومن قال: أنا عالم فهو جاهل] وعزاه إلى (المعجم الصغير للطبراني عن يحيى بن أبي كثير) وقال: وسنده ضعيف، وهو عند الديلمي في مسنده عن جابر بسند ضعيف جداً، ورواه الحارث بن أبي أسامة من جهة قتادة عن عمر بن الخطاب موقوفاً عليه، وهو منقطع).

د- والدليل الرابع أن رجلاً جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له: ما شاء الله وشئت فقال له صلى الله عليه وسلم : [أجعلتني لله نداً؟ قل ما شاء الله وحده] (رواه أحمد (1/214 و 224 و283 و347) والبخاري في (الأدب المفرد-783) وغيرهما، وأورده أستاذنا الألباني في (السلسلة الصحيحة-138) وعزاه إلى مخرجيه وحسنه)، فجعل صلى الله عليه وسلم المشيئة لله وحده، حتى يُعلّم المؤمنين أن لا مشيئة لأحد مع مشيئة الله تبارك وتعالى.

هـ- وأما الدليل الخامس فهو أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم مروا في أثناء خروجهم إلى هوازن بعد فتح مكة على شجرة، كان المشركون يعلقون عليها سيوفهم، ظانين أنه من فعل ذلك حالفه النصر في معاركه مع العدو، فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. أي شجرة ينوطون بها أسلحتهم. فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: [قلتم والذي نفسي بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى: {اجعل لنا إلهاً كما لهم ءَالِهَةٌ..} (رواه الإمام أحمد في مسنده (5/218) والترمذي في (سننه–6/407 و 408-تحفة) وقال: حديث حسن صحيح، قلت: وإسناده صحيح كما قال، ورجاله رجال الستة غير سنان بن أبي سنان فلم يرو له أبو داود وابن ماجة)، فبين صلى الله عليه وسلم أن هذا من عمل المشركين، وأن مشابهتهم في هذا شرك بالله تبارك وتعالى، إذ طلب البركة والنصر من غير الله عز وجل شرك به تعالى.

10- والأدلة السابقة كلها لبيان أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان ليسمح بتاتاً بخدش الأصل الأصيل في الإسلام، وهو توحيد الله عز وجل، والقول عليه بلا علم. وأخذ الهداية من غيره سبحانه وتعالى، وغير رسوله صلى الله عليه وسلم.

11- وقد سدَّ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه باب العرافة والكهانة وادعاء علم الغيب، وأخبر صلى الله عليه وسلم أن مدعي ذلك كافر، وأن من صدَّق عرافاً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن العرافين فقال: [ليسوا بشيء] هكذا بنفي قيمتهم وتحقيرهم، فقال له أصحابه رضوان الله عليهم: ولكنهم يخبروننا أحياناً بالأمر، فيكون كما قالوا، فأخبرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن الشياطين تركب بعضها بعضاً وتصل إلى العنان، وتسمع الملائكة تتكلم بالأمر من أمر الله تعالى، فيتعلمونه منهم، فيرسل الله عليهم الشهب، فيلحقهم الشهاب أحياناً فيحرقهم، وأحياناً يلقون الكلمة إلى من هو أسفل منهم قبل الشهاب، فيكذب الشيطان مع هذه الكلمة مئة كذبة، فلذلك يصدق أولياء الشياطين من الإنس مرة، ولكنهم يكذبون كثيراً (رواه مسلم في (صحيحه 14/225-نووي) ولفظه: قالت عائشة: سأل أناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكهان، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ليسوا بشيء]. قالوا : يا رسول الله، فإنهم يحدثون أحياناً الشيء يكون حقاً؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مئة كذبة]، وأما صعود الشياطين إلى السماء لاستراق السمع، وقذفهم بالشهب فقد ورد في حديث آخر رواه البخاري في عدة مواضع من صحيحه، منها كتاب التفسير (9/452-فتح) عن أبي هريرة، وعزاه ابن كثير إلى أبي داود والترمذي وابن ماجة أيضاً. كما ورد مثله في حديث رواه مسلم في صحيحه (7/36 و 37-نووي) وأحمد وغيرهما عن ابن عباس عن رجل من الأنصار).

12- ولما شك الصحابة في (ابن صياد اليهودي) الذي كان يسكن المدينة، وظنوه الدجال الذي حدث عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذ الرسول معه جماعة وزاره في منزله قال له الرسول مختبراً: [لقد خبأت لك خبئاً..].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أضمر في نفسه (سورة الدخان) فسأله الرسول عما في نفسه، فقال عدو الله :(هو الدخ) ولم يستطع أن يكمل الكلمة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: [اخسأ فلن تعدو قدرك]. أي لن تتعدى كونك كاهناً تتصل بالجن. ولذلك قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم [كيف ترى؟] قال: يأتيني أحياناً صادق وكاذب. أي تأتيه أخبار من

الشيطان صادقة أحياناً، وكاذبة أخرى، فقال رسول الله: [لقد لُبِّس عليه] (رواه بنحوه مطولاً البخاري (3/462 و6/512 و13/180-من الفتح) ومسلم (17/46 و58-بشرح النووي) وغيرهما).

وفي هـذا الحـديث دليـل على أن الشـيطان من الممكن أن يطلـع على ما في نفس المؤمن، ويخبر وليه من الإنس، وأننا مأمورون ألا نصدق من الغيب إلا ما أتانـا من طريـق اللـه، ومن طريـق رسـوله صلى الله عليه وسلم فقط.

وكل هذه الأدلة التي ذكرناها، وغيرهـا لا يحصـى، إنمـا كـانت لتثبت الجانب العقائدي الإيماني في دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبيان أن العقيدة والإيمان بالغيب مصدره الله تبارك وتعـالى، وأنـه لا يجوز لمسلم بتاتاً أن يتخذ طريقاً آخر للغيب يتلقى عنـه، وأن من فعل ذلك فقد خرج من الإيمان بالله تعالى.

ب- الكتاب والسنة منهجاً

للتشريع ميادين كثيرة منها العبادات، والمعاملات، والسياسة وأمور المعـاش والحيـاة، وبـاب الاجتهـاد مفتـوح فيهـا جميعـاً إلا العبـادات فليس فيها اجتهاد، فكل ما يتقـرب بـه إلى اللـه تبـارك وتعـالى من أعمال يجب الوقوف فيها عند الحد المشروع، ولم يسـمح الرسـول صلى الله عليه وسلم لأحد أن يزيد على ما قـال فيهـا، أو أن يبـدل شـيئاً منهـا. وهـاك بعض الأدلـة الـتي تثبت هـذا الأصـل من أصـول الإيمان:

أ- رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يمشـي في الحج بين رجلين يسندانه فقال صلى الله عليه وسلم: [مـا هـذا؟] فقـالوا: يـا رسول الله نذر أن يحج ماشياً. فقـال صـلى اللـه عليـه وسـلم: [إن الله عن تعـذيب هـذا نفسـه لغـني!! مـروه فلـيركب] (رواه بنحـوه البخـاري (4/450 و451-فتح) ومسـلم (11/102 و103) وغيرهمـا عن أنس) فنهى صلى الله عليه وسلم عن فعل لم يشرعه الله عز وجل، وإن كان فاعله قاصداً به التعبد والتقرب إلى الله عز وجل.

ب- ورأى رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم رجلاً آخـر يجلس في الشمس فسأل عنه، فقالوا: يا رسول الله نذر أن يصـوم، ولا يتكلم ويجلس في الشـمس فقـال صـلوات وسـلامه عليـه: [ليتم صـومه، وليتكلم وليجلس في الظـــل] (رواه بنحـــوه البخـــاري (12/401 و 412) وأبو داود (3300) وغيرهمـا عن ابن عبـاس) فـأقره رسـول

الله صلى الله عليه وسلم على الصوم الشـرعي فقـط، ونهـاه عن الصوم المبتدع وهو السكوت. وإن كان مشروعاً في شريعة سابقة كمـا في قصـة زكريـا وقـول مـريم عليهمـا السـلام: {إني نـذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً} (مـريم:26)، ولكن اللـه عـز وجل لم يتعبدنا بهـذه الشـريعة وأمـره بـأن يتحـول إلى الظـل، لأن الجلوس في الشمس مع وجود الظـل تكلـف سـخيف، وخـروج عن جادة الحق، وعبادة لم يشرعها الله سبحانه وتعالى.

ج- وأبلغ من الدليلين السابقين حديث عبدالله بن عمرو بن العـاص أن أباه شكاه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه زوجـه امـرأة من أشراف العـرب، ومكث يسـألها كـل يـوم: كيـف رأيت زوجـك؟ فقالت: صالحاً غير أنـه لم يطـأ لنـا فراشـاً.. وذلـك لخمس عشـرة ليلة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن عمـرو بن العاص: [بلغني أنك تصوم النهار وتقوم الليل]، فقال: نعم يا رسول الله. ثم قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: [صم من كل شـهر ثلاثـة أيـام] فقـال: يـا رسـول اللـه! قـال صـلى اللـه عليـه وسـلم: [خمساً]. قال: يا رسول الله! قال: [سـبعاً]. قـال: يـا رسـول اللـه! قال: [تسـعاً]، ثم قـال لـه في النهايـة: [صـم صـيام أخي داود كـان يصوم يوماً، ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى] (هذا الحديث مـركب من روايتين رواهما مسلم في صـحيحه (8/44-47 نـووي) بنحـوه، كمـا روى نحوه البخاري (5/124 فتح)).

وفي هـذا الحـديث من الفقـه أن منهج الإسـلام هـو الإعتـدال بين حاجات الإنسان كلها فيعطي الإنسان حق ربه، ولا ينسى في سبيل ذلـك حـق زوجـه ونفسـه، وعينـه وقوتـه. ولـذلك جـاء في الحـديث الصحيح: [إن لربك عليك حقاً، ولزوجك عليك حقـاً، فأعـط كـل ذي حـق حقـه] (رواه البخـاري (5/114 فتح) في قصـة سـلمان وأبي الدرداء، وفيه أن المتكلم بهذا هو سلمان، وقـد صـدق النـبي صـلى الله عليه وسلم كلامه هذا. وفي قصة ابن عمرو الجملتـان الأوليـان منه مرفوعتين).

وهنـا لفظـه في الحـديث يجب أن نقـف عنـدها طـويلاً، وهي أن المسلم لا يجوز أن يصوم صوماً يضعفه حـتى إنـه ليفـر من العـدو، ولذلك قال الرسول لعبد الله: [فصم صيام داود كـان يصـوم يومـاً، ويفطـر يومـاً، ولا يفـر إذا لاقى] وهـذه القـوة البدنيـة للقـاء العـدو مطلوبـة في الإسـلام، لأن الجهـاد هـو من أعلى مـراتب الإسـلام.

فالذين يميتون قواهم بالتعبد ولو كان أصله مشـروعاً، ويطغى هـذا على جانب آخر من العبادة فإنهم مفرطون بهذا الفعل، عاصون لله تبارك وتعالى من جهة أخرى.

د- وفي الحديث الصحيح الآخر أن رجلاً سأل رسول الله صلى اللـه عليه وسلم عن صومه، فغضب رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم غضبـاً شـديداً، وجلس عمـر بن الخطـاب يقـول: رضـينا باللـه ربـاً وبالإسلام ديناً حتى سكن غضب النبي صلى الله عليه وســلم (رواه مسلم (1/49-51) عن أبي قتادة الأنصاري رضي اللـه عنـه بنحـوه مطولاً)، وسر غضبه صلوات الله وسلامه عليه أن هذا السـائل أراد أن يضـاهي فعـل الرسـول في هـذه العبـادة الـتي كـان لـه فيهـا خصوصية، وهي أنـه يواصـل اليـوم واليـومين والثلاثـة وكـان يُسـأل صلى الله عليه وسلم عن ذلـك فيقـول: [لسـت كهـيئتكم إني أبيت عند ربي يطعمني ويسـقيني] (رواه مسـلم (7/212 و215) بنحـوه عن أبي هريرة وعائشة وأنس رضي الله عنهم).

هـ- وأبلغ هذه الأدلة كلها في مسـألة التعبـد والتقـرب، أنـه لا يجـوز فيه إلا اتباع المشـروع، والتقيـد بالكتـاب والسـنة هـو حـديث النفـر الثلاثة الذين أتوا إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم، فسألوا عن عبادته، فلمـا أخـبروا كـأنهم تقالوهـا، فقـال أحـدهم: وأين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم! إن الله قد غفر له مـا تقـدم من ذنبه وما تأخر. أما أنا فأقوم ولا أنام، وقال الآخر: أما أنا فأصـوم ولا أفطر، وقال الثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء. فلما رجع رسول اللـه صلى الله عليه وسلم وأخبر خبرهم صعد المنـبر، وجمـع النـاس ثم قال: [ما بال أقوام يقولون كذا.. أما إن أعلمكم بالله، وأتقـاكم للـه أنا، أما إني لأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النسـاء، فمن رغب عن سنتي فليس مني] (رواه البخاري ومسلم عن أنس رضي اللـه عنه وليس فيه صعود المنبر وجمع الناس).

وفي هذا الحديث من الفقه شيء كثير ويهمنا الآن ما نحن بصـدده، وهو أن أي تجاوز فيما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في العبادات التي يتقرب بها إلى الله عـز وجـل، فمعـنى ذلـك الخـروج من منهج الإسلام إلى منهج آخـر حـتى ولـو صـلحت النيـات، وأريـد بذلك وجه الله عز وجل، فـإن الـرب تبـارك وتعـالى لا يُعبـد إلا بمـا شرع.

وأمر آخر وهو أن تجاوز فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، سواءً كان بتشريع جديد كالترهُّب، أو الزيادة في المشروع كالصيام أبداً، وقيام الليل كله هو اتهام للرسول صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن في القمة من معرفة الله تبارك وتعالى، والقيام بحقه. ولذلك قال أولئك النفر: وأين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ إنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يعنون أن الله قد غفر ذنوبه، فليس بمحتاج إلى اجتهاد في العبادة، ومعنى هذا أن الرسول قد ترك شيئاً من وسعه في العبادة استناداً إلى هذه المغفرة، والحظوة عند الله تبارك وتعالى، وهذا من الاعتقادات التي لا تليق في حق الرسول صلى الله عليه وسلم الذي ما ترك وسعاً في عبادة الله وطاعته، وكان صلى الله عليه وسلم في القمة دائماً، وفي المقدمة دائماً كما أمره بذلك ربنا سبحانه وتعالى حيث قال: {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين* لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين} (الأنعام: 162و163)، فهو صلى الله عليه وسلم أول المسلمين في كل شيء، فلا يجوز لمسلم أن يظن فيه غير ذلك، والزيادة علي ما شرعه إنما هي اتهام له صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال: [إن أعلمكم بالله، وأتقاكم لله أنا] ثم فاصل بين من أراد طريقه بالالتزام، ومن لم يلتزم قال له [فمن رغب عن سنتي فليس مني].

16- ولم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم ببيان كل ذلك، بل أعلن في كل خطبة من خطبه للناس : [وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار] (هاتان الجملتان جزء من خطبة الحاجة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبدأ بها خطبه، والجملة الأولى عند مسلم والبيهقي، وهي الجملة الثانية عند النسائي، وإسناده صحيح، وانظر رسالة (خطبة الحاجة) لأستاذنا الألباني فقد جمع فيها طرقها ورواياتها)، وقال أيضاً : [من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد] (رواه البخاري ومسلم) فكل عمل محدث يراد له التقرب إلى الله عز وجل فهو مردود على صاحبه، والتعبد هو بالمشروع فقط.

17- ولقد أصل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أصلاً خطيراً، وهو تعمد مخالفة أهل الكتاب والأمم الأخرى، وذلك حتى تتحقق ميزة الأمة بالمنهج المستقل والأفعال المستقلة، وحتى لا تختلط أفعال الأمة وعباداتها بأفعال الأمم الأخرى وعباداتها، فأمر

أن نصلي بالنعال والخفاف مع العلم أن خلعها أتم لمعاني الخضـوع والذلة، وذلك مخالفة لليهود والنصارى الذين لا يصلون في خفـافهم ونعالهم. فقال: [إن أهـل الكتـاب لا يصـلون في خفـافهم ونعـالهم، فصلوا في خفـافكم ونعـالكم] (رواه أبـو داود (652) عن شـداد بن أوس، وإسناده صحيح، ولفظه: [خالفوا اليهود، فإنهم لا يصـلون في نعالهم ولا خفافهم] وصححه الألباني في (صـحيح الجـامع-3205) و (تخريج المشكاة-765)).

ولهذا الأصل أدلة وشواهد لا تحصى كثرة (من أجمع الكتب المؤلفة في ذلك كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم) لشيخ الإسلام ابن تيمية والفصـل الخـاص بحرمـة التشـبه بالكفـار من (حجـاب المـرأة المسلمة) للألبـاني)، والمـراد هنـا التنبيـه على أن الأمـة الإسـلامية يجب أن تكـون أمـة مسـتقلة في كـل شـيء: المنهج والعبـادة، والسلوك والآداب والعبادات، وحتى اللباس والمظاهر والعادات.

18- وأرجـو أن أكـون بهـذه المقدمـة قـد أوضـحت جانبـاً من هـذه القضية: قضـية الالـتزام بالكتـاب والسـنة عقيـدة وعبـادة، وسـلوكاً وآداباً بالمشروع فقط.

الصحابة رضوان الله عليهم والأصلان السابقان:

19- فهم الصـحابة رضـوان اللـه عليهم هـذا الأصـل الأصـيل لأنـه مقتضـى قـولهم "لا إلـه إلا اللـه محمـد رسـول اللـه" فـاتبعوا هـذا الأصل، وكانوا حراساً له، فما شاهدوا انحرافاً ولو يسيراً إلا شـددوا نكيرهم على فاعليه، وبتروه من أصله. ومن أكـبر الأدلـة على ذلـك أن عبدالله بن مسعود رضي اللـه عنـه دخـل المسـجد في الكوفـة فرأى حلقاً، وفي وسط كل حلقـة كومـاً من الحصـى، ورجـل قـائم على كل حلقة يقول لهم: سبحوا مئة فيسـبحون مئـة. احمـدوا مئـة فيحمدون مئة، كـبروا مئـة، فيكـبرون مئـة؛ فقـال لهم ابن مسـعود رضي الله عنه: يـا قـوم! واللـه لأنتم على ملـة هي أهـدى من ملـة رسول صلى الله عليه وسلم أو مقتحموا باب ضلالة (رواه الدارمي (1/68) بتمامه مـع بعض اختلاف، وإسـناده جيـد، وصـححه أسـتاذنا الألباني في رسالة (الرد على التعقب الحثيث ص45))، وهذه قضية منطقية سليمة، فهؤلاء إما أن يكونوا أهدى من الرسول صلى اللـه عليه وسلم، لأنهم قد وفقوا لعمـل لم يصـل إليـه علم رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم، وإمـا أن يكونـوا في ضـلالة، والفـرض الأول منتف حتمـاً، لأنـه لا أحـد أفضـل من رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه

وسلم، فلم يبق إلا الفرض الآخر، وهو أنهم قد اقتحموا باب ضلالة، فقالوا: والله يا أبا عبدالرحمن ما أردنا إلا الخير، وهذا دليل منهم على صلاح نياتهم، وإرادتهم وجه الله تبارك وتعالى بهذا العمل المبتدع. ولكن عبدالله بن مسعود قال لهم: "وكم من مريد للخير لم يبلغه"!! وهذا معناه أن النية وحدها لا تكفي لتصحيح الفعل، بل لا بد أن ينضاف إلى ذلك التقيد بالمشروع.

20- وبالغ الصحابة رضوان الله عليهم في حماية جناب الدين وجانبه أن يدخل فيه الغريب، وما ليس منه حتى يصفو للناس التأدب بالأدب الخالص، والتخلق بالخلق الكامل من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فطرد علي بن أبي طالب رضي الله عنه القصاصين من المساجد، وهم الوعاظ الذين يعظون الناس، ويزعمون ترقيق قلوبهم بالقصص الخيالي، والحكايات والأساطير، وأنكر ابن عمر على رجل عطس، فقال: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله قائلاً له: "ما هكذا علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بل قال إذا عطس أحدكم فليحمد الله ولم يقل: وليصل على رسوله"!! (رواه بنحوه الترمذي (8/9 تحفة) وفيه ضعف، ورواه أيضاً الطبراني والبزار فينظر اسناده فيهما، فلعله يقوى به).

الحقائق.. والموازين:

وبمجموع هذه الأدلة يتضح لنا الحقائق التالية لفهم قضية الكتاب والسنة:

أولاً: الهدى هو ما كان من الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فقط {قل إن هدى الله هو الهدى} {فماذا بعد الحق إلا الضلال}.

وإن هذا الهدى محصور في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فقط، وليس وراء هذا طريق ثالث يقرب إلى الله، ويباعد عن النار.

ثانياً: إن كل عقيدة تخالف كتاب الله وسنة رسوله هي عقيدة باطلة يجب حربها والقضاء عليها.

ثالثاً: إن كل زيادة أو نقص في تشريع العبادات والسلوك يراد به التقرب إلى الله تبارك وتعالى، وإصلاح النفس إنما هو بدعة

مرفوضة، حتى لو كان صدر هذا ممن ينتسبون إلى الإسلام ويدعون إليه.

رابعاً: إن كل من ادعى علماً غيبياً في كتاب الله وسنة رسوله، زاعماً أنه قد وصل بطريق الجن أو الفيض أو الفتح، أو الاتصال بالسماء إنما هو كاذب مارق.

خامساً: إن أقوال العلماء في أمور الدين لا تؤخذ قضية مسلمة قط، بل لا بد من عرضها على الكتاب والسنة، فما وافق أخذ وما خالف ذلك رد، وإذا جاز لنا أحياناً الأخذ بها والعمل بها إذا لم نعلم الدليل، فإنما ذلك إلى حين معرفتنا بالدليل، ومتى عرفنا الدليل حكمنا به على القول.

سادساً: إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أعبد الناس، وأتقى الناس، وأنهم تحققوا بهذين الأصلين: الكتاب والسنة، وأن من كان على مثل ما كانوا عليه فقد اهتدى، ومن شذ يميناً أو يساراً فقد ضل.

الباب الثاني

مجمل تاريخ الشريعة الصوفية

الفصل الأول

لمحة سريعة عن تاريخ التصوف

لا يعرف على وجه التحديد من بدأ التصوف في الأمة الإسلامية ومن هو أول متصوف وإن كان الإمام الشافعي رضي الله عنه عندما دخل مصر قال: تركت بغداد وقد أحدث الزنادقة فيها شيئاً يسمونه السماع.. والزنادقة الذين عناهم الشافعي هنا هم المتصوفة (والسماع) هو الغناء والمواجيد والمواويل التي ينشدونها ومعلوم أن الشافعي دخل مصر سنة 199هـ وكلمة الشافعي توحي بأن قضية السماع هذه قضية جديدة ولكن أمر هؤلاء الزنادقة يبدو أنه كان معلوماً قبل ذلك. بدليل أن الشافعي قال كلاماً كثيراً عنهم كقوله مثلاً (لو أن رجلاً تصوف أول النهار لا يأتي الظهر حتى يكون أحمق) (تلبيس إبليس لابن الجوزي ص370) وقال أيضاً: ما لزم أحد الصوفية أربعين يوماً فعاد إليه عقله أبداً (المصدر السابق ص370)، وكل هذا يدل على أنه قد كان هناك قبل نهاية القرن الثاني الهجري فرقة معلومة عند علماء الإسلام يسمونهم أحياناً بالزنادقة وأحياناً بالمتصوفة..

وأما الإمام أحمد فقد كان معاصراً للشافعي وتلميذاً له في أول الأمر فقد أثر عنه أقوال كثيرة في التنفير من أفراد معينين نسبوا إلى التصوف. كقوله في رجل جاء يستفتيه في كلام الحارث المحاسبي: قال أحمد بن حنبل: "لا أرى لك أن تجالسهم" وذلك بعد أن اطلع أحمد بن حنبل على مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها للبكاء -ومحاسبة النفس كما يزعمون- والكلام على الوساوس وخطرات القلوب. فلما اطلع الإمام أحمد على ذلك قال لسائله محذراً إياه من مجالستهم وكتبهم "إياك وهذه الكتب، هذه كتب بدع وضلالات". والذي يبدو أن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه قال هذا الكلام في مطلع القرن الثالث، ولكن هذا القرن ما كاد يكتمل حتى ظهر التصوف على حقيقته، وانتشر في الأمة انتشاراً ذريعاً، واستطاع المتصوفة أن يظهروا ما كانوا يخفونه سابقاً.

والمطلع على الحركـة الصـوفية من أول نشـأتها إلى حين ظهورهـا العلني على ذلك النحو يجد أن أساطين الفكر الصـوفي جميعهم بلا استثناء في القرن الثالث والرابـع الهجـريين كـانوا من الفـرس ولم يكن فيهم عـربي قـط، وعنـد مقابلـة الـدين الصـوفي سـتجد أن التصوف هو الوجه الآخر للتشيع (اقرأ الفصل الخاص بـذلك: الصـلة بين التصوف والتشيع) وأن أهداف التصوف والتشـيع كـانت واحـدة تقريباً، في السياسة والدين،،...، والمهم هنا هو التذكير بأن التصوف بلغ غايته وذروته من حيث العقيدة والتشريع في نهاية القرن الثالث حيث اسـتطاع الحسـين بن منصـور الحلاج أن يظهـر معتقـده على الملأ ولذلك أفـتى علمـاء العصـر بكفـره وقتلـه فقتـل سـنة 309هـ وصلب على جسر بغداد، وسئل الصوفية الآخـرون فلم يظهـروا مـا أظهـر الحلاج.. وسـيأتي وصـف تفصـيلي لعقيـدة الحلاج عنـد بيـان العقيدة الصوفية.

وعلى الـرغم من ذلـك فـإن الصـوفية ظلت تواصـل انتشـارها في أرض فارس على الخصوص ثم العراق.. وساعد على انتشـارها في فارس أن أقام رجل يسمى أبو سعيد الميهني نظاماً خاصاً للخانات الذي أصبح فيما بعد مركزاً للصوفية، وقلـده في ذلـك عامـة رجـال التصوف ومن هنا نشأت في منتصف القرن الرابع الهجـري بـدايات الطـرق الصـوفية الـتي سـرعان مـا انتشـرت في العـراق ومصـر، والمغــرب، وفي القــرن الســادس ظهــرت مجموعــة من رجــال التصوف كل منهم يـزعم أنـه من نسـل الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم واستطاع كل منهم أن يقيم له طريقة صوفية خاصة وأتباعــاً مخصوصين، فظهر الرفاعي في العراق، والبدوي في مصر وأصــله من المغرب ولا يعرف له أم ولا أب ولا أسرة ولا هـو من المغـرب، وكذلك الشاذلي في مصر وأصله كذلك من المغرب. وتتـابع ظهـور الطـرق الصـوفية الـتي تفـرعت من هـذه الطـرق، وفي القـرون السادس والسابع والثامن.. بلغت الفتنة الصـوفية أقصـاها وأنشـئت فرق خاصة بالدراويش وظهر المجاذيب وبنيت القبـاب على القبـور في كـل ناحيـة، وذلـك بقيـام الدولـة الفاطميـة في مصـر وبسـط سيطرتها على أقاليم واسعة من العالم الإسلامي، وبنائها للمزارات والقبور المفتراة كقبر الحسين بن علي رضي الله عنهما في مصــر والسـيدة زينب، وإقـامتهم بعـد ذلـك الموالـد والبـدع والخرافـات الكثيرة، وتأليههم في النهاية للحاكم بأمر الله الفاطمي؛ لقـد بـدأت الدعوة الفاطميـة بـالمغرب لتكـون بـديلاً للحكم العباسـي السـني،

واستطاعت هذه الدولة تجنيد هـذه الفـرق الصـوفية وغـزو العـالم الإسلامي بهذه الجيوش الباطنية التي كان لها أعظم الأثر بعد ذلــك في تمكين الجيوش الصليبية من أرض الإسلام كما ستطالعه بأدلتـه في هذه الرسالة.

وأخـيراً عم الخطب وطم في القـرون المتـأخرة التاسـع والعاشـر والحادي عشر إذ ظهرت آلاف الطرق الصوفية، وانتشـرت العقيـدة والشـريعة الصـوفية في الأمـة، واسـتمر ذلـك إلى عصـر النهضـة الإسلامية الحديثة.

لقد بـدأت طلائـع هـذه النهضـة ومقـدماتها في آخـر القـرن السـابع وبداية القرن الثامن على يد الإمام المجدد أحمـد بن عبـدالحليم بن تيمية الحراني الذي صاول كل العقائد المنحرفة بقلمـه وبيانـه ومن جملة ذلك عقائد المتصوفة وشرائعهم المبتدعـة ولاقى في هـذا مـا لاقى (اقرأ الفصل الخاص بمناظرة ابن تيمية للرفاعيـة البطائحيـة) وجاء تلاميذه من بعده مجاهـدين في هـذا الصـدد كـابن القيم، وابن كثير، والحافظ الذهبي، والحافظ المـزني، وغـيرهم،.. ولكن شـوكة التصـوف والتخريـف والعقائـد الباطلـة كـانت قـد تمكنت من الأمـة تمكناً عظيماً، ولكن الله سبحانه وتعالى هيأ للأمة في القرن الثـاني عشر الهجري الإمام الجليل محمد بن عبدالوهاب الـذي تتلمـذ على كتب شيخ الإسلام ابن تيميـة فقـام مصـاولاً هـذا الباطـل الـذي عم الآفاق وقد حقق الله على يديـه ظهـور النهضـة الإسـلامية الحديثـة فقد استجاب لدعوتـه المخلصـون في كـل أنحـاء العـالم الإسـلامي وتردد صداها في الهند والسودان ومصر والشام وكل بلاد الإســلام، ومنذ ذلك الوقت بدأت الحركة الصوفية تتعرى أوراقها شيئاً فشـيئاً، وتبـدد عقيـدة التوحيـد ظلامهـا، وتزيـل من نفـوس الأمـة ترهاتهـا وخرافاتها..

واليـوم بحمـد اللـه يكتسـح طوفـان الحـق جيش الباطـل ويعـود التصوف مرة أخرى إلى الإنجحار والاستتار كما بدأ وكمـا هـو دائمـاً شأن العقائد الباطنية، ولكن ما زالت دولة الصوفية قوية في أنحــاء كثـيرة من العـالم الإسـلامي وخاصـة في أفريقيـا ودول من آسـيا. حيث العربية غير معلومة وحيث الجهل بالتوحيد والدين الصحيح مـا زال قائماً، ثم إن رموز التصوف ما زالت موجـودة وأعـني برمـوزه القبور والمزارات والشيوخ الضالين والعقائد الفاسدة؛ كل ذلـك مـا زال موجوداً، وهو يحتاج إلى جهد جهيد، وجهاد طويـل لاقتلاع آثـاره

في القلوب والنفوس والأرض. وفي الفصل الخاص بالطرق الصوفية سيرى القارئ بعض هذا الواقع القائم إلى اليوم.

..هذه لمحة سريعة مجملة لنشأة الفكر الصوفي وتطوره..

الفصل الثاني

لمحة عن العقيدة والشعائر الصوفية

تختلف العقيدة الصوفية في صورتها الأخيرة عن عقيدة الكتاب والسنة من كل وجه من حيث التلقي والمصادر أعني مصدر المعرفة الدينية؛ ففي الإسلام لا تثبت عقيدة إلا بقرآن أو سنة لكن في التصوف تثبت العقيدة بالإلهام والوحي المزعوم للأولياء والاتصال بالجن الذين يسمونهم الروحانيين، وبعروج الروح إلى السماوات، وبالفناء في الله، وانجلاء مرآة القلب حتى يظهر الغيب كله للولي الصوفي حسب زعمهم، وبالكشف، وبربط القلب بالرسول حيث يستمد العلوم منه في زعمهم، وبلقاء الرسول في اليقظة والمنام حسب زعمهم، وبالرؤى..، وبالجملة فالمصادر الصوفية للغيب كثيرة جداً.

ولما تعددت هذه المصادر على هذا النحو، كانت العقيدة نفسها واسعة متطورة متغيرة مختلفة بل ومتناقضة بين صوفي وصوفي حيث كل منهم يزعم أنه يخبر بما أداه إليه كشفه هو، وما ورد على خاطره وما قاله له الرسول صلى الله عليه وسلم، أو ألقاه الملك إليه أو اطلع عليه بنفسه في اللوح المحفوظ..

وأما القرآن والسنة فإن للصوفية فيهما تفسيراً باطنياً حيث يسمونه أحياناً تفسير الإشارة، ومعاني الحروف فيزعمون أن لكل حرف في القرآن معنى لا يطلع على معناه إلا الصوفي المتبحر، المكشوف عن قلبه.. وعلى هذا الأساس كان للمتصوفة دينهم الخاص الذي يختلف في أصوله وفروعه عن الدين الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذه باختصار هي جملة عقائدهم في الله والرسول والأولياء والجنة والنار وفرعون وإبليس، وكذلك جملة اعتقاداتهم في الشرائع.

1- عقيدتهم في الله:

يعتقد المتصوفة في الله عقائد شتى منها الحلـول كمـا هـو مـذهب الحلاج، ومنها وحدة الوجود حيث لا انفصال بين الخـالق والمخلـوق وهذه هي العقيدة الأخيرة الـتي انتشـرت منـذ القـرن الثـالث وإلى يومنـا هـذا وأطبـق عليهـا أخـيراً كـل رجـال التصـوف وأعلام هـذه العقيدة كابن عربي وابن سبعين، والتلمساني، وعبدالكريم الجيلي، وعبدالغني النابلسي، وعامة رجال الطرق الصوفية المحدثين.

2- وفي الرسول صلى الله عليه وسلم:

يعتقد الصوفية في الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً عقائد شتى فمنهم من يزعم أن الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم لا يصـل إلى مرتبتهم وحالهم، وأنه كان جـاهلاً بعلـوم رجـال التصـوف كمـا قـال البسطامي: (خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله) ومنهم من يعتقـد أن الرسول محمد هو قبة الكون وهو الله المسـتوي على العـرش وأن السـماوات والأرض والعـرش والكرسـي وكـل الكائنـات خلقت من نوره وأنه هـو أول موجـود وهـو المسـتوي على عـرش اللـه وهـذه عقيدة ابن عربي ومن جاء بعده.

3- وفي الأولياء:

يعتقد الصـوفية في الأوليـاء عقائـد شـتى فمنهم من يفضـل الـولي على النبي وعامتهم يجعل الولي مسـاوياً للـه في كـل صـفاته فهـو يخلق ويـرزق ويحـيي ويميت ويتصـرف في الكـون ولهم تقسـيمات للولاية فهناك الغوث المتحكم في كل شيء في العـالم، والأقطـاب الأربعة الـذين يمسـكون الأركـان الأربعـة في العـالم بـأمر الغـوث، والأبدال السبعة الذين يتحكم كل واحد منهم في قارة من القـارات السبع بأمر الغوث والنجباء كل واحد منهم يتصرف في ناحية تتحكم في مصائر الخلق ولهم ديوان يجتمعون فيه في غار حراء كـل ليلـة ينظرون في المقادير، وباختصار؛ الأولياء عالم خرافي كامل.

هذا بالطبع خلاف الولاية في الإسلام التي تقوم على الدين والتقوى وعمل الصالحات والعبودية الكاملـة للـه والفقـر إليـه وأن الـولي لا يملك من أمر نفسـه شـيئاً فضـلاً عن أنـه يملـك لغـيره قـال تعـالى لرسوله {قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً} (الجن:21).

4- وفي الجنة والنار:

وأما الجنة فإن الصوفية جميعاً يعتقدون أن طلبهـا منقصـة عظيمـة وأنه لا يجوز للولي أن يسـعى إليهـا ولا أن يطلبهـا ومن طلبهـا فهـو

ناقص، وإنما الطلب عندهم والرغبة في الفناء المزعوم في الله، والإطلاع على الغيب والتصريف في الكون.. هذه جنة الصوفي المزعومة.

وأما النار فإن الصوفية يعتقدون أيضاً أن الفرار منها لا يليق بالصوفي الكامل لأن الخوف منها طبع العبيد وليس الأحرار بل منهم من تبجح أنه لو بصق على النار لأطفأها، كما قال البسطامي. وأما من يعتقد بوحدة الوجود منهم فإنه يعتقد أن النار بالنسبة لمن يدخلها تكون عذوبة ونعيماً لا يقل عن نعيم من يدخل الجنة. وهذه عقيدة ابن عربي كما ذكر ذلك في الفصوص.

5- وفي إبليس وفرعون:

وأما إبليس فيعتقد عامة الصوفية أنه أكمل العباد وأفضل الخلق توحيداً لأنه لم يسجد إلا لله بزعمهم وأن الله قد غفر له ذنوبه وأدخله الجنة، وكذلك فرعون عندهم أفضل الموحدين لأنه قال {أنا ربكم الأعلى} فعرف الحقيقة لأن كل موجود هو الله ثم هو في زعمهم من آمن ودخل الجنة.

وأما الشعائر الصوفية:

1- ففي العبادات:

يعتقد الصوفية أن الصلاة والصوم والحج والزكاة هي عبادات العوام وأما هم فيسمون أنفسهم الخاصة، أو خاصة الخاصة ولذلك فإن لهم عبادات مخصوصة.

وقد شرع كل قوم منهم شرائع خاصة بهم كالذكر المخصوص بهيئات مخصوصة، والخلوة والأطعمة المخصوصة، والملابس المخصوصة والحلقات الخاصة.

وإذا كانت العبادات في الإسلام لتزكية النفس وتطهير المجتمع فإن العبادات في التصوف هدفها ربط القلب بالله للتلقي عنه مباشرة حسب زعمهم، والفناء فيه واستمداد الغيب من الرسول والتخلق بأخلاق الله حتى يقول الصوفي للشيء كن فيكون ويطلع على أسرار الخلق، وينظر في كل الملكوت، ويتصرف في الكون.

ولا يهم في التصوف أن تخالف الشريعة الصوفية ظاهر الشريعة المحمدية الإسلامية. فالحشيش والخمر واختلاط النساء بالرجال في الموالد وحلقات الذكر كل ذلك لا يهم لأن للولي شريعته تلقاها

من الله مباشرة فلا يهم أن يوافق ما شرعه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لأن لكل واحد شريعته فشريعة محمد للعوام وشريعة الصوفي للخواص.

2- وفي الحلال والحرام:

وكذلك الشأن في الحلال والحرام فأهل وحدة الوجود في الصوفية لا شيء يحرم عندهم لأن لكل عين واحدة.. ولذلك كان منهم الزناة واللوطية، ومن يأتون الحمير جهاراً نهاراً. ومنهم من اعتقد أن الله قد أسقط عنه التكاليف وأحل له كل ما حرم على غيره.

3- وفي الحكم والسلطان والسياسة:

وأما في الحكم والسلطان والسياسة فإن المنهج الصوفي هو عدم جواز مقاومة الشر ومغالبة السلاطين لأن الله في زعمهم أقام العباد فيما أراد.

4- وفي التربية:

ولعل أخطر ما في الشريعة الصوفية هو منهجهم في التربية حيث يستحوذون على عقول الناس، ويلغونها وذلك بإدخالهم في طريق متدرج يبدأ بالتأنيس، ثم بالتهويل والتعظيم بشأن التصوف ورجاله ثم بالتلبيس على الشخص ثم بالزرق إلى علوم التصوف شيئاً فشيئاً ثم بالربط بالطريقة وسد جميع الطرق بعد ذلك للخروج.

ولكن كيف بدأت هذه العقائد الصوفية وتطورت على هذا النحو..؟!

تعالوا نشاهد كيف بدأت العقيدة الصوفية وتطورت..

الباب الثالث

نشأة العقيدة الصوفية وتطورها

الفصل الأول

طريق الهداية الصوفي

لم يصل في -حدود علمي- أحد ممن بحث في التصوف إلى معرفة الرجل الأولي الذي تسمى باسم (الصوفي) في الإسلام ولا من وضع اللبنات الأولى لهذا الفكر.

ولا شك أن التصوف منهج نشأ قبل الإسلام فكراً وسلوكاً وعقيدة، وأنه كان في كل الأمم والديانات وخاصة في البرهمية الهندوكية والفلسفة الإشراقية اليونانية والمجوسية الفارسية، وكذلك نشأت النصرانية -ولا شك أن التصوف غير الرهبانية وغير الزهد كما سنعلم تفصيلاً- ثم انتقل بعد ذلك إلى الفكر الإسلامي عن طريق الزنادقة المجوس، وأخذ مجراه في واقع الأمة الإسلامية وتطور حتى بلغ شأوه وألفت مصادره، ووضعت أصوله وقواعده النهائية في القرن الرابع والخامس الهجري.

ولكن بعض الكتاب ظن أن هناك صلة بين التصوف والزهد، ولذلك نسب إلى التصوف كل من عرف بالزهد والرغبة عن الدنيا، والإقبال على الله كإبراهيم وكالفضل بن عياض، وعبدالله بن المبارك وبشر الحافي وإبراهيم بن أدهم ونحوهم من العباد والزهاد.. والذي ساعد في هذا الخلط بين الزهد والتصوف أن الذين وضعوا طبقات الصوفية جعلوا أمثال هؤلاء أئمة في هذا الشأن، بل تجاوز بعضهم الحدود من أمثال الشعراني، وجعل الخلفاء الراشدين هم أو رجال في طبقات الصوفية وحاشاهم..

والحال أنه شتان ما بين الزهد والتصوف فالزهد في الدنيا فضيلة وعمل مشروع مستحب وهو خلق الأنبياء والأولياء وعباد الله الصالحين الذين يؤثرون ما عند الله على التنعم، والتلذذ والانشغال بالمباحات، بل يتركون بعض الطيبات في المباحات طمعاً فيما عند الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى: {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة} وقال أيضاً: {ويطعمون الطعام على حبه

مسكيناً ويتيماً وأسيراً* إنما نطعمكم لوجه الله لا نريـد منكم جـزاءً ولا شكوراً}.

وفي الصحيحين أن عائشة رضي الله عنها قالت "كـان يـأتي الهلال والهلال والهلال ثلاثة أهلـة في شـهرين ولا يوقـد في أبيـات رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم نـار". قيـل فمـا كـان طعـامكم: قـالت "الأسودان التمر والماء"..

وهذا لكمال زهدهم، ورغبتهم عن الدنيا. وأمـا التصـوف فمنهج آخـر لأن الصوفي إذا تحقق في صوفيته يصبح الزهد عنده شيئاً لا معـنى له، فهو قـد يحتـاج الزهـد فقـط في أول الطريـق الصـوفي ثم في النهايـة عليـه أن يعب من كـل مـا قـدر عليـه ولـو كـان حرامـاً في الشرع خمراً أو زنا، أو حتى إتياناً للذكران لأن عقيدة وحدة الوجـود لا تجعـل في النهايـة فرقـاً بين الزنـديق والصـديق، ولا بين الأخت والأجنبية، ولا بين الملَك والشيطان، بـل ولا بين العبـد والـرب على حد قول ابن عربي المهندس الأخير للفكر الصوفي:

العبد رب والرب عبد ياليت شعري من المكلف؟!

إن قلت عبد فذاك ربٌّ وإن قلت رب أنى يكلف؟!

وهذا سيأتي تفصيله وبيانه، والشـاهد هنـا أن هنـاك فرقـاً هـائلاً بين الزهد الذي هو فضيلة ونهاية في الشريعة الإسلامية وبين التصـوف الذي قد يجعل الزهد من شعائره ولكنـه للمبتـدئين فقـط وأمـا في النهاية فيجب عند الصوفي أن يتمتع بكل ما قدر عليه.

وأعود فأقول أنه لا يعـرف بالتحديـد من أول من تسـمى بالصـوفي حقيقة في الإسلام وكنت في الطبعة الثانية من الكتـاب لمـا قـرأت مـا كتبـه أبـو عبـدالرحمن السـلمي صـاحب طبقـات الصـوفية عن إبراهيم بن أدهم وما روي بإسناده من حكايات شممت منها بدايات هذا الفكر وأول بذوره وقرأت ترجمة إبـراهيم بن أدهم فوجـدت أن أئمـة الجـرح والتعـديل منهم من يوثقـه ومنهم ينسـبه إلى الخرافـة والجهل بشرع الله فغلب على ظني أنه ربما كان الرائد الأول الذي وضع البذرة الصوفية..

ولقد لفت نظري بعـد ذلـك كثـير من الأخـوة أن شـيخ الإسـلام ابن تيميـة أثـنى على إبـراهيم بن أدهم فكيـف يكـون منتميـاً إلى هـذا المنهج وكنت قد قرأت ما كتبه شيخ الإسلام رحمـه اللـه وقـد رأيت أنه ربّما يثني على شخص ما من أجل موقـف صـحيح في العقيـدة،

وهو قد لا يرضى عنه في موقف آخر بل إنه كثيراً ما يستدل بأقوال النصارى واليهود إذا وافقت شيئاً من الحق..

وبعد أن أعدت النظر وجدتُ أن كلام أئمة الجرح والتعديل لا يـرقى إلى اتهام إبراهيم بن أدهم رحمه الله بشيء مما وضـعه المتصـوفة في عقائدهم ومناهجهم، وأما الحكايات التي رويت عنه والموجـودة في طبقات الصوفية لأبي عبدالرحمن السلمي فإنـه لا يعـول عليهـا في الجرح والتعديل لأن أبا عبدالرحمن السلمي نفسه قد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنه كان يضع الحكايـات للصـوفية ولعـل ذلـك بـل هذا هـو الظـاهر أن هـذا ممـا كذبـه وافـتراه على إبـراهيم بن أدهم رحمه الله.

وعلى كل حال فيعلم اللـه أن قصـدي من تـأليف الكتـاب هـو بيـان الفكر الصوفي من حيث هو مدون ومسطور في كتب القوم وبيـان ما فيه من الباطل والتغرير، وأنـا أعلم أيضـاً أن الـذين وضـعوا هـذا الفكر قد كـذبوا على كثـير من فضـلاء النـاس، وزهـاد الأمـة وليس قصدنا عداوة مع هؤلاء الفضلاء فنعوذ بالله أن نؤذي مسلماً بلسـان أو يـد.. وإنمـا مقصـدنا الـذب عن عقيـدة الإسـلام وشـريعة سـيد المرسـلين وبيـان مـا في هـذا الفكـر من الانحـراف، ومـا في هـذه الحكايات من الباطل.

ومرة أخرى أقول لا نستطيع أن نجزم من هـو أول شـخص تسـمى باسـم الصـوفي في الإسـلام، وألقى بالكلمـات الأولى والقواعـد الأولى ليؤسس هذا المنهج. ولا شـك أن ذلـك كـان في منتصـف أو أوائل القرن الثاني من الهجرة. فإن الإمـام الشافعي المتوفي سنة 205هـ يقول: "تركت بغداد وقد أحدث الزنادقة فيها شـيئاً يسـمونه السماع" أ.هـ

(والزنادقة) هنا هم الصوفية (والسـماع) هـو الغنـاء والأناشـيد الـتي كانوا يتجمعون عليها، ولا شك أن ظهـور الصـوفية بهـذه البدعـة لم يكن وليـد سـنة أو سـنتين إنمـا كـان وليـد سـنوات تطـورت بدعـة الصـوفية حـتى اسـتطاعوا أن يعلنـوا بـدعتهم بالغنـاء والطـرب بالدفوف ونحو ذلك في عاصـمة الخلافـة ببغـداد، ولا شـك أن مثـل هذه المظاهر والعقائد المنافية للإسلام الصحيح بدأت دعـوة سـرية ثم تطورت واستفحل شرها، وأعلن عنها أصحابها ومن أجل ذلـك لا يعلم على القطع والحقيقة الرائد الأول للفكر الصوفي في الإسـلام وواضع لبناته الأولى..

ومما يـدل على أن الأمـر كـان سـرياً في أولـه مـا روي عن الإمـام أحمد أنه سمع الحارث المحاسبي يجتمع مع جماعـة في مـنزل من المنـازل وأنهم يقضـون ليلهم في البكـاء ومحاسـبة النفس والكلام على الخطرات والوساوس وأن الإمـام أحمـد بعـد أن اسـتمع إليهم خلسـة من مـنزل مجـاور أصـبح يقـول: نفـروا النـاس عن الحـارث المحاسبي، وقال لمن سأله هل يجلس معهم ويقضـي الليـل معهم قال: لا أرى لك أن تجالسهم.

والشـاهد أن هـذه البدعـة لا شـك أنهـا بـدأت سـرية ثم تطـورت واستعلنت.

ونعود إلى أبي عبدالرحمن السلمي المتـوفي سـنة 412هــ والـذي لفق حكايات الصوفية ووضعها على ألسنة المشايخ السابقين لنجــد أنه جعل إبراهيم بن أدهم رائداً ومؤسساً لبدايات هذا الفكر..

نأتي إلى حكايات السلمي لنناقش هذه الحكايات لا من حيث ثبوتها ونفيها ولكن من حيث أنها قد أصـبحت هي العمـاد الـذي قـام عليـه هذا الفكر.. نأتي لنناقش هذه الحكايات على ضوء الكتـاب والسـنة لنرى ما فيها من الباطل ولنعرف كيف بدأ هذا الفكر وتطور:

1- قال أبو عبدالرحمن السلمي (توفي سنة 412هـ): "سـمعت أبـا العباس محمد بن الحسن الخشاب قال حدثنا أبـو الحسـن علي بن محمد بن أحمد المصري، قال حـدثني أبـو سـعيد أحمـد بن عيسـى الخراز قال: حدثنا إبراهيم بن بشار قال: صـحبت إبـراهيم بن أدهم بالشام، أنا وأبو يوسف الغسولي، وأبو عبداللـه السـنجاري، فقلت: يا أبا إسحاق! خبرني عن بدء أمرك كيف كـان؟ قـال: كـان أبي من ملوك خراسان، وكنت شاباً فركبت إلى الصيد، فخـرجت يومـاً على دابة لي، ومعي كلب، فأثرت أرنباً أو ثعلباً، فبينما أنا أطلبه، إذ هتف بي هاتف لا أراه، فقال: يا إبـراهيم: ألهـذا خلقت؟ أم بهـذا أمـرت؟ ففزعت، ووقفت، ثم عدت فركضـت الثانيـة، ففعـل بي مثـل ذلـك ثلاث مـرات، ثم هتـف بي هـاتف من قربـوس (قربـوس: كحلـزون، حنـو السـرج ومنعطفـه، وهمـا قربوسـان) السـرج: واللـه مـا لهـذا خلقت، ولا بهذا أمـرت. قـال: فـنزلت فصـادفت راعيـاً لأبي يـرعى الغنم، فأخذت جبته الصوف، فلبستها ودفعت إليه الفرس، وما كان معي، وتوجهت إلى مكة فبينما أنـا في الباديـة، إذ أنـا برجـل يسـير ليس معه إناء ولا زاد، فلما أمسـى وصـلى المغـرب، حـرك شـفتيه بكلام لم أفهمه، فإذا أنا بإناء فيه طعام، وإناء فيـه شـراب، فـأكلت

وشرب، وكنت معه على هذا أياماً، وعلمني "اسم اللـه الأعظم" ثم غاب عني وبقيت وحدي، فبينما أنا ذات يوم مستوحش من الوحدة، دعوت الله به، فإذا أنا بشخص آخـذ بحجـزتي وقـال: سـل تعطـه!! فراعني قوله، فقال: لا روع عليك أنـا أخـوك الخضـر، إن أخي داود علمك اسم الله الأعظم، فلا تدعو به على أحد بينـك وبينـه شـحناء، فتهلكـه هلاك الـدنيا والآخـرة، ولكن ادعُ اللـه أن يشـجع بـه جبنـك ويقوي به ضعفك، ويؤنس به وحشتك، ويجدد في كل ساعة رغبتك، ثم انصرف وتركني" (طبقات السلمي (29-31)).

وهذا خبر آخر:

2- "سـمعت محمـد بن الحسـن البغـدادي يقـول: سـمعت علي بن الحسن بن أحمد المصري يقول: سـمعت أحمـد بن عيسـى الخـراز يقول: حدثني غير واحد من أصحابنا منهم: سعيد بن جعفر الــوراق، وهارون الآدمي، وعثمان النجار، قالوا: حدثنا عثمان بن عمارة قـال حـدثني إبـراهيم بن أدهم عن رجـل من أهـل الإسـكندرية يقـال لـه أسلم بن يزيد الجهني قال: لقيته بالإسكندرية فقال لي: من أنت يـا غلام؟ قلت: شاب من أهل خراسان. قال: وما حملك على الخـروج من الدنيا؟ قلت زهداً فيها، ورجاء لثواب الله تعالى. فقال: إن العبد لا يتم رجاؤه لثواب الله تعالى حتى يحمل نفسه على الصبر. فقـال رجـل ممن كـان معـه: وأي شـيء الصـبر؟ فقـال: إن أدنى منـازل الصبر أن يـروض العبـد نفسـه على احتمـال مكـاره الأنفس. قـال: قلت: ثم مه؟ قال: إن كان محتملاً للمكـاره أورث اللـه قلبـه نـوراً. قلت: وما ذلك النور؟ قال: سراج يكون في قلبه، يفـرق بين الحـق والباطل، والناسخ والمتشابه، قلت: هذه صفة أولياء رب العـالمين. قال: استغفر الله، صدق عيسى بن مريم عليه السلام حين قـال: لا تضـعوا الحكمــة عنــد غــير أهلهــا فتضــيعوها، ولا تمنعوهــا أهلهــا فتظلموها!!

فبصصت إليه، وطلبت إليـه، وطلب معي أصـحابه إليـه، فقـال عنـد ذلك: يا غلام إياك إذا صحبت الأخيار أو حـادثت الأبـرار أن تغضـبهم عليـك، فـإن اللـه يغضـب لغضـبهم، ويرضـى لرضـاهم، وذلـك أن الحكماء هم العلمـاء، وهم الراضـون عن اللـه عـز وجـل إذا سـخط الناس، وهم جلساء الله غداً بعد النبيين والصديقين.

يا غلام احفـظ عـني واعقـل، واحتمـل ولا تعجـل، فـإن التـأني معـه الحلم والحيـاء، وإن السـفه معـه الخـرق والشـؤم، قـال: فسـالت

عيناي، وقلت: والله ما حملني على مفارقة أبوي، والخروج من مالي، إلا حب الأثرة لله، ومع ذلك الزهد في الدنيا، والرغبة في جوار الله تعالى.

قال: فإياك والبخل، قلت: وما البخل؟ فقال: أما البخل عند أهل الدنيا فهو أن يكون الرجل بخيلاً بماله، وأما الذي عند أهل الآخرة فهو الذي يبخل بنفسه عن الله تعالى. ألا وإن العبد إذا جاد بنفسه لله، أورث قلبه الهدى والتقى، وأعطى السكينة والوقار والعلم الراجح، والعقل الكامل، ومع ذلك تفتح له أبواب السماء، فهو ينظر إلى أبوابها بقلبه كيف تفتح، وإن كان في طريق الدنيا مطروحاً، فقال له رجل من أصحابه: "اضربه فأوجعه، فإنا نراه غلاماً قد وفق لولاية الله تعالى!!" قال: فتعجب الشيخ من قول أصحابه: "لقد وفق لولاية الله تعالى" فقال لي: يا غلام أما إنك ستصحب الأخيار، فكن لهم أرضاً يطأون عليها، وإن ضربوك وشتموك وطردوك، وأسمعوك القبيح، فإن فعلوا بك ذلك ففكر في نفسك: من أين أتيت، فإنك إذا فعلت ذلك يؤيدك الله بنصره، ويقبل بقلوبهم عليك، واعلم أن العبد إذا قلاه (أي كرهه) الأخيار، واجتنب صحبته الورعون وأبغضه الزاهدون، فإن ذلك استعتاب من الله تعالى لكي يعتبه، فإن أعتب الله عز وجل أقبل بقلوبهم عليه، وإن تمرد على الله أورث قلبه الضلالة، مع حرمان الرزق، وجفاء من الأهل، ومقت من الملائكة، وإعراض من الرسل بوجوههم، ثم لم يبال في أي واد يهلكه.

قال: قلت: إني صحبت -وأنا ماش بين الكوفة ومكة- رجلاً فرأيته إذا أمسى يصلي ركعتين فيهما تجاوز، ثم يتكلم بكلام خفي بينه وبين نفسه، فإذا جفنة من ثريد عن يمينه، وكوز من ماء، فكان يأكل ويطعمني. قال: فبكى الشيخ عند ذلك، وبكى من حوله، ثم قال: يا بني أو يا أخي ذاك أخي داود، ومسكنه من وراء بلخ، بقرية يقال لها (الباردة الطيبة) وذلك أن البقاع تفاخرت بكينونة داود فيها، يا غلام: ما قال لك؟ وما علمك؟ قال: قلت: علمني اسم الله الأعظم، فسأل الشيخ ما هو؟ فقلت: إنه يتعاظم علي أن أنطق به. فإني سألت به مرة، فإذا برجل آخذ بحجزتي وقال: سل تعطه، فراعني، فقال: لا روع عليك: أنا أخوك الخضر، إن أخي داود علمك إياه، فإياك أن تدعو به إلا في بر، ثم قال: يا غلام إن الزاهدين في الدنيا، قد اتخذوا الرضا على الله لباساً، وحبه دثاراً والأثرة له شعاراً، فتفضّل الله تعالى عليهم ليس كتفضله على غيرهم، ثم

ذهب عني. فتعجب الشيخ من قولي، ثم قـال: إن اللـه سـيبلغ بمن كـان في مثالـك ومن تبعـك من المهتـدين، ثم قـال يـا غلام إنـا قـد أفدناك ومهدناك، وعلمناك علماً.

ثم قال بعضهم: يا إلهنا احجبه عنا، واحجبنا عنه، قال إبـراهيم: فمـا أدري أين ذهبوا؟!!!" (أ.هـ من طبقات السلمي بنصه).

لقد وضع من وضع هاتين الحكـايتين أصـول التصـوف، ومنهـا تفـرع الفكر الصوفي فيما بعد، ولنستعرض معاً أصول هذا الفكر:

أولاً: إن الهداية قد جاءت بزعمه لإبراهيم من هـاتف هتـف بـه أولاً، ثم من كلام خرج من قربوس السـرج، ولسـت مناقشـاً الآن صـحة هذه الدعوى أو بطلانها، ولكـني أريـد أن أذكـر الآن أن هـذا طريـق للهداية يغاير ويخالف الطريق الذي جاء به الرسول صلى الله عليـه وسلم، فالهداية في الإسلام إنما تكون دائماً عن طريـق كتـاب اللـه الذي أنـزل للنـاس هـدى ونـوراً. والـدعوة إلى الإيمـان في شـريعة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إنمـا تكـون بالحجـة والإقنـاع، وبتقديم الدليل على إعجاز القرآن وصـدق رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسلم.

ثانياً: الهداية التي ادعاها أبو عبدالرحمن السلمي لإبـراهيم بن أدهم قد حملته على ترك أبيه وأمه وبلدته وخلع ثيابه، (وترك الدنيا) على حد التعبير، وليس ملابس الصوف التي كـانت على جسـم الـراعي، ومن سـمي هـذا المنهج بالتصـوف، وليس من شـروط الهدايـة في الإسلام أن يترك المهتدي الدنيا، ويفر بدينه من وطنـه، إلا إذا قابـل فيــه اضــطهاداً أو منعــاً من أداء الشــعائر، أو كــان في بلــد كثــير المعاصي وأراد النقلة إلى بلد آخـر يكـثر فيـه الصـالحون، ولم تكن (بلخ) التي هجرها إبراهيم كذلك؛ لأنه جـاء في حكايتـه أنهـا مسـكن (داود) وأن البقاع قد تفاخرت بكينونة داود فيها، هكذا قـال، فكيـف تترك هذه البقعة الطيبة، والقرية التي سميت (الباردة الطيبة) التي يسـكن فيهـا داود ويخـرج إلى الـبراري والقفـار، وليس من سـبب شرعي لهذا التحول؟

ثالثاً: جـاء في الحكايـة أن إبـراهيم لقي رجلاً بالباديـة يسـير، وليس معه زاد ولا طعام، وأنه صاحبَه، وكان يطعمه من الطعام الذي يأتيه هكذا من الغيب، وأن هذا الرجل علمه اسم اللـه الأعظم، ثم أخـبر

أن هذا الرجل إنما هو داود عليه السلام، وأنـه لمـا دعـا باسـم اللـه الأعظم حضر الخضر إليه في الحال، وسأله عن طلبه.

ولست أدري شرعاً ما الذي يـدعو داود عليـه السـلام أن يعـود إلى الدنيا، (إن كان ذلك في مكنته) ويتجاوز حدود رسالته ونبوته، ليعلم رجلاً من أمة محمد صلى الله عليـه وسـلم اسـم اللـه الأعظم، مـع العلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعمر: [واللـه لـو كـان موسى حياً لما وسعه إلا أن يتبعني] فكذلك لو عاد داود حياً لــوجب أن يتبع رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، ولا يجـوز لـه أن يعلم الناس شيئاً من الدين لم يعلّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم سمع رجلاً يدعو قائلاً: اللهم إني أسـألك بـأني أشـهد أنـك أنت اللـه (رواه أحمد (5/349-350) وأبو داود (14993) وغيرهما عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه) الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

فقال: صلى الله عليه وسلم : [قد سأل الله باسـمه الأعظم، الـذي إذا سأل به أعطى، وإذا دعي به أجاب].

فالرسول صلى الله عليه وسلم أخبر أن اسم الله الأعظم في هـذا الـدعاء، وأن اللـه تبـارك وتعـالى إذا دعي بـه أجـاب وإذا سـئل بـه أعطى، ولم يقل صلى الله عليه وسلم: إن هذا الإسـم من دعـا بـه أتـاه الخضـر في التـو والحـال، وقـال: سـل تعطـه!! هكـذا على الإطلاق: اسأل ما بدا لك.. ما أشبه هـذا الكلام بالقصـص الخـرافي الذي يزعم بأن سـليمان نـبي اللـه عليـه السـلام كـان لـه خـاتم إذا حركه أتاه عفريت من الجان!!.

ثم لو فرضنا صحة الحكاية، أليس لنا أن نسأل: لما خص داود عليـه السلام إبراهيم بن أدهم باسم الله الأعظم، ولم يخص به أحداً قبله من الصحابة والتابعين؟.

ثم لماذا يقول الخضر لإبراهيم بن أدهم –كما جاء في الحكاية-: لقد تعلمت اسم الله الأعظم، فلا تدع به على أحـد بينـك وبينـه شـحناء، فتهلكه هلاك الدنيا والآخرة، هكذا وإبراهيم بن أدهم ليس معصـوماً، فربما تخاصم مع رجل مسلم، فإذا دعا باسم الله الأعظم على هذا الرجل هلك هلاك الدنيا والآخرة، وحرم جنة اللـه، وبـاء بالنـار، لأنـه خاصم إبـراهيم بن أدهم فقـط، وهـذا ليس للرسـول، لأن الرسـول

دعـا على أنـاس فقـال لـه اللـه: {ليس لـك من الأمـر شـيء} (آل عمران:128) (انظر حديث البخاري في شأن نزول هذه الآية). هذا مع أن الحال في الخصومة بين النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم وبين أعدائه إنما هو من أجل العقيدة والدين، وليس كخصـومة غـيره من أهل الدنيا.

رابعـاً: جـاء في الحكايـة أن إبـراهيم بن أدهم أطلـق على طريقـة ومنهجه الذي سلكه في تعبده أنه "الخروج من الـدنيا" ولقـد علمنـا نتائج هذا الخروج، وهي خلع ملابسـه، ولبس الصـوف وتـرك ديـاره، ووطنـه، والـدخول في الباديـة، ولن ننـاقش الآن مـدى قـرب هـذا المسلك أو بعده عن الرسالة التي بعث بها محمد بن عبدالله صـلى الله عليه وسلم، ولكننا سنناقش الآثار التي ترتبت على ذلـك، وهي الزعم أن إبراهيم أخبره أسلم بن يزيد الجهني في الإسـكندرية أنـه إذا كان حقاً طالباً لثواب الله فلا بد لـه من تحمـل الصـبر، وأنـه إن فعل ذلك أورث الله قلبه نوراً يفرق به بين الحق والباطل، والناسخ والمتشابه (هكذا)!! وهنا تضع الحكاية الأصـل الرابـع في التصـوف، وهو أنه بالمجاهدة والصبر يحصل النور الذي يعـرف بـه علم الحـق والباطـل، والناسـخ والمتشـابه!! والمعـروف أن المجاهـدة بالصـبر مهما عظمت لا تعلم الإنسان الآيات الناسخة والمنسوخة، والمحكم والمتشابه من كلام اللـه تبـارك وتعـالى، ولا تجعلـه يفـرق بين حـق وباطل، بل لا بد من التعلم، لأن رسول الله صلى الله عليـه وسـلم يقول: [إنما العلم بالتعلم] (ذكره البخاري في (صحيحه-1/170 من فتح البـاري) معلقـاً، وبين الحافـظ بن حجـر من وصـله في شـرحه عليـه، وحسـن إسـناده، وأورده أسـتاذنا الألبـاني في (السلسـلة الصـحيحة-342) بـأتم منـه، وصـححه وقـال في مختصـره لصـحيح البخـاري (1/28): "هـو طـرف من حـديث رواه ابن خيثمـة (114) بسند صحيح عن أبي الدرداء موقوفاً، ورواه غيره عنه مرفوعاً، وله شاهد من حديث معاوية") ولم يقل: إنما العلم بالصبر. وأما أن الله تبـارك وتعـالى يوفـق العامـل بعلمـه، والقـائم بتقـواه إلى الهدايـة والعلم فنعم، وذلـك بتيسـير أسـباب العلم الجديـد فقولـه تعـالى : {واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكـل شـيء عليم} (البقـرة:282). هي ختام أطول آية في كتاب الله، وقد نزلت بشـأن الـدّين وكتابتـه والإشهاد عليه، والتعلم المقصود في الآية هو هذا التعلم الذي أنزله الله على الرسول صلى الله عليه وسلم. ويستحيل شرعاً وعقلاً أن يبلغ المسـلم علم شـيء بالصـبر أو الصـيام مثلاً دون بـذل السـبب

الموصل إلى هذا العلم. فـالعلم الشـرعي بـالتعلم، والعلم الـدنيوي أيضاً بالتعلم، وليس شيء من ذلك يورث بالصبر والمجاهدة.

ولا شك أن الحكاية عنـدما دعت إلى هـذا العلم فإنمـا أرادت علمـاً آخر، لأنها قالت على لسان أسلم بن يزيد: "وذلـك أن الحكمـاء هم العلماء" فهو يعني طائفة أخرى لها تقاليـدها وعاداتهـا، ومجاهـداتها المستقلة وعلمها المستقل أيضاً، وستعلم هذا بأدلته فيمـا يـأتي إن شاء اللـه تعـالى. ولم يعن بـالطبع علمـاء الشـريعة الـذين يعلمـون الكتاب والسنة، لأن علم هؤلاء لا يتأتى إلا بالدرس والنقـل والكتابـة والحفظ، وسؤال الله الفهم والعمل والتوفيـق، وأمـا طريـق القـوم الذين عنتهم الحكاية فإنما هـو المجاهـدة بأسـلوب خـاص، وعـادات خاصـة، ومنهج خـاص ليصـل الإنسـان منهم إلى علم خـاص، وفهم خاص، ووجد خاص، ولا يستطيع علماء الشريعة مهما بلغ علمهم أن يصلوا إلى شيء منه. وباب هذا العلم الخاص الذي عنته الحكاية هو ما عبر عنه بقوله: "وأن العبد إذا جاد بنفسه لله، أورث قلبه الهـدى والتقى، وأعطي السكينة والوقار، والعلم الراجح، والعقـل الكامـل، ومع ذلك يفتح له أبواب السماء فهـو ينظـر إلى أبوابهـا بقلبـه كيـف تفتح، وإن كان في طريق الدنيا مطروحاً"!!.

فهذا العلم الخاص بابه السماء، وينظر أهل هذا العلم إلى فتح هـذه الأبواب بقلوبهم حتى لو كانوا مطروحين في طريق الدنيا، وقبل أن نحكم على هـذا العلم المزعـوم بالصـحة أو البطلان لا بـد أن نـرى نماذج منه، وهذا موعده فيما يأتي إن شاء الله.

خامساً: الغاية التي حددتها هـذه الروايـة المزعومـة لهـذا الطريـق، وهذا المنهج هو: "والله ما حملني على مفارقة أبوي، والخـروج من مالي إلا حب الأثرة للـه، ومـع ذلـك الزهـد في الـدنيا، والرغبـة في جـوار اللـه تعـالى" وقـد فسـر لـه على حـد زعمـه أسـلم بن يزيـد (البخيل) بأنه "الذي يبخل بنفسه عن الله تعالى".

فـالأثرة للـه الـتي جـاءت في الحكايـة ليسـت هي حب اللـه وإيثـار مرضـاته، والطمـع في جنتـه، وخـوف نـاره، بـل سـنعلم بالنصـوص والنقول من مقالات القوم أنهم يعنون بالأثرة لله (الفناء به عن كل ما سواه) وعبادته دون رجاء مثوبة، أو خوف عقوبة، وسـنعلم كيـف تطور هذا الفكر فيمـا بعـد إلى أن أنتج القـول بوحـدة الوجـود، وأن العابد هو عين المعبود!!

سادساً: من الغرائب في الحكاية عن إبراهيم السابقة أنه قال إن أصحاب أسلم بن يزيد الجهني قالوا له: "اضربه فأوجعه، فإنا نراه غلاماً قد وفق لولاية الله عز وجل" وكأن إبراهيم في زعم الحكاية قد فاز بكنز لم يفز به أحد قبله، وهو ولاية الله عز وجل، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أنه ولي كل مؤمن. قال تعالى: {الله ولي الذين ءامنوا} (البقرة:257) وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث البخاري الصحيح أن الله تعالى يقول [من عادى لي ولياً فقد آذنته بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به..، الحديث]. فبين الله تبارك وتعالى طريق ولايته، وهي أداء الفرائض ثم الاستزادة من النوافل، ولم يذكر تبارك وتعالى أن الولاية تأتي بهاتف من قربوس السرج، ثم بلقاء مع داود في البادية وتعليم للاسم الأعظم. وسنعلم في جولتنا القادمة في الفكر الصوفي أن الولاية ستصبح قاصرة على أناس مخصوصين، لهم منهج مخصوص وطريق مخصوص، وأن هذه الولاية سيجزم بها جزماً، وسيدعيها من يدعيها بكل إصرار وتشبث!!.

سابعاً: جاء في الحكاية أن أسلم بن يزيد الجهني نصح إبراهيم قائلاً: "يا غلام أما أنك ستصحب الأخيار، فكن لهم أرضاً يطئون عليك، وإن ضربوك وشتموك، وطردوك وأسمعوك القبيح" ولا نعلم أن صحبة الأخيار تكون كذلك، بل الأخيار إذا صحبتهم أكرموك وسامحوك، وعلموك وقربوك وغفروا إساءتك، وسيعلم القارئ السر وراء هذا المنهج، في النقول القادمة وفي بيان فرعيات هذا المنهج ودروبه.

ثامناً: جاء في الحكاية أن الشيخ وهو أسلم بن يزيد الجهني قال له: "إن الله سيبلغ بمن كان مثالك، ومن تبعك من المهتدين، وإنه قال له: يا غلام إنا قد أفدناك ومهدناك وعلمناك علماً".

وهذا كله إشعار بأن هناك طريقاً آخر ورواداً جدداً قد هيئوا لأمر ما، ووجهوا وجهة خاصة، وأن الله سيبلغ بهم ما لم يبلغ بسواهم من قبل في رجال القرن الأول، ومن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، وسيعلم القارئ إن شاء الله تعالى أي مهمة هذه التي توجهت إليها هذه الفئة، وأي بلاغ عن الله تبارك وتعالى سيبلغون!!.

تاسعاً: لقد ختمت الحكاية بمثل ما بدئت، وهي أن قـائلاً ممن كـانوا حول الشيخ أسلم بن يزيد قال: يا إلهنـا احجبـه عنـا، واحجبنـا عنـه. ففي الحال ذهبـوا، ولا يـدري أين ذهبـوا؟ هكـذا كمـا جـاءه الهـاتف وقال له: ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت.

وهذا الأصل من الحكايات الغريبة سيكون بداية لحكايات تعتبر هـذه الحكاية بالنسبة إليها أمراً مقبولاً وسائغاً، فما هذه الحكايات؟

وبهذه الأضواء يكون أمامنا تسع نقاط يجب أن نكون على ذكر منها في رحلتنا هذه في الفكـر الصـوفي، وخلاصـة هـذه النقـاط هي أن هناك طريقاً للهداية هـو طريـق الهواتـف، وأن هـذه الهدايـة تحمـل الإنسـان على تـرك الـدنيا، وتـرك الآبـاء والأمهـات والـدخول إلى البراري والقفار، وأن المهتدي على هذا النحـو يـرى الأنبيـاء ويتكلم معهم، ويأكل من الغيب لا من الشـهادة، وأن الخضـر عليـه السـلام خادم لاسم الله الأعظم، هذا الإسم الذي يتعـاظم على العـارف أن ينطق به، وأن هذا الطريق الذي يلج فيه الصوفي يتصل به بالسماء فيتعلم العلوم، وأن هذا الطريـق هـو المنهج الوحيـد للحصـول على ولاية الله عز وجل، وأنه يجب الصبر مع أهـل هـذا الطريـق، وعـدم الإنكار عليهم، بل يجب على المهتـدي أن يكـون أرضـاً لهم يطئـون عليها. وأن هؤلاء القوم قد أرسلوا في مهمة خاصـة، وأنهم يتلقـون عن الله هكذا رأساً بلا وسـاطة، ويبلغـون علمـاً خاصـاً، وأنـه بـدعاء واحد يختفي الموجود، ويوجد المفقود!!..

الفصل الثاني

طلب الجنة والفرار من النار ليس هدفاً

في الفصل السابق علمنا أن التصوف في بدء نشأته قد جعل غايته ما عبر عنه إبراهيم بن أدهم (بالأثرة لله)، وأنه في سبيل ذلك يجب أن تتحقـق مفارقـة الـدنيا والانخلاع منهـا، وعلى هـذا الأصـل كـان تشريع ترك الزواج والتكسب، لأنهما من أسباب القعود عن تحقيـق هذه الغاية. وهذا الإله الذي سـعى المتصـوفة الأولـون ومن بعـدهم إلى إثاره على كل شيء. لا يستمدون معرفته والعلم بذاته وأفعالـه عن طريق الكتاب والسنة، وإنما عن طريق فتح أبواب السـماء - على حد تعبيرهم- بالمجاهدة والسلوك الصوفي، لينكشف لهم وجه الحق، ويعلموه على حقيقته، وعندما نتتبع هذه العقيدة منذ ظهورها

إلى أن اكتملت في صورتها النهائية، وحددت تحديدها الأخـير، فإننـا سنعلم الصورة الكاملة للعقيدة الصوفية في الرب سبحانه وتعالى، والجنة والنار، والرسالات والغيب كله.

أولاً: عبادة الله لذاته:

زعم المتصوفة أن العبادة الحقـة هي مـا كـانت دون طلب العـوض من الله وأن يشهد فيها فعل الله لا فعل العبد، وأن من شاهد فعله في الطاعة فقد جحد، وقـد اسـتدلوا على ذلـك بأدلـة نـذكرها فيمـا يلي:

1- ذكر أبو بكر الكلاباذي في كتابه (التعرف لمذهب أهل التصـوف) وهو الموسوعة الفقهية التي نشرها الدكتور عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور، وشهدا في مقدمة الكتاب بأنه أقدم مـا كتب عن هذا العلم ورجاله وأدقـه وأصـفاه، أقـول؛ قـال الكلابـاذي في بيـان المعنى الحق للعبادة، وأنها لا تجوز في حق الصـوفي أن تكـون عن عوض، قال: "العوض ما لله عليـك في العمـل في قولـه: {إن اللـه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم}" (التوبة:111)، ولم يكمل الآية ثم قال: "لتعبـدوه بـالرق لا بـالطمع" (ص141) فرؤيـة الجنـة عندهم معصية، وطلبها نقص في حق العابد".

ولـذلك قـال (ص155): "دخـل جماعــة على رابعــة يعودونهــا من شكوى، فقالوا: ما حالك؟ قالت: والله ما أعرف لعلـتي سـبباً، غـير أني عرضـت على الجنـة (هكـذا) فملت بقلـبي إليهـا، فأحسـب أن مولاي غار علي، فعاتبني فله العتبى". ومعـنى هـذا أن مجـرد ميـل القلب إلى الجنة يعتبره المتصوفة ذنبـاً يعـاقبون عليـه. وفي سـبيل هـذه العقيـدة حـول المتصـوفة معـاني الآيـات والأحـاديث إلى مـا يريدون إثباته من ذلك. وهذه بعض أدلتهم الـتي أخـذوها من الآيـات والأحاديث:

1- قوله تعالى: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأمــوالهم} بهذا المقطع من الآية فقط يسـتدل الكلابـاذي علي عقيـدة القـوم، ويقول: ليعبدوه بالرق لا بالطمع. ويقطع الآية عن نهايتهـا الـتي تـرد فيها قوله، وهي قوله تعالى: {بأن لهم الجنة} فشــراء اللــه لأنفس المؤمنين وأموالهم إنما كـان بعـوض وهـو الجنـة، وعمـل المؤمـنين كان سبباً للوصول إلى هذه الجنة، وإن كان غير مكـافئ لهـا، ولكن

لا يمنع هذا المؤمن أن يطمع في فضل الله ورحمته، ودخول الجنة، وأن يسعى إلى ذلك، بل هذا هو التعبد الصحيح.

2- قوله تعالى: {كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية} (الحاقة:24) يقول الكلاباذي: "أي الخالية عن ذكر الله، لتعلموا أنـه بفضله نلتم لا بأعمالكم" (ص142) فسر الخالية هنا بمعنى الخاليـة عن ذكر الله، أي لأنكم لم تذكروا الله في بعض الأيام اسـتحق هـذا مني أن أدخلكم الجنـة، لتعلمـوا أنمـا دخلتموهـا بفضـلي لا بعلمكم. وهذا تفسير خاطئ معكـوس لمعـنى الآيـة، فاللـه عـز وجـل يقـول للمؤمنين يوم القيامة: كلوا واشربوا هنيئاً بسبب مـا أسـلفتموه في الأيام الخاليـة أي السـابقة الـتي خلت. والـذي أسـلفوه هـو العمـل الصالح.

3- استدل الكلاباذي أيضاً على هـذه العقيـدة بقـول الرسـول صـلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: [الصوم لي، وأنـا أجـزي بـه] (هو جزء من حـديث رواه بنحـوه البخـاري ومسـلم (3/157 و158 نووي) والترمذي (764) عن أبي هريرة) قال: "قـال أحـد الكـبراء: أي أنا الجزاء به" (ص143).

وأحد الكبراء هذا هو الحلاج. وهذا تحريف لمعـنى الحـديث، ليوافـق هذا المعتقد الباطل.

وقد يظن المسلم في عصـرنا الحاضـر أن هـذه العقيـدة في الجنـة عقيدة سامية، وهي أن يعبـد الإنسـان اللـه، لا طمعـاً في الجنـة ولا خوفاً من النار، ولكنها عقيـدة غـير صـحيحة إذ هي مخالفـة لعقيـدة الكتاب والسنة.

فقد وصف الله حال الأنبيـاء في عبـادتهم وتقـربهم ودعـائهم بـأنهم كـانوا {ويـدعوننا رغبـاً ورهبـاً وكـانوا لنـا خاشـعين} (الأنبيـاء:90)، والرغب هو الطمع في جنة الله وفضـله، والـرهب هـو الخـوف من عقابه، والأنبياء هم أكمل الناس عقيدة وإيماناً وحالاً.

وكذلك وصف تبارك وتعـالى أكمـل المؤمـنين إيمانـاً بقولـه تعـالى: {إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكّروا بهـا خـروا سـجداً وسـبّحوا بحمـد ربهم وهم لا يستكبرون* تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وممّا رزقنـاهم ينفقـون* فلا تعلم نفسٌ مّـا أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} (السجدة:15-17).

فهؤلاء الـذين ادخـر اللـه لهم مـا لا عين رأت، ولا أذن سـمعت، ولا خطر على قلب بشر لا شك أنهم أكمـل النـاس إيمانـاً وحـالاً، ومـع ذلك فهم يدعون ربهم خوفاً وطمعـاً: خوفـاً من عذابـه، وطمعـاً في جنته. وآيات القرآن في هذا المعنى لا تحصى كثرة.

وأمـا السـنة فلا حصـر للأحـاديث في ذلـك، ومن أبلغهـا في الدّلالـة على هذا الأمر قول أحد الأعراب للنبي صلى الله عليه وسلم: والله إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، وإنما أقـول: اللهم إني أسـألك الجنة، وأعوذ بك من النار؛ فقـال صـلى اللـه عليـه وسـلم: [حولهـا ندنـدن] (رواه أبـو داود (792 و793) وابن ماجـة (910) وأحمـد (3/474 و5/74) وابن خزيمـة، وصـحح إسـناده الألبـاني في (صـفة الصلاة-202))، فإذا كـان الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم يدنـدن بدعائه حول الجنة، فهل يتصور عقلاً وجود رجل أو امرأة أكمل منـه صلى الله عليـه وسـلم، فيـدعو اللـه ويعبـده لا طمعـاً في جنتـه ولا خوفاً من نار؟.

وهذه الحالة التي سعى المتصوفة إلى تحقيقهـا، أعـني عبـادة اللـه مجردة عن الطمع والخوف جرت عليهم البلايا: فقد سعوا إلى غاية أخـرى بالعبـادة وهي القـول بالفنـاء في الـرب، وجـرهم هـذا إلى الجذب، ثم جرهم هذا إلى الحلـول، ثم جـرهم هـذا في النهايـة إلى وحدة الوجود.

وفي هــذا الفصـل من الرســالة سنسـوق إليـك الأدلـة على هـذا التسلسل العقائدي.

وقد مر بك أن رابعة العدوية لما اشـتكت، وعادهـا بعض المتصـوفة زعمت أن ذلك بسبب غيرة الله عليها (هكذا) لأنها مالت بقلبها إلى الجنـة. وإني لأتسـاءل: من أين لهـا أن تعلم حب اللـه لهـا وقبولـه لعملها، فضلاً عن غيرتـه سـبحانه وتعـالى عليهـا؟ وقـد وصـف اللـه تبـارك وتعـالى المؤمـنين بقولـه: {إن الـذين هم من خشـية ربهم مشـفقون* والـذين هم بآيـات ربهم يؤمنـون* والـذين هم بـربهم لا يشـركون* والـذين يؤتـون مـا ءاتـوا وقلـوبهم وجلـة أنهم إلى ربهم راجعــون* أولئــك يســارعون في الخــيرات وهم لهــا ســابقون} (المؤمنون:57-61).

وقد سألت السيدة عائشة رضي الله عنهـا رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم عن قولـه تعـالى: {يؤتـون مـا ءاتـوا وقلـوبهم وجلـة}

فقالت يا رسول الله يسرقون ويزنون ويخافون؟ قال: [لا يابنة الصديق، ولكن يصومون ويصلون ويخافون أن لا يتقبل منهم] (رواه أحمد في (المسند-6/159 و205) والترمذي في (سننه-201/2) وابن ماجة (4198) وإسناده ضعيف: منقطع، عبدالرحمن بن سعيد بن وهب لم يدرك عائشة، كما قال الحافظ العسقلاني في (التهذيب) ولكن له عند ابن جرير (18/26) طرقاً وشاهداً موصولاً يتقوى به، وقد حسنه الألباني في (الصحيحة 162)).

فإذا كان حال المؤمن هو الخوف دائماً من الله تبارك وتعالى حتى مع الطاعة، فمن أين لرابعة العدوية أن تعرف أن الله قد غار عليها؟ (العياذ بالله..) لأنها مالت بقلبها إلى الجنة؟ أليس هذا القول من رابعة (إن صح نسبته إليها، وقد ذكر في أقدس كتب القوم وأنقاها باعترافهم) هو قول على الله بلا علم، وهو من اتباع خطوات الشيطان التي نهانا الله عنها بقوله: {يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إن لكم عدو مبين* إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} (البقرة:168 و169).

الفصل الثالث

التنفير من الطريق الشرعي للهداية

لما كان الدخول في الطريق الصوفي لا يشترط له التوجه إلى الكتاب والسنة، بل إن التوفيق له يأتي أحياناً عن طريق الهاتف، وأحياناً بطرق أخرى سنعرفها فيما بعد إن شاء الله تعالى، فإن القوم منذ نشأتهم رأوا أن علمهم الذي يحصلون عليه -في زعمهم- أفضل من علم الكتاب والسنة، بل رأوا أن علم الكتاب والسنة مشغلة عن طريقهم ومسلكهم، وهذه بعض عباراتهم في ذلك:

I- قال أبو يزيد البسطامي (مات سنة 261هـ) ناعياً على علماء الشريعة مفاخراً لهم:

"أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تقولون: حدثني فلان، وأين هو؟ قالوا: مات، عن فلان وأين هو؟ قالوا: مات" (الفتوحات المكية ج1-ص365).

ب- وهذا الجنيد يقول: "ما أخذنا التصوف عن القيل والقال" (طبقات السلمي 158).

ج- ويقول أيضاً: "أحب للمبتدئ ألا يشغل قلبه بهذه الثلاث، وإلا تغيرت حاله: التكسب وطلب الحديث والتزوج، وأحب للصوفي أن لا يقرأ ولا يكتب لأنه أجمع لهمه" (قوت القلوب:3/135).

د- وقال أبو سليمان الداراني: "إذا طلب الرجل الحديث، أو سافر في طلب المعاش، أو تزوج فقد ركن إلى الدنيا" (الفتوحات المكية 1/37).

وهذه أقوال قليلة مما نسب إلى القوم في وجوب ترك علم الشريعة، والانصراف إلى طريقهم الخاص في التلقي والكشف.

ولا يخفى على أي منصف يتقي الله تبارك وتعالى، ويقول كلمة الحق أن هذه الأقوال كافية في هدم الشريعة الإسلامية، بل في هدم العمران كله، لأن الحضارة الإنسانية حتى المادية منها لا تقوم إلا على هذه الثلاث: العلم، وطلب الكسب والمعاش، والزواج. وحضارة الإسلام خاصة تقوم على هذه الثلاث، وتأمر بطلب علم الآخرة وهو علم الكتاب والسنة، وكذلك علم الدنيا وهو كل علم نافع لحياة الإنسان ورقيه في هذه الأرض.

ولم يكتف أهل هذا المنهج من المتصوفة بالتنفير من علم الشريعة والحديث بل جعلوا كشفهم، وما يزعمون نقله من العلم عن الله تبارك وتعالى حاكماً على إسناد الحديث فيصححون ما شاؤوا من الأحاديث، وإن كانت ضعيفة عند علماء الحديث والسنة، ويضعفون ما شاؤوا منها، وإن كانت ثابتة صحيحة حسب الموازين العلمية الدقيقة التي تعارف عليها علماء الحديث ومصطلحه، والتي هي بحق مفخرة الإسلام، فليس عند أمة من أمم الأرض قديماً وحديثاً تثبت في النقل على النحو الذي درج عليه علماء هذه الأمة في التعرف على الحديث الصحيح من الضعيف، وبذلك -ولله الحمد- سلم دين الأمة من دخول أقوال الزنادقة والملاحدة فيه.

أقول عمد رؤساء المتصوفة إلى هدم الإسناد في الحديث، وهو مفخرة الإسلام بحق، وذلك عن طريق الحكم على الإسناد بعلمهم الخاص. يقول ابن عربي في رسائله:

"وربما قالوا (أي علماء الشريعة) إذا عاينوهم (أي عاينوا علماء الصوفية) يتكلمون بمواجيدهم مع أصحابهم: دين مكتوم، دين مشوم، وما عرفوا جهات الدين. وهؤلاء ما تكتموا بالدين فقط، وإنما تكتموا بنتائجه، وما وهبهم الحق تعالى في طاعته حين أطاعوه، وبما صح عندهم من أحاديث الأحكام ما اتفق على ضعفه، وتجريح نقلته، وهم أخذوه عن الكشف (الكشف: هو انكشاف حجاب القلب ورؤيته أشياء من الغيب زعم الصوفية أنه يحصل لهم، ومراد ابن عربي هنا بالكشف الاتصال بالرسول، ومعرفة الحديث منه رأساً (انظر الباب الخاص بالكشف الصوفي))، عن قائله صحيحاً، فتعبدوا به أنفسهم على غير ما تقرر عند علماء الرسوم، فينسبونهم إلى الخروج عن الدين، وما أنصفوا فإن للحق وجوهاً يوصل إليه منها هذا أحدها، ورب حديث قد صححوه واتفقوا عليه، وليس بصحيح عندهم من طريق الكشف، ويتركون العمل به مثل ذلك سواء" (رسائل ابن عربي:ص4).

ومعنى هذا كله أن للمتصوفة حكمهم الخاص على إسناد الحديث، فعن طريق الكشف يتصلون رأساً بالنبي ويصححون الحديث أو يضعفونه!! وبهذا الهجوم على قواعد علم الحديث تتهدم السنة، وتبقى ألعوبة في يد هؤلاء الذين يحكمون عليها بما شاؤوا وليس من ضابط يرجع إليه، ولا فيصل يحتكم إليه ما دام أن الكشف هذا علم غيبي، وقد يكون كشف هذا غير كشف ذاك.

أقول: لم يكتف المتصوفة بوضع الأصول على ترك العلم الشـرعي والتنفير منه، بل أصلوا الأصول أيضاً لهدم علوم الشـريعة وزوالهـا، وهذا أول معول من معاول الهـدم، هـدم الإسـناد لمعرفـة الحـديث الصحيح من الضعيف.

ولم يكتف المتصوفة بالنهي عن العلم، بل جعلوا العلم عـورة يجب أن تستر وتغطى، حتى إن شيخاً يرى مريداً لـه، وقـد سـقطت منـه محبرة، فيقول له: اخف سوأتك!! (عن تلبيس إبليس لابن الجـوزي ص370)

وبعد أن وضع المتصوفة هذه القواعد لهدم العلم الشرعي والتنفـير منـه دعـوا النـاس إلى العلم البـاطني الـذي أطلقـوا عليـه اسـم الحقيقة، وقالوا: إن طريق الوصول إليه هو الكشف والفتح الرباني والفيض الرحماني. لنعلم أنهم لا يعنون بالعلم البـاطن إصـلاح حـال القلوب كما يزعم بعضهم، بل إنهم يعنون علماً خاصـاً يكشـفون بـه حقائق يزعمون رؤيتها والتحقـق بهـا. ولقـد بـالغوا في تفضـيل هـذا العلم، وتشديد التنكير على من نفـاه أو خالفـه. وقـد كـانوا يخفـون هـذا العلم والكشـف في أول أمـرهم، ويجعلونـه من الأسـرار والخصوصـيات، ولكنهم سـرعان مـا أعلنـوا عنـه وكشـفوه بعـد أن تحولت دفة الناس إليهم.

الفصل الرابع

القول بالحلول

لما كان طلب الجنة والفرار من النار ليس هدفاً عند المتصوفة بـل كـان هـذا هـو طلب العامـة والـدهماء في زعمهم فـإن المتصـوفة جعلوا لهم أهدافاً أخرى غير ذلك وهو أن يكون كـل منهم إلهـاً وربـاً يعلم الغيب كله كما يعلمه الله سبحانه وتعالى ويتصرف في الكـون كله كما يتصرف الله فيحيي، ويميت ويخفض ويرفع، ويعز ويذل..

لقد أصـبح الهـدف الصـوفي هـو الوصـول إلى مقـام النبـوة أولاً ثم الـترقي حـتى يصـل الفـرد منهم في زعمهم إلى مقـام الألوهيـة والربوبية.

فهذا مثلاً أبـو يزيـد البسـطامي وهـو من أئمـة القـوم ومقـدميهم، توفي سنة 261هـ، فهو من أعلام القرن الثالث في التصـوف، وقـد

مر بك كلامـه في شـأن الرجـل الـذي اسـتفتاه في أنـه لا يجـد في نفسه من علوم القوم شيئاً، فأفتاه بتلك الفتوى العجيبة. يــذكر عن نفسه ما يأتي:

"رفعني مرة فأقـامني بين يديـه، وقـال لي: يـا أبـا يزيـد! إن خلقي يحبــون أن يــروك، فقلت: زيــني بوحــدانيتك، وألبســني أنانيتــك، وارفعني إلى أحديتك، حـتى إذا رآني خلقـك قـالوا: رأينـاك، فتكـون أنت ذاك، ولا أكون أنا هنا" (اللمع ص461).

وهذا الكلام لا يحتـاج إلى تفسـير وتأويـل، والاعتـذار عنـه مشـاركة لصاحبه في الباطـل الـذي يسـعى إليـه، ولنـترك سـيد الطائفـة في وقته (الجنيد) يفسر كلام صاحبه أبي يزيد البسطامي يقـول الجنيـد في تفسير الكلام السابق:

"هــذا كلام من لم يلبســه حقــائق وحــدة التفريــد في كمــال حــق التوحيد، فيكون مسـتغنياً بمـا ألبسـه عن كـون مـا سـأله.. وسـؤاله لذلك يدل على أنه مقارب لما هناك، وليس المقارب للمكان بكائن فيه على الإمكان والاسـتمكان.. وقولـه: ألبسـني وزيـني، وارفعـني يدل على حقيقة ما وجده مما هذا مقداره ومكانه، ولم ينل الحظوة إلا بقدر ما استبانه" أ.هـ (اللمع ص461).

وبالطبع لن يسـتطيع أحـد أن يفهم شـرح الجنيـد لكلام صـاحبه أبي يزيد إلا من فهم عقيدة القوم، وعرف محتواها على الحقيقة. وإليك شرح كلامه حتى كأنك تحسه وتراه إن شاء الله.

أقــول: حكم الجنيـد على صـاحبه أبي يزيـد بأنـه لم يصـل بعـد إلى كمال حقيقة التفريد (ومعنى التفريد أن يعتقـد الصـوفي أنـه مـا تم في الحياة إلا فرد واحد، هو الله، تعددت وجوداته بحسب مـا يظهـر للناس، ولكن الحق واحد!! ولذلك قال عن أبي يزيد: "هذا كلام من لم يُلبسْهُ (أي الله تعالى) حقائق وحدة التفريد"، أي لم ير غير الله غيراً كما مر من كلام الحلاج.. ولـذلك قـال عنـه أيضـاً بأنـه لـو رأى التفريد على الحقيقة لكان مستغنياً بما ألبسـه عن كـون مـا سـأله، فقد سأل البسطامي ربـه أن يلبسـه أنانيتـه، ويرفعـه إلى أحديتـه.. ولو كان متحققاً من القول بوحدة الوجود لم يقل ذلك، ولم يطلبــه، لأنه سيعلم يقيناً أنه هو الله.. ولذلك رآه الجنيد بسؤاله هـذا مقاربـاً للحقيقـة الصـوفية النهائيـة، فقـال: "وسـؤاله لـذلك يـدل على أنـه مقارب لما هناك.." ثم شرح هذا القول بقوله:

"وقوله ألبسني وزيني وارفعني: يدل على حقيقة ما وجده مما هـذا مقداره ومكانـه، ولم ينـل الحظـوة إلا بقـدر مـا اسـتبانه" أي فهـذا مكان أبي يزيد في فهم الحقيقة الصوفية، ولم يصل بعد إلى فهمنـا على الحقيقة.

فانظر أيها الأخ المنصف أين كان الجنيد سيد الطائفة الصــوفية من قضية التوحيد في الإسلام..

ولم يكن حكم الجنيد على أبي يزيـد البسـطامي في قولـه السـابق منفرداً به، بل حكم بهـذا الحكم صـاحبها الشـبلي الـذي كـان أوحـد القوم حالاً كما قالوا.

وروى صاحب اللمـع الحكايـة الآتيـة (ص741): "حكي عن الشـبلي رحمه الله.. أنه سئل عن أبي يزيد البسطامي رحمه اللـه. وعـرض عليه ما حكي عنه مما ذكرناه وغير ذلك، فقال الشبلي رحمه اللــه: لو كان أبو يزيد رحمه الله هـا هنـا لأسـلم على يـد بعض صـبياننا..، وقال: لو أن أحداً يفهم ما أقول لشددت الزنانير".

فانظر كيف حكم الشبلي على أبي يزيد بأنه لا يصلح تلميذاً له، بــل لـو كـان موجـوداً معـه الآن في وقتـه لأسـلم على يـد بعض صـبيان الشبلي.. وأنا أجـزم الآن أنـه يقصـد بهـذا الإسـلام أن يعلمـه أنـه لا موجود إلا الله.. ولذلك قال بعد ذلـك: "لـو أن أحـداً يفهم مـا أقـول لشدد الزنانير" ومعنى شـد الزنـار أن يلبس لبـاس أهـل الذمـة من اليهود والنصارى والمجوس، لأنه كان يعتقد -بما لبس على النــاس- أن أحداً من معاصريه لا يفهم مـا يشـير إليـه بهـذه الأقـوال.. وهـذا حق، لأن القوم ليسوا على الناس بما ادعــوه من الصـلاح والتقــوى ومحبة الله ورسوله. وقد مر بك أن هذا الشبلي كان سـميناً بـديناً، ومع ذلك كان يزعم أنه يحمي المرود ويكتحل به حتى لا ينام.

ومما يدلك على ما جزمت به سالفاً من تفسير قول الشبلي الآنــف ما فسر به أيضاً الجنيد حال أبي يزيد البسطامي قائلاً:

"إن أبا يزيد رحمه الله.. مع عظم حاله، وعلو إشارته لم يخــرج من حال البدايـة، ولم أسـمع منـه كلمـة تـدل على كمـال النهايـة" (ص 479).

فانظر وتيقن الآن معتقد القوم الذين يشهدون على البسطامي بأنه لم يجاوز حال البداية، وهو الذي قال الأقوال السالفة.. ولا غرو في ذلك ما دام الشبلي يقول عن نفسه لأبي عبدالله بن جابان بعــد أن

زاره، وأراد أن يخرج من عنده هـو وبعض زملائـه: "مـروا أنـا معكم حيثما كنتم، أنتم في رعايتي وفي كلاءتي" (ص478).

فالذي وصل إلى هذه النهاية لا شك أنه يحكم على كلام البسطامي أن ما جاوز البداية..

وقد يظن ظان أن الجنيد كان دون الشبلي في هذه الأقـوال، وهـذا من الجهـل والغفلـة، وعـدم تتبـع القضـية الصـوفية، والغـوص على مغاليقها وأسرارها، والأمر على غير ذلك، فالجنيد كان أسبق أولئـك القوم إلى العقيدة الصوفية، وأعلم الناس بها، ويـدلك على هـذا أن الشبلي يسأله يوماً، فيقول له: يا أبـا القاسـم مـا تقـول فيمن كـان الله حسبه قولاً وحقيقة؟ فقال الجنيد رحمه الله.. يا أبا بكـر (وهي كنية الشبلي) بينك وبين أكابر الناس في سـؤالك هـذا عشـرة آلاف مقام، أوله محو ما بدأت به (اللمع ص487).

فانظر كيف سأل الجنيد عن حقيقـة من حقـائق الإسـلام، وهي أن يكون اللـه حسـب المـرء في اعتقـاده وقولـه وكـل شـؤونه، أي أن يعتقد المسلم أن الله كافيـه في كـل مـا يهمـه ويشـغله، وهـذا من كمال التوحيد كما قال تعالى: {أليس اللـه بكـاف عبـده ويخوفونـك بالذين من دونه} (الزمر:36)، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم عنــدما قيــل لــه: إن قريشــاً عــزمت أن ترجــع لتستأصــل شــأفة المسلمين بعد هزيمة أحد قال صلى الله عليه وسلم: [حسـبنا اللـه ونعم الوكيل] أي الله كافينـا ومنجينـا سـبحانه وتعـالى. انظـر كيـف حكم الجنيد على هذه الحقيقة الشـرعية بـأن سـؤال الشـبلي عنهـا يدل على أن بينـه وبين أكـابر النـاس أي (كـبراء الصـوفية) عشـرة آلاف مقام، أول هذه المقامات محو هـذه الحقيقـة الشـرعية الـتي بدأ الشبلي بالسؤال عنها..

الفصل الخامس

القول بوحدة الوجود

لما بدأ القول بـالحلول، وجعـل المتصـوفة غـايتهم من التصـوف أن يتشبهوا بصفات الله في زعمهم فيكون أحدهم إلهاً يعلم كل شيء، ويتصرف في كل شيء فإن هذا الحال استمر بهم حتى وصـلوا في النهاية إلى القول بوحدة الوجود، وأن كل شـيء إنمـا هـو اللـه وأن الله هو الذي في الكون وحده وليس هناك شيء آخر معه.

ومصطلح وحدة الوجود يعني في العقيدة الصـوفية أنـه ليس هنـاك موجود إلا الله فليس غيره في الكون، وما هذه الظواهر التي نراها إلا مظاهر لحقيقة واحدة، هي الحقيقة الإلهية (تعالى الله عن ذلـك علواً كبيراً)، هذه الحقيقة التي تنوعت وجوداتها ومظاهرها في هـذا الكون المشاهد، وليس هـذا الكـون -في هـذه العقيـدة الباطلـة- إلا الله في زعمهم، تعالى الله عن ذلك.

وقد رأينا كيف عبر الحلاج عن هـذه العقيـدة بكـل صـراحة ووضـوح فيما نقلناه عنه آنفاً، وكيف عـبر عنهـا الشـبلي بشـيء من التعميـة واللف والدوران، وكيف جاءت في الكلام المنسوب إلى الجنيد في شيء من الحذر والحيطة.

ولقد استمرت هذه العقيدة معلومـة عنـد أنـاس مخصوصـين فقـط بلغـوا النهايـة في الطريـق الصـوفي، ولكنهم لم يعـبروا عنهـا إلا بتعبـيرات ملفوفـة غامضـة، لا يفهمهـا إلا من سـار سـيرتهم، وذاق ذوقهم، وكشف غوامض كلامهم.

ولكن القرن السادس الهجري شهد في أواخره، وبداية القرن الذي يليـه رجلاً عجيبـاً اسـتطاع أن يصـوغ هـذه العقيـدة صـياغة كاملـة، ويضرب لها آلاف الأمثلة، ويبني عليها فروعها المختلفة في الاعتقاد والتصور، ويؤلف فيها عشرات الكتب، ذلك الرجل هو محـيي الـدين بن عـربي المتـوفي سـنة 638هـ، نشـأ هـذا الرجـل في الأنـدلس، واسـتقر بـه المقـام في الشـام، ورمي بـالكفر والزندقـة والإلحـاد والكذب، ولكن عقيدته ومذهبه وجدت المشيعين والمروجين الـذين استطاعوا أن يرفعوه -كما رفع نفسه- إلى مرتبـة الولايـة، بـل إلى ختم الولاية ومرتبة المشيخة الكبرى وإحياء الدين.

وبالرغم من أن ابن عربي هـذا قـد زعم أنـه نقـل علمـه وكتبـه عن الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة، وكتب عن اللوح المحفـوظ بلا وساطة، وصاغ عقيدة وحدة الوجود بكل جـرأة وبلا مواربـة، بـل بقليل من التدليس والمراوغـة، واسـتطاع أن يحـرف آيـات القـرآن فيزعم أن قوم هود الكـافرين كـانوا على الصـراط المسـتقيم، وأن فرعون كـان مؤمنـاً كامـل الإيمـان، وأن قـوم نـوح كـانوا مؤمـنين، فجـازاهم اللـه بـأن أغـرقهم في بحـار الوحـدة، وأدخلهم نـار الحب الإلهي ليتنعموا فيها، وأن هارون أخطأ لأنـه نهى بـني إسـرائيل عن عبادة العجل، وما كان العجل إلا المعبود الحق، أو صـورة من صـور المعبود الحق، وأن قوم نوح أصـابوا في عـدم تـركهم وداً وسـواعاً

ويغوث ويعوق ونسراً لأنها مظاهر للإله الواحد، وأن النـار عذوبـة لا عذاب، وأنه ما من إنسان إلا مرحوم مرضي عنـه، وأن اللـه لا يعلم شيئاً قبل وجوده، لأن وجود الشيء هو وجود العلم، بـل وجـود كـل شيء هو ترجمة لوجود الله (تعالى الله عن ذلك) أقول: بالرغم من أن ابن عربي قال هذا الكلام كله، بل هذا جزء يسير جداً مما قالـه، فإنه أدعى بأن كل ذلك قد نقلـه بلا زيـادة ولا نقصـان عن الرسـول الذي أمره بتبليغ ذلك للناس، وبالرغم أيضاً من كل ذلـك فقـد وجـد هذا الرجل من المروجين والأتباع ما لا يقع تحت الحصر منذ ظهوره إلى زماننا هذا، ومن أمة الإسلام الذين يشهدون في كل يوم مرات كثيرة بأن لا إله إلا اللـه وأن محمـداً رسـول اللـه، وهـذا من أعجب العجب.

وهاك الآن نقولاً صوفية من كتبه تدلك على هذه العقيدة.

1- قال في مطلع كتابه "فصوص الحكم" وهـو الكتـاب الـذي جعلـه خاتمة لأعماله جامعاً لعقيدته: "أما بعد فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشـرة أريتهـا في العشـر الآخـر من المحـرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسـة دمشـق، وبيـده صـلى اللـه عليه وسلم كتاب، فقال لي: هذا "كتاب فصوص الحكم خذه واخرج به إلى الناس ينتفعـون بـه، فقلت: السـمع والطاعـة للـه ولرسـوله وأولي الأمر منا كما أمرنا" ثم يقول:

فحققت الأمنية، وأخلصت النية، وجـردت القصـد والهمـة إلى إبـراز هذا الكتاب كما حده لي الرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم من غـير زيـادة ولا نقصـان" (الفصـوص، ص47، طبـع بـيروت. تحقيـق: أبـو العلاء عفيفي).

ويقول في مكان آخر بعد أن ذكر مواضيع الكتاب: "فاقتصرت على ما ذكرته من هذه الحكم في هـذا الكتـاب على حـد مـا ثبت في أم الكتاب، فامتثلت ما رسـم لي، ووقفت عنـد مـا حـد لي، ولـو رمت زيادة على ذلك ما استطعت فإن الحضرة تمنع من ذلك" (ص58).

ويقول أيضاً في "فص حكمة علويـة في كلمـة موسـوية": "وأنـا إن شاء الله أسرد منها في هذا الباب على قدر ما يقع به الأمــر الإلهي في خاطري فكان هذا أول ما شوفهت به من هذا الباب" (ص58).

وهذه النقول من مقدمة الكتاب ومن ثنايـاه تعلمـك إصـرار الرجـل أنه ينقل عن الله مباشرة بل مشافهة، وعن اللوح المحفوظ رأسـاً،

وعن الرسول الذي أمره في تلك الرؤيا المزعومة أن يخرج على الناس بهذا الكتاب، فماذا في هذا الكتاب من العلم بالله ورسالاته والهدى والنور؟ لننظر.

2- يزعم ابن عربي أن قوم نوح أجابوا رسولهم إجابة حقيقية، وأن نوحاً مكر بهم فمكروا به، وأن تمسكهم بآلهتهم إنما هو تمسك بحق أراد نوح أن يزيلهم عنه، وهاك نص عباراته في ذلك:

"علم العلماء بالله ما أشار إليه نوح عليه السلام في حق قومه من الثناء عليهم بلسان الذم، وعلم أنهم إنما لم يجيبوا دعوته لما فيها من الفرقان، والأمر قرآن لا فرقان، ومن أقيم في القرآن لا يصغي إلى الفرقان وإن كان فيه..، دعاهم ليغفر لهم، لا ليكشف لهم، وفهموا ذلك منه صلى الله عليه وسلم. لذلك (جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم) وهذه كلها صورة الستر التي دعاهم إليها، فأجابوا دعوته بالفعل، لا بلبيك.

قال نوح في حكمته لقومه: {يرسل السماء عليكم مدراراً} وهي المعارف العقلية في المعاني والنظر الاعتباري، {ويمددكم بأموال} أي بما يميل بكم إليه، فإذا مال بكم إليه رأيتم صورتكم فيه، فمن تخيل منكم أنه رآه فما عرفه، ومن عرف منكم أنه رأى نفسه فهو العارف" (ص71).

فانظر كيف جعل المطر والخصب الذي هو نتيجة للصلاح والتقوى والإيمان والاستغفار والمعارف العقلية.. وكيف جعل الأموال أي ما يميل بهم إليه فيرون صورتهم فيه، وهذه هي وحدة الوجود، ولذلك يقول بعدها: "فمن تخيل أنه رآه فما عرف وأما من رأى نفسه فهو العارف".

ثم يقول: {ومكروا مكراً كباراً} لأن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو، أدعو إلى الله فهذا عين المكر، فأجابوه مكراً كما دعاهم (ص72)، فانظر كيف جعل الدعوة إلى الله مكراً بالمدعوين، بل عين المكر ثم بين نوع المكر الذي قابل قوم نوح نوحاً، فيقول: "فقالوا في مكرهم: لا تذرن آلهتكم، ولا تذرن وداً ولا سواعاً، ولا يغوث ويعوق ونسراً، فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء، فإن للحق في كل معبود وجهاً يعرفه من يعرفه، ويجهله من يجهله..، فما عبد غير الله في كل معبود" (ص72).

وبهذا يجعل ابن عربي تلك الآلهة الباطلة التي عبدها قوم نوح آلهة حقة، لأنها في زعمه وجه من وجوه الحق.

ثم يقول مكملاً تبديل آيات الله: {ولا تزد الظالمين} لأنفسهم (المصطفين) الذين أورثوا الكتاب أول الثلاثة، فقدمه على المقتصد والسابق {إلا ضلالاً} إلا حيرة" (ص73).

وهنا يجعل ابن عربي قول الله في شأن قوم نوح: {ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً} وهو الدعاء الذي دعا به نوح على قومه، يجعل ابن عربي هذا الظلم كالظلم الذي وصف الله به طائفة من الذين أورثهم الكتاب حيث قال: {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات} فيجعل هذا الظلم كذاك الظلم، وهذا غاية التلبس والثعلبية.

ثم يقول ابن عربي: (مما خطيئاتهم) فهي التي خطت بهم، فغرقوا في بحار العلم بالله. {فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً} فكان الله عين أنصارهم، فهلكوا فيه إلى الأبد" (ص33)، ثم يحرف قول الله تعالى: {إنك إن تذرهم يضلوا عبادك} قائلاً: "أي يحيروهم، فيخرجوهم من العبودية إلى ما هم فيه من أسرار الربوبية، فينظرون أنفسهم أرباباً بعدما كانوا عند أنفسهم عبيداً، فهم العبيد الأرباب" (ص74).

فيجعل ضلال قوم نوح إنما هو حيرة، لأنهم عرفوا أسرار الربوبية، وأن كل موجود هو الله، فأصبحوا بذلك أرباباً عند أنفسهم..

ثم يحرف كلمات الآية الباقية فيجعل (رب اغفر لي) وهو بقية كلام نوح أي استرني، (ولوالدي) يعني العقل والطبيعة و (لمن دخل بيتي) يعني قلبي، (وللمؤمنين) أي العقول. (والمؤمنات) أي النفوس (ولا تزد الظالمين) أي أهل الغيب، (إلا تباراً) أي هلاكاً، فلا يعرفون نفوسهم لشهودهم وجه الحق دونهم، ثم يقول بعد ذلك: "ومن أراد أن يعرف أسرار نوح فعليه بالرقي في فلك نوح، وهو في (التنزلات الموصلية) لنا والله يقول الحق" أ.هـ (ص74).

3- لم يكتف ابن عربي بتصحيح موقف قوم نوح الضالين المكذبين، بل عمد إلى جميع كفار الأرض فجعلهم مؤمنين موحدين عارفين واصلين، وعمل إلى المسلمين فجعلهم مؤمنين بجزء من الحق فقط كافرين بأجزاء أخرى، ولم ينس ابن عربي فرعون اللعين

الــذي لم تعــرف الأرض قبلــه أكفــر منــه ولا أظلم، فجعلــه من المؤمنين الموحدين الفائزين بالجنة حيث يقول:

"ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت، وأنه الخليفــة بالسـيف، وإن جـار في العـرف الناموسـي، لـذلك قـال: (أنـا ربكم الأعلى) أي وإن كان الكل أرباباً بنسـبة مـا فأنـا ربكم الأعلى منهم، بمـا أعطيتـه في الظـاهر من التحكم فيكم، ولمـا علمت السـحرة صدقه في مقاله لم ينكروه، بل أقروا له بذلك، فقالوا: (إنما تقضي هذه الحياة الدنيا). (فاقض ما أنت قاض) فالدولة لك، فصـح قولـه: أنا ربكم الأعلى" (ص210،211).

وهذا الكلام واضـح ووازنـه بكلام الحلاج الآنـف في شـأن فرعـون، لتعلم وحـدة العقيـدة الـتي دعـا إليهـا هـؤلاء الأقـوام. بقي أن تعلم إشاراته الخبيثة في كلامه، نحو: أن فرعون كـان الخليفـة بالسـيف، ويعني بالخليفـة قـول اللـه لـداود: (إنـا جعلنـاك خليفـة في الأرض) فيقيس الخلافة الشرعية النبوية على الملـك المتسـلط الفـاجر، ثم شــريعة موســى عُرفــاً، أي مــا يعرفــه موســى، ولــذلك اتهم بعض الصوفية الآخـرين موسـى عليـه السـلام بالجهـل، وفرعـون بـالعلم والمعرفة، فقال: كان فرعـون أعلم باللــه من موسـى، لأنـه عـرف حقيقة الحق، وأما موسى فما عرف إلا وجهاً واحداً، ولم يعــرف أن الكل أرباب وأنهم مخلوقون في نفس الوقت، فالإنسان عندهم هـو الحق والخلق، كما سيأتي بالنص إن شاء اللـه من كلام ابن عــربي، ولذلك قـال ابن عــربي معللاً كلمـة فرعـون: (أنـا ربكم الأعلى) أن الكل أرباب بنسبة ما؛ وفرعون أعلى من هؤلاء الأرباب، لأنه الملك المطاع في ذلك الوقت.

وعلى هذا فقد حكم له بالإيمان والجنـة زاعمـاً أنـه آمن عنـدما رأى انفلاق البحر لبني إسرائيل، فنجاه الله من العذاب الآخروي، وعمته النجاة حساً ومعنى، وأنكر على من يقول: إنـه من المعـذبين قـائلاً: "ليس لديهم نص في هذا المعـنى"، مـع العلم أن اللـه يقـول عنـه: {ولقد أرسـلنا موسـى بآياتنـا وسـلطان مـبين* إلى فرعـون وملئـه فاتبعوا أمـر فرعـون ومـا أمـر فرعـون برشـيد* يقـدم قومـه يـوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود* وأتبعـوا في هـذه لعنـة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود} (هود:96-99).

وما غاب هذا النص عن ابن عربي، ولكنه التلبيس والثعلبية والمكر، ومخالفة سبيل المؤمنين من أولهم إلى آخرهم.

وعلى هذه العقيدة الباطلة أيضاً صحح ابن عربي موقف السامري، وصناعته للعجل الذي فتن به بنو إسرائيل، فعبدوه من دون الله، وخطّأ ابن عربي هارون عليه الصلاة والسلام، لأنه ما عرف الحق، وأنكر على بني إسرائيل، وزعم ابن عربي أن موسى عرف الحق وأنكر على السامري أن يحصر الإله في شيء واحد فقط، لأن عين كل شيء هي عين الإله، وهي عين الحق (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

يقول ابن عربي في ذلك: "ثم قال هارون لموسى عليه السلام: (إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل) فتجعلني سبباً في تفريقهم، فإن عبادة العجل فرقت بينهم، فكان منهم من عبده اتباعاً للسامري وتقليداً له، ومنهم من توقف عن عبادته حتى يرجع إليهم موسى فيسألونه عن ذلك، فخشي هارون أن ينسب ذلك الفرقان بينهم إليه، فكان موسى أعلم بالأمر من هارون، لأنه علم ما عبده أصحاب العجل، لعلمه أن الله قضى ألا يعبد إلا إياه.. وما حكم الله بشيء إلا وقع.. فكان عتب موسى أخاه هارون لما وقع الأمر في إنكاره وعدم اتساعه، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء" أ.هـ (الفصوص ص192).

فانظر كيف زعم الخبيث أن موسى علم أن أصحاب العجل ما عبدوا إلا الله، لأن الله قال: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه} (الإسراء:23)، فجعل هذا القضاء قضاء كونياً قدرياً، وأن الله ما حكم بشيء إلا وقع، ومعنى هذا عنده أن كل معبود في الأرض إنما هو الله، وما عبد الإنسان شيئاً حجراً أو غيره إلا عبد الله، مستدلاً بالآية السالفة بمعنى حكم وأمر، وهذا الحكم والأمر حكم شرعي، فمن هداه الله ووفقه إليه امتثله. ومن اتبع سبيل الغواية والشيطان انحرف ومال عنه، كبقية الأوامر الشرعية، نحو وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، ونحو قوله تعالى: {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم} (الأحزاب:36). وقد خالف قضاء الله وأمره كثير من الكفار والملاحدة والجاحدين، وخالف بعض المؤمنين بعض ما قضى الله به ورسوله، وكثيراً مما أمر به.

وها قد رأيت أن ابن عربي ختم عبارته بقوله: "فالعارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء" وهذا منتهى العقيدة الصوفية، والفارق هو الاصطلاح الصوفي لمن تحقق من هذه

العقيدة الخبيثة، ووصل النهاية في هذا العلم الخبيث (والحق) هو الله في زعمهم، تعالى الله عن ذلك وسبحانه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم يتمم ابن عربي شرح عقيدته الباطلة، فيحرف معنى قول الله تعالى: {فما خطبك يا سامري} قائلاً: "يعني فما صنعت من عدو لك إلى صورة العجل على الاختصاص" أ.هـ، أي لماذا خصصت العجل فقط بكونه إلهاً، والحال في هذه العقيدة أن كل شيء هو الله، ولذلك حرق موسى العجل حتى لا يحصر الإله في شيء واحد (تعالى الله عن ذلك) ثم يستطرد الخبيث قائلاً: "وقال له: (وانظر إلى إلهك) فسماه إلهاً بطريق التنبيه للتعليم أنه بعض المجالي الإلهية" أ.هـ.

فانظر كيف زعم أن قول موسى للسامري: (وانظر إلى إلهك) أن هذا اعتراف موسى بألوهية العجل، لأنه بعض الأشياء التي يتجلى فيها الرب (سبحانك هذا بهتان عظيم، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً).

ثم يفلسف ابن عربي عدم تسلط هارون على نسف العجل وإحراقه، وكون موسى هو الذي سلط على ذلك، زاعماً أن هذا كان ليعبد الله في كل صورة، والعجل هو إحدى هذه الصور التي يجب عنده -لعنه الله- أن يعبد الله فيها، ويحرف في ذلك قول الله تعالى: {رفيع الدرجات} فلله درجات يعبد فيها، وكل صنم وإله عبد في الأرض، فهو إحدى درجات الله في زعمه (تعالى الله عن ذلك) ثم يجعل عبادة الهوى أعظم هذه الدرجات وأسماها. وهاك نص عبارته في ذلك: "فكان عدم قوة إرداع هارون بالفعل أن ينفذ في أصحاب العجل بالتسليط على العجل كما سلط موسى عليه حكمة من الله تعالى ظاهرة في الوجود، ليعبد في كل صورة وإن ذهبت تلك الصورة بعد ذلك، فما ذهبت إلا بعد ما تلبست عند عابدها بالألوهية" ثم يقول "وما عبد شيء من العالم إلا بعد التلبس بالرفعة عند العابد، والظهور بالدرجة في قلبه، وكذلك تسمى الحق لنا برفيع الدرجات، ولم يقل.. رفيع الدرجة، فكثر الدرجات في عين واحدة، فإنه قضى أن لا يعبد إلا إياه في درجات كثيرة مختلفة، أعطت كل درجة مجلى إلهياً عبد فيها، وأعظم مجلى عبد فيه وأعلاه (الهوى) كما قال: {أفرءيت من اتخذ إلهه هواه}

(الجاثية:23) وهو أعظم معبود، فإنه لا يعبد شـيء إلا بـه.. ولا يعبـد هو إلا بذاته، وفيه أقول:

وحق الهوى إن الهوى سبب الهوى ولولا الهوى في القلب ما عبد الهوى"

(الفصوص ص194)

ثم يقول بعـد ذلـك: "والعـارف المكمـل من رأى كـل معبـود مجلى للحق يعبد فيه، ولذلك سموه كلهم إلهاً مع اسمه الخـاص بحجـر أو شجر، أو حيوان أو إنسان، أو كوكب أو ملك" (الفصوص ص195).

ثم جعل ابن عربي بعد ذلـك كفـار قـريش الـذين تمسـكوا بـآلهتهم الباطلة قائلين {ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللـه زلفى} (الزمـر:3) غير منكرين لله، بل متعجبين لأنهم وقفوا مع كثرة الصـور، ونسـبوا الألوهية إليها، ثم يزعم أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قد جاء داعياً لهم إلى إله يعرف، ولا يشهد.. ثم يصـف ابن عـربي هـذا الإله قائلاً: "فدعا (أي الرسول محمد صـلى اللـه عليـه وسـلم) إلى إله يصمد إليه ويعلم من حيث الجملة.. ولا يشهد ولا تدركه الأبصار، للطفه وسريانه في أعيانه الأشـياء، فلا تدركـه الأبصـار كمـا أنهـا لا تدرك أرواحها المـدبرة أشـباحها وصـورها الظـاهرة، وهـو اللطيـف الخبير، والخبرة ذوق، والذوق تجل، والتجلي في صور فلا بـد منهـا، ولا بـد منـه، فلا بـد أن يعبـده من رآه بهـواه إن فهمت.." أ.هــ، ثم يقول مستهزئاً بعقول الجاهلين: "وعلى الله قصد السبيل..".

وأظنك أيها القارئ قد فهمت الآن العقيدة التي دعا إليها ابن عـربي والإله الذي تخيله، وهو ما زعم أنـه الـروح الـذي يسـري في جميـع الموجـودات، بـل الموجـودات هي صـورته الظـاهرة.. وهي عينـه (تعـالى اللـه عن ذلـك علـواً كبـيراً) ولم يكتـف أن ينسـب هـذا إلى نفسه، ومن شايعه، بـل زعم أن هـذه هي عقيـدة موسـى وعيسـى ومحمـد، بـل وجميـع الأنبيـاء والمرسـلين الـذين عرفـوا الأمـر على حقيقته، وأن الرسول قد أعطاه هذا الكتاب، ليخرج به على النـاس ليبلغهم الـدين الحـق، والرسـالة الصـحيحة، وأنـه نقـل فقـط، ومـا تصرف في شيء، بل سـار في حـدود مـا أمـر بـه، ولم يـزد حرفـاً واحداً.

4- ولم تستطع عقبة أن تقـف أمـام ابن عـربي لـترده إلى صـوابه، وليعلم العقيدة الحقة، ولكنه مضى في شـوط التلـبيس والتخطيـط إلى منتهاه.

وكانت من هذه العقبات العقيدة في النـار: جهنم الـتي أعـدها اللـه للكافرين، والتي يصطرخون بها: {ربّنا أخرجنا منها فـإن عـدنا فإنـا ظالمون} (المؤمنون:107) والتي يتمنون فيها الموت، بل يكون هو منتهى آمالهم وغايـة مطلبهم {ونـادوا يـا مالـك ليقض علينـا ربـك} فيرد عليهم مالك قائلاً {إنكم ماكثون} (الزخـرف:77)، جهنم الـتي يدعو أهلها على أنفسهم بالويل والثبور، ويرد اللـه عليهم قـائلاً: {لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبـوراً كثـيراً} (الفرقـان:14) لأنـه لا استجابة لهم، ولا خروج منهـا، فلا يموتـون فيهـا ولا يحيـون، وآيـات كثيرة في وصف جهنم، وبشاعتها وحرقتها، وعـذاب أهلهـا بهـا، كـل هـذه الآيـات لم تمنـع ابن عـربي الـذي حكم لقـوم نـوح بالمعرفـة والإيمان، ولقوم فرعـون ولكفـار مكـة كـذلك، بـل لكـل كـافر على الأرض أنه ما عبد إلا الله في صورة من الصور، أقـول: كـذلك هـذه الآيـات لم تمنـع ابن عــربي أن يحكم لأهــل النــار بــالنعيم المقيم، والسعادة والهناء. وأين ذلـك؟.. في النـار نفسـها، هـذه النـار الـتي وصفها الله بمـا وصـف، ووصـف أهلهـا بمـا وصـف.. هـذه النـار دار سعادة عند ابن عربي، لا دار شقاوة وعذاب، بل دار عذوبـة وهنـاء. وهاك نص عبارته في ذلك:

"وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم على لذة فيها نعيم مباين

نعيم جنان الخلد، فالأمر واحد وبينهما عند التجلي تباين

يسمى عذاباً من عذوبة طعمه وذاك له كالقشر والقشر صاين"

(الفصوص ص94)

فانظر كيف جعل نعيم النار كنعيم الجنة، لأن الأمر واحد في زعمه، وأن العــذاب من العذوبــة، وأن النــار قشــرة تخفي وراءهــا النعيم المقيم لأهل النار.

ويقــول أيضــاً: "فمن عبــاد اللــه من تدركــه تلـك الآلام في الحيـاة الأخرى في دار تسمى جهنم، ومع هذا لا يقطع أحـد من أهـل العلم الذين كشفوا الأمر على ما هو عليه إنه لا يكون لهم في تلـك الـدار نعيم خاص بهم، إما بفقد ألم كـانوا يجدونـه، فـارتفع عنهم، فيكـون

نعيمهم راحتهم عن وجدان ذلك الألم.. أو أن يكـون النعيم مسـتقلاً زائداً كنعيم أهل الجنان والله أعلم". انتهى (الفصوص ص114).

ومع أنه تناقض هنا مع مـا قـرره في أبياتـه السـابقة، وقـال: يكـون النعيم لأهـل النـار بفقـد آلام سـابقة، أو بحصـول لـذة ومتـاع بالنـار كنعيم الجنـة و (أو) تقتضـي الشـك، ولـذلك قـال: واللـه أعلم، مـع العلم أنه قال في مطلع الكتـاب وفي ثنايـاه أنـه ينقـل عن اللـه بلا زيادة ولا نقصان.. فانظر هذا التهافت والتخبط والعمى.. نعوذ باللـه من الخذلان.

أقول مع هذا يعود ويقرر دون شـك أن النـار سـتكون بـرداً وسـلاماً على أهلها، كمـا كـانت نـار إبـراهيم بـرداً وسـلاماً عليـه، يقـول في (الفصوص ص169): "وأما أهل النـار فمـآلهم إلى النعيم ولكن في النار.. إذ لا بد لصورة النار بعد انتهـاء مـدة العقـاب أن تكـون بـرداً وسلاماً على من فيها، وهذا نعيمهم، فينعم أهـل النـار بعـد اسـتيفاء الحقـوق نعيم خليـل اللـه حين ألقي في النـار، فإنـه عليـه السـلام تعذب برؤيتها. وبما تعود في علمه، وتقرر من أنها صـورة تـؤلم من جاورها من الحيوان" أ.هـ.

5- أظنك أيها القارئ الكريم قد عرفت الآن فرعيـات هـذه العقيـدة الصوفية الباطلة، ولمزيد من هذه المعرفة والتوضـيح سـأنقل إليـك بياناً واضـحاً من كلام ابن عـربي أو الشـيخ "الأكفـر أو الأكـبر" كمـا يسـمونه، ممـا تتصـور بـه هـذه العقيـدة، ويكفي في إبطالهـا أن تتصـورها، فهـذه العقيـدة لا تحتـاج إلى رد يبطلهـا، وإنمـا تصـورها تصـوراً صـحيحاً يكفي لبطلانهـا. فمـا عـرف البشـر في تـاريخهم الطويل كفراً وإلحاداً أعظم من هذا الكفر؛ فإن الله تبـارك وتعـالى استعظم مقالة من قـالوا: {اتخـذ اللـه ولـداً} سـبحانه وتعـالى عن ذلك قائلاً: {وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً* ما لهم به من علم ولا لآبـائهم كـبرت كلمـة تخـرج من أفـواههم إن يقولـون إلا كـذباً} (الكهف:4-5).

وقال جل وعلا: {وقالوا اتخـذ الرحمـان ولـداً* لقـد جئتم شـيئاً إداً* تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخـر الجبـال هـداً* أن دعوا للرحمن ولداً* وما ينبغي للرحمن أن يتخـذ ولـداً* إن كـل من في السماوات والأرض إلا ءاتي الرحمن عبداً* لقد أحصاهم وعدهم عداً* وكلهم ءاتيه يوم القيامة فرداً} (مريم:88-95).

فـإذا كـانت السـماوات تكـاد تنفطـر من تلـك المقالـة الخبيثـة، بـل وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، فكيف بمن ينسب كل شيء خبيث في الأرض إلى ذات الله، بل جعله عين الله؟!.. فالذين نسـبوا للـه ولداً نسبوا شيئاً صالحاً كنبي أو ملك، أما الذي جعـل اللـه عين كـل شيء..

أقول: إن تصور هذه العقيدة يكفي لبطلانها عنـد من لـه أدنى حس أو شعور، ولا أقول عقـل ولب، فالقضـية لا تحتـاج معقوليـة لردهـا، وإنما تحتـاج قليلاً من الإحسـاس والشـعور، والحيـاء والخجـل، وقـد لبّس هؤلاء الشـياطين على النـاس زاعمين أن كلامهم لا يفقهـه إلا من ذاق ذوقهم، ووجد وجـدهم، وعـرف معـرفتهم، هأنـا ذا أعطيـك مفـاتيح هـذه المعـارف الباطلـة، والـذوق الخـبيث، والوجـد اللعين، لتعرف الأمر عندهم على ما هو عليه، ولذلك فسأسـرد لـك طائفـة أخرى من الشرح التفصـيلي لهـذه العقيـدة، وكـل هـذا الشـرح من كلام القوم حتى لا يبقى عندك في الحق لبس، ولتعلم أيضـاً أن من زعم منهم أن هـذا الكلام المنقـول عن أسـاتذة الضـلال إنمـا هـو شطح فقط، وغلبة حال فزعمه باطل، لأن الأمر ليس شطحاً، وإنما هو عقيدة فلسفية مقررة مشـروحة في عشـرات الكتب، وأن كـل آي القـرآن قـد حرفوهـا واسـتدلوا بهـا، ليغـيروا عقيـدة المسـلمين الحقـة في إلههم سـبحانه وتعـالى، الـذي يتصـف بصـفات الكمـال، والذي لا يشبه أحـداً من خلقـه، بـل هـو اللـه الواحـد الأحـد، الفـرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولمن يكن له كفواً أحد.

يقول ابن عربي شارحاً عقيدته مسـتدلاً عليهـا بالحـديث الموضـوع: "من عرف نفسه عرف ربه" قال: "قال عليـه السـلام: "من عـرف نفسه عرف ربه"، وهو أعلم الخلق باللـه، فـإن بعض الحكمـاء وأبـا حامد ادعوا أنه يعرف الإله من غير نظر في العالم، وهذا غلط، نعم تعرف ذات قديمة أزلية، لا تعرف أنها إله حتى يعرف المـألوه، فهـو الدليل عليه، ثم بعد هذا في ثـاني حـال يعطيـك الكشـف أن الحـق نفسه كان عين الدليل على نفسه وعلى ألوهيتـه، وأن العـالم ليس سوى تجليه في صور أعيانهم الثابتة التي يسـتحيل وجودهـا بدونـه، وأنه يتنوع ويتصور بحسب حقائق هذه الأعيان وأحوالهـا، وهـذا بعـد العلم به منا أنه إله لنا، ثم يأتي الكشف الآخـر، فيظهـر لـك صـورنا فيـه، فيظهـر بعضـنا لبعض في الحـق، فيعـرف بعضـنا بعضـاً" أ.هـ (الفصوص ص81،82).

فهنا قد أنكر ابن عـربي على أبي حامـد وبعض المتصـوفة الآخـرين الذين قالوا: إن الحق لا يشترط لمعرفته النظر في الكون، بـل قـد يأتي ذلك عن طريق الكشف رأساً دون استدلال بـالكون المشـاهد على الخالق سبحانه وتعالى. وقال ابن عـربي: "إن هـذا لا يكفي إلا لمعرفة ذات قديمة أزليـة، ولكن لا بـد من النظـر في الكـون لتعلم أن الذي تشاهده هو الحق، وهـو الـدليل على الحـق، أي أن الصـور المشاهدة في الكون هي الله، وهي الدليل عليه، ثم يأتي بعـد ذلـك الكشف الآخر الذي يتحقق الإنسان فيه من نفسه أيضاً بأنــه نفســه صورة من صور الحق، فعند ذلك يعرف نفسه، فيعرف ربـه، يعـرف نفسه أنه الله، فيعرف الله أنه كل موجود.."

ولم يكتف ابن عربي بأن يتبع أسلوب الثعـالب في اللـف والـدوران والمراوغة، بل اتبع أيضاً أسلوب الاستفزاز لكل مـؤمن، والنيـل من عقيدة الإسلام بكل احتقار واستهزاء، ويدلك على ذلك أن اسم الله عـز وجـل (العلي) يفهم منـه سـلف الأمـة وعلماؤهـا الأفاضـل أن المقصود به العلو الحقيقي المستلزم مباينته تعـالى لخلقـه، والعلـو المجازي الذي هو علو المكانة، فالله علي بذاته سبحانه وتعالى لأنه فوق عرشه، والعرش سقف المخلوقات كما مدح نفســه بـذلك في سبع آيات من كتابه الكريم، وكما قال مالك بن أنس:

"الاسـتواء معلـوم، والكيـف مجهـول، والسـؤال عنـه بدعـة"، وأمـا المكانة فمنزلة الله عز وجـل فـوق كـل منزلـة، فهـو العلي العظيم سبحانه وتعالى، والخالق القوي القدير، ومـا سـواه معبـود مربـوب مقهور، فحتى العلماء الـذين نفـوا عن اللـه العلـو الحقيقي، وأثبتـوا علو المكانة فقط ما نفوا عن الله هذه الصفة، ولكن انظـر إلى ابن عربي كيف فهم هذه الصفة، وطبقها حسب عقيدته الباطلة:

قـال (الفصـوص ص76-77): "ومن أسـمائه الحسـنى العلي، على من.. وما ثم إلا هو؟ فهو العلي لذاته. أو عن ماذا. ومـا هـو إلا هـو؟ فعلوه لنفسه، وهـو من حيث الوجـود عين الموجـودات، فالمسـمى المحـدثات هي العلّيـة لـذاتها، وليسـت إلا هـو، فهـو العلي، لا علـو إضافة، لأن الأعيان التي لها العدم الثابتة فيه مـا شـمت رائحـة من الوجود، فهي على حالها مع تعـداد الصـور في الموجـودات، والعين واحـدة من المجمـوع في المجمـوع، فوجـود الكـثرة في الأسـماء، وهي النسب، وهي أمـور عدميـة، وليس إلا العين الـذي هـو الـذات فهو العلي لنفسه لا بالإضافة، فما في العالم من هذه الحيثيـة علـو

إضافة لكن الوجوه الوجودية متفاضلة، فعلو الإضافة موجود في العين الواحدة من حيث الوجوه الكثيرة، لذلك نقول في: هو لا هو، أنت لا أنت، قال الخراز (رحمه الله تعالى) وهو وجه من وجوه الحق ولسان من ألسنته ينطق عن نفسه بأن الله تعالى لا يعرف إلا بجمعه بين الأضداد في الحكم عليه بها، فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، فهو عين ما ظهر، وهو عين ما بطن في حال ظهوره، وما ثم من يراه غيره، وما ثم من يبطن عنه، فهو ظاهر لنفسه باطن عنه، وهو المسمى أبا سعيد الخراز وغير ذلك من أسماء المحدثات".

فانظر استهزاءه باسم الله (العلي) حيث يقول: على من؟ وعن ماذا؟ وليس في الوجود غيره، فهو المحدثات، بل هو المسمى أبو سعيد الخراز، وأبو سعيد هذا أحد أئمة القوم في القرن الثالث الهجري..

وانظر كيف جعلوا العلو إنما هو لبعض المحدثات على بعض، وما دام أن جميع المحدثات هو الحق، وهو الله عندهم، فلا يوصف الله بالعلو إضافة أبداً، لأنه ليس شيء غيره في الكون، ولكن يوصف -عندهم- بالعلو لذاته فقط.

ولا يتورع ابن عربي مع ذلك أن ينسب ما في الوجود من شر وقبائح وظلم وسفك دم إلى الله، بل يجعل كل ذلك هو الله فيقول: "فالعلي لنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستغرق به جميع الأمور الوجودية، حيث لا يمكن أن يفوته نعت منها، وسواء كانت محمودة عرفاً وعقلاً وشرعاً، أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة" (الفصوص ص79).

فانظر كيف جعل مسمى الله يستغرق جميع الأمور الوجودية، سواء كانت ممدوحة في العرف والعقل والشرع، أم كانت مذمومة في العرف والعقل والشرع، وليس هناك كفر على الأرض أكبر من هذا الكفر، بل ليس هناك وقاحة وسوء أدب مع الله أعظم من هذا، فاللهم رحمتك بنا ونقمتك بأولئك، أبعدهم الله..

ولقد كرر هذا المعنى كثيراً في كتابه فقال أيضاً: "ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات، وأخبر بذلك عن نفسه وبصفات النقص وبصفات الذم؟" (الفصوص ص80).

ولم يكتف بهـذا القـول المجمـل، بـل فصـل ذلـك أيضـاً حيث جعـل الكبش الذي أنزله الله فداءً لإسـماعيل من الـذبح هـو اللـه (تعـالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

قال ابن عربي:

فيا ليت شعري كيف ناب بذاته شخيص كبيش عن خليفة رحمان

(الفصوص ص84)

فوقتاً يكون العبد رباً بلا شك ووقتاً يكون العبد عبداً بلا إفك

فإن كان عبداً كان بالحق واسعاً وإن كان رباً كان في عيشة ضنك

(الفصوص ص90)

بل لم يكتف بهذا أيضاً حتى زعم أن الحـق لا يشـهد أتم شـهود، ولا يعرف حق المعرفـة إلا في المـرأة.. حـال اللـذة والشـهوة.. وهـاك نصـوص عباراتـه القبيحـة في ذلـك، ووالله لـولا وجـوب بيـان هـذا الباطـل وتحـذير الأمـة منـه مـا كـان لي أن أخـط قلمـاً بهـذا الإثم والفجور، ولكن ما حيلتنا وبين أظهرنـا من يـدافع عن هـذا الباطـل، ويعتقد الولاية لقائليـه، بـل ويكفّـر من تعـرض لهـذا الإثم والفجـور، ويرميهم بالكفر والزندقة، وهؤلاء الضالون قد ملـؤوا أكـبر المراكـز الدينية في بلادنـا، واتبعهم عـوام النـاس دون وعي منهم بمـا خلـف هــذه العمــائم الفارغــة، والشــهادات الزائفــة من الإثم والفجــور والباطل؟!

هذا ابن عربي سيد الصوفية وشيخها من لدنه إلى هذا يفسر حديث الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم: [حبب إلي من دنيـاكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة] فيقول:

"اشتق الله من الإنسان شخصاً على صورته سماه امرأة، فظهـرت بصـورته فحن إليهـا حـنين الشـيء إلى نفسـه، وحنت إليـه حـنين الشيء إلى وطنـه، فحببت إليـه النسـاء، فـإن اللـه أحب من خلقـه على صـورته، وأسـجد لـه ملائكتـه النـوريين على عظم قـدرهم ومـنزلتهم، وعلـو نشـأتهم الطبيعيـة، فمن هنـاك وقعت المناسـبة والصورة أعظم مناسبة، وأجلها وأكملها" (الفصوص ص216).

وقبل أن نستطرد في النقل عن ابن عربي أشرح لـك الإفـك الـذي أفكه هنا، فقد زعم أن الإنسان أحب المرأة، لأنها جزء منه ولا مانع في ذلك، وقد يكون هذا قـولاً صـحيحاً، ثم قـاس على هـذا أن اللـه أحب الإنسان لأنـه خلقـه على صـورته، يعـني أن ابن آدم ظهـر في الوجود على صورة الرحمن، تعالى الله عن ذلك علواً كبـيراً، فكـان ابن عربي مشبهاً لله بخلقه أيضاً، وهذا القـول منـه يخـالف عقيدتـه السابقة في وحدة الوجود، وأن جميع الموجودات هي صورة للحق، ولا تنفرد صورة واحدة بأن تكون مثلاً للخالق بل جميع الصور ذاتهـا ذات الخـالق، وهـذا يـدلك على تناقضـه وخبثـه وثعلبيتـه، ويجعـل السبب الذي من أجلـه أحب اللـه الإنسـان أن الصـورة الـتي خلـق عليها هي أعظم مناسـبة وأقـرأ عبارتـه السـابقة مـرة أخـرى حـتى تفهم مـا يقـول. ثم يسـتطرد ابن عـربي شـارحاً ومفلسـفاً عقيدتـه قائلاً:

"فإنها زوج (أي صورة الإنسـان آدم) أي شـفعت وجـود الحـق كمـا كـانت المـرأة شـفعت بوجودهـا الرجـل، فصـيرته زوجـاً، فظهـرت الثلاثة: حق ورجل وامرأة!!! فحن الرجل إلى ربـه الـذي هـو أصـله حنين المرأة إليه، فحبب إليـه ربـه النسـاء، كمـا أحب اللـه من هـو على صورته، فما وقع الحب إلا لمن تكوّن عنه، وقد كـان حبـه لمن تكـوّن منـه، وهـو الحـق، فلهـذا قـال (حبب) ولم يقـل (أحببت) من نفسـه، لتعلـق حبـه بربـه الـذي هـو على صـورته حـتى في محبتـه لامرأته، فإنه أحبها بحب الله إياه تخلقاً إلهيا") أ.هـ.

فانظر كيف جعل حب الرجـل للمـرأة من التخلـق بـأخلاق اللـه في زعمه، لأن الله قد أحب محمداً الذي خلقه على صورته (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)، ولأن محمداً هو أول موجود حسب عقيدة ابن عربي.

ثم يستطرد ابن عربي في عباراته الوقحة الكافرة القبيحة قائلاً:

"ولما أحب الرجل المرأة طلب الوصلة أي غاية الوصل التي تكـون في المحبة، فلم يكن في صورة النشأة العنصرية أعظم وصــلة من النكاح، ولهذا تعم الشهوة أجزاءه كلها، ولذلك أمر بالاغتسـال منـه، فعمت الطهارة كما عم الفناء فيها عند حصول الشهوة، فإن الحــق غيور على عبده أن يعتقد أن يلتذ بغيره!! فطهـره بالغسـل، لـيرجع بالنظر إليه فيمن فني فيه، إذ لا يكون إلا ذلـك، فـإذا شـاهد الرجـل الحق في المرأة كان شهوداً في منفعل، وإذا شاهد في نفسه -من

حيث ظهور المرأة عنه- شاهده في فاعـل، وإذا شـاهده في نفسـه من غير استحضار صورة ما تكوّن عنه كان شـهوده في منفعـل عن الحـق بلا وسـاطة، فشـهوده للحـق في المـرأة أم وأكمـل.. ولأنـه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل.. ومن نفسـه من حيث هـو منفعل خاصة، فلهذا أحب الرسول صلى الله عليـه وسـلم النسـاء، لكمـال شـهود الحـق فيهن.. إذ لا يشـهد الحـق مجـرداً عن المـواد أبداً.." (الفصوص ص217).

وأظن ليس بعـد هـذا الكلام كلام، وليس بعـد هـذا البيـان بيـان، ولا يملك المسلم الذي عصمه الله من هذا الـتردي الخلقي والعقلي إلا أن يقول (يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك).

ويسـتطرد ابن عـربي مقـرراً هـذا المعـنى شـارحاً لـه بمثـل هـذه العبارات: "فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله..".

وقـائلاً أيضـاً: "فمن أحب النسـاء على هـذا الحـد فهـو حب إلهي". وقائلاً بعد هذا أيضاً:

صح عند الناس أني عاشق   غير أن لم يعرفوا عشقي لمن

(الفصوص ص218)

الفصل السادس

طريقة المتصوفة

في الإعراب عن عقيدتهم الباطنية

مع بداية القرن الثالث الهجري ابتدأ المتصوفة بالتصريح بشيء من علـومهم الباطنـة فـأنكر بعضـهم علي بعض، فهـذا الجنيـد يقـول للشبلي: "نحن حبرنا هـذا العلم تحبـيراً، ثم خبأنـاه في السـراديب، فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملأ" فـرد عليـه الشـبلي بقولـه: "أنا أقول وأنا أسمع فهل في الدارين غيري" (التعرف على مـذهب التصوف ص145).

وقول الشبلي هذا هو بدايات القول بوحدة الوجود.

ثم ابتدأت جماعة من المتصوفة تصرح بشيء من هذا العلم الباطن الذي لم يكن في حقيقتـه إلا القـول بـالحلول، الفنـاء في ذات اللـه الذي تقول به العقيـدة الهنديـة البرهميـة، والقـول بوحـدة الوجـود، وكان هذا في نهايـة القـرن الثـالث الهجـري وبدايـة القـرن الرابـع. وهذه طائفة من هذه الأقوال التي ظهرت على أفواه القوم، وكانت تخفي تحتها العقيـدة الباطنـة الـتي زعمـوا أنهـا في منتهى الكمـال والرقي في سلم التعبد الإسلامي.

أ- ذكر أبو نصر السراج الطوسي صاحب كتاب اللمع في التصـوف، وهو الكتاب الذي نشره الدكتور عبدالحليم محمود وطـه عبـدالباقي سرور أن أبـا حمـزة الصـوفي دخـل دار الحـارث المحاسـبي فثغت (ثغاء الشاه: صوتها) شاة الحارث، فشهق أبو حمـزة شـهقة وقـال: "لبيك يا سيدي"!! فـأنكر عليـه الحـارث المحاسـبي، فقـال لـه أبـو حمزة: إن إنكارك علي يشبه أحوال المريدين المبتدئين" (اللمع في التصوف ص495) أي الذين لم يصـلوا بعـد إلى التحقـق من وحـدة الوجود.

ب- وهـذا أبـو الحسـين النـوري يسـمع كلبـاً يعـوي فيقـول: "لبيـك وسعديك" (اللمع ص492).

ج- وهذا الشبلي أيضـاً يقـول لأحـد زواره عنـد خروجـه: "أنـا معكم حيثما كنتم، أنتم في رعايتي وفي كلاءتي".

د- وكان من أجـرأ هـؤلاء الـذين صـرحوا بهـذا العلم البـاطن الحلاج وقبل أن أستشهد بشـيء من أقوالـه أحب أن أقـدم هـذه المقدمـة عنه:

نشأ الحلاج في أواخر القرن الثالث الهجـري، وهـو من أهـل بيضـاء فارس، ونشـأ بواسـط بـالعراق، وصـحب الجنيـد الـذي يعتـبر سـيد الطائفة الصوفية، وأبا الحسين النوري والفوطي، وقد قتـل ببغـداد، وصلب يوم الثلاثاء السادس من ذي القعـدة سـنة تسـع وثلاث مئـة وعموم المتصوفة راضون عنه، وإن كان قـد رده بعضـهم بعـد قتلـه خوفـاً على أنفسـهم، ولكن ذكـر الأقـدمون منهم أقوالـه في كتبهم دون ذكر اسمه، بأن يقولوا مثلاً: قال أحد الكبراء (وهـذا صـنيع أبي بكر محمـد الكلابـاذي الـذي ألـف الموسـوعة الصـوفية الثانيـة بعـد اللمع، وهو كتابه (التعرف على مذهب أهل التصوف) وكـذلك صـنيع السراج الطوسي صاحب الموسوعة الصـوفية الأولى (اللمـع) وقـد استشـهد بكلام الحلاج في أكـثر من خمسـين موضـعاً من كتابـه مصدراً القول بقوله: قـال بعضـهم، أو قـال القائـل) (انظـر مقدمـة كتاب الحلاج ص11) ولم يسـتطيعوا التصـريح باسـمه، وهـذا صـنيع أكبر رجلين كتبا في التصوف في القرن الرابع، وهما أبو بكر محمـد الكلابـاذي المتـوفي سـنة 380هـ وأبـو نصـر السـراج الطوسـي المتوفي سنة 378هـ،وقد بالغت طائفة منهم بالثناء عليه حتى قـال عنه محمد بن خفيف: "الحسين بن منصـور عـالم ربـاني" (طبقـات الصوفية ص308).

وفي القرن الخامس ومـا يليـه ابتـدأ المتصـوفة يصـرحون باسـمه، ويذكرون مقالاته، ويشهدون بفضله وسعته، فقد أشاد به أبـو حامـد الغـزالي، وابن عـربي، وعبـدالغني النابلسـي وكـل المتصـوفة منـذ القـرن الخـامس. وأمـا في العصـر الحـديث فقـد كتب فيـه طـه عبدالباقي سرور كتاباً بعنـوان: (الحلاج شـهيد التصـوف الإسـلامي) وقد جعله في هـذا الكتـاب ثـائراً على الفسـاد، ومصـلحاً إجتماعيـاً، وداعية إسلامياً إلى الله سبحانه وتعالى.

وبعد هذه المقدمة أعود إلى سياق البحث، وهو أن أجرأ النـاس في إظهار العقيدة الباطنيـة للفكـر الصـوفي كـان الحسـين بن منصـور الحلاج، وهذه الجرأة هي التي أدت بعـد ذلـك إلى القتـل والصـلب، ولقد كان هناك من المتصـوفة من هم على عقيدتـه ولكنهم كتمـوا. يقول الشبلي:

"كنت أنا والحسين بن منصـور شـيئاً واحـداً، إلا أنـه أظهـر وكتمت" (الحلاج لطه عبدالباقي سرور)، ومن أبـرز مـا صـرح بـه الحلاج عن المعتقد الباطن للتصوف ما أنقله بنصه عن كتاب الطواسين للحلاج (نشر لويس ماسنيون) قال الحلاج (طاسين الأزل والالتباس).

"ما صحت الـدعاوي لأحـد إلا إبليس وأحمـد، غـير أن إبليس سـقط عن العين، وأحمد كشـف لـه عن عين العين، قيـل لإبليس: اسـجد، ولأحمد: انظر. هـذا مـا سـجد وأحمـد مـا نظـر، مـا التفت يمينـاً ولا شمالاً، {ما زاغ البصر وما طغى} أما إبليس فإنه دعا لكنها ما رجع عن حوله، وأحمـد ادعى ورجـع عن حولـه بقولـه: [بـك أحـول وبـك أصول] وبقوله: [يا مقلب القلوب] وقوله: [لا أحصي ثناء عليك].

وما كان في أهل السماء موحد مثل إبليس، حيث إبليس تغير عليـه العين، وهجر الألحاظ في السير، وعبد المعبود على التجريـد، ولُعن حين وصل إلى التفريد، وطُلب حين طلب المزيد.

فقال له: (اسجد) قال: "لا غير" قال لـه: (وإن عليـك لعنـتي) قـال: "لا غـير"، مـالي إلى غـيرك سـبيل، وإني محب ذليـل، قـال لـه: (استكبرت) قـال: لـو كـان لي معـك لحظـة لكـان يليـق بي التكـبر والتجبر، وأنا الذي عرفتك في الأزل (أنا خير منه) لأن لي قدمة في الخدمة، وليس في الكونين أعرف مني بك، ولي فيك إرادة، إرادتك في سابقة، إن سجدت لغيرك، فإن لم أسجد لا بد من الرجـوع إلى الأصل، لأنك خلقتني من النار، والنار ترجع إلى النـار، ولـك التقـدير والاختيار، تيقنت أن القرب والبعد واحد!!" ثم يستطرد الحلاج قائلاً:

"التقى موسى وإبليس على عقبـة الطـور، فقـال لـه: يـا إبليس مـا منعك عن السجود؟ قال: منعني الدعوة بمعبود واحد، ولـو سـجدت لـه لكنت مثلـك، فإنـك نـوديت مـرة واحـدة.. انظـر إلى الجبـل.. فنظـرت، ونـوديت أنـا ألـف مـرة أن أسـجد فمـا سـجدت لـدعواي بمعناي، فقال: تركت الأمر؟ قال: كان ذلك ابتلاء لا أمراً، فقال لــه: لا جرم قد غير صورتك. قـال: يـا موسـى ذا وذا تلـبيس، والحـال لا يعول عليه فإنه يحول، لكن المعرفة صحيحة كما كانت ومـا تغـيرت وإن الشخص قد تغير.

فقال موسى: الآن تذكره؟ فقال: يا موسى الفكرة تذكر، أنا مذكور وهو مذكور، ذكره ذكري، وذكـري ذكـره، وهـل يكـون الـذاكرون إلا معاً.

خدمتي الآن أصفى، ووقتي أخلى، وذكـري أجلى، لأني كنت أخدمـه في القدم لحظي، والآن أخدمه لحظِّه".

ثم استطرد بعد ذلك قائلاً: "وفي أقوال عزازيل (زعم المتصوفة أن إبليس كان يسمى عزازيل قبل أن يطرد من رحمة الله) أحدها أنـه كان في السماء داعياً وفي الأرض داعياً: في السماء دعي الملائكة بربهم المحاسن، وفي الأرض دعا الإنس بربهم القبائح، لأن الأشـياء تعرف بأضدادها".

وفي هـذه الصـياغة الطويلـة لمعصـية إبليس تسـتطيع الآن أن تلم بملامح العقيدة الصوفية الباطنية، ونستطيع أن نلخصـها على النحـو التالي:

1- أعبد الناس في كلام الحلاج هو إبليس والرسول صلى الله عليه وسلم، وانظر كيف ينظمها عـدو اللـه في سـلك واحـد، ثم يسـتدل على ذلك بأن إبليس أمر بالسجود فلم يسجد، والذي منعه من ذلك هو مشيئة الرب فيه وجبر الرب لـه. وتحققـه أن لا موجـود إلا هـو، وأن القرب والبعد من الرب واحد، لأنه ليس على الحقيقة إلا اللــه، وأن إبليس قد كان داعياً للملائكـة إلى المحاسـن، بإقامـة اللـه لـه، وفي الأرض إنما هو داع إلى القبائح، وما هو في الحقيقة إلى قــائم بمراد الرب ومشيئته.

وأما الرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم -وحاشـاه- فقـد أصبح أعبـد الناس عند الحلاج -وهذا من التلبيس- لأن الله أمره في السماء أن ينظر إليـه، فمـا نظـر، واسـتدل على ذلـك بقولـه تعـالى: {مـا زاغ البصر وما طغى} والآية في أن رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم قد رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، وأن البصر ما زاغ ولا طغى، وهو ينظر إلى جبريل (فانظر كيف حول الحلاج الآيــة عن معناها، وأن المقصود بها هو: مـا زاغ البصـر أي مـا نظـر إلى اللـه، لأنه ليست هناك ذات مستقلة لله تبارك وتعالى في زعم الصـوفية، بل ذاته هي ذات موجوداته. انظر هذا في كلام النابلسي الآتي).

وأما الدليل الآخر الذي ساقه الحلاج، فهو قول الرسول صـلى اللـه عليه وسلم: [اللهم بـك أصـول وبـك أجـول وبـك أقـول] (هـو جـزء محـرف من حـديث رواه أبـو داود في (سـننه 2632) عن أنس بن مالك، ولفظه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غـزا قـال: [اللهم أنت عضدي ونصيري، بك أجـول، وبـك أصـول، وبـك أقاتـل]

وصحح إسناده أستاذنا الألباني في (تخريج الكلم الطيب ص75) كما رواه ببعض اختصار الترمذي (2/278) وحسنه، وأحمد (6/16)) والمعنى الذي هو مراد الرسول صلى الله عليه وسلم هو معنى لا حول ولا قوة إلا بالله، فلا يستطيع أحد أن يفعل خيراً، أو يوفق إلى خير إلا بحول الله وقوته ولكن الحلاج قلب هذا المعنى إلى عقيدته الخبيثة في الرب جل وعلا، وجعل معناها أن الرسول قال ذلك لأنه كان متحققاً أنه هو هو، أي أنه هو الله!!.

وأما موسى في نظر الحلاج فلم يكن على معرفة بحقيقة الرب، ولذلك قال له: (رب أرني أنظر إليك).

ولقد كان من الجرأة بمكان أن يظهر الحلاج دعوته وعقيدته على هذا النحو من الصراحة والوضوح، ولقد كان يعاصره عدد كبير من المتصوفة في العراق وإيران والشام، ولكنهم قنعوا بالإشارات والرموز إلى عقيدتهم، ولم يقنع هو إلا بالتصريح، وقد سمى هو هذا المقام الذي وصل إليه مقام الفتوة، وفي ذلك يقول:

"تناظرت مع إبليس وفرعون في الفتوة (الفتوة التي عناها الحلاج هنا هي الجرأة في إظهار معتقده، وأستاذه في ذلك كما يقول إبليس وفرعون!!)، فقال إبليس: إن سجدت سقط عني اسم الفتوة، وقال فرعون: إن آمنت برسوله سقطت من منزلة الفتوة، وقلت أنا أيضاً: إن رجعت عن دعواي وقولي سقطت من بساط الفتوة!! وقال إبليس:أنا خير منه، حين لم ير غيره غيراً، وقال فرعون :(ما علمت لكم من إله غيري) حين لم يعرف في قومه من يميز بين الحق والباطل!! وقلت أنا: إن لم تعرفوه فاعرفوا آثاره، وأنا ذلك الأثر، وأنا الحق لأني ما زلت أبداً بالحق حقاً!! فصاحبي وأستاذي إبليس وفرعون، وإبليس هدد بالنار وما رجع عن دعواه، وفرعون أغرق في اليم وما رجع عن دعواه، ولم يقر بالواسطة أبداً، وإن قتلت أو صلبت أو قطعت يداي ورجلاي، ما رجعت عن دعواي" (الطواسين ص52).

وهذا الذي وصل الحلاج إليه قد كان عقيدة لكثير من معاصريه، ولكنهم لم يستطيعوا التصريح به بنفس الوضوح والصراحة التي صرح بها الحلاج، يقول الشبلي: "كنت والحسين بن منصور شيئاً واحداً إلا أنه أظهر وكتمت" وقد مرّ بك هذا القول.

ولقد حاول الحلاج أن ينقل عموم المتصوفة إلى موقفه، ولـذلك لم يفتـأ يحـركهم نحـو هـذه الغايـة، ففي الرسـالة القشـيرية أنـه لقي إبراهيم الخواص فقـال لـه الحلاج: مـاذا صـنعت في هـذه الأسـفار، وقطع هذه المفاوز؟ قـال: بقيت في التوكـل أصـحح نفسـي عليـه. فقال الحلاج: أفـنيت عمـرك في عمـران باطنـك، فـأين الفنـاء في التوحيد!!

ويدخل الحلاج مسجد بغداد، ويرى الجنيد يتكلم على المنبر والجنيـد سيد الطائفة في وقته فيقول له: يـا أبـا القاسـم إن اللـه لا يرضـى من العالم بالعلم حتى يجـده في العلم، فـإن كنت في العلم فـالزم مكانك، وإلا فانزل، فنزل الجنيد ولم يتكلم على الناس شهراً (أخبار الحلاج طبع ماسنيون).

وهذا القول من الحلاج للجنيد إنكار شديد عليه، وأمر له بـأن يظهـر ما يعتقده، وبأن يتحقق ظاهراً فيما تحقـق فيـه باطنـاً. وهـذا معـنى قوله: "فإن كنت في العلم فـالزم مكانـك" أي إن كنت قـد وصـلت إلى حقيقة معتقد التصوف فـالزم هـذا المكـان، وأظهـر مـا تعتقـد. والحلاج هنا لم ينكر على الجنيد معصية شرعية ظاهرة، ولكنه أنكـر عليه إظهاره من علوم الشريعة للعامة ما يخالف ما وصل إليـه من عقيدة التصـوف، ولـذلك احتجب عن النـاس شـهراً لا يكلمهم، ولم يسـتطع الجنيـد أن يظهـر مـا أظهـر الحلاج، لأنـه كـان يعلم نهايـة الإفصاح عن حقيقة المعتقد.

ولذلك روى أبو عبدالرحمن السلمي في طبقاته في ترجمة الشبلي أن الجنيد قال للشبلي "لو رددت أمرك إلى الله لاسـترحت" فقـال الشبلي: "يا أبا القاسـم لـو ردّ اللـه أمـرك إليـك لاسـترحت" فقـال الجنيد: "سيوف الشبلي تقطر دماً!!" (الطبقات ص343).

والمعنى الذي عناه الجنيد في كلامه للشبلي أنه إذا استسـلم لأمـر الله، واسترسل معـه كمـا يقولـون: التصـوف الاسترسـال مـع اللـه (يعني المتصوفة بهذا القول أن لا يكون لك اختيار وفعل، بـل تـترك مشـيئة الـرب تسـيرك، وهـذا معنـاه هـدم الإرادة البشـرية وتـرك الوسائل كلها) أي ترك الاختيار معه لاسترحت وهدأت.

فرد الشبلي عليه بعكس العبارة وبـالمعنى نفسـه!! ومعـنى عبـارة الشبلي أن الله قد جبر العبد وأقامه بما هو فيه، ولم يردّ أمره إليه، بل جعل أمر العبد إليه هو، ولو رد أمـر العبـد إلى نفسـه لاسـتراح،

واختار ما يحلو له. وكانت عبارة الشبلي للدلالة على المعنى أصرح من عبارة الجنيد، ولذلك قال الجنيد رداً على ذلك: سيوف الشبلي تقطر دماً. أي أنه بهذا التصريح عن معتقده سيعرض نفسه للقتل!!

ومما يدل على ذلك أن الحلاج عندما أحضر للقتل والصلب جمعت المتصوفة، وأرغموا على النيل من الحلاج وسبه، وكان ممن أحضروا لذلك الشبلي، وضعوا المنديل في رقبته، وسحبوه إلى الحسين بن منصور الحلاج ليلعنه فتأبى من ذلك، فأمره الجند بأن يذهب بنفسه أو يرسل من يلعن الحلاج، فأرسل امرأة متصوفة، وأمرها أن تقول للحلاج: إن الله قد ائتمنك على سر من أسراره فأذعته؛ فأذاقك طعم الحديد!! (ماسنيون. وانظر نشرات الصوفية).

وهذه الروايات كلها تدل على أن أفراد الطائفة في القرن الثالث الهجري كانوا على علم باطني واحد قد تفاوتوا في إظهاره وإعلانه!!

(طريق الوصول إلى العلم الباطن):

ولقد ظن كثير من الناس أن هذا العلم الباطني كان نتيجة للصلاح والتقوى، والمداومة على التسبيح والذكر، فداوم على هذا وسار في طريقهم زماناً عله يظفر بما يظفرون به، ولكنه لم يصل إلى شيء، من هؤلاء من يحدثنا عنه أبو حامد الغزالي في كتابه الإحياء يقول (ج4 ص358): "حكي أن شاهداً عظيم القدر من أعيان أهل (بسطام) كان لا يفارق مجلس أبي يزيد البسطامي فقال يوماً: أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر ولا أفطر، وأقوم ولا أنام، ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئاً، وأنا أصدق به وأحبه!

فقال أبو يزيد: ولو صمت ثلاثمائة سنة، وقمت ليلها ما وجدت من هذا ذرة!! قال: ولم؟ قال: لأنك محجوب بنفسك. قال: فلهذا دواء؟ قال: نعم. قال: قل لي حتى أعمله. قال: لا تقبله. قال: فاذكره لي حتى أعمل. قال: اذهب إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك، وانزع هذا اللباس، واتزر بعباءة، وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزاً، واجمع الصبيان حولك، وقل.. كل من صفعني صفعة أعطيته جوزة، وادخل السوق، وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك، وأنت على ذلك!!

فقال الرجل: سبحان الله، تقول لي مثل هذا؟ فقال أبو يزيد: قولك.. "سبحان الله" شرك!! قال: وكيف؟ قال: لأنك عظمت نفسك، فسبحتها، وما سبحت ربك. فقال: هذا لا أفعله، ولكن دلني على غيره. فقال ابتدئ بهذا قبل كل شيء. فقال: لا أطيقه. فقال: قد قلت لك.. إنك لا تقبل..!."

والعجيب أن أبا حامد الغزالي يعقب على هذه القصة بقوله: فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو جزاء من اعتل بنظره إلى نفسه.

فهذا الرجل الصالح الذي صام دهره وأقام ليله، يرجو الوصول إلى علوم القوم، وما جاءه خاطر، ولا مرّ به هاتف، تعجب من هذا وشكا إلى أبي يزيد، فقال له: لن تصل إلى شيء لأنك محجوب بنفسك. ومعنى ذلك أنه يرى أنه القائم بالعبادة فيرى نفسه عابداً لله، وعقيدة الصوفية تعتقد أن الله قد أقامك فيها، وأنه اختارها لك، وتلك إرادته، ولا إرادة لك معه، وبالمقابل لا بد أن تعتقد أن الله قد أقام العصاة في معاصيهم، والكفرة في كفرهم، وإبليس في إغوائه (كما مرّ بنا في كلام الحلاج)، وكذلك أيضاً قال أبو يزيد لذلك الرجل عندما قال: سبحان الله: سبحان الله شرك. ثم قال له: كيف؟ قال: لأنك نزهت نفسك عن فعل السوء، ولم تنزه الله الذي يفعل السوء ويريده، ويقيم الناس فيه، فقد عظم الرجل نفسه في عقيدة أبي يزيد وطائفته عندما امتنع عن عمل يقوم الله به ويريده ويحبه!!

ولهذا أمر أبو يزيد البسطامي ذلك الرجل ليصل إلى هذه الحقيقة الصوفية أن يفعل بنفسه ذلك الفعل المرعب، وبهذه الوسيلة التي تعتبر مجاهدة في عرف التصوف سيتحقق يقيناً بهذا العلم الباطني، وهو أن الكون على هذا النحو مراد لله سبحانه، ولذلك قالوا: "أقام العباد فيما أراد"!!

ولا شك أن الخطأ في فهم قضية القضاء والقدر قد جرت البلايا والفتن على كثير من الناس، والعياذ بالله، والسبب في ذلك أنهم لم يستطيعوا أن يفرقوا بين علم الله الأزلي سبحانه وتعالى، وما سطره من مقادير الكون وفق هذا العلم، وأنه سبحانه يعلم ما سيكون كيف يكون، وبين الاختيار والمشيئة للعبد التي جعلها الرب تبارك وتعالى أساساً ومناطاً للتكليف والحساب. فللعبد مشيئة خاصة يوقع بها الفعل الذي يريده، ولكنه لا يوقعه جبراً على الله

ورغماً عنه "وسيأتي لقضية القضاء والقدر رسالة مستقلة إن شاء الله أرجو عون الله في إتمامها".

فالطاعة بتوفيقه وهدايته، والمعصية بإذنه سبحانه ومشيئته، إذ لا يقع في ملكه إلا ما شاء، وهو سبحانه وتعالى القادر على منع الكافر من الكفر، والفاجر من الفجور، ولكنه الابتلاء والاختيار والتكليف: {ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً} (يونس:99)، وقد جعل سبحانه وتعالى الهداية حقاً عليه لمن جاهد في سبيلها، قال تعالى: {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا} وقال: {فأما من أعطى واتقى* وصدق بالحسنى* فسنيسره لليسرى} وجعل سبحانه وتعالى الضلال أيضاً ثمرة للسعي في طريقه، والحيدة عن هدى الله. قال تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} وقال تعالى: {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة}.

وقال عز وجل: {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين} وقال تعالى: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم} إلى آخر الآيات التي تدل على أن الرب تبارك وتعالى لا يعجل الشر ابتداء، ولكنه يعاقب به جزاء، وسبحانه وتعالى أن يبدأ الإنسان بالشر، تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً.

فهؤلاء لم يفهموا هذه العقيدة الشرعية التي بينها الله في كتابه أتم البيان، وشرحها رسوله صلى الله عليه وسلم غاية الشرح. ظنوا -وخابت ظنونهم- أن الشر والمعاصي والفجور مرادة الله تبارك وتعالى إرادة حب وقبول ورضى، فقالوا ما قالوا، ولم يعلموا أنها مرادة لله أن تقع في ملكه فقط، فليست تفعل من فاعليها رغماً عن الله سبحانه وتعالى، وعجزاً عن دفعها ومنعها، وحاشاه ربنا سبحانه وتعالى عن ذلك، ولكنها إرادة وقوع، ومشيئة إذن وسماح، ووراء ذلك كله العقوبة لأهلها في الدنيا والآخرة، والمذمة واللعنة والطرد والإبعاد لأهلها، وحاشا الله أن ينسب هذا إليه [والشر ليس إليك] (هو جزء من حديث رواه مسلم في (صحيحه-6/57-59 بشرح النووي) وأبو داود (760) وأحمد وغيرهم، وأوله: [وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً..] وهو من أدعية استفتاح الصلاة المأثور عنه صلى الله عليه وسلم).

أقول إن هؤلاء المتصوفة لما لم يفهموا هذه الحقيقة الشرعية، رأوا أن فعل الكفرة والفجرة موافق للرب في إرادته ومحبته،

وكذلك قال الحلاج عن إبليس وفرعون: إنهما عرفا الحقيقة، وأنهما قائمان بأمر الله في ذلك، ولهذا ما سجد إبليس، وما آمن فرعون إلا بأنه هو الله، ولهذا أيضاً ما رجع هو عن قوله.

والعجيب بعد هذا كله أن المتصوفة الذين جرهم سوء الفهم لقضية القضاء والقدر إلى هذه العقيدة الباطلة، والمعتقد السيء، زعموا أنهم وصلوا إلى هذا الفهم عن طريق الكشف والعلم اللدني والفيض الرحماني (العلم اللدني نسبة في زعمهم إلى قوله تعالى عن الخضر: {وعلمناه من لدنا علما} وهو بمعنى الفيض عندهم، ويعنون بكل ذلك انفتاح علم الغيب وحقائق الدنيا والآخرة عليهم!!)، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي أوحى إليهم بهذا.

وبعد أن قدس المتصوفة الأقدمون علمهم الباطن على هذا النحو، وأظهره بعضهم بذلك الوضوح، وجعلوا علم الشريعة المنزلة على رسوله صلى الله عليه وسلم علماً خاصاً بالعوام، وجعلوا علمهم الباطني علماً خاصاً بالخواص يتلقى رأساً عن الله بطريق انكشاف حجاب الغفلة -في زعمهم- لم يكتف المتأخرون منهم بهذا التقسيم، بل غالوا إلى أن جعلوا علوم الشريعة مرحلة فقط لعلمه الباطني، وجزموا بأن من وقف عند علم الشريعة، وتقيد بظاهره فقط فلا ينجو من الآخرة، بل هو غافل عن دين محمد، شأنه شأن الكافرين.

يقول الشيخ عبدالغني النابلسي (وهو كما ترجم له صاحب "الأعلام" من كبار العلماء المتأخرين، له مصنفات كثيرة جداً في علوم الشريعة والتصوف والأدب، ولد ونشأ في دمشق، وتوفي بها سنة 1143هـ، يقول فيكتابه: "الفتح الرباني والفيض الرحماني ص 133"): "فكل من اشتغل بالعلوم الظاهرة، ولم يعتقد أن وراء ما هو ساع في تعلمه من الفقه والحديث والتفسير حقائق وعلوماً باطنة، رمزها الشارع تحت ما أظهر من هذه الرسوم هي مقصودة له، لأنها المنجية عند الله تعالى، فهو غافل عن الله تعالى، جاهل بدين محمد صلى الله عليه وسلم، داخل تحت قوله تعالى: {يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخر هم غافلون}" أ.هـ.

وقد ساغ في كلام الشيخ كما ترى أن يستدل بالآية السابقة على أن علوم الشريعة من الفقه والحديث والتفسير، العلم بها كالعلم

بظاهر الحياة الدنيا. والغفلة بها عن العلم الباطني كالغفلة بعلوم الدنيا وزخرفها عن حقائق الآخرة!!.

(الذنب عند النابلسي):

لقد كتب الشيخ عبدالغني النابلسي هذا الكلام في كتابه الفتح الرباني، وقد قال في مقدمته: إنه يكتب كتابه هذا مترجماً عن الإلقاء الرحماني له مباشرة، وبغير وساطة، فهو وحي أو إلهام أو كشف حسب ما يدعيه، قال النابلسي في تعريف الذنب حسب العلم الباطني:

"اعلم أن الذنب له حقيقة متى علمت علم سره، ومتى علم سره علم جهره، وله حال ومقام، وله أقسام، وأنا أتكلم لك الآن في ذلك بحسب الوارد ترجمة عن الإلقاء الرحماني".

فالنابلسي عندما قرر في (ص133 من كتابه الفتح الرباني) أن علوم الشريعة لا تنجي وحدها من عذاب الآخرة، بل لا بد أن يدخل المتعلم إلى الحقائق والعلوم الباطنية التي ذكرت في الشريعة بالرمز فقط، ولم ينص عليها نصاً؛ وذلك لينجو من عذاب الله يوم القيامة، عندما قرر النابلسي كل ذلك فإنما قرره ترجمة عن الإلقاء الرحماني في زعمه، ولم يقرر ذلك إجتهاداً ورأياً!!

ولعلك أخي القارئ تحب أن تقف على نماذج من هذا الإلقاء الرحماني على الشيخ عبدالغني النابلسي، لتعلم الحقيقة الباطنة التي أرادها الله، وأرادها رسوله صلى الله عليه وسلم -في زعم القوم- والتي تكلم الله ورسوله عنها بطريق الرمز في زعمهم، والتي فهمها وعقلها، بل نزل الفيض الرحماني والفتح الرباني بها على الشيخ عبدالغني النابلسي!!

يقول الشيخ في بيان حقيقة الذنب:

"وأما الذنب بحسب باطن الأمر الإلهي المسمى الحقيقة فهو: الموافقة للرب سبحانه وتعالى في شيء مما أراد بنفسه من نفسه بعد وصول التبليغ عن نفسه بنفسه إلى نفسه، ويرجع ذلك إلى تعيين وجود العبد" أ.هـ.

(ونفسه) هذه التي تكررت في العبارة خمس مرات هي مضمون وحدة الوجود، فالله نفسه هو المريد، وما أراد شيئاً بغيره، وإنما أراد بنفسه، والمبلّغ عنه هو الرسول، وهو الله نفسه في زعمهم،

والمبلغ إليهم هم البشر، وهم الله نفسه أيضاً -في زعمهم- تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وحتى لا يظن القارئ أن تفسيري هذا تجن على الرجل أنقل نص عبارة الشيخ النابلسي في تفسيره للفقرة السابقة. يقول: "ما ثم إلا ذات وصفات، وصفات صفات، وهي الأفعال، ومنفعلات وهي العالم فالأول هو المعبود، والثاني الموصل إليه وهو الوساطة، والثالث هو العابد، والرابع هو العائق والمانع، والأول مرتبة الله تعالى، والثاني مرتبة محمد صلى الله عليه وسلم، والثالث مرتبة المؤمنين، والرابع مرتبة الشيطان، وهذه الأربعة في الحقيقة شيء واحد، لكنه تنزل وتفصل، فظهرت له هذه الأطوار وتعددت وجوداته" (الفتح ص51).

فهذا شرح واضح لوحدة الوجود التي ينقلها الشيخ عبدالغني النابلسي عن شيخه الأكبر ابن عربي، فليس في الوجود عندهم إلا الله، وهذه الموجودات المشاهدة جميعها صفاته، تعددت وتنوعت لتعرب عن الصفات الكثيرة التي يتصف بها الرب في زعمهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فالمعبود والرسول والمؤمنون والشياطين كلهم بنص النابلسي شيء واحد، ولذلك فالذنب عند النابلسي هو "الموافقة للرب سبحانه" وهذا راجع بنص كلامه إلى "تعين وجود العبد". ويشرح النابلسي "تعين الوجود" هذا بقوله:

فمن تعين عنده وجوده مع الله تعالى ظاهراً أو باطناً فقد أفحش، وبغى وقال ما لم يعلم (كذا!!) وذلك لأن التعينات في الوجود الحادث إنما هي لبيان امتياز المحضرات الصفاتية، لتنفصل مجملاتها، وتبين كمالاتها، وليست المغايرة أمراً مقصوراً، وإنما لزمت من ظهور حقائق بعض الصفات كالغفور والحليم والمنتقم بوساطة تحقق الذنب.

قال الجنيد: ما انتفعت بشيء كانتفاعي بأبيات سمعتها، وأنا مار ببعض الطرقات منها:

وإن قلت: ما ذنبي إليك؟ أجبتني: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

(الفتح ص49)

فالذنب عند النابلسي بمقتضى كلامه السابق هو أن يظن العبد أن له وجوداً مستقلاً عن وجود الله!! ومن ظن ذلك فقد أفحش وبغى، وقال ما لم يعلم، واستدل على ذلك ببيت الشعر الذي سمعه الجنيد.

ويبالغ النابلسي أكثر من ذلك، فيزعم أن حال الذنب هو القرب من الله، وليس البعد منه. ولذلك يقول بالنص:

"فالمذنب في حال ذنبه أقرب إلى الله منه في حال طاعته"!!

(الفرق بين الصديق والزنديق):

وقد أوضح النابلسي هذه العقيدة الباطنية أكثر من ذلك عندما عقد فصلاً مطولاً قارن فيه بين الزنديق والصديق، وكانت خلاصة هذا الفصل أن الزنديق من يرى أن كفره وفسقه صادر منه فقط، وأنه مستقل بهذا الكفر. وأما الصديق فهو من يرى أن كل أفعال العباد صادرة من الله سبحانه -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- وأن المؤمن والكافر والفاسق والبار ما هم جميعاً إلا مظاهر مختلفة لحقيقة الرب الموجود وحده، واستدل على ذلك بقوله تعالى: {ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت} (الملك:3)، فالمؤمن عنده والكافر من خلق الله، ولا فرق بين هذا وذاك، ومن عرف هذه الحقيقة فهو الصديق، ومن جهلها وظن أن الكافر يصنع كفره، ويخلق فعله، ويستقل بأمر نفسه فهو الزنديق!!.

ويحسن أن أنقل كلامه في هذه المسألة بنصه حتى تتضح صورة هذه العقيدة الباطنية وضوحاً لا شك فيه. يقول الشيخ النابلسي:

"واعلم أن الأديان كلها التي في العالم بالنسبة إلى المتدينين بها من الخلق تنقسم إلى قسمين: دين واحد حق وهو الإسلام، وأديان جميعها باطلة، وهي ما عدا دين الإسلام.

وأما بالنسبة إلى الخالق سبحانه وتعالى فجميع الأديان الباطلة والصحيحة مخلوقة له تعالى، وهو خالقها، وقد قال تعالى: {وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون} (آل عمران:83)، أي انقادوا إليه طائعين في حق المؤمنين، ومكروهين، لأنه لا خالق غيره، في حق الكافرين.

فمن نظر إلى ما يظهر من كلا الفريقين، وقال: إن جميع ذلك صواب وحق فهو الزنديق، ومن لم ينظر إلى ما يظهر من كلا

الفريقين، وإنما نظر إلى يد الله العليا التي فوق أيديهم جميعاً، واعتقد أن جميع ما يصدر منها صواب وحق فهو الصديق، والفرق بينهما دقيق. لا يدرك إلا بعناية من الله تعالى وتوفيقه.

فربما يظهر الصديق في حلية الزنديق، وربما يظهر الزنديق في حلية الصديق، وموقع النظر واحد، وهو الخلق. فمن نظر إلى الخلق وقال: إنهم كلهم على الصواب: فإما أن ينظر إليهم من حيث صدورهم عن الصانع القديم، ويقول ذلك فهو الصديق. وإما أن ينظر إليهم من حيث ذواتهم ويقول ذلك فهو الزنديق.

وسبب ذلك أن من نظر إليهم من حيث صدورهم عن الصانع القديم، فحكم بالتساوي بينهم، لأن الله تعالى يقول: {ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت} (الملك:3)، (انظر كيف قطع النابلسي هذا المقطع من الآية عن موضعه، فبدل معناه، وموضعه هكذا: {الذي خلق سبع سماوات طباقا، ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور} والتفاوت المقصود هنا هو التفاوت في خلق السماوات والأرض، لا في فعل البشر، لأن كل عاقل يعلم أن فعل البشر متفاوت، فكم بين الإيمان والكفر من تفاوت!!) {والله خالق كل شيء} (الرعد:18)، فلا يكلف إلى الفرق والتمييز حينئذ، وهو صادق في حكمه بذلك التساوي، لأنه مأمور بالإيمان بذلك.

وأما من نظر إليهم من حيث ذواتهم، وما هم عليه من الأحوال، فحكمه بالتساوي بينهم خطأ محض وجهل. قال تعالى: {أفنجعل المسلمين كالمجرمين* ما لكم كيف تحكمون} (القلم:35و36) وقال تعالى: {أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار} (ص:28). وإنما يكلف إلى الفرق والتمييز حينئذ، وهو كاذب في حكمه بالتساوي بينهم، قد يشتبه كلام الصديق بالزنديق، والقصد هو الفارق، ويعرف ذلك من كلام آخر في موضع آخر كقول الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي (رضي الله عنه) من أبيات الفتوحات المكية:

عقد البرية في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

ومراده جميع ما اعتقدوه من حيث صدور ذلك عن الصانع القديم، فإن جميع ذلك آثار دالة عليه تعالى، لا من حيث صدور ذلك عن

المعتقـدين لأنهـا من حيث هم دالـة عليهم لا عليـه، وعقيـدة أهـل الاختصاص فيها الغفلة عن الآثار، والنظر إلى المؤثر، يعلم ذلك في مواضع شتى في كلامه" (الفتح ص85-86).

وبهذا النقل المطول عن الشيخ النابلسي تتضح أمامنا الآن صـورة العقيدة الباطنية التي سعى القوم إلى غرسها وبنائها، وأنها التحقق -في زعمهم- من أن الموجودات ما هي إلا مظـاهر لحقيقـة واحـدة هي الله، وأن الأفعال لا تتفاضل ولا تتناقض إلا بـالنظر إلى الخلـق، وأمـا بـالنظر إلى اللـه الفاعـل الحقيقي - في زعمهم- فإنمـا هي شيء واحد يدل على ذات واحدة.

وبهـذه العقيـدة هـدموا جميـع الأديـان، وأبطلـوا جميـع الشـرائع واستحلوا كـل المحرمـات، وهـذا الـذي أقـرره هنـا لا أقـرره أيضـاً استنباطاً واجتهاداً، وتحميلاً لألفاظ القوم ما لا تحتمل، فقـد مـر بـك بيت الشعر المنسوب إلى ابن عربي:

عقد البرية في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

وقد فسره ابن عـربي بـأن من اعتقـد بـأن هنـاك دينـاً واحـداً حقـاً، وبقية الأديان باطلة فقد فاته خير كثير، لأنه آمن بجزء من الحقيقة، ولم ير الحقيقة كاملة، وهي أن كل هذه الأديـان الـتي ظنهـا باطلـة هي مرادة لله تبارك وتعالى، بل هو خالقها وبارئها.

وأصرح من هذا كله ما وصل إليه الشـيخ النابلسـي، وهـو أن مقـام الزهـد المشـهور في التصـوف مـا هـو إلا مرحلـة في الطريـق الصوفي، وأما المرحلـة النهائيـة في فهـو تـرك الزهـد، والاسـتمتاع بالمقسوم على أتم وجه، وفي ذلك يقول النص:

"وأما بالنظر إلى غير اللـه تعـالى فهـو اشـتغال الروحانيـة بمـا يـرد عليها من أسئلة الأكوان السائرة للكون الحـق، والسـتر هـو الكفـر، وأصـحاب هـذا الاشـتغال المـذكور هم الزهـاد الـذين يزهـدون في الأشياء، فإنهم لولا ملاحظتهم للأشياء وادعـاؤهم بثبوتهـا مـا زهـدوا فيها، فقد اسـتتر الحـق عنهم بزهـدهم في الأشـياء، فكفـروا كفـراً خفياً، ولو عقلـوا لمـا زهـدوا في شـيء، لأن الـذي ليس لهم عـدم، فكيـف يزهـدون في العـدم وهـو غـير مقـدور، والـذي لهم لا بـد أن يصيبهم، فلو زهدوا فيه، لما أمكنهم وعاندوا الأقدار فهم مشـغولون بزهدهم عن الله تعالى، فمتى يتفرغون له تعالى؟ ولله در القائل:

تجرد عن مقام الـزهد قلبي فأنت الحق وحدك في شهودي

أأزهد في سواك، وليس شيء أراه سواك يا سر الوجــود"

(الفتح الرباني ص134).

فانظر كيف نسب الكفر الخفي إلى الزهاد، لأنهم اشتغلوا بزهــدهم في الأشياء، لأن الذي ليس لهم عدم، أي أن مـا قــدر لهم لا بــد أن يكون. ولذلك يقول: "والذي لهم لا بد أن يصـيبهم، فلـو زهـدوا فيـه لما أمكنهم".

ولذلك رآهم النابلسـي معارضـين للأقـدار، مشـغولين بزهـدهم عن الله تبارك وتعالى..

أحب أن أكـرر هنـا أن النابلسـي ليس رجلاً مغمـوراً جـاهلاً، بـل هـو مقدم عند القوم، مستشهد بأقواله عند الجميع وبعضـهم يعتـذر عن مثل مقالاته هذه بأنه من الشطح، والشطح مغفور لهؤلاء، لأن ذلك من غلبة وجدهم وحبهم لمولاهم.

وأقول: إذا كان ثم شطح مغفور عند الله، معـذور صـاحبه، فهـو أن تصدر كلمة أو جملة في غلبة حال كما يقولون. أما أن يؤلـف رجـل مئتي كتاب، كلها على هـذا النحـو، وذلـك يسـتغرق آلاف السـاعات والأيام، فكيف يكون التأليف والتحقيق شطحاً وسكراً؟ فـافهم أخي المسلم هذه الحقيقة فإنها سهم قاتل لهذا الباطل.

وبعد هذا الاستطراد أعود إلى السياق الأصـلي، وهـو أن القـوم في نهايــة مطــافهم وصــلوا إلى هــدم الأديــان، والتســوية بين الكفــر والإيمان، بل وجعل مرتبة الزهد التي هي بدايـة للطريـق الصـوفي، ومرحلة من مراحله شركاً خفياً بالله، لأن ذلك غيبة بالزهد عن الله تعالى.

ولعل ظاناً يظن أن هذه العقيـدة الباطنيـة الـتي وصـل إليهـا كـانت عقيدة نظرية فقط، ولم يكن لها واقع عملي في حياة القوم، وهــذا الظن ســاذج ومــريض، بــل إن القــوم قــد مارســوا هــذه العقيــدة الباطنية ممارسـة واقعيـة، وقـد جـاءت ممارسـتهم الواقعيـة لهـذه العقيـدة شـيئاً صـارخاً لا يكـاد العقـل يصـدق بـه. ولكن مـاذا نفعـل والحقيقة قد أصبحت أكبر من الخيال.

الفصل السابع

الحقيقة المحمدية في الفكر الصوفي

يستحيل علينا أن نفهم ما يريده المتصوفة بقولهم (الحقيقة المحمدية) إلا بمعرفة عقيدتهم في الله. فالنظرية الصوفية الفلسفية قد وصلت في نهاية القرن الثالث إلى القول بأن الله هو هذا الوجود القائم المتجدد المتغير فهو السماوات والأرض والعرش والكرسي والملائكة والإنسان والحيوان والنبات وهو الأزل والأبد -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً- وإن كانت عباراتهم تختلف أحياناً فمرة يقولون: هو الروح الساري في الموجودات ويشبهون هذا السريان بأنه كرائحة الورد في الورد. ووجود الروح في الجسم الحي. وتارة يقولون نفس وجود الموجودات هو وجود الله فليس عناك اثنان في الوجود خالق ومخلوق بل المخلوق هو عين الخالق، والخالق هو نفس المخلوق، اعتقد بذلك ونشره في الناس كبار الصوفية من أهل الزندقة والإلحاد كابن عربي، والحلاج، والجيلي، وابن سبعين، ومن على شاكلتهم، وهؤلاء الصوفية أنكروا في كتبهم على من يشهد بأن الله سبحانه وتعالى هو الإله القائم بنفسه المستوي على عرشه البائن من خلقه والذي هو معتقد المسلمين في ربهم سبحانه وتعالى. وقد كان هذا المعتقد أيضاً هو معتقد بعض من نسب إلى التصوف ولذلك شدد ابن عربي عليهم النكير أيضاً وخطّأهم ونسبهم إلى القصور وعدم الفهم (اقرأ كتاب ابن عربي التجليات الذي يزعم فيه أنه التقى برجال التصوف السابقين في البرزخ وناقشهم في عقائدهم هذه في التوحيد وبين لهم خطأهم وعرفهم في النهاية أن لا موجود إلا الله، وأن الله والعبد شيء واحد، وأنهم أقروا جميعاً بذلك وكل ذلك في كتاب التجليات). والمهم أن هؤلاء المتصوفة الذين نقلوا عقيدة وحدة الوجود عن الفلسفة الأفلاطونية واعتقدوها وجعلوها هي الحقيقة الصوفية وسر الأسرار وهي معتقد أهل الإسلام في زعمهم، نقلوا ما قاله هؤلاء الفلاسفة في نظرياتهم في بدء الخلق فقد قال الفلاسفة الأقدمون "إن أول شيء بدأ في الخلق هو الهباء (أي الذرات) وإن أول موجود وجد هو العقل الأول وسموه (العقل الفعال)، وأنه عن هذا العقل الأول نشأ العالم العلوي السماوات والكواكب ثم العالم السفلي.. الخ.

هذه النظرية الفلسفية القديمة جاء ابن عربي ونقلها هي نفسها إلى الفكر الصوفي ولكنه استبدل بدلاً من العقل الفعال عند الفلاسفة ما أسماه هو الحقيقة المحمدية فزعم أن أول الخلق كان هباء، -كلام الفلاسفة نفسه- وأن أول موجود هو "الحقيقة المحمدية" التي زعم ابن عربي أنها أول الموجودات وعلى حد تعبيره أول التعينات -أي أول عين تشكلت وتصورت من الذرات- يتطاول ابن عربي ويقول إن هذه (الحقيقة المحمدية) هي التي استوت على العرش الإلهي. فيجعل ما حدثنا الله سبحانه وتعالى به عن نفسه من أنه خالق الخلق، وأنه المستوي على العرش.. يلوي ابن عربي كل ذلك ويلبس على المسلمين وينقل لهم كلام الفلاسفة الملحدين في أسلوب جديد بغطاء إسلامي وآيات قرآنية فيقول إن ذات محمد هي أول ذات تكونت من الهباء وهي التي استوت على العرش الإلهي. ومن نور هذه الذات خلق الله الخلق جميعاً بعد ذلك فالملائكة والسماوات والأرض كل ذلك قد خلق من نور الذات الأولى وهي الذات المحمدية عند ابن عربي، والعقل الفعال في الفكر الفلسفي، وهكذا استطاع ابن عربي أن ينقل ترهات الفلاسفة وتخيلاتهم المريضة إلى دنيا المسلمين وعقائدهم بل جعل هذه العقيدة الإلحادية هي العقيدة الأساسية التي قام الفكر الصوفي كله بعد ذلك عليها، فإذا علمنا ماذا يعنيه المتصوفة المتفلسفون بوحدة الوجود وأن الله عندهم ليس ذاتاً يراها المؤمنون في الآخرة وتستوي على العرش، وإنما هو نفس الوجود بكل درجاته وتناقضاته، فالله عندهم هو عين وجود المَلَك والشيطان والإنس والجان، والحيوان والنبات، أقول إذا علمنا بعد ذلك ماذا يريد المتصوفة من قولهم بالحقيقة المحمدية المستوية على العرش وجعل النبي محمداً صلى الله عليه وسلم هو المخلوق الأول قبل الأكوان جميعاً وهو الذي استوى على العرش ومن نور النبي صلى الله عليه وسلم خلق الله جميع الأكوان بعد ذلك السماوات والأرض والملائكة والإنس والجن وسائر المخلوقات. فأصبحت الحقيقة المحمدية -في زعمه- الصورة الكاملة المتجسدة للذات الإلهية التي لا ترى بذاتها، ولا تنفصل عن هذا الوجود.. فالنبي محمد صلى الله عليه وسلم عند ابن عربي ومشايخ التصوف الذين جاؤوا من بعده هو الله المتجلي على العرش. أو - قل- هو صورة الله المصغرة وهو الذي منه استمدت كل الموجودات وجوداتها وانفلقت عنه كل الأنوار وكل الأكوان وكل

الموجودات.. وهو يعني أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو البـذرة الأولى لكل موجود فكأنه بذرة لشجرة كـان منهـا بعـد ذلـك السـاق والفروع والأوراق والثمار والأشواك، فهكذا بدأ الوجود بمحمد صلى الله عليه وسلم ثم خلق من نـوره العـرش والكرسـي والسـماوات والأرض وآدم وذريته وتفرع الخلق وتدرج بعد ذلـك من المخلوقـات الـتي خلقت من نـور النـبي محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم، فالموجودات كلها في عقيدة التصوف شيء واحد متفرع عن أصـل واحد أو قل شجرة متفرعـة عن بـذرة واحـدة. وإليـك الآن نصـوص عبـارات هـؤلاء الملاحـدة الكـافرين في هـذه العقيـدة الكفريـة الزندقية:

قال القاشاني شـارح فصـوص الحكم لابن عـربي: "إن محمـداً أول التعينات التي عين به الذات الأحدية قبل كـل تعين فظهـر بـه مـا لا نهاية من التعينات، فهو يشمل جمـع التعينـات. فهـو واحـد فـرد في الوجود لا نظير له: إذ لا يتعين من يساويه في المرتبة، وليس فوقه إلا الـذات الأحديـة المطلقـة المنزهـة عن كـل تعين وصـفة واسـم ورسم وحدّ ونعت، فله الفردية المطلقة، ومن هـذا يعلم أن الاسـم الأعظم لا يكون إلا له دون غيره من الأنبياء، ومن فرديته يعلم سـر قوله: (كنت نبيـاً وآدم بين المـاء والطين) كونـه خـاتم النبـيين وأول الأولين وآخـر الآخـرين، ومن أوليتـه وجمعيتـه سـر قولـه: (أوتيت جوامـع الكلم) وكونـه أفضـل الأنبيـاء فـإنهم في التصـاعد وسـعة الاسـتعداد والمرتبـة ينتهـون إلى التعين الأول ولا يبلغونـه، والتعين الأول هو محمد الـذي يرجـع إليـه جميـع التعينـات فهـو الـبرزخ بين الـذات الأحديـة وبين سـائر الموجـودات" (شـرح القاشـاني على الفصوص ص 266،267).

ومعنى أول التعينات أي أول موجـود معين لـه ذات وجسـمه وقبلـه لم يكن هنـاك أي ذات لا عـرش ولا كرسـي ولا سـماوات ولا أرض. وقول القاشاني شـارح الفصـوص (وليس فوقـه إلا الـذات الأحديـة المطلقة المنزهة عن كـل تعين وصـفة واسـم ورسـم وحـد ونعت.. الخ) يعني أنه ليس فوق مرتبة الرسول شيء إلا الذات الإلهية التي لا توصف بأي صفة بتاتاً لأن ذات الله عنـده مطلقـة عن كـل قيـد -في زعمه- منزهة عن أن تكون ذاتاً معينة محـدودة مثلاً كـأن يقـول لله وجه أو يد أو ساق، أو استوى على العرش، أو يأتي يوم القيامة لأن الذات الإلهية في العقيدة الصوفية هي المطلقـة عن كـل هـذه القيود لأنها كل الموجودات. ويشرح ابن عربي نفسـه عقيدتـه هـذه

بقولـه: "بـدء الخلـق الهبـاء وأول موجـود فيـه الحقيقـة المحمديـة الرحمانية الموصوفة بالاستواء على العرش الرحماني وهو العـرش الإلهي" (الفتوحات المكية ج1 ص152).

فالخلق في زعمه بدأ بالهبـاء أي الـذرات وأول موجـود وجـد بـذات قائمة محدودة هي ذات الرسـول الـتي سـماها الحقيقـة المحمديـة الرحمانية الموصوفة بالاستواء على العرش الرحماني وهو العـرش الإلهي.

وجاء بعد ابن عربي من شرح هـذه العقيـدة واسـتفاض فيهـا، قـال أحمـد بن مبـارك السلجماسـي في كتابـه الأبريـز فيمـا يرويـه عن شيخه عبدالعزيز الدباغ: "(وسمعته) رضي الله عنه يقول في قولـه وانفلقت الأنوار أن أول ما خلق الله تعالى نور سـيدنا محمـد صـلى الله عليه وسلم ثم خلق منه القلم والحجب السـبعين وملائكتهـا ثم خلق اللوح ثم قبل كمالـه وانعقـاده خلـق العـرش والأرواح والجنـة والبرزخ أما العرش فإنه خلقه تعالى من نور وخلـق ذلـك النـور من النور المكرم نور نبينا ومولانا محمد صلى الله عليـه وسـلم وخلقـه أي العرش ياقوتة عظيمة لا يقاس قدرها وعظمها وخلق في وسط هذه الياقوتة جوهرة فصار مجموع الياقوتة والجوهرة كبيضة بياضها هـو الياقوتـة وصـفارها هـو الجـوهرة ثم إن اللـه تعـالى أمـد تلـك الجوهرة وسقاها بنوره صلى الله عليه وسلم فجعل يخرق الياقوتـة ويسقي الجوهرة فسـقاها مـرة ثم مـرة ثم مـرة إلى أن انتهى إلى سبع مرات فسالت الجوهرة بإذن الله تعـالى فـرجعت مـاء ونـزلت إلى أسفل الياقوتة التي هي العرش ثم إن النور المكرم الذي خلق العرش إلى الجـوهرة الـتي سـالت مـاء لم يرجـع فخلـق اللـه منـه ملائكة ثمانية وهم حملة العرش فخلقهم من صفائه وخلق من ثقله الـريح ولـه قـوة وجهـد عظيم فأمرهـا تعـالى أن تـنزل تحت المـاء فسكنت تحته فحملته ثم جعلت تخدم وجعل البرد يقـوى في المـاء فأراد الماء أن يرجع إلى أصله ويجمـد فلم تدعـه الريـاح بـل جعلت تكسـر شـقوقه الـتي تجمـد وجعلت تلـك الشـقوق تتعفن ويـدخلها الثقـل والنتونـة وشـقوق تزيـد على شـقوق ثم جعلت تكـبر وتتسـع وذهبت إلى جهات سبع وأماكن سبع فخلق الله منه الأرضين السبع ودخل الماء بينها والبحور وجعـل الضـباب يتصـاعد من المـاء لقـوة جهد الريح ثم جعـل يـتراكم فخلـق اللـه منـه السـماوات السـبع ثم جعلت الريح تخـدم خدمـة عظيمـة على عادتهـا أولاً وآخـراً فجعلت النار تزيد في الهواء من قوة حرق الريح للماء والهواء وكلما زنـدت

نار أخذتها الملائكة وذهبت بها إلى محل جهنم اليوم فذلك أصل جهنم فالشقوق التي تكونت منها الأرضون تركوها على حالها والضباب التي تكونت منه السماوات تركوه على حاله والنار التي زندت في الهواء أخذوها ونقلوها إلى محل آخر لأنهم لو تركوها لأكلت الشقوق التي منها الأرضون السبع والضباب الذي منه السماوات السبع بل وتأكل الماء وتشربه بالكلية لقوة جهد الريح ثم إن الله تعالى خلق ملائكة الأرضين من نوره صلى الله عليه وسلم وأمرهم أن يعبدوه عليها وخلق ملائكة السماوات من نوره صلى الله عليه وسلم وأمرهم أن يعبدوه عليها، وأما الأرواح والجنة إلا مواضع منها فإنها أيضاً خلقت من نور وخلق ذلك النور من نوره صلى الله عليه وسلم، وأما البرزخ فنصفه الأعلى من نوره صلى الله عليه وسلم فخرج من هذا أن القلم واللوح ونصف البرزخ والحجب السبعين وجميع ملائكتها وجميع ملائكة السماوات والأرضين كلها خلقت من نوره صلى الله عليه وسلم بلا وساطة وأن العرش والماء والجنة والأرواح خلقت من نور خلق من نوره صلى الله عليه وسلم ثم بعد هذا فلهذه المخلوقات أيضاً سقي من نوره صلى الله عليه وسلم أما القلم فإنه سقي سبع مرات سقياً عظيماً وهو أعظم المخلوقات بحيث إنه لو كشف نوره لجرم الأرض لتدكدكت وصارت رميماً وكذا الماء فإنه سقي سبع مرات ولكن ليس كسقي القلم وأما الحجب السبعون فإنها في سقي دائم وأما العرش فإنه سقي مرتين مرة في بدء خلقه ومرة عند تمام خلقه لتستمسك ذاته وكذا الجنة فإنها سقيت مرتين مرة في بدء خلقها ومرة بعد تمام خلقها لتستمسك ذاتها وأما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكذا سائر المؤمنين من الأمم السابقة ومن هذه الأمة فإنهم سقوا ثماني مرات الأولى في عالم الأرواح حين خلق الله نور الأرواح جملة فسقاه الثانية حين جعل يصور منه الأرواح فعند تصور كل روح سقاها بنوره صلى الله عليه وسلم. الثالثة يوم ألست بربكم فإن كل من أجاب لله تعالى من أرواح المؤمنين والأنبياء عليهم الصلاة والسلام سقي من نوره صلى الله عليه وسلم لكن منهم من سقي كثيراً ومنهم من سقي قليلاً فمن هنا وقع التفاوت بين المؤمنين حتى كان منهم أولياء وغيرهم. وأما أرواح الكفار فإنها كرهت شرب ذلك النور وامتنعت منه فلما رأت ما وقع للأرواح التي شربت منه من السعادة الأبدية والإرتقاآت السرمدية ندمت وطلبت سقيا فسقيت من الظلام والعياذ بالله.

الرابعة عند تصويره في بطن أمه وتركيب مفاصله وشق بصره فإن ذاته تسقى من النور الكريم لتلين مفاصله وتنفتح أسماعها وأبصارها ولولا ذلك ما لانت مفاصلها. الخامسة عند خروجه من بطن أمه فإنه يسقى من النور الكريم ليلهم الأكل من فمه ولولا ذلك ما أكل من فمه أبداً. السادسة عند التقامه ثدي أمه في أول وضعه فإنه يسقى من النور الكريم أيضاً. السابعة عند نفخ الروح فيه فإنه لولا سقي الذات بالنور الكريم ما دخلت فيها الروح أبداً مع ذلك فلا تدخل فيها إلا بكلفة عظيمة وتعب يحصل للملائكة معها ولولا أمر الله لها ومعرفتها به ما قدر ملك على إدخالها بالذات". انتهى. منه بلفظه (الأبريز ص224،225).

وهذا الهذيان الكامل، والتخريف الكامل شرح لعقيدة الصوفية فيما يسمونه بالحقيقة المحمدية، وأنها الذات الأولى التي انطلقت منها بعد ذلك كل الذوات والكائنات والموجودات.

ويستطرد أحمد مبارك شارحاً عقيدة الصوفية فيما يسمونه بالحقيقة المحمدية فيقول أيضاً:

"(وسمعته) رضي الله عنه يقول مرة أخرى إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإن سقوا من نوره لم يشربوه بتمامه بل كل واحد يشرب منه ما يناسبه وكتب له فإن النور المكرم ذو ألوان كثيرة وأحوال عديدة وأقسام كثيرة فكل واحد شرب لوناً خاصاً ونوعاً خاصاً، قال رضي الله عنه: فسيدنا عيسى صلى الله عليه وسلم شرب من النور المكرم فحصل له مقام الغربة، وهو مقام يحمل صاحبه على السياحة، وعدم القرار في موضع واحد. وسيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم شرب من النور المكرم فحصل له مقام الرحمة والتواضع مع المشاهدة الكاملة؛ فتراه إذا تكلم مع أحد يخاطبه بلين، ويكلمه بتواضع عظيم، فيظن المتكلم أنه يتواضع له وهو إنما يتواضع لله عز وجل لقوة مشاهدته. وسيدنا موسى صلى الله عليه وسلم شرب من النور المكرم فحصل له مقام مشاهدة الحق سبحانه في نعمه وخيراته وعطاياه التي لا يقدر قدرها. وهكذا سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والملائكة الكرام والله أعلم" (الأبريز ص226).

ويقول كذلك:

"(وسمعته) -أي شيخه عبدالعزيز الدباغ- رضي الله عنـه يقـول إني لم أزل أتعجب من الـوالي الـذي يقـول إنـه يملأ الكـون وذلـك لأن للكون باباً منه يقع الدخول إليه وهو النبي صلى الله عليه وسلم ولا يطيق مخلوق من المخلوقات أي يحمل نوره صلى الله عليه وسلم ومن عجز عن الباب فكيف يطيق غيره اللهم إلا أن يكون دخـل من غير باب؛ يعني فيكون فتحه شيطانياً ظلمانياً، وهذا لا يملأ بيته فضلاً عن داره فضلاً عن شيء آخر. قال رضي اللـه عنـه واعلم أن أنـوار المكونات كلها من عرش وفرش وسماوات وأرضين وجنات وحجب وما فوقها ومـا تحتهـا إذا جمعت كلهـا وجـدت بعضـاً من نـور النـبي صلى الله عليه وسلم وأن مجموع نوره صلى اللـه عليـه وسـلم لـو وضع على العرش لذاب ولو وضع على الحجب السبعين التي فـوق العرش لتهافتت ولو جمعت المخلوقات كلها ووضع عليه ذلك النـور العظيم لتهافتت وتساقطت وإذا كان هذا شأن نوره صلى الله عليه وسلم فكيف يقول من يقول إنـه يملأ الكـون، فـأين تكـون ذاتـه إذا بلغت المدينة المنورة، وقربت من القـبر الشـريف. أم كيـف تكـون إذا تصاعدت نحو البرزخ وقربت من الموضع الذي فيه النور العظيم القائم بالروح الشريفة؟ أفتكون ذاته حاملة له والمخلوقات بجملتها عاجزة عنه أم يتخطى ذلك الموضـع فلم يملأ الكـون؟ والغـرض أن الموضـع المـذكور آخـذ من القـبر الشـريف إلى قبـة الـبرزخ تحت العرش ولعله أراد بـالكون مـا بين السـماء والأرض مـا عـدا موضـع البرزخ الذي فيه نور المعظم فقلت ولعله أنه يملؤه من حيث النور أي يملؤه بنوره لا بذاتـه كالشـمس الـتي سـطعت على السـماوات والأرض. فقال رضي الله عنـه ومـا مـراده إلا أنـه يملـؤه بنـوره ولا يريد أنه يملؤه بذاته. ولكن أين نوره من نور المصطفى صـلى اللـه عليه وسلم فـإن ذلـك النـور من النـور المكـرم بمنزلـة الفتيلـة في وسط النهـار وقت الظهـيرة. وهـل يصـح أن يقـال إن تلـك الفتيلـة كسـفت نـور الشـمس؟ فقلت ونـور الشـمس من النـور المكـرم بمنزلة الفتيلة فما باله ملأ الأكوان؟ فقال رضـي اللـه عنـه: لم يملأ الأكوان بمعنى أن النور المكرم ذهب بسببه واضمحل فكيـف ونـور الشمس إنما هو من نور أرواح المؤمنين الذي هـو من نـوره صـلى الله عليـه وسـلم وإنمـا سـبب ذلـك أنـا حجبنـا عن مشـاهدة النـور المكرم كما حجبنا عن مشاهدة أنوار الأوليـاء فلـو كشـف الحجـاب لكانت له أنوار من النور المكرم بمنزلـة الفتائـل وسـط النهـار ولم

يظهر للشمس ولا لغيرها نوراً إلا كما يظهر للفتائل وسط النهار" (الأبريز ص230). أ.هـ

ويقول أيضاً في شرح قول الشاذلي (اللهم صل على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار).

"* (الباب السابع في تفسيره رضي الله عنه لبعض ما أشكل علينا من كلام الأشياخ رضي الله عنهم) فمن ذلك أنه شرح لنا رضي الله عنه بعض الألفاظ من صلاة القطب الكامل الوارث الواصل مولانا عبدالسلام بن مشيش رضي الله عنه فسمعته رضي الله عنه يقول في شرح قوله (اللهم صل على من منه انشقت الأسرار) حاكياً عن سيد محمد بن عبدالكريم البصراوي رضي الله عنه أن الله تعالى لما أراد إخراج بركات الأرض وأسرارها مثل ما فيها من العيون والآبار والأنهار والأشجار والثمار والأزهار أرسل سبعين ألف ملك إلى سبعين ألف ملك إلى سبعين ألف ملك ثلاث سبعينات من الألوف فنزلوا يطوفون في الأرض؛ فالسبعون الأولى يذكرون اسم النبي صلى الله عليه وسلم ومرادنا بالاسم الاسم العالي ما يأتي في شرح وتنزلت علوم آدم. والسبعون الثانية يذكرون قربه صلى الله عليه وسلم من ربه عز وجل ومنزلته صلى الله عليه وسلم منه. والسبعون الثالثة تصلي عليه صلى الله عليه وسلم ونوره صلى الله عليه وسلم مع الطوائف الثلاث فتكونت الكائنات ببركة ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم وحضوره بينها ومشاهدتها قربه صلى الله عليه وسلم من ربه عز وجل قال وذكروه على الأرض فاستقرت وعلى السماوات فاستقلت وعلى مفاصل ذات ابن آدم فلانت بإذن الله تعالى وعلى مواضع عينيه ففتحت بالأنوار التي فيها فهذا معنى قوله منه انشقت الأسرار. فقلت: فهذا معنى دلائل الخيرات وبالاسم الذي وضعته على الليل فأظلم وعلى النهار فاستنار وعلى السماوات فاستقلت وعلى الأرض فاستقرت وعلى الجبال فرست وعلى البحار ففجرت وعلى العيون فنبعت وعلى السحاب فأمطرت. فقال رضي الله عنه: نعم ذلك الاسم هو اسم نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم فببركته تكونت الكائنات والله أعلم. قلت وقد سبق كلام سيدي أحمد بن عبدالله الغوث رضي الله عنه وقوله لمريده يا ولدي لولا نور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما ظهر سر من أسرار الأرض؛ فلولا هو ما تفجرت عين من العيون ولا جرى نهر من الأنهار، وإن نوره صلى الله عليه وسلم يا ولدي يفوح في شهر

مارس ثلاث مرات على سائر الحبوب فيقع لها الإثمار ببركته صلى الله عليه وسلم ولولا نوره صلى الله عليه وسلم ما أثمرت، ويا ولدي إن أقل الناس إيماناً من يرى إيمانه على ذاته مثل الجبل وأعظم منه فأحرى غيره، وأن الذات تكل أحياناً عن حمل الإيمان فتريد أن ترميه فيفوح نور النبي صلى الله عليه وسلم عليها فيكون معيناً لها على حمل الإيمان فتستحيله وتستطيبه" (الأبريز ص 222). أهـ.

وصلاة ابن مشيش هذه يقول فيها:

"اللهم صل على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق وتنزلت علوم آدم بأعجز الخلائق، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه سابق ولا لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، ووحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة، ولا شيء إلا هو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط" (أذكار الطريقة الشاذلية).

والحق أن هذه العبارات في وصف (الحقيقة المحمدية) حسب المفهوم الصوفي الفلسفي، قد يختلف بعضها عن بعض قليلاً ولكنها جميعها مجمعة على شيء واحد وهو أن الرسول هو أول موجود فمنهم من يقول نور الرسول هو أول موجود، ومنهم من يقول بل وأيضاً ذاته النورانية المستوية على العرش، وأن وجوده البشري في وقته إنما كان مجرد تعيين جديد، وتجسد جديد لذات الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعض الصوفية أيضاً يجعل عين الرسول وذاته هي عين الله وذاته، وأنه ليس هناك حقيقة إلهية غير الحقيقة المحمدية ومن ذهب إلى ذلك عبدالكريم الجيلي وغيره، وبعضهم يفرق بين الذات الإلهية التي ليس لها تعين ذاتي ووجود منفصل عن الخلائق بل هي كل الموجودات بل هي في زعمهم الروح الخفي الساري في الموجودات. وأن هذه الذات الإلهية خلقت النبي محمداً أولاً قبل المخلوقات جميعاً ثم خلقت المخلوقات بعد ذلك من نور ذات الرسول، وأن ذات الرسول هي المستوية على العرش الرحماني كما قال ابن عربي. ومنهم ولا سيما المتأخرون يجعل ذات الرسول والحقيقة المحمدية هي عين الحقيقة الإلهية، ويجعلون الرسول بصورته البشرية صورة كاملة أو هو أكمل صورة للحقيقة الإلهية. ويجعلون كذلك الصورة البشرية المحمدية هي إحدى الصور الممكنة للرسول، ويعتقدون أنه يتشكل

كثيراً في أي صورة يشـاء وهـذا نص عبـارة عبـدالكريم الجيلي في ذلك قال في الباب الستين:

"اعلم حفظك الله أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تـدور عليـه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين، ثم له تنوع في ملابس ويظهر في كنائس (الإنسان الكامـل للجيلي)، فيسمى به باعتبار لباس، ولا يسمى به باعتبار لباس آخـر، فاسمه الأصلي الـذي هـو لـه محمـد، وكنيتـه أبـو القاسـم، ووصـفه عبدالله، ولقبه شمس الدين، ثم له باعتبار ملابس أخـر أسـام، ولـه في كل زمان اسم ما يليق بلباسه في ذلـك الزمـان، فقـد اجتمعت به صلى الله عليه وسلم وهو في صورة شيخي الشيخ شرف الدين اسماعيل الجبرتي، ولست أعلم أنه النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم، وكنت أعلم أنه الشيخ، وهذا من جملة مشـاهد شـاهدته فيهـا بزبيـد سنة ست وتسعين وسبعمائة، وسر هذا الأمر تمكنه صلى الله عليه وسـلم من التصـور بكـل صـورة، فـالأديب إذا رآه في الصـورة المحمدية التي كان عليهـا في حياتـه فإنـه يسـميه باسـمه، وإذا رآه في صورة ما من الصور وعلم أنه محمد، فلا يسميه تلـك الصـورة، ثم لا يوقع ذلك الاسم إلا على الحقيقة المحمدية. ألا تراه صلى الله عليه وسلم لما ظهر في صورة الشبلي رضي الله عنه قال الشبلي لتلميذه أشهد أني رسول الله وكان التلميذ صـاحب كشـف فعرفـه، فقال: أشهد أنك رسول الله، وهذا أمر منكور، وهو كما يرى النـائم فلاناً في صورة فلان وأقل مراتب الكشف أن يسوغ به في اليقظة مـا يسـوغ بـه في النـوم ولكن بين الكشـف والنـوم فرقـاً، وهـو أن الصورة التي يرى فيها محمد صـلى اللـه عليـه وسـلم في النـوم لا يوقع اسمها في اليقظة على الحقيقة المحمديـة، لأن عـالم المثـال يقع في التعبير فيه فيعـبر عن الحقيقـة المحمديـة إلى حقيقـة تلـك الصورة في اليقظة، بخلاف الكشف فإنه إذا كشف لك عن الحقيقة المحمدية أنها متجلية في صورة من صور الآدميين، فيلزمـك إيقـاع اسم تلك الصورة على الحقيقة المحمديـة، ويجب عليـك أن تتـأدب مع صاحب تلك الصورة تأدبك مع محمد صلى الله عليه وسلم، لمـا أعطاك الكشف أن محمداً متصور بتلك الصورة، فلا يجـوز لـك بعـد شهود محمد صلى الله عليه وسلم فيها أن تعاملها بما كنت تعاملهـا به من قبل، ثم إياك أن تتوهم شيئاً في قولي من مـذهب التناسـخ، حاشا الله وحاشا رسول الله صلى الله عليه وسـلم أن يكـون ذلـك مرادي، بل إن رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم لـه من التمكين

في التصور بكل صورة حـتى يتجلى في هـذه الصـورة، وقـد جـرت سنته صلى الله عليه وسلم أنه لا يزال يتصور في كل زمان بصورة أكملهم ليعلي شـأنهم ويقيم مَيَلانَهُم فهم خلفـاؤه في الظـاهر وهـو في الباطن حقيقتهم". أ.هـ

وأظن أنـه قـد وضـح الآن حقيقـة المعتقـد الصـوفي الفلسـفي في النبي صلى الله عليه وسلم وحـتى تتضـح الصـورة أمامنـا أكـثر من ذلك نجمل ما قدمناه فيما يلي، فنقول.. معتقد المتصوفة في النبي محمد صلى الله عليه وسلم على ثلاث درجات:

1- من يقولــون بوحــدة الوجــود، وأن اللــه هــو ذات الموجــودات فيجعلــون الرســول هــو المخلــوق الأول ومنــه وعنــه صــدرت الموجودات جميعاً وهو الإله المستوي على العرش وهذا هو معتقـد ابن عربي ومن على شاكلته.

2- من يقولون إن نور الرسول هو أول موجـود فعلاً ومنـه انشـقت الأنــوار وخلــق الخلــق جميعــاً لكن لا يقولــون بــأن ذات الرســول مستوية على العرش.

3- من يقولون بأن نور الرسول أول موجود وهو أكرم الخلــق ومن أجله خلق الله الكون جميعاً دون أن يصرحوا بأن العوالم قد خلقت من نوره، وإنما يقولون خلقت لأجله.

هذا وبالرغم من أن الصوفية على هذه الدرجات الثلاث في الاعتقاد في النبي محمد صلى الله عليـه وسـلم فـإنهم متفقـون ومجمعـون تقريباً إلا ما شذ منهم أن ذات الرسول الذات التي منهـا تفيض كـل العلوم وتنزل كل الرسالات، فالرسل لا يـنزل عليهم الـوحي إلا من الرسول ويعبرون عن ذلك بقولهم إن الرسل جميعاً والأوليـاء أيضـاً لا تفيض ولا تـنزل عليهم العلـوم الإلهيـة إلا من ذات الرسـول في الأزل والأبـد أي قبـل أن يوجـد الرسـول بذاتـه الترابيـة في الأرض، وبعد أن وجد ثم بعد أن خرجت ما يسمونه بذاتـه الترابيـة من هـذه الأرض.. وهـذا بـالطبع هـو حاصـل اعتقـادهم في أن الرسـول أول موجود وأن العوالم من نوره، أو أن الكون خلق لأجله.

وكذلك مفهوم المتصـوفة -المعتـدلين- منهم يعتقـدون أن الرسـول يعلم الغيب كلــــه، ولا يخفى عليــــه شــــيء في الأرض ولا في السماوات.

ولا شك أن المتصوفة الذين يعتقدون في مثل هذه العقائد في الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتأثروا فقط بالفلاسفة في نظريتهم في الخلق وقولهم بالهباء، والعقل الأول أو العقل الفعال.. بل إنهم تأثروا أيضاً بما قاله النصارى في عيسى، ولا شك أن نظرية النصرانية في المسيح متأثرة بقول الفلاسفة أيضاً في العقل الفعال. ولقد استطاع المتصوفة نقل هذه النظرية بالرغم من غموضها الفلسفي، وصعوبة التدليل عليها بدليل منطقي يقبله العقل. وبمجافاة هذه النظرية عن عقيدة الإسلام الواضحة السهلة، أقول بالرغم من كل ذلك فإن المتصوفة استطاعوا أن يجعلوا هذه العقيدة هي عقيدة العوام والكثرة من المسلمين وذلك بصياغتها لعبارات سهلة، وفي شعر سلس يجري على الألسنة سريعاً كقولهم مثلاً: (لولاك ما خلقت الأفلاك)!!.. وكنت مرة أخطب في الحرم النبوي في نحو سنة 1381هـ الموافقة 1960م تقريباً مبيناً العقيدة الواجبة في الرسول صلى الله عليه وسلم فقام إلي أحد الحجاج من كبار السن وقال لي: أليس يقول الله تعالى (لولاك ما خلقت الأفلاك) فقلت: له ليست هذه بآية من القرآن، ولا بحديث أيضاً واعتقادها شرك بالله!! فانظر كيف جرى هذا المعتقد على ألسنة الناس بكلام مسجوع يظنه العامي قرآناً وما هو بقرآن.

فكيف إذا كان شعراً من أمثال شعر البوصيري الذي سارت به الركبان كقوله:

وإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وقوله:

وكل آي أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم

وهذا البيت يعبر عن معتقد الصوفية في أن علم الرسل كله من الرسول محمد مأخوذ من ذاته الأولى قبل أن تخلق ذاته الترابية كما يقولون. والبيت الأول يجعل الدنيا والآخرة نفحة من نفحات الرسول، وما سطره القلم ووعاه اللوح المحفوظ جزء وبعض من علوم الرسول صلى الله عليه وسلم..

وكذلك وصفوا مثل هذه العقيدة في أذكار تقرأ صباحاً ومساءً لا أقول عشرات المرات بل يوجبون قراءتها أحياناً على مريديهم آلاف المرات؛ نحو قولهم في صلاة ابن مشيش :

"اللهم صـل على من منـه انشـقت الأسـرار وانفلقت الأنـوار وفيـه ارتفعت الحقائق وتنزلت علـوم آدم فـأعجز الخلائـق ولـه تضـاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة ولا شيء إلا وهـو بـه منوط إذ لولا الواسطة لذهب كما قيـل الموسـوط صـلاة تليـق بـك إليه كمـا هـو أهلـه اللهم إنـه سـرك الجـامع الـدال عليـك وحجابـك الأعظم القائم لك بين يديك اللهم ألحقني بنسـبه وحققـني بحسـبه وعرفني إيـاه معرفـة أسـلم بهـا من مـوارد الجهـل وأكـرع بهـا من مـوارد الفضـل واحملـني على سـبيله إلى حضـرتك حملاً محفوفـاً بنصرتك واقذف بي على الباطل فأدمغه، وزج بي في بحار الأحديـة وانشلني من أوحال التوحيد". أ.هـ

وكذلك لقولهم في مناجاة الرسول: "يا أول خلق الله يا نور عـرش الله" ومثل هذه الكلمات كان وما زال المؤذنـون في أمـاكن شـتى من العالم الإسلامي يقولونها في المآذن قبـل الآذان وبخاصـة آذان الفجر.. فالعامي يفهم معنى عاماً من هذه الكلمـات وأمـا الصـوفي المتمرس القارئ أو المريد المترقي في سلم التصـوف فإنـه يظـل يأخذ من هذه العقيدة حتى يتشربها أخيراً وتنطبعفي نفسـه ويظن - حقـاً- أن الرسـول هـو أول موجـود أو متعين ومنـه انفلقت أنـوار الوجـود فكـان العـرش والكرسـي والسـماوات والأرض الملائكـة والجن والإنس وأن اللـه مـا خلـق هـذا الخلـق إلا من أجلـه وحـتى يستوي هـو أي الرسـول على عـرش الكـون ويكـون كمـا قـال ابن عربي قبة الكون..!!

ولـو أن المسـلمين يقـرأون القـرآن ويفهمونـه، ويتعلمـون أحـاديث الرسـول ويدرسـون سـيرته كمـا استشـرت وانتشـرت مثـل هـذه العقيدة الباطلـة في أوسـاطهم لنجحـوا في البعـد عن البـدع ولكن الصـوفية كـانوا قـد أحكمـوا الطـوق على المسـلمين فزعمـوا أن القرآن كله أسرار وأن أسـراره في الفاتحـة، وأن سـر الفاتحـة في البسملة وسر البسملة في الباء وسر الباء في النقطة!!!

ومن هـذا الـذي يسـتطيع أن يفتح نقطـة البـاء حـتى يعلم أسـرار القرآن، وكذلك جعلوا قراءة الحديث تبركاً فقـط دون محاولـة فهم لأن من حاول الفهم لا بـد أن يكـون مجتهـداً ولا اجتهـاد بعـد الأئمـة الأربعة. وجعـل المتصـوفة قـراءة السـير لا تعـدو أن تكـون ترديـداً لمنظومـات ملئوهـا بـالكفر والشـرك والغلـو والتغـزل في عيـون

الرسول الكحلية، وخدوده الوردية، وقوامه الممشوق.. هكذا والله.. وأما سيرته وجهاده وحياته ومعاناته صلى الله عليه وسلم فإنهم شغلوا الناس عن كل ذلك بهذه الترهات والخرافات، ولذلك ضاعت حقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم من أوساط عامة المسلمين إلا من رحم الله، وحل مكانها هذه العقيدة الصوفية الكفرية.

المعتقد الواجب في الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وسائر الرسل:

من المعلوم أن الإيمان بالرسل من أركان الإيمان الستة كما جاء في حديث جبريل لما سأل النبي عن الإيمان قال: [أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى] (متفق عليه)، وقد وصف الله الرسل في القرآن بأنهم بشر اختارهم لدعوة الناس إليه وأنهم كانوا يأكلون الطعام وكانوا يعالجون المعاش والسعي في الأرض كبقية البشر، ولم يكن أحد منهم يعلم من الغيب، أو يتصرف في الأكوان كما يشاء، أو يأتيه الطعام من الغيب وقتما يشاء إلا آية واحدة جعلها الله لعبده عيسى بعد تهديد ووعيد من الله بأن من يكفر بعد تنزل هذه الآية فإنه يعذبه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين كما قال تعالى: {إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين* قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين* قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين* قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين} (المائدة:112-115).

وهكذا لم تكن هذه الآية والكرامة إلا علامة على الرسالة وصدق عيسى فيما دعا قومه إليه وأنه عبدالله ورسوله، لقد كانت سيرة الرسل وعلى رأسهم محمد صلى الله عليه وسلم مبينة أنهم بشر قاسوا ما قاساه البشر من الآلام والأسقام والأوجاع والفتن والبلايا وتضرعوا إلى ربهم ودعوه، وخافوه، وأحبوه كذلك وطلبوا نصرته وعونه سبحانه وتعالى، وكان خاتمهم وخيرهم محمداً صلى الله عليه وسلم أكمل الرسل في تحقيق عبودية الله سبحانه وتعالى على نفسه فقد قام من الليل حتى تفطرت قدماه، وأوذي بالله

أشد الأذى، وأخرجه كفار مكة منها، وعاداه المنـافقون في المدينـة عداء شديداً فسبوه أقذع السباب، ورموا زوجته بأشنع فرية، وقـال قـائلهم: لئن رجعنـا إلى المدينـة ليخـرجن الأعـز منهـا الأذل..!!.. وعاش صلى الله عليه وسلم على الكفـاف، وقـالت عائشـة رضـي الله عنها "كان يـأتي الهلال والهلال والهلال ثلاثـة أهلـة في شـهرين ولا يوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار..!! قيل لها فما كان طعامكم؟ قالت الأسودان التمـر والمـاء" (رواه البخـاري)، وربط رسول الله الحجر بل الحجرين على بطنه.. وجاع مع أصحابه وصبر معهم.. وكان في المرض يتألم ويوعك كما يوعـك رجلان من المسلمين.. وحياة الرسول صلى الله عليه وسـلم لا تخفى فـأموره أغلبها من المعلوم من الدين ضـرورة.. وأشـهر ذلـك أنـه لم يطلب من أحد أن يعظمه أو يعطيـه حقـاً للـه فيسـجد لـه أو يركـع لـه، أو يقوم على رأسه أو يقوم لمقدمه كما قال أنس "كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يحبونه وكانوا لا يقومون لـه لمـا يعلمـون من شدة كراهته لذلك" ومعلوم كذلك أن الرسل لا يعلمون الغيب كمـا قال تعالى: {قل لا يعلم من في السـماوات والأرض الغيب إلا اللـه وما يشعرون أيـان يبعثـون} (اقـرأ الفصـل الخـاص بـذلك في بـاب الكشف الصوفي)، وكذلك لم تكن كل دعـواتهم تسـتجاب لهم فقـد دعا نوح وشفع في ابنه قائلاً: {رب إن ابني من أهلي} فقيل له {يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسـألن مـا ليس لـك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين} ودعا إبـراهيم لأبيـه فلم يستجب له، وجاء في صحيح البخاري أن إبراهيم يلقى أباه آزر يـوم القيامة وقد سربل بسـربال من قطـران وقـد علت وجـه آزر غـبرة وقترة فيقول له إبراهيم: يا أبت ألم أقل لك لا تعصـني. فيقـول لـه آزر: يـا بـني الآن لا أعصـيك. فينـادي إبـراهيم ربـه قـائلاً: ربي لقـد وعـدتني ألا تخـزني يـوم يبعثـون، وأي خـزي أكـبر من أبي الأبعـد، فيقال له يا إبراهيم إني حرمت الجنة على الكـافرين.. وانظـر تحت قدميك فينظر تحت قدميه فإذا هو بزيخ متلطخ بالدماء -والزيخ هــو ذكر الضبع- فيؤخذ من قوائمه ويلقى في النار، وكـذلك امـرأة نـوح وامرأة لـوط كانتـا كـافرتين ولم ينفعهمـا القـرب من الأنبيـاء، وأمـا النبي محمد صلى الله عليـه وسـلم فقـد شـفع في أبي طـالب فلم يستجب الله له إلا بأن أخرجه من مكانـه في النـار إلى مكـان آخـر في ضحضاح من النار يغلي منه رأسه، وقال أيضاً صـلى اللـه عليـه وسـلم [اسـتأذنت ربي أن أزور قـبر أمي فـأذن لي، واسـتأذنت أن

أستغفر لها فلم يأذن لي] وقال صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة [لا أغني عنك من الله شيئاً سليني من مالي ما شئت]..!!

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم [لن يدخل أحدكم الجنة بعمله] قالوا ولا أنت يا رسول الله. قال [ولا أنا ما لم يتغمدني الله برحمة منه وفضل] وكل هذه الأحاديث مما أخرجه أهل الصحيحين وما تضمنته هو من المعلوم في الإسلام ضرورة فإن الآيات القرآنية التي وصفت حال الرسل وافتقارهم إلى ربهم، ومعاتبته إياهم على مجرد فعلهم لخلاف الأولى كثير، كقوله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم {ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً* إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً} (الإسراء:73-75) وكذلك قوله تعالى: {ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً} (النساء:113) وكذلك قوله تعالى: {عفا الله عنك لم أذنت لهم} وقوله تعالى: {عبس وتولى* أن جاءه الأعمى} وقوله تعالى: {وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه}.

وأما الآيات التي يبين الله تعالى فيها فضله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم فكثيرة جداً يصعب حصرها وسردها في هذه المقام ومنها قوله تعالى: {ألم يجدك يتيماً فآوى* ووجدك ضالاً فهدى} فكيف يقول تعالى {ووجدك ضالاً فهدى} وتقول صوفية وجد محمد قبل الخلق جميعاً ومن نوره استمد جميع الأنبياء علومهم!؟ ويقول تعالى أيضاً: {ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا} (الشورى).

والمهم أن من قرأ القرآن وعلم شيئاً من الإسلام ودرس سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم حصل العلم الضروري الذي لا يدافع بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو عبدالله ورسوله وأنه وجد يوم وجد على الأرض بشراً كالبشر لا علم له بشيء مما كان في الملأ الأعلى كما قال تعالى: {قل هو نبؤا عظيم* أنتم عنه معرضون* ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون* إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين* إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين* فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين} (ص:67 وما بعدها)، فالرسول أمره الله أن يقول هنا: {ما كان لي من علم

بـــالملأ الأعلى إذ يختصـــمون} والملأ الأعلى هم الملائكـــة عنـــدما أمرهم الله بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس فكان بينه وبين الـــرب سبحانه وتعالى ما كان مما قصه على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ومما لم يكن عن الرسول قبل بعثته وقبل نزول هذا الـــوحي أو في علم منه.. بل إن رسول الله عندما جاءه جبريل بالوحي ظنه شيطاناً وجاء أهله ترتعد فرائصه، وهو يقول زملوني وقـال للسـيدة خديجة رضي الله عنها: لقد خشيت على نفسي!!

وظن أن الذي أتاه في غـار حـراء شـيطان من الـذين يـنزلون على الكهان والسحرة فلـو كـان جبريـل مخلوقـاً من نـور الرسـول كمـا زعمت المتصوفة لقال الرسول لجبريـل عنـدما نـزل إليـه أهلاً بمن خلقه الله من نوري. ولم يكن شأن الرسول أمام جبريـل كمـا كـان حيث يأمره بأن يقرأ ما في يـده من آيـات مـا أنـا بقـارئ.. فيضـمه جبريل حتى تكاد أنفاس الرسول تنقطع ثم يرسله ويقـول لـه مـرة ثانية اقرأ ويفعل ذلك ثلاث مرات، وما كان ذلك إلا لإشعار الرسول أن ما يراه وما يسمعه ليس خيالاً ولا رؤيـا مناميـة وإنمـا هـو حـق.. أقول لا شك أن من قرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعلم شيئاً يسيراً من عقيدة الإسـلام اسـتحال عليـه الإيمـان بمـا آمن بـه الصوفية في شأن الرسول، ولكن هؤلاء لأنهم تركوا الكتاب والسنة وراءهم ظهرياً وتركوا العقول أيضاً وراءهم وألقوها واتبعوا مـا كتبـه شـياطين الإنس من الفلاسـفة ممـا توهمـوه بعقـولهم في قـولهم بالهبـاء والهيـولي والعقـل الأول، والعلـة، وواجب الوجـود الـذي لا يوصف بصفة ثبوتية وإنما يوصف بالصفة وضدها.. كالوجود والعدم، والحيـاة والمـوت، والفـوق والتحت، وغـير ذلـك من هـذه الأوهـام والخرافات، والمتناقضات.

أقول: عندما آمن فلاسفة التصوف بهذه الخرافات الإغريقية وتركوا الإسلام والعقل فإنهم خرجوا على الناس بهـذه الخرافـات وأدخلـوا في الـدين الإسـلامي هـذه الخـزعبلات. والعجيب أنهم اسـتطاعوا بفنهم الشيطاني أن يجعلـوا عقيـدتهم هـذه ومـا سـموه (بالحقيقـة المحمدية) عقيدة العامـة والـدهماء من المسـلمين الـذين أحسـنوا الظن برجال التصوف الذين لبسـوا لهم مسـوح الرهبـان وأضـمروا لهم عقائد الشيطان، وخرجوا على الناس بجلود الضأن، وقد أخفـوا عنهم قلوب الذئاب..

وقـد تـذرع المتصـوفة لنشـر عقيـدتهم فيمـا سـموه (بالحقيقـة المحمدية) أيضاً بحديث موضوع وهـو (كنت أول النبـيين في الخلـق وآخرهم في البعث) وذكره الشوكاني في الأحاديث الموضـوعة ص 326، وحـديث آخـر (كنت نبيـاً وآدم بين الـروح والجسـد) ذكرهـا الحـاكم وقـال الصـنعاني هـو موضـوع وكـذا قـال ابن تيميـة. وعلى فـرض صـحة هـذا الحـديث الأخـير فإنـه لا شـاهد فيـه على عقائـد الصوفية وإنما يعني أن الرسول قد قدر الله كونه نبيـاً عنـدما خلـق آدم. ولا شـك أن اللـه قـد قـدر مقـادير الخلـق قبـل أن يخلـق السماوات والأرض بخمسين ألـف سـنة كمـا جـاء في الحـديث [إن أول شيء خلقه الله تعالى القلم وأمره أن يكتب كل شيء يكـون] (رواه أبو يعلى والـبيهقي وصـححه الألبـاني وأخرجـه في الصـحيحة برقم133). وبهذا يتضح لك أن ما ذكره الصوفية في عقائـدهم عن (الحقيقة المحمدية) ما هو إلا هذيان وأقوال فلاسفة وكهـان، وليس هو في شيء من دين الإسلام.

وصلى الله على عبده محمد إمام أهل الإيمان .

الفصل الثامن

الخضر عليه السلام في الفكر الصوفي

قصـة الخضـر عليـه السـلام الـتي وردت في القـرآن في سـورة الكهف، ووردت في السـنة في البخـاري وغـيره، حـرّف المتصـوفة معانيهـا وأهـدافها ومراميهـا وجعلوهـا عمـوداً من أعمـدة العقيـدة الصوفية، فقد جعلوا هذه القصة دليلاً على أن هناك ظاهراً شـرعياً، وحقيقة صوفية تخالف الظاهر، وجعلوا إنكـار علمـاء الشـريعة على علمـاء الحقيقـة أمـراً مسـتغرباً (فقـد أنكـر موسـى من قبـل على الخضر وكان كل منها على شريعة خاصة) وجعـل الصـوفية الخضـر مصدراً للوحي والإلهام والعقائد والتشريع. ونسبوا طائفة كبيرة من علومهم التي ابتدعوها إلى الخضر، وليس منهم صغير أو كبير دخـل في طريقهم إلا ادعى لقيا الخضر والأخذ عنه.

ولما كان لهذه القصة هـذا الـدور العظيم في الفكـر الصـوفي فقـد أحببت أن أجلي هذا الأمر وأوقف الإخوة القـراء على حقيقـة الأمـر ولنبدأ أولاً بالقصة في القرآن والسنة:

الخضر في القرآن الكريم:

قال تعالى: {وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً* فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً* فلما جاوزا قال لفتاه ءاتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً* قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً* قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً* فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً* قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً* قال إنك لن تستطيع معي صبراً* وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً* قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً* قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً* فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً* قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً* قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً* فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً* قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً* قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني ذكراً* فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً* قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً* أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً* وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً* فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً* وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً}.

الخضر في السنة:

وقبل أن نتعرض لبعض ما جاء في هذه الآيات الكريمة بالشرح والتفسير نستعرض ما رواه الإمام البخاري رضي الله عنه في شأن هذه القصة. قال الإمام البخاري:

باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام:

1- حدثنا عمرو بن محمد حدثنا يعقوب بن إبراهيم قـال حـدثني أبي عن صالح عن أبي شهاب أن عبيداللـه بن عبداللـه أخـبره]عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس الفـزاري في صـاحب موسـى، قـال ابن عبـاس: هـو خضـر، فمـر بهمـا أبي بن كعب، فـدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيّه، هـل سـمعت رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم يذكر شأنه؟ قال نعم سـمعت رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم يقول: [بينمـا موسـى في ملأ من بـني إسـرائيل جـاءه رجـل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا. فـأوحى اللـه إلى موسـى بل عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إليه، فجعـل لـه الحـوت آيـة، وقيل له إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، فكـان يتبـع الحـوت في البحر، فقال لموسى فتـاه: أرأيت إذا أوينـا إلى الصـخرة فـإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشـيطان أن أذكـره. فقـال موسـى: ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصـاً فوجـداً خضـراً، فكـان من شأنهم الذي قص الله في كتابه[.

2- حدثنا علي بن عبدالله حدثنا سفيان حـدثنا عمـرو بن دينـار قـال أخبرني سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس إن نوفاً البكالي يــزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هـو موسـى بن إسـرائيل، إنمـا هـو موسى آخر. فقال كـذب عـدو اللـه، حـدثنا أبي بن كعب عن النـبي صلى اللـه عليـه وسـلم أن موسـى قـام خطيبـاً في بـني إسـرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال أنا. فعتب الله عليـه إذ لم يـردّ العلم إليه فقال له: بلى، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منـك. قـال أي رب ومن لي به؟ -وربما قال سفيان؟ أي ربّ وكيـف لي بـه؟ -قـال تأخذ حوتاً فتجعله في مكتـل، حيثمـا فقـدت الحـوت فهـو ثم وربمـا قال: فهو ثمه- وأخـذ حوتـاً فجعلـه في مكتـل ثم انطلـق هـو وفتـاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسـهما، فرقـد موسـى واضطرب الحوت فخرج فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحــر سرباً، فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار مثل الطاق -فقال هكذا مثل الطاق- فانطلقا يمشيان بقية ليلتهمـا ويومهمـا، حـتى إذا من الغد قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينـا من سـفرنا هـذا نصـباً. ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث أمره الله، قـال لـه فتـاه أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت ومـا أنسـانيه إلا الشـيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجباً، فكان للحـوت سـرباً ولهمـا عجباً، قال له موسى ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصــاً -

رجعا يقصان آثارهما- حتى انتهيا إلى الصخر، فإذا رجل مسجّى بثوب، فسلم موسى فرد عليه فقال: وأنّى بأرضك السلام، قال أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً. قال يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علّمك الله لا أعلمه. قال هل أتبعك؟ قال: إنك لن تستطيع معي صبراً، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً -إلى قوله- إمراً. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة كلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول. فلما ركبا في السفينة جاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، قال له الخضر يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر. إذا أخذ الفأس فنزع لوحاً، قال فلم يفجأ موسى إلا وقد قلع لوحاً بالقدّوم، فقال له موسى: ما صنعت؟ قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها، لقد جئت شيئاً إمراً. قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً. فكانت الأولى من موسى نسياناً، فلما خرجا من البحر مروا بغلام يلعب مع الصبيان، فأخذ الخضر برأسه فقلعه بيده هكذا -وأومأ سفيان بأطراف أصابعه كأنه يقطف شيئاً- فقال له موسى: أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً. قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض مائلاً -أومأ بيده هكذا، وأشار سفيان كأنه يمسح شيئاً إلى فوق، فلم أسمع سفيان يذكر (مائلاً) إلا مرة- قال: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، عمدت إلى حائطهم، لو شئت لاتخذت عليه أجراً. قال هذا فراق بيني وبينك، سأنبئك بتأويل ما تستطع عليه صبراً، قال النبي صلى الله عليه وسلم :]وددنا لو أن موسى كان صبر فقص الله علينا من خبرهما]. قال سفيان: قال النبي صلى الله عليه وسلم: [يرحم الله موسى لو كان صبر يقص علينا من أمرهما]. وقرأ ابن عباس: أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً. وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين. ثم قال لي سفيان: سمعته منه مرتين وحفظته منه. قيل لسفيان قبل أن تسمعه عن عمرو أو تحفظه من إنسان؟

فقال ممن أتحفظه؟ ورواه أحد عن عمرو غيري؟ سمعته منه مرتين أو ثلاثاً وحفظته منه.

3- حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني أخبرنا ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء] قال الحموي قال محمد بن يوسف بن مطر الفربري حدثنا علي بن خشرم عن سفيان بطوله..

فقه القصة كما وردت في الكتاب والسنة:

ومن هذا العرض الكامل لنصوص القصة في القرآن وفي صحيح البخاري نستخلص الفوائد التالية:

1- أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤدب نبيه موسى صلى الله عليه وسلم الذي قال جواباً عن سؤال (لا أعلم على الأرض أعلم مني)!! إن كان يجب أن يرد علم ذلك إلى الله سبحانه وتعالى، فأراه الله جل وعلا أن هناك عبداً لا يعلمه موسى هو على علم من علم الله لا يعلمه موسى وكان من أجل ذلك هذا اللقاء بين موسى والخضر.

2- أن الخضر بعد أن تم لقاؤه بموسى أخبره أن علم الخضر وعلم موسى بجوار علم الله سبحانه لا شيء وأنهما لم ينقصا من علم الله إلا كما شرب العصفور من ماء النهر.

3- أن الشريعة التي كان عليها الخضر لم تكن في حقيقتها مخالفة للشريعة التي عليها موسى، وإنما كان يخفى على موسى فقط الخلفية التي من أجلها فعل الخضر ما فعله، ولذلك فإن الخضر عندما بين لموسى الأسباب التي دفعته إلي خرق السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار لم يستنكر موسى شيئاً من ذلك لأن هذا كله سائغ في الشريعة، فإتلاف بعض المال لاستنقاذ بعضه جائز فلو وكلت مثلاً رجلاً على عمل لك ثم جاء لصوص أو ظلمه قطاع طريق ليستولوا على المال كله ولم يجد هذا الوكيل وسيلة لدفعهم إلا بأن يدفع لهم بعض المال ويتركوا بعضه لما كان ملوماً شرعاً، ولا يلام ممن وكله بل يستحسن فعله، وما فعله الخضر بالنسبة إلى السفينة لا يعدو ذلك فهو إنما أفسد السفينة فساداً جزئياً لتظهر لأعوان ذلك الملك الظالم أنها غير صالحة فيتركوها وبذلك تسلم من الغصب، ولا شك أن ما فعله الخضر في حقيقته إحسان

لأصحاب السفينة لأن الله أطلعه على شيء من المستقبل في أن ذلك الملك الظالم سيصادر السفن لأمر ما كما هو حال كثير من الرؤساء والملوك الظلمة يصادرون وسائل النقل أحياناً إما لمصالحهم أو لمصلحة عامة..

فما فعله الخضر بالنسبة إلى السفينة موافق للشرع الإلهي تماماً في كل دين وملة وليس مخالفاً للتشريع، وإنكار موسى في أول الأمر ناشئ من أنه لم يعرف الخلفية الغيبية التي كان الله قد أطلع عليها الخضر بوحي من عنده.

وأما قتل الغلام فهو كذلك سائغ في الشريعة إذا كان هذا الغلام سيكون ظالماً لوالديه، مجبراً لهما على الكفر وكان هذا مما علمه الله مستقبلاً، وأطلع عليه الخضر، فكان قتله أيضاً سائغاً، وقد جاءت الشريعة بقتل الصائل المعتدي. حقاً إن الشريعة لا تأمر بقتل الصائل إلا إذا باشر العدوان، والطفل هنا لم يباشر العدوان بعد، ولكن القتل هنا بأمر الله سبحانه وتعالى الذي يعلم ما سيكون، وقد كان هذا منه سبحانه وتعالى رحمة بعبدين من عباده صالحين أراد الله جل وعلا أن لا يتعرضا لفتنة هذا الولد العاق فيتألما ألمين، الألم الأول أنه ولدهما وعقوق الأولاد شديد على قلوب الآباء، والثاني أنهما قد يبلغان الكفر ويتعبان في التمسك بالإيمان وهذا عذاب آخر، فجمع الله سبحانه وتعالى لهما عذاباً واحداً فقط وهو فقد الولد، وفيه خير لهما ولا شك لأن صبرهما، أيضاً على فقده فيه خير لهما. فلما علم الله ذلك، وأطلع الخضر عليه، ونفذ هذا بأمر الله كان ذلك كله موافقاً للشريعة التي عليها موسى وعليها محمد صلى الله عليه وسلم وعليها سائر الأنبياء.

ولذلك لما قيل لابن عباس على هذه الحادثة: أيجوز أن نقتل الأولاد؟.. قال: إذا علمت منهم ما علم الخضر فافعل.. أي إن ذلك سائغ في الشريعة ولكن أين من يطلعه الله على الغيب كما أطلع الخضر عليه السلام.

وأما مسألة بناء جدار لقوم بخلاء لم يبذلوا القرى (بكسر القاف) والضيافة الواجبة، فإن ذلك من باب مقابلة الإساءة بالإحسان، وهذا خلق من أخلاق الشريعة الإسلامية والمسيحية واليهودية ففي القرآن {ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم} وفي الإنجيل (أحسنوا إلى من أساء إليكم وباركوا لأعينكم)، وقال تعالى فيما أوحاه لموسى

{وقولوا للناس حسناً}، وما فعله الخضر هو من باب الإحسان إلى قوم قدموا الإساءة.

ثم إن إحسانه لهذين الغلامين لم يتأت منهما إساءة وكان أبوهما رجلاً صالحاً وهم في قرية ظالمة بخيلة ولو هدم جدار بيتهم لانكشف كنزهم ولاستولى عليه هؤلاء القوم البخلاء، فلا شك أن ما فعله الخضر من بناء الجدار هو عين ما تأمر به كل شرائع الأنبياء التي أمرت بالفضل والإحسان، ورعاية اليتامى وحفظ حقوقهم..

فأي شيء يستغرب مما فعله الخضر، وأي حقيقة اطلع عليها الخضر تخالف ظاهر شريعة كان عليها موسى بل ما فعله الخضر موافق تماماً لشريعة موسى ولشريعة عيسى ولشريعة محمد ولكل شرائع الله المنزلة، ولم يقل الخضر أو يفعل شيئاً يخالف ما كان عليه الأنبياء صلوات الله عليهم، وإنما فقط أطلعه الله على بعض أسرار المقادير ففعل ما فعل من الحق الذي لا تنكره الشرائع بناء على هذه الأخبار والأنباء التي أطلعه الله عليها. وباختصار لم يفعل الخضر شيئاً مخالفاً لشريعة موسى فافهم هذا جيداً وتمسك به.

4- وجود الخضر عليه السلام على دين وشريعة غير شريعة موسى كان أمراً سائغاً وسنة من سنن الله قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم لأن النبي كان يبعث إلى قومه خاصة، ولذلك كان موسى رسولاً إلى بني إسرائيل فقط، ولم يكن رسولاً للعالمين، ولذلك لما سلم موسى عليه السلام على الخضر قال الخضر: وأنّى بأرضك السلام. قال له موسى أنا موسى. قال الخضر: موسى بني إسرائيل!؟ قال: نعم.. أي أنت مبعوث إلى بني إسرائيل ومنهم، ولذلك لم تكن شريعة موسى لازمة للخضر ولجميع الناس في زمانه، وأما بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم فإنه لا يجوز شرعاً أن يكون هناك من هو خارج عن شريعته، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم رسول للعالمين، فلا يسع الخضر ولا غيره أن يتخلف عن الإيمان به واتباعه ولذلك فلا وجود بتاتاً للخضر وأمثاله بعد بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

5- لا شك أن ما فعله الخضر فعله عن وحي حقيقي من الله وليس عن مجرد خيال أو إلهام لأن قتل النفس لا يجوز بمجرد الظن، ولذلك قال الخضر: وما فعلته عن أمري.. فلم يفعل إلا عن أمر الله الصادق ووحيه القطعي. ومثل هذا الأمر والوحي القطعي قد

انقطع بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم فلا وحي بعده، ومن ادعى شيئاً من ذلك فقد كفر لأنه بذلك خالف القرآن الذي يقول الله فيه: {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبــيين وكان الله بكل شيء عليماً} (الأحزاب:40).

وقال أيضاً رسول الله صلى الله عليه وسـلم [وختم بي النـبيون فلا نبي بعدي] (رواه مسلم).

من بيان الحقائق السالفة تتضح لنا الصورة الحقيقية لقصة الخضــر عليه السلام، والإعتقاد الواجب فيـه حسـب الكتـاب والسـنة. ولكن المتصوفة جعلوا من هذه القصة شيئاً مختلفاً تماماً. فقد زعمــوا أن الخضر حي إلى أبد الدهر، وأنه صاحب شريعة وعلم باطني يختلـف عن علوم الشريعة الظاهرية، وأنه وليّ وليس بنبي، وأن علمه علم لدني موهوب له من الله بغير وحي الأنبيـاء وأن هـذه العلـوم تـنزل إلى جميع الأولياء في كل وقت قبل بعثة الرسول محمد صلى اللــه عليه وسلم وبعد بعثتـه، وأن هـذه العلـوم أكـبر وأعظم من العلـوم التي مع الأنبياء، بل وعلوم الأنبيـاء لا تـدانيها ولا تضـاهيها، فكمـا أن الخضر وهـو وليّ فقـط في زعمهم كـان أعلم من موسـى فكـذلك الأولياء من أمة محمد هم أعلم من محمد صـلى اللـه عليـه وسـلم لأن محمداً عالم بالشريعة الظاهرة فقـط، والـولي عـالم بالحقيقـة الصوفية، وعلماء الحقيقة أعلم من علماء الشريعة، وزعمـوا كـذلك أن الخضر يلتقي بالأولياء ويعلمهم هذه الحقائق ويأخــذ لهم العهــود الصـوفية، وأن الحقـائق الصـوفية تختلـف عن الحقيقـة المحمديـة ولذلك فلكل ولي شريعته المستقلة فما يكون معصية في الشريعة كشرب الخمر والزنا واللواط، قد يكون حقيقة صـوفية وقربـة إلى الله حسب العلم الباطني، وكذلك في أمر العقائد ومسائل الإيمــان فلكل ولي كشفه الخاص، وعلمه الخاص اللـدني الـذي قـد يختلـف عن الوحي النبوي..

وهكذا جعل المتصوفة من قصة الخضر باباً عظيماً لإدخال كل أنواع الخرافات والزندقـة والجهـل والإسـفاف..، بـل بلـغ الهـذيان وحـده عنــدهم حيث يوجــد من زعم منهم أن الخضــر لا يصــلي لأنــه على شـــريعة خاصـــة!! ومنهم من زعم أن الخضـــر يصـــلي ولكن على المذهب الحنفي!!

ولكن صوفياً آخر يزعم أنه رأى الخضر يصلي ولكن على المذهب الشافعي!! بل وأكثر من ذلك زعموا أن الخضر هو الذي يلقنه أذكار الطريقة الإدريسية والسنوسية.

وهكذا أصبح الخضر الصوفي هذا ألعوبة عظيمة، ولم يكتفوا بذلك بل جعلوا في كل مكان في الأرض تقريباً مكاناً زعموا أن الخضر جلس فيه أو رآه صوفي عنده، ولذلك أصبح له في كل أرض من أراضي الإسلام مقام ومزار، تذبح فيه الذبائح، وتقدم فيه القرابين، وينتفع بذلك الكذابون والغشاشون.

باختصار لقد تحول الخضر إلى قصة خرافية كبيرة أشبه بقصة ما يسمونه بالسوبرمان الذي يطير في كل مكان، ويلتقي بالأصدقاء والخلان في كل البلدان، ويشرع للناس ما شاء من عبادات وقربات، ويلقن الأذكار وينشئ الطرق الصوفية، ويعمد الأولياء والأقطاب، ويولي من يشاء، ويعزل من يشاء، وما عليك إذا أردت لقاء الخضر إلا أن تذكر مجموعة من الأذكار فيأتيك الخضر في الحال، ويبشرك بما تشاء من البشارات، ويجعلك ولياً من الأولياء، ويعطيك علوماً لدنية لم يعلمها الرسل أنفسهم ولا خطرت لهم على بال.

ولنذهب معاً في جولة مع الفكر الصوفي وخرافاته حول قصة الخضر:

أول من افترى القصة الصوفية للخضر:

يبدو أن أول من افترى القصة الصوفية للخضر هو محمد بن علي بن الحسن الترمذي المسمى بالحكيم والمتوفي في أواخر القرن الثالث الهجري -فالترمذي هذا يقول في كتابه ختم الولاية- (وهذا الكتاب بنظري هو أخطر كتاب صوفي على الإطلاق) يقول في جوابه عن علامات الأولياء:

"وللخضر عليه السلام، قصة عجيبة في شأنهم وقد عاين شأنهم في البدء ومن وقت المقادير فأحب أن يدركهم، فأعطى الحياة حتى بلغ من شأنه أنه يحشر مع هذه الأمة وفي زمرتهم، حتى يكون تبعاً لمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو رجل من قرن إبراهيم الخليل، وذي القرنين، وكان على مقدمة جنده، حيث طلب ذو القرنين عين الحياة ففاتته وأصابها الخضر، في قصة طويلة.

وهذه آياتهم وعلاماتهم. فأوضح علاماتهم مـا ينطقـون بـه من العلم وأصوله.

قال له قائل: وما ذلك العلم؟

قال: علم البدء، وعلم الميثاق، وعلم المقادير، وعلم الحروف.

فهذه أصول الحكمة وهي الحكمة العليا. وإنما يظهر هـذا العلم عن كبراء الأولياء، ويقبله عنهم من له حظ من الولاية" (ختم الولاية ص 362)

وفي هذا النص يـزعم مجـرد زعم بلا أدنى دليـل أو علم أن الخضـر هذا عاين منذ بدء الخليقة أمور الأولياء وعرفهم منذ كتابه المقـادير (انظر) وأحب -في زعم الترمذي- أن يدرك هؤلاء الأولياء، فـأعطى الحياة حتى يبلغ أمة محمد صلى الله عليه وسلم..

وأما هـو أي الخضـر فكـان في قـرن إبـراهيم أي وجـد في زمانـه.. وزمن ذي القرنين.. فانظر هذا الجهل والتخريف والإفتراء.. الذي لا يقوم على أدنى دليل إلا الكـذب والبهتـان.. ثم يسـتطرد في بهتانـه فيزعم أن ذا القرنين كـان يحـارب ويسـافر ليصـل إلى عين الحيـاة التي من شرب منها فلا يموت أبداً فلم يستطع الوصول إليهـا ولكن الخضر وصل إليها.. فانظر هذا الكذب والتخريف.

وهذا بالطبع منقول بعضه من تخريف اليهود وافتراءاتهم أن آدم لما خلقه الله في الجنـة أكـل من شـجرة المعرفـة فأصـبح كاللـه يعلم الخير والشر، ثم خاف الله منـه أن يأكـل من شـجرة الحيـاة فيحيـا أبداً ولا يموت فلما خاف اللـه من ذلـك طـرده من الجنـة من أجـل ذلك.. (انظر التوراة الإصحاح الثالث).

ولقد لفق الترمـذي من هـذه القصـص الخرقـاء قصـته عن الخضـر التي تلقفها الصوفية فيم بعد وزادوا عليها ما شاؤوا. والمهم هنا أنه زعم كـل هـذه المـزاعم وأن الخضـر حي أبـداً وأنـه قاتـل مـع ذي القـرنين.. ولسـنا نـدري أين كـان مـا دام أنـه حي يـرزق إلى آخـر الحيـاة. أين كـان عن شـهود غـزوة بـدر وأحـد والخنـدق والمواقـع، ولماذا لم يشارك في فتح القادسية واليرموك، ولماذا لم يلتق بأبي بكر وعمر، ولم يتشرف قبل ذلك برؤيا رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم ما دام أنه حي أبداً واطلع على جميع الأولياء منذ البـدء.. بـل ولماذا لم ينزل ولم يلتق إلا بالكذابين الضالين أمثال هـذا الترمـذي الذي لم يتنبأ له إلا امرأته الـتي تـنزل عليهـا الـوحي حسـب زعمـه

وبشرته بأنه سيكون من شأنه كذا وكذا إلى أن يكون خاتم الأوليـاء كما كان محمد خاتم النبيين!!

والترمـذي الـذي هـذا هـو شـأنه يـذكر أيضـاً من صـفات أوليائـه المزعومين أنـه تظهـر علي أيـديهم الآيـات كطي الأرض، والمشـي على الماء، ومحادثة الخضر عليه السلام الذي زعم أيضـاً أن الأرض تطوي لـه برهـا وبحرهـا، سـهلها وجبلهـا، يبحث عن الأوليـاء شـوقاً إليهم (ختم الولاية ص361).

ومنذ ذلـك الـوقت الـذي افـترى فيـه من افـترى هـذه الفريـة على الخضر عليه السلام سواء كان الترمذي نفسه هذا أو هو ناقل عمن قبله.. أقول سواء كان هذا أو هذا فـإن المتصـوفة بـدأوا ينسـحبون الخرافـات حـول قصـة الخضـر وإليـك بعضـاً من هـذه الخـزعبلات والخرافات:

الخضر يصلي على المذهب الشافعي:

من أطرف القصص ما ذكره أحمد الفـاروقي السـرهندي في كتابـه المنتخبات أنه رأى الخضر وإلياس عليهما السـلام حضـرا عنـده في حلقة الـدرس وأن الخضـر قـال لـه إنهمـا من عـالم الأرواح وأنهمـا يتشكلان بما شاءا من الصور.. وأنه أي السرهندي هذا سأل الخضر هـل تصـلون بمـذهب الشـافعي فقـال لـه الخضـر لسـنا مكلفين بالشـرائع!! ولكن لأن قطب الزمـان الشـافعي فنحن نصـلي وراءه على مذهبـه الشـافعي.. ويعلن السـرهندي على ذلـك فيقـول إن كمالات الولاية مختصة بالمذهب الشافعي، وأما كمالات النبوة فهي من اختصـاص المـذهب الحنفي!! ولـذلك عنـدما يـنزل عيسـى بن مـريم فإنـه يصـلي ويعمـل بالمـذهب الحنفي!! وإليـك نص أحمـد السرهندي في هذه الخرافات قال:

المكتوب الثاني والثمانون والمئتان إلى الملا بـديع في بيـان ملاقـاة الخضر وإلياس عليها السلام وبيان نبذة من أحوالهما

الحمد لله وسلام على عبـاده الـذين اصـطفى قـد مضـت مـدة من استفسـار الأصـحاب عن أحـوال الخضـر على نبينـا عليـه الصـلاة والسـلام. ولمـا لم يكن للفقـير اطلاع على أحوالـه كمـا ينبغي كنت متوقفـاً في الجـواب فـرأيت اليـوم في حلقـة الصـبح أن الإليـاس والخضر عليهما السلام حضرا في صورة الروحـانيين فقـال الخضـر بالإلقاء الروحاني:

نحن من عالم الأرواح قد أعطى الحق سبحانه أرواحنا قدرة كاملــة بحيث تتشكل وتتمثل بصورة الأجسـام ويصـدر عنهـا مـا يصـدر عن الأجسام من الحركات والسكنات الجسمانية والطاعـات والعبـادات الجسدية. فقلت له في تلك الأثنـاء: أنتم تصـلون الصـلاة بالمـذهب الشافعي. فقال نحن لسنا مكلفين بالشرائع، ولكن لما كانت كفايـة مهمات قطب الدار مربوطة بنا وهو على مـذهب الإمـام الشـافعي نصلي نحن أيضـاً وراءه بمـذهب الإمـام الشـافعي رضـي اللـه عنـه فعلم في ذلك الوقت أنه لا يترتب الجـزاء على طـاعتهم بـل تصـدر عنهم الطاعــة والعبـادة موافقــة لأهـل الطاعــة ومراعـاة لصـورة العبـادة وعلم أيضـاً أن كمـالات الولايـة موافقـة لفقـه الشـافعي وكمالات النبوة موافقة لفقه الحنفي فعلم في ذلـك الـوقت حقيقـة كلام الخواجـة محمـد بارسـا قـدس سـره حيث ذكـر في الفصـول السـتة نقلاً أن عيسـى عليـه وعلى نبينـا السـلام يعمـل بعـد نزولـه بمذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه رضي اللـه عنـه فوقـع في الخاطر في ذلك الـوقت أن نسـتمد بهمـا وأن نطلب منهمـا الـدعاء فقال إذا كانت عناية الحق سبحانه شاملة لحال الشخص فلا مدخل لنا هناك وكأنهم أخـذوا أنفسـهم من الـبين. وأمـا إليـاس على نبينـا وعليه الصـلاة والسـلام فلم يتكلم في ذلـك الـوقت أصـلاً والسـلام (المنتخبات من المكتوبات لأحمد الفاروقي ص91 طبع تركيا).

الخضر حنفي وليس شافعياً:

ويبـدو أن الكشـف السـابق لمـا يسـمونه بالعـالم الربـاني أحمـد السرهندي الذي أراد به التنقص من المذهب الشافعي وعلاء منزلة المذهب الحنفي وذلك أنه جعل المذهب الحنفي للأنبياء، والمـذهب الشافعي للأولياء.. أقول يبدو أنـه لم يطلـع على كشـف الشـعراني الـذي زعم أن الخضـر كـان حنفيـاً ولم يكن شـافعياً حيث ذكـر في كتاب معارج الألباب عن بعض شيوخه أنه ذكر لـه أن الخضـر عليـه السلام كان يحضر مجلس فقه أبي حنيفـة في كـل يـوم بعـد صـلاة الصبح يتعلم منه الشريعة فلما مات (أي أبـو حنيفـة) سـأل الخضـر ربه أن يرد روح أبي حنيفة إلى قبره حيث يتم له علم الشريعة وأن الخضر كان يأتي إليه كل يوم على عادته يسمع منه الشريعة داخـل القبر وأقام على ذلك خمس عشرة سنة حتى أكمـل علم الشـريعة (معارج الألباب ص44).

فانظر أي تخليط وكذب سمج، فهـذا الخضـر المزعـوم أين هـو من تعلم الشريعة على يد محمد صلى الله عليه وسـلم، وهم يزعمـون أنه كان حياً ذلك الـوقت ولمـاذا لم يتتلمـذ على الخلفـاء الراشـدين وهم أعلم الناس بالشريعة.. ولقد قال أبو حنيفة نفسه: دعوا قولي لقول أصحاب رسول الله فإنهم كانوا أعلم بالتنزيل!! فإذا كـان أبـو حنيفة يأمرنا أن نترك قوله لقول رسول الله صلى الله عليه وسـلم وقـول أصـحابه فكيـف يـترك الخضـر المزعـوم تعلم الشـريعة عن الرسـول وأصـحابه وينتظـر حيـاً حـتى يـأتي أبـو حنيفـة ليتعلم منـه الشريعة.. ثم أي تلميـذ بليـد هـذا الخضـر الصـوفي المزعـوم حـتى يمكث مع أبي حنيفة كل حياته ولا يستطيع أن يتعلم علمه.. ويــدعو الله أن يظل أبو حنيفة حيـاً في قـبره ليسـتكمل الدراسـة ويسـتمر في التردد على القبر يومياً لمدة خمس عشرة سنة ليتعلم علم أبـو حنيفة فضلاً عن عشرات السنين قبل ذلك!!

ثم كيف يكون الخضر هو ممـد الأوليـاء ومعلمهم وهـو بهـذه البلادة وقلة الحفظ!!

لقد فات الذين يفترون هذه القصـص كـل هـذه الأمـور، ولكن لأنهم لم تكن لهم عقول سليمة فإنهم كذبوا مثل هذا الكذب السمج.

ورحم اللـه الإمـام الشـافعي القائـل: "لا أرى أن رجلاً يتصـوف أول النهـار حـتى يكـون أحمـق في آخـره".. وقـال: "لا أرى أن رجلاً يصاحب الصوفية أربعين يوماً فيعود إليه عقله أبداً".

وهؤلاء لا شك أنهم كانوا كـذلك حمقى مجـانين ذهبت عقـولهم ولم ترجع إليهم أبداً.

والعجيب أن مثـل هـذه الخرافـات تظـل تسـري وتجـري فقـد زعم الحصفكي الحنفي في مقدمة كتابـه الـدر المختـار أن الخضـر أودع أوراق المذهب الحنفي في نهر جيحون إلى وقت نزول عيسى عليه السـلام حـتى إذا نـزل أخـذ هـذه الصـحائف وتعلم منهـا المـذهب الحنفي حتى يحكم به في آخر الزمان!!

الخضر يعلم الأذكار الصوفية:

الخضر الصـوفي المزعـوم يكـاد يكـون في كـل ميـدان من ميـادين التصوف، فهو صاحب الكشف وهو نقيب الأولياء، وهو آخـذ العهـود، وهـو مرشـد الأنـام، وهـو معلم الأذكـار. يقـول أحمـد بن إدريس: "اجتمعت بالنبي صلى الله عليه وسلم اجتماعاً صورياً ومعه الخضر

عليه السلام فأمر النبي عليه السلام الخضر أن يلقنني أذكار الطريقة الشاذلية فلقنني إياها بحضرته صلى الله عليه وسلم" (مفاتيح كنوز السماوات والأرض لصالح محمد الجعفري ص8) ويستطرد أيضاً قائلاً: "ثم قال صلى الله عليه وسلم للخضر عليه السلام يا خضر لقنه ما كان جامعاً لسائر الأذكار والصلوات والاستغفار" (مفاتيح كنوز السماوات والأرض لصالح محمد الجعفري ص8).

قلت اعلم أن أذكار الطريقة الشاذلية هذه فيها كفر وشرك فمن أذكارها صلاة ابن مشيش (اللهم انشلني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة) وفيها أن محمد صلى الله عليه وسلم هو أصل هذا الوجود وأول مخلوق فيه ومنه انشقت كل الأنوار وظهرت كل الموجودات (اقرأ الباب الخاص بالحقيقة المحمدية، والباب الخاص بالذكر الصوفي)..

والمهم هنا التنبيه على أن الخضر الصوفي يختلف تماماً عن الخضر الذي ذكره الله في القرآن وقص علينا النبي صلى الله عليه وسلم قصته. فذاك نبي عبد موحد مؤمن على علم من علم الله بالوحي عاش ومات لوقته وزمانه وفعل ما فعل موافقاً للحق والشريعة أما الخضر الصوفي فهو ما رأينا مصدراً للخرافة والجهل والشرك ولذلك أخبر الإمام ابن تيمية بأن الخضر المزعوم هذا لا حقيقة له شأنه في ذلك شأن الغوث والقطب الصوفي، ومنتظر الرافضة.

الخضر الصوفي خرافة لا حقيقة:

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في رسالة زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور ما نصه:

"ثلاثة أشياء ما لها من أصل: باب النصيرية، ومنتظر الرافضة، وغوث الجهال، فإن النصيرية تدعي في الباب الذي لهم أنه الذي يقيم العالم فذاك شخصه موجود ولكن دعوى النصيرية فيه باطلة، وأما محمد بن الحسن المنتظر، والغوث المقيم بمكة ونحو هذا فإنه باطل ليس له وجود، وكذلك ما يزعمه بعضهم من أن القطب الغوث الجامع يمد أولياء الله ويعرفهم كلهم ونحو هذا فهذا باطل، فأبو بكر وعمر رضي الله عنهما لم يكونا يعرفان جميع أولياء الله ولا يمدانهم فكيف بهؤلاء الضالين المغترين الكذابين، ورسول الله صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم إنما عرف الذين لم يكن رآهم

من أمته بسيماء الوضوء هو الغرة والتحجيل ومن هـؤلاء من أوليـاء اللـه لا يحصـيه إلا اللـه عـز وجـل وأنبيـاء اللـه الـذي هـو إمـامهم وخطيبهم لم يكن يعرف أكثرهم بل قال الله تعالى: {ولقـد أرسـلنا رسـلاً من قبلـك منهم من قصصـنا عليـك ومنهم من لم نقصـص عليـك} وموسـى لم يكن يعـرف الخضـر، والخضـر لم يكن يعـرف موسى بل لما سـلم عليـه موسـى قـال لـه الخضـر: وإني بأرضـك السّلام، فقال له: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، وقد كان بلغه اسمه وخبره ولم يكن يعرف عينه ومن قال أنه نقيب الأولياء أو أنه يعلمهم كلهم فقد قال الباطل. والصـواب الـذي عليـه المحققون أنه ميت وأنه لم يـدرك الإسـلام ولـو كـان موجـوداً، في زمان النبي صلى الله عليه وسلم لوجب عليه أن يؤمن به ويجاهـد معه كما أوجب الله ذلك عليـه وعلى غـيره ولكـان يكـون في مكـة والمدينة ولكان يكون حضوره مـع الصـحابة للجهـاد معهم وإعـانتهم على الدين أولى به من حضوره عند قوم كفار ليرفع لهم سـفينتهم ولم يكن مختفيـاً عن خـير أمـة أخـرجت للنـاس وهـو قـد كـان بين المشركين ولم يحتجب عنهم ثم ليس للمسلمين بـه وأمثالـه حاجـة في دينهم ودنياهم، فإن دينهم أخذوه عن الرسول صـلى اللـه عليـه وسلم النبي الأمي الذي علمهم الكتـاب والحكمـة وقـال لهم نـبيهم [لو كان موسى حياً ثم اتبعتمـوه وتركتمـوني لضـللتم] وعيسـى بن مريم عليه السلام إذا نزل من السماء إنما يحكم فيهم بكتـاب ربهم وسنة نبيهم فأي حاجة لهم مع هذا إلى الخضر وغيره والنـبي صـلى الله عليه وسلم قد أخبرهم بنزول عيسى عليه السلام من السـماء وحضوره مع المسلمين وقال [كيف تهلك أمة أنا أولها وعيسـى في آخرها] فإذا كان النبيان الكريمان اللذان هما مـع إبـراهيم وموسـى ونوح أفضل الرسل ومحمد صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم ولم يحتجبوا عن هذه الأمة لا عوامهم ولا خواصهم فكيـف يحتجب عنهم من ليس مثلهم وإذا كان الخضـر حيـاً دائمـاً فكيـف لم يـذكر النـبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقط، ولا خلفاؤه الراشدين؟!!

وقول قائل إنه نقيب الأوليـاء، فيقـال لـه، من ولاه النقابـة وأفضـل الأولياء أصحاب محمد صلى الله عليـه وسـلم وليس فيهم الخضـر، وغاية ما يحكى في هذا الباب من الحكايـات بعضـها كـذب وبعضـها مبني على ظن رجال مثل شخص رأى رجلاً ظن أنه الخضـر، وقـال إنه الخضر، كما أن الرافضة ترى شخصاً تظن أنـه الإمـام المنتظـر المعصوم أو تدعي ذلك. وروي عن الإمام أحمـد بن حنبـل أنـه قـال

وقد ذكر له الخضر من أحالك على غائب فما أنصفك، وما ألقى هذا على ألسنة الناس إلا الشيطان. انتهى المراد منه.

الفصل التاسع

الكشف الصوفي

الإيمان بالغيب في الكتاب والسنة:

من أصول الدين وقواعد الإيمان أن تعتقد أن الغيب علمه لله تعالى وحده سبحانه وتعالى وأنه يطلع وسبحانه تعالى على ما شاء من الغيب من شاء من أنبيائه ورسله فقط وأن الأنبياء لا يعلمون من الغيب إلا ما أعلمهم الله إياه كما قال سبحانه وتعالى لرسوله: {قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون} (الأعراف:188).

وقال جل وعلا: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً* إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً* ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً} (الجن:26-28).

وأمر رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس أنه ليس ملكاً ولا يملك خزائن الله ولا يعلم الغيب قال تعالى: {قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون} (الأعراف).

وهذا الذي قاله الرسول صلى الله عليه وسلم هو ما قاله نوح قبل ذلك. قال تعالى على لسان نوح: {ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين} (هود).

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا

الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله]. وهذا الحـديث يقـرر قولـه تعـالى: {إن اللـه عنـده علم السـاعة ويـنزل الغيب ويعلم مـا في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بـأي أرض تموت إن الله عليم خبير} (لقمان).

وفي صحيح البخاري أيضاً عن عائشـة رضـي اللـه عنهـا قـالت: من حدثك أن محمداً صلى اللـه عليـه وسـلم رأى ربـه فقـد كـذب وهـو يقول: {لا تدركه الأبصار} ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب وهو يقول {قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله}.

فهذه الآيات والأحاديث ومثلها كثير جداً قـاطع بأنـه لا يعلم أحـد في السماوات والأرض الغيب إلا الله لا ملـك مقـرب، ولا نـبي مرسـل، وأنه لا يعلم أحد من هؤلاء الغيب إلا ما أطلعـه اللـه سـبحانه عليـه، فهـاهم الملائكـة يخلـق اللـه آدم ولا يعلمـون الحكمـة من خلقـه، ويعـرض اللـه عليهم مسـميات معينـة ويقـول لهم أنـبئوني بأسـماء هؤلاء إن كنتم صادقين، فيقولون سـبحانك لا علم لنـا إلا مـا علمتنـا إنك أنت العليم الحكيم، ويعلم الله آدم النبي الأسماء فيعلمهـا لهم، وآدم نبي مكلم كمـا جـاء في الحـديث الشـريف، وهـؤلاء الأنبيـاء لا يعلمون الغيب بنص القرآن وبمئات بل بآلاف الوقائع، فنوح لم يعلم أن ابنه ليس من أهله وأن زوجته على غير دينـه، وإبـراهيم لم يعلم بأنه يولد له ولد من زوجته سـارة إلا بعـد أن جاءتـه الملائكـة ولقـد جاءته الملائكة في صورة بشر فـذبح لهم عجلاً وقربـه إليهم وهـو لا يعلم حقيقتهم حتى أعلموه، ولم يكن يعرف مقصدهم حتى أعلمـوه أنهم ذاهبون لتدمير قرى لوط، وأما لوط فإنه ساءته رؤية الملائكـة علماً أنهم قد أتوا لإنجائه وإنجـاء أهلـه، ولم يعلم حقيقـة أمـرهم إلا بعد أن علموه ولم يكن له كشف خاص، ولا علم خاص يسـتطيع أن يعرف من القوم، وأما محمد صلى الله عليه وسـلم فقـد حـدث لـه مئات بل آلاف الوقائع التي تدل يقيناً أنه لم يكن يعلم في الغيب إلا ما أعلمه الله إياه.. فقد ظن أن جبريل الذي أتاه في الغار شـيطان وقال لخديجة لقد خفت على نفسـي، ولم يعـرف أنـه الملـك حـتى أتى ورقة بن نوفل فأخبره أن الكلام الذي جاء به يشبه الكلام الذي نزل على الأنبياء من قبله.. ولم يدر بخلد النبي أنه سـيؤذى ويخـرج من مكة أبداً علماً بأن النبي صلى الله عليه وسـلم قـد مكث يتعبـد في غـار حـراء سـنوات طويلـة، وعنـد الصـوفية أن من لـف رأسـه بخرقه وجلس في مكان مظلم رأى الله، وعرف كل شيء وشـاهد الكون أعلاه وأسفله.. بل النبي محمد صلى الله عليه وسـلم مكث

ثلاث عشـرة سـنة في مكـة لا يعلم أين سـيهاجر بعـد ذلـك، وبعـد الهجـرة خـرج إلى أبي سـفيان ففاتـه واصـطدم بجيش المشـركين وجاءه المشركون في المدينة المـرة تلـو المـرة يزعمـون أنهم قـد آمنوا ويطلبون منه أن يرسل لهم من يعلمهم القرآن فكـان يرسـل معهم خيرة القراء، فيغـدرون بهم في الطريـق.. فغـدر المشـركون بـأربعين رجلاً من المسـلمين مـرة واحـدة، وسـبعة مـرة، ولـو علم رسول اللـه مـا يكـون من أمـر اللـه بـل لـو علم أن هـؤلاء الكفـرة الأعراب يكـذبون عليـه لمـا أسـلم لهم أصـحابه وحبس المشـركون يوماً وليلة في مكان ليس فيه ماء لأن السـيدة عائشـة رضـي اللـه عنها قد فقـدت عقـداً لهـا ولـو كـان هنـاك كشـف صـوفي على مـا يصوره الصوفية ويزعمونه لعلمـوا أين عقـد السـيدة عائشـة الـذي كان تحت بعيرها ولم يفطن إليـه أحـد من المسـلمين من أصـحاب النبي.. ورمى المنافقون السيدة عائشة بالزنا -شرفها الله وحماهـا وبرأها ولعن اللـه من سـبها- .. ومكث رسـول اللـه شـهراً كـاملاً لا يدري ما يقول، وكان يستفتي أصـحابه ويسـأل علي بن أبي طـالب وأسامة بن زيد، وبريرة خادمته ومولاته هل رأوا على عائشة شيئاً.. ولم يستطع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلم حقيقة الأمر حتى أنزل الله براءتها من السماء.. هذا إلى العشرات والمئات من الوقائع التي تبين أن رسول الله وأكـرم خلـق اللـه من البشـر على اللـه لم يكن يطلـع على شـيء من الغيب إلا مـا أطلعـه اللـه بحكم النبوة..

الغيب في المعتقد الصوفي:

ولكن الصوفية منذ القدم.. منذ نشأتهم في الإسلام وإلى يومنا هـذا عمدوا إلى هذا الأصل الأصيل من أصول الدين فهـدموا بـل اقتلعـوا جذوره من قلوب من يسير في طريقهم وينتهج منهجهم هذا الأصل فهدموه جعله الله أول صـفة في كتابـه للمتقين حيث يقـول تبـارك وتعالى في سورة البقرة الثانية في القرآن بعد الفاتحة: {الم* ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين* الذين يؤمنون بالغيب} الآية.

جعل الله صفة الإيمان بالغيب أول صفة للمتقين المهتدين بـالقرآن والسنة وذلك حتى يوحد المؤمنون طريق التلقي فلا يتلقون غيباً إلا من الله ومن أقامه للأخبار بالغيب عنه وهم رسله، وأنبيـاؤه فقـط، جـاء المتصـوفة فكـان أول هـدم لهم في الإسـلام أن يهـدموا هـذا الأصل فأقاموا شيئاً سموه (الكشـف الصـوفي) وهـو يعـني عنـدهم

رفـع الحجب أمـام قلب الصـوفي وبصـره ليعلم مـا في السـماوات جميعاً، وما في الأرض جميعـاً، فلا تسـقط ورقـة إلا بنظـره ولا تقـع قطرة ماء من السماء إلا بعلمه ولا يولد مولود، أو يعقـد معقـود، أو يتحـرك سـاكن أو يسـكن متحـرك إلا بعلم الصـوفي.. هكـذا واللـه؛ وسيرى القارئ في هذا الفصـل النقـول من كتب القـوم كلهـا تنص على أن الصوفي لا يقف أمامـه حجـاب، ولا يوصـد أمامـه بـاب، ولا يعجـزه علم شـيء في الأرض ولا في السـماء. فهـو يعلم مـا يكتب في اللوح المحفوظ ساعة بساعة، بـل هـو يعلم بـأي لغـة وأي قلم كتب اللوح المحفوظ، وماذا في أم الكتـاب، ومـاذا كـان منـذ الأزل وماذا سيكون إلى الأبد، لا أقول قد ساوى الصوفية أنفسهم بالأنبياء بالغيب أو ساووا أنفسهم بالخضر الذي يزعمون النقل عنه لا واللــه بل جعلوا كل زنديق منهم ممن لا وزن له في خلــق ولا علم جعلــوا هــؤلاء هم اللــه علمــاً بكــل شــيء، وإحاطــة بمــا في الســماوات والأرض..

وسيرى القارئ أن أي زندقة وأي كفـر في الأرض لم يجـرؤ كـاتبوه ومؤيدوه أن يكتبوا مثل هذا ولكن الصـوفية سـبقوا كـل الكفـار في كل الملل والنحل والأقوام وكتبوا بأقلامهم ما لم يجرؤ أحد بتاتــاً أن يكتبه أو يسطره فيما علمناه من الكفرة والزنادقة والملاحدة..

لقـد تـرقى المتصـوفة في قضـية الكشـف عنـدهم فزعمـوا أولاً أن الصوفي يكشـف لـه معـان في القـرآن والحـديث لا يعلمهـا علمـاء الشريعة الذين سـموهم بعلمـاء الظـاهر والقـراطيس والآثـار الـتي ينقلونها عن الموتى..، وأما هم فيلتقون بالرسول صـلى اللـه عليـه وسلم يقظة أحياناً، ومنامـاً أحيانـاً ويسـألونه ويسـتفيدون منـه هـذه العلوم ثم ترقـوا فقـالوا إن لنـا علومـاً ليسـت في الكتـاب والسـنة نأخذها عن الخضر الـذي هـو على شـريعة البـاطن وهـو الـذي يمـد الأوليـاء بهـذه الشـريعة، فموسـى ومحمـد والأنبيـاء على شـريعة ظاهرة، وأما الخضر فهو على شريعة باطنة يجوز فيهـا مـا لا يجـوز في الظاهر، فقد قتل الغلام بغير ذنب، وكسر السـفينة لمن حملهم بغير نوال، وبنى الجـدار إحسـاناً منـه لمن أسـاء إليهم.. ومثـل هـذا ينكـره أهـل الظـاهر كمـا أنكـره موسـى، ونحن في البـاطن على شريعة الخضر وهو يلتقي بنا ونتعلم منه علوماً خاصـة ينكرهـا أهـل الظـاهر لجهلهم.. والعجيب أنـه كـان من هـذا الـدين البـاطن الـذي زعمـوا أخـذه عن الخضر إتيـان (الحمـارة) والزنـا، وشـرب الخمـر واللواط، والتعري، والصراخ في الطرقات، وسب المؤذنين للصلاة،

وسب الأنبياء والإدعاء بأن كل مخلوق هو اللـه وإلقـاء السـلام على الكلاب والخنــازير، والــترحم على إبليس ومحاولــة الوصــول إلى مقامه، وجعل فرعون أعلم من موسى باللـه وتبرئـة قـوم نـوح من الشرك، وجعل الرسـول محمـد هـو اللـه المسـتوي على العـرش.. هذه الأشياء قليلة جداً من هذا الدين الباطني الذي زعم المتصـوفة أنهم نـالوه عن طريـق الكشـف الصـوفي، وهـو رفـع الحجب عن القلوب والأبصار لرؤية الحق على مـا هـو عليـه، وأن الخضـر عليـه السلام هـو مبلـغ كـل هـذا لهم، وتـارة يـترقون في هـذا الكـذب أو بــالأحرى يهــوون إلى أســفل ســافلين في دعــاوي الكــذب هــذه فيزعمون أنهم تلقوا هذه العلوم من ملك الإلهـام كمـا تلقى محمـد صلى الله عليه وسـلم علومـه من ملـك الـوحي، وأخـرى يزعمـون أنهم تلقوا علومهم هذه التي أشرنا إلى بعضها آنفـاً من اللـه رأسـاً وبلا وســاطة وأنهــا انطبعت في نفوســهم من اللــه رأســاً وأنهم مطـالعون الأمـر في الأزل بـأرواحهم، والأمـر في الأبـد يرونـه كمـا يكون عليه الحال يرونه كـذلك بـأرواحهم بغـير وسـاطة وأن همتهم تصل السماوات وما فوقها والأرض وما تحتها..

ولقـد وسـع المتصـوفة دائـرة كشـفهم هـذه فزعمـوا أنهم يعلمـون أسـرار الحـروف المقطعـة من القـرآن بطريـق الكشـف، وقصـص الأنبيـاء يروونهـا على حقيقتهـا ويجتمعـون بالأنبيـاء ويسـألونهم عن تفاصيل قصصهم وما كان منهم.. فيفيدون فوائد كثيرة دونهـا كثـيراً ما هو موجود فعلاً في القرآن، وأما الجنة والنـار، فهم وإياهـا دائمـاً رأي العين، بل هي ساقطة أصلاً من عيونهم لأن النار وما النـار، لـو بصق أحدهم عليها لأطفأها كمـا قـال أبـو يزيـد وغـيره منهم.. وأمـا الجنة فالنظر إليها شرك وكفر لأنهم ينظرون إلى الله فقط..

ولذلك قال قائلهم معيباً على الصحابة عنـدما قـرأ {منكم من يريـد الدنيا، ومنكم من يريد الآخـرة} قـال.. أف.. أليس منكم أحـد يريـد الله.. وقـال آخـر عن قولـه تعـالى: {إن أصـحاب الجنـة اليـوم في شغل فاكهون} قال.. ألهاهم عنه..

باختصار لقد اكتشف المتصوفة بـزعمهم للقـرآن معـاني غـير الـتي يعرفها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وعلمـاء الأمـة على مـر العصور. لقد اكتشفوا هم عن طريق كشفهم الشيطاني أن للقـرآن معاني أخرى وأن فيه علوماً كثيرة جداً لا يعلمها غيرهم.. ومـا هـذه العلوم.. إنها كل الفلسفات القديمة، والخزعبلات والخرافـات الـتي

عند فلاسفة الإغريق، وكهنة الهنادك والهندوس، وشياطين المجوس وإباحية المانوية والمزدكية، وخرافات القصاص من كل لون وجنس كل هذا وهذا جعله المتصوفة كشفاً وحقيقة صوفية ومعاني للقرآن الكريم ولحديث النبي الشريف..

ومن أراد منهم أن لا ينسب هذه الخرافات والخزعبلات إلى القرآن والحديث، ورأى أنه تحقق بعلوم أكثر بكثير مما فيهما قال:

خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله.. فجعل نفسه أعظم معرفة وتحقيقاً مما لدى الأنبياء.. وذلك لما رأى أنه قد جمع من الخرافات والخزعبلات والأساطير شيئاً نهى الرسل الصادقون عن افترائه وتناقله وتداوله.. هذه هي حقيقة الكشف الصوفي الذي زعم أصحابه أنه ثمرة العبادة والتقوى والاتصال بالله والملائكة والأنبياء والخضر، وأنه نتيجة حتمية لسباحة أرواحهم في الأزل والأبد، والسماوات السبع وما فوقها والأراضين السبع وما تحتها.. لقد أتونا بعد هذه السياحة الشيطانية بعشرات المجلدات والخرافات والخزعبلات بعد أن لبسوها وخلطوها ببعض العلم الذي جاء به الرسل فخلطوا الأمر على عامة المسلمين، وأضلوا من لا علم لهم بالكتاب والسنة، وظنوا فعلاً أن هؤلاء الناس صالحون وأن علومهم هذه قد أتوا بها فعلاً من الغيب، وخاصة أنهم رأوهم أحياناً تجري على أيديهم بعض الحيل الشيطانية، وبعض الكرامات الإبليسية من خرق العادات أو الإخبار ببعض المغيبات ما هو عند الهندوس والمجوس والدجال وابن صياد أمثاله وأكثر منه مئات المرات، لقد أوهم العامة ما جرى على يد هؤلاء من هذه الكرامات الإبليسية التي هي حقاً أمثال شيطانية من ما يجري للكفار والمنافقين والدجالين، فظنوا أن هؤلاء من أهل الله حقاً، وأن الحجب ترتفع عنهم صدقاً وأن علومهم هذه آتية من الغيب يقيناً وبذلك راجت يوماً بضاعة هؤلاء الزنادقة وصرفوا المسلمين عن دينهم الحق وعقيدتهم المستقيمة.

وها نحن نورد بعد هذه المقدمة التي لا بد منها طائفة من النقول من كتب القوم المعتمدة التي تبين هذا الباطل الذي يدعونه ويسمونه كشفاً، وحقيقة، وعلماً لدنياً، وتحققاً واطلاعاً ليكون القارئ المسلم على بينه مما عليه هؤلاء الزنادقة.

عبدالكريم الجيلي وكتابه الإنسان الكامل:

هذا عبدالكريم الجيلي يكتب كتابه (الإنسان الكامل) زاعماً أيضاً أنه من الله أخذه، وأن الله أمره بإخراج هذا الكتاب للنـاس وأنـه ليس فيه شيء إلا وهو مؤيد بالكتاب والسنة يقول:

".. ثم ألتمس من النـاظر في هـذا الكتـاب بعـد أن أعلمـه أني مـا وضعت شيئاً في هذا الكتاب إلا وهو مؤيد بكتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنـه إذا لاح لـه شـيء في كلامي بخلاف الكتــاب والســنة فليعلم أن ذلــك من حيث مفهومــه لا من حيث مــرادي الـذي وضـعت الكلام لأجلـه فليتوقـف عن العمـل بـه مـع التسليم إلى أن يفتح الله تعالى عليه بمعرفتـه، ويحصـل لـه شـاهد ذلك من كتاب الله تعالى أو سنة نبيه.

وفائدة التسليم هنا وترك الإنكـار أن لا يحـرم الوصـول إلى معرفـة ذلك، فإن من أنكر شيئاً من علمنا هـذا حـرم الوصـول إليـه مـا دام منكراً، ولا سبيل إلى غير ذلك، بل ويخشـى عليـه حرمـان الوصـول إلى ذلــك مطلقــاً بالإنكــار أول وهلــة، ولا طريــق لــه إلا الإيمــان والتسليم.

واعلم أن كل علم لا يؤيده الكتاب والسنة فهو ضلالة، لا لأجل ما لا تجد أنت له ما يؤيـده، فقـد يكـون العلم في نفسـه مؤيـداً بالكتـاب والسـنة، ولكن قلـة اسـتعدادك منعتـك من فهمـه فلن تسـتطيع أن تتناوله له بهمتك من محله فتظن أنـه غـير مؤيـد بالكتـاب والسـنة، فالطريق في هذا التسليم وعـدم العمـل بـه من غـير إنكـار إلى أن يأخذ الله بيدك إليه" (الإنسان الكامل ص8).

علماً بأنه لم يضع فيه شيئاً مطلقاً وافق الكتـاب والسـنة، بـل جمـع فيه من الكفر والزندقة أعظم من كل كفـر الأولين والآخـرين كيـف لا وقد جعل كل من عبد شيئاً في الأرض فما عبد إلا اللـه. بـل زعم أنه ليس في الوجود إلا الله، الذي خلـق الوجـود من نفسـه لنفسـه فليس هناك إلا هو فهو الرب والعبد، والشيطان والـراهب،والسـماء والأرض، والظلمات والنور، والحمل الوديع والذئب الكاسر..

تعـالى اللـه عن ذلـك علـواً كبـيراً واسـتغفر اللـه من تسـطير ذلـك وكتابتـه.. اللهم رحمـاك رحمـاك.. لقـد قلت في كتابـك عن الـذين ادعوا الألوهية في عيسى وهو نبي كريم ونفس طيبة {كبرت كلمـة تخــرج من أفــواههم إن يقولــون إلا كــذباً} وقلت أيضــاً {تكــاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هـداً* أن دعـوا

للرحمن ولداً* وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا* إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً}.. وهذا الزنديق يا ربي وأمثاله جعلوا كل كلب وخنزير في الأرض، وكل شيطان وإبليس وكل كافر وفاجر جزءاً منك، ومظهراً لك (ومجلى) -حسب عبارتهم- من مجاليك وتجلياتك ثم أنت ترزقهم وتعافيهم وتحلم عليهم سبحانك ما أحلمك وأجلك وأعظمك. لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك. ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

نعود إلى الجيلي وكتابه الذي يقول فيه بالنص:

"وكنت قد أسميت الكتاب على الكشف الصريح وأيدت مسائله بالخبر الصحيح (..انظر) وسميته بالإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل" ثم يقول: "فأمرني الحق الآن بإبرازه بين تصريحه وإلغازه، ووعدني بعموم الانتفاع فقلت طوعاً للأمر المطاع، وابتدأت في تأليفه متكلاً على الحق في تعريفه، فها أنا ذا أكرع من دنه (الدن: هو وعاء الخمر الذي يخمر فيه) القديم، بكأس الاسم العليم، في قوابل أهل الإيمان والتسليم خمرة مرضعة من الحي الكريم، مسكرة الموجود بالقديم) أ.هـ (ص6).

ما الذي يتكلم عليه الجيلي في هذا الكتاب:

إن كتابه من أوله وآخره يدور حول معنى واحد وهو وصف الله بصفات مخلوقاته، وبيان أن المخلوق هو عين الخالق.. هذا كل ما يريد الجيلي أن يصل إليه وهذا هو ما شرحه شرحاً كاملاً في كتابه، وأضاف أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الكامل والإله الكامل الذي اتصف بكل صفات الله بعلوها وسفلها، بحلوها ومرها؛ فقل هو الله أحد معناها كما يفسرها الجيلي: قل يا محمد الإنسان هو الله أحد. فهاء الإشارة في (هو) راجع إلى فاعل قل وهو أنت.. فيكون المعني يا محمد هو أي أنت الله أحد.. هذا هو الكشف الذي كشفه لنا الجيلي من الغيب وهذا هو الكتاب الذي ليس فيه شيء يخالف الكتاب والسنة.

وهذا نص عبارة الجيلي في ذلك:..

"الحرف الخامس من هذا الاسم: هو الهاء، فهو إشارة إلى هوية الحق الذي هو عين الإنسان قال الله تعالى (قل) يا محمد (هو) أي الإنسان (الله أحد) فهاء الإشارة في هو راجع إلى فاعل قل وهو أنت، وإلا فلا يجوز إعادة الضمير إلى غير مذكور أقيم المخاطب

هنا مقام الغائب التفاتـاً بيانيـاً إشـارة إلى أن المخـاطب بهـذا ليس نفس الحاضر وحده، بل الغائب والحاضر في هذا على السواء.

قال الله تعالى (ولو ترى إذ وقفوا) ليس المراد به محمداً وحده بل كـل راء، فاسـتدارة رأس الهـاء إشـارة إلى دوران رحى الوجـود الحقي والخلقي على الإنسان، فهو في عالم المثال كالـدائرة الـتي أشـارت الهـاء إليهـا، فقـل مـا شـئت إن شـئت قلت الـدائرة حـق وجوفها خلق، وإن شئت قلت الدائرة خلـق وجوفهـا حـق فهـو حـق وهو خلق، وإن شئت قلب الأمر فيـه بالإلهـام، فـالأمر في الإنسـان دوري بين أنه مخلوق له ذل العبودية والعجـز وبين أنـه على صـورة الرحمن، فله الكمال والعز.

قال الله تعالى (والله هو الولي) يعني الإنسـان الكامـل الـذي قـال فيه (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) لأنه يسـتحيل الخوف والحزن وأمثال ذلك على اللـه لأن اللـه هـو الـولي الحميـد (وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) أي الـولي، فهـو حـق منصور في صورة خلقية، أو خلق متحقق بمعاني الإلهية، فعلى كـل حـال وتقـدير وفي كـل مقـال وتقريـر هـو الجـامع لوصـفي النقص والكمـال، والسـاطع في أرض كونـه بنـور شـمس المتعـال، فهـو السماء والأرض، وهو الطول والعرض، وفي هذا المعنى قلت:

لي الملك في الدارين لم أرى فيهما سواي فأرجو فضله أو فأخشاه

ولا قبل من قبلي فالحق شأنه ولا بعد من بعدي فأسبق معناه

وقد حزت أنواع الكمال وإنني جمال جلال الكل ما أنا إلا هو

فمهما ترى من معدن ونباته وحيوانه مع أنه وسجاياه

ومهما ترى من عنصر وطبيعة ومن هباء الأصل طيب هيولاه

ومهما ترى من أبحر وقفاره ومن شجر أو شاهق طال أعلاه

ومهما ترى من صورة معنوية ومن شهد للعين طال محياه

إلى أن يقول:

فإني ذلك الكل والكل مشهدي أنا المتجلي في حقيقته لا هو" (ص31)

ويشرح الجيلي هذا المعنى المجمل تفصيلياً في الباب الستين من كتابه فيقول بالنص:

الباب الملفى ستين: في الإنسان الكامل وأنه محمد صلى الله عليه وسلم وأنه مقابل للحق والخلق.

"اعلم حفظك الله أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين، ثم له تنوع في ملابس ويظهر في كنائس (الكنيسة مكان العبادة عند النصارى. والمعنى المشار إليه هنا أنه يوصف بالشيء ونقيضه كما قال فريد الدين العطار: وما الكلب والخنزير إلهنا وما الله إلا راهب في كنيسة) فيسمى به باعتبار لباس، ولا يسمى به باعتبار لباس آخر، فاسمه الأصلي الذي هو له محمد، وكنيته أبو القاسم، ووصفه عبدالله، ولقبه شمس الدين، ثم له باعتبار ملابس أخرى أسام، وله في كل زمان اسم ما يليق بلباسه في ذلك الزمان، فقد اجتمعت به صلى الله عليه وسلم وهو في صورة شيخي الشيخ شرف الدين اسماعيل الجبرتي، ولست أعلم أنه النبي صلى الله عليه وسلم وكنت أعلم أنه الشيخ، وهذا من جملة مشاهد شاهدته فيها بزبيد سنة ست وتسعين وسبعمائة وسر هذا الأمر تمكنه صلى الله عليه وسلم من التصور بكل صورة، فالأديب إذا رآه في الصورة المحمدية التي كان عليها في حياته فإنه يسميه باسمه، وإذا رآه في صورة ما من الصور وعلم أنه محمد فلا يسميه إلا باسم تلك الصورة، ثم لا يوقع ذلك الاسم الأعلى الحقيقة المحمدية.

ألا تراه صلى الله عليه وسلم لما ظهر في صورة الشبلي رضي الله عنه قال الشبلي لتلميذه أشهد أني رسول الله وكان التلميذ صاحب كشف فعرفه، فقال: أشهد أنك رسول الله، وهذا أمر غير منكور وهو كما يرى النائم فلان في صورة فلان. وأقل مراتب الكشف أن يسوغ به في اليقظة ما يسوغ به اليقظة ما يسوغ به

في النوم، ولكن بين النـوم والكشـف فرقـاً وهـو أن الصـورة الـتي يرى فيها محمد صلى الله عليه وسلم في النوم لا يوقع اســمها في اليقظة على الحقيقة المحمدية، لأن عالـم المثـال يقـع التعبـير فيـه فيعبر عن الحقيقة المحمدية إلى حقيقة تلـك الصـورة في اليقظـة، بخلاف الكشـف فإنـه إذا كشـف لـك عن الحقيقـة المحمديـة أنهـا متجليـة في صـورة من صـور الآدمـيين، فيلزمـك إيقـاع اسـم تلـك الصورة على الحقيقة المحمدية، ويجب عليك أن تتأدب مع صـاحب تلك الصورة تأدبك مع محمد صـلى اللـه عليـه وسـلم. لمـا أعطـاك الكشف أن محمداً صلى الله عليه وسلم متصور بتلـك الصـورة، فلا يجوز لك بعد شهود محمد صلى الله عليه وسلم فيها أن تعاملها بما كنت تعاملهـا بـه من قبـل، ثم إيـاك أن تتـوهم شـيئاً في قـولي من مذهب التناسخ، حاشا لله وحاشا الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون ذلك مرادي، بل إن رسول الله صلى الله عليه وسـلم لـه من التمكين في التصور بكل صورة حتى يتجلى في هذه الصـورة، وقـد جرت سنته صلى الله عليه وسلم أنه لا يزال يتصور في كـل زمـان بصورة أكملها ليعلي شأنهم ويقيم ميلانهم، فهم خلفاؤه في الظاهر وهو في الباطن حقيقتهم" أ.هـ

ثم يستطرد الجيلي حسب اعتقاده مبينـاً كيـف يكـون محمـد صـلى الله عليه وسلم إنساناً كاملاً، وإلهاً تحققت فيه كل مظاهر الربوبيـة والألوهية وتجلت فيه كل أسماء الله وصفاته..

ولما كـان اللـه عنـد الجيلي ومن على طريقتـه من هـؤلاء الزنادقـة الملحدين هـو هـذه المخلوقـات لا غـير.. اسـتطرد الجيلي مبينـاً أن الكون الوجود في كل شيء منه مقابل للذات المحمدية. ففي ذات الرسول شـبيه العـرش والكرسـي، والسـماوات والأرض والملائكـة والحيــوان والنبــات والجمــاد.. وســائر الموجــودات الــتي هي في حقيقتها عند الجيلي هي الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً..

يقول الجيلي شارحاً ذلك:

"واعلم أن الإنسان الكامل مقابل لجميع الحقائق الوجودية بنفسه.

فيقابل الحقائق العلوية بلطافته، ويقابل الحقائق السـفلية بكثافتـه، فأول ما يبدو في مقابلته للحقائق الخلقية يقابل العرش بقلبه، قال صلى الله عليه وسلم (قلب المؤمن من عـرش الـرحمن)، ويقابـل الكرسي بآنيته، ويقابل سدرة المنتهى بمقامه، ويقابل القلم الأعلى

بعقله، ويقابل اللوح المحفوظ بنفسه، ويقابل العناصر بطبعه، ويقابل الهيولي بقابليته، ويقابل الهباء بحيز هيكله، ويقابل الفلك الأطلس برأيه، ويقابل الفلك المكوكب بمدركته، ويقابل السماء الخامسة بهمته، ويقابل السماء الرابعة بفهمه، ويقابل السماء الثالثة بخياله، ويقابل السماء الثانية بفكره، ويقابل السماء الأولى بحافظته، ثم يقابل زحل بالقوى اللامسة، ويقابل المشتري بالقوى الدافعة، ويقابل المريخ بالقوى المحركة، ويقابل الشمس بالقوى الناظرة، ويقابل الزهرة بالقوى المتلذذة، ويقابل عطارد بالقوى الشامة، ويقابل القمر بالقوى السامعة، ثم يقابل فلك النار بحرارته، ويقابل فلك الماء ببرودته، ويقابل فلك الهواء برطوبته، ويقابل فلك التراب بيبوسته، ثم يقابل الملائكة بخواطره، ويقابل الجن والشياطين بوسواسه، ويقابل البهائم بحيوانيته، ويقابل الأسد بالقوى الباطشة، ويقابل الثعلب بالقوى الماكرة، ويقابل الذئب بالقوى الخادعة، ويقابل القرد بالقوى الحاسدة، ويقابل الفأر بالقوى الحريصة، وقس على ذلك باقي قواه، ثم إنه يقابل النار بالمادة الصفراوية، ويقابل الماء بالمادة البلغمية، ويقابل الريح بالمادة الدموية، ويقابل التراب بالمادة السوداوية، ثم يقابل السبعة أبحر بريقه ومخاطه وعرقه ونقاء أذنه ودمعه وبوله والسامع المحيط، وهو المادة الجارية بين الدم والعرق والجلد، منها تتفرع تلك الستة، ولكل واحد طعم، فحلو وحامض، ومر وممزوج، ومالح ونتن وطيب، ثم يقابل الجوهر بهويته وهي ذاته، ويقابل العرض بوصفه، ثم يقابل الجمادات بأنيابه، فإن الناب إذا بلغ وأخذ حده في البلوغ بقي شبه الجمادات لا يزيد ولا ينقص وإذا كسرته لا يلتحم بشيء، ثم يقابل النبات بشعره وظفره، ويقابل الحيوان بشهوانيته، ويقابل مثله من الآدميين ببشريته وصورته، ثم يقابل أجناس الناس، فيقابل الملك بروحه، ويقابل الوزير بنظره الفكري، ويقابل القاضي بعلمه المسموع، ورأيه المطبوع، ويقابل الشرطي بظنه، ويقابل الأعوان بعروقه وقواه جميعها، ويقابل المؤمنين بيقينه، ويقابل المشركين بشكه وريبه، فلا يزال يقابل كل حقيقة من حقائق الوجود برقيقة من رقائقه، فقد بينا فيما مضى من الأبواب خلق كل ملك مقرب من كل قوى من الإنسان الكامل، وبقي أن نتكلم عن مقابلة الأسماء والصفات.

اعلم أن نسخة الحق تعالى كما أخبر صلى الله عليه وسلم حيث قال: (خلق الله آدم على صورة الرحمن) وفي حديث آخر (خلق

الله آدم على صورته) وذلك أن الله تعالى حي عليم قادر مريد سميع بصير متكلم، وكذلك الإنسان حي عليم..الخ.

ثم يقابل الهوية بالهوية، والإنية بالإنية، والذات بالذات، والكل بالكل، والشمول بالشمول، والخصوص بالخصوص، وله مقابلة أخرى يقابل الحق بحقائقه الذاتية، وقد نبهنا عليها في هذا الكتاب في غير ما موضع، وأما هنا فلا يجوز لنا أن نترجم عنها، فيكفي هذا القدر من التنبيه عليها.

ثم اعلم أن الإنسان الكامل هو الذي يستحق الأسماء الذاتية، والصفات الإلهية استحقاق الأصالة والملك بحكم المقتضي الذاتي، فإنه المعبر عن حقيقته بتلك العبارات والمشار إلى لطيفته بتلك الإشارات ليس لها مستند في الوجود إلا الإنسان الكامل، فمثاله للحق مثال المرآة التي لا يرى الشخص صورته إلا فيها، وإلا فلا يمكنه أن يرى صورة نفسه لا بمرآة الاسم الله فهو مرآته، والإنسان الكامل أيضاً مرآة الحق، فإن الحق تعالى أوجب على نفسه أن لا ترى أسماؤه ولا صفاته إلا في الإنسان الكامل، وهذا معنى قوله تعالى {إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً} يعني قد ظلم نفسه بأن أنزلها عن تلك الدرجة، جهولاً بمقداره لأنه محل الأمانة الإلهية وهو لا يدري" أ.هـ (المصدر السابق ص76،77).

ادعاء رؤية العوالم العلوية والسفلية:

ولا يتوقف هذا الهذيان الذي يطالعنا به الجيلي في كتابه لحظة واحدة فهو يزعم أنه قد كشفت له الحجب فرأى العالم عاليه وسافله وشاهد الملائكة جميعاً وخاطبهم والرسل والأنبياء؛ فها هو يقول ويدعي: "وفي هذا المشهد (يعني بالمشهد اتصال الصوفي بأرواح المخلوقات التي وجدت في الحياة والتي لم توجد أيضاً لأن الأرواح في زعمه مخلوقة أبداً لا تفنى)، اجتماع الأنبياء والأولياء بعضهم ببعض أقمت فيه بزبيد (زبيد: مدينة من مدن اليمن المشهورة) بشهر ربيع الأول في سنة ثمانمائة من الهجرة النبوية فرأيت جميع الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والأولياء والملائكة العالين، والمقربين، وملائكة التسخير، ورأيت روحانية الموجودات جميعها، وكشفت عن حقائق الأمور على ما

هي عليـه من الأزل إلى الأبـد" (انظـر) ويسـتطرد قـائلاً "وتحققت بعلوم إلهية لا يسع الكون أن نذكرها فيه" (ص97 ج2).

ويســتطرد الجيلي في هذيانــه وكفرياتــه قــائلاً عن مشــاهداته المزعومة في خلق السـماء الثانيـة: "رأيت نوحـاً عليـه السلام في هـذه السـماء جالسـاً على سـرير خلـق من نـور الكبريـاء بين أهـل المجـد والثنـاء فسـلمت عليـه وتمثلت بين يديـه فـرد علي السـلام ورحب بي وقام".

إلى أن يقـول: "وروحانيـة الملـك الحـاكم على جميـع ملائكـة هـذه السماء عجـائب من آيـات الـرحمن وغـرائب من أسـرار الأكـوان لا يسعنا إذاعتها في أهل هذا الزمان" (ص100) أ.هـ.

ويستطرد الجيلي مبيناً مشاهداته المزعومة في السماء الثالثة وأنه رأى يوسف عليه السلام وأنه دار بينهمـا هـذا الحـديث الـذي يـزعم الجيلي في آخره أنه كان يعلم هذه العلوم التي أخـبره يوسـف بهـا قبل أن يتفوه بها يوسـف. ومـا هـذه العلـوم.. إنهـا هـذه الكفريـات والهذيانات نفسها وهذا نص عبارته في ذلك:

"اجتمعت في هذه السـماء مـع يوسـف عليـه السـلام، فرأيتـه على سرير من الأسرار كاشفاً عن رمز الأنوار عالماً بحقيقة مـا انعقـدت عليـه أكلـة الأحبـار متحققـاً بـأمر المعـاني، مجـاوزاً عن قيـد المـاء والأواني فسلمت إلى تحية وافد إليه فأجاب وحياً ثم رحب بي وبيا، فقلت لـه: سـيدي أسـألك عن قولـك {رب قـد آتيتـني من الملـك وعلمتني من تأويل الأحاديث} أي المملكـتين تعـني وعن تأويـل أي الأحاديث تكنى فقال: أردت المملكة الرحمانية المودعة في النكتــة الإنسانية (يعني أن يوسف عليه السلام أجابه بـأن اللـه أطلعـه عـل وجــود الــرحمن في كيــان الإنســان) وتأويــل الأحــاديث: الأمانــات الدائرة في الألسنة الحيوانية، فقلت له يا سيدي أليس هذا المــودع في التلويح حللاً من البيان والتصريح. فقـال: اعلم أن للحـق تعـالى أمانة في العباد يوصلها المتكلمون بها إلى أهل الرشاد، قلت: كيـف يكون للحق أمانة وهو أصل الوجود في الظهور والإبانة، فقال: ذلك وصفه وهذا شأنه وذاك حكمه وهذه عبارته، والأمانة يجعلها الجاهل في اللسان ويحملهـا العـالم في السـر والجنـان، والكـل في حـيرة عنه، ولم يفز غير العارف بشيء منـه، فقلت: وكيـف ذلـك. فقـال: اعلم أيدك الله وحماك أن الحق تعالى جعل أسراره كدرر إشـارات مودعة في أسرار عبارات (يعني أن سر الخلق قد صـحبه اللـه في

أسرار العبارات التي يوحيهـا إلي)، فهي ملقـاة في الطريـق دائـرة على ألسن الفريق، يجهل العام إشارتها، ويعرف الخـاص مـا سـكن عبارتهـا، فيؤولهـا على حسـب المقتضـى ويـؤول بهـا إلى حيث المرتضى، وهل تأويل الأحلام إلا رشحة من هذا البحر أو حصاة من جنادل هذا القفر فعلمت ما أشار إليه الصديق ولم أكن قبله جـاهلاً بهذا التحقيق، ثم تركته وانصرفت في الرفيق الأعلى ونعم الرفيق" أ.هـ (ص101).

ثم يـزعم الجيلي أن السـماء الرابعـة هي قلب الشـمس وأن فيهـا إدريس وأن أكثر الأنبياء في دائرة هـذا الفلـك المكين مثـل عيسـى وسليمان وداود وإدريس وجرجيس.. وغيرهم.. الخ.

أسمعتم يا مسلمون نبياً من أنبياء اللـه يسـمى جـرجيس،.. هـا هـو الجيلي اطلع عليه في السـماء وجـاءكم باسـمه كمـا جـاءكم باسـم ملك يسمى توحائيـل.. أنظـرتم كيـف يكـون الكشـف وعلم الغيب. هذه هي نماذجـه. وأمـا السـماء الخامسـة عنـد الجيلي فهي سـماء الكوكب المسمى بهرام.. وحاكم هذه السماء عزرائيل وهو روحانية المريخ صاحب الانتقام والتوبيخ.. (هكذا واللـه..) ويسـتطرد الجيلي فيصـف السـماء السادسـة فهي عنـده كـوكب المشـتري.. ويقـول "رأيت فيها موسى عليه السلام متمكناً في هذا المقام واضعاً قدمه على هذه السماء قابضاً بيمينـه (يلاحـظ في هـذا التخليـط والتقـول على الله أن هؤلاء الكاذبين يعمدون إلى الوحي القـرآني والحـديثي فيأخذون منه ما يشـاءون ويخلطونـه بهـذه الأكـاذيب ويزعمـون أن ذلك هو الكشف الذي كشف لهم فـذكر منصـبة موسـى على سـاق سدرة المنتهى مـأخوذ من قـول الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم أكـون أول من يفيـق فأجـد موسـى باطشـاً بسـاق العـرش) سـاق سـدرة المنتهى سـكران من خمـر تجلي الربوبيـة.." أي موسـى انطبعت في مرآة علمه أشكال الأكـوان وتجلت فيـه ربوبيـة الملـك الـديان.. وأنـه دار بينـه وبين الجيلي هـذا الحـوار.. يقـول الجيلي بالنص:

"فوقفت متأدباً بين يديه، وسلمت بتحقيق مرتبته عليه، فرفع رأسه من سكرة الأزل ورحب بي ثم أهل، فقلت له: يـا سـيدي قـد أخـبر الناطق بالجواب الصادق في الخطاب، أنه قد بـرزت لـك خلعـة لن تـراني من ذلـك الجنـاب، وحالتـك هـذه غـير حالـة أهـل الحجـاب، فأخبرني بحقيقة هذا الأمر العجاب، فقـال: اعلم أنـني لمـا خـرجت

من مصر أرضي إلى حقيقة فرضي، ونوديت من طور قلبي بلسان ربي من جانب شجرة الأحدية في الوادي المقدس بأنوار الأزلية {إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني} فلما عبدته كما أمر في الأشياء، وأثنيت عليه بما يستحقه من الصفات والأسماء تجلت أنوار الربوبية لي فأخذني عني، فطلبت البقاء في مقام اللقاء، ومحال أن يثبت المحدث لظهور القديم، فنادى لسان سري مترجماً عن ذلك الأمر العظيم، فقلت: {رب أرني أنظر إليك} فأدخل بانيتي في حضرة القدس عليك فسمعت الجواب من ذلك الجناب {لن تراني ولكن انظر إلى الجبل} وهي ذاتك المخلوقة من نوري في الأزل، {فإن استقر مكانه} بعد أن أظهر القديم سلطانه {فسوف تراني فلما تجلّى ربه للجبل} وجذبتني حقيقة الأزل وظهر القديم على المحدث {جعله دكاً وخر موسى صعقاً} فلم يبق في القديم إلا القديم، ولم يتجل بالعظمة إلا العظيم، هذا على أن استيفاؤه غير ممكن وحصره غير جائز، فلا تدرك ماهيته ولا ترى ولا يعلم كنهه ولا يدري، فلما اطلع ترجمان الأزل على هذا الخطاب أخبركم به من أم الكتاب (أي أن الجيلي اطلع على هذه المكاشفة من أم الكتاب) فترجم بالحق والصواب، ثم تركته وانصرفت وقد اغترفت من بحره ما اغترفت (ص104) أ.هـ.

ويستطرد الجيلي مبيناً مشاهداته في هذه السماء فيقول: "ثم إني رأيت ملائكة هذه السماء مخلوقة على سائر أنواع الحيوانات فمنهم من خلقه الله تعالى على هيئة الطائر وله أجنحة لا تنحصر للحاصر، وعبادة هذا النوع خدمة الأسرار ورفعها من حضيض الظلمة إلى عالم الأنوار، ومنهم من خلقه الله تعالى على هيئة الخيول المسومة، وعبادة هذه الطائفة المكرمة رفع القلوب من سجن الشهادة إلى فضاء الغيوب، ومنهم من خلقه الله تعالى على هيئة النجائب وفي صورة الركائب، وعبادة هذا النوع رفع النفوس إلى عالم المعاني من عالم المحسوس، ومنه من خلقه الله تعالى على هيئة البغال والحمير!! وعبادة هذا النوع رفع الحقير وجبر الكسير والعبور من القليل إلى الكثير ومنهم من خلقه الله تعالى على صرة الإنسان وعبادة هؤلاء حفظ قواعد الأديان، ومنهم من خلق على صفة بسائط الجواهر والأعراض وعبادة هؤلاء إيصال الصحة إلى الأجسام المراض، ومنهم من خلق على أنواع الحبوب والمياه وسائر المأكولات والمشروبات، وعبادة هؤلاء إيصال الأرزاق إلى مرزوقها من سائر المخلوقات، ثم إني رأيت في هذه

السـماء ملائكـة مخلوقـة بحكم الاختلاط مزجـاً، فالنصـف من نـار والنصف من ماء عقد ثلجاً، فلا الماء يفعل في إطفاء النار ولا النـار تغير الماء عن ذلك القرار" (ص105).

وأمـا السـماء السـابعة الـتي شـاهدها الجيلي وجـاء يقص علينـا مشـاهداته فهي السـماء السـابعة، وهي عنـده زحـل، ويحكى أنـه شاهد فيها إبراهيم عليه السلام قائماً في هـذه السـماء ولـه منصـة يجلس عليهـا على يمين العـرش من فـوق الكرسـي وهـو يتلـو آيـة {الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق..}.

ويستطرد الجيلي بعد ذلك تبجحاً أنه صعد إلى سـدرة المنتهى وأنـه رأى هناك الملائكـة وأنهـا على هيئـات مختلفـة وأمـامهم سـبعة، ثم ثلاثة ثم ملك مقدم يسمى عبدالله.. وأنهم أخبروه أنهم لم يسـجدوا لآدم -هكذا.. علماً بأن الله سـبحانه وتعـالى يقـول في محكم كتابـه {فسـجد الملائكـة كلهم أجمعـون* إلا إبليس أبى أن يكـون من الساجدين} (الحجر:30-31).

فأكد الله سبحانه سجود الملائكـة بكـل وجميـع ولكن جاءنـا الجيلي ليخبرنا بأن الملائكة هؤلاء الـذين شـاهدهم في السـماء لم يـؤمروا بالسجود لآدم فاكتشف ما لم يعلمه الله ورسوله. وهذا نص عبارتـه في ذلك:

"ثم رأيت سبعة جملـة هـذه المائـة متقدمـة عليهم يسـمون قائمـة الكروبيين، ورأيت ثلاثـة مقـدمين على هـذه السـبعة يسـمون بأهـل المـراتب والتمكين، ورأيت واحـداً مقـدماً على جميعهم يسـمى عبداللـه، وكـل هـؤلاء عـالون ممن لم يـؤمروا بالسـجود لآدم، ومن فوقهم كالملك المسمى بالنون والملـك المسـمى بـالقلم وأمثـالهم أيضـاً عـالون، وبقيـة ملائكـة القـرب دونهم، وتحتهم مثـل جبريـل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل (ليس في ملائكة الله عز وجل ملـك يسمى عزرائيل ولم يثبت ذلك في حديث صـحيح أو ضـعيف ولكنـه اسم يجري على ألسنة العامة، ولكن هـؤلاء الجهلـة يلتقطـون مثـل هذه الأسماء ويجعلونها كشفاً وعلماً لدنياً وروحياً وإلهاماً لهم فانظر وتعجب..) وأمثالهم.

ورأيت في هذا الفلك من العجائب والغـرائب مـا لا يسـعنا شـرحه" (ص107).

ولا يكتفي الجيلي ببيـان كفرياتـه وهذيانـه في السـماء فينتقـل إلى الأرض وهي عنده ليست أرضاً واحدة بل هو يزعم أنه شاهد سـبعة أرضين وسبعة بحار ومحيطات وهاك بعضـاً من هـذا الهـذيان الـذي يزعم فيه الجيلي أنه رأى فيه الخضر وموسى، وأفلاطون وأرسـطو والاسكندر، إلى هذيان وكفر لا يسع المـؤمن عنـد سـماعه وقراءتـه إلا أن يقـول (يـا مقلب القلـوب ثبت قلوبنـا على دينـك) وأن يقـول أيضاً (الحمد لله الذي عافانا وما علينـا ووقانـا) وهـاك أخي القـارئ شيئاً من هذا الهذيان:

"إن اللـه تعـالى لمـا بسـط الأرض جعلهـا على قـرني ثـور يسـمى الـبرهوت وجعـل الثـور على ظهـر الحـوت في هـذا البحـر يسـمى البهموت، وهو الذي أشار إليه الحق تعالى بقوله {وما تحت الثرى} ومجمـع البحـرين هـذا هـو الـذي اجتمـع فيـه موسـى عليـه السـلام بالخضر على شطه، لأن الله تعالى كان قد وعـده بـأن يجتمـع بعبـد من عبـاده على مجمـع البحـرين، فلمـا ذهب موسـى وفتـاه حـاملاً لغذائه ووصلا إلى مجمع البحرين لم يعرفه موسى عليـه السـلام إلا بالحوت الذي نسيه الفتى على الصخرة وكان البحر مداً، فلما جـزر بلغ الماء إلى الصـخرة فصـارت حقيقـة الحيـاة في الحـوت، فاتخـذ سبيله في البحر سرباً، فعجب موسى من حياة حوت ميت قد طبخ على النار، وهذا الفتى اسمه يوشع بن نون، وهـو أكـبر من موسـى عليه السلام في السن سنة شمسية وقصتهما مشهورة، وقد فصلنا ذلك في رسالتنا الموسومة (بمسامرة الخليل ومسـايرة الصـحيب) فليتأمل فيه.

سـافر الإسـكندرية ليشـرب من هـذا المـاء اعتمـاداً على كـل كلام أفلاطون أن من شرب من ماء الحياة فإنه لا يمـوت، لأن أفلاطـون كان قد بلغ هذا المحل وشرب من هذا البحر فهو باق إلى يومنا هذا في جبل يسمى دواوند، وكان أرسـطو تلميـذ أفلاطـون وهـو أسـتاذ الاسكندر صحب الاسـكندر في مسـيره إلى مجمـع البحـرين، فلمـا وصـل إلى أرض الظلمـات سـاروا وتبعهم نفـر من العسـكر وأقـام الباقون في مدينة تسـمى ثُبُتْ برفـع الثـاء المثلثـة والبـاء الموحـدة وإسكان التاء المثناة من فـوق وهـو حـد مـا تطلـع الشـمس عليـه، وكـان في جملـة من صـحب الاسـكندر من عسـكر الخضـر عليـه السلام، فساروا مدة لا يعلمون عددها ولا يدركون أمــدها وهم على ساحل البحر، وكلما نزلـوا مـنزلاً شـربوا من المـاء، فلمـا ملـوا من طول السفر أخذوا في الرجوع إلى حيث أقام العسـكر، وقـد كـانوا

مروا بمجمع البحـرين على طـريقهم من غـير أن يشـعروا بـه، فمـا أقاموا عنده ولا نزلوا به لعدم العلامة، وكان الخضر عليه السلام قد ألهم بأن أخذ طيراً فذبحه وربطه على ساقه، فكان يمشـي ورجلـه في الماء، فلما بلغ هذا المحل انتعش الطير واضطرب عليه، فأقام عنده وشرب من ذلك الماء واغتسـل منـه وسـبح فيـه، فكتمـه عن الاسكندر وكتم أمره إلى أن خرج، فلمـا نظـر أرسـطو إلى الخضـر عليه السلام علم أنه قد فاز من دونهم بذلك، فلـزم خدمتـه إلى أن مات واستفاد من الخضر هو والاسكندر علوماً جمة" (ص117).

ويستطرد الجيلي شارحاً له عن طريق كشوفاته وهذيانه فيقول:

".. واعلم أن الخضر عليه السلام قد مضى ذكره فيما تقدم، خلقـه الله تعالى من حقيقته

{ونفخت فيـه من روحي} فهـو روح اللـه، فلهـذا عـاش إلى يـوم القيامة، اجتمعت به وسألته، ومنـه أروي جميـع مـا في هـذا البحـر المحيط (جميع الصوفية يزعمـون أن كـل مـا ينقلونـه من علـومهم يسمعونه من الخضر، وقـد زاد الجيلي أن الخضـر مخلـوق من روح الله.. ولا يعلم هذا الجاهل أن آدم هو الذي أمر الله جبريل أن ينفخ فيه وجبريل هو روح الله وليس الخضر خلقاً خاصاً).

واعلم أن هذا البحر المحيط المـذكور، ومـا كـان منـه منفصـلاً عن جبل (ق) مما يلي الدنيا فهو مالح وهو البحر المذكور، وما كان منـه متصلاً بالجبل فهو وراء المالح، فإنـه البحـر الأحمـر الطيب الرائحـة ومـا كـان من وراء جبـل (ق) متصـلاً بالجبـل الأسـود فإنـه البحـر الأخضـر، وهـو من الطعم كالسـم القاتـل، ومن شـرب منـه قطـرة هلـك، وفـني لوقتـه، ومـا كـان منــه وراء الجبـل يحكم الانفصـال والحيطة والشمول بجميع الموجـودات فهـو البحـر الأسـود الـذي لا يعلم لـه طعم ولا ريح ولا يبلغـه أحـد، بـل وقـع بـه الأخبـار، فعلم وانقطع عن الآثار فكتم.

وأما البحر الأحمر الذي نشره كالمسك الأذفـر فإنـه يعـرف بـالبحر الأسـمى ذي المـوج الأنمى، رأيت على سـاحل هـذا البحـر رجـالاً مؤمنين، ليس لهم عبادة إلا تقريب الخلق إلى الحق، قد جبلوا على ذلك، فمن عاشرهم أو صاحبهم عرف الله بقدر معاشرتهم، وتقرب إلى الله بقدر مسايرتهم، وجوههم كالشمس الطالع والبرق اللامـع، يستضـيء بهم الحـائر في تيهـات القفـار، ويهتـدي بهم التائـه في

غيابات البحار، إذا أرادوا السفر في هذا البحر نصبوا شركاً لحيتانـه، فإذا اصطادوا ركبوا عليها لأن مراكب هذا البحـر حيتانـه، ومكتسـبه لؤلـؤه ومرجانـه، ولكنهم عنـد أن يسـتووا على ظهـر هـذا الحـوت ينتعشـــون بطيب رائحـــة البحـــر فيغمى عليهم، فلا يفيقـــون إلى أنفسـهم، ولا يرجعـون إلى محسوسـهم مـا دامـوا راكـبين في هـذا البحــر، فتســير بهم الحيتــان إلى أن يأخــذوا حــدها من الســاحل، فتقـذف بهم في مـنزل من تلـك المنـازل، فـإذا وصـلوا إلى الـبر وخرجوا من ذلك البحر، رجعت إليهم عقولهم، وبان لهم محصـولهم فيظفرون بعجائب وغرائب لا تحصر، أقل ما يعبر عنهـا، بأنهـا مـا لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" (ص118) .

وفي ختام هذا الهذيان يقول الجيلي:

"وأما البحر السابع فهو الأسود القـاطع، لا يعـرف سـكانه، ولا يعلم حيتانـه، فهـو مسـتحيل الوصـول غـير ممكن الحصـول، لأنـه وراء الأطوار وآخـر الأكـوار والأدوار، لا نهايـة لعجائبـه، ولا آخـر لغرائبـه، قصر عنه المدى فطال، وزاد على العجائب حتى كأنه المحال، فهـو بحـر الـذات الـذي حـارت دونـه الصـفات، وهـو المعـدوم الموجـود والموسـوم والمفقـود والمعلـوم والمجهـول والمنقـول والمحتـوم والمعقول، وجوده فقدانه، أولـه محيـط بـآخره وباطنـه مسـتو على ظاهره، لا يدرك ما فيه، ولا يعلمه أحـد فيسـتوفيه، فلنقبض العنـان عن الخوض فيـه والبيـان (واللـه يقـول الحـق وهـو يهـدي السـبيل) وعليه التكلان" (ص118) أ.هـ.

وهكذا يكون الهذيان مختوماً بقوله تعالى {واللـه يقـول الحـق وهـو يهدي السبيل..} ..أعرفتم الحق الذي يدعونا إليه الجيلي ومن على شاكلته من هؤلاء الملاحدة والزنادقة؟ إنه هذا الهذيان الــذي لا أول له ولا آخر.

ما الذي يريده هؤلاء الملاحدة؟!

وقد يسأل سـائل: ومـا الـذي يريـده هـؤلاء من تـأليف هـذه الكتب، ونشر هذا الجنـون والهـذيان؟! ولسـت أنـا الـذي سـأجيب عن هـذا السؤال، وإنما سـأثبت الجـواب من كلام الجيلي نفسـه. إنـه يقـول بالنص:

"اعلم أن اللـه تعـالى إنمـا خلـق جميـع الموجـودات لعبادتـه، فهم مجبولـون على ذلـك مفطـورون عليـه من حيث الأصـالة، فمـا في

الوجـود شـيء إلا هـو يعبـد اللـه بحالـه ومقالـه وفعالـه، بـل بذاتـه وصفاته، فكـل شـيء في الوجـود مطيـع للـه تعـالى، لقولـه تعـالى للسماوات والأرض {ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينـا طـائعين} وليس المـراد بالسـماوات إلا أهلهـا، ولا بـالأرض إلا سـكانه. وقـال تعـالى {ومـا خلقت الجن والإنس إلا ليعبـدون} ثم شـهد لهم النـبي صـلى الله عليه وسلم أنهم يعبدونه بقوله [كـل ميسـر لمـا خلـق لـه] لأن الجن والإنس مخلوقون لعبادته وهم ميسـرون لمـا خلقـوا لـه، فهم عبـاد اللـه بالضـرورة، ولكن تختلـف العبـادات لاختلاف مقتضـيات الأسماء والصفات، لأن الله تعالى متجـل باسـمه المضـل، كمـا هـو متجل باسمه الهـادي، فكمـا يجب ظهـور أثـر اسـمه المنعم، كـذلك يجب ظهــور أثــر اســمه المنتقم. واختلاف النــاس في أحــوالهم لاختلاف أرباب الأسـماء والصـفات، قـال تعـالى {كـان النـاس أمـة واحدة} يعـني عبـاد اللـه مجبولـون على طاعتـه من حيث الفطـرة الأصـلية، فبعث اللــه النبــيين مبشــرين ومنــذرين ليعبــده من اتبــع الرسل من حيث اسمه المضـل، فـاختلف النـاس وافـترقت الملـل وظهرت النحل، وذهبت كل طائفة إلى ما علمته أنه صواب.

ولو كان ذلك العلم عند غيرها خطأ ولكن حسنه الله عندها ليعبـدوه من الجهة التي تقتضيها تلك الصفة المـؤثرة في ذلـك الأمـر، وهـذا معـنى قولـه {مـا من دابـة في الأرض إلا هـو آخـذ بناصـيتها} فهـو الفاعل بهم على حسب ما يريد مريده، وهو عين ما اقتضته صفاته، فهو سبحانه وتعالى يجزيهم على حسب مقتضـى أسـمائه وصـفاته، فلا ينفعه إقرار أحد بربوبيتـه ولا يضـره جحـود أحـد بـذلك، بـل هـو سبحانه وتعالى يتصرف فيهم على ما هـو مسـتحق لـذلك من تنـوع عباداته التي تنبغي لكماله، فكـل من في الوجـود عابـد للـه تعـالى، مطيــع لقولــه تعــالى {وإن من شــيء إلا يســبح بحمــده ولكن لا تفقهون تسبيحهم}، لأن من تسبيحهم ما يسـمى مخالفـة ومعصـية وجحوداً وغير ذلك، فلا يفقهه كل أحـد، ثم إن النفي إنمـا وقـع على الجملــة، فصــح أن يفقهــه البعض؛ فقولــه {ولكن لا تفقهــون تسبيحهم} يعني من حيث الجملة، فيجـوز أن يفقهـه بعضـهم" (ص 120).

وبعد أن يـذكر الجيلي طوائـف النـاس ومللهم يقـول : "فكـل هـذه الطوائف عابدون لله تعالى كما ينبغي أن يعبد لأنه خلقهم لنفسه لا لهم فهم لـه كمـا يسـتحق ثم إنـه سـبحانه وتعـالى أظهـر في هـذه

الملل حقائق أسمائه وصفاته فتجلى في جميعها بذاته فعبدته جميع الطوائف" (ص122).

ويشرح هذا المعنى تفصيلياً فيقول:

"فأما الكفار فإنهم عبدوه بالذات، لأنه لما كان الحق سبحانه وتعالى حقيقة الوجود بأسره والكفار من جملة الوجود وهو حقيقتهم فكفروا أن يكون لهم رب لأنه تعالى حقيقتهم ولا رب له بل هو الرب المطلق، فعبدوه من حيث ما تقتضيه ذواتهم التي هو عينها (وما دام أنهم في زعمه وكفره هم عين الله فهم ينفذون لثبته وأمره بل هم الله فلا حاجة بهم إلى أن يعلموا ذلك أو لا يعلموه. وبالتالي فكفرهم بإله غيرهم وخارج عن طبيعتهم هو عين الإيمان وعين الحق في نظر الجيلي الزنديق ومن على شاكلته من هؤلاء الملاحدة الذين لم تعرف الأرض أفجر ولا أكفر منهم).

ثم من عبد منهم الوثن فلسر وجوده سبحانه بكماله بلا حلول ولا مزج في كل فرد من أفراد ذوات الوجود، فكان تعالى حقيقة تلك الأوثان التي يعبدونها فما عبدوا إلا الله" (ص122).

وأظن أنه ليس هناك عبارة أصرح وأوضح من هذه العبارات تبين المقصود والمآل الذي يرمي المتصوفة والوصول إليه.

ويستطرد الجيلي مبيناً عقائد الناس وأنهم جميعاً على حق. فيقول عن اليهود : "وأما اليهود فإنهم يتعبدون بتوحيد الله تعالى ثم بالصلاة في كل يوم مرتين.. ويتعبدون بالاعتكاف يوم السبت، وشرط الاعتكاف عندهم أن لا يدخل في بيته شيئاً مما يتمول به، ولا مما يؤكل، ولا يخرج منه شيئاً، ولا يحدث فيه نكاحاً ولا بيعاً ولا عقداً، وأن يتفرغ لعبادة الله تعالى لقوله تعالى في التوراة:

(أنت وعبدك وأمتك لله تعالى في يوم السبت)، فلأجل هذا حرم عليهم أن يحدثوا في يوم السبت شيئاً مما يتعلق بأمر دنياهم، ويكون مأكوله مما جمعه يوم الجمعة، وأول عندهم إذا غربت الشمس من يوم الجمعة، وآخره الاصفرار من يوم السبت.

وهذه حكمة جليلة؛ فإن الحق تعالى خلق السماوات والأرضين في ستة أيام، وابتدأها في يوم الأحد ثم استوى على العرش في اليوم السابع وهو يوم السبت، فهو يوم الفراغ، فلأجل هذا عبد الله اليهود بهذه العبادة في هذا اليوم إشارة إلى الاستواء الرحماني وحصوله في هذا اليوم فافهم" (ص127).

ثم يقول مادحاً النصارى كذلك فيقول:

"وأما النصارى فإنهم أقرب من جميع الأمم الماضية إلى الحق تعالى، فهم دون المحمديين، سببه أنهم طلبوا الله تعالى فعبدوه في عيسى ومريم وروح القدس، ثم قالوا بعدم التجزئة، ثم قالوا بمقدمه على وجوده في محدث عيسى وكل هذا تنزيه في تشبيه لائق بالجناب الإلهي".

أي أن فعل النصارى هذا من تشبيه الله بخلقه ومن عبادة الثلاث ومن اتخاذ أرباب مع الله كل ذلك لائق في عقيدة عبدالكريم الجيلي ولكنه يراهم أيضاً مقصرون لأنهم حصروا الله في ثلاث نقط، والله عنده لا ينحصر في ثلاثة لأن كل موجود هو الله.

هذه هي الغاية التي يسعى هؤلاء الزنادقة سعياً حثيثاً إليها. إنها التسوية بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والكفر والإيمان، وإبليس وجبريل، ومحمد صلى الله عليه وسلم وأبو جهل، والخمر والماء، والأخت والأجنبية، والزواج والزنا واللواط، والقتل ظلماً والرحمة، والتوحيد والشرك، فلا ضلال في الأرض إلا في نظر القاصرين فقط، وأما العارفون فكل هذه الموجودات شيء واحد بل ذات واحدة تعددت وجوداتها، وتعددت أشكالها وألوانها وهي حقيقة واحدة -وبهذا الدين الذي لم تعرف البشرية أظلم ولا أفجر ولا أكفر منه- اعتقد هؤلاء الزنادقة وألبسوا هذا الدين الفاجر آيات القرآن وأحاديث النبي الكريم، ووصفوا أنفسهم بأنهم خير الناس وأعلمهم وأتقاهم، وهذه هي حالهم في الظلم والكفر والفجور، وهدم دين الإسلام وإحلال شرائع الشيطان مكان شريعة الرحمن، وطمس صفات الله ونوره سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وأستغفر الله من نقل هذا الكفر وتسطيره. فإنه كفر لم تقله اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا الصابئة.. ورحم الله الإمام عبدالله بن المبارك الذي كان يقول: إنا لنحكي كفر اليهود والنصارى ونستعظم أن نحكي كفر الجهمية.. فكيف لو رأى كفر هؤلاء الصوفية الملاحدة ماذا كان يقول في ذلك؟!

حقاً إن هذا لشيء عظيم ولكننا مضطرون أن نذكر كفرهم لندحضه ولنبينه للناس ليحذرون بعد أن عم شرهم البلاد والعباد، وبعد أن اغتر بهم جمع غفير من المسلمين، فظنوا أن الحق مع هؤلاء فاتبعوهم حتى صرفوهم عن دين الرسول صلى الله عليه وسلم وأوصلوهم إلى هذه النهاية المزرية التي يستحيل على

الإنسان إذا وصلها أن يميز بين خير وشر، وهـدى وضـلالة، لأن كـل هذه الأضداد ستكون عنده شيئاً واحداً.

ومع ذلك فإن الجيلي يستطرد في هذا البـاب شـارحاً مـراده تمامـاً فيقول:

"ولم يفتقر في ذلك إلى علمهم، ولا يحتاج إلى نياتهم، لأن الحقائق ولو طال إخفاؤها لا أن تظهر" أ.هـ. يعني أن اللـه لا يحتـاج أن يعلم الكافر بـه مـا دام أن وجـود هـذا الكـافر هـو وجـود اللـه، وأن هـذه الحقيقة لا بد وأن تظهر للعيان يوماً ما..

ويمضي الجيلي شارحاً معتقده فيقول..

"وأما الطباعية فـإنهم عبـدوه من حيث صـفاته الأربـع..، لأن أربعـة الأوصاف الإلهيـة.. الـتي هي الحيـاة والعلم والقـدرة والإرادة أصـل بناء الوجود فالحرارة والـبرودة والرطوبـة واليبوسـة مظاهرهـا في عـالم الأكـوان، فالرطوبـة مظهـر الحيـاة، والـبرودة مظهـر العلم، والحـرارة مظهـر الإرادة، واليبوسـة مظهـر القـدرة. وحقيقـة هـذه المظاهر ذات الموصوف بها سبحانه وتعالى.. فعبدت هـذه الطبـائع لهذا السر فمنهم من علم ومنهم من جهل العالم سـابق، والجاهـل لاحـق فهم عابـدون للحـق من حيث الصـفات، ويـؤول أمـرهم إلى السـعادة كمـا آل أمـر من قبلهم إليهـا بظهـور الحقـائق الـتي بـني أمرهم عليها" (ص123-124).

وهكـذا يقـرر الجيلي أن الفلاسـفة الطبـائعيين الـذين قـالوا برجـوع الطبيعة إلى العناصر الأربعة هم عابدون لله شـاؤوا أم أبـوا، علمـوا أم جهلـوا، وأن أمـرهم إلى السـعادة الأبديـة. ويسـتدل لهـذا الكفـر الشنيع أيضاً بالقرآن فيقول: "والدليل من القرآن أن اللـه قـال في الأحزاب المختلفين {كـل حـزب بمـا لـديهم فرحـون} فيقـول: "إن فرحهم هـذا في الـدنيا والآخـرة، فكـل حـزب يفـرح بمـا عنـده في الدنيا، ويفرح به أيضاً في الآخرة عندما يطلع الجميـع أنـه لا ثمـة إلا الله وأنهم جميعاً مظاهر للذات الإلهية، وليسوا شيئاً خارجاً عنها".

وهكذا يستخدم القرآن أيضاً في هذا الكفر والباطل الذي لم تعـرف البشرية له مثيلاً في كل تاريخها فقـد ارتكـز في الفطـرة أن هنـاك حقاً وباطلاً، هدى وضلالاً، نوراً وظلاماً، كذباً وصدقاً، وإيمانـاً..، ولكن عند هؤلاء الصوفية كل هذا شيء واحد وحق واحد اختلفت مظاهره

ولم تختلف حقيقته فالجنة والنار كلاهما نعيم، وإبليس وجبريل كلاهما عابد، بل معبود، بل شيء تعددت صفاته بتعدد موجوداته..

ويستطرد الجيلي في شرح كفره وفجوره فيقول:

"وأما الثنوية فإنهم عبدوه من حيث نفسه تعالى، لأنه تعالى جمع الأضداد بنفسه، فشمل المراتب الحقية والمراتب الخلقية، وظهر في الوصفين بالحكمين، وظهر في الدارين بالنعتين، فما كان منسوباً إلى الحقيقة الحقية فهو الظاهر في الأنوار وما كان منسوباً إلى الحقيقة الخلقية فهو عبارة عن الظلمة، فعبدوا النور والظلمة لهذا السر الإلهي الجامع للوصفين والضدين والاعتبارين والحكمين كيف شئت من أي حكم شئت، فإنه سبحانه يجمعه وضده بنفسه.

فالثنوية عبدوه من حيث هذه اللطيفة الإلهية مما يقتضيه في نفسه سبحانه وتعالى، فهو المسمى بالحق، وهو المسمى بالخلق، فهو النور والظلمة" (ص125) أ.هـ.

بهذا الوضوح شرح الجيلي مذهب الفلاسفة الصوفية الزنادقة الملاحدة، وبهذا التفصيل والبيان يستطرد أيضاً قائلاً:

"وأما المجوس فإنهم عبدوه من حيث الأحدية، فكما أن الأحدية مفنية لجميع المراتب والأسماء والأوصاف، كذلك النار فإنها أقوى الاستقصاءات وأرفعها، فإنها مفنية لجميع الطبائع بمحاذاتها، لا تقاربها طبيعة إلا تستحيل إلى النارية لغلبة قوتها، فكذلك الأحدية لا يقابلها اسم ولا وصف إلا يندرج فيها ويضمحل، فلهذه اللطيفة عبدوا النار وحقيقتها ذاتها وتعالى".

فيجعل المجوس قسماً غير الثنوية والمعلوم أنهم قسم واحد فالثنوية القائلون بالنور والظلمة وإله للخير وإله للشر هم أيضاً المجوس عبدة النار التي يجعلونها ستاراً وعلامة لإلهم إله الخير في زعمهم ولكن الجيلي الملحد يجعل هؤلاء أيضاً عبدة النيران من أهل الحق والتوحيد وأن عبادتهم للنار حق أقوى العناصر وأرفعها ويقول والنار حقيقتها ذات الله تعالى. فأي كفر يا قوم في الأرض أعظم من هذا وأكبر.. ويمدح الجيلي المجوس فيقول:

"فلما انتشقت مشام أرواح المجوس لعطر هذا المسك زكمت عن شمه سواه فعبدوا النار وما عبدوا إلا الواحد القهار" أ.هـ (ص 126).

فأي تصريح عن عقائد القوم أبلغ من هذا..

ثم يقول: "وأما الدهرية (أي الاسم) فإنهم عبـدوه من حيث الهويـة (الدهرية: هم القائلون بأنه لا إله والحياة مادة فما هي أرحام تـدفع وأرض يبلع واسمهم هذا مأخوذ من قوله تعـالى {وقـالوا مـا هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بـذلك من علم إن إلا يظنون} (الجاثية:24)) فقال عليه السـلام: [لا تسـبوا الـدهر فإن الله هو الدهر]".

قلت: هـذا إبليس والزنادقـة لم يصـل إلى هـذا الحـد في الكفـر فالمقصود بقول رسول اللـه [إن اللـه هـو الـدهر] هـو أنـه سـبحانه وتعالى مقدر المقادير؛ فسب الأيام سب لله لأنه هو مقدر المقادير سبحانه وتعالى والزمان لا دخل له في ذلك. فنهانـا الرسـول صـلى الله عليه وسلم عن سـب الزمـان لأن هـذا من ثم يتوجـه إلى اللـه سبحانه وتعالى. وليس مقصود الرسـول حتمـاً أن اللـه هـو الزمـان لأن الله جل وعلا هو خالق الزمان والمكان والخالق غير المخلـوق. وأمـا الدهريـة فـإنهم لا يؤمنـون بإلـه أصـلاً والجيلي يجعـل هـؤلاء الملاحدة عباداً لله.. انظر..

الغزالي - وطريق الكشف:

لعل من العجائب والغـرائب أن يسـقط رجـل في طريـق التصـوف كالغزالي رحمه الله وعفـا عنـه. وعلى مـا كـان منـه فقـد كـان من علمـاء الشـريعة. ولكن لقصـر باعـه -رحمـه اللـه- في علم السـنة ومعرفة صحيح الحديث من ضعيفه فقد اغتر بما عليه الصـوفية من ظاهرهم، وما يبدونه ويعلقونه من الورع والتقوى، ولمـا كـان عنـده من الفلسفة الأولى التي دخل في بطنها ولم يستطع الخـروج منهـا على حد قول تلميذه الإمام ابن العربي المالكي رحمه الله فإنه قـد دون للمتصوفة ما دون في كتابه إحياء علـوم الـدين. ومن ذلـك مـا نقله عنهم في زعمهم بالكشف حيث يقول:

"فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر، وفاض على صـدورهم النـور، لا بالتعليم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهـد في الـدنيا والتـبري من علائقها، وتفريغ القلب من شـواغلها والإقبـال بكنـه الهمـة على الله تعالى. فمن كان لله، كـان اللـه لـه - وزعمـوا أن الطريـق في ذلك، أولاً بانقطاع علائق الدنيا بالكلية، وتفريغ القلب منهـا، وبقطـع الهمـة عن الأهـل والمـال والولـد والـوطن، وعن العـالم والولايـة

والجاه، بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود الشـيء وعدمـه. ثم يخلوا بنفسه في زاويـة مـع الاقتصـار على الفـرائض والـرواتب، ويجلس فارغ القلب، ولا يفرق فكره بقراءة قـرآن، ولا بالتأمـل في تفسيره، ولا يكتب حديثاً ولا غيره. بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى. فلا يزال، بعد جلوسـه في الخلـوة، قـائلاً بلسـانه: الله.. الله.. على الـدوام، مـع حضـور القلب، حـتى ينتهي إلى حالـة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه. ثم يصـير عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمـة، ويبقي معنى الكلمة مجرداً في قلبـه حاضـراً فيـه، كأنـه لازم لـه، لا يفارقــه، ولــه اختيــار إلى أن ينتهي إلى هــذا الحــد، واختيــار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس. وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى. بل هو بما فعله صار متعرضاً لنفحات رحمة اللـه، فلا يبقى إلا الانتظـار لمـا يفتح اللـه من الرحمـة، كمـا فتحهـا على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق.

وعند ذلك إذا صدقت إرادته، وصفت همته، وحسنت مواظبتــه، فلم تجاذبه شهواته، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا - تلمع لوامع الحـق في قلبـه، ويكـون في ابتدائـه كـالبرق الخـاطف ثم يلبث ثم يعود وقد يتأخر. وإن عاد فقد يثبت، وقـد يكـون مختطفـاً. وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحـق وقـد يقتصر على فن واحد.

ومنـازل الأوليـاء اللـه تعـالى فيـه لا تحصـر، كمـا لا يحصـى تفـاوت خلقهم وأخلاقهم - وقـد رجـع هـذا الطريـق إلى تطهـير محض من جانبك، وتصفية وتجليات، ثم استعداد وانتظار فقط" أ.هـ

فانظر قول الغزالي عن الصوفي الذي يريـد الوصـول إلى الكشـف (ويجلس فارغ القلب، مجموع الهم، ولا يفرق فكره بقراءة القــرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا يكتب حـديثاً ولا غـيره.. بـل يقـول.. اللـه الله على الدوام..) فهل وجد مثل هذا الأمر في كتاب أو سنة أو أنه عمل مبتدع يريد به صـاحبه غايـة لا تحصـل لـه، وهي رؤيـة اللـه أو أنوار الله، أو الملائكة أو رسول الله؟!

وهـل يـرى الصـوفي من وراء هـذا الـذكر المبتـدع غـير طوالـع نـار الشياطين، وبوارق كيدهم، ولوائح طلوعهم على من جعل لـه غايـة غير غايات الدين وطريقاً غير طريق المؤمنين الذي سنه لنا رسـول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسـن لنـا الرسـول أن يجلس أحـدنا

في زاوية مظلمة ولا يجعل على خاطره شيئاً غـير اللـه وينتظـر أن ينزل عليه الوحي والكشف.. وبالطبع من جعل له غاية غـير غايـات الكتاب والسنة تلاعبت به الشياطين وظن أن ما تنزل عليه إنما هـو من الله وما هو من الله.. والغزالي الذي قرر هـذا الكلام للصـوفية وساعد في نشـر زنـدقتهم وكفـرهم لم يتقـدم فيمـا أعلمـه خطـوة أخـرى وجعـل من تـنزل الملائكـة على الصـوفية وذلـك فيمـا أظن وأعلم أن الرجل يعلم أن من قال بنزول الوحي عليه بعد النبي فقد كفـر ولـذلك أنكـر الغـزالي أن تكـون الملائكـة تـنزل على الأوليـاء والصوفية كما تنزل على الأنبيـاء، واكتفى بمـا ذكرنـاه عنـه آنفـاً أن الأولياءٍ والصوفية تشـرق على قلـوبهم هـذه العلـوم الـتي يقولونهـا إشراقاً من الغيب فضلاً من الله لهم ورحمة –في زعمـه- بهم. لقـد اكتفى الغزالي في تقريـره الكشـف الصـوفي بإشـراق العلـوم في القلب وسماع الصوت أيضاً كما قال: "الخلـوة لا تكـون إلا في بيت مظلم فـإن لم يكن لـه مكـان مظلم فليلـق رأسـه بجيبـه، أو يتـدثر بكساء أو إبراز ففي مثـل هـذه الحالـة يسـمع نـداء الحـق ويشـاهد جلال - الحضرة البوبية) (إحياء علوم الدين ج2 ص66).

وعلى الرغم من أن الغـزالي جـارى الصـوفية في مـزاعمهم هـذه، وقرر ما ابتدعوه من الخلوة والظلام ولف الـرأس وانتظـار العلـوم إلا أن إنكاره نزول الملـك على الصـوفي لم يعجب كبـار الصـوفية، وأهل الحقيقة منهم، ولذلك عنفوه وجهلـوه وجعلـوا هـذا منـه لقلـة الـذوق وعـدم التحقـق بنفسـه وعـدم مقابلتـه لمن هـو أعلى منـه مقاماً، وأحسن منه حالاً، وأنه لـو التقى بمن هـو أعظم منـه وأكـبر منه في هذا الطريق لعلم أن الملائكة ينزلون على أوليـاء الصـوفية تماماً كما ينزلون على الأنبياء وأنه لا فرق إلا في نوع العلـوم فقـط لا في كيفية الـنزول ولـذلك كتب عبـدالوهاب الشـعراني في كتابـه اليواقيت والجـواهر اعـتراض الغـزالي وإنكـاره لـنزول الملـك على الصوفي وأتى بالجواب من ابن عربي الذي خطأ الغزالي ورد عليـه في عدم جواز نزول الملك على الصوفي فقال:

"(فإن قلت) قد ذكر الغزالي في بعض كتبه أن من الفرق بين تنزل الوحي على قلب الأنبيـاء وتنزلـه على قلـوب الأوليـاء نـزول الملـك فإن الولي يلهم ولا ينزل عليه قط، والنبي لا بد لـه من الـوحي من نزول الملك به فهل ذلك صحيح؟

(فالجواب) كما قاله الشيخ في الباب الرابع والستين وثلاثمائة أن ذلك غلط والحق أن الكلام في الفرق بينهما إنما هو في كيفية ما ينزل به الملك لا في نزول الملك إذ الذي ينزل به الملك على الرسول أو النبي خلاف ما ينزل به الملك على الولي التابع فإن الملك لا ينزل على الولي التابع إلا بالاتباع لنبيه وبإفهام ما جاء به بما لم يتحقق له علمه كحديث قال العلماء بضعفه مثلاً فيخبره ملك الإلهام بأنه صحيح فللولي العمل به في حق نفسه بشروط يعرفها أهل الله عز وجل لا مطلقاً. وقد ينزل الملك على الولي ببشرى من الله بأنه من أهل السعادة كما قال تعالى في الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا؛ وهذا وإن كان إنما يقع عند الموت فقد يعجل الله تعالى به لمن يشاء من عباده *قال الشيخ: وسبب غلط الغزالي وغيره في منع تنزل الملك على الولي عدم الذوق وظنوا بأنهم قد علموا بسلوكهم جميع المقامات فلما ظنوا ذلك بأنفسهم ولم يروا ملك الإلهام نزل عليهم أنكروه وقالوا ذلك خاص بالأنبياء فذوقهم صحيح وحكمهم باطل مع أنهؤلاء الذين منعوا قائلون بأن زيادة الثقة مقبولة وأهل الله كلهم ثقات. قال ولو أن أبا حامد وغيره اجتمعوا في زمانهم بكامل من أهل الله وأخبرهم بتنزل الملك على الولي لقبلوا ذلك ولم ينكروه. قال وقد نزل علينا ملك الإلهام بما لا يحصى من العلوم وأخبرنا بذلك جماعات كثيرة ممن كان لا يقول بقولنا فرجعوا إلينا فيه ولله الحمد".

وهكذا يقرر ابن عربي، الفيلسوف الصوفي والذي يسمونه الشيخ الأكبر، جواز، بل وقوع نزول الملائكة على شيوخ الصوفية وأن هذا قد وقع له ومد لمشايخ كثيرين ممن هم على شاكلته من أهل الكذب والزيغ. وإليك في الفصل الآتي طائفة من كلام ابن عربي في هذا الصدد:

ابن عربي والكشف الصوفي:

لم أطلع فيما اطلعت على كاتب صوفي أكثر تبجحاً فيما زعمه من العلم الباطني أكثر من ابن عربي الأندلسي الأصل، المغربي، ثم الشامي، سكناً ووفاة.

لقد ملأ هذا الكاتب كتبه مدحاً لنفسه، وأنه لا يستطيع أحد مجاراته قط. فقد زعم لنفسه الإطلاع على كل ما سطره الفلاسفة قديماً وما كتبه اليهود والنصارى.. والمطالع لكتبه يجد هذا واضحاً جداً في مؤلفاته فقد ادعى لنفسه ختم الولاية الكبرى الخاصة وأنه خاتم

الأولياء كما كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء، وكان في هذا الكذب متبعاً لمن سبقه ممن ادعى ختم الولاية كالترمذي الذي يسمونه الحكيم وهو محمد بن علي الترمذي.. وادعى لنفسه العلم الكامل المحيط بالقرآن والسنة، وأن تآليفه كلها معصومة من الخطأ، وأنه لا يكتب شيئاً إلا عن وحي يوحى، بل زعم أن أبواب كتابه الفتوحات المكية توقيفي يتبع فيه ما يوحى إليه وليس له يد في ترتيب فصوله وأبوابه..

وأنه أحياناً يتكلم بشيء بعد شيء لا رابط بينهما كما نزل في القرآن {حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين} بعد آيات الطلاق ولا رابط بينهما.. وأن علومه كلها محفوظة من الخطأ. وإليك نصوص عباراته في ذلك كما جمعها الصوفي الكبير عبدالوهاب الشعراني من ثنايا كتاب (الفتوحات المكية) وضمنها عبدالوهاب في كتاب أسماه اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الكبائر:

"قال في الباب السادس والستين وثلاثمائة من الفتوحات المكية جميع ما أتكلم به في مجالسي وتآليفي إنما هو من حضرة القرآن العظيم فإني أعطيت مفاتيح العلم فلا أستمد قط في علم من العلوم إلا منه كل ذلك حتى لا أخرج من مجالسة الحق تعالى في مناجاته بكلامه أو بما تضمنه كلامه *وقال في الكلام على الآذان من الفتوحات: اعلم أني لم أقرر بحمد الله تعالى في كتابي هذا ولا غيره قط أمراً غير مشروع، وما خرجت عن الكتاب والسنة في شيء من تصانيفي *وقال في الباب السادس والستين وثلاثمائة: جميع ما أكتبه في تصانيفي ليس هو عن فكر ولا روية وإنما هو عن نفث في روعي من ملك الإلهام *وقال في الباب السابع والستين وثلاثمائة ليس عندي بحمد الله تقليد لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلومنا كلها محفوظة من الخطأ *وقال في الباب العاشر من الفتوحات: نحن بحمد الله لا نعتمد في جميع ما نقوله إلا على ما يلقيه الله تعالى في قلوبنا لا على ما تحتمله الألفاظ *وقال في الباب الثالث والسبعين وثلاثمائة: جميع ما كتبته وأكتبه إنما هو عن إملاء إلهي وإلقاء رباني أو نفث روحاني في روع كياني كل ذلك لي بحكم الإرث لا بحكم الاستقلال فإن النفث في الروع منحط عن رتبة وحي الكلام ووحي الإشارة والعبارة ففرق يا أخي بين وحي الكلام ووحي الإلهام تكن من العلماء الأعلام *وقال في الباب السابع والأربعين من الفتوحات: اعلم أن علومنا وعلوم

أصحابنا ليست من طريق الفكر وإنما هي من الفيض الإلهي *وقال في الباب السادس والأربعين ومائتين: منها جميع علومنا من علـوم الـذوق لا من علم بلا ذوق فـإن علـوم الـذوق لا تكـون إلا عن تجـل إلهي والعلم قد يحصل لنا بنقـل المخـبر الصـادق وبـالنظر الصـحيح *وقال في البـاب التاسـع والثمـانين منهـا والبـاب الثـامن والأربعين وثلاثمائة: اعلم أن ترتيب أبواب الفتوحات لم يكن عن اختيـار مـني ولا عن نظر فكـري وإنمـا الحـق تعـالى يملي لنـا على لسـان ملـك الإلهام جميع ما نسطره وقد نذكر كلاماً بين كلامين لا تعلق لـه بمـا قبله ولا بعده كما في قوله تعالى حـافظوا على الصـلوات والصـلاة الوسطى بين آيات طلاق ونكاح وعدة ووفـاة تتقـدمها وتتـأخر عنهـا انتهى وأطال في ذلك *وقال في الباب الثامن من الفتوحات: اعلم أن العارفين رضي الله تعالى عنهم لا يتقيدون في تصانيفهم بالكلام فيما بوبوا عليه فقط وذلك لأن قلـوبهم عاكفـة على بـاب الحضـرة الإلهية مراقبة لمـا يـبرز لهم منهـا فمهمـا بـرز لهم كلام بـادروا إلى إلقائه على حسب ما حد لهم فقد يلقـون الشـيء إلى مـا ليس في جنسه امتثالاً لأمر ربهم وهو تعـالى يعلم حكمـة ذلـك. انتهى. فهـذه النقول تدل على أن كلام الكمل لا يقبل الخطـأ من حيث هـو واللـه أعلم" (اليواقيت والجواهر ص24،25 ج2).

وفي نص آخر، يقرر الشعراني ما زعمه شيخه ابن عربي في أنه لا فـرق بين وحي الأوليـاء وحي الأنبيـاء إلا أن وحي الأنبيـاء تشـريع جديد، وأما الأولياء فإن وجهتهم كشف وعلم واتباع لمشرع الأنبياء..

"وقال في الباب الثالث والخمسين وثلاثمائة: اعلم أنه لم يجيء لنا خبر إلهي أن بعد رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم وحي تشـريع أبداً إنما لنا وحي الإلهام. قال تعـالى ولقـد أوحي إليـك وإلى الـذين من قبلك ولم يذكر أن بعده وحياً أبداً. وقد جـاء الخـبر الصـحيح في عيسى عليه السلام وكان ممن أوحي إليـه قبـل رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم أنه إذا نزل آخر الزمان لا يؤمنا إلا بنـا أي بشـريعتنا وسنتنا مع أن لـه الكشـف التـام إذا نـزل زيـادة على الإلهـام الـذي يكون له كما الخواص من هذه الأمة.

(فإن قلت) فإذن الإلهام خبر إلهي (فالجواب) نعم وهو كذلك إذ هو إخبار من الله تعالى للعبد على يد ملك مغيب عن الملهم.

(فإن قلت) فهل يكـون إلهـام بلا وسـاطة أحـد (فـالجواب) نعم قـد يلهم العبد من الوجه الخاص الذي بين كل إنسان وربه عز وجل فلا

يعلم به ملك الإلهام لكن علم هذا الوجه يتسارع إلى إنكاره ومنه إنكار موسى على الخضر عليهما الصلاة والسلام وعذر موسى في إنكاره أن الأنبياء ما تعودوا أخذ أحكام شرعهم إلا على يد ملك لا يعرف شرعاً من غير هذا الطريق فعلم أن الرسول والنبي يشهدان الملك ويريانه رؤية بصر عندما يوحي إليهما وغير الرسول يحس بأثره ولا يراه فيلهمه الله تعالى بوساطته ما شاء أن يلهمه أو يعطيه من الوجه الخاص بارتفاع الوسائط وهو أجل الإلقاء، وأشرفه إذا حصل الحفظ لصاحبه ويجتمع في هذا الرسول والولي أيضاً" أ.هـ (اليواقيت والجواهر ص84 ج2).

وقول ابن عربي هنا "أو يلهمه أو يعطيه من الوجه الخاص بارتفاع الوسائط (أي بين الولي والله) وهو أي هذا الإلقاء بهذه الطريقة أجل الإلقاء وأشرفه –إذا حصل الحفظ لصاحبه- ويجتمع في هذا الرسول والولي أيضاً.." أ.هـ.. فانظر كيف جعل الولي كالنبي في تلقي الإلقاء الخاص من الله بلا وساطة ولم يكتف ابن عربي بتقرير هذا أيضاً بل راح يزعم أن هناك صورة أخرى للوحي للأولياء وهي انطباع صورة ما يريده الله في ذهن الولي قال الشعراني:

"(فإن قلت) فما حقيقة الوحي (فالجواب) كما قال الشيخ في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات أن حقيقته هو ما تقع به الإشارة القائمة مقام العبارة في غير عبارة إذ العبارة يتوصل منها إلى المعنى المقصود منها ولهذا سميت عبارة بخلاف الإشارة التي هي الوحي فإنها ذات المشار إليه والوحي هو المفهوم الأول والإفهام الأول ولا عجب من أن يكون عين الفهم عين الإفهام عين المفهوم منه فإن لم يحصل لك يا أخي معرفة هذه النكتة فليس لك نصيب من معرفة علم الإلهام الذي يكون للأولياء. ألا ترى أن الوحي هو السرعة ولا أسرع مما ذكرناه انتهى.

(فإن قلت) فما صورة تنزل وحي الإلهام على قلوب الأولياء (فالجواب) صورته أن الحق تعالى إذا أراد أن يوحي إلى ولي من أوليائه بأمر ما تجلى إلى قلب ذلك الولي في صورة ذلك الأمر فيفهم من ذلك الولي التجلي بمجرد مشاهدته ما يريد الحق تعالى أن يعلم ذلك الولي به من تفهيم معاني كلامه أو كلام نبيه صلى الله عليه وسلم علم في الضر به باليد الإلهية، كما يليق بجلاله تعالى وكما وجد العلم في شربة اللبن ليلة الإسراء. ثم إن من الأولياء من يشعر بذلك ومنهم من لا يشعر بل يقول وجدت كذا

وكـذا في خـاطري ولا يعلم من أتـاه بـه ولكن من عرفـه فهـو أتم لحفظه حينئذ من الشيطان وأطال في ذلك في الباب الثاني عشـر وثلاثمائة* (اليواقيت والجواهر ص84 ج2).

ويعني بالقربة الإلهية حديث النبي صلى الله عليه وسلم الثابت في مسند أحمد: رأيت ربي الليلة في أحسن صورة فقال لي يا محمـد: [فيم يختصم الملأ الأعلى] فقلت: [الله أعلم] فوضع رب العزة يده على ظهـري حـتى وجـدت بردهـا في صـدري فـرأيت السـماوات فقلت: [يـا ربي في الكفـارات والـدرجات..] الحـديث. ويعـني ابن عربي بذلك أنه كما أن الرسول صلى الله عليـه وسـلم ارتفـع عنـه الحجاب عندما وضع يده سبحانه على الكيفية التي شاءها سبحانه - على ظهـر النـبي فـرأى النـبي لـذلك الملأ الأعلى وهم الملائكـة- يختصـمون أي يتناقشـون في الكفـارات والـدرجات أي مـا يكفـر الذنوب لبـني آدم، ومـا يعلي درجـاتهم فقـال اللـه سـبحانه وتعـالى مجيبـاً بعـد رؤيتـه للملائكـة وسـماعه لحـديثهم أمـا الكفـارات فهي إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطـا إلى المسـاجد، وانتظـار الصلاة بعد الصلاة.. وأما الـدرجات فهي إطعـام الطعـام وإلانـة في الكلام والصلاة بالليل والناس نيام..

أقول أراد ابن عربي أن يجعل للصوفية ما خص الله بـه الأنبيـاء من الرؤيا الصادقة في النوم والاطلاع على ما في السـماوات من الملأ الأعلى والملائكة فزعم أنـه يكـون للـولي الصـوفي كـذلك مـا كـان للنبي من كشف قناع قلبه ورؤيته للملأ الأعلى.

ولم يكتف ابن عربي بهذا أيضاً بل زعم لنفسـه وجماعتـه الصـوفية ما لم يعلمـه رسـل اللـه أنفسـهم وعلى رأسـهم سـيدهم وخـاتمهم محمد صلى اللـه عليـه وسـلم فقـد زعم أن الصـوفية أحيانـاً يـنزل عليهم الوحي مكتوباً من السماء.

وأنه أعني ابن عربي يعلم الفـرق بين مـا في اللـوح المحفـوظ من كتابه وما يكتبه المخلوقون وبذلك يستطيع أن يفـرق بين المكتـوب النازل من السماء والمكتوب في الأرض.. قلت لم يقل نبي قط ولا أخبرنا الله سبحانه وتعالي أن هناك بشراً اطلـع على مـا في اللـوح المحفوظ ولكن العجيب أن هؤلاء يزعمون العلم والإحاطـة بـه. بـل نقل الشعراني في كتابه الطبقات الكبرى عن شيخه الخـواص أنـه كان يعلم ما يكتب في اللوح المحفوظ ساعة بساعة.. وزعم أحمـد بن المبارك أن شيخه الأمي عبد العزيز الدباغ يعلم اللوح المحفوظ

ويعلم كتابته وأنـه بالسـريانية! والمهم هنـا أن ابن عـربي يقـرر في فتوحاته أن وحي الأولياء كثيراً ما يـنزل مكتوبـاً كمـا نـزلت التـوراة مكتوبة..

يقول الشعراني عن شيخه:

"وقد يكون ذلك كتابة ويقع هذا كثيراً للأوليـاء وبـه كـان يـوحى لأبي عبدالله قضيب البـان، وغـيره، كبقي بن مخلـد تلميـذ الإمـام أحمـد رضي الله عنه لكنه أضعف الجماعة في ذلك فكان لا يجـده إلا بعـد القيام من النوم مكتوباً في ورقة انتهى (فإن قلت) فما علامة كون تلك الكتابة التي في الورقة من عند الله عز وجل حتى يجوز للولي العمل بها (فالجواب) أن علامتها كما قال الشيخ في الباب الخامس عشر وثلاثمائة أن تلك الكتابـة تقـرأ من كـل ناحيـة على السـواء لا تتغير كلما قلبت الورقة انقلبت الكتابة لانقلابهـا. قـال الشـيخ: وقـد رأيت ورقة نزلت على فقير في المطاف يعتقه من النار على هــذه الصفة فلما رآها الناس علموا أنها ليست من كتابة المخلوقين فـإن وجدت تلك العلامة فتلك الورقة من الله عز وجل لكن لا يعمل بهــا إلا إن وافقت الشريعة التي بين أظهرنا.

قال: وكذلك وقع لفقيرة من تلامذتنا أنها رأت في المنـام أن الحـق تعالى أعطاها ورقة فانطبقت كفها حين اسـتيقظت فلم يقـدر أحـد على فتحها فألهمني الله تعالى أني قلت لها إنـوِ بقلبـك أنـه إذا فتح الله كفك أن تبتلعيها فنوت وقربت يدها إلى فمهـا فـدخلت الورقـة في فيها قهراً عليها فقـال الـولي بم عـرفت ذلـك فقلت ألهمت أن الله تعالى لم يرد منها أن يطلع أحد عليها وقد أطلعـني اللـه تعـالى على الفرق بين كتابة الله تعـالى في اللـوح المحفـوظ وغـيره وبين كتابة المخلوقين وهو علم عجيب رأيناه وشاهدناه انتهى (اليــواقيت والجواهر ص83،84 ج2)..

فانظر هذا الوحي الإلهي لهذه المريدة العزيزة الذي نـزل في يـدها وانطبقت عليه ثم ابتلعته.. وإن العالم النحرير والشيخ الكبير عرف بالكشف مراد الله فقـال ابتلعيهـا.. الخ.. سـبحانك يـا رب لا إلـه إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك..

ولم يكتف ابن عـربي بكـل مـا قـرره في هـذا الكشـف الشـيطاني للصوفية من أنه تنزل عليهم الملائكـة، ويشـاهدون اللـه ويسـمعون الصـوت ويـأتيهم الـوحي مكتوبـاً بـل قـرر أيضـاً أن قلـوب الأوليـاء

تنكشف عنها الحجب فيشاهدون الجنة وما فيها، والنار وما فيها تماماً كما حدث للرسول صلى الله عليه وسلم.

قال الشعراني:

"(فإن قلت) فما صورة وصول الأولياء إلى العلم بأحوال السماوات (فالجواب) يصل الأولياء إلى ذلك بانجلاء مرآة قلوبهم كما يكشفون عن أحوال أهل الجنة وأهل النار بحكم الإرث لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى الجنة والنار في صلاة الكسوف ورأى في النار عمرو بن لحي الذي سيب السوائب وصاحب المحجن، وصاحبة الهرة التي حبستها حتى ماتت. وفي بعض طرق الحديث رأيت الجنة والنار في عرض هذا الحائط انتهى والله أعلم.." أ.هـ (اليواقيت والجواهر ص88).

باختصار لم يترك ابن عربي صورة من صور الوحي الإلهي الذي يوحي به للرسل إلا أثبت مثيله ونظيره بل وأكمل منه للصوفية، وبالطبع كان لا بد للمتصوفة من أن يجيبوا عن تكفير علماء الأمة لهم ونسبتهم إلى الزندقة والمروق من الدين وذلك لادعائهم ما هو من خصوصيات الرسل رضوان الله عليهم، إذ لا فرق بين الرسول وغيره إلا الوحي، ولو كان واحد من الأمة يوحى إليه ويطلع على الغيب، ويكون وارثاً للرسول في هذا الإطلاع والتحقق لما كان للرسالة معنى، ولا للنبوة منزلة وفائدة، ما دام كل إنسان يستطيع بنفسه أن يصل إلى الله ويطلع على الغيب، وأن يعلم مراد الله على الحقيقة. ما مزية الرسول هنا وما منزلته، ما دام كل أحد إذا فعل بعض المجاهدات يكون مثله وينزل عليه الوحي ويرى الملائكة ويطلع على الملأ الأعلى، ويشاهد الله ويجلس في حضرته ويطبع الله مراده في ذهنه، ويكتب له ما شاء من الرسائل كما ادعى الحلاج أنه نزلت عليه رسائل كثيرة بخط الله، وادعى هذا ابن عربي كما مر سابقاً، لماذا يكون مسيلمة إذاً كذاباً والقرآن الذي افتراه أحسن حالاً في جوانب كثيرة من حكايات كثيرة من الصوفية التي زعموا أنهم تلقوها من الله وملائكته.. لقد كان مسيلمة أقوى حجة وأكثر تابعاً، وأعز جيشاً من كل مشايخ التصوف الكاذبين..

وإذا قال هؤلاء بأننا علمنا أن مسيلمة كاذب بتكذيب النبي له قلنا لهم وكذلك يجب أن تحكموا على كل مشايخ التصوف الذين يزعمون نزول الوحي عليهم بتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم

أيضاً لهم. إنه صلى الله عليه وسلم هو القائل لا تقوم الساعة حتى يقوم كذابون كثيرون يزعم كـل منهم أنـه نـبي.. وأن لا نـبي بعـدي وأليس كل من زعم أنه يوحى إليه قد ادعى النبـوة فكيـف إذا زعم أيضـاً أنـه يـرى اللـه؟ ويلتقي بالملائكـة ويسـمع أصـواتهم، ويلتقي بالخضر، وينزل عليه الكتب مكتوبة من السماء، ويطلـع بقلبـه على الملأ الأعلى والملأ الأسفل، أليس مسيلمة كان أقل كذباً من هـؤلاء بل وأحكم منطقاً وأعظم عقلاً؟

أقول لمـا علم ابن عـربي ومن على شـاكلته أن دعـاواهم هـذه لن تنطلي إلا على جاهل من أهل القبلة، وأن علمـاء المسـلمين لا بـد أن يكفروهم ويزندقوهم فإنـه احتـاط لـذلك وأجـاب عمـا رمـاه بـه علماء الأمـة الصـالحون، ورمـوا بـه أيضـاً من هم على شـاكلته في ادعاء العلم الغيبي والكشف الصوفي. أجـاب على ذلـك بـأنهم على شريعة خاصة، وأن علماء الشريعة يمكن أن يحملـوا كلام الصـوفية على خلاف في الـرأي كمـا هـو حـادث بين الشـافعي والحنفي أو يـنزلوا كلام المتصـوفة كأنـه كلام أهـل الكتـاب فلا يصـدقونهم ولا يكذبونهم..

قال الشعراني:

"(فإن قلت) قد رأينا في كلام بعضهم تكفير الأولياء المحـدّثين بفتح الـدال المهملـة لكـونهم يصـححون الأحـاديث الـتي قـال الحفـاظ بضعفها. (فالجواب) تكفير الناس للمحدثين المذكورين عدم إنصاف منهم لأن حكم المحـدثين حكم المجتهـدين فكمـا يحـرم على كـل واحد من المجتهدين أن يخالف ما ثبت عنده فكذلك المحدثون بفتح الدال وكلاهما أشرع بتقرير رسول الله صلى الله عليه وسلم. قـال الشيخ محيي الدين في الباب الثالث والسبعين من الجواب السـابع والخمسين: وقد وقع لنا التكفير مع علماء عصرنا لما صـححنا بعض أحـاديث قـالوا بضـعفها قـال ونحن نعـذرهم في ذلـك لأنـه مـا قـام عندهم علي صدق كل واحد من هذه الطائفة وهم مخـاطبون بغلبـة الظن ولو أنهم وفوا النظر معهم حقه لسلموا لهم حالهم كما يسلم الشـافعي للحنفي حكمـه ولا ينقض حكم من حكم بـه من الحكـام. ومما اعتذروا به قولهم لو صدقت القوم في كل ما يدعونه من نحو ذلل لدخل الخلل في الشـريعة لعـدم العصـمة فيهم فلـذلك سـددنا الباب وقلنا: إن الصادق من هؤلاء لا يضـره سـدنا هـذا البـاب، قـال الشيخ محيي الدين ونعم ما فعلوه ونحن نسلم لهم ذلـك ونصـوبهم

فيه ونحكم لهم بالأجر التام على ذلك ولكن إذا لم يقطعوا بأن ذلك الولي مخطئ في مخالفتهم فإن قطعـوا بخطئـه فلا عـذر لهم فـإن أقل الأحـوال أن يـنزلوا الأوليـاء المـذكورين منزلـة أهـل الكتـاب لا يصدقونهم ولا يكذبونهم انتهى (اليواقيت والجواهر ص90 ج2)..

وهـذا الاعتـذار والجـواب عن تكفـير أهـل السـنة لهـؤلاء في غايـة الجهالة أيضاً لأن ما أتى به المتصوفة مما يسـمونه كشـفاً ليس من الخلاف في الـرأي، ولا الخلاف الفـرعي، بـل هـو مصـادم لأحكـام الإسلام ومبادئ الإيمان.

فالتصديق أصلاً بأنهم يعلمون من طريق الوحي كفر لأنه يناقض مـا جاء به القرآن والحـديث، من أن الـوحي قاصـر على الأنبيـاء فقـط وأن لا نبوة بعد رسول الله صلى الله عليه وسـلم، وأنـه من النبـوة الرؤيا الصادقة فقط.. وأمـا سـماع صـوت الملـك وانقشـاع حجـاب القلب ونزول الأوراق المكتوبـة من السـماء كـل هـذا من خصـائص النبوة التي انتهت بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم..

ثم ما جاء بـه الصـوفية ممـا جعلـوه ونسـبوه إلى الكشـف هـو في عامته وحي إبليسـي شـيطاني لم يـترك كفـراً في الأرض إلا نسـبه إلى الدين كتبرئة إبليس من الكفر والقـول بنجـاة فرعـون ودخولـه الجنة وأن فلاناً من أهـل الجنـة ومن الصـديقين والحـال أنّ شـارب الخمر زنديق، وأن فلاناً يطلع على اللوح المحفوظ، وأن فلانـاً الـذي يأتي (الحمـارة)في الشـارع ولي للـه تعـالى، وفلانـاً القـذر الـذي لا يمس الماء ولا يتطهر من حـدث أو جنابـة ولي صـالح، وفلان الـذي يقول أنا الله وما في الجبة إلا الله وسبحانه ولي صالح.. الخ.

هذا الكفر كيف يكون هذا من جنس الخلاف بين الشافعي والحنفي في قراءة الفاتحة وراء الإمام وفي نقض الوضوء من مس المرأة.. ومثـل هـذه الفرعيـات الـتي كـان فيهـا خلاف حـول فهم النصـوص القرآنية الحديثية..

وأما قياس ابن عـربي مـا جـاء بـه المتصـوفة أيضـاً على كلام أهـل الكتاب الذين قال الرسـول فيهم لا تصـدقوهم ولا تكـذبوهم.. فإنـه قياس بعيد أيضاً لأن هذا فيما قاله أهل الكتاب مما لا يناقض عقيدة الإسلام. وإلا كيف لا نكذب أهل الكتاب في قولهم إن اللـه اسـتراح في اليـوم السـابع وإنـه تصـارع مـع يعقـوب (إسـرائيل) وصـرعه إسرائيل وإن لوطاً زنى بابنتيه وإبـراهيم قـدم زوجتـه لحـاكم مصـر

ليحصل على إبل وغنم، وإن المسيح ابن الله وغير ذلك من الخرافات والخزعبلات وصنوف الكذب على الله والأنبياء.

لا شك أن المسلم يكذب اليهود في كل ما زعموه مما هو مناقض لعقيدة الإسلام وما قرر الله سبحانه وتعالى غيره تماماً وضده في القرآن، كيف نؤمن بكلام الصوفية وكشوفاتها وهو لا يقل في عمومه خبثاً ونجاسة عما افتراه اليهود والنصارى على الله.. كيف نصدق الصوفية في كشفهم أن الخنزير والكلب هو الله، وأن المخلوق والخالق شيء واحد، وأن القائلين بخالق فوق العرش مباين للعالم جاهلون بعقيدة التوحيد.. كيف يكون الكشف الصوفي هذا الذي يزعم أصحابه أنهم أخذوه عن الله ونقلوه بحرفيته هو الحق وأنه يجب على علماء الشريعة والإسلام أن يعاملوا الصوفية كما يعاملون اليهود والنصارى في أن لا يصدقوهم ولا يكذبوهم.. أقول بل يجب تكذيبهم في كل ما افتروه على الله وعلى رسوله مما يخالف كلام الله وكلام رسوله. ومما هو كفر صراح بواح لا يشك ولا يماري فيه من له أدنى علم بالكتاب والسنة عنده بصر وبصيرة يستطيع أن يميز فيه بين كلام الله وكلام الشياطين وبين وحي الله سبحانه الذي ينزل به جبريل الأمين محفوظاً أن يناله الشياطين أو أن يدخلوا معه ما ليس منه وبين وحي إبليس اللعين الذي يلقبه هو وأولاده وأفراخه على أوليائه من هؤلاء الكذابين والأفاكين..

فيدعون لأنفسهم ما ادعوه من كل كذب وزور وفجور..

والعجيب أيضاً أن ابن عربي الذي نحن بصدد بيان افتراءاته في الكشوف والعلوم التي له كان يعلم أن هناك وحياً شيطانياً يتنزل على بعض الصوفية، وأن هناك من يحفظ منهم من تلبيس الشيطان ومنهم من لا يحفظ.

يقول عبدالوهاب الشعراني أيضاً في كتابه اليواقيت فيما ينقله عن ابن عربي:

"(فإن قلت) فمتى يحفظ الولي من التلبيس عليه فيما يأتيه من وحي الإلهام (فالجواب) يعرف ذلك بالعلامات؛ فمن كان له في ذلك علامة بينه وبين الله عرف الوحي الحق الإلهامي الملكي من الوحي الباطل الشيطاني حفظ من التلبيس ولكن أهل هذا المقام قليل.

قـال الشـيخ في البـاب الثـالث والثمـانين ومـائتين: ممـا غلـط فيـه جماعة من أهل الله عز وجل كأبي حامـد الغـزالي وابن سـيد لـون (رجل بوادي اشت) قولهم إذا ارتقى الولي عن عالم العناصـر وفتح لقلبه أبواب السماء حفظ من التلبيس قـالوا وذلـك لأنـه حينئـذ في عالم الحفظ من المردة والشياطين فكل ما يراه هنـاك حـق. قـال الشيخ محيي الدين وهذا الذي قالوه ليس بصحيح وإنمـا يصـح ذلـك أن لو كان المعراج بأجسامهم مـع أرواحهم إن صـح أن أحـداً يـرث رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المعراج وأما من عرج به بخاطريته وروحانيته بغير انفصال موت وجسده في بيته مثلاً فقد لا يحفظ من التلبيس إلا أن يكون له علامة في ذلك كمـا مـر وأطـال في ذلك ثم قـال واعلم أن الشـيطان لا يـزال مراقبـاً لقلـوب أهـل الكشـف سـواء كـان أحـدهم من أهـل العلامـات أو لم يكن لأن لـه حرصاً على الإغواء والتلبيس لعلمه بأن الله تعالى قـد يخـذل عبـده فلا يحفظه فيعيش إبليس بـالترجي ويقـول لعـل وعسـى فـإن رأى إبليس باطن العبد محفوظاً وأنوار الملائكة قـد حفت بـه انتقـل إلى جسد ذلك العبد فيظهر له في صورة الحس أمـوراً عسـى أن يأخـذ بها فإذا حفظ اللـه تعـالى قلب ذلـك العبـد ولم يـر لـه على باطنـه سبيلاً جلس تجاه قلبه فينتظر غفلة تطرأ عليه فإذا عجـز أن يوقعـه في شيء يقبله منه بلا وساطة نظر في حال ذلك الـولي فـإن رأى أن من عادته الأخذ للمعارف من الأرض أقام له أرضاً متخيلة ليأخـذ منها فإن أيد الله تعالى ذلك العبـد رده خاسـئاً لاطلاعـه حينئـذ على الفرق بين الأرضين المتخيلـة والمحسوسـة وقـد يأخـذ الكامـل من إبليس ما ألقاه إليه من الله لا من إبليس فيرده أيضاً خاسئاً وكذلك إن رأى إبليس أن حال ذلك الولي الأخذ من السماء أقام لـه سـماء متخيلة مثل السماء الـتي يأخـذ منهـا ويـدرج لـه فيهـا من السـموم القاتلة ما يقدر عليـه فيعاملـه العـارف بمـا قلنـاه في شـأن الأرض المتخيلة والأصـلية وإن رأى أن حـال ذلـك الـولي الأخـذ من سـدرة المنتهى أو من ملك من الملائكة خيل له سدرة مثلها أو صورة ملك مثل ذلك الملك وتسمى لـه باسـمه وألقى إليـه مـا عـرف أن ذلـك الملك يلقيه إليه من ذلك المقام فإن كـان ذلـك الشـخص من أهـل التلبيس فقد ظفر به عدوه وإن كان محفوظاً حفظ منه فيطرد عنه إبليس ويرمي ما جاء به أو يأخذ ذلـك عن اللـه تعـالى لا عن إبليس كما مر ويشكر اللـه تعـالى على ذلـك وإن رأى الشـيطان أن حـال ذلك الولي الأخذ من العرش أو من العماء أو الأسـماء الإلهيـة ألقى

إليه الشيطان بحسب حاله ميزاناً بمـيزان وأطـال الشـيخ في ذلـك في الباب الثالث والثمانين ومـائتين" أ.هـ (اليـواقيت والجـواهر ص 87 ج2).

والعجيب من الغزالي أيضاً كيف ظن أن ما يزعم الصوفي نقله من السماوات لا يكون فيه شيء شيطاني لأن اللـه حفـظ السـماء من الشياطين، وكأنه قد غاب عنه أن الصوفي الذي يزعم الوصول إلى السماوات هو جالس هنا في الأرض تستهويه الشياطين وتحـف بـه من كل جانب.

ولم أر ابن عربي صدق في هذا الصدد إلا فيما نقلناه عنـه آنفـاً من بيـان تلـبيس الشـياطين على الصـوفية في تصـويره لهم سـماء متخيلة، أو سدرة المنتهى أو الملائكة.. الخ. حتى يظن الصوفي أنـه قد رأى ذلك فعلاً وأنه ينقل علمـه من هنـاك والحـال أنـه ينقـل عن الشياطين الذين يزخرفون له ذلك ويحيلون له ما يشاهده مما ليس هنالك هو تماماً ما وقع لهؤلاء الصوفية ومنهم بل أولهم في ذلك هو ابن عربي هذا الذي لم يترك كفـراً في الأرض إلا سـطره في كتبـه وبخاصـة كتابـه الفصـوص (فصـوص الحكم) وكتابـه (الفتوحـات المكية).

لقد عرف ابن عربي حقاً الطريق الذي اسـتقى منـه هـو والصـوفية وأنه الشياطين الذي يخيلون لهم هذه الخيالات ويوحون إليهم بهـذه الكلمات.

وسيجد القارئ في ثنايا هذا الكتاب نقولاً مستفيضـة عن ابن عـربي تبين ما هي حقيقة كشوفاته ووحيه الذي أوحي به إليه ولكـني أحب أن أختم هذا الفصل في بيان موقف ابن عربي من الكشف بحقيقة موقفـه من إبليس لنـبين للقـارئ بمـا لا يـدع مجـالاً للشـك أي دين يـدين بـه هـؤلاء وأي علم يزعمـون الوصـول إليـه وأي كشـف اكتشفوه..

فمن المعلوم يقيناً عند كل مسلم أن إبليس هـو رأس الشـر والبلاء وأنـه عـدو لآدم وذريتـه منـذ امتنـع عن السـجود لآدم وطـرده اللـه بسبب ذلك من رحمته وجعل الله عليه اللعنة إلى يوم يبعثـون وأنـه يكون في الآخرة في جهنم كما قال تعالى:

{وقـال الشـيطان لمـا قضـي الأمـر إن اللـه وعـدكم وعـد الحـق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سـلطان إلا أن دعـوتكم

فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم} (إبراهيم:22).

والشيطان في هذه الآية هو إبليس بإجماع المفسرين وكذلك قوله تعالى: {فكبكبوا فيها هم والغاوون* وجنود إبليس أجمعون* قالوا وهم فيها يختصمون* تالله إن كنا لفي ضلال مبين* إذ نسويكم برب العالمين* وما أضلنا إلا المجرمون* فما لنا من شافعين* ولا صديق حميم} (الشعراء:94-101).

ولا شك أن جنود إبليس يستحيل أن يدخلوا النار ولا يدخل هو معهم إذ كيف يدخل الجنود ويبقى رأس الجند من الناجين. ولعل قائلاً يقول ولماذا هذا التطويل في بيان أن إبليس من أهل الجحيم. إن هذا أمر بديهي معلوم عند جميع أبناء الإسلام وأقول: إن هذا الأمر البديهي المعلوم من الدين بالضرورة التي يعتبر جاحداً وناكراً وكافراً مرتداً من نفاه هو ما أثبت ابن عربي تبعاً في زعمه لسهل بن عبدالله التستري ضده، وهو أن إبليس من الناجين وأنه لن يدخل النار أبداً وأنه أعني إبليس التقى في زعم ابن عربي بسهل بن عبدالله التستري الصوفي كان من كبار مشايخهم في القرن الثالث فناقشه في هذه المسألة وبين له أنه من الناجين، وأنه لن يدخل النار وأن الله سبحانه وتعالى سيغير ما أثبته في القرآن لأن الله لا يجب عليه شيء وما دام أنه لا يجب عليه شيء ولا يقيده قيد، فإنه قد قضى بنجاة إبليس يوم القيامة، وتبرئته من جميع التهم المنسوبة إليه والعفو التام عنه..

..انظروا يا مسلمين هذا الكشف الصوفي ما أعظمه وأطرفه بل ما أفجره وأكفره.. إن ما أتعب النبي محمداً صلى الله عليه وسلم فيه نفسه طيلة ثلاثة وعشرين عاماً من بيان قصة إبليس وآدم، ومن لعن إبليس دائماً، واستفتاح صلاته بالاستعاذة منه، وقوله صلى الله عليه وسلم له عندما خنقه [ألعنك بلعنة الله.. ألعنك بلعنة الله.. ألعنك بلعنة الله..] وذلك عندما جاء إبليس اللعين هذا بشهاب من نار ووضعه في وجه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يصلي..

هذا الذي أتعب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ومن بعده سائر الصحابة والمسلمين؛.. جاء ابن عربي اليوم ليبين لنا عن شيخه المزعوم التستري أنه كان خطأً في خطأ، وأنه يوم القيامة

يكـون في الجنـة مـع من أنعم اللـه عليهم من النبـيين والصـديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.. وأن هذا هو معتقد أهـل السنة والجماعة..

ويعني ابن عربي بذلك الأشاعرة لأنهم يقولـون (لا يجب على اللـه شيء) وما دام لا يجب عليه شيء فيجوز أن يدخل إبليس الجنة..

وهذا الجائز العقلي عن الأشاعرة جعله ابن عربي ممكناً وواقعاً لأن شيخه القشيري التقى بـإبليس وناقشـه في هـذه المسـألة وتحقـق منـه أنـه سـيكون يـوم القيامـة من الفـائزين الفـالحين.. وهـذا نص الحكايــة المزعومــة وتعقيب ابن عــربي عليهــا بنصــها من كتــاب اليواقيت والجواهر..

"وذكر الشيخ محيي الدين في الباب الثالث والتسعين ومائتين أيضاً ما يؤيد اعتقـاد أهـل السـنة والجماعـة من أن الحـق تعـالى لا يجب عليه شيء وهو أن سهل بن عبدالله التستري رضي اللـه عنـه قـال لقيت إبليس مرة فعرفته وعرف مني أنني عرفته فوقع بيني وبينــه مناظرة فقال لي وقلت له وعلا بيننا الكلام وطال النزاع بحيث إنــه وقف ووقفت حائراً وحرت فكان آخر ما قـال لي يـا سـهل إن اللـه تعالى قال ورحمـتي وسـعت كـل شـيء نعم ولا يخفى عليـك أنـني شيء ولفظة كل تقتضي الإحاطة والعموم إلا ما خص وشـيء أنكـر النكرات فقد وسعتني رحمته أنا وجميع العصاة فبأي دليـل تقولـون إن رحمة اللـه لا تنالنـا. قـال سـهل فواللـه لقـد أخرسـني وحـيرني بلطافة سياقه وظفره بمثل هذه الآية وفهمه منها ما لم أكن أفهمه وعلمه من دلالتها مـا لم أكن أعلمـه فبقيت حـائراً متفكـراً وأخـذت أردد الآية في نفسي فلمـا جئت إلى قولـه تعـالى فسـأكتبها للـذين يتقون ويؤتون الزكاة إلى آخر النسق فسـررت بهـا وظننت أني قـد ظفرت بحجة وظهرت عليـه بمـا يقصـم ظهـره فقلت لـه: تعـال يـا ملعون، إن الله تعالى قد قيدها بنعوت مخصوصة تخرجك عن ذلــك العموم فقال سأكتبها للذين يتقون إلى آخر النسـق. فتبسـم إبليس وقال: يا سهل، التقييد صفتك لا صفته تعالى. ثم قال: يـا سـهل مـا كنت أظن أن يبلغ بـك الجهـل باللـه مـا رأيت ومـا ظننت أنـك ههنـا ليتك سكت، قال سهل فرجعت إلى نفسي وغصصت بريقي وأقــام الماء في حلقي وما وجدت له جواباً ولا سـددت وجهـه بابـاً وعلمت أنه طمع في مطمع وانصرف وانصرفت ووالله ما أدري بعد هذا مـا يكون فإن الله تعـالى مـا نص بمـا يرفـع هـذا الإشـكال فبقي الأمـر

عندي على المشيئة منه في خلقه لا أحكم عليه بذلك إلا بما حكم به على نفسه من حيث وجود الإيمان به. انتهى كلام سهل. قال الشيخ محيي الدين: وكنت قديماً أقول ما رأيت أقصر حجة من إبليس ولا أجهل منه فلما وقفت له على هذه المسألة التي حكاها عنه سهل رضي الله عنه تعجبت وعلمت أن إبليس قد علم علماً لا جهل فيه فله رتبة الإفادة لسهل في هذه المسألة. انتهى فقد بان لك أن الله تعالى خلق العالم كله من غير حاجة إليه لا موجب أوجب ذلك عليه" أ.هـ (اليواقيت والجواهر ص60 ج1).

وأظن الآن أنه قد وضح للقارئ تماماً ما هو الكشف الصوفي، وأنه عملية هدم منتظمة للدين الحنيف الذي جاء به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، فما دام إبليس من الناجين فليس هناك شيء ثابت في هذا الدين.

ولا عجب فيما رووا عن إبليس، فإن أستاذهم الحلاج وأحد كبرائهم قال في إبليس ما لم يقله أحد منهم في جبريل؛ إذ جعله سيد الملائكة أجمعين ذلك لأنه أبى أن يسجد إلا لله.. لأن عبادته لله خاصة فقط وذلك كان أعظم الموحدين. وإليك هذه النماذج من الكشف الصوفي اللعين.

1- ملك ينزل إلى الأرض على شكل خواجة:

كتب أحمد بن مبارك السلجماسي المغربي كتاباً سماه (الإبريز) زعم أنه ينقل ما فيه عن شيخه عبدالعزيز الدباغ المغربي أيضاً، وهذا الشيخ أمي جاهل لم يكن يحفظ حزباً واحداً من القرآن بشهادة تلميذه أحمد بن مبارك، ولكنه مع ذلك كان يستطيع التفريق بين القرآن والحديث بمجرد السماع، بل كان يستطيع أيضاً أن يفرق بين القرآن والحديث النبوي والحديث القدسي وكل ذلك بالكشف من غير علم ولا تعليم، وليس كذلك فقط بل كان يستطيع أيضاً أن يفرق ويعلم صحيح الحديث من موضوعه وضعيفه فإذا ألقي إليه الحديث علم هل قاله الرسول أو لا ويقول أحمد بن مبارك اختبرته في ذلك فكنت ألقي عليه الحديث من الجامع الصغير للسيوطي فما قال فيه السيوطي صحيح كان يقول الشيخ عنه صحيح وما قال فيه موضوع يقول موضوع دون أن يتلقى هذا بالعلم وإنما بالكشف فقط بل كان يعرف إن كان الحديث في البخاري أو مسلم أو فيهما أو انفرد فيه أحدهما.. الخ.. ولم يكن هذا هو كل علم عبدالعزيز الدباغ بل كان يعرف معاني القرآن كلها

وتفسيره الباطني وعلم الحروف المقطعة في القرآن. بل وكان يعلم جميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء ويعلم تفاسيرها ومعانيها. ولم يكن هذا فقط هو علم الدباغ أستاذ أحمد بن مبارك المزعوم بل كان يعلم ما في اللوح المحفوظ كله من المقادير. بل كان كل هذا الذي لا يحفظ حزباً من القرآن بشهادة تلميذه لا تغيب عنه ذرة في الأرض ولا في السماء، وأنه هو الغوث الأكبر المتحكم في العالم العلوي والسفلي والوارث للحقيقة المحمدية.

والحقيقة المحمدية في الفكر الصوفي هو الله المستوي على العرش كما قال ابن عربي: "الحقيقة المحمدية هي الموصوفة بالاستواء على العرش" (أهل التصرف في الفكر الصوفي هم أهل الديوان الذين يتحكمون في المقادير وهو الغوث والأقطاب الأربعة)، المهم أن أحمد بن مبارك يزعم فيما يزعم أن شيخه الأكبر وهو رئيس الديوان الصوفي وأنه استفاد منه علوماً جمة من بعضها كتابه الإبريز.

وسيجد القارئ جانباً كبيراً من هذه العلوم في الفصل الخاص بالديوان الصوفي لأن الدباغ هذا وصف ما سماه بالديوان الصوفي وصفاً عجيباً.. والمهم هنا أن ننقل بعض كشوفات الدباغ..

قال أحمد بن مبارك: "وسمعته رضي الله عنه يقول:

إن في كل مدينة من المدن عدداً كبيراً من الملائكة مثل السبعين ملكاً أو أقل أو أكثر يكونون عوناً لأهل التصوف من الأولياء فيما لا تطيقه ذات الولي؛ قال رضي الله عنه وهؤلاء الملائكة الذين يكونون موجودين في المدن يكونون على هيئة بني آدم فمنهم من يلقاك في صورة خواجة، ومنهم من يلقاك في صورة فقير(أي صوفي أو شحاذ)، ومنهم من يلقاك في صورة طفل صغير وهم منغمسون في الناس ولكنهم لا يشعرون" أ.هـ (الإبريز ص 164،165).

فانظر هذا الكشف العجيب؛ الملائكة تنزل إلى الأرض تأتمر بأمر الصوفية وهو على أشكال الخواجات والشحاذين والأطفال..

فإذا رأيت خواجة فلا تزعجه في الطريق ولا تنظر إليه شذراً فربما كان ملكاً من ملائكة الله نزل لتنفيذ أوامر مشايخ الصوفية..

2- تاريخ بناء الأهرام عن طريق الكشف:

الكشف الصوفي لم يترك شيئاً إلا حاول الدخول فيه وإليه؛ من ذلك تاريخ بناء الأهرام التي بناها خوفو الفرعون قبل ميلاد المسيح عليه السلام بنحو أربعة آلاف سنة ولكن بالكشف الصوفي يقول ابن عربي: "بلغنا أنه وجد مكتوباً بالقلم الأول على الأهرام أنها بنيت والنسر الطائر في الأسد، وهو الآن في الجدي"..

قال عبدالوهاب الشعراني تعليقاً على كلام ابن عربي "ومعلوم أن النسر الطائر لا ينتقل من برج إلى غيره إلا بعد مضي ثلاثين ألف سنة قال الشيخ عبدالكريم الجيلي، وهو اليوم في الدلو فقد قطع نحو عشرة أبراج ولا يتأتى ذلك إلا بعد ثلاثمائة ألف سنة" أ.هـ (الكبريت الأحمر على هامش اليواقيت والجواهر ص9).

وعلى الكشف الصوفي هذا يصبح عمر الأهرام حسب تخريفاتهم أكثر من 295 مائتين وخمسة وتسعين ألف سنة فقط من عمرها الحقيقي.

3- الدباغ يكتشف نبياً جديداً اسمه هويد..

قال أحمد بن مبارك في كتابه الإبريز:

"ومما قاله رضي الله عنه في نسب هود محصلة كشف وعيان فإنه أمي لا يعرف تاريخاً، ولا غيره فلا ينبغي لأحد أن يعارضه بما قال أهل التاريخ في نسب هود لأنه مبني على خبر الواحد، ومع ذلك فقد اضطرب في خبر الواحد في نسب هو فقيل نسبه هود بن عبدالله بن رباح بن الجارود بن عماد بن عوض بن آدم بن سام بن نوح، وقيل هو هود بن شارخ بدار فخشذ بن سام بن نوح عليه السلام فهو على هذا ابن عم أبي عماد دائماً جعل من عاد وإن لم يكن منهم لأنهم أفهم لقوله وأعرف لحاله وأرغب في اقتفائه.. قال رضي الله عنه: وأما عاداً الأولى فكانوا قبل نوح عليه السلام وأرسل الله لهم نبياً يسمى (هويد) وهو رسول مستقل بشرعه بخلاف هود الذي أرسل إلى عاد الثانية فإنه مجدد لشرع من قبله من المرسلين. قال: وكل رسول مستقل فلا بد أن يكون له كتاب. قال: ولسيدنا (هويد) المذكور كتاب وأنا أحفظه كما أحفظ جميع كتب المرسلين. فقلت له وتعدها. قال أحفظها ولا أعدها اسمعوا مني. ثم جعل يعدها كتاباً كتاباً، قال: (أي الدباغ) ولا يكون الولي ولياً حتى يؤمن بجميع هذه الكتب تفصيلاً ولا يكفيه الإجمال فقلت

هذا لسائر الأولياء المفتوح عليهم فقال: بل لواحد فقط وهو الغوث فاستفدت منه في ذلك الوقت أنه رضي الله عنه هو الغوث وعلومه دالة على ذلك فإني لو قيدت جميع ما سمعت منه لملأت أسفاراً، وكم من مرة يقول جميع كلامي معكم على قدر ما تطيقه العقول" أ.هـ (الإبريز ص103-104).

وليس هناك من تعليق على مثل هذا الهراء إلا أن يقول المسلم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك..

وانظر بعد ذلك تتمة هذه الفتوح الدباغية كيف أنه اكتشف أيضاً بطريقة الكشف أن بين نوح وآدم سبعين رسولاً لم يقص الله تعالى في القرآن شيئاً من قصصهم ولكن عبدالعزيز الدباغ عرفهم بطريق الكشف..

قال أحمد بن مبارك تلميذ الدباغ: (وسمعته) رضي الله عنه يقول كان قبل نوح سبعمائة رسول من الأنبياء وفي قصصهم من العجائب الكثيرة وإنما لم يقصص علينا في كتابه العزيز منها شيئاً لعدم اشتهار أهلها في أزمنة الوحي فقلت فما معنى قوله في حديث الشفاعة في صفة نوح وأنه أول الرسل فقال رضي الله عنه المراد أنه أول الرسل إلى قوم كافرين ومن قبله من المرسلين أرسلوا إلى قوم عقيدتهم صحيحة فقلت فلم عوقب قوم هويد بالحجارة والنار إذا كانوا مؤمنين فقال رضي الله عنه كانت عادته تعالى مع القوم الذين قبل نوح أن يهلكهم على ترك أكثر القواعد وإن كانوا على العقائد" أ.هـ (الإبريز ص104).

فانظر كيف اكتشف الدباغ سبعين رسولاً قبل نوح وكيف أن الله أهلكهم ليس على الشرك والكفر ومعاندة الرسل بل على المعاصي فقط..

4- الأولياء أكثرهم أميون.

الدباغ يفضل نفسه على إبراهيم الدسوقي:

ولا عجب بعد ذلك إذا علمنا أن أهل هذه الكشوف المزعومة في غالبهم أميون كعبدالعزيز الدباغ الذي روى عنه أو افترى عليه أحمد بن مبارك كان رجلاً أمياً، وشيخ عبدالوهاب الشعراني وهو الخواص كان أمياً كذلك واسمع ما يقول أحمد بن مبارك عن شيخه الأمي الدباغ.

"وسمعته رضي الله عنه يقول مرة أخرى السماوات والأرضون بالنسبة إلى كالموزونة (الموزونة: عملة مغربية) في فلاة من الأرض يصدر هذا الكلام منه رضي الله عنه وما أشبهه إذا شهدنا منه زيادة بل هو في زيادة دائماً رضي الله عنه وقد كنت معه ذات يوم خارج باب الفتوح فجعل يذكر لي أكابر الصالحين مع كونه أمياً فقلت فمن أين تعرفهم فقال رضي الله عنه أهل الفتح الكبير مسكن أرواحهم قبة البرزخ فمن رأيناه فيها علمنا أنه من الأكابر ثم جرى بيننا ذكر الشيخ سيدي إبراهيم الدسوقي فقلت هو من الأكابر فجعلت أذكر مناقبه والغرائب التي نقلت من كراماته فقال رضي الله عنه لو عاش سيدي إبراهيم الدسوقي من زمنه إلى زماننا ما أدرك من المقامات ولا ترقى مثل ما ترقى أخوك عبدالعزيز يعني نفسه من أمس إلى اليوم والله ما قاله أخوك افتخاراً وإنما قاله تعريفاً وتحدثاً معكم بالنعمة" أ.هـ (الإبريز ص 168)..

ونسأل ما فيه البرزخ هذه التي تجتمع فيها أرواح الصوفية..

ولماذا لا يختار الله لولايته -في زعمهم- إلا أميين علماً بأنه سبحانه وتعالى فضل أهل العلم والعلماء وما كان اختياره للرسول محمد صلى الله عليه وسلم أمياً إلا ليقيم به الحجة على عباده وحتى لا يتهم بأنه أتى بالقرآن من عند نفسه كما قال تعالى: {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون} (العنكبوت:48).

وأما بعد النبي صلى الله عليه وسلم فقد فضل الله علماء هذه الأمة على أهل الجهالة منها، وجعل تعلم العلم بالكتابة والقراءة والسماع والأسباب الأخرى البشرية المؤدية لذلك.. وليس بطريقة الغيب لأن هذا الطريق خاص بالأنبياء رضوان الله عليهم وما سوى النبي الصادق فمتنبئ كاذب وهذا هو حال هؤلاء المساكين الذين استحوذ عليهم الشيطان فراحوا يهيمون في أودية الضلال على هذا النحو المهين.

5- الدباغ يكتشف سر ليلة القدر:

ولم يكتف الدباغ بكشوفاته في الأرض فراح يكتشف السماء أيضاً وأتى لنا بهذه الحكاية العجيبة عن سرّ ليلة القدر.

قال تلميذه أحمد بن مبارك..

"ثم ذكر لنا رضي الله عنه سبب ليلة القدر فقال إن العالم قبل خلق النور في حرم الشمس كان مظلماً والملائكة عامرون له أرضاً وسماء وفي الكهوف والسهول والجبال والأودية فلما خلق الله تعالى النور في الشمس وأضاء العالم بها أصبحت ملائكة السماء وملائكة الأرض وخافوا من خراب العالم ومن أمر عظيم ينزل بهم فنزل ملائكة السماء إلى الأرض وجعل ملائكة الأرض يفرون من الضوء إلى الظل أي من ضوء النهار إلى ظل الليل فراراً من الضوء الذي لم يعرفوه إلى الظل الذي يعرفونه خائفين متضرعين مجتمعين على الابتهال إلى الله تعالى والتضرع له والخوف منه يطلبون منه الرضا ويلجأون إليه في أن لا يسخط عليهم ولم يكن في ظنهم ألا أنه تعالى أراد أن يطوي هذا العالم فاجتمعوا على التضرع والابتهال على الصفة السابقة مقدرين في كل لحظة وقوع ما خافوه.

فإذا زاد إليهم الضوء فروا عنه إلى الظل ولم يزالوا على تلك الحالة والضوء ينسخ الظل وهم يفرون إلى أن طافوا الأرض كلها ورجعوا إلى الموضع الذي بدأوا منه فلما لم يروا شيئاً وقع حصل لهم الأمن ورجعوا إلى مراكزهم يجتمعون من كل عام فهذا هو سبب ليلة القدر" أ.هـ (الإبريز ص165).

فهل علمتم ما سر ليلة القدر يا مسلمون..

6- طبال ومغفل من أهل الكشف.

وبعض الناس قد يظنون أن هذا الكشف لا يأتي إلا لأناس عقلاء من أهل التقوى والاتزان ولكن الصوفية يقررون غير ذلك فهذا أحمد بن مبارك يحكي عن شيخه الدباغ بأن الفتح جاء إلى رجل وهو طبال، يقول:

"وأعرف رجلاً بالرملة من أرض الشام فتح الله عليه وهو بحالة يتضاحك الناس عليه، كحالة الرجل المشهور بمدينة فاس (بمعيزو) (مدينة في المغرب)، فبقي على حاله بعد الفتح ولم ينتقل عنها. قلت: وكانت حالة المتقدم أن الصبيان وغيرهم من ضعفة العقول يتبعونه طول النهار يضحكون عليه، وقال (رضي الله عنه) وأعرف رجلاً آخر فتح الله عليه وكان قبل ذلك طبالاً فبقي على حالته قبل الفتح ولم ينتقل عنها" أ.هـ (الإبريز ص198). أي ظل طبالاً كما هو وظل الفتح الصوفي ينزل عليه ولا عجب عند الصوفية في ذلك

فالولاية عندهم ليست مسألة كسبية ينالها المسلم بتقوى الله ومخافته ومحبته والسعي إلى مرضاته. بل هي مسألة يقولون – وهبية- تنال الشخص هبة له من الله وإن لم يكن هناك من الأسباب والدواعي ما يستند عليها ففضل الله عندهم وحسب زعمهم لا حرج عليه فقد يصيب الطبالين أو الزمارين، وقد يكون الولي سكيراً أو زنديقاً، أو طفلاً صغيراً، أو مجذوباً شاهد الأنوار العلوية فضاع عقله أو متخلفاً عقلياً يتضاحك الصبيان منه ولكنه يكون ولياً ربانياً ويحدث الناس بأمور الغيب، ويشاهد ويطالع الحضرة الإلهية والرسولية، والخضرية (نسبة إلى الخضر) وهكذا قلبوا كل موازين العلم، وكل قوانين الشريعة، فالولاية لا شك أنها منحة إلهية وتفضيل وفضل رباني ولكنها لا تنال إلا محلها ممن كان عنده الاستعداد لذلك ومن سعى لنيل درجات القرب من الله سبحانه وتعالى كما جاء في حديث البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه:

[من عادى لي ولياً فقد آذنته بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بشيء إلي أحب مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه]، فجعل الله للولاية طريقاً وهو أداء الفرائض أولاً ثم الإكثار من النوافل حتى يصل المسلم إلى مرحلة القرب من الله سبحانه وتعالى، فيحمي الله سمعه وبصره ويده ورجله، ويجعل ذلك كله في طاعته ومحبته ومرضاته.

ولكن الولاية والفتح والكشف الصوفي بغير ذلك ينال كل هؤلاء..

7- الوحي الصوفي لا ينزل إذا كان أحد المنكرين حاضراً:

ومما يدلك يقيناً على أن هذا الكشف الصوفي ما هو إلا إلقاء شيطاني هذه الحكاية التي يرويها أحمد بن مبارك أيضاً عن شيخه الدباغ وأنه كان إذا حضر رجل من أهل التوحيد والإيمان الصحيح ممن لا يؤمن بهذه الخرافات كان وحي الشيخ ينقطع ويعود جاهلاً كما كان لا يتكلم الكلمة.

"(قال رضي الله عنه) وما مثلت الولي مع القاصدين إلا كحجر بني إسرائيل. فإذا كان بين يدي أولياء الله تعالى انفجرت منه اثنتا

عشر عيناً وإذا كان بين أعدائه تعالى لا تخرج منه ولا قطرة واحدةٍ (قلت) وقد شاهدت هذا المعنى في الشيخ رضي الله عنه مراراً فإذا حضر بين يديه بعض من لا يعتقده لا تخرج منه ولا فائدة واحدة ولا يقدر على التكلم بشيء من العلوم اللدنية والمعارف الربانية حتى يقوم ذلك الشخص ويوصينا ويقول إذا حضر مثل هذا الرجل فلا تسألوني عن شيء حتى يقوم وكنا قبل الوصية جاهلين بهذا الأمر فنسأل الشيخ ونريد أن نستخرج منه النفائس والأسرار الربانية كي يسمعها الرجل الحاضر فيتوب فإذا سألناه رضي الله عنه حينئذ وجدناه كأنه رجل آخر لا نعرفه ولا يعرفنا فكأن العلوم التي تبدو منه لم تكن له على بال أبداً حتى ذكرنا له السبب ففهمنا السر والحمد لله رب العالمين" أ.هـ (الإبريز ص169).

وليس ذلك بالطبع إلا لأن الشيطان يهرب إذا رأى من يؤمن بالله حقاً، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر: [والله ما رآك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك]. وهؤلاء الصوفية لا يأتيهم في مكانهم موحد إلا انتهت أحوالهم واضمحلت أنوارهم المزعومة وانفض سامرهم الشيطاني.

8- تقديم مذهب أبي حنيفة على سائر مذاهب الفقهاء بطريق الكشف:

ولعل من أطرف ما تدخل فيه الكشف الصوفي أيضاً تفضيل مذهب فقهي على مذهب آخر كما فعل أحمد الفاروقي السرهندي النقشبندي الحنفي، كما في النص الآتي الذي يفسر فيه أيضاً قول محمد بارسا أن المسيح عليه السلام إذا نزل يحكم بالمذهب الحنفي يقول:

"ومثل أرواح الله (يعني المسيح عليه السلام) مثل الإمام الأعظم الكوفي (أبو حنيفة رحمه الله) فإنه ببركة الورع والتقوى وبدولة متابعة السنة نال في الاجتهاد والاستنباط درجة عليا بحيث يعجز الآخرون عن فهمه ويزعمون مجتهداته بوساطة دقة المعاني مخالفة للكتاب والسنة ويسمون أصحابه أصحاب الرأي كل ذلك لعدم الوصول إلى حقيقة علمه ودرايته وعدم الإطلاع على فهمه وفراسته إلا أن الإمام الشافعي وجد نبذة من دقة فقاهته عليهما الرضوان حيث قال الناس كلهم عيال في الفقه لأبي حنيفة فويل لقاصري النظر على جراءتهم حيث ينسبون قصورهم إلى الغير

(المنتخبات من المكتوبات لأحمد الفاروقي طبع استانبول ص 149،150):

لو عابهم قاصر طعناً بهم صفها برأت ساحتهم عن أفحش الكلم

هل يقطع الثعلب المحتال سلسلة قيدت بها أسد الدنيا بأسرها

ويمكن أن يكون ما قاله الخواجة محمد بارسا قدس عمره في الفصول الستة من أن عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام يعمل بعد النزول بمذهب الإمام أبي حنيفة بوساطة هذه المناسبة التي له رضي الله عنه بحضرة روح الله عليه السلام يعني أن اجتهاد روح الله يكون موافقاً لاجتهاد الإمام الأعظم لا أنه يقلد مذهبه فإن شأنه عليه السلام أعلى وأجل من أن يقلد علماء الأمة. ونقول من غير شائبة تكلف وتعصب: إن نورانية المذهب الحنفي ترى وتظهر في النظر الكشفي كالبحر العظيم وسائر المذاهب تظهر مثل الحياض والجداول" أ.هـ منه بلفظه (الإبريز ص150).

الفصل العاشر

المعراج الصوفي

كثيرون من رجال التصوف ادعوا أنهم قد عرج بهم إلى السماوات العلى. فمنهم عبدالكريم الجيلي وقد ذكرنا بعضاً مما زعم مشاهدته في السماوات وذلك في باب الكشف الصوفي وقد سبق الجيلي من زعم مثل هذا، ويبدو أن أول من افترى ذلك هو أبو يزيد البسطامي الذي جعل لنفسه معراجاً كمعراج الرسول صلى الله عليه وسلم وراح يحدثنا كيف أنه عرج بروحه إلى السماوات سماءً سماءً وأن بغيته كانت في الفناء في الله، أو على حد قوله البقاء مع الله إلى الأبد.

وهذه هي الفكرة البرهمية الوثنية نفسها في الفناء في الذات الإلهية حسب زعمهم.

ولكن البسطامي أول من افتري له أو عليه ذلك. يدعي أنه عرج به إلى السماء السابعة فالكرسي، فالعرش، وأن الله قال له: إلي إلي، وأجلسه على بساط قدسه وقال له: (يا صفي ادن مني

واشرف على مشارف بهائي، وميادين ضـيائي واجلس على بسـاط قدسـي.. الخ)، وهـذا هـو نص المعـراج الكـاذب المنسـوب إلى أبي يزيد البسطامي.

"في رؤيا أبي يزيد: في القصد إلى الله تعالى وبيان قصته:

قال أبو القاسم العارف، رضي الله عنه: اعلموا معاشـر القاصـدين إلى الله سبحانه وتعالى أن لأبي يزيـد حـالات ومقامـات لا تحتملهـا قلوب أهل الغفلة وعامة الناس، وله مع الله أسرار لو اطلـع عليهـا أهل الغرة لبهتوا فيها، وإني نظرت في كتاب فيه مناقب أبي يزيـد، فإذا فيه أشياء من حالاته وأوقاته وكلامه، ما كلت الألسن عن نعتـه وصفته، فكل من أراد أن يعرف كمالـه ومنزلتـه فلينظـر إلى نومـه ورؤياه التي هي أصح في المعنى، وأقـرب في التحقيـق من يقظـة غيره، فهذا ما حكى أن خادم أبي يزيد رضي الله عنه قال: سـمعت أبا يزيد البسطامي رضي الله عنه يقول: إني رأيت في المنام كأني عرجت إلى السماوات قاصداً إلى الله، طالباً مواصلة اللـه سـبحانه وتعالى، على أن أقيم معه إلى الأبد، فامتحنت بامتحان لا تقـوم لـه السماوات والأرض ومن فيهما، لأنه بسط لي بسـاط العطايـا نوعـاً بعد نوع، وعرض علي ملك كل سماء، ففي ذلك كنت أغض بصـري عنها، لما علمت أنه بها يجربني، فكنت لا ألتفت إليهـا إجلالاً لحرمـة ربي، وكنت أقول في ذلك: يا عزيزي مرادي غـير مـا تعـرض علي، قال فقلت له: رحمك الله صف لي مما عرض عليـك من ملـك كـل سـماء قـال: رأيت في المنـام كـأني عـرجت إلى السـماوات، فلمـا أتيت إلى السـماء الـدنيا فـإذا أنـا بطـير أخضـر، فنشـر جناحـاً من أجنحته، فحملني عليه وطار بي حتى انتهى بي انتهائي إلى صـفوف الملائكة، وهم قيام متحرقة أقدامهم في النجوم يسبحون الله بكرة وعشياً، فسلمت عليهم، فردوا علي السلام، فوضـعني الطـير بينهم ثم مضـى فلم أزل أسـبح اللـه تعـالى بينهم، وأحمـد اللـه تعـالى بلسانهم وهم يقولون: هذا آدمي لا نـوري إذ لجـأ إلينـا وتكلم معنـا، قال: فألهمت كلمات، وقلت: باسم القادر على أن يغنيني عنكم، ثم لم يزل يعرض علي من الملـك مـا كلت الألسـن من نعتـه وصـفته، فعلمت أن ربهـا يجربـني، ففي ذلـك كنت أقـول: مـرادي غـير مـا تعرض علي، فلم ألتفت إليها إجلالاً لحرمته، ثم رأيت كـأني عـرجت إلى السماء الثانية فإذا جاءني فوج فوج من الملائكـة ينظـرون إلي كما ينظر أهل المدينة إلى أمـير يـدخلها، ثم جـاءني رأس الملائكـة اسمه لاويد (اسم فارسي جعله اسماً من أسماء الملائكـة)، وقـال:

يا أبا يزيد، إن ربك يقرئك السلام، ويقول: أحببتني فأحببتك. فانتهى بي إلى روضة خضرة فيها نهر، يجري حولها ملائكة طيارة، يطيرون كـل يـوم إلى الأرض مائـة ألـف مـرة، ينظـرون إلى أوليـاء اللـه، وجـوههم كضـياء الشـمس، وقـد عرفـوني معرفـة الأرض، أي في الأرض، فجاؤوني وحيوني، وأنزلوني على شط ذلك النهر، وإذا على حافيته أشجار من نور، ولها أغصـان كثـيرة متدليـة في الهـواء، وإذا على كل غصن منها وكر طـير، أي من الملائكـة، وإذا في كـل وكـر ملك ساجد، ففي كل ذلك أقول: يا عزيزي مـرادي غـير مـا تعـرض علي، كن لي يا عزيـزي جـاراً من جميـع المسـتجيرين وجليسـاً من المجالسين، ثم هاج من سـري شـيء من عطش ناريـاق، حـتى إن الملائكة مع هذه الأشجار، صارت كالبعوضة في جنب همتي، وكلهم ينظرون إلي متعجبين مدهوشين من عظم ما يرون مني.

ثم لم يزل يعرض علي من الملك مـا كلت الألسـن عن نعتـه، ففي كل ذلك علمت أنه بها يجربني، فلم ألتفت إليـه إجلالاً لحرمـة ربي، وكنت أقول: يا عزيزي مرادي غير مـا تعـرض علي، فلمـا علم اللـه تعالى من صدق الإرادة في القصد إليه، وتجـردي عمـا سـواه، فـإذا أنا بملك قد مـد يـده فجـذبني، ثم رأيت كـأني عـرجت إلى السـماء الثالثة، فإذا جميع ملائكة الله تعالى بصفاتهم ونعـوتهم قـد جـاؤوني يسلمون علي، فإذا ملك منهم لـه أربعـة أوجـه: وجـه يلي السـماء، وهو يبكي لا تسكن دموعه أصلاً ، ووجه يلي الأرض ينـادي: يـا عبـاد الله اعلموا يوم الفراغ (لعلها الفزع)، يوم الأخـذ والحسـاب، ووجـه يلي يمينه إلى الملائكة يسبح بلسانه، ووجه يلي يساره يبعث جنوده في أقطار السماوات يسبحون الله تعالى فيها، فسلمت عليه، فـرد علي السلام، ثم قال: من أنت؟ إذ فضلت علينا، فقلت: عبد قد منّ الله تعالى عليه من فضله، قال: تريـد أن تنظـر إلى عجـائب اللـه؟ قلت: بلى، فنشر جناحاً من أجنحته، فإذا على كل ريشة من ريشـه قنديل أظلم ضياء الشمس من ضـيئها، ثم قـال: تعـال يـا أبـا يزيـد، واستظل في جناحي، حـتى نسـبح اللـه تعـالى ونهللـه إلى المـوت، فقلت له: الله قادر على أن يغنيني عنك، ثم هاج من سري نور من ضياء معرفتي أظلم ضوءها: أي ضـوء القناديـل من ضـوئي، فصـار الملـك كالبعوضـة في جنب كمـالي، ثم لم يـزل يعـرض علي من الملك ما كلت الألسن عن نعته، ففي ذلك علمت أنـه بهـا يجربـني، فلم ألتفت إلى ذلك إجلالاً لحرمته، وكنت أقول في ذلك: يا عزيـزي مرادي غير ما تعرض علي، فلما علم الله تعالى مني صـدق الإرادة

في القصـد إليـه، فـإذا أنـا بملـك مـد يـده فرفعـني ثم رأيت: كـأني عرجت إلى السماء الرابعة، فإذا جميع الملائكة بصـفاتهم وهيئـاتهم ونعوتهم قد جاؤوني يسلمون علي، وينظـرون إلي كمـا ينظـر أهـل البلد إلى أمير لهم في وقت الـدخول، يرفعـون أصـواتهم بالتسـبيح والتهليل من عظم ما يرون من انقطاعي إليه، وقلة التفـاتي إليهم، ثم استقبلني ملك يقال له: نيائيل، فمد يـده وأقعـدني على كرسـي لـه موضـوع على شـاطئ بحـر عجـاج، لا تـرى أوائلـه ولا أواخـره، فـألهمت تسـبيحه وانطلقت بلسـانه، ولم ألتفت إليـه، ثم لم يـزل يعرض علي من الملـك مـا كلت الألسـن عن نعتـه، ففي كـل ذلـك علمت أنه بها يجربني، فلم ألتفت إليه إجلالاً لحرمته، وكنت أقول يا عزيزي، مرادي غير ما تعرض علي: فلما علم الله تعالى مني صدق الانفراد به في القصد إليه، فإذا أنا بملك مـد يـده فرفعـني إليـه ثم رأيت كأني عرجت إلى السماء الخامسة، فإذا أنا بملائكـة قيـام في السماء رؤوسهم في عنان السماء السادسة يقطر منهم نـور تـبرق منه السماوات، فسـلموا كلهم علي بـأنواع اللغـات، فـرددت عليهم السلام بكل لغـة سـلموا علي، فتعجبـوا من ذلـك، ثم قـالوا: يـا أبـا يزيد: تعال حتى تسبح الله تعالى وتهلله ونعينك على مـا تريـد، فلم ألتفت إليهم من إجلال ربي، فعنـد ذلـك هـاج من سـري عيـون من الشـوق، فصـار نـور الملائكـة فيمـا التمـع مـني كسـراج يوضـع في الشمس، ثم لم يـزل يعـرض علي من الملـك مـا كلت الألسـن عن نعته، ففي كل ذلك علمت أنه بها يجربني، وكنت أقـول يـا عزيـزي، مرادي غير ما تعرض علي، فلما علم الله تعالى مني صــدق الإرادة في القصد إليه فإذا أنا بملك مد يـده فرفعـني إليـه، ثم رأيت كـأني عرجت إلى السماء السادسة، فإذا أنا بالملائكة المشتاقين جـاؤوني يسلمون علي ويتفخرون بشوقهم إلي، فافتخرت عليهم بشـيء من طيران سري، ثم لم يزل يعـرض علي من الملـك مـا كلت الألسـن عن نعته، ففي كـل ذلـك علمت أنـه بهـا يجربـني، فلم ألتفت إليـه، وكنت أقول: يا عزيزي مرادي غير مـا تعـرض علي. فلمـا علم اللـه تعالى مني صـدق الإرادة في القصـد إليـه، فـإذا أنـا بملـك مـد يـده فرفعني، ثم رأيت كـأني عـرجت إلى السـماء السـابعة، فـإذا بمائـة ألف صف من الملائكة استقبلني. كل صف مثـل الثقلين ألـف ألـف مرة، مع كل ملك لواء من نور، تحت كل لواء ألف ألف ملك، طول كل ملك مسيرة خمسمائة عـام، وكـل على مقـدمتهم ملـك اسـمه بريائيـل، فسـلموا علي بلسـانهم ولغتهم، فـرددت عليهم السـلام

بلسانهم فتعجبوا من ذلك، فإذا مناد ينادي: يـا أبـا يزيـد: قـف قـف؛ فإنـك قـد وصـلت إلى المنتهى، فلم ألتفت إلى قولـه ثم لم يـزل يعرض علي من الملـك مـا كلت الألسـن عن نعتـه، ففي كـل ذلـك علمت أنه بها يجربني، وكنت أقول: يا عزيزي مرادي غير ما تعرض علي، فلمـا علم اللـه تعـالى مـني صـدق الإرادة في مقصـدي إليـه صـيرني طـيراً، كـأن كـل ريشـة من جنـاحي أبعـد من الشـرق إلى الغرب ألـف ألـف مـرة، فلم أزل أطـير في الملكـوت، وأجـول في الجبروت، وأقطع مملكة بعد مملكة، وحجباً بعد حجب، وميـداناً بعـد ميدان، وبحـاراً بعـد بحـار، وأسـتاراً بعـد أسـتار، حـتى إذا أنـا بملـك المرسى استقبلني، ومعه عمود من نور، فسـلم علي ثم قـال: خـذ هذا العمود، فأخذته فإذا السماوات بكل ما فيهـا قـد اسـتظل بظـل معرفتي، واستضاء بضياء شوقي، والملائكة كلهم صارت كالبعوضـة عنـد كمـال همـتي في القصـد إليـه، ففي كـل ذلـك علمت أنـه بهـا يجربني، فلم ألتفت إليها إجلالاً لحرمة ربي الله تعالى.

ثم لم أزل أطـير وأجـول مملكـة بعـد مملكـة، وحجبـاً بعـد حجب، وميـداناً بعـد ميـدان، وبحـاراً بعـد بحـار، وأسـتاراً بعـد أسـتار، حـتى انتهيت إلى الكرسـي، فـإذا قـد اسـتقبلني ملائكـة لهم عيـون بعـدد نجوم السـماوات، يـبرق من كـل عين نـور تلمـع منـه، فتصـير تلـك الأنوار قناديل، أسـمع من جـوف كـل قنـديل تسـبيحاً وتهليلاً، ثم لم أزل أطير كذلك حتى انتهيت إلى بحر من نـور تلاطم أمواجـه يظلم في جنبه ضياء الشمس، فإذا على البحـر سـفن من نـور، يظلم في جنب نورها أنوار تلك الأبحـر، فلم أزل أعـبر بحـاراً بعـد بحـار حـتى انتهيت إلى البحر الأعظم الذي عليه عرش الرحمن، فلم أزل أسبح فيـه حـتى رأيت مـا من العـرش إلا الـثرى من الملائكـة الكروبـيين وحملـة العـرش، وغـيرهم ممن خلـق اللـه سـبحانه وتعـالى في السماوات والأرض، أصغر من حيث طيران سري في القصـد إليـه، من خردلة بين السماء والأرض، ثم لم يزل يعرض علي من لطائف بره وكمال قدرته وعظم مملكته ما كلت الألسن عن نعتـه وصـفته، ففي كل ذلك كنت أقول: يا عزيزي مرادي في غير مـا تعـرض لي، فلم ألتفت إليـه إجلالاً لحرمتـه فلمـا علم اللـه سـبحانه وتعـالى من صدق الإرادة في القصد إليه فنادى: إلي إلي، وقـال: يـا صـفي ادن مني، وأشرف على مشرفات بهائي، وميادين ضـيائي، واجلس على بسـاط قدسـي حـتى تـرى لطـائف صـنعي في آنـائي، أنت صـفيي وحبيـبي، وخـيرتي من خلقي، فكنت أذوب عنـد ذلـك كمـا يـذوب

الرصــاص، ثم ســقاني شــربة من عين اللطــف بكــأس الأنس، ثم صيرني إلى حال لم أقدر على وصفه، ثم قربني منه، وقربني حــتى صرت أقرب منه من الروح إلى الجسد، ثم استقبلني روح كل نــبي يسلمون علي ويعظمون أمــري ويكلمونــني وأكلمهم، ثم اســتقبلني روح محمد صلى الله عليه وسلم، ثم سلم علي، فقال: يا أبا يزيــد: مرحباً وأهلاً وسهلاً، فقد فضلك الله على كثير من خلقه تفضــيلاً، إذا رجعت إلى الأرض اقرأ لأمتي مني السلام، وانصحهم ما اســتطعت، وادعهم إلى الله عز وجــل، ثم لم أزل مثــل ذلــك حــتى صــرت كمــا كان من حيث لم يكن التكوين، وبقي الحق بلا كــون ولا بين ولا أين ولا حيث ولا كيف، جل جلاله وتقدست أسماؤه.

قال أبو القاسم العارف رضي اللــه عنــه: معاشــر إخــواني عرضــت هذه الرؤيا على أجلاء أهل المعرفة فكلهم يصــدقونها ولا ينكرونهــا، بل يستقبلونها عند مراتب أهل الانفراد في القصد إليه، ثم يحتجون بقول النبي صلى الله عليه وسلم أنــه قــال: (إن العبــد لا يــزال من الله والله منه ما لم يجزع فإذا جزع وجب عليه العتــاب والحســاب) وروي أيضــاً عنــه صــلى اللــه عليــه وســلم (أن من العلم كهيئــة المخزون لا يعرفه إلا أهل العلم بالله ولا ينكره إلا أهل الغرة باللــه) أ.هــ منــه بلفظــه (ملحــق رقم (2) لكتــاب المعــراج منقــول من مخطوطة حيدر آباد بعنوان القصد إلى الله).

معراج اسماعيل بن عبدالله السوداني:

ذكرنا في باب الكشف الصــوفي مــا افــتراه عبــدالكريم الجيلي في كتابه الإنسان الكامل فيما زعمه أنه عرج بــه إلى الســماوات ورأى هنالــك الملائكــة والأنبيــاء وكلمهم واســتفاد منهم فوائــد، وأفــادهم كذلك فوائد فيما زعمه، وقد نقلنا في ذلك البــاب نقــولاً مستفيضــة مما كذبه، وقد جاء من نسج على منــوال الجيلي تمامــاً وكتب كتابــاً يكاد يكون نسخة منه وهو إســماعيل بن عبداللــه الســوداني والــذي ألفه سنة 1261هـ أي منذ مائة وســبع وثلاثين ســنة تقريبــاً وســماه (مشارق شمس الأنوار ومقارب حسها في معنى العلوم والأسرار).

وقد سلك إسماعيل بن عبدالله السوداني هذا مسلك الجيلي نفسه حيث زعم أنه عرج به إلى السماء سماء سماء. والعجيب أنه جعل هذه السماوات هي الكواكب السبعة التي كــانت معروفــة في ذلــك الوقت (القمر، والزهرة، والمشــتري، والمــريخ، وعطــارد، وزحــل). والتي كان يظن قديماً أنها هي السماوات السبع فجعل لكــل ســماء

من هذه (روحانية) كما يعتقده الصابئة عبدة النجوم، وشـوه معـراج الرسول صلى الله عليه وسلم فنقـل منـه أسـماء الأنبيـاء والرسـل الذين التقى بهم الرسـول في معراجـه، فـزعم إسـماعيل هـذا أنـه التقى بهم أيضاً وأفادوه وباركوه واحتفلوا بمجيئه إليهم، وأنه شـاهد بعد ذلك العـرش والكرسـي وسـدرة المنتهى، والملائكـة الـذين لم يسجدوا لآدم تماماً كما زعم الجيلي من قبلـه مكـذباً بـذلك القـرآن حيث يقـول سـبحانه وتعـالى: {ثم قلنـا للملائكـة اسـجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين} ويبدو أنـه لم يقـرأ هـذه الآية قط واكتفى بقراءة كتاب الجيلي ونقل عنه مشاهداته وزعمهـا لنفسه وجعلها كشفاً خاصاً به هو..

وهـذا هـو شـأن مشـايخ التصـوف ينقـل بعضـهم عن بعض نفس الدعاوي التي يدعيها من قبله فإذا قال أحدهم أنا خاتم الأولياء قـال من بعـده بـل أنـا خـاتم الأوليـاء، وإذا قـال أحـدهم رفعـني اللـه وأجلسني عنـده وأعطـاني وقربـني جـاء من يـدعي هـذه الـدعاوي ويزيـد على ذلـك وهكـذا. وهأنـذا أنقـل فقـرات من هـذه الأكـاذيب المفتراة التي افتراها إسماعيل بن عبدالله السوداني: قال:

"المغرب السابع

في عين العروج إلى السماء السادسة

اعلم أيها الابن البار المبرور والمهدي إلى طريق الملك الغفور أن العبد إذا طرح جميع الأكوان العارضة له في السماء الخامسة في حالة عروجه إلى حضرة الرحمن فإن الرب الكريم يصلح له السريرة ويحد له عين البصيرة فيعرج منها إلى السماء السادسة فيجد البواب فيسلم عليه فيرد عليه السلام ويرحب به، ويفتح له الباب.

فافهم يا بني فإنه يدخل فينظر ما فيها من الغرائب ويتعجب من تلك العجائب فإن هذه السماء فيها من الكواكب المشتري ولونها في غاية السواد قد يرى وهو جوهر شفاف من بديع الصنائع على الاستواء من غير اختلاف ودورها أوسع يزيد على دور سماء المريخ بألفين عام ومائتين سنة وثلاثة وثلاثين سنين (كذا والصواب: بألفي عام، ومئتي سنة وثلاث سنين!) وأربعة أشهر، وفيها نبي الله موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام (هكذا).

نفائس حقية من علوم ذوقية:

فنقول بحسب كشفنا، فإن العبد الراقي إلى تلك المراقي إذا وصل إلى هذه السماء يرى نفسه مغيباً في أنوار القدس موشحة بأنوار الهيبة والأنس حوله جملاً من ملائكة الرحمن ناطقاً بغميض الأسرار والعلوم معهم في حالة عروجه إلى حضرة الملك الديان. فيرى ملائكة هذه السماء متنوعة من عدة أصناف، فيهم ملائكة الرحمة الألطاف، يدرون ملائكة هذه السماء في هذه الأرض لرفع الوضيع وزيادة الرفيع، منهم من وكله الله تعالى بإيصال الرزق إلى المرزوق، ووكل غيرهم بما اقتضته الحكمة بين الخالق والمخلوق..

وقد اجتمعت بالملك الحاكم عليهم وهو روحانية المشتري (كوكب معروف)، رأيته جالساً على منبر من نور الحكمة ملتحفاً بثوب أصفر من أنوار الهمة، وهم مطيعون له في سره وجهره وممثلون له في جميع نهيه وأمره لا يفعل منهم أحد شيئاً إلا بإذنه ولا يتقدم إلا بأمره لتنفيذ ما وكل به من شأنه، فسألته عن عدة علوم فأجابني برمز مكتوم ففهمته منه بوساطة مظهر اسم الله القيوم، بفهم لا من حيث مطلق المفهوم فوثبت قائماً وسرت منه بفضل الله تعالى عالماً، فاجتمعت من بعده بنبي الله موسى على نبينا

وعليه أفضل الصلاة والسلام فوجدته فانياً في الشهود والمكالمات غالباً في أنوار المشاهدات جالساً على كرسي من أنوار الوقار ولونه أصفر مخلوط عليه خطوط مرموزة جامعة لما حواه من الفخار من حضرة الأسرار متأدباً مع استهلاكه مع شهود مولاه، مناجياً له ومستغرقاً في فناه، تجلي الآنية فيحضره إظهار مظاهر الحق في حقيقة سره، إنني أنا الله، فقد عرفته بعدما عرفني فسلمت عليه ورد علي السلام وقربني وانتصب لي قائماً وأهل بي حيث جئته حافظاً ملازمة أدبي، فسألته سؤال من دخل حضرة الأدب وعرف سر البسط والغضب.

فقلت له: يا سيدي بحق من نبأك وزكاك وأورثك هذا المقام وتولاك بأن تجود علي بإجابة مقالي وإفادتي في سؤالي، فإن رسولنا الصادق الكريم بلغنا ما قصه له ربه في الكتاب الحكيم بأنك طلبت رؤية مولاك حيث قلت له: أرني أنظر إليك. فأتاك منه الخطاب حيث قال: لن تراني، فما معنى طلبك له ومجيء هذا الخطاب إليك فاستفدنا عدم حصول الرؤية لك في حالة مجيء الخطاب فشتان ما بين حالتك هذه وحالة أهل الحجاب، فكيف هذا السر، وباطن هذا الأمر؟

فقال لي: يا عبدالله إن السر غريب والأمر عجيب، فافهم أرشدك مولاك وأورثك أسرار علومه وتولاك، فإن ربي حين أمرني بعبادته بمطلق العبودية وعرفني سر ظهور أسراره مظاهره في عموم الآنية حين أبصرت نار سر دلالتي ورجوت إتياني لأهلي بشعلة منا كي يصدقوني بها في مقالتي أو أجد عليها هدى من ضلالتي، فنوديت بعد إتياني بها من جانب طور قلبي بما اقتضت الحكمة من ربي، يا موسى إني أنا ربك الصادر أمري لك، فاخلع نعليك الكائنتين في عضويك بأن لا تشرك بعبادتي أحداً ولا يدخلك ريب فيما آمرك به أبداً إنك بالواد الذي هو فضاء سر الظهور الظاهر من ربك إلى قلبك من جانب الطور المقدس عن حلول الأغيار فيه، المطهر لك حيث اقتضت الحكمة بأنك في هذا الوادي المسمى بطوى توافيه، وأنا اخترتك حيث أمرتك فاستمع لما يوحى من الإيحاء، فلما حققت هذا المقال من حضرة القرب على لسان الحال استعددت إلى تنزله في داخل قلبي وفنيت نفسي في الاستماع لما يوحى إلي من حضرة ربي، جاءني منه الأمر بالاستفراغ لعبادته حيث قال لي: {إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني}. فقبلت ذلك وعبدته كما أمرني، فلما صدق الإخلاص مني وحسن في الله ظني أردت بقاء

نفسي في مقام لقاه وأيقنت بأن لا إله معبود بحق سواه. فقلت: ربي أرني أنظر إليك. فما طلبت سوى تجلي الذات للذات. وذلك من أسرار الكبريائية من التجليات، فلما علم الله استحالة بقاء القديم في الحادث وما ثم غيري في هذا المقام محادث. قال لي: لن تراني في الحال بحيث أبقى فيك، لأني قديم وأنت حادث ولكن أنظر إلى الجبل المستقر حولك إذ تنكشف لك حقيقة ذلك، فإن استقر مكانه بعد ظهور سلطاني له فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقا، أي فلما ظهر سلطان القديم للجبل ساخ في الأرض حيث نزل وقد حصل لموسى ما حصل من الصعق والوجل. وفي هذا المقام سر لطيف وتعلمت من موسى عليه السلام مائة ألف علم من العلوم التي تجول في الأفكار تعذر النطق بها.

ثم تعلمت منه في هذا المشهد علوماً لم يسعني الوقت أن أفشيها فيه، وما أظن أحداً من الأولياء المتقدمين تكلم على حقيقة هذا المشهد على ما هو عليه أبداً إلى وقتنا هذا، وإن تكلم البعض عليه فذلك في شيء منه فلا يستطيع أحد منهم أن يستوفيه لشدة ما رأيته من عظمة حقيقته ورقة دقيقته، وقد اجتمعت برجال من الأولياء الأكابر حين تقييدي لهذا المحل فوجدته له معرفة تامة في بعض المظاهر من هذا المشهد وقدمه موسوي متحقق بإحدى وخمسين اسماً من أسماء الله الحسنى له تعبير لطيف وبحث ظريف فسألته عن مقامه والذي حازه من علوم هذا المقام، فأخبرني بدقائق من علومه فحققت أن له حظاً وافراً وأخبرني أن لما وصل من هذا المقام إلى هذا المحل وجدنا سيدنا موسى عليه السلام.

وسأله فبحث فيه فاستفاد بوساطته خمسة آلاف علماً وفي كل علم أسرار لا تحصى فلما سألني عن علومي في هذا المشهد وبحثت له في ذروته من دقائق العلوم والأسرار والمظاهر والأنوار غاب عن نفسه غيبة عظيمة حتى خفت عليه من أن يذوب، فلما صحا تعجبت من ثباتي مع شدة التمكين فحمدت على ذلك الملك المعين، فلما حققت زيادتي عليه وتمكني في المشاهد بالذي ظهر مني إليه طلبني اسماً من المخفيات لأجل التبرك فأعطيته ذلك الاسم بأنواره وعلوم حضراته وأسراره فانتفع به" (كتاب مشارق شموس الأنوار ص128،131) انتهى منه بلفظه.

ويســـتطرد إســـماعيل بن عبداللـــه الســـوداني مبينـــاً مشـــاهداته المزعومة في السماء السابعة فيقول:

"فنقول بحسب كشفنا، قد اجتمعت فيها (أي في السماء الســابعة) بجملــة من الملائكــة فعــرفتهم وعرفــوني وســألتهم عن علــوم لا تحصى، ورأيت فيها كوكباً له توقد من شدة عظمته ولكنه خفي عن أعين النـاظرين، لأن معرفتـه لم تحصـل لأحـد سـوى الكـاملين من العارفين أهل الفتح ولم يظفر به إلا أرباب المعـارف الـراقين ذروة السـطح ومن ثم فعلت كيفيـة حلـول زحـل في فلكـه، وعلم كيفيـة سيره فيه، وعلم السر الذي وضعه الله فيه وغير ذلك.

واجتمعت في هذه السـماء بنـبي اللـه سـيدنا إبـراهيم الخليـل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام فوجدته جالساً على منبر من نـور أحمـر متكئ على نمـارق من نـور أخضـر لائحـة على وجهـه أنـوار المعارف والكمال متوجهاً بتاج أسرار النبـوة والأجلال بيـده قضـيب من سر علـوم الكنـوز معتقلاً سـيف فتـق طلاسـم الرمـوز مسـنداً ظهره إلى البيت المعمور مشـاهداً مـا هـو لـه من حضـرة الغفـور، فلما وصلت إليه وسلمت عليـه، رد علي السـلام وأكرمـني بالقيـام إكرامـاً لنبينـا أشـرف الأنـام فعرفـني ورحب بي وبشـرني ببلـوغ مطلـبي.." انتهى منـه بلفظـه (كتـاب مشـارق شـموس الأنـوار ص 135).

ويستطرد إسماعيل هـذا في بيـان مشـاهداته في السـماء السـابعة والدعوة إلى طريقته الخاصة قائلاً:

"وفي بـاطن هـذا سـر لا أطيـق ذكـره في هـذا الكتـاب وفي هـذا المشـهد سـر لطيـف ومقـام طريـف مـا تكلم عليـه أحـد الأوليـاء المتقدمين إلى وقتنا هذا، وإن أردت التكلم على بعض منه في حين تقييدي لهذا المحل اجتمعت بسيدنا إبراهيم عليه السلام فأشار إلي بتركه وبشرني بمقام كبير أبلغه وأنال به في الآخـرة ممـا لا يعطي لغير المقربين من الكاملين المحبوبين فـأنعم بـه أنـا ومن معي من أولادي وإخـواني وأصـحابي المجـدين في طريقـتي" أ.هــ (كتـاب مشارق شموس الأنوار ص135).

ويستطرد إسماعيل هذا في بيان مشاهداته المزعومة فيزعم رؤيـة سدرة المنتهى والعرش والكرسي فيقول:

"فنقول بحسب كشفنا إن العبد الراقي إلى مقام هذه السدرة يراها عظيمة جداً وبها (نويراً خارقاً) ممتداً فيعلم السر الذي وضعه الله سبحانه وتعالى فيها وعلم السبب الذي ينتهي إليها الصاعد والهابط. ويعلم مقام الملائكة الكروبيين منها ومنازلهم وكيفية حالتهم، فهم على أنواع مضعفة، وحالات مختلفة، فمنهم مدهوش في هويته، ومنهم مستغرق في آنيته، ومنهم واقع على جنبه، ومنهم واقع على وجهه، ومنهم حاث على ركبتيه قد غمروا في أنوار المشاهدات وانفنوا في انطباق تكرر التجليات فلا يستطيع أحد منهم حركة لعدم شعورهم وشدة استغراقهم فيما هم فيه، فهم عالون في الملائكة فما أمروا بالسجود لآدم عليه السلام ولا سجدوا له قط، وقد اجتمعت بالملك الحاكم عليهم وهو مقدمهمالذي يأتي منه الأمر، والنهي إليهم وينظره من المتقدمين على غيرهم أعمدة النور لأجل تأديب الدون منهم وغيرهم من الآدميين، فسألته عن السر الذي سرى في ذوات هؤلاء الملائكة حتى لازمتهم تلك الحالة، فأفادني بأحسن مقال، ثم سألته عن دقائق العلوم ومن خفي السر المكتوم فأفادني بحول الله وقوته فيها وفي بعض أمور مما هي من المستور، وقد حزت في هذا المشهد علوماً لم أطق إبداءها ولم أستطع إفشاءها.

ثم نرجع إلى ما كنا في سبيله فنقول: إن من هنا يرقى العبد إلى فلك الكرسي إلى كرسي جبريل عليه السلام، فمن ذلك يعلم حقيقة كل ستر كان وموجبه وسر حقيقته، فيرى عن ذلك أنهاراً جارية فيغترف من أكبرها وينال الشرب من أشهرها، فيحصل له بذلك التحقق بما يحويه من الأسرار التي لا تحصي والعلوم التي لا تستقصي ثم يرقى إلى الفلك المحيط الذي هو العرش.

وهو أول الأفلاك وأعظم السماك، فمن ثم يتضح له مظهر الاسم الرحمن، فهنالك يعلم ما شاء الله تعالى من مناسبة مصاحبة بعض الملائكة والأنبياء صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم، فحينئذ ينظر حملة العرش، ويتعلم من علم السر الذي يحملونه به وكيفية صورهم الباقين بها، وقبل هذا يعرف مظاهر كثيرة، منها ما يتعلق بالأجسام المتغذية، ومنها ما يتعلق بالأرواح، وفي هذا المقام أشياء لا يصح إبداؤها ولا سبيل للتكلم إلى مجاوزة ما فوق ذلك مخافة أن يدعيها أهل الدعاوي المحجوبون الذين لم يصلوا إليها، فالسكوت عنها أولى والتلذذ بمطالعة مشاهدة تجليات صانعها أحلى، والله

على ما نقول وكيل وهو يهـدي السـبيل" انتهى منـه بلفظـه (كتـاب مشارق شموس الأنوار ص140،141).

وبعد كل هـذه السخافات والخرافـات الـتي يسـرقها إسـماعيل بن عبدالله السوداني من عبـدالكريم الجيلي وينقلهـا أحيانـاً بـالنص ولا سـيما في ألـوان كـل سـماء، وأن كلا منهـا كـوكب من الكـواكب المشـهورة يعـود فيـذكر مشـاهداته المزعومـة أيضـاً في الأرضـين السبع.. إلى أسـفل سـافلين تمامـاً كمـا فعـل عبـدالكريم الجيلي، فيزعم إسـماعيل هـذا أيضـاً أنـه طـاف بالطبقـة الأولى من الأرض وهي أرض في زعمه ناصـعة البيـاض لم يعص فيهـا اللـه قـط، وأن الفجر يطلع بعد الغروب بمقدار يسير جداً وذلك على حد زعمه في زمن الشتاء.

قلت من يعلم جغرافية الأرض يعلم أن هذا وصف للقطب الشمالي وبياض الأرض هو الثلج الذي يغطيها، وكون الليل يكون نحـو سـاعة واحدة نعم ولكن هذا لا يحصل في الشتاء كمـا زعم إسـماعيل هـذا ولكنه يحدث في الصـيف حيث يصـبح الليـل سـاعة والعكس تمامـاً في الصيف حتى لا يكون بقاء الشمس إلا نحو ساعة أو أقل أحيانـاً في بعض مناطق القطب..، ولكن هذه المعارف الجغرافيـة العاديـة التقطها هؤلاء الشيوخ وجعلوها كشفاً صوفياً لا يتـأتى إلا بالمجاهـدة المزعومة وبانكشـاف حجب القلب، وليتهم إذ نقلوهـا أيضـاً نقلوهـا صحيحة بل لم يستطيعوا أن يميزوا بين ما عليه هـذه المنـاطق في الصيف والشتاء.

ثم يذكر إسماعيل هذا أن الأرض الثانية مسـكونة بـالجن وأن ليلهم نهارنا ونهارنا ليل عندهم. وهـذا خلـط بين معـارف الجغرافيـة وبين أغاليط الصوفية.

وأما الطبقة الثالثة من الأرض فـيزعم أنهـا مسـكونة بـالجن كـذلك (كتـاب مشـارق شـموس الأنـوار ص143)، وينتقـل هـذا الشـيخ الصـوفي هكـذا بين الأرضـين المزعومـة أرضـاً أرضـاً يطلعنـا على مشاهدته وتخريفاته فيقول مثلاً ففي الأرض السادسة:

"فنقـول بحسـب كشـفنا: إن هـذه الطبقـة مسـكونة بـالمردة من الشياطين وهم أقـوى حـالاً من العفـاريت وكـل منهم مسـلط على إنسان للعداوة السابقة، فكثير يـدخلون في حـوزهم فلا تـرى منهم متحركاً ولا ساكناً إلا قد قيـده حكمهم بمـا اقتضـته الحكمـة الإلهيـة

بمثابـة تقلبـاتهم ودخـولهم على الخلـق بـالأنواع المختلفـة بحسـب أجناسهم، فمنهم من يظهر للآدميين في الخواطر، ومنهم من يظهر لهم في عالم المثال لسوقهم إلى غاية الخـذلان والضـلال إلى غـير ذلـك ممـا لا يدركـه على الحقيقـة إلا الأوليـاء أهـل الكمـال وقـد يتكلمون بحسب ما يؤذن لهم فيه من هذه الأبـواب والمقامـات من العوالم العلويات والسفليات والله على ما نقول وكيـل وهـو يهـدي السبيل" انتهى (كتاب مشارق شموس الأنوار ص148).

ويستطرد أيضاً فيذكر مشاهداته في الأرض السابعة فيقول:

"نقول بحسب كشفنا: إن هذه الطبقة مسكونة بالحيـات والعقـارب وهي التي وردت بها الأخبار من أنها كأمثـال الجبـال وأعنـاق البخت وغير ذلك، فإن العبـد العـارف حين يـدخل هـذه الطبقـة يدخلـه هم شـديد مخافـة أن يـرى مقامـاً في النـار لبعض أصـحابه ومريديـه، فحينئذ يتطلع على جميع المقامات فإذا وجد مقامـاً في النـار لبعض مريديه أو بعض أصحابه سـعى في هتكـه بالتضـرع إلى اللـه تعـالى إلى أن يبدله الله سبحانه وتعالى (له) مقاماً في الجنة.

كما أنه إذا وقف على الفلك الكوكب المسـكون بطائفـة من الـذين هم معدودون في نعم الجنة يتطلع على مقامات الجنـات، فـإذا رأى مقاماً من مقامات بعض أصحابه سعى في رفعته وزيادته، وهذا كله يكون كرامـة في الحـق الـولي العـارف وشـرفاً للوسـاطة الكـبرى والوصلة الفخري عين حقائق السعود وجنة نعيم التجليات والشـهود سيدنا ومولانا محمد الأسعد عليه أفضـل الصـلاة والسـلام من الـبر الأوحد لأن بشرفه على أمثالـه شـرف أمتـه على سـائر الأمم فـإن الولي من أمـة محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم يطـوف على جميـع العــوالم العلويــات والســفليات ويطلــع على مكنــون غيب الســبع السماوات والسبع طبقات (هكذا والصواب: سبع السماوات، وسـبع الطبقات)، ويعلم منازل أهل الجنة ومنازل أهل النار، وعلم ما كـان وما يكون وما هو كائن وغير ذلك ولا يحيطـون بشـيء من علمـه إلا بما شاء، فإنـه يعلمهم قـدر مـا تقتضـيه حكمتـه وتعممهم بـه رحمتـه بالوهب والتفضيل، والله على ما نقول وكيـل وهـو يهـدي السـبيل" انتهى منه بلفظه (كتاب مشارق شموس الأنوار ص153).

ولا يكتفي أيضاً بكل هذا الإفك والتخريف بـل يـذهب ليطلعنـا أيضـاً على كشفه المزعوم في بحار العلوم، فيقول:

"وقد اجتمعت مرة في بقعة من ساحل البحر المحيط الذي هو من وراء جبل قاف برجل من النقباء أصفر اللون مربـوع القامـة كـثيف اللحيـة صـبيح الوجـه، فوجدتـه فانيـاً في التجليـات، غائبـاً في أنـوار المشاهدات وقدمه على قـدم سـيدنا يعقـوب عليـه السـلام، وورده القائم به آخر سـورة الحشـر، {هـو اللـه الـذي لا إلـه إلا هـو عـالم الغيب والشهادة هو الرحمن الـرحيم}.. الخ السـورة. وهـو مسـقي بثلاثة عشر اسماً من أسماء الله تعالى الحسنى، ولكنـه متحـير في مقامه، ويطلب التخلص منه فما وجد له سبيلاً، فسلمت عليه، فـإذا هو في غاية الاستغراق شاخصاً ببصره إلي الطباق، فإنه يشـير إلى البحـر الـذي هـو بسـاحله ففهمت منـه أنـه يشـتكي إلي بصـعوبة تخليصه من هذا المقام، كأنه يقول إن خلاصه منه أصـعب حـالاً من شراب ماء هذا البحر، لأنه هو البحر الأخضـر، مـاؤه مـر لا يسـتطيع أحد الشراب منه، لأن الذي يشرب منه يهلك حالاً من شدة مرارته، فوجدت بيد الرجل رمانـة مغلوقـة وأكلت معـه منهـا، فلمـا عرفتـه بوسمه وخاطبته باسمه قلت له ما المقصود؟

قال: مشاهدة الملك المعبود.

فلما عرفني فهمت لغزه وأدركت رمزه، وتحقق أنـني مفيـده فيمـا يريده أخذ يطلبني من غير انفكاك عـني وصـحبني إلى محـل بعيـد، فأخذت لـه في المقـال وأطلقت لـه لسـان الحـال إلى أن شـاهدنا الكنوز المستورة تحت قباب الرموز من البحـر الأسـود الـذي انتهى إليـه المـورد، فـإن هـذا البحـر رسـمه معـدوم وظـاهره مكتـوم فلا أستطيع فيه التعبير ولم أتعرض إلى البيـان فيـه والتفسـير فمن ثم أخذ مني بعض أذكار مصاحبة أنواره وانصرف بسبيله إلى مشـاهدة دليله، وفي حين تقييدي لهذا المحل اجتمعت معه فوجدته في حـال عظيم ومقام فخيم فأخبرني أنه حصلت له مـني مفاتحـات عظيمـة وإمدادات كريمة حين أكلت معه في تلك الرمانـة، فحكى لي شـيئاً من حاله، ووجدته سقى بخمسـة وثلاثين اسـماً من أسـمائه تعـالى، وصار في زيـادة بابتهـاج طريقـه الأعلى. وقـد اجتمعت في سـاحل البحــر الأحمــر برجــال من أربــاب الأحــوال لم يزالــوا في دلالــة المخلـوقين إلى طريـق معرفـة رب العـالمين فـإذا أمعن نـاظرهم فكرة يحقق أنهم ليس لهم اشتغال أبداً بغير هذا، ثم أمور لا سـبيل إلى ذكرها بقصور الوقت وضيقه عنها، فانتهج أيها العاقل وكابد في خوض المقامات والمنازل فإن اللـه تعـالى حكيم كـريم يورثـك من

علم سره العظيم أنه واهب جليل والله على ما نقول وكيل وهو يهدي السبيل" انتهى (كتاب مشارق شموس الأنوار ص159،160).

وقد يسأل السائل ما الداعي لكل هذا الكذب والانحراف، وما الذي يدفع هؤلاء إلى كل هذا التخريف والتكلف، هل هم عقلاء أو مجانين وإن كانوا عقلاء فماذا يريدون. وقطعاً لهذه التساؤلات يجيب المؤلف نفسه عن مراده وذلك في آخر كتابه فيقول:

"المغرب التاسع

في عين خاتمة الكتاب

كيفية صفة خلوة للمؤلف وغير ذلك من الأدعية المرجية.

اعلم أيها الابن المجتهد والمحتسب المقتصد، أن كل خير لا ترقى ذروته إلا بجهد النفس وأتعابها فيه، وقد تكلمنا لك فيما تقدم من المجاهدات والمكابدات، وأن الطرق الموصلة إلى الله تعالى لا تحصى، وكل صاحب طريقة أدرى بما فيه الصلاح لمن يسلكها، ولما أنعم الله علي بنيل هذا المقام وجعلني من خواصه الكرام أذن لي في التكلم والظهور وإبداء طريقة أستقبل بها وأسلك بها المريدين لأجل أن يصلوا بها، إلى حضرة الغفور، فحصل الأمر كما أمر واشتهر ذلك واستمر، فلما أذنت من الحضرتين بإظهار كل ما نراه يصلح لأهل طريقتي بلامين وأفاض علي الوهاب بوارد تأليف هذا الكتاب أردت أن أختمه بصفة خلوتي التي تصلح لأهل طريقتي كما فعل قبلي أهل الطرق بنظرهم الذي يصلح لأهل طرائقهم، وجعلت كيفية هذه الخلوة رسالة مستقرة وأفردتها في هذا المغرب لأجل أن يسهل نقلها ونظرها لمن له رغبة فيها، فمن أراد نقل جميع الكتاب فهي من جملته، ومن أراد الاستقلال بها فليفردها منه من أول البسملة إلى حد الخاتمة الآتية، وهي هذه" انتهى منه بلفظه (كتاب مشارق شموس الأنوار ص161).

الخلاصة أن الرجل يريد أن يبني له طريقة خاصة لتسليك المريدين، وجمع الأغبياء والمغفلين ومن ثم جمع النذور والقرابين، وبالتالي جعل نفسه في مكان الملوك والسلاطين!!! هذه هي النهاية التي يسعى إليها ملوك التصوف، وأئمة الضلالة ومن أجل هذا كذبوا على الله هذا الكذب المبين ولا يسع المسلم إلا أن يحمد

الله على العافية مما ابتلي به هؤلاء المارقون الكاذبون والحمد لله رب العالمين.

الفصل الحادي عشر

الولاية الصوفية

الولاية الرحمانية:

أعلن القرآن أن كل مؤمن صادق في الإيمان ولي لله سبحانه وتعالى. قال تعالى: {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} (البقرة:257).

نصت الآية هنا على أن الله ولي كل مؤمن، وأنه بفضل هذه الولاية يخرج الله المؤمنين من الظلمات إلى النور، وقال تعالى أيضاً: {إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين} (الأعراف:196)

وقال تعالى: {ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون* إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين} (الجاثية:18-19).

يخبر سبحانه وتعالى أنه ولي لكل من اتقاه وخافه.. وجاء في دعاء موسى عليه السلام لربه {أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين} (الأعراف:155).

وقال تعالى أيضاً: {وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون* لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون} (الأنعام:126-127).

وقال تعالى: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون* الذين آمنوا وكانوا يتقون} (يونس:62-63).

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً التي تبين ولايته سبحانه وتعالى لكل مؤمن صالح متق لله سبحانه وتعالى..

والولاية هي المحبة والنصرة.. فالله سبحانه وتعالى إذا والى عبداً فإنه يحبه وينصره ويعزه ويكرمه كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه

أذلة على المؤمنين أعزة على الكـافرين يجاهـدون في سـبيل اللـه ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل اللـه يؤتيـه من يشـاء واللـه واسـع عليم}.

وكذلك العبـد إذا قيـل إنـه يـوالي اللـه فمعـنى ذلـك أنـه يحب اللـه وينصره كما قال تعالى: {والذين آمنوا أشد حباً لله} وقـال تعـالى: {إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقـدامكم} فـولي اللـه من ينصـره ويحبه، ومن يحب الله ينصره..، فكل من أحب الله ونصـره، وسـار في مرضاته، وحفظ حدوده، وأقـام شـريعته ودينـه، فهـو ولي اللـه سبحانه وتعالى.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم طريق الولاية فقال صلى اللـه عليـه وسـلم: [قـال اللـه تعـالى من عـادى لي وليـاً فقـد آذنتـه بالمحاربـة، ومـا تقـرب إلي عبـدي بشـيء أحب إلي ممـا افترضـته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافـل حـتى أحبـه، فـإذا أحببتـه كنت سمعه الـذي يسـمع بـه، وبصـره الـذي يبصـر بـه، ويـده الـتي يبطش بها، ورجلـه الـتي يمشـي بهـا، ولئن سـألني لأعطينـه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه] (رواه البخاري).

هنـا بين الرسـول فيمـا يرويـه عن ربـه سـبحانه وتعـالى أن طريـق الولايــة للعبــد هــو أن يقــوم بــأداء الفــرائض أولاً الــتي هي أحب الطاعات إليه سبحانه وتعالى، ثم يتدرج في أداء النوافل حتى يحبـه الله، فإذا أحبه الله سبحانه وتعالى كان ولياً حقاً لـه جـل وعلا، وقـد جاء في الحديث الصحيح: [إن الله إذا أحب عبداً قال يا جبريـل إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريـل، ثم ينـادي جبريـل في أهـل السـماء فيقول إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السـماء، ثم يوضـع لـه القبول في الأرض] (رواه مسلم).

ولا شك أن ولاية الله سبحانه وتعالى هـذه مبذولـة لكـل من سـعى إليها وسار في طريقها ووفقه الله سبحانه وتعـالى إلى بلوغهـا كمـا قــال جــل وعلا: {فأمــا من أعطى واتقى* وصــدق بالحســنى* فسنيسره لليسـرى* وأمـا من بخـل واسـتغنى* وكـذب بالحسـنى* فسنيسره للعسرى}.

وقال أيضاً جل وعلا:

{والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين}.

ولا شك أنه على الرغم من أن كـل مـؤمن هـو ولي اللـه جـل وعلا فإن ولاية الله للعبد ومحبتـه لـه تتفـاوت بحسـب الإيمـان والتقـوى والعمل الصالح فكلما ازداد إيمان العبد وترقى في درجـات الكمـال والصلاح وتحلى بالتقوى كان أعظم ولاية، وأقـرب من ربـه سـبحانه وتعالى، هذا مفهوم الولاية في الإسلام على وجه الإجمال.

الولاية الصوفية الشيطانية:

ولكن في التصوف الشيطاني فإن الولاية لها معـنى آخـر تمامـاً في الشكل المضمون والموضوع، فولي الله عند الصوفية الزنادقـة من اختاره الله وجذبه إليه، وليس من شـرط ذلـك أن يكـون عنـد هـذا المختار والمجذوب أية مواصفات للصلاح والتقوى إذ الولاية عنـدهم نوع من الوهب الإلهي دون سبب، وبغـير حكمـة، ويجعلـون الولايـة الكسبية هي ولاية العوام والمتنسكين والولاية الحقيقية عندهم هي الولاية الوهبية، يستدلون لذلك بمثل قولـه تعـالى: {يختص برحمتـه من يشاء} فيقولون:

الولاية اختصـاص وهـذا تلـبيس منهم لأن اختصـاص اللـه من يشـاء برحمته لا يكون إلا لحكمة وأسباب اقتضت ذلـك كمـا قـال سـبحانه وتعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهـدوا في سـبيله لعلكم تفلحـون} فجعـل سـبحانه وتعـالى تقـواه واتخـاذ الوسـيلة منـه هي الطريـق الموصـل لرحمتـه فيسـتحيل أن تكـون رحمـة اللـه الـتي يختص بهـا من يشـاء كائنـة دون حكمـة لأن اللـه سبحانه وتعالى يعلم أن يجعل رسـالته وأين يضـع هدايتـه كمـا قـال تعالى: {الله أعلم حيث يجعل رسالته} وقال تعالى: {وكـذلك فتنـا بعضـهم ببعض ليقولـوا أهـؤلاء من اللـه عليهم من بيننـا أليس اللـه بأعلم بالشاكرين} (الأنعام:53).

فأخبر سـبحانه رداً على الكفـار الـذين احتقـروا المؤمـنين لفقـرهم وقالوا: كيف يرزقهم الله التقـوى ونحن أكـرم على اللـه منهم لأنـه رزقنا الأموال والأولاد. قال تعالى: {أليس اللـه بـأعلم بالشـاكرين} (الأنعـام) سـبحانه وتعـالى إنـه أعلم من يوفـق لهدايتـه وهم الـذين يحكمون بواجب شكره سـبحانه وتعـالى ولـذلك عبـد الرسـول ربـه حتى أتاه اليقين وهو الموت، وقام من الليـل حـتى تفطـرت قـدماه وقيل له: يا رسول الله تفعل هذا وقد غفر الله مـا تقـدم من ذنبـك وما تأخر فقال: [أفلا أكون عبداً شكوراً] (متفق عليه)..

فالعباد الذين يعلم الله منهم الطاعة والإخلاص والقيام بشكر نعمته هم الذين يوفقهم الله لطاعته ومحبته وولايته.

ولما اعتقد الصوفية الزنادقة أن الولايـة قضـية وهبيـة بلا حكمـة ولا معقولية جعلوا المجاذيب والمجانين والفسـقة والظلمـة والملاحـدة المشركين من أهل وحدة الوجود، أولياء للـه بمجـرد أن ظهـر على أيديهم بعض خـوارق العـادات الـتي ظهـر مثلهـا على الـدجال وابن صـياد، وأصـناف من المشـركين وأهـل الإلحـاد.. فجعلـوا الكرامـة الشيطانية الإبليسية كالإخبار ببعض المغيبات واحتراف بعض الحيـل والشـعوذات وإتقانهـا كـزعم الـدخول في النـيران وضـرب الجسـم بالسكاكين والسـهام واللعب بالعقـارب والحيـات، وأمثـال ذلـك من المخاريق والترهات جعلوا أولياء الله هم هؤلاء الذين يــدجلون على الناس بمثل هذه الخرافات مع ما هم عليه من مخالفة الإسلام، في الظاهر والباطن فظاهرهم مخالف للشريعة حيث عبدوا الله بالبـدع والمظــاهر الكاذبــة والريــاء والســمعة كملبس الخــرق الملونــة والمرقعـات وإظهـار الفقـر والزهـد، وذكـر اللـه بالصـياح والهـوس والجنون وإقامة مشاعر الشرك عند القبـور والمـزارات والاسـتعانة بالأموات، وعبادة المشايخ والـذوات، جعلـوا من هـذه أحـوالهم في ظاهرهم أولياء لله، ومن أحوالهم في بواطنهم أشر من ذلك وأمـر. فهم من أهل وحدة الوجود الكافرين والزنادقـة الملحـدين الـذين لا يفرقون بين خالق ومخلوق، ورب وعبد، ومن يجعلون النبي محمداً صلى اللـه عليـه وسـلم هـو علـة الأكـوان، والمسـتوي على عـرش الرحمن، ومبدع الأرض والسـماوات إلى آخـر هـذا الكفـر والهـذيان مما يأباه من عنده أدنى إسلام وإيمان... هذه هي الولايـة الصـوفية في زعمهم جعلوها لهـؤلاء كمـا جعلوهـا أيضـاً للمجـانين والصـبيان ولأهل التخاريف والهذيان حتى عدوا في أوليائهم من يأتي الحمــارة في وضح النهار، وأمام الأسماع والأبصار وسلكوا في سـلك الولايـة الشيطانية هذه من يشرب الخمر جهاراً نهاراً، ويـزني ويلـوط عيانـاً بياناً، ويزعمون في كل ذلك أن هذا مظاهر غير مراد، وأنه نــوع من التخييـل للعبـاد، وأن الـولي الصـادق لا تضـره معصـية أبـداً، أو أن الأعيان ينقلب لـه فـالخمر الـتي يشـاهدها النـاس خمـراً ينقلب في بطن الولي لبناً خالصاً، والزانيـة الفـاجرة الـتي يـرى النـاس الـولي بصـحبتها تكـون زوجتـه، ولم يكتفـوا بهـذا أيضـاً في تعريـف الولايـة عندهم بل قالوا في الفكر الصوفي إن الولي يتصـرف في الأكـوان ويقول للشيء كن فيكون، وكل ولي عندهم قد وكله الله بتصــريف

جانب من جوانب الخلق فأربعة أولياء يمسكون العالم من جوانبه الأربعة، ويسمون الأقطاب، وسبعة أولياء آخرون كل منهم في قارة من قارات الأرض السبع ويسمون البدلاء. وعدد آخر من الأولياء في كل إقليم في مصر ثلاثون أو أربعون وفي الشام كذلك، والعراق وهكذا، وكل واحد من هؤلاء قد أوكل إليه التصريف في شيء ما، حتى عدو منهم من صرفه الله في رعاية الكلاب، ومنهم من له التصريف في رعاية الحيات، وفوق هؤلاء الأولياء جميعاً ولي واحد مراد يسمى القطب الأكبر أو الغوث وهو الذي يدبر شأن الملك كله سمواته وأرضه والأولياء جميعاً في بقاع الأرض تحت أمره.

فالأرض والسماوات تدار حسب الولاية الصوفية وأما الملائكة جميعاً فإنهم في خدمة هؤلاء الأولياء ينفذون أوامرهم ويخضعون لمشيئتهم.. هذه هي الولاية الصوفية وهي لا تمت من قريب أو بعيد للولاية الإسلامية القرآنية قط.. فالولي في الإسلام عبد هداه الله ووفقه وسار في مرضاة ربه حسب شريعته، وهو يخشى على نفسه دائماً من الكفر والنفاق وسوء العاقبة ولا يعلم هل يقبل الله عمله أو لا.. وأما الولي الصوفي فهو رب كبير أو صغير يتصرف في جانب من جوانب الكون ولا يلتزم بشريعة لأن له شريعته المستقلة، والملائكة تحت مشيئته والسماوات والأرض كالخلخال برجله!! ولا يغرب عنه شيء في السماوات ولا في الأرض، ولا خوف عليه مطلقاً لأنه قد جاءه الأمان، ولا يحزن لشيء مطلقاً لأن بيده التصريف.. هذه هي الولاية الصوفية. والحق أن الذي قرأ شيئاً من الفلسفة الإغريقية القديمة يعلم يقيناً أن فكرة الولاية الصوفية هذه منقولة عن هذه الفلسفة فآلهة الإغريق قديماً -كما صورتها الإلياذة والأوديسيا- يتصرفون في الكون ولكل منهم جانب خاص من جوانب العالم، (فمارس) هو إله الحرب، (وكيوبيد) هو إله الحب و (افروديت) هي إلهة الجمال، و (أبوللو) هو رب الأرباب وهكذا..

إن فكرة تعدد الآلهة عند الإغريق وتصرفهم في الكون هي فكرة الولاية الصوفية تماماً حيث يعبث هؤلاء الولاية الصوفيون بمصائر البشر، ويتحكمون في أرزاقهم وأعمالهم، ويتصارعون أيضاً ويتنافسون كما يصنع آلهة الإغريق تماماً..

والآن اصحبني أيها القارئ لأريك نصوص المتصوفة وعباراتهم، وخيالاتهم في وصف ولايتهم الصوفية:

أول من ألف كتاباً مستقلاً في الولاية الصوفية هو محمد بن علي بن الحسن الترمذي، الذي يسمونه الحكيم، وهو غير الترمذي صاحب السنن المشهورة بسنن الترمذي، وقد نشأ (الحكيم) هذا في أواخر القرن الثالث الهجري، وهو مجهول سنة الولادة والوفاة. وكتابه الذي أشرنا إليه يسمى (خاتم الأولياء) (راجع الفصل بختم الولاية الصوفية)..

والمهم هنا أن الترمذي هذا رسم الملامح الخيالية الزندقية للولاية الصوفية ومن أجل هذا الكتاب شهد علماء زمانه بالزندقة والكفر ونفوه من بلده (ترمذ) كما أخبر بذلك صاحب الطبقات الصوفية أبو عبدالرحمن السلمي، وادعى الترمذي هذا في الولاية ما تابعه بعد ذلك عامة الصوفية عليه من أن الولاية وهب ومنحة إلهية لا كسب وموجدات، وأن الولي يعلم علم البدء وعلم المقادير وعلم الحروف (ختم الولاية ص362).

ووضع الترمذي هذا مراتب للولاية، فجعل منهم المجاذيب وأهل العته والجنون لأن الله جذبهم إليه وأسقط عنهم التكاليف، وأن هناك أربعين من أوليائهم الذين يتصرفون في شئون العالم، وأن هناك القطب الأكبر والخاتم للولاية وأن الأولياء هؤلاء محروسون عند الله فلا يلقى في صدورهم إلا الوحي الرحماني الملائكي فقط!! وجعل هؤلاء الأولياء منهم من بلغ ثلث النبوة، ومنهم من بلغ نصفها ومنهم من زاد على ذلك وهو ختم الأولياء (ختم الولاية ص347). ومن هؤلاء الأولياء تظهر لهم الآيات مثل طي الأرض، والمشي على الماء ومحادثة الخضر (ص361). وزعم كذلك أن قلوب هؤلاء الأولياء هي كتاب الله يطبع فيه ما يشاء!! وأنهم كالأنبياء لهم من الله عقد الولاية ولذلك كشف عن قلوبهم الغطاء فيرون ملك الله في كل أجزائه في العالم العلوي والسفلي، وزعم أن هؤلاء الأولياء يعرفون منازلهم من الجنة، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ويقطعون بذلك وأن الكرامات التي تظهر على أيديهم دليل على صدقهم وإيمانهم..، يقول الترمذي:

"ما قولك في مُحَدِّث، بشر بالفوز والنجاة فقال: رب اجعل لي آية تحقق لي ذلك الخبر الذي جاءني لينقطع الشك والاعتراض. فقال (أي الله): آتيك أن أطوي لك الأرض حتى تبلغ بيني الحرام في

ثلاث خطوات، وأجعل لك البحر كالأرض تمشـي عليـه كيـف شـئت وأجعل لك التراب والجو في يديك ذهباً، ففعل هذا هل ينبغي له أن يطمئن إلى هذه البشرى بعد ظهور هذه الآية أولاً" أ.هـ منـه بلفظـه (ختم الولاية ص401).

وهـذا الكلام من الحكيم الترمـذي تلـبيس وتـدليس كلـه.. من هـذا الذي يخاطبه الله بكلمة بعد محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم ؟! ولا نبي بعـد رسـول اللـه، ومن هـذا الـذي يعطيـه من هـذه الكرامـات المزعومة ما لم يعط رسله وأنبيـاءه.. فـإن الرسـول محمـد صـلى الله عليه وسلم ما سار على المـاء، ولا طـار في الهـواء، ولا جعلت له الجبال ذهباً. بل جاع هو وأصحابه وربط الحجـر على بطنـه أيامـاً وسار على قدميه في جيوشه حتى تقطعت أقـدامهم ومـا كـان لهم إلا الخرق يلفونها به حتى لقد سمو غزوة من غـزواتهم بغـزوة ذات الرقاع لأنهم مزقوا فيها بعض ملابسـهم ليلفـوا أرجلهم ولقـد كـانوا أفضـل النـاس وأفضـل الأمـة، أيـأتي بعـد ذلـك هـؤلاء البطـالون المتأكلون الآكلون أموال الناس بالباطل المعتقـدون عقائـد الوثنيـة والشـرك ليعطيهم اللـه الولايـة العظمى يمكنهم من الطـيران في الهواء، والسـير على المـاء، وقلب الأحجـار فضـة وذهبـاً لا شـك أن الذي يزعم شيئاً من ذلـك قـد لبس عليـه الشـيطان وأدى لـه بعض الخدمات كأن نقلـه مـرة من مكـان إلى مكـان بسـرعة الشـيطان، وسـرق لـه بعض الـذهب من مكـان وتسـمى هـذه الأمثلـة كرامـة رحمانية وما هي إلا حيل شيطانية يلبس بها الشيطان على أوليائه.

ولا غرو أن يدعي الترمذي هذا ما يدعي فأنـه قـد ذكـر على نفسـه فيما سماه (بدو شأن الترمذي) أن زوجته قد تنبأت له، وزعمت لـه أنها رأت في شأنه عشرات من الرؤى منها أنها رأت أن سطح بيتها وكانت نائمـة عليـه قـد هبـط إلى الأرض وأنهـا وجـدت داخـل بيتهـا رجلين قاعدين في هيبة وأنهما قالا لها: قولي لزوجك: أنت وتـد من أوتاد الأرض تمسك طائفة من الناس!! (بدو شأن الترمذي مطبـوع مع ختم الولاية ص25) وأن هذين الرجلين الذين بشراها هما محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وزوجته هذه أيضـاً تنبـأت لـه بأنهـا كانت نائمة مع زوجها في فـراش واحـد وجـاء الرسـول صـلى اللـه عليه وسلم فدخل فراشهما معهما!! (بدو شأن الترمذي مطبوع مع ختم الولاية ص38).

ولا يخفى أن أمثال هذه الرؤيا والتنبؤات رؤى شيطانية حتماً فليس هناك شيء يسمى أوتاداً تمسك الأرض لأن الله سبحانه وتعالى يقول: {إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا}.

وإذا كان الله هو الذي يمسك السماوات والأرض فمعنى ذلك أنه ليس في حاجة إلى الترمذي وغيره ليكون وتداً يمسك جانباً من الأرض!! نعم جعل الله الجبال أوتاداً للأرض ولم يجعل الترمذي الذي ينام ليله شاخراً وتداً من أوتاد الأرض وأما الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يقول [من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي] يستحيل أن يأتي ليدخل في فراش رجل مع زوجته ولم يدخل مع زوجة الترمذي في فراشها وهي مع زوجها إلا الشيطان حتماً الذي يعلم من هم أولياؤه.

واسمع إلى الترمذي يحكي عن خرافات زوجته فيقول:

"ثم رأت رؤيا أخرى وهي بالفارسية وفي آخرها قالت: فانتبهت فوقع عليها حرص الاستماع إلى الموعظة وطلب الحقوق من نفسها. فأول ما ابتدى لها من تحقيق رؤياها أنها كانت في البستان قاعدة وذلك لثلاث بقين من ذي القعدة، بعد أن رأت هذه الرؤيا، بنحو من خمسة أيام (ستة) إذ وقع على قلبها: يا نور كل شيء وهداه أنت الذي فلق الظلمات نوره.

قالت فوجدت كأن شيئاً دخل صدري فدار حول قلبي فأحاط به وامتلأ الصدر إلى الحلق، حتى صرت شبه المخنوق من امتلائه، وله حرارة وحرقات على القلب فتزينت الأشياء كلها لي. فما وقع بصري على أرض ولا سماء وخلق من الخلق إلا رأيته بخلاف ما كنت أراه من الزينة والبهجة والحلاوة.

ثم وقع على قلبي كلمة بالفارسية: (نكيني من ترا داذم)، فامتلأت فرحاً وطيب نفس ونشاطاً فأخبرتني بذلك فلما كان اليوم الثاني قالت: وقع على قلبي أنا أعطيناك ثلاثة أشياء، ووقع الكلام بالفارسية: (سه جيزترا داذم جلال من (و) عظمة من وبهاء من (ومعنى هذه الكلمات بالعربية: أي أعطيناك ثلاثة أشياء هي جلالي وعظمتي وقدرتي!!)) وأضاء لي من فوقي فدام هكذا فوق رأسي في الهواء كما كنت رأيته في المنام فترى في ذلك الضوء علم الجلال وعلم العظمة وعلم البهاء..

فأما الجلال فإني رأيت كأن البيت يتحرك (ايذون جيزي همي بيــود، وجمش خلق همه ازوي، وعظمة بــري (و) همــه جيزهــا ازوي، وبهــا (و) ســرا (ي) همــه جيزهــا همــه جيزهــا (ازوي نخســت فــر (أي أعطيناك علم الأولين) سمانها وبذم او كنده.. تفروذ).

ثم وقع على قلبها، اليوم الثالث (تراداذم علم اولين وآخرين) فــدام بها هذا حتى نطقت بعلم أسـماء اللـه فكـان يفتح لهـا في كـل يـوم اسم الأصل: ويبدو، ذلك الضوء على قلبها وينكشف لها باطن ذلـك. حتى كان يوم الجمعة، في أيام العشرة، حضرت المجلس، فذكرت أنه وقع عليها اسم (اللطيف)".

فانظر كيف تنبـأت زوجـة الترمـذي الفارسـية وكـانت الـرؤى تـنزل عليهـا بالفارسـية أيضـاً وأنهـا أخـبرت أنهـا أخـذت من اللـه الجلال والعظمة والقدر!! وأنها كذلك نـالت علم الأولين والآخـرين، وهكـذا لم يكتف الترمذي بأن يكون هو الوتـد بـل رأس الأوتـاد الـذين زعم أنهم أربعون بل زعم أخيراً أنهم خاتم الأولياء جميعاً كما كان محمـد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ولم يكتف بكل ذلك إلا أن جعــل زوجته متنبئة كذلك وأنها حصلت على علم الأولين والآخرين وأخذت ثلاث صفات من صفات لله تعالى وهي الجلالة والعظمة والقدر!؟

هذا هو الزعيم الأول والرائد الأول لفكرة الولايـة الصـوفية، وفكـرة ختم الولاية. والعجيب أنه كتب كتابه هذا نحو سنة 269هـ حيث ذكر أن زوجته رأت بعض هـذه الـرؤى يـوم السـبت 20 من ذي القعـدة سنة 269هــ.. وبـذلك يكـون الترمـذي أول من وضـع لبنـات الفكـر الصوفي في قضية الولاية المزعومة.. ومن أجل هذا الكتــاب رمــاه علماء بلده بالكفر والزندقة واستطاعوا طرده من ترمذ ولكنـه عـاد إليها بعد ذلك تحت جناح بعض الظالمين.. وقد أفضنا في بيان هــذه القضية من كتاب الترمذي لأنه أول من سن هـذا الشـر المسـتطير الذي جاء بعده، وكتابه هو أول كتـاب فيمـا أظن قـد وضـع الأسـس الخبيثة هذه لفكرة الولاية الصوفية.

مراتب الولاية عند الصوفية:

وقد ذهب المتصوفة إلى تقسيم مـراتب الولايـة عنـدهم فمنهم من قالوا إنهم يتقسمون إلى الغوث وهو أكبر الأولياء جميعاً وهــو واحـد في كل زمان وتحتـه الأوتـاد الأربعـة وكـل واحـد منهم في ركن من أركان العالم يقوم بـه ويحفظـه والأقطـاب السـبعة وكـل منهم في

إقليم من أقاليم الأرض السـبعة أي في قـارة من القـارات السـبع، (والأبـدال) وزعمـوا أنهم أربعـون وهم يعيشـون في العـالم، وكلمـا هلك واحد منهم أبدله اللـه بغـيره لحفـظ الكـون!! (والنجبـاء) وهم ثلاثمائة كل منهم يتولى شأناً من شئون الخلق..

ولا يشك مسلم يعلم شيئاً من الكتـاب والسـنة ولا عـالم قـد اطلـع على علوم الكتاب والسنة أن ما قاله الصوفية في هذا الصدد هـراء وكذب لا أساس له من كتاب اللـه وسـنة رسـوله صـلى اللـه عليـه وسـلم ولكن الصـوفية أرادوا أن يؤسسـوا لهم دولـة في البـاطن تحكم وتنفذ وتتحكم في شـئون النـاس فبنـوا هـذه الدولـة العجيبـة الباطنية التي يتحكم فيها هؤلاء الـذين سـموهم بـالغوث والأقطـاب والأبـدال والنجبـاء والأوتـاد.. ويتعجب الإنسـان وهـو يطـالع الفكـر الصـوفي في هـذا الصـدد كيـف أن المتصـوفة أحكمـوا خطتهم للسيطرة على عقول الناس، ولإدخـالهم إلى دينهم العجب العجيب حيث أوهموهم أن التصـريف في الأرض والسـماء والخلـق أجمعين إنما هو لدولتهم الخفيـة الـتي يتحكم فيهـا أوليـاء الصـوفية.. هـؤلاء الأولياء الذين قد يكونون أحيانـاً أمـيين لا يعرفـون قـراءة ولا كتابـة وأحيانـاً مجـاذيب يصـرخون ويبولـون في الطرقـات وأحيانـاً زنـاة وشـاربي خمـور قـد رفعت عنهم التكـاليف الظـاهرة وأن منهم من يعيش طيلة عمره قذراً وسخاً لا يتطهر بماء قـط أو صـابون ليـوفر الماء (انظر) للفقراء!! ومع ذلك فهؤلاء الأولياء يعلمون الغيب كلـه ولا يخفى عليهم شيء في الأرض ولا في السماء ولا يعجزهم شيء ولا يقف أمام إرادتهم أحد أبداً.. وتعال معي في جولة مـع خرافـات القوم وترهاتهم لتعلم أي عالم يعيش فيه رجال التصوف.

وقد كفانا عبد الوهاب الشعراني مئونة تجميـع أقـوالهم في مـراتب الولاية حيث جمع أقوال ابن عربي في الفتوحات ولنبدأ أولاً بمفهوم القطب الغوث أو القطب الأكبر عند الصوفية:

يقول الشعراني:

"وأما القطب فقد ذكر الشيخ في الباب الخامس وخمسين ومائتين أنـه لا يتمكن القطب من أن يقـوم في القطابـة إلا بعـد أن يحصـل معاني الحروف التي في أوائل السور المقطعـة مثـل ألم، والمص، ونحوهما فـإذا أوقفـه اللـه تعـالى على حقائقهـا ومعانيهـا تعينت لـه الخلافة وكان أهلاً لها.

(فـإن قلت) فمـا علامـة القطب فـإن جماعـة في عصـرنا ادعـوا القطبية وليس معنا علم برد دعواهم.

(فالجواب) قد ذكر الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضـي اللـه عنـه أن للقطب خمس عشـرة علامـة: أن يمـد بمـدد العصـمة والرحمـة والخلافة والنيابة ومدد حملة العرش العظيم ويكشف له عن حقيقة الـذات وإحاطـة الصـفات ويكـرم بكرامـة الحلم والفضـل بين الموجودين وانفصال الأول عن الأول ومـا انفصـل عنـه إلى منتهـاه وما ثبت فيه حكم مـا قبـل ومـا بعـد وحكم من لا قبـل لـه ولا بعـد، وعلم الإحاطة بكل علم ومعلوم ما بدا من السـر الأول إلى منتهـاه ثم يعود إليه.." انتهى.

وقال في الفتوحات في الباب السبعين ومـائتين: "إن اسـم القطب في كل زمان عبـد اللـه وعبـد الجـامع المنعـوت بـالتخلق والتحقـق بمعاني جميع الأسماء الإلهية (أي أن يتصف بما يتصف بـه اللـه من السمع والبصر والقدرة.. الخ)، بحكم الخلافة وهو مرآة الحق تعالى ومجلى النعـوت المقدسـة ومحـل المظـاهر الإلهيـة (يعـني ظهـور صفات الله فيه)، وصاحب الوقت (أي المتصرف في الخلق)، وعين الزمان وصاحب علم سر القدر وله علم دهر الدهور (فهـو يعلم مـا مضى ومـا يـأتي)، ومن شـأنه أن يكـون الغـالب عليـه الخفـاء لأنـه محفوظ في خزائن الغيرة ملتحـف بأرديـة الصـون لا يعتريـه شـبهة في دينه قط ولا يخطر له خاطر يناقض مقامه، كثير النكـاح وراغب فيه، محب للنساء، يـوفي الطبيعـة حقهـا على الحـد المشـروع لـه، ويوفي الروحانية حقها على الحد الإلهي، يضـع المـوازين ويتصـرف على المقدار المعين الموقت لـه لا يحكم عليـه وقت إنمـا هـو للـه وحده حاله دائماً العبودية والافتقـار، يقبح القـبيح ويحسـن الحسـن، يحب الجمال المقيد في الزينة والأشخاص، تأتيه الأرواح في أحسن الصـور يـذوب عشـقاً يغـار للـه عـز وجـل، ويغضـب لـه تعـالى، لـه الإطلاق في المظاهر من غير تقييد، لا تظهر روحانيتـه إلا من خـاف حجاب الشـهادة والغيب، لا يـرى من الأشـياء إلا محـل نظـر الحـق فيها، يضع الأسباب ويقيمها، ويدل عليها، ويجري بحكمها، ينزل إليها حتى يحكم عليه، ويؤثر فيه رياسـة على أحـد من الخلـق بوجـه من الوجوه مصاحب لهذا الحال دائماً إن كان صاحب دنيا وثروة تصرف فيها تصرف عبد في مال سـيد كـريم وإن لم يكن بيـده دنيـا وكـان على ما يفتح الله تعـالى لـه بـه لم تستشـرف لـه نفس بـل يقصـد بنفسه عند الحاجة بيت صديق ممن يعرفه يعـرض عليـه مـا تحتـاج

إليه طبيعته كالشافع لها عنده فيتناول لها منه قدر ما تحتاج إليـه ثم ينصرف لا يجلس عن حاجته إلا لضرورة فإن لم يجد حاجته لجأ إلى الله تعـالى في حاجـة طبيعـة لأنـه مسـؤول عنهـا ومتـول عليهـا ثم ينتظر الإجابة من الله فيما سأل فـإن شـاء اللـه تعـالى أعطـاه مـا سأل عاجلاً أو آجلاً فمرتبته الإلحاح في الـدعاء والشـفاعة في حــق طبيعته بخلاف أصحاب الأحوال فإن الأشياء كلها تتكون عن هممهم لأن الله تعالى عجل لهم نصيباً من أحوالهم في الجنة فهم ربــانيون والقطب منزه عن الحال ثابت في العلم فـإن أطلعـه اللـه على مـا يكون أخـبر بـذلك على وجـه الافتقـار اللـه لا على وجـه الافتخـار لا تطوى له أرض ولا يمشي في هواء ولا على مـاء ولا يأكـل من غـير سبب ولا يطرأ عليه شيء من خرق العوائد إلا في النادر لا ما يـراه الحق تعالى فيفعله بـإذن اللـه من غـير أن يكـون ذلـك مطلوبـاً لـه وكذلك من شأنه أن يجوع اضـطراراً لا اختيـاراً ويصـبر على النكـاح كذلك لعـدم الطـول يعلم من تجلي النكـاح مـا يحرضـه على طلبـه والتعشق به لا يتحقق قط بالعبودية في شيء أكثر ممـا يتحقـق بـه في النكاح لا يـرغب في النكـاح للنسـل وإنمـا يـرغب ففيـه لمجـرد الشهوة وإحضار التناسل في نفسـه لأمـر مشـروع فنكاحـه لمجـرد اللذة كنكاح أهل الجنة. وقد غاب عن هذه الحقيقـة أكـثر العـارفين لما فيه من شهود الضعف وقهر اللذة المغيبة له عن إحساسه فهـو قهر لذيذ وذلك من خصائص الأنبياء ولعلو مراقي هذا المقام جهلـه أكـثر الأوليـاء وجعلـوا النكـاح شـهوة حيوانيـة ونزهـوا أنفسـهم عن الإكثار منها" (اليواقيت والجواهر ج2 ص79) أ.هـ.

فـانظر كيـف لبس على النـاس ووصـف الـولي المزعـوم بصـفات الربوبية الكاملة ثم راح يصـفه بصـفات العبوديـة أيضـاً تلبيسـاً على الناس.

ويستطرد الشعراني ناقلاً عن ابن عربي وصفه للغوث فيقول:

"واعلم أن من مقــــام القطب أن يتلقى أنفاســــه إذا دخلت وإذا خرجت بأحسـن الأدب لأنهـا رسـل اللـه إليـه فـترجع منـه إلى ربهـا شاكرة لـه لا يتكلـف لـذلك (وهـذا كـذب محض فـالتنفس عمليـة لا إرادية شأنها واحد في كل إنسان وليس هناك نفس مســبح ونفس غير مسبح إلا أنه يعتقد المـؤمن أن حياتـه لا تقـوم إلا باللـه فيـؤجر على ذلك ويكون عائداً لله من هذا الوجه).

وأطال الشيخ في ذلك ثم قال فإذن القطب هو الرجل الكامل الذي حصل أربعة الدنانير منها خمسة وعشرون قيراطاً وبها توزن الرجال والأربعة هم الرسل والأنبياء والأولياء والمؤمنون فهو وارثهم كلهم رضي الله عنه. وقال الشيخ في الباب الحادي والخمسين وثلاثمائة: من شأن القطب الوقوف دائماً خلف الحجاب الذي بينه وبين الحق جل وعلا فلا يرتفع حجابه حتى يموت فإن مات لقي الله عز وجل فهو كالحجاب الذي ينفذ أوامر الملك وليس له من الله تعالى إلا صفة الخطاب لا الشهود" (عاد إلى التلبيس مرة ثانية فزعم أن الولي يتصرف في الخلق بأمر الله).

القطب الغوث واحد في الزمان فقط:

ويستطرد أيضاً مبيناً أن القطب الأكبر أو ما يسمونه بالغوث واحد في كل زمان. فيقول:

"قال الشيخ في الباب الخامس والخمسين ومائتين:

ومن خصائص القطب أن يختلي بالله تعالى وحده ولا تكون هذه المرتبة لغيره من الأولياء أبداً ثم إذا مات القطب الغوث انفرد تعالى بتلك الخلوة لقطب آخر لا ينفرد قط بالخلوة لشخصين في زمان واحد أبداً. وهذه الخلوة من علوم الأسرار. وأما ما ورد في الآخرة من أن الحق تعالى يخلو بعبده ويعاتبه فذلك من باب انفراد العبد بالحق تعالى لا من باب انفراد الحق بالعبد فافهم واكتم". انتهى (اليواقيت والجواهر).

وحتى لا يقع المتصوفة في الأشكال المعروفة وهو أن كان أقطاب التصوف في عهد الخلافة الراشدة لذلك بادر ابن عربي للقول أن أبا بكر وعمر كانوا أقطاباً بالمعنى الصوفي.. ونقول حاشا الصحابة أن يدخلوا في هذا الزور والبهتان.

يقول ابن عربي:

"ثم اعلم أنه لما كان نصب الإمام واجباً لإقامة الدين وجب أن يكون واحداً لئلا يقع التنازع والتضاد والفساد فحكم هذا الإمام في الوجود حكم القطب. قال: وقد يكون من ظهر الأئمة بالسيف أيضاً قطب الوقت كأبي بكر وعمر في وقته، وقد لا يكون قطب الوقت فتكون الخلافة لقطب الوقت الذي لا يكون إلا بصفة العدل، ويكون هذا الخليفة الظاهر من جملة نواب القطب في الباطن من حيث لا يشعر فإن الجور والعدل يقع من أئمة الظاهر ولا يكون القطب إلا

عادلاً. واعلم أن القطبية كما أنها قد تكون لـولاة الأمـور كـذلك قـد تكون في الأئمة المجتهدين من الأربعة وغيرهم بل هي فيهم أظهـر ويكـون تظـاهرهم بالاشـتغال بـالعلم الكسـبي حجابـاً عليهم لكـون القطب من شـأنه الخفـاء رضـي اللــه عنهم أجمعين" (اليــواقيت والجواهر ج2 ص80).

وهكذا يجعل ابن عربي بعض الخلفاء أقطاباً وبعض الفقهـاء كـذلك. ولقد من ابن عربي على الإمام الشافعي فأعطاه رتبـة (الوتـد) في مملكته الصوفية، أي أنه كان يسيطر على ربع العـالم. وأمـا الإمـام أحمد فأن ابن عربي لم يمن عليه بشيء من هذه الـرتب الصـوفية واكتفى بأن جعله مجرد (صديق)!! وهي منزلة العامة عنــدهم ممن يؤمن بالخرافات الصوفية.

يقول الشعراني:

"قـال الشـيخ محـيي الـدين: وقـد اجتمعت بالخضـر عليـه السـلام وسألته عن مقام الإمـام الشـافعي فقـال: كـان من الأوتـاد الأربعـة فسألته عن مقام الإمام أحمد فقال: هو صديق وأطال في ذلــك ثم قال في قوله تعـالى: {يـا أيهـا الـذين آمنـوا أطيعـوا اللـه وأطيعـوا الرسول وأولي الأمر منكم} المراد بأولي الأمر الأقطـاب والخلفـاء والولاة ولكن فيما لا يخالف شرعاً مأموراً به وذلك هو المباح الــذي لا أجر فيه ولا وزر فإن الـواجب والمنـدوب والحـرام والمكـروه من طاعة الله ورسوله فما بقي لأولي الأمر إلا المباح فإذا أمرك الإمام الذي بايعته على السمع والطاعة بمبـاح من المباحـات وجب عليـك طاعته في ذلك وحرمت عليك مخالفته وصار حكم الإباحة منه بأمر هذا الإمام الذي بايعته" أ.هـ.

ولا شك أن الإمام أحمد لم يكن ممن يؤمن بهذه الخرافات بل قال لمن سـأله عن كتب الحـارث المحاسـبي هـذه كتب بـدع وضـلالات ولكن الصوفية لا يستطيعون أن يسبوا أحد الأئمـة الأربعـة المتبعين وذلك لمنزلة هؤلاء الأئمة من قلوب الناس.

والمهم أن الصوفية قد بنوا لهم دولـة في البـاطن على هـذا النحـو الذي أسلفناه.. أيضاً لأجل التلبيس على الناس وتمريغ عقـولهم في الأوحال والإلقاء بهم بعيداً في مهاوي الضلال زعم ابن عـربي أيضـاً أن الأوتاد الأربعة يكونـون على قلـوب الرسـل الـذين زعم أنهم مـا زالوا أحياء، وهم:

إدريس، وإلياس، وعيسى، والخضر، وأن هؤلاء جميعاً يرجعون في الأخذ من القطب الأكبر (الغوث) الذي هو واحد في الأرض فقط وأنه إذا مات أقام الله غيره. فهؤلاء الأولياء الأربعة (الأوتاد) الذين طبعوا على قلوب الأنبياء الأربعة الأحياء يرجعون في أحكامهم للقطب الغوث..

وكل هذه الخرافات والخزعبلات قد عرفها ابن عربي عن طريق الكشف الخاص له والعلم اللدني ولذلك سماه المتصوفة بالشيخ الأكبر والكبريت الأحمر!!.

يقول الشعراني عن شيخه ابن عربي في بيان هذه الخرافات:

"(فإن قلت) فالمراد بقولهم القطب لا يموت:

(فالجواب) كما قال الشيخ في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات:

أن المراد به من أن العالم لا يخلو زماناً واحداً من قطب يكون فيه كما هو في الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولذلك أبقى الله تعالى من الرسل الأحياء بأجسادهم في الدنيا أربعة: ثلاثة مشرعون، وهم إدريس وإلياس وعيسى، وواحد حامل العلم اللدني هو الخضر عليه السلام. وإيضاح ذلك أن الدين الحنيف له أربعة أركان كأركان البيت وهم الرسل والأنبياء والأولياء والمؤمنون، والرسالة هي الركن الجامع للبيت وأركانه، فلا يخلوا زمان من رسول يكون فيه، وذلك هو القطب الذي هو محل النظر الحق سبحانه وتعالى من العالم كما يليق بجلاله. ومن هذا القطب يتفرع جميع الأمداد الإلهية على جميع العالم العلوي والسفلي.

قال الشيخ محيي الدين:

ومن شرطه أن يكون ذا جسم طبيعي وروح ويكون موجوداً في هذه الدار الدنيا بجسده وحقيقته فلا بد أن يكون موجوداً في هذه الدار بجسده وروحه من عهد آدم إلى يوم القيامة ولما كان الأمر على ما ذكرناه ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما قرر الدين الذي لا ينسخ والشرع الذي لا يتبدل دخلت الرسل كلها في شريعته ليقوموا بها فلا تخلو الأرض من رسول حي جسمه إذ هو قطب العالم الإنساني ولو كانوا في العدد ألف رسول فإن المقصود من هؤلاء هو الواحد؛ فإدريس في السماء الرابعة، وعيسى في السماء الثانية، وإلياس والخضر في الأرض. ومعلوم

أن السماوات السبع من عالم الدنيا لكونها تبقى بقاء الـدنيا بفنائهـا فهي جـزء من دار الـدنيا بخلاف الفلـك الأطلس فإنـه معـدود من الآخرة في يوم القيامة تبدل الأرض غـير الأرض والسـماوات يعـني يبدلهم بغيرهن، كما تبـدل هـذه النشـأة الترابيـة منـا أيهـا السـعداء بنشأة أخرى أرقى وأصـفى وألطـف فهي نشـأة طبيعيـة جسـمية لا يبول أهلها ولا يتغوطون كما وردت بذلك الأخبار. وقد أبقى الله في الأرض إلياس والخضر وكذلك عيسى إذا نـزل وهم من المرسـلين؛ فهم القـائمون في الأرض بالـدين الحـنيف فمـا زال المرسـلون لا يزولون في هذه الدار لكن من باطنية شرع محمد صلى اللـه عليـه وسلم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. فالقطب هو الواحد من عيسـى وإدريس وإلياس والخضر وهـو أحـد أركـان بيت الـدين وهـو كـركن الحجـر الأسـود واثنـان منهم همـا الإمامـان وأربعتهم هم الأوتـاد فبالواحد يحفظ الله الإيمان وبالثـاني يحفـظ اللـه الولايـة وبالثـالث يحفظ الله النبوة وبالرابع يحفـظ اللـه الرسـالة وبـالمجموع يحفـظ الله الدين الحنيف فالقطب من هؤلاء لا بعينـه. قـال الشـيخ: ولكـل واحد من هؤلاء الأربعة من هـذه الأمـة من كـل زمـان شـخص على قلبـه نائبـاً عنـه مـع وجـودهم وأكـثر الأوليـاء لا يعرفـون القطب والإمامين والأوتاد ولا النواب ولا هؤلاء المرسـلين الـذين ذكرنـاهم، ولها يتطاول كل أحد لنيل هـذه المقامـات ثم إذا خصـوا بهـا عرفـوا عند ذلك أنهم نواب لذلك القطب فاعرف هذه النكتة فإنك لا تراهـا في كلام أحـد غيرنـا ولـولا مـا ألقي في سـري من إظهارهـا مـا أظهرتها" (اليواقيت والجواهر ج2 ص81) انتهى منه بلفظه.

ولعلك أيها القارئ بعد هذه الجولة الخرافية الصوفية تريد أن تعرف أين يسكن القطب ويجيبك ابن عربي قائلاً:

"فـإن قيـل هـل يكـون محـل إقامـة القطب بمكـة دائمـاً كمـا هـو مشهور. (فالجواب) هو بجسمه حيث شاء الله لا يتقيد بـالمكث في مكان بخصوصه ومن شأنه الخفاء فتارة يكـون حـداداً وتـارة تـاجراً وتارة يبيع الفول، ونحو ذلـك واللـه أعلم" (اليـواقيت والجـواهر ج2 ص81) أ.هـ.

ولعلك الآن أيها القارئ تريد أن تعرف كيفيـة تـولي القطب منصـبه الباطني هذا وهل تكون له مبايعة كما يبايع الأمراء والخلفاء..

وقد تفضل ابن عربي أيضاً فأجاب عن هذا التساؤل بقوله:

"فـإن قلت: فهـل يحتـاج القطب في توليتـه إلى مبايعـة في دولـة الباطن كما هي الخلافة في الظاهر؟

(فــالجواب) نعم كمــا قالــه الشــيخ في البــاب الســادس والثلاثين وثلاثمائة وعبارته:

(اعلم أن الحق تعالى لا يولي قط عبداً مرتبـة القطابـة إلا وينصـب له سرير في حضرة المثال يقعده عليـه ينـبي صـورة ذلـك المكـان عن صورة المكانة كما ينبي صورة الاستواء على العرش عن صورة إحاطته تعالى علماً بكل شيء ولله المثل الأعلى فإذا نصب له ذلك السـرير فلا بـد أن يخلـع عليـه جميـع الأسـماء الـتي يطلبهـا العـالم وتطلبه فيظهر بها حللاً وزينة متوجاً مسوراً من ملجـا لتعمـه الزينـة علواً وسفلاً ووسطاً وظـاهراً وباطنـاً فـإذا قعـد عليـه وقعـد بصـورة الخلافة وأمر الله العالم ببيعته على السـمع والطاعـة في المنشـط والمكره دخل في تلك البيعة كل مأمور من أدنى وأعلى إلا العالون المهيمنون في جلال الله عـز وجـل العابـدون للـه تعـالى بالـذات لا بأمر إلهي ظاهر على لسان رسول. واعلم أن أول من يدخل عليــه الملأ الأعلى على مراتبهم الأول فيأخذون يده على السمع والطاعة ولا يتقيدون بمنشط ولا مكره لأنهم لا يعرفون هاتين الصفتين فيهم إذ لا يعرف شيء إلا بضـده فهم في منشـط لا يعرفـون لهـا طعمـاً لعدم ذوقهم للمكره وما منهم روح يـدخل عليـه للمبايعـة إلا يسـأله عن مسألة من العلم الإلهي فيقول له يا هذا أنت القائـل كـذا وكـذا فيقول له نعم فيقول له في هذه المسـألة وجهـان يتعلقـان بـالعلم بالله تعالى أحدهما أعلى من الذي كان عند ذلك الشخص فيسـتفيد منه كل من بايعه علماً ليس عنده ثم يخرج. قال الشيخ: وقد ذكرنـا جميع سؤالات القطابة في جزء مستقل ما سبقنا أحد إليه وليســت هذه المسائل معينة يتحرر السؤال بها لكل قطب وإنما يخطـر اللـه تعالى ذلك لمن يسأل القطب حال السؤال بعد أن جرى ذلــك على خاطره فيما مضى من الزمان.

قال الشـيخ وأول من يبايعـه العقـل الأول ثم النفس ثم المقـدمون من عمــار الســماوات والأرض من الملائكــة المســخرة ثم الأرواح المــدبرة للهياكــل الــتي فــارقت أجســامها بــالموت ثم الجن ثم المولدات ثم سائر ما سـبح اللـه تعـالى من مكـان ومتمكن ومحـل حال فيه إلا العالون من الملائكة كما مر، وكذلك الأفراد من البشــر لا يدخلون تحت دائرة القطب وماله فيهم تصرف إذ هم كمـل مثلـه

مؤهلون لما ناله هذا الشخص من القطبية لكن لما كان الأمر يقتضي أن لا يكون في الزمان إلا واحد تقوم بهذا الأمر تعين ذلك الواحد لكن لا بأولية وإنما هو يسبق العلم فيه بأن يكون هو الوالي وفي الأفراد من يكون أكبر منه في العلم بالله تعالى وحده" انتهى بلفظه (اليواقيت والجواهر ج2 ص79،80).

فانظر أيها المسلم هذا التهريج والتخريف والخبط الذي يريد هؤلاء الأفاكون جذب الناس إليه وإيقاع الناس فيه، وأحمد الله على نعمة العقل التي أعطاك إياها ونعمة الإيمان والإسلام إن كنت من أهله، وانظر كيف يتلاعب الشيطان بهؤلاء المتهوكين الفارغين إلا من الخرافات والخزعبلات والزندقة والكفر الذي ليس له مثل في الأرض. والعجيب أن ابن عربي لا يقف خياله الزندقي عند حد مطلقاً فقد ذهب ليزعم أيضاً أنه عرف أسماء الأقطاب منذ آدم وحتى بعثة رسولنا صلى الله عليه وسلم حيث ينقل عنه الشعراني أنه قال في الفتوحات ما نصه:

"فإن قلت فهل كان قبل محمد صلى الله عليه وسلم أقطاب وكم عددهم (فالجواب) كما قاله الشيخ في الباب الرابع عشر من الفتوحات:

(إن الأقطاب لا يخلو عصر منهم قال وجملة الأقطاب المكملين من الأمم السالفة من عهد آدم إلى محمد عليهما الصلاة والسلام خمسة وعشرون قطباً أشهدنيهم الحق تعالى في مشهد قدس في حضرة برزخية وأنا بمدينة قرطبة وهم: الفرق ومداوي الكلوم والبكاء والمرتفع والشفار والماضي والماحق والعاقب والمنحور وسجر الماء وعنصر الحياة والشريد والصائغ والمراجع والطيار والسالم والخليفة والمقسوم والحي والراقي والواسع والبحر والمنصف والهادي الأصلح والباقي فهؤلاء هم الأقطاب الذين سموا لنا من آدم إلى محمد عليهما الصلاة والسلام وأما القطب الواحد الممد لجميع الأنبياء والرسل من حيث النشء الإنساني إلى يوم القيامة فهو روح محمد صلى الله عليه وسلم (اليواقيت والجواهر ج2 ص82) أ.هـ.

فانظر كيف اكتشف ابن عربي أسماء الأقطاب المزعومين منذ آدم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكيف راح يزعم أن هؤلاء جميعاً الذين افترى أسماءهم يستمدون علومهم من روح الرسول التي

زعم أنها هي المستوي على العرش الرحماني كما مر تفصيل ذلك في الحقيقة المحمدية.

وذلك أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هو أول موجود في زعمهم وهو الحق الذي خلق العرش من نوره والكرسي والسماوات والأرض والجن صلى الله عليه وسلم هو المستوي على عرش الرحمن تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً..

وهكذا نجد الصوفية قلبوا كل موازين الشريعة وغيروا جميع عقائد الدين وابتدعوا ديناً جديداً بعيداً عن الإسلام الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم بعد المشرق عن المغرب.

قطب سنة 593هـ من مدينة فاس بالمغرب:

ويستطرد ابن عربي في تخريفاته وكذبه فيزعم أن لكل إقليم بلدة وقرية قطباً صغيراً آخر يحفظ هذه المدينة!! وأنه التقى بالقطب الأكبر في المغرب في مدينة فاس وأنه كان مشلول اليد:

يقول الشعراني:

"قال الشيخ محيي الدين في الباب الثاني والستين وأربعمائة:

واعلم أن لكل بلد أو قرية أو إقليم قطباً غير الغوث يحفظ الله تعالى تلك الجهة سواء أكان أهلها مؤمنين أو كفاراً وكذلك القول في الزهاد والعباد والمتوكلين وغيرهم لا بد لكل صنف منهم من قطب يكون مدارهم عليه. قال الشيخ: قد اجتمعت بقطب المتوكلين فرأيت مقام المتوكل يدور عليه دوران الرحى حين تدور على قطبها وهو عبدالله بن الأستاذ ببلاد الأندلس صحبته زماناً طويلاً وكذلك اجتمعت بقطب الزمان سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بمدينة فاس وكان أشل اليد فتكلمت على مقام القطبية في مجلس كان فيه فأشار علي أن أستره عن الحاضرين ففعلت" (اليواقيت والجواهر ج2 ص83) أ.هـ.

وهكذا تتم السيطرة الباطنية المزعومة من هؤلاء الأولياء على كل مدينة وقرية من قرى العالم، وهكذا يحكم الصوفية شباكهم ويصطادون العقول المريضة والضعيفة والتي سيقتلها الخوف عندما تعلم أن الدولة الباطنية قد أحكمت سيطرتها على العالم وأنه ليس هناك من قرية ولا مدينة إلا فيها حاكم باطني يحكم أو

قالوا يحفظ هذه المدينة والقرية، وقد أعطاه الله في زعمهم التصريف في شئون عبادها..

وظيفة القطب:

ولعلك تريد أن تعرف الوظيفة المناطة بكل هؤلاء الذين توزعوا الأرض وتصرفوا في حياة الخلائق وحفظ الله بهم -في زعم الصوفية- الوجود وكيف تورث هذه الولاية:

يقول الشعراني عن شيخه ابن عربي:

"وقال في الباب الثالث والثمانين وثلاثمائة: اعلم أن بالقطب تحفظ دائرة الوجود كله من عالم السكون والفساد وبالإمامين يحفظ الله تعالى عالم الغيب والشهادة وهو ما أدركه الحس، وبالأوتاد يحفظ الله تعالى الجنوب والشمال والمشرق والمغرب، وبالأبدال يحفظ الله الأقاليم السبعة، وبالقطب يحفظ الله تعالى جميع هؤلاء لأنه هو الذي يدور عليه أمر عالم الكون كله فمن علم هذا الأمر علم كيف يحفظ الله الوجود على عالم الدنيا ونظيره من الطب علم تقويم الصحة (فإن قلت) فهل للقطب تصريف في أن يعطي القطبية لمن شاء من أصحابه وأولاده.

(فالجواب) ليس له تصريف في ذلك وقد بلغنا أن بعض الأقطاب سأل الله أن تكون القطبية من بعده لولده فإذا بالهاتف يقول له: ذلك لا يكون إلا في الإرث الظاهر وأما الإرث الباطن فذلك إلى الله وحده الله أعلم حيث يجعل رسالته. انتهى.

فعلم أنه ما حفظ من حفظ من الأولياء وغيرهم من جهاته الأربعة إلا بالأوتاد الذين كان منهم الإمام الشافعي رضي الله عنه وما حفظ من حفظ في صفاته السبع إلا بالأبدال السبعة فكل صفة لها بدل يحفظها على صاحبها من حياة وعلم وقدرة وإرادة وسمع وبصر وكلام. انتهى (اليواقيت والجواهر).

وهكذا يريد المتصوف إيهامك أن ما حفظ من سمعك وبصرك وقدرتك وعلمك، وحياتك وإرادتك إنما مرجعه إلى بدل من الأبدال السبعة الذين كان منهم الشافعي في زمانه..

الشافعي هذا رضي الله عنه الذين يكذبون عليه والذي قال عن الصوفية بعد أن ارتحل عن العراق إلى مصر قال: "تركت بغداد وقد أحدث الزنادقة فيها شيئاً يسمونه السماع" أ.هـ.

وقال أيضاً رضي الله عنه: "لا أرى إنساناً يتصوف أول النهار إلا يكون أحمق في آخره"!!!!.. والصحيح أن الحمق يصيب الأتباع والدهماء الذين يصدقون مثل هذه الخرافات ولكن الذين افتروا ذلك ودونوه لا شك أنهم دهاة عرفوا كيف يصرفون الناس عن عقيدة الإسلام إلى عقائد الكفر والوثنية.. فهؤلاء لم يتركوا ديناً أو فلسفة كافرة ولا زندقة إلا أضافوها إلى عقيدتهم وخرافاتهم وانظر إلى كيفية عمل الأبدال عندهم.

الأبدال السبعة ووظائفهم:

قال الشعراني: وقال الشيخ أيضاً في الباب الخامس عشر:

"اعلم أن لكل بدل من الأبدال السبعة قدراً، يمده من روحانية الأنبياء الكائنين في السماوات فينزل مدد كل بدل من حقيقة صاحبه الذي في السماء. قال: وكذلك أمداد الأيام السبعة فتنزل من هؤلاء الأبدال لكل يوم مدد يختص به من ذلك البدل.

(فإن قلت) وهل يزيد الأبدال وينقصون بحسب الشئون التي يبدلها الحق تعالى أو هم على عدد واحد لا يزيدون ولا ينقصون؟؟

(فالجواب) هم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون وبهم يحفظ الله الأقاليم السبعة ومن شأنهم العلم بما أودع الله تعالى في الكواكب السيارة من الأمور والأسرار في حركاتها ونزوله في المنازل المقدرة.

(فإن قلت) فلم سموا أبدالاً؟ (فالجواب) كما قاله الشيخ في الباب الثالث والسبعين:

أنهم سموا أبدالاً لأن كل واحد منهم إذا فارق مكانه خلفه فيه شخص على صورته لا يشك الرائي أن ذلك البدل.

(فإن قلت) فهل ترتيب الأقاليم السبعة على صورة ترتيب السماوات بحيث يكون ارتباط الإقليم الأول بالسماء السابعة والثاني بالسماء السادسة وهكذا..

(فالجواب) كما قاله الشيخ في الباب الثمن والتسعين ومائة: نعم يكون روحانية كل إقليم مرتبطة بالسماء المشاكلة له فالإقليم الأول للسماء السابعة وهكذا..

(وإيضاح ذلك) أن تعلم يا أخي أن الله تعالى جعل هذه الأرض الـتي تجن عليهـا سـبعة أقـاليم (أي سـبع قـارات هي قـارات العـالم المعروفة)، واصطفى من عبـاده المؤمـنين سـبعة سـماهم الأبـدال وجعل لكل بدل إقليماً يمسك اللـه وجـود ذلـك الإقليم بـه فـالإقليم الأول ينزل الأمر إليه من السماء الأولى الـتي هي السـابعة وينظـر إليـه روحانيـة كوكبهـا والبـدل الـذي يحفظـه هـو على قلب الخليـل إبراهيم عليه السـلام والإقليم الثـاني يـنزل الأمـر إليـه من السـماء الثانية وينزل إليـه الروحانيـة كوكبهـا الأعظم والبـدل الـذي يحفظـه على قلب موسـى عليـه السـلام والإقليم الثـالث يـنزل إليـه الأمـر الإلهي من السماء الثالثة وينظر إليـه روحانيـة كوكبهـا البـدل الـذي يحفظه على قلب هارون ويحـيى بتأييـد الرابعـة قلب الأفلاك كلهـا وينظر إليه روحانية كوكبها الأعظم والبدل الـذي يحفظـه على قلب إدريس عليه السلام وهو القطب الذي لم يمت إلى الآن والأقطـاب فينا نوابه كمـا مـر والإقليم الخـامس يـنزل إليـه الأمـر من السـماء الخامسة وينظر إليه روحانية كوكبهـا والبـدل الـذي يحفـظ اللـه بـه هذه الأقاليم على قلب يوسف عليه السلام بتأييد محمد صـلى اللـه عليــه وســلم والإقليم الســادس يــنزل الأمــر عليــه من الســماء السادسة وينظر إليه روحانية كوكبها والبدل الذي يحفظه على قلب عيسى روح الله ويحيى عليهما السلام والإقليم السـابع يـنزل الأمـر إليه من السـماء الـدنيا وينظـر إليـه روحانيـة كوكبهـا والبـدل الـذي يحفظه على قلب آدم عليه السلام.

قال الشيخ: وقد اجتمعت بهؤلاء الأبدال السبعة بمكـة خلـف حطيم الحنابلة حيث وجدتهم يركعون هنـاك فسـلمت عليهم وسـلموا علي وتحـدثت معهم فمـا رأيت أحسـن منهم سـمتاً ولا أكـثر شـغلاً منهم باللـه عـز وجـل، ومـا رأيت مثلهم إلا سـقيط الرفـرف بن سـاقط العرش بقونية وكان فارسياً رضي الله عنه وقد أطال الشيخ الكلام على أصــحاب الــدوائر من الأوليــاء في الثــالث والســبعين من الفتوحــات فراجعــه واللــه أعلم" انتهى منــه بلفظــه (اليــواقيت والجواهر ج2 ص83).

وهكذا استطاع المتصوفة نقل عقائد الصـابئة الـذي كـانوا في عهـد إبراهيم عليه السلام وهم عبدة النجوم والكواكب الذين يؤمنون بأن لكل كـوكب روحـاً يتصـرف في الخلـق، وصـوروا تماثيـل لروحانيـة القمــر والشــمس والمشــتري والزهــرة.. الخ.. وعبــدوها.. نقــل

الصوفية هذه العقائد الوثنية الجاهلية إلى الفكر الإسلامي وجعلوها عقيدة من عقائد المتصوفة ومن أجل ذلك قال ابن عربي :

عقد البرية في الإله عقائدا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

وما ذلك إلا لأنه يؤمن أنه ليس إلا الله في الكون !!!!

مدة حكم القطب ووظيفته:

ويستمر ابن عربي في تخريفاته فيذكر لنا مدة حكم القطب والأعمال المنوطة به فيقول كما نقل الشعراني:

"(فإن قلت) فهل مدة معينة للقطبية إذا وليها صاحبها لا يعزل منها حتى تنقضي؟

(فالجواب) ليس للقطبية مدة معينة فقد يمكث القطب في قطبيته سنة أو أكثر أو أقل إلى يوم إلى ساعة فإنها مقام ثقيل لتحمل صاحبها أعباء الممالك الأرضية كلها ملوكها ورعاياها. وذكر الشيخ في الباب الثالث والستين وأربعمائة أن كل قطب يمكث في العالم الذي هو فيه على حسب ما قدر الله عز وجل، ثم تنسخ دعوته بدعوة أخرى كما تنسخ الشرائع بالشرائع وأعني بالدعوة ما لذلك القطب من الحكم والتأثير في العالم فمن الأقطاب من يمكث في قطبيته الثلاث والثلاثين سنة وأربعة أشهر ومنهم من يمكث فيها ثلاث سنين ومنهم كما يؤيد ذلك مدة خلافة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي فإنهم كانوا أقطاباً بلا شك" انتهى (اليواقيت والجواهرج2 ص 83).

ابن عربي القطب الأعظم:

وبالطبع بعد أن يصف ابن عربي كل هذا الوصف الخرافي للأقطاب والأبدال والأوتاد فلا بد أن يخص نفسه بلقب من هذه الألقاب. وتأبى كرامة ابن عربي طبعاً أن يختار لقباً دوناً، أو مرتبة صغيرة فيعلن عن نفسه أنه القطب الأعظم الذي لا أعظم منه أبداً يقول بالنص:

"لا أعرف في عصري هذا أحداً تحقق بمقام العبودية مثلي وذلك لأنني بلغت في مقام العبودية الغاية بحكم الإرث لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنا العبد المحض الخالص الذي لا يعرف للربوبية على أحد من العالم طمعاً، وقد منحني الله تعالى هذا المقام هبة

منه، ولم أنله بعمل وإنما هو اختصـاص إلهي" (اليـواقيت والجـواهر ص65،66)..

فانظروا أين يضع ابن عربي نفسه، إنه يضعها في القمة العليا التي لا تدانيها قمة، ويدعي كذباً مع ذلـك أنـه نـال ذلـك باختصـاص إلهي حتى لا يطالبه أحد بمسوغات هذا الاختيار ومؤهلاته.

وهكذا يعلن ابن عربي نفسه ملكاً متوجاً على مملكة البـاطن الـتي صورها الخيال الشيطاني المريض لهـذه العقليـة الصـوفية، ويجعـل من نفسه قطب الأقطاب ووارث الرسول صلى اللـه عليـه وسـلم، وعلم الأعلام، ويتبعه على هذا كل شيوخ التصوف الذين جاؤوا بعده فيجعلون منه الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر..

وهكذا اسـتطاع هـذا الزنـديق دارس الفلسـفة والـديانات القديمـة، وتخريفات الجاهلية في كل العصور أن يجمع كل مـا درسـه وينسـج منه عقيدة وثنية جاهلية حمقاء ويلبسها بإتقان وثعلبية نادرة الآيــات والأحاديث القرآنية فتروج بذلك بين أيدي جهلة المسـلمين، ويتـاجر بها مجموعة الشياطين الذين قادوا هـذا الفكـر الصـوفي المنحـرف عبر القرون، والذين برروا له كل هذا الكفر والانحراف.

وهكذا أخي المسلم تـدرك الفـارق بين الولايـة الإسـلامية القرآنيـة، وبين ولاية هؤلاء الشياطين فأولياء الرحمن وصفهم الله تعــالى في كتابه فقال: {وعباد الـرحمن الـذين يمشـون على الأرض هونـاً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً* والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً* والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جنهم إن عذابها كـان غرامـاً* إنها ساءت مستقراً ومقاماً} (الفرقان:63-66).

فانظر كيف يمضون ليلهم كلهم في الصـلاة ويسـتغفرون اللـه بعـد ذلك ويخافون من عذاب النار مـع ذلـك، واسـمع قولـه تعـالى: {إن الـــذين هم من خشـــية ربهم مشـــفقون* والـــذين هم بآيـــات ربهم يؤمنـون* والـذين هم بـربهم لا يشـركون* والـذين يؤتـون مـا آتـوا وقلـــوبهم وجلـــة أنهم إلى ربهم راجعـــون* أولئـــك يســـارعون في الخيرات وهم لها سابقون} (المؤمنون:57-61).

فهؤلاء هم أولياء الله حقـاً خـائفون من ربهم مشـفقون من عذابـه، مؤمنون بربهم الواحد سبحانه وتعالى الذي ليس لـه نـد ولا شـريك ولا ظهير ولا معين، ومع كل ذلك يصلون ويصـومون ويخـافون أن لا يتقبـل اللــه أعمــالهم.. أين هــؤلاء الأوليــاء الصــادقون من أوليــاء

الشيطان الذين يزعمـون أن اللـه ملكهم الـدنيا والآخـرة، وأن اللـه أمنهم من كل خوف، وأنه صرفهم في العالم العلوي والسفلي وأن الله عقد لهم ألوية المجد والعـز وجعلهم جلسـاءه وخاصـته، وعقـد لهم الولاية في السماء وبايعتهم الملائكة هناك.. الخ.

أين الولايـة الإسـلامية من ولايـة الشـياطين المتقـولين على اللـه، الذين لم يتركوا صفة واحدة لله إلا نسبوها إلى أنفسـهم، الـذين لم يجعلـوا للـه تصـريفاً إلا بهم، ولا رحمـة إلا منهم، ولا إحسـاناً إلا من عندهم، ولا قدر ة إلا بوساطتهم، ومهما أفـاض الإنسـان في وصـف وقاحة هؤلاء الشياطين فلن يبلـغ عشـر معشـار مـا يسـتحقون ولن يكتب أيضاً شـيئاً قريبـاً ممـا سـودته أيـديهم في الافـتراء على اللـه والكذب على رسله الكرام.. هؤلاء الرسل الذين قال الله لأشرفهم وسيدهم محمد صلى الله عليه وسلم {قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومـا مسـني السـوء إن أنـا إلا نـذير وبشـير لقـوم يؤمنـون} (الأعـراف: 188).

والذي كان يقول هو صلى الله عليه وسلم [والله إني لرسـول اللـه لا أدري ما يفعل بي غداً] (رواه البخاري).

وكان يقول أيضاً [واعلموا أنه لا يدخل أحدكم الجنـة بعملـه]، قـالوا ولا أنت يا رسول الله، قال: [ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل] (متفق عليه).

فأين هذا مما يفترون ويقولون (لو بصـقت على النـار لأطفأتهـا)!!! ومن يقـول (أعطـاني اللـه التصـريف في الخلـق)!! ومن يقـول (سبحاني ما أعظم شأني)!!! ومن ومن؟..

أين أولياء الرحمن من أولياء الشيطان.. شتان.. شتان..!!!

الفصل الثاني عشر

ختم الولاية

نشأ في الفكر الصوفي منذ القرن الثالث الهجري دعوى كاذبة وهي أن الأولياء يختمون كما أن الأنبياء لهم نبي خاتم. وأول من أظهر هذه الفكرة ودعا رجل يسمى محمد بن علي بن الحسن الترمذي -ويسمونه الحكيم- وجد في أواخر القرن الثالث الهجري وهو مجهول سنة الولادة والوفاة. ولقد ألف كتاباً في هذا أسماه (ختم الأولياء) يقول في هذا الكتاب المذكور؛

"وما صفة ذلك الولي، الذي له إمامة الولاية ورياستها وختم الولاية؟

قال: ذلك من الأنبياء قريب، يكاد يلحقهم.

قال: فأين مقامه؟

قال: في أعلى منازل الأولياء، في ملك الفردانية، وقد انفرد في وحدانيته، ومناجاته كفاحاً في مجالس الملك، وهداياه من خزائن السعي.

قال:وما خزائن السعي؟

قال: إنما هي خزائن ثلاث: خزائن المنن للأولياء، وخزائن السعي لهذا الإمام القائد، وخزائن القرب للأنبياء عليهم السلام، فهذا خاتم الأولياء مقامه من خزائن المنن، ومتناوله من خزائن القرب: فهو في السعي أبداً فمرتبته ههنا، ومتناوله من خزائن الأنبياء عليهم السلام، قد انكشف له الغطاء عن مقام الأولياء ومراتبهم وعطاياهم وتحفهم" (ختم الولاية).

وقد تدرج الترمذي هذا في دعواه تلك تدرجاً إبليسياً خبيثاً حيث هو يجابه العالم الإسلامي بمثل هذه العقيدة الفاسدة، فيتذرع لنشر عقيدته الباطلة بتحريف النصوص القرآنية والحديثية فيزعم أن للأولياء البشرى في الحياة الدنيا مستدلاً بقوله تعالى: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون* الذين آمنوا وكانوا يتقون* لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم} (يونس:62-64). وأن الرسول بشر بعض أصحابه بالجنة، وأنه صلى الله عليه وسلم قد أخبر البشرى باقية في الرؤيا، أقول.. يتذرع الترمذي بهذه النصوص من القرآن

والسنة الصحيحة ليبث في عقائد المسلمين أن الولاية لا تنقطع وأن فضل الله على هذه الأمة لا يتوقف، وأن البشرى باقية بعد الرسالة، وأن الأولياء يصلون إلى معرفة الحق لأن الله في زعمه كشف عنهم الحجاب كلها ويقول في هذا الشأن بالنص:

"فهذه الطبقة التي يكبر في صدورهم (يعني علماء السنة الذين ينكرون هذه الترهات والأكاذيب) بلوغ الأولياء هذا المحل من ربهم فيدفعون هذا لجهلهم، لا يعلمون أن لله عباداً أغرقوا في بحر جوده، فجاد عليهم، بكشف الغطاء عن قلوبهم، عن عجائب، وأطلعهم من ملكه ما نسوا في جنبه كل مذكور، حتى تنعموا به في حجبه الربانية" (ختم الأولياء ص386).

ثم يستطرد الترمذي أيضاً عائباً على من يعيب على المتصوفة هذه الدعاوي الباطلة فيسميهم علماء حطامين أي أهل دنيا، وتارة بلعامين -نسبة إلى بلعام بن باعوراء- اليهودي الذي يذكر المفسرون أن الله أنزل في شأنه {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين} (الأعراف:175).

ثم يدعي الترمذي بعد ذلك للأولياء أنهم يخبرون ويغترفون مما يغترف منه الأنبياء. وأن الأولياء يبشرون (بالبناء للمجهول) كما يبشر الأنبياء ويرد على من يحتج عليهم أيضاً بقوله تعالى {فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون} انظر إليه يقول:

"فإذا ذكر شأن الأولياء قدروا أحوالهم على ما يرون من أمور نفوسهم فكذبوا نعم الله تعالى، ودفعوا منه وجهلوا أمره. فهذا من أعظم الفرية على الله تعالى..

قال له قائل: فإن بعضهم احتج بقوله (تعالى): {فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون} (.. وقال: إن الأمن من مكر الله أو ضلال هذه الطبقة، وهذا يؤدي إلى الزندقة). - وقال تعالى {قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون}..

والمحبة والسعادة والشقاوة غيب عند الله تعالى، لا يعلم إلا هو، .. وزعم أنك ناظرت يحيى بن معاذ في ذلك حتى بقي متحيراً.. وأن هذه الطبقة تقدم نفسها على الأنبياء..

قال له: أما قوله تعالى: {فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون} فهذا قوله تعالى، لا ريب فيه ولا في قبوله. وهو أنه لا يعلم ما حاله عند الله تعالى فإن أمن فهو خاسر جاهل. كأنه حكم على الله من

غير أن يحكمه. فأما من بشره اللـه فـرد بشـراه فقـد اجـترم، كمـا اجترم ذلك الآخر، فهذا من ذلك الوجـه، فحـق على من لا يعلم، أن لا يأمن، وحق على من أمن أن يأمن، فليس الأنبيـاء عليهم السـلام كانوا يؤمنون (من أنفسهم) ولكن لما أُمِّنوا أَمِنُوا والأنبياء لهم عقدة النبـوة والأوليـاء لهم عقـدة الولايـة.." أ.هــ (ختم الأوليـاء ص387-388).

ويستطرد الترمذي مجيباً في زعمـه على من يقـول للمتصـوفة في دعـاواهم هـذه أن هـذا ادعـاء لعلم الغيب ولا يعلم الغيب إلا اللـه، فيجيب الترمذي على ذلك بجواب عجيب حيث يقول:

"وأمـا قولـه {لا يعلم من في السـماوات والأرض الغيب إلا اللـه} فعلم الغيب عند الله، وكم من غيب أطلـع اللـه عليـه رسـوله فأيـة حجة في هذا؟ وإنما يريد أن يروج بمثل هذا الأغبيـاء. وكم من غيب أطلع الله عليه أهل الإلهام حتى نطقوا به وأهل الفراسة..".

وبالطبع يمهد الترمذي لهذا كله الذي يهدم به الدين من أساسه بأن اللـه في زعمـه قـد أعطـاه الـدليل على أن هـذا الـوحي المزعـوم صدق، فيقول رداً على من ينكر ذلك عليهم:

"ويقال (له أيضاً): ما قولك في محدِّث، بشر بالفوز والنجـاة فقـال: رب اجعل لي آية تحقق لي ذلك الخبر الذي جاءني، لينقطع (الشك والاعتراض) فقال: آتيك أن أطوي لك الأرض حتى تبلغ بيتي الحرام في ثلاث خطوات، وأجعـل لـك البحـر كـالأرض تمشـي عليـه كيـف شئت، وأجعل لك التراب والجـو في يـديك ذهبـاً.. ففعـل هـذا فهـل ينبغي له أن يطمئن إلى هذه البشرى، بعد ظهـور هـذه الآيـة أم لا؟ فإن قال: لا، فقد عاند واجترأ على الله وحلت به دائرة السوء. وإن قال: نعم. فقد ذهب قوله واحتجاجـه الظلمـاني" (ختم الأوليـاء ص 401).

ثم يبالغ الترمذي بعـد ذلـك في وصـف هـذا الـولي المزعـوم الـذي يدعي أنه خـاتم الأوليـاء فيقـول في ص406 من المصـدر المـذكور (ختم الأولياء): "فهذا سيد الأولياء وأمـان أهـل الأرض ومنظـر أهـل السماء، وخالصة الله وموضع نظره وسوطه في خلقه" أ.هـ

وأن هذا الذي حصل عليه ذلك الولي إنما كان باجتباء من الله ومنة منه فهو الذي جذبه إليه، وأراد به ذلك.. ثم يسـأل الترمـذي سـؤالاً

يجيب عنه وهو كيف تقدم الختم هـذا الأوليـاء فيقـول (ختم الأوليـاء ص421):

"قال: فيم تقدم الأولياء واحتاجوا إليه؟

قال: بأن أعطي ختم الأوليـاء. فبـالختم تقـدمهم، فصـار حجـة اللـه على أوليائه، وقد ذكـرت في أول الكتـاب سـبب الختم.. (وهـو) أن النبـوة أعطيت الأنبيـاء عليهم السـلام، ولم يعطـوا الختم فلم تخـل تلك الحظوظ من هنات النفس ومشاركتها، وأعطي نبينا وختمت له نبوته. كالعهد الذي يكتب ثم يختم، فلا يصـل أحـد إلى أن يزيـد فيـه ولا أن ينقص منه، وقد وصفت شأنه فيما تقدم.

وكذلك هذا الولي سير به (الله تعالى) على طريق محمد صلى الله عليه وسلم، بنبوته، مختوماً بختم الله، فكما كان محمـد صـلى اللـه عليه وسلم حجة على الأنبياء فكـذلك يصـير هـذا الـولي حجـة على الأولياء، أعطيتكم ولايتي فلم تصـونوها من مشـاركة النفس. وهـذا أضـعفكم وأقلكم عمـراً قـد أتى بجميـع الولايـة صـدقاً، فلم يجعـل للنفس فيها نصيباً ولا تلبيساً.

وكـان ذلـك في الغيب من منـة اللـه تعـالى على هـذا العبـد، حيث أعطـاه الختم لتقـر بـه عين محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم، في الموقـف حـتى قعـد الشـيطان في معـزل، وليسـت النفس فبقيت محجوبة، فيقر له الأوليـاء يومئـذ بالفضـل عليهم. فـإذا جـاءت تلـك الأهوال لم يك مقصراً. وجاء محمد صلى اللـه عليـه وسـلم بـالختم فيكون أماناً لهم من ذلك الهـول. وجـاء هـذا الـولي بختمـه فيكـون أماناً لهم بصدق الولاية، فاحتاج إليه الأولياء.." أ.هـ

وهكذا يجعل الترمذي لهذا الولي المزعوم ما جعله الله لنبينا محمد صـلى اللـه عليـه وسـلم.. وصـدق اللـه سـبحانه وتعـالى في شـأن المشـركين {بـل يريـد كـل امـرئ منهم أن يـؤتى صـحفاً منشـرة} (المدثر:52).

وهـؤلاء الزنادقـة يريـد كـل منهم أن يـوحى إليـه كمـا يـوحى إلى الرسول، بل لم يتركوا فضلاً مما فضل الله به عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم إلا انتحلوه لأنفسهم بل زادوا عليه، واحتقـروا منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المنازل التي يزعمون أن الله قد بلغهم إياها.

لقد وضع الترمذي المسمى بالحكيم في الكتاب (ختم الولاية) بـذور الشر الكبرى في الفكر الصوفي، وكل الـذين جـاؤوا بعـده إنمـا هم عيال عليه وتبع له في كل هذا الباطل الذي بثـه في كتابـه، وخاصـة في مسألة الختم الولاية فلم يأت متصـوف بعـد الترمـذي هـذا من مشهوري المتصوفة إلا وادعى ختم الولاية لنفسه. وهـا أنـذا أسـوق بعضاً من ذلك.

ابن عربي وختم الولاية:

يقول ابن عربي المتوفي سنة 638هـ مدعياً لنفسه ختم الولاية:

"وأمـا ختم الولايـة المحمديـة فهي لرجـل من العـرب. من أكرمهـا أصلاً ويـداً. وهـو في زماننـا اليـوم موجـود. عـرفت بـه سـنة خمس وتسعين وخمسمائة ورأيت العلامة التي له قد أخفاها الحق فيه من عباده، وكشفها لي بمدينة فاس، حتى رأيت خاتم الولاية منه –وهـو خاتم النبوة المطلقة- لا يعلمها كثير من الناس وقد ابتلاه الله بأهـل الإنكار عليه فيما يتحقق به من الحق في سره من العلم بـه. وكمـا أن الله ختم بمحمد صلى الله عليه وسلم نبوة الشـرائع كـذلك ختم الله بالختم المحمدي الولاية الـتي تحصـل من الـورث المحمـدي لا التي تحصل من سائر الأنبياء فإن من الأولياء من إبـراهيم وموسـى وعيسى، فهؤلاء يوحدون بعد الختم المحمدي، وبعده فلا يوجـد ولي على قلب محمد صلى اللـه عليـه وسـلم، هـذا معـنى خـاتم الولايـة المحمدية" (الفتوحات ج2 ص49).

ويقول في موضع آخر من فتوحاته الضالة: "ومنهم (يعـني الأوليـاء) الختم، وهو واحد لا في كل زمان، بل واحد في العالم يختم الله بـه الولايــة المحمديــة فلا يكــون في الأوليــاء المحمديــة أكــبر منــه" (الفتوحات ج2 ص9).

وهـذه العقيـدة المفـتراة الـتي لم يـأت بهـا كتـاب ولا سـنة، وإنمـا افتراها الترمذي وجاء هؤلاء الملاحـدة لينسـجوا على منوالـه، وكـل منهم يريـد فيهـا شـيئاً، فبـالرغم من أن الترمـذي لم يفضـل خـاتم الأولياء المزعوم هذا على خاتم الأنبياء صلى الله عليـه وسـلم فـإن ابن عـربي جـاء من بعـده لـيزعم أن خـاتم الأوليـاء -يعـني نفسـه- أفضل من خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم وذلك بناء على تفضيله الولي على النبي كما قال في شعره:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

ويأتي إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه البخاري ومسلم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين].

فيزعم أن اللبنة التي رآها الرسول هي لبنة فضة، وأما خاتم الأولياء فإنه يرى أن الجدار قد نقص لبنتين لبنة فضة ولبنة ذهب،وأنه يرى نفسه قد انطبع موضع هاتين اللبنتين. يقول ابن عربي: "ولما مثل النبي صلى الله عليه وسلم النبوة بالحائط من اللبن، وقد كمل سوى موضع لبنة، فمكان الرسول صلى الله عليه وسلم تلك اللبنة، غير أنه صلى الله عليه وسلم لا يراها إلا كما قال: لبنة واحدة. وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤيا، فيرى ما مثله به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرى في الحائط موضع اللبنتين واللبن، من ذهب وفضة. فلا بد أن يرى نفسه تنطبع في موضع تينك اللبنتين، فيكون خاتم الأولياء تينك اللبنتين، فيكمل الحائط".

والسبب الموجب لكونه رآها لبنتين، أنه تابع لشرع خاتم الرسل في الظاهر، وهو موضع اللبنة الفضية، وهو ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام. كما هو آخذ عن الله، في السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه من الأحكام، كما هو آخذ عن الله، لأنه يرى الأمر على ما هو عليه - فلا بد أن يراه هكذا، وهو موضع اللبنة الذهبية في الباطن، فإنه آخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك، الذي يوحى به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. فصوص الحكم أ.هـ الفص الشيسي.

والذين جاؤوا بعد ابن عربي من المتصوفة السائرين في هذا الدرب المظلم رددوا هذه العقيدة في كتبهم وزاد كثير من مشايخهم فزعم لنفسه هذه الولاية الكبرى التي يتم بها -في زعمهم- الولاية، وقد تصدى الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى ورضي الله عنه لهذه المزاعم في أماكن كثيرة من كتبه ومن ذلك قوله:

"وكذا خاتم الأولياء لفظ باطل لا أصل له. وأول من ذكره محمد بن علي الحكيم الترمذي. وقد انتحله طائفة كل منهم يدعي أنه خاتم الأولياء: كابن حموي، وابن عربي، وبعض الشيوخ الضالين بدمشق

وغيرها، وكل منهم يدعي أنه أفضل من النبي صلى الله عليه وسلم من بعض الوجوه، إلى غير ذلك من الكفر والبهتان، وكل ذلك طمعاً في رياسة خاتم الأولياء لما فاتتهم رياسة خاتم الأنبياء، وقد غلطوا، فإن خاتم الأنبياء إنما كان أفضلهم للأدلة الدالة على ذلك، وليس كذلك خاتم الأولياء، فإن أفضل أولياء هذه الأمة السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر رضي الله عنه، ثم عمر رضي الله عنه، ثم عثمان رضي الله عنه، ثم علي رضي الله عنه، وخير قرونها القرن الذي بعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وخاتم الأولياء في الحقيقة آخر مؤمن نقي يكون في الناس، وليس ذلك بخير الأولياء، ولا أفضلهم، بل خيرهم وأفضلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم عمر اللذان ما طلعت شمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل منهما" (الفتاوي: ج11 ص444).

وقال رحمه الله أيضاً:

".. إن دعوى المدعي وجود خاتم الأولياء، على ما ادعوه، باطل لا أصل له، ولم يذكر هذا أحد من المعروفين قبل هؤلاء إلا أبو عبدالله محمد بن علي الترمذي الحكيم في كتاب (ختم الولاية) وقد ذكر في هذا الكتاب وهو خطأ وغلط مخالف للكتاب والسنة والإجماع. وهو رحمه الله تعالى وإن كان فيه فضل ومعرفة، ومن الكلام الحسن المقبول والحقائق النافعة أشياء محمودة (قلت: رحم الله ابن تيمية: أي شيء محمود في كتابه وقد بناه من أوله لآخره على أن الأولياء معصومون، وأن الله هو يختصهم ويختارهم، وأن التكليف ليس شرطاً في ولايتهم، وأنهم يعلمون الغيب كله.. بل أسس في كتابه ختم الولاية كل أصول الشر لمن جاء بعده)، ففي كلامه من الخطأ ما يجب رده.

ومن أشنعها ما ذكره في ختم الولاية: مثل دعواه فيه أنه يكون في المتأخرين من درجته عند الله أعظم من درجة أبو بكر وعمر وغيرهما: ثم إنه تناقض في موضع آخر، لما حكى عن بعض الناس، أن الولي يكون منفرداً عن الناس، فأبطل ذلك واحتج بأبي بكر وعمر وقال: يلزم هذا أن يكون أفضل من أبي بكر وعمر" (وأبطل ذلك).

ومنها أنه ذكر في كتابه ما يشعر أن ترك الأعمال الظاهرة، ولو أنها التطوعات المشروعة، أفضل في حق الكامل ذي الأعمال القلبية،

وهذا أيضاً خطأ عند أئمة الطريق. فإن أكمل الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وما زال محافظاً على ما يمكنه من الأوراد والتطوعات البدنية إلى مماته..

وقال أيضاً:

"ومنها ما ادعاه من خاتم الأولياء، الذي يكون في آخر الزمان وتفضيله وتقديمه على من تقدم من الأولياء، الذي يكون في آخر الزمان وتفضيله وتقديمه على من تقدم من الأولياء، وأنه يكون معهم خاتم الأنبياء مع الأنبياء، وهذا ضلال واضح، فإن أفضل أولياء الله من هذه الأمة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأمثالهم، من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، كما ثبت ذلك بالنصوص المشهورة، وخير القرون قرن صلى الله عليه وسلم، كما في الحديث الصحيح: [خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم]..

ولفظ خاتم الأولياء لا يوجد في كلام أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، ولا له ذكر في كتاب الله ولا سنة رسوله، وموجب هذا اللفظ أنه آخر مؤمن تقي، (ومهما يكن الأمر) فإن الله يقول: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون} الآية.، فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً. وهم على درجتين: السابقون المقربون وأصحاب اليمين المقتصدون، كما قسمهم الله تعالى في سورة فاطر وسورة الواقعة والإنسان والمطففين..

وإذا كان خاتم الأولياء آخر مؤمن تقي في الدنيا، فليس ذلك الرجل أفضل الأولياء ولا أكملهم، بل أفضلهم وأكملهم سابقوهم، الذين هم أخص بأفضل الرسل من غيرهم..".

وقد رد الإمام ابن تيمية رحمه الله أيضاً على ما ادعاه الترمذي (الحكيم) في ثبوت العصمة للأولياء بقوله:

".. وإن طائفة تدعي على أن الولي محفوظ وهو نظير ما يثبت للأنبياء من العصمة -والحكيم الترمذي قد أشار إلى هذا- فهذا باطل مخالف للسنة والإجماع، ولهذا اتفق المسلمون على أن من الناس من يؤخذ من قوله ويترك إلا الرسول صلى الله عليه وسلم.. وبهذا صار جميع الأولياء مفتقرين إلى الكتاب والسنة، لا بد

لهم أن يزنوا جميع أمورهم بآثار الرسول فما وافق آثار الرسول فهو الحق وما خالف ذلك فهو باطل..".

وقال أيضاً: "ثم إن صاحب الفصوص (يعني ابن عربي) وأمثاله بنوا الأمر على أن الولي يأخذ عن الله بلا وساطة والنبي يأخذ بوساطة الملك. ولهذا صار خاتم الأولياء أفضل عندهم من هذه الجهة، وهذا باطل وكذب فإن الولي لا يأخذ عن الله إلا بوساطة الرسول وإن كان محدثاً (يشير الإمام ابن تيمية بقوله (محدثاً) إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان يقول [قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منم واحد، فإن عمر بن الخطاب منهم] قال ابن وهب: تفسير محدثون أي ملهمون (متفق عليه))، فقد ألقي إليه بشيء وجب عليه أن يزنه بما جاء الرسول من الكتاب والسنة" أ.هـ

ولا يظنن ظان أن قول الإمام ابن تيمية أن الولي يكون (محدثاً) أن الله يكلمه، وإنما ذلك مجرد الإلهام الذي لا يستطيع الولي بأن يجزم بأنه من الله أو من الشيطان إلا بعرضه على ميزان الكتاب والسنة. وباطمئنان قلب المؤمن المتبع لشرع الله إلى مثل هذا الإلهام، وأما هذه المخاريق والخزعبلات والكفر والزندقة التي جاء بها المتصوفة فليست إلا وساوس شياطين إذ كيف يكون إلهاماً من الله وهو يدعي أنه خاتم الأولياء وأنه أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم وأنه يعلم الغيب كله وأنه يتصرف في الأكوان.. الخ هذه الكفريات. ولذلك قال الإمام ابن تيمية في هذا الصدد:

"والأولياء وإن كان فيهم محدث، كما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [إنه كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم فعمر] فهذا الحديث يدل على أن أول المحدثين من هذه الأمة عمر، وأبو بكر أفضل منه إذ هو صديق، والمحدث وإن كان يلهم ويحدث من جهة الله تعالى فعليه أن يعرض ذلك على الكتاب والسنة فإنه ليس بمعصوم.." أ.هـ

ولا شك بعد هذا أن دعوى ختم الولاية هي من الكفر الصريح الذي لا يجوز أن يماري فيها مؤمن يعي عن الله وعن الرسول صلى الله عليه وسلم لا سيما إذا انضاف إلى ذلك الزعم بتفضيل خاتم الأولياء هذا على خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم. وقد نص ابن تيمية رحمه الله في مواطن كثيرة على كفر من زعم ذلك كقوله:

"ومن الأنواع التي في دعواهم، أن خـاتم الأوليـاء أفضـل من خـاتم الأنبيـاء من بعض الوجـوه، فـإن هـذا لم يقلـه أبـو عبداللـه الحكيم الترمـذي (قلت: حقـاً لم يقـل هـذا نصـاً ولكن مـا وصـف بـه خـاتم الأولياء المزعوم يجعله في منزلة فوق النـبي نفسـه) ولا غـيره من المشايخ المعـروفين. بـل الرجـل أجـل قـدراً وأعظم إيمانـاً من أن يفتري هذا الكفر الصريح ولكن أخطأ شبراً ففرعوا على خطئـه مـا صار كفراً.

وأعظم من ذلـك زعم (ابن عـربي) أن الأوليـاء والرسـل، من حيث ولايتهم، تـابعون لخـاتم الأوليـاء وأخـذوا من مشـكاته. فهـذا باطـل بالعقـل والـدين فـإن المتقـدم لا يؤخـذ من المتـأخر، والرسـل لا يأخذون من غيرهم، وأعظم من ذلك أنه جعلهم تابعين له في العلم بالله، الذي هو أشـرف علـومهم، وأظهـر من ذلـك أنـه جعـل العلم بالله هو مذهب أهل وحدة الوجود، القائلين بأن وجود المخلـوق هـو عين وجود الخالق!

فليتدبر المؤمن هذا الكفر القبيح درجة بعد درجة (!!..).

فقد زعم أنه أعلم بالله من خاتم الأنبيـاء، وأن تقدمـه عليـه بـالعلم بالله، وتقدم خاتم الأنبيـاء بالتشـريع فقـط. وهـذا من أعظم الكفـر الذي يقع فيه غالية المتفلسفة، وغالية المتصوفة، وغالية المتكلمـة، الـذين يزعمـون أنهم في الأمـور العلميـة أكمـل من الرسـل.. وأن الرسل إنما تقدموا عليهم بالتشريع العام الذي جعل لصـلاح النـاس في دنياهم. وقد يقولون إن الشرائع قوانين عدلية، وضعت لمصلحة الدنيا، فأما المعارف والحقائق والدرجات العليـا في الـدنيا والآخـرة فيفضلون فيها أنفسهم وطرقهم على الأنبياء وطرق الأنبياء" (حيـق مذهب الاتحاديين لابن تيمية ص115-123).

وأظن بعـد هـذا الكلام الصـريح الواضـح والـدليل الناصـع لا يرتـاب مسلم مؤمن بالله في كفر هذه الطائفة المارقة التي فتحت البـاب لكل زندقة وكفر ليدخل دين الإسلام، وللأسف إن ذلـك كـل يحـدث باسم التقوى والصلاح والزهد والتصـوف والتعبـد وإصـلاح القلـوب، والوصـول إلى غايـة الـدين. وهـؤلاء المتصـوفة في حقيقـة أمـرهم متبعـون في دينهم للملاحـدة الـذين أرادوا هـدم الـدين.. واقـرأ مـا يقوله ابن تيمية أيضاً في ذلك:

"ولهذا كان الملاحدة من المتصوفة على طريقهم، كابن عربي وابن سبعين وغيرهما، قد سلكوا مسلك ملاحدة الشيعة، كأصحاب رسائل إخوان الصفا واتبعوا ما وجدوه من كلام صاحب الكتب المضنون بها على غير أهلها وغير ذلك مما يناسب ذلك، فصار بعضهم يرى أن باب النبوة مفتوح لا يمكن إغلاقه. فيقول كما كان ابن سبعين يقول: "لقد زَرَّبَ ابن آمنة (ضيق على الناس ويعني بابن آمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، حيث قال [لا نبوة بعدي]"! أو يرى، لكونه أشد تعظيماً للشريعة، أن باب النبوة قد أغلق؛ فيدعي أن الولاية أعظم من النبوة وأن خاتم الأولياء أعلم بالله من خاتم الأنبياء، وأن خاتم الأنبياء بل وجميع الأنبياء إنما يستفيدون معرفة الله من مشكاة خاتم الأولياء. ويقول إنه يوافق النبي في معرفة الشريعة العملية لأنه يرى الأمر على ما هو عليه، فلا بد أن يراه هكذا، وأنه أعلم من النبي بالحقائق العلمية لأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك، الذي يوحى به إلى الرسول..

فمحمد عندهم يأخذ من الملك الذي هو عندهم خيال في نفسه، وذلك الخيال يؤخذ عن العقل. فمحمد عندهم يأخذ عن جبريل وجبريل يأخذ عن ما علمه من النفس الفلكية، فزعم ابن عربي أنه يأخذ من العقل، وهو المعدن الذي يأخذ منه جبريل فإن ابن عربي وهؤلاء يعظمون طريق الكشف والمشاهدة والرياضة والعبادة، ويذمون طرق النظر والقياس وما يدعونه من الكشف والمشاهدة، عامته خيالات أنفسهم، ويسمونه حقيقة.." (الرد على المنطقيين، لابن تيمية ص486-489).

محمد عثمان الميرغني وختم الولاية:

وممن ادعى ختم الولاية لنفسه محمد عثمان الميرغني السوداني المتوفي سنة 1268هـ.

والذي كان يقول عن نفسه "من رآني ومن رأى من رآني إلى خمسة لم تمسه النار! ولا حرج على ذلك فإن الله يختص برحمته من يشاء" (انظر تاج التفاسير لمحمد عثمان الميرغني ص4).

وسمى نفسه الختم، أو خاتم الأولياء، وجعل هذا الاسم أيضاً علماً على طريقته الصوفية حيث سماها (الختمية) أي خاتمة الطرق جميعاً!! ومما يدعيه في تفضيل نفسه على سائر الأمة جميعاً بمن فيهم أبو بكر عمر ما يقوله في كتابه الذي سماه تاج التفاسير ص

137 عند قوله تعالى: {أو من كـان ميتـاً فأحيينـاه وجعلنـا لـه نـوراً يمشي به في الناس} يقول:

"ولما وصلت في التفسـير إلى هـذا الموضـع رأيت في تلـك الليلـة المصطفى صلى اللـه عليـه وسـلم في محفـل من الرسـل الكـرام ويقول لي الأنبياء من نوري، وطـارت نقطـة نـور منـه فتخلـق منهـا صـورة سـيدنا إسـماعيل الـذبيح فقـال لي هكـذا خلقـوا من نـوري والأولياء من نور الختم ثم رأيته تلـك الليلـة عن يمينـه جبريـل وعن يده اليسرى ميكائيل وأمامه الصديق وخلفه الإمـام علي، فقـال لي صلى الله عليه وسلم بعد أن دنوت منه وقبلت جبهته الكريمـة: مـا قام بأمر الله والمؤمنين أحد بعدي مثلك شكر الله سعيك فقلت له يا رسول اللـه، فقـال تعبت في المؤمـنين ونصـحتهم مـا تعب فيهم أحد بعدي مثلك فقلت له أأرضاك ذلك؟ قال أرضـاني وأرضـى اللـه من فوق سبع سماواته وعرشه وحجبه. ثم نـادى رضـوان فقـال يـا رضوان: عمر جناناً ومسـاكن لابـني محمـد عثمـان وأبنائـه وصـحبه وأتباعه، وأتباع أتباعه إلى يوم القيامة: ثم قال يا مالك فحضر فقال عمر: في النار مواضع لأعداء محمد عثمان إلى يوم القيامة. وأطال الكلام في الواقعـة ونسـأل اللـه التوفيـق لشـكر النعم بحـق المصطفى صاحب الأسرار الجامعة" أ.هـ منه بلفظه..

وفي هذه الرؤيا المزعومة كل الكفر والشرك. فالأنبيـاء لم يخلقـوا من نور الرسول كما زعم في رؤياه بل النبي صلى الله عليه وسلم بشر كسائر الناس في البشرية لقولـه تعـالى: {قـل إنمـا أنـا بشـر مثلكم يـوحى إلي أنمـا إلهكم إلـه واحـد فمن كـان يرجـو لقـاء ربـه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً} (الكهف:110).

فليس مخلوقاً من نور كما زعموا بل من يقول هذا يجعـل الرسـول جزءاً من الله وهذا كفر كما قال الله للمشـركين: {وجعلـوا لـه من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين}.

فمن قال إن الرسول خلق من نور الله فهو كـافر، ومن قـال أيضـاً خلق من نور عرش اللـه فهـو كـافر متقـول على اللـه مـا لم يقـل، متقـول على رسـول اللـه مـا لم يقلـه. وأمـا الحـديث الموضـوع المكذوب على رسول الله والذي فيـه أن جـابراً سـأل رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم ما أول خلق الله؟ فقال: نـور نبيـك يـا جـابر، فهو حديث موضوع باتفـاق أئمـة الحـديث جميعـاً على وضـعه وأنـه كذب محض مخالف لما صح عن الرسول صلى الله عليه وسلم من

حديث ابن عمر أن أول شيء خلقه الله سبحانه وتعالى هو القلم فقال له اكتب. قال وما أكتب؟ قال اكتب ما كان وما يكون إلى يوم القيامة. (متفق عليه)، وأما قوله الأولياء قد خلقوا من نور الختم!! يعني محمد عثمان الميرغني فهذا ليس كذباً فقط ولكنه كذب وصفاقة وسخافة تضحك العقلاء، فما النور الذي كان مع محمد عثمان حتى يخلق الله منه جميع الأولياء!! ومتى كان الأولياء قد خلقوا من نور، والملائكة هم الذين خلقهم الله من النور!! وأما الأولياء والأنبياء فبشر كالبشر فضلهم الله بعبادته وطاعته والإيمان به. وأما الإدعاء بأن الرسول قد أمر رضوان أن يبني لمحمد عثمان وأتباعه وذريته وأهل بيته.. الخ، هذه السخافات فشيء لم يدعيه الرسول لنفسه فضلاً عن أن يجعلها لرجل كان أهم ما امتاز به هو أن مهد الطريق للاستعمار الإنجليزي في السودان، واستطاع أن يأكل أموال الناس بالباطل بما لا مثيل له فقد استحوذ على أموال البسطاء والمساكين والفقراء.. وأن يتزوج مئات النساء وينجب عشرات الأطفال!! وأما أن الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر مالكاً خازن النار أن يعمر مساكن لأعداء محمد عثمان إلى يوم القيامة.. هكذا.. فالنبي لا يأمر ملائكة الله من عند نفسه بل قال له سبحانه: {ليس لك من الأمر شيء}!! فلا يتصرف في الكون كما يزعمون، بل الرسول عبد كامل العبودية لربه سبحانه وتعالى يتصرف بأمر مولاه وهو أجل وأعظم صلى الله عليه وسلم أن يأتي لرجل في المنام ويعطيه الجنة كما يشاء له ولذريته وأتباعه، ويعطي النار لأعدائه.. هكذا.. وأين الله سبحانه وتعالى أن يتصرف مخلوق في ملكه كما يشاء المخلوق.. ودون الرجوع إلى الخالق سبحانه وتعالى. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وحاشا الرسول صلى الله عليه وسلم ما يفتريه عليه المفترون.. وهؤلاء يصدق فيهم قول النبي صلى الله عليه وسلم [من أرى عينيه ما لم تراءيا أمر يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل].

أي أن من قال: رأيت في النوم كذا وكذا وليس بذلك فهذا قد رأى في عينه ما لم ترءيا، وإن كان رأى حقاً فإنما ذلك من الشيطان حتماً لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأت بعد مماته بما يخلف شريعته في حياته صلى الله عليه وسلم.

أحمد التجاني وختم الولاية:

وممن ادعى لنفسه ختم الولاية أيضاً بصفاقة ليس بعدها صفاقة أحمد التجاني الفاسي المتوفي سنة 1230هـ وهذا التجاني جاء ليكذب جميع الذين ادعوا الختمية قبله على ألف سنة تقريباً. فإذا كان أول من ادعاها هو محمد بن علي بن الحسن الترمذي المسمى بالحكيم وكان ذلك في أواخر القرن الثالث الهجري فقد جاء التجاني في القرن الثالث عشر ليكذب جميع الذين ادعوا الختمية قبله وليزعم لنفسه أن الله قد ختم الأولياء به حقاً وصدقاً، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بشره بذلك.

قال صاحب كتاب رماح حزب الرحيم على نحور حزب الشيطان الرجيم:

"قال صاحب الرماح ما نصه: وشيخنا التجاني ولد عام خمسين ومائة وألف ووقع له الإذن من النبي صلى الله عليه وسلم يقظة لا مناماً بتربية الخلق على العموم والإطلاق سنة ألف ومائة وست وتسعين، قال أخبرني سيدي محمد الغالي أن الشيخ عاش وهو في مرتبة الختمية ثلاثين سنة وإذا تأملت هذا علمت أن الختمية لم تثبت لأحد قبل شيخنا وأن أحداً ما ادعاها وثبت على ادعائها لنفسه وأما شيخنا وسيدنا ووسيلتنا إلى ربنا سيد أحمد بن محمد الشريف الحسني التيجاني قال: أخبرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأني أنا القطب المكتوم منه إلي مشافهة يقظة لا مناماً فقيل له ما معنى المكتوم؟ فقال هو الذي كتمه الله تعالى عن جميع خلقه حتى الملائكة والنبيين إلا سيد الوجود صلى الله عليه وسلم فإنه علم به وبحاله وهو الذي حاز كل ما عند الأولياء من الكمالات الإلهية واحتوى على جميعها وأكبر من هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن لله ثلاثمائة خلق من تخلق بواحد منها أدخله الله الجنة وما اجتمعت في نبي ولا ولي إلا في سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وأما الأقطاب الذين بعده حتى الحجة العظمى ابن عربي الحاتمي فإنما يعلمون ظواهرها فقط ويسمون المحمديين وبه ختم الله الأقطاب المجتمعة فيهم الأخلاق والإلهية وهذه الأخلاق لا يعرفها إلا من ذاقها ولا تدرك بالوصف ولا يعرف ما فيها إلا بالذوق وقال إن الفيوض التي تفيض من ذات سيد الوجود صلى الله عليه وسلم تتلقاها ذات الأنبياء وكل ما فاض وبرز من ذات الأنبياء تتلقاه ذاتي ومني يتفرق على جميع الخلائق من نشأة العالم إلى النفخ في الصور، وخصصت بعلوم بيني وبينه منه إلى مشافهة

لا يعلمها إلا الله عز وجل بلا واسطة قال أنا سيد الأولياء كما كان صلى الله عليه وسلم سيد الأنبياء" أ.هـ منه.

وهكذا تعلم أخي المسلم ما يتمتع به هؤلاء القوم من صفاقة وكذب سبقوا به الأولين والآخرين فهؤلاء هم يكذب بعضهم بعضاً، ويدعي كل منهم لنفسه ختم الولاية وهو شيء لم يأت في كتاب ولا سنة وإنما افتراه لهم مفتر فتتابعوا وراءه على مدى ألف ومائة سنة إلى اليوم لم أقرأ عن شيخ صوفي مشهور إلا ادعى هذا لنفسه ولكنني لم أجد أكثر كذباً وصفاقة من هذا أحمد التجاني الذي ادعى أنه قد تحقق بكل الأخلاق الإلهية وعددها ثلاثمائة خلق ولما يتحقق بها إلا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كذا، وجميع الأولياء عرفوا ظاهرها فقط وأما أحمد التيجاني (الكذاب) فقد تحقق بها تماماً، ثم تسأل أخي المسلم ما هي هذه الأخلاق فيقال لك إنها أخلاق ذوقية لا يعرفها إلا من ذاقها فقط كيف تكون الأخلاق أذواقاً يا قوم، وكيف تكون هذه هي أخلاق الله التي تخلق بها أحمد التجاني حقاً وصدقاً!!..

إن هذا المفتري لم يترك فرية من الفرى والأكاذيب التي افتراها من قبله على هذا الطريق الهالك طريق التصوف إلا افتراها هو لنفسه فقد زعم هنا أيضاً أن الله ينزل الفيوض (العلوم الغيبية) على الرسول محمد وأن الرسول محمد هو الذي يفاض منه على سائر الأنبياء، ثم يفاض من الأنبياء جميعاً على شخص أحمد التجاني فقط الذي يقوم بإمداد جميع الأولياء. بعد ذلك بهذه العلوم منذ خلق آدم وحتى النفخ في الصور!! انظر إلى هذا الكذب الملفق ما أعظمه وأشنعه. لقد افترى الفرية رجال قبله فلم يهدأ له بال حتى نسب ذلك إلى نفسه. انظر هنا إلى النص الآتي كيف يناقش من يذكر أمامه فضيلة من الفضائل المزعومة أيضاً لشيخ من شيوخ التصوف. قال صاحب الرماح أيضاً ما نصه:

"ومدده الخاص به (يعني الشيخ التجاني) إنما يتلقاه منه صلى الله عليه وسلم ولا اطلاع لأحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على فيضه الخاص به لأن له مشرباً معهم منه صلى الله عليه وسلم قال رضي الله عنه وأرضاه وعنا به مشيراً بإصبعه السبابة والوسطى روحي وروحه صلى الله عليه وسلم هكذا، روحه صلى الله عليه وسلم تمد الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام وروحي تمد الأقطاب والعارفين والأولياء من الأزل إلى الأبد وسبب ذلك أن

بعض أصحابه تحاور مع بعض الناس في قوله رضي الله عنه وأرضاه وعنا به كل شيوخ أخذوا عني في الغيب فحكي له ذلك فأجاب رضي الله عنه وأرضاه وعنا به ما ذكر.

وقال: نسبة الأقطاب معي كنسبة العامة مع الأقطاب وقال الشيخ عبدالقادر الجيلاني قال قدمي هذا (كذا) على رقبة كل ولي لله تعالى يعني أهل عصره وأما أنا فقدماي هاتان جميعها (وكان متكئاً فجلس وقال) على رقبة كل ولي لله تعالى من لدن آدم إلى النفخ في الصور" أ.هـ..

فانظر هذا الكذب والإفتراء. فإذا كان الجيلاني قد نسب إليه قوله مفصلاً لنفسه: قدماي هاتان على رقبة كل ولي لله تعالى!! فإن التجاني لم يهدأ باله حتى فسر كلام الجيلاني بأن هذا في وقته فقط وأما هو فقدماه على رقبة كل ولي لله تعالى من خلق آدم إلى النفخ في الصور!! فانظر إلى هؤلاء الذين يدوسون بأقدامهم على أولياء الله تعالى ويفضلون أنفسهم على هذا النحو. وهذه الكلمات منهم إن دلت على شيء فإنما تدل على مقدار الوقاحة والكذب الذي تحلى به هؤلاء، وعلى مقدار الجهل والفساد والتردي الذي وصلت إليه الأمة بأن تجعل أمثال هؤلاء المفترين الوقحين هم سادتها وقادتها ووسيلتها إلى الله وأن تملك رقابها وأموالها وعقولها لأمثال هؤلاء حيث يقودونهم إلى درب الغواية والضلال.

وقد قسم الجيلاني هذا مراتب الأولياء والأنبياء إلى سبع مراتب سماها حضرات قال فيها: الحضرة الأولى: الحقيقة المحمدية. قال: وهذه الحضرة غيب من غيوب الله تعالى لم يطلع عليها أحد ولا عرف شيئاً من علومها وأسرارها وتجلياتها وأخلاقها ولو كان من الرسل والأنبياء لأنها خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم.

والثانية الحضرة المحمدية وتمثلها الدائرة الثانية ومن هذه الحقيقة المحمدية مدارك النبيين والمرسلين وجميع الملائكة والمقربين وجميع الأقطاب والصديقين وجميع الأولياء والعارفين. والثالثة حضرة الأنبياء وتمثلها الدائرة الثالثة وأهل هذه الحضرة يتلقون علومهم وأحوالهم وتجلياتهم من هذه الحقيقة المحمدية وخاتم الأولياء أعني الشيخ التجاني له مشرب من هذه الحضرة مع الأنبياء فهو يتلقى المدد رأساً من النبي صلى الله عليه وسلم من حقيقته المحمدية بلا وساطة. الرابعة حضرة خاتم الأولياء وتمثلها الدائرة الرابعة وصاحب هذه الحضرة هو الشيخ أحمد التجاني فهو يتلقى

كل ما فاض من ذوات الأنبياء زيادة على ما يتلقاه بلا وساطة من الحقيقة المحمدية ولذلك سمى نفسه (برزخ البرازخ).

وقال الشيخ التجاني: وخصصت بعلوم بيني وبينه منه إلى مشافهة لا يعلمها إلا الله عز وجل بلا وساطة وقال: أنا سيد الأولياء كما كان النبي صلى الله عليه وسلم سيد الأنبياء. ثم قال صاحب الرماح "ولا اطلاع لأحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على فيضه الخاص لأن له مشرباً معهم منه صلى الله عليه وسلم"!!.

الحضرة الخامسة حضرة المتبعين للطريقة التجانية المتمسكين بها. قال الشيخ التجاني في حق أهل هذه الحضرة ما نصه "لو اطلع أكابر الأقطاب على ما أعد الله لأهل هذه الطريقة لبكوا وقالوا يا ربنا ما أعطيتنا شيئاً". وقال الشيخ التجاني لا مطمع لأحد من الأولياء في مراتب أصحابنا حتى الأقطاب الكبار ما عدا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال الشيخ التجاني: كل الطرائق تدخل عليه (كذا) طريقتنا فتبطلها وطابعنا يركب على كل طابع ولا يحمل طابعنا غيره وقال من ترك ورداً من أوراد المشايخ لأجل الدخول في طريقتنا هذه المحمدية التي شرفها الله تعالى على جميع الطرق أمنه الله في الدنيا والآخرة فلا يخاف من شيء يصيبه لا من الله ولا من رسوله ولا من شيخه أيا كان من الأحياء أو من الأموات.

وأما من دخل زمرتنا وتأخر عنها ودخل غيرها تحل به مصائب الدنيا وأخرى ولا يفلح أبداً (هامش: قلت فانظر كيف يهدم كل صاحب طريق صوفي طريق غيره من الكاذبين الضالين من أمثاله. واعتبر!!). ثم قال ناقلاً عن شيخه التجاني كما هو في جواهر المعاني: وليس لأحد من الرجال أن يدخل كافة أصحابه الجنة بلا حساب ولا عقاب ولو عملوا من الذنوب ما عملوا وبلغوا إلا أنا وحدي. ووراء ذلك مما ذكر لي فيهم وضمنه أمر لا يحل لي ذكره ولا يرى ولا يعرف إلا في الدار الآخرة بشرى للمعتقد علي رغم أنف المنتقد. ثم استطرد صاحب الرماح ومن هنا صار جميع أهل طريقته أعلى مرتبة عند الله تعالى في الآخرة من أكابر الأقطاب وإن كان بعضهم في الظاهر من جملة العوام المحجوبين.

الحضرة السادسة حضـرة الأوليـاء وتمثلهـا الـدائرة السادسـة وهي مستمدة من حضرة خاتمهم الأكبر جميع ما نالوا (الهدية الهادية ص 36).

انظر ماذا في هذه النصوص من الكفر الصريح والمخالفة الواضـحة لما هو معلوم من الدين بالضرورة، فمعلـوم من الـدين ضـرورة أن من قال أنـا في الجنـة فهـو في النـار كمـا ثبت بـذلك الحـديث عن رسول الله صلى الله عليـه وسـلم لأن هـذا غيب بعـد رسـول اللـه صلى الله عليه وسـلم وهـؤلاء لم يـدعو الجنـة لأنفسـهم فقـط بـل ادعوها لكل من صدق أكـاذيبهم ولـو كـان فـاجراً عاصـياً للـه زيـادة على الكفر بتصديقهم كأن يكون تارك الصلاة زانياً.. وجعل التجانيـة هذا، أعني إدخاله العصاة إلى الجنة، فضـلاً أعطـاه اللـه إيـاه وبلغـه الرسول بذلك. فانظر.. أقول: العجيب بعـد كـل هـذا الكفـر البـواح المخرج من ملة الإسلام أن يدعي المدعي أن طريقتـه هـذه مبنيـة على الكتـاب والسـنة وأنـه لم يـأت قـط بمـا يخالفهـا فـانظر هـذا التلـبيس على النـاس، وانظـر أي فتنـة فتن بهـا المسـلمون بهـذا الطريق الصوفي!؟

الفصل الثالث عشر

الديوان الصوفي الذي يحكم العالم

إكمالاً لإحكام السيطرة الخرافية على العالم، اخترع رجال التصوف بخيالاتهم الشـيطانية المريضـة.. اخـترعوا ديوانـاً للأقطـاب والأوتـاد وسـائر صـنوف الأوليـاء عنـدهم ينعقـد في غـار حـراء، وفي أمـاكن أخرى أحياناً ليدير هذا الديوان العالم من خلال قراراته..

وقد كفانا أحمد بن مبارك السلجماسي المغـربي في كتابـه الإبريـز المؤنة وقـد بسـط وشـرح بخيـال لا يجـارى، وبعقليـة عنـدها قـدرة عجيبة على الكذب والبهتان، هـذا الـديوان العجيب على الـرغم من أنه غاية في الكفر والزندقة ولا يخلو من طرافة الخرافة. وسأحاول أن تكون تعليقاتي وشـرحي لبعض مـا جـاء في هـذا الـديوان قليلـة وذلك أنني أتصور وأعتقـد أيضـاً أن الفكـرة السـيئة يكفي لدحضـها وبيـان تفاهتهـا أن يعرفهـا النـاس فلـو أن النـاس عرفـوا الأفكـار الصوفية على حقيقتها لما راج التصـوف وقـامت سـوقه ولكن لأنـه دائماً كان يغلف الخرافة والكفر والشرك بالرموز والأسرار، واللـف

والدوران مع ما يعلنه من التمسك بالكتاب والسنة جعل الناس يتهافتون على ما عندهم ظناً أن عندهم فعلاً علوماً جديدة وفوائد عظيمة ولكن لو أن الناس فهموا ما عند المتصوفة على حقيقته لتغير الحال. وهذا نمط من الأسرار الصوفية التي يدعي المتصوفة أنهم وصلوا إليها. يقول السلجماسي في وصف الديوان الباطني الصوفي ما يلي:

هيئة الديوان:

"الباب الرابع في ذكر ديوان الصالحين رضي الله عنهم أجمعين.

سمعت الشيخ (يعني بالشيخ عبدالعزيز الدباغ الأمي الجاهل الذي يدعي أنه قد عِلِم علمَ الأولين والآخرين جميعاً)، رضي الله عنه يقول الديوان يكون بغار حراء الذي كان يتحنف فيه الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة قال رضي الله عنه فيجلس الغوث خارج الغار ومكة خلف كتفه الأيمن والمدينة أمام ركبته اليسرى وأربعة أقطاب عن يمينه وهم مالكية على مذهب مالك بن أنس رضي الله عنه وثلاثة أقطاب عن يساره واحد من كل مذهب ومن المذاهب الأخرى والوكيل أمامه ويسمى قاضي الديوان وهو في هذا الوقت مالكي أيضاً من بني خالد القاطنين بناحية البصرى واسمه سيدي محمد بن عبد الكريم البصراوي ومع الوكيل يتكلم الغوث ولذلك يسمى وكيلاً لأنه ينوب في الكلام عن جميع من في الديوان. قال والتصرف للأقطاب السبعة على أمر الغوث وكل واحد من الأقطاب السبعة تحته عدد مخصوص يتصرفون تحته والصفوف الستة من وراء الوكيل وتكون دائرتها من القطب الرابع الذي على اليسار من الأقطاب الثلاثة فالأقطاب السبعة هم أطراف الدائرة وهذا هو الصف الأول وخالطه الثاني على صفته وعلى دائرته وهكذا الثالث إلى أن يكون السادس آخرها. قال ويحضره النساء وعددهن قليل وصفوفهن ثلاثة وذلك في جهة الأقطاب الثلاثة التي على اليسار فوق دائرة الصف الأول فسحة هناك بين الغوث والأقطاب الثلاثة قال رضي الله عنه ويحضره بعض الكمل من الأموات ويكونون في الصفوف مع الأحياء ويتميزون بثلاثة أمور أحدها أن زيهم لا يتبدل بخلاف زي الحي وهيئته فمرة يحلق شعره ومرة يحدد ثوبه وهكذا. وأما الموتى فلا تتبدل حالتهم فإذا رأيت في الديوان رجلاً على زي لا يتبدل فاعلم أنه من الموتى كأن تراه محلوق الشعر ولا ينبت له شعر فاعلم أنه

على تلك الحالـة مـات، وإن رأيت الشـعر على رأسـه على حالـه لا يزيد ولا ينقص ولا يحلق فاعلم أنه ميت وأنه مات على تلك الحالة، ثانيها أنه لا تقع معهم المشاورة في أمور عالم الأموات قـال رضـي اللـه عنـه ومن آداب زائـر القبـور إذا أراد أن يـدعو لصـاحب القـبر ويتوسـل إلى اللـه تعـالى بـولي من أوليائـه في إجابـة دعوتـه أن يتوسل إليه تعالى بـولي ميت فإنـه أنجـع للمقصـود وأقـرب لإجابـة دعوته. ثالثها أن ذات الميت لا ظل لها فإذا وقف الميت بينـك وبين الشمس فإنك لا ترى له ظلاً وسره أنه يحضر بـذات روحـه لا بذاتـه الفانية الترابية وذات الروح خفيفة لا ثقيلة وشفافة لا كثيفة قال لي رضي الله عنه وكم مرة أذهب إلى الديوان أو إلى مجمع من ملجـأ الأولياء وقد طلعت الشمس فإذا رأوني من بعيد استقبلوني فأراهم بعين رأسي متميزين هذا بظله وهذا لا ظل له. قال رضي الله عنـه والأموات الحاضرون في الديوان ينزلون إليـه من الـبرزخ يطـيرون طيراً بطيران الروح فـإذا قربـوا من موضـع الـديوان بنحـو مسـافة نزلـوا إلى الأرض ومشـوا على أرجلهم إلى أن يصـلوا إلى الـديوان تأدباً مع الأحياء وخوفاً منهم. قال وكذا رجـال الغيب إذا زار بعضـهم بعضاً فإنه يجيء بسير روحه فإذا قـرب من موضـعه تـأدب ومشـى مشي ذاته الثقيلة تأدباً وخوفاً. قال وتحضره الملائكة وهم من وراء الصفوف ويحضر أيضاً الجن الكمـل وهم الروحـانيون وهم من وراء الجميع وهم لا يبلغون صفاً كاملاً قال رضي الله عنه وفائدة حضـور الملائكـة والجن أن الأوليـاء يتصـرفون في أمـور تطيـق ذواتهم الوصـول إليهـا وفي أمـور أخـرى لا تطيـق ذواتهم الوصـول إليهـا فيسـتعينون بالملائكـة وبـالجن في الأمـور الـتي لا تطيـق ذواتهم الوصول إليها" أ.هـ منه بلفظه (الإبريز ص163،164).

الغوث الصوفي هو بمنزلة رب الأرباب عندهم أو كبـير المتصـوفين في هذا العالم، وهناك عدد كبير جداً من المتصوفة زعم أنـه وصـل إلى هـذه المرحلـة (الغوثيـة أو القطبيـة والقطبانيـة الكـبرى) منهم الدباغ هذا وكان أمياً جاهلاً لا يحفظ حزباً من القرآن الكريم (وانظر معنى الغوث في فصل الولاية الصوفية) وجعلـوا هـذا الغـوث الـذي يـدبر العـالم من غـار حـراء جعلـوا في خدمتـه الأقطـاب والأوتـاد والنجبـاء وسـائر الأوليـاء بـل والملائكـة والجن أيضـاً.. ولم يقصـروا الحضور على الأحياء فقط بل جعلوا الحضور للأموات أيضاً..

زعمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم يحضر الديوان:

ولم يكتف هؤلاء الشياطين بأنفسهم لحضور هذه الخيالات حتى زعموا أيضاً أن الرسول يحضر معهم: قال (أي الدباغ): "وفي بعض الأحيان يحضره النبي صلى الله عليه وسلم فإذا أحضر عليه السلام جلس في موضع الغوث وجلس الغوث في موضع الوكيل للصف، وإذا جاء النبي صلى الله عليه وسلم جاءت معه الأنوار التي لا تطاق دائماً وهي أنوار محرقة مفزعة قاتله لحينها، وهي أنوار المهابة والجلالة والعظمة حتى إننا لو فرضنا أربعين رجلاً بلغوا في الشجاعة مبلغاً لا مزيد عليه ثم فجؤوا بهذه الأنوار فإنهم يصعقون لحينهم إلا أن الله تعالى يرزق أولياءه القوة على تلقيها ومع ذلك فإنه قليل منهم هو الذي يضبط الأمور والتي صدرت في ساعة حضوره صلى الله عليه وسلم. قال وكلامه صلى الله عليه وسلم مع الغوث قال وكذلك الغوث إذا غاب صلى الله عليه وسلم تكون له أنوار الخارقة حتى لا يستطيع أهل الديوان أن يقربوا منه بل يجلسون منه على بعد فالأمر الذي ينزل من عند الله تعالى لا تطيقه ذات إلا ذات النبي صلى الله عليه وسلم وإذا خرج من عنده صلى الله عليه وسلم فلا تطيقه ذات إلا ذات الغوث ومن ذات الغوث يتفرق على الأقطاب السبعة ومن الأقطاب السبعة تفرق على أهل الديوان" أ.هـ منه بلفظه (الإبريز ص164).

ساعة انعقاد الديوان:

ويستطرد السلجماسي قائلاً: "وأما ساعة الديوان سبق الكلام عليها وإنها هي الساعة التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم وإنها هي ساعة الاستجابة من ثلث الليل الأخير التي وردت بها الأحاديث كحديث: ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حيث يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعوني فأستجيب له... الحديث. قلت ومن أراد أن يظفر بهذه الساعة فليقرأ عند إرادة النوم {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً..} إلى آخر السورة ويطلب من الله تعالى أن يوقظه في الساعة المذكورة فإنه يفيق فيها ذكره الشيخ عبدالرحمن الثعالبي رضي الله عنه وقد جربناه ما لا يحصي وجربه غيرنا حتى إنه وقع لجماعة غير مأمورة أن يقرأوا الآية المذكورة ويطلبوا من الله تعالى الإفاقة في الساعة المذكورة كل منهم يفعل ذلك في خاصة نفسه من غير أن يعلم به صاحبه وإذا أفاقوا أفاقوا جميعاً في وقت واحد" انتهى منه بلفظه (الإبريز ص164).

زوجات النبي صلى الله عليه وسلم والديوان:

ويستمر السلجماسي في خيالاته الشيطانية فيقول: "وسألته رضي الله عنه هل يحضر الديوان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثل سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى وغيرهما من الرسل على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام فقال رضي الله عنه يحضرونه في ليلة واحدة في العام قلت فما هي قال في ليلة القدر فيحضره في تلك الليلة الأنبياء والمرسلون ويحضره الملأ الأعلى من الملائكة المقربين وغيرهم ويحضره سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ويحضر معه أزواجه الطاهرات وأكابر صحابته الأكرمين رضي الله عنهم أجمعين" انتهى بلفظه (الإبريز).

قلت يتعجب المسلم كيف تأتي لهؤلاء هذه القدرة على الكذب والبهتان، وكيف قادتهم الشياطين لمثل هذه الافتراءات التي يتضاحك منها الصبيان فضلاً عن العقلاء. فالحمد لله الذي نجانا وهدانا وأخرجنا برحمته من ظلمات هذه الوثنية إلى نور الإسلام والاستظلال بظلال القرآن الحكيم والسنة النبوية المطهرة وأبعدها عن تخريفات أهل البهتان.

زعمهم حضور الملائكة للديوان:

ثم يقول السلجماسي "وسمعته رضي الله عنه يقول إن الديوان أولاً كان معموراً بالملائكة ولما بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم جعل الديوان يعمر بأولياء هذه الأمة فظهر أن أولئك الملائكة كانوا نائبين عن أولياء هذه الأمة المشرفة حيث رأينا الولي إذا خرج إلى الدنيا وفتح الله عليه وصار من أهل الديوان فإنه يجيء إلى موضع مخصوص في الصف الأول أو غيره فيجلس فيه و يصعد الملك الذي في ذلك الوضع وهكذا كانت بداية عمارة الديوان حتى كمل ولله الحمد كلما ظهر ولي صعد ملك وأما الملائكة الذين هم باقون فيه يكونون في الصفوف الستة كما سبق فهم ملائكة ذات النبي صلى الله عليه وسلم الذين كانوا حفاظاً لها في الدنيا ولما كان نور ذاته صلى الله عليه وسلم مفرقاً في أهل الديوان بقيت ملائكة الذات الشريفة مع ذلك النور الشريف. قال رضي الله عنه وإذا حضر النبي صلى الله عليه وسلم في الديوان وجاءت معه الأنوار التي لا تطاق بادرت الملائكة الذين مع أهل الديوان ودخلوا في نوره صلى الله عليه وسلم فما دام النبي صلى الله عليه وسلم

في الديوان لا يظهر منهم ملك فإذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم رجع الملائكة إلى مراكزهم والله أعلم" (الإبريز ص174).

ولست أدري لماذا يقول هؤلاء الكذابون بعد كل هذا الدجل والكذب (والله أعلم) ماذا تفيدهم هذه الكلمة العظيمة في هذا الموضع الذي يكذبون فيه على الله. إنهم بزعمهم يتكلمون على حقائق وعلوم وأسرار غيبية زعموا أنهم رأوها وشاهدوها وليست عندهم مجرد ظن أو اجتهاد فلماذا يقولون بعد ذلك والله أعلم وهم يعلمون يقيناً أنهم يكذبون ويفترون، ويضحكون على عقول الدهماء والتي تسير وراءهم وتصدقهم.

أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وفاطمة والحسن والحسين أعضاء في الديوان:

ويستمر السلجماسي في خيالاته الفاجرة فيقول:

"قال رضي الله عنه وإذا حضر سيد الوجود صلى الله عليه وسلم مع غيبة الغوث فإنه يحضر معه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن والحسين وأمهما فاطمة الزهراء تارة كلهم وتارة بعضهم رضي الله عنهم أجمعين، قال وتجلس مولاتنا فاطمة مع جماعة النسوة اللاتي يحضرن الديوان في جهة اليسار كما سبق وتكون مولاتنا فاطمة أمامهن رضي الله عنها وعنهن قال رضي الله عنه وسمعتها رضي الله عنها تصلي على أبيها صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالي وهي تقول اللهم صل على من روحه محراب الأرواح والملائكة والكون اللهم صل على من هو إمام الأنبياء والمرسلين اللهم صل على من هو إمام أهل الجنة عباد الله المؤمنين وكانت تصلي عليه صلى الله عليه وسلم لكن لا بهذا اللفظ وإنما أنا استخرجت معناه. والله أعلم" انتهى (الإبريز ص 168).

لغة أهل الديوان:

ويقول أحمد بن مبارك:

"سمعته رضي الله عنه يقول إن لغة أهل الديوان رضي الله عنهم هي السريانية لاختصارها وجمعها المعاني الكثيرة ولأن الديوان يحضر الأرواح والملائكة والسريانية هي لغتهم ولا يتكلمون العربية إلا إذا حضر النبي صلى الله عليه وسلم أدباً معه" أ.هـ (الإبريز ص 168).

ولست أدري لماذا يجمع المتصوفة تقريباً على اختيار اللغة السريانية لغة للديوان، ولمعاني الحروف، وللأذكار فإما للتلبيس على الناس لأنها لغة منقرضة لا توجد إلا في قرية واحدة الآن من قرى سوريا ولا يتكلمها إلا نحو خمسمائة شخص فقط، أو لأن هذه اللغة كانت لغة أقوام اشتهروا بعبادة الجن والأوثان وهذا الذي يبدو فإن هذه اللغة كانت لأقوام وثنيين من عبدة الجن والكواكب وما يزال كثير من هذه القرية التي يتكلم أصحابها بهذه اللغة مهجوراً مسكوناً بالجن.

أولياء يحضرون الديوان بأرواحهم فقط:

ثم يقول السلجماسي: "وسمعته رضي الله عنه يقول إن الصغير من الأولياء يحضر بذاته وأما الكبير فلا تحجير عليه يشير رضي الله عنه إلى أن الصغير إذا حضر غاب عن محله وداره فلا يوجد في بلدته أصلاً لأنه يذهب إليه بذاته. وأما الكبير فإنه يدبر وعلى رأسه فيحضر ولا يغيب عن داره لأن الكبير يقدر على التطور على ما شاء من الصور لكمال روحه تدبر له إن شاء ثلاثمائة وست وستون ذاتاً بل سمعت الشيخ رضي الله عنه مرة وأنا معه خارج باب الحبشة أحد أبواب فاس حرسها الله يقول: ايش هو: الديوان والأولياء الذين يقيمونه كلهم في صدري وسمعته مرة يقول إنما يقام الديوان في صدري" (الإبريز ص167).

ولعل الكلمة الأخيرة التي قالها الدباغ هي أصدق ما قال أعني أن الديوان يقام فقط في قلبه المريض وفي عقله المجنون وأما ذكره من غار حراء والأولياء والأنبياء والرسل وسائر هذه التخريفات فلا صحة لها.

الديوان يعقد في صحراء السودان أحياناً:

الصحراء السودانية مكان آخر لانعقاد الديوان يقول السلجماسي: "(وسألته) رضي الله عنه هل يكون الديوان في موضع آخر غير غار حراء فقال رضي الله عنه نعم يكون في موضع آخر مرة في العام لا غير وهذا الموضع يقال له زاوية أسَا بفتح الهمزة والسين بعدها ألف خارج أرض سوس بينها وبين أرض غرب السودان فيحضر أولياء السودان ومنهم من لا يحضر الديوان إلا في تلك الليلة ويأذن الله تعالى ويسوق أهل آفاق تلك الأراضي ويجتمعون بالوضع المذكور قبل تلك الليلة بيوم أو يومين وبعدها كذلك يجتمع في ذلك

السوق من التبر ما لا يحصى فقلت وهل ثم مع آخر في غير هـذين الموضعين فقال نعم يجتمعـون ولكن لا يجتمـع نحـو العشـرة منهم في موضع قـط إلا في الموضـعين السـابقين لأن الأرض لا تطيقهم لأنه تعالى أراد تفرقهم في الأرض وفي الخلـق واللـه تعـالى أعلم" أ.هـ منه بلفظه (الإبريز ص73).

ماذا لو غاب الغوث:

ويقول السلجماسي أيضاً: "وسمعته رضي الله عنه يقول قـد يغيب الغوث عن الديوان فلا يحضر فيحصل بين أولياء الله تعالى من أهل الديوان ما يوجب اختلافهم فيقع منهم التصرف المـوجب لأن يقتـل بعضهم بعضاً فإن غالبهم اختـار أمـراً وخـالف الأقـل في ذلـك فـإن الأقل يحصل فيهم التصرف السـابق فيموتـون جميعـاً وقـد اختلفـوا ذات يوم في أمر فقال طائفـة منهم قليلـة إن يكن لكم ذلـك الأمـر فلتمت فقالت الطائفة الكثـيرة فموتـوا إن شـئتم فمـاتت الطائفـة القليلة قال رضي الله عنه فإن تكافأ الفريقـان إن حصـل التصـرف فيهم معاً فقلت فإنهم أهل بصيرة وكشف فلم يحصل بينهم الـنزاع وهم يشاهدون مراد الله تعالى ببصيرتهم فقال رضـي اللـه عنـه إذا كان الأقل هو المخالف فإن الله يحجبهم عن المـراد حـتى ينفـذ مـا فيهم وإذا تكافـأ الفريقـان فـإن مـراد الحـق سـبحانه يخفى على الجميـع لأن قلـوب الأوليـاء الأوفيـاء مظـاهر الأقـدار وقـد اختلفت وتكافأت فقلت فما سبب غيبة الغوث رضي اللـه عنـه عن الـديوان فقال رضي الله عنه سببه أحد أمرين إما غيبته في مشـاهدة الحـق سبحانه فلهذا لا يحضر في الديوان وإما كونه في بدايـة توليتـه كمـا إذا كان بقرب موت الغوث الذي قبله فإنـه قـد لا يحضـر في بدايـة الأمر حتى تتأنس ذاته شيئاً فشيئاً قال رضي اللـه عنـه وقـد يحضـر سيد الوجود صلى الله عليه وسلم في غيبـة الغـوث فيحصـل لأهـل الـديوان من الخـوف والجـزع من حيث إنهم يجهلـون العاقبـة في حضوره صلى الله عليه وسلم ما يخرجهم عن جناسهم حتى إنه لـو طال ذلك أياماً لانهدم العوالم" (الإبريز ص168).

الغوث الصوفي دكتاتور كبير:

وأما الغوث هذا فهو أخطر دكتاتور فإن أي أحد لا يسـتطيع أن يفتح فمه عنده يقول السلجماسي:

"وسألته مرة فقلت: إذا حضر الغوث فهل يقدر أحد على مخالفته فقال رضي الله عنه لا يقدر أن يحرك شفته السفلى بالمخالفة فضلاً عن النطق بها فإنه لو فعل ذلك لخاف على نفسه من سلب الإيمان فضلاً عن شيء آخر والله أعلم" (الإبريز ص169).

ولست أدري ما دام هذا هو حال غوثهم مع سائر أوليائهم المزعومين فلماذا الحضور إذن في هذا الديوان هل هو لمجرد تلقي الأوامر فقط..؟!

أولياء ينظرون في اللوح المحفوظ:

ويستطرد السلجماسي مبيناً مراتب الأولياء الذين يحضرون ديوانهم المكذوب فيقول: "وسمعته رضي الله عنه يقول ليس كل من يحضر الديوان من الأولياء يقدر على النظر في اللوح المحفوظ بل منهم من يقدر على النظر فيه ومنهم من يتوجه إليه ببصيرته ويعرف ما فيه ومنهم من لا يتوجه إليه لعلمه بأنه ليس من أهل النظر إليه قال رضي الله عنه كالهلال فإن رؤية الناس إليه مخالفة" أ.هـ.

وأقول ألا لعنة الله على من كذب مثل هذا الكذب الذي لم تعرف البشرية له مثيلاً من قبل قط.. ولكن العجيب أن ينشر مثل هذا الفكر المجنون عند أناس يقرأون كتاب الله الذي يقول {قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون}.

لماذا يجتمع أهل الديوان:

والآن نأتي إلى بيت القصيد كما يقولون فلماذا يجتمع أهل الديوان؟ يقول السلجماسي: "وسمعته رضي الله عنه يقول أن أهل الديوان إذا اجتمعوا فيه اتفقوا على ما يكون من ذلك الوقت إلى مثله من الغد فهم رضي الله عنهم يتكلمون في قضاء الله عز وجل في اليوم المستقبل والليلة التي تليه قال رضي الله عنه ولهم التصوف في العوالم كلها السفلية والعلوية وحتى في الحجب السبعين وحتى في عالم الرقا (بالراء وتشديد القاف) وهو ما فوق الحجب السبعين فهم الذين يتصرفون فيه وفي أهله وفي خواطرهم وما تهمس به ضمائرهم فلا يهمس في خاطر واحد منهم شيء إلا بإذن أهل التصرف رضي الله عنهم أجمعين وإذا كان هذا في عالم الرقا

الذي هو فوق الحجب السبعين التي هي فوق العرش فما ظنك بغير من العوالم" (الإبريز ص169)..

فانظر كيف يتحكم هؤلاء بخيالاتهم وكذبهم ليس في الأرض فقط بل في الأرض والسماء وما فوق السماء من الحجب والعرش، فماذا أبقى هؤلاء الكاذبون المارقون لله سبحانه وتعالى ليتصرف فيه.. تَبَّتْ عقول استساغت مثل هذا الكذب واعتقدت مثل هذا الهراء!!

الباب الرابع

الشريعة الصوفية

في الأبواب والفصول السابقة اطلعنا على حقيقة المعتقد الصوفي، وسبرنا غور هذا الفكر الباطني الذي يتستر بالإسلام. والآن نأتي إلى الشريعة الصوفية ونعني بها العمل الظاهر، والمنهج العملي الذي سلكه رجال التصوف تضليلاً للعامة، ووصولاً إلى العقيدة الباطنية، وتظاهراً بالتمسك بالإسلام المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وسيعلم القارئ كيف أن الظاهر الصوفي والشريعة الخاصة الصوفية لا تكاد تخرج عن البدعة والفسق والكفر والشرك. ولنبدأ بأخص أمورهم وأشهرها، التي جعلوها دائماً المدخل إلى الطريق الصوفي ألا وهو الذكر.

الفصل الأول

الذكر الصوفي

كيفية تتلقى الأذكار عند الصوفية:

يخطئ من يظن أن الصوفية أتباع للرسول صلى الله عليه وسلم في هديه في الذكر حيث شرع لنا صلى الله عليه وسلم أن نذكر الله سبحانه وتعالى بأذكار مخصوصة في أوقات معلومة، والنبي عندما أخبرنا صلى الله عليه وسلم أن من قال كذا وكذا فله كذا وكذا من الأجر إنما يتكلم بالوحي لأن الأجر أمر غيبي يقدره الله ويعلمه، ولكن مشايخ الصوفية أراد كل منهم أن ينصب من نفسه مشرعاً لمجموعة من المريدين، وإلهاً يعبده الأتباع الجاهلون، وكان

بـاب الأذكـار هـو البـاب الـذي دخـل منـه هـؤلاء للتشـريع للأتبـاع والمريـدين فوضـع كـل منهم لأتبـاع طريقتـه منهجـاً خاصـاً بالـذكر، وأذكـاراً مخصوصـة وكـان لكـل واحـد منهم أن يضـفي على ذكـره الخاص هالة من التقديس، وأن يحاول جذب المريـدين إليـه بشـتى الطرق والوسـائل فمنهم من زعم أن ذكـره الخـاص قـد أخـذه من الرسـول منامـاً، ومنهم من ادعى أنـه أخـذه من الرسـول يقظـة، ومنهم من زعم أن الخضر الذي أوحى له بالـذكر، ومنهم من تنـازل فنسـب ذكـره إلى شـيخ طريقـة ميت، ومنهم من تنـازل عن ذلـك فأخبر أتباعه أنه جمـع لهم هـذا الـذكر من آيـات القـرآن، وأحـاديث الرسول وتأليفاته، وأنه مجرب وأن من فعله حصل له كذا وكذا من الخير. فقد فعله فلان فحصل له كذا وكذا، وفعلـه فلان فحصـل لـه كذا وكذا.. وإليك أنماطاً من هذه الافتراءات والأكاذيب والخزعبلات لا يصدقها إلا من طمست بصائرهم:

الزعم بـأن الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم يعلم أذكـار الطريقـة الشاذلية:

علم جميع المسلمين بالضرورة من دين الإسلام أن الرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم قـد علم النـاس كيـف يـذكرون اللـه ويحمدونـه ويمجدونه، وأن ذلك بوحي من الله له، ولكن الصـوفية انفـردوا عن جميع المسلمين فزعموا أن الرسول يـأتيهم بعـد موتـه صـلى اللـه عليه وسلم والتحاقه بـالرفيق الأعلى ليعلمهم الطريقـة الشـاذلية!! يقول صالح محمد الجعفري الذي كان إمامـاً لمسـجد الأزهـر لمـدة طويلة (هذه الدعوى بالطبع هي الباب الذي يدخل منـه هـؤلاء على المسـلمين بالخرافـات والخـزعبلات الـتي ينسـبونها إلى الرسـول، ويدعون بها الغيب فما دام أنه رزق عيوناً إلهية فلماذا لا يطلـع على الغيب)، في كتابـه الـذي سـماه (مفـاتيح كنـوز السـماوات والأرض المخزونـة الـتي أعطاهـا صـلى اللـه عليـه وسـلم لشـيخ الطريقـة الإدريسية المصونة!!).

يقول:

"قال سيدي أحمد رضي الله عنه اجتمعت بـالنبي صـلى اللـه عليـه وعلى آله وسلم اجتماعاً صـورياً ومعـه الخضـر عليـه السـلام فـأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الخضر أن يلقنـني أذكـار الطريقـة الشاذلية فلقنني إياها بحضرته صلى الله عليه وسلم.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم للخضر عليه السلام: يا خضر لقنه ما كان جامعاً لسائر الأذكار والصلوات والاستغفار وأفضل ثواباً وأكثر عدداً فقال أي شيء هو يا رسول الله؟ فقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله فقالها وقلتها بعدهما وكررها صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثاً.

ثم قال، قل: اللهم إني أسألك بنور وجه الله العظيم إلى آخرة الصلاة العظيمية ثم قال له استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم غفار الذنوب ذو الجلال والإكرام إلى آخر الاستغفار الكبير فقلت بعدهما وقد كسبت أنواراً وقوة محمدية ورزقت عيوناً إلهية (توفي سنة 1979) !!.

ثم قال صلى الله عليه وسلم يا أحمد أعطيتك مفاتيح السماوات والأرض وهي الذكر المخصوص والصلاة العظيمة والاستغفار الكبير المرة الواحدة منها بقدر الدنيا والآخرة وما فيها أضعافاً مضاعفة"!! واستطرد قائلاً:

قال سيدي أحمد رضي الله عنه وقدس سره: ثم لقنها لي صلى الله عليه وسلم من غير وساطة فصرت ألقن المريدين كما لقنني به صلى الله عليه وسلم.

ومرة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لا إله إلا الله محمد رسول الله في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله خزنتها لك يا أحمد ما سبقك بها أحد علّمها أصحابك يسبقون بها. وكان رضي الله عنه يقول أملى علي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأحزاب من لفظه حتى استشكل بعض أصحابه من العلماء مرة كلمة في الحزب الخامس فقال يا أخانا هكذا قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم" (مفتاح كنوز السماوات والأرض المخزونة ص8،9) أ.هـ

فهذه الحكايات التي كان يرويها صالح الجعفري بالسند المتصل حسب زعمه إلى قائلة أحمد الإدريسي فيها من الدعاوي والضلالات شيء كثير جداً. من ذلك اجتماع لأحمد الإدريسي بالرسول والخضر ولسنا ندري ما علاقة الخضر بالرسول صلى الله عليه وسلم وليس هو من أتباع الرسول محمد ولا من هذه الأمة الإسلامية أصلاً، إنما الخضر صاحب موسى على شريعة غير شريعة موسى أيضاً، وقد مات كما مات الرسل والأنبياء ممن كانوا قبله

وممن أتوا بعده، ولو كان حياً في زمان النبي صلى الله عليه وسلم لاتبعه وحارب معه وشهد معه الجمع والجماعات وإلا كان مرتداً كافراً، بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم [والله لو أن موسى حياً لما وسعه إلا أن يتبعني] وبدليل نزول عيسى في آخر الزمان وحكمه بشريعة النبي محمد صلى الله عليه وسلم فما علاقة الخضر أن يكون حاضراً مع الرسول وأن يأمره الرسول أن يعلم الأذكار والأوراد!؟ (اقرأ الفصل الخاص بالخضر في عقيدة المتصوفة)، ولماذا يلجأ النبي صلى الله عليه وسلم –وحاشاه- أن يعلم شيئاً جديداً بعد إتمام رسالته ولحوقه بربه. ألا تكفي الأذكار والأوراد التي علمها في حياته؟ ألم يقل سبحانه وتعالى {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} (المائدة:3).

فما الحاجة بعد إلى أذكار جديدة.. وأليس لو كان للرسول هذا الاتصال ببعض الناس أن يكون ذلك لبيان كيف يخرج المسلمون مما يواجهونه من محن ومصائب، ألا يأتي مثلاً الرسول ليحل بعض المعضلات التي تجابه العالم الإسلامي ويحتار فيها العلماء ويختلفون. ثم لننظر ما هي الأوراد والأدعية التي جاء الرسول في زعمهم ليعلمها لهؤلاء، إنها كلمات ركيكة التركيب العربي، فيها جهل عظيم بالله سبحانه وتعالى، وتقول عليه سبحانه وتعالى، وفيها اعتداء في الدعاء بكل معاني الاعتداء، وفيها من أسماء الشياطين ما فيها. وإليكم نماذج من هذه الأدعية التي يزعم أصحابها أنهم اجتمعوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وعلمها لهم. هذه هي الصلاة التي يسمونها (الصلاة العظيمية)!! هكذا (والعظيمية!!) وهي:

"اللهم إني أسألك بنور وجه الله العظيم، الذي ملأ أركان عرش الله العظيم، وقامت به عوالم الله العظيم، أن تصلي على مولانا محمد ذي القدر العظيم، وعلى آل نبي الله العظيم، بقدر عظمة ذات الله العظيم، في كل لمحة ونفس وعدد ما في علم الله العظيم، صلاة دائمة بدوام الله العظيم، تعظيماً لحقك يا مولانا يا محمد يا ذا الحق العظيم، وسلم عليه وعلى آله مثل ذلك، واجمع بيني وبينه كما جمعت بين الروح والنفس ظاهراً وباطناً يقظة ومناماً واجعله يا رب روحاً لذاتي من جميع الوجوه في الدنيا قبل الآخرة يا عظيم". أ.هـ..

فانظر إلى ركاكة التعبير، وخطاب الله بالغيبة وهو سوء أدب مع الله فقوله اللهم إني أسألك وهذا خطاب. ثم يقول (بنور وجه الله العظيم) وهذه غيبة كأن الله غير المخاطب، والصواب والبلاغة أن تقول (بنور وجهك العظيم) لأنك تخاطب الله. ولكن الذين ألقوا هذه الأذكار المبتدعة لا يحسنون العربية والعجيب أن ينسبوها بعد ذلك إلى أفصح العرب لساناً والذي آتاه الله جوامع الكلم. وانظر بعد ذلك تكرار اسم العظيم في غير مناسبة، ثم وصف العرش أن له أركاناً ومن أين لهم ذلك؟ ولم يرد هذا في كتاب أو سنة وإنما جاء في الحديث أن للعرش ساقاً كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم [فأجد موسى باطشاً بساق العرش].

ثم ما معنى أن يدعو المسلم ربه ويسأله أن يجمع بينه وبين الرسول كما جمع بين الروح والنفس!! وأن يكون هذا ظاهراً وباطناً، يقظة ومناماً، وأن يكون الرسول روحاً لذات الداعي وهذا كله من أكبر العدوان في الدعاء، وهو فتح باب الإدعاء بعلم الغيب. فما دام أن الرسول قد امتزجت روحه بالمدعو ظاهراً وباطناً، يقظة ومناماً، فمعنى هذا أنه يتكلم بلسان الرسول ويعلم علم الرسول وهذا فتح لباب التقول على الله!!! فهل هذا الدعاء الركيك السقيم معنى ومبنى يأتي الرسول صلى الله عليه وسلم ليعلمه للناس!!..

هذا من أذكار هذه الطريقة الشاذلية وإليك نماذج أخرى من أدعيتها وأذكارها..

"يا خالق السبع سماوات ومن الأرض مثلهن، يتنزل الأمر بينهن، أشهد أنك على كل شيء قدير، وأنك قد أحطت بكل شيء علماً، أسألك بهذا الأمر الذي هو أصل الموجودات، وإليه المبدأ والمنتهى، وإليه غاية الغايات أن تسخر لنا هذا البحر، بحر الدنيا وما فيه، كما سخرت البحر لموسى، وسخرت النار لإبراهيم، وسخرت الجبال والحديد لداود، وسخرت الرياح والشياطين والجن لسليمان، وسخر لي كل بحر هو لك، وسخر لي كل جبل وسخر لي كل حديد، وسخر لي كل ريح، وسخر لي كل شيطان من الجن والإنس، وسخر لي نفسي، وسخر لي كل شيء، يا من بيده ملكوت كل شيء، وأيدني بالنصر المبين إنك على كل شيء قدير" أ.هـ (أبو الحسن الشاذلي لعبدالحليم محمود ص375).

وعلى الرغم من أن الشيخ عبدالحليم محمود شيخ الأزهر والإمام الأكبر كما يسمونه أورد هذا الدعاء وغيره في ترجمة الشاذلي مستحسناً له، فإن في هذا الدعاء من التعدي شيئاً عظيماً جداً، فإنه لا يجوز لنا أن نسأل ما جعله الله لأنبيائه من هذه المعجزات فتسخير الجن والشياطين لسليمان كان شيئاً خاصاً بسليمان فقط، ولذلك روى البخاري بإسناده إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [جاءني عدو الله إبليس بشهاب من نار ليضعه في وجهي ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً بسارية المسجد يلعب به صبيان المدينة]. وأما نار إبراهيم الذي يسأل الشاذلي ربه أن يسخرها له!! فإن الله عز وجل جعلها برداً وسلاماً على إبراهيم في مناسبة خاصة وذلك بعد أن تعرض لما تعرض له من البلاء، ولم يسأل إبراهيم ربه أصلاً بذلك، وكذلك إلانة الحديد لداود إنما كان لأنه يأكل من عمل يده فكافأه الله بأن ألان له الحديد وعلمه صنعة الدروع فكان هذا من الله فضلاً له للمناسبة التي فيه.. أما أن يأتي رجل ليس بنبي فيسأل الله جميع معجزات الأنبياء فلا شك أن يكون قد تعدى في الدعاء وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التعدي في الدعاء والحق أننا إذا قارنا هذا التعدي الموجود في أدعية أخرى لهان الأمر فها هو الشاذلي نفسه يقول في دعائه أيضاً:

"اللهم هب لي من النور الذي رأى به رسولك صلى الله عليه وسلم، ما كان ويكون، ليكون العبد بوصف سيده لا بوصف نفسه. غنياً بك عن تجديدات النظر لشيء من المعلومات، ولا يلحقه عجز عما أراد من المقدورات، ومحيطاً بذات السر بجميع أنواع الذوات، ومرتباً البدن مع النفس والقلب مع العقل، والروح مع السر والأمر مع البصيرة والعقل الأول الممد من الروح الأكبر المنفصل عن السر الأعلى" أ.هـ (أبو الحسن الشاذلي لعبدالحليم محمود ص 168).

فأي تعد أكبر من هذا أن يدعو إنسان ربه ليعطيه نوراً من النور الذي رأى به النبي ما كان يكون -وهذا كذب أيضاً لأن الرسول لم يكن يعلم من الغيب ما كان وما يكون وما لم يكن منه إلا ما أعلمه الله سبحانه وتعالى إياه، ولكن هؤلاء زعموا هذا للنبي صلى الله عليه وسلم ورتبوا على ذلك أن يجعلهم الله أيضاً كالنبي يعلمون الغيب، وقوله حتى يكون العبد بوصف مولاه- يعني أن يتصف بما اتصف به النبي ويكون الوصف راجعاً في النهاية للنبي لا يعفيه هذا

أنه يطلب ما كان للنبي من منزلة وعلم، وصدق الله سبحانه حيث يقول في أمثالهم {بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة} (المدثر:52).

والحق أن الشاذلي في هذا الدعاء قد طلب ما لله من علم وليس ما للرسول فقط فمولاه هنا راجعة إلى الله سبحانه فكل من هؤلاء يريد أن يكون كالله سبحانه وتعالى في علمه وتصريفه وقدرته. والحق أنه لا يتوقف التعدي في الدعاء عند الصوفية أن يطلبوا منازل الأنبياء وخصائصهم وعلومهم بل وصفات الله وخصوصياته، بل وتعدى ذلك أيضاً إلى أن يتطاولوا على الله فيعلموه كيف يصفح وكيف يرحم؛ انظر إلى هذا الدعاء للشاذلي أيضاً:

"ولقد شكا إليك يعقوب فخلصته من حزنه ورددت عليه ما ذهب من بصره وجمعت بينه وبين ولده، ولقد نادى نوح من قبل فنجيته من كربه، ولقد ناداك أيوب بعد فكشفت ما به من ضره، ولقد ناداك يونس فنجيته من غمه، ولقد ناداك زكريا فوهبت له ولداً من صلبه بعد يأس أهله وكبر سنه، ولقد علمت ما نزل بإبراهيم فأنقذته من نار عدوه، وأنجيت لوطاً وأهله من العذاب النازل بقومه. فها أنذا عبدك إن تعذبني بجميع ما علمت من عذابك فأنا حقيق به وإن ترحمن كما رحمتهم من عظيم إجرامي فأنت أولى بذلك وأحق من أكرم به فليس كرمك مخصوصاً بمن أطاعك وأقبل عليك بل هو مبذول بالسبق لمن شئت من خلقك وإن عصاك وأعرض عنك، وليس من الكرم أن لا تحسن إلا لمن أحسن إليك وأنت الرحيم العلي كيف وقد أمرتنا أن نحسن إلى من أساء إلينا فأنت أولى بذلك منا" (أبو الحسن الشاذلي لعبدالحليم محمود ص 191)

فعلى الرغم من أنه دعا الله سبحانه أن ينجيه كما أنجى عباده الصالحين فإنه تطاول على الله في آخر الدعاء فراح يقول لله (وليس من الكرم أن لا تحسن إلا لمن أحسن إليك)؟! (بل من الكرم أن تحسن إلى من أساء إليك) وكأنه في هذا يعلم الله سبحانه كيف يتفضل وكيف يحسن وعلى هذا القول تكون عقوبة الله للمسيئين ليست جارية على سنة الله في كرمه وعفوه وصفحه وحلمه وهذا خطأ بالغ لأن الله سبحانه وتعالى لا يضع رحمته إلا فيمن يستحقها، ولا يعفو إلا عمن هو أهل للصفح والمغفرة. كما قال تعالى: {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها

للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنـا يؤمنـون} (الأعـراف: 156).

وهذا التعدي في الدعاء هو سمة المتصوفة بوجه عام كمـا مـر بـك في دعاء البسطامي "ارفعـني إلى أحـديتك وأدخلـني في صـمديتك حتى أكون أنت أنا فإذا رآني عبادك عرفوك.." إلى آخر هذا الهذيان والكفر.. والعجيب أن يأتي من يسطر مثل هذا الهراء وينشره على الناس داعياً إياهم إلى هذا الطريق الصوفي طريق الظلمات..

هذه هي نماذج من الأدعية والأذكار التي زعم صـالح الجعفـري أنهـا رويت بأنهـا بإسـناده إلى شـيخه أحمـد بن إدريس أن رسـول اللـه علمها إياه وأن أحد المريدين استشكل لفظة من الحـزب الخـامس فقال له يا أخانا هكذا قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم!!

التلقي من القبور:

وهذه قصة تبين طريقة أخرى لتلقي الأذكار، إنهـا مخاطبـة المـوتى والأخذ عنهم حتى لو كان الـذكر كلامـاً لا معـنى لـه في أي لغـة من اللغات المعروفة!!

ذكر أحمد بن المبارك السلجماسي المتوفي سنة 1155هـ قال:

"قص علينـا بعض أصـحابنا من أخيـار أهـل تلمسـان، فـأخبرني أنـه سـمع بعض من حج بيت اللـه الحـرام يقـول إنـه زار قـبر سـيدي إبـراهيم الدسـوقي (نفعنـا اللـه بـه)!! فوقـف عليـه الشـيخ سـيدي إبراهيم الدسوقي نفعنا الله به وعلمـه دعـاء وهـذا هـو: بسـم اللـه الخالق، يلجمه بلجام قدرته. أحمى حميثاً أطمى طميثـاً وكـان اللـه قوياً عزيزاً. حم عسـق حمايتنـا كهيعص كفايتنـا، فسـيكفيكهم اللـه وهـو السـميع العليم، ولا حـول ولا قـوة إلا باللـه العلي العظيم" (الإبريز) .

"فقال له سيدي إبراهيم: ادع بهذا الدعاء ولا تخف من شيء فقـال لـه صـاحبنا التلمسـاني وهـو الحـاج الأبـر التـاجر الأطهـر سـيدي عبـدالرحمن بن إبـراهيم من أولاد إبـراهيم القـاطنين بتلمسـان: إن أخي الحاج محمد بن إبراهيم استشكل معنى هاتين الكلمتين وهمـا (أحمى حميثاً وأطمى طميثاً) امتنع من هذا الدعاء وقال: لا أدري ما معناها ولعل أن يكون فيهما ما أكره، فسألني عن معنى الكلمـتين. فسألت شيخنا رضي الله عنه عن معناهما، فقـال رضـي اللـه عنـه بديهة لا يتكلم أحد اليوم على وجه الأرض بهاتين الكلمتين فمن أين لك بهما؟!..

فحكيت لـه الحكايـة، فقـال رضـي اللـه عنـه: نعم سـيدي إبـراهيم الدسوقي من أكابر الصالحين ومن أهـل الفتح الكبـير وهـو وأمثالـه الذين يتكلمون بهاتين الكلمتين. ثم قال رضي الله تعالى عنـه: همـا كلمتان باللغة السريانية: أما أحمى فمعناه يا مالك الأسرار يا مالـك الأنوار يا مالك الليل والنهـار يـا مالـك الحسـاب المـدرار، يـا مالـك الشموس والأقمار، يا مالك العطا والنفع، يا مالـك الخفض والرفـع، يا مالك كل حي، يا مالك كل شيء، وفي هذا الاسم سـر عجيب لا يطيق القلم ولا العبارة تبلغه أبداً..

وأما قوله (أطمى) فهو بمنزلة من يصفه تعالى بالعظمـة والكبريـاء والقهر والغلبة والعز والانفراد في ذلك كله وكأنه يقول: يا عالم كل

شيء يا قادراً على كل شيء يا مكون كل شيء ويا مدبر كل شيء ويا قاهر كل شيء ويا من لا يتطرق إليه عجز ولا يتوهم في تصرفه نقص..

(وطميثاً) إشارة إلى الأشياء التي يتصرف فيها، وإلى الممكنات التي يفعل فيها ما يشاء ويحكم ما يريد سبحانه لا إله إلا هو. وفي هذا الاسم سر عجيب لا يطيق القلم تبليغه أبداً والله أعلم" (الإبريز).

فانظر كيف أن إسناد هذه القصة مجهول عن مجهول عن ميت وكلمات الذكر لا معنى لها في أي لغة قديمة أو حديثة، وكلمة السريانية هي لا تعني اللغة السريانية البائدة المعروفة وإنما يفسرها الصوفية بأنها لغة الأرواح!! ومع كل هذه الجهالة في الإسناد والحديث عن موتى يعلمون الناس الأذكار من قبورهم إلا أن كل ذلك طرق معتمدة عند الصوفية لتلقي العلم..

ونقول (العلم) هنا تجوزاً والحق أنه تلقى هذه الضلالات من أفواه الشياطين الذين يخاطبونهم من هذه القبور ويلبسون عليهم دينهم ويصرفونهم عن الذكر الطيب الذي نطق به فم الرسول صلى الله عليه وسلم فبدلاً من أن يذكر المسلم الله قائلاً: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، وأمثال هذه الكلمات الطيبات النافعات يقول: (سقفاطيس، سقاطيم، آمون، فاق آدم حم، هآمين، كد كد، كردد، ده، بها بهيا بهيا، لمقفتجل يا أرض خُذيهم)!!

والعجيب بعد كل هذا أنهم إذا سئلوا من أين لكم بهذه الخزعبلات التي تسمونها أذكاراً يقولون كما قال أبو الحسن الشاذلي عن نفسه وقد سئل عن شيخه الذي أخذ عنه العلم فقال: "أما فيما مضى فكان سيدي عبدالسلام بن مشيش. وأما الآن فأستقي من عشرة أبحر خمسة سماوية وخمسة أرضية، أما السماوية فجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح وأما الأرضية فأبو بكر وعمر وعثمان وعلي والنبي صلى الله عليه وسلم" أ.هـ (أبو الحسن الشاذلي لعبدالحليم محمود ص210).

وأما سيده عبدالسلام بن مشيش هذا فهو الذي يقول في صلاته المشهورة عن الرسول: "اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك اللهم ألحقني بنسبه وحققني بحسبه وعرفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل وأكرع بها

من موارد الفضل واحملني على سبيله إلى حضـرتك حملاً محفوفـاً بنصـرتك واقـذف بي على الباطـل فأدمغـه وزج في بحـار الأحديـة وانشلني من أوحال التوحيد وأغرقني في عين بحر الوحـدة حـتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي وروحه سر حقيقتي وحقيقتـه جـامع عـوالمي بتحقيـق الحـق الأول يا أول يا آخر يا ظاهر، يا باطن اسمع نـدائي بمـا سـمعت بـه نداء عبدك زكريـا وانصـرني بـك لـك وأيـدني بـك لـك واجمـع بيـني وبينك" (الحزب الكبير للدسوقي).

وفي هذا الدعاء من الكفر والهذيان شـيء عظيم لا يخفى على من عنـده أي إلمـام بشـيء من علـوم الـدين قولـه (وزج بي في بحـار الأحديــة وانشــلني من أوحــال التوحيــد، وأغرقــني في عين بحــر الوحدة) تصريح واضـح لعقيـدة ابن مشـيش ومن على شـاكلته من أهل وحدة الوجود الذين يسمون عقيدة التوحيد أوحـالاً!!وأمـا قولـه (واجعـل الحجـاب الأعظم حيـاة روحي) فيعـني بالحجـاب الرسـول صلى الله عليه وسلم أي أن صورة الرسول صورة الله كمـا مضـى بيان ذلـك في كلام عبـدالكريم الجيلي، والعجيب من قـول الـدكتور عبدالحليم محمـود شـيخ الأزهـر والإمـام الأكـبر "كـان ابن مشـيش متمسـكاً بالكتـاب والسـنة عـاملاً بهـا ملتزمـاً لهمـا" (أبـو الحسـن الشاذلي ص21).

وقولـه أيضـاً عن ابن مشـيش "ولتأمـل القـارئ في مـدى انغمـاس (سيده) سيدنا ابن مشـيش في النـور ومـا وصـل إليـه من الفضـل الإلهي".

بل إن الشيخ عبدالحليم محمود يدون في كتابه عن الشاذلي ما هـو أدهى وأمر من ذلك وأضل فيقول:

"ولقد بهر ابن مشيش أبا الحسـن الشـاذلي، بهـره بعلمـه المشـيد على الكتاب والسنة وبهره بولايته وكرامته، يقول أبو الحسـن، كمـا يروي صاحب كتاب درة الأسرار:

ورأيت له خرق عادات كثيرة، فمنها أنني كنت يوماً جالساً بين يديه، وفي حجره ابن له صغير يلاعبه، فخطـر ببـالي أن أسـأله عن اسـم الله الأعظم، قال فقام إلى الولـد، ورمى بيـده في طـوقي وهـزني وقال:

(يا أبا الحسن، أنت أردت أن تسأل الشيخ عن اسم الله الأعظم ليس الشأن أن تسأل عن اسم الله الأعظم، إنما الشأن أن تكون أنت هو اسم الله الأعظم)!!

يعني أن سر الله مودع في قلبك.

قال فتبسم الشيخ وقال لي:

جاوبك فلان عني" أ.هـ.

ألا تعجب بعد ذلك من شيخ أكبر جامعة إسلامية معاصرة يروي هذه الترهات ويصدقها ويكتب كتاباً في سلسلة أعلام العرب تحت رقم 72 ليحدثنا أن من أعلام العرب من كان له ابن صغير يلعب في حجره وأن هذا الغلام الصغير علم الذي في نفس ابن مشيش قبل أن يسأل أباه، وأن هذا الطفل أعلم الشيخ أن اسم الله الأعظم هو ابن مشيش!!! مثل هذا الكذب السمج يروي ويدون في كتب وينشر على الناس باسم الدين، وتوضع هذه النماذج الكاذبة المفتراة على الله ورسالاته لأن يكونوا هم أعلام العرب حتى تحذو الناشئة حذوهم وتسير على طريقهم؟!.. اللهم رحمتك بنا ومغفرتك لنا.

والمهم أن نعود الآن فنذكر بما أوردناه في صدر هذا الباب وهو الزعم بأن أوراد الطريقة الشاذلية التي تلقاها ابن إدريس وأخذها عن شيخه قد تعلمها ابن إدريس هذا مشافهة من النبي حال اليقظة لا حال المنام. وقد رأينا نماذج من هذه الأوراد ونماذج الرجال الذين يزعمون أن رسول الله تنزل عليهم، وحضر إليهم ليخصهم بهذه الكرامات وبهذه الأوراد والأذكار، وحرم من ذلك أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة وجاء بعد ستة قرون من الزمان ليعلم هؤلاء أن يقول أحدهم "اللهم انشلني من أوحال التوحيد وأغرقني في بحار الوحدة".

ويقول أيضاً:

"بكهيعص كفيت بحمعسق حميت فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم اللهم أمنا من كل خوف وهم وغم وكرب كد كد كردد كرده ده ده ده ده الله رب العزة كتب اسمه على كل شيء أعزه خضع كل شيء لعظمة سلطانه اللهم أخضع لي جميع من يراني من الجن والإنس والطير والوحوش والهوام"!!

"طهور بدعق محببة صورة سقفاطيس سـقاطيم آحـون ق أدُّمَّ حم هأ يا هو يا غوثاه يا من ليس للراجي سواه بما في اللـوح من اسـم خفي وبالذكر الحكيم وما تلاه وبـالقبر الشـريف وزائريـه وبالقـدس العلي وما حواه تقبل ربنا منا دعانا"!!

"ربنـا أرنـا اللـذين أضـلانا من الجن والإنس نجعلهم تحت أقـدامنا ليكونا من الأسفلين {ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينـالوا خـيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً} بها بهـا بهـا بهيـا بهيا بهيا بهيهات بهيهات بهيهات القديم الأزلي يخضـع لي جميـع من يراني لمقننجل يا أرض خذيهم قل كونوا حجارة أو حديداً"!!

هذه نماذج من الأدعية الـتي يزعمـون أنهم يتلقونهـا من الغيب وأن الرسول جاء ليعلمهـا لهم والحـال أن جميعهـا من وضـع الشـياطين وتلـبيس الأبـاليس ومن التمويـه على العامـة والسـذج بـأن هـؤلاء المشـايخ عنـدهم أسـرار ويتكلمـون بكلام من الغيب العجيب كـل العجب أن يجعل أمثـال هـؤلاء الـذين يصـرفون النـاس عن القـرآن الحكيم والسنة النبوية المطهرة الـتي ظاهرهـا كباطنهـا أن يجعلـوا أئمة للناس يقتدي بهم في هذا الدجل والشعوذة والكذب على اللـه ورسوله.

فضائل مكذوبة للأذكار الصوفية:

لو كان هؤلاء الصوفية عندما يؤلفون أذكارهم الركيكة التي شـاهدنا نمـاذج منهـا آنفـاً لا يتقولـون بـذلك على اللـه وعلى رسـوله، ولا يزعمون أنهم كتبوها من الرسـول حرفـاً حرفـاً وكلمـة كلمـة لهـان الخطب وقلنـا إن الأمـر لا يتعـدى البدعـة فقـد اخـترعوا من عنـد أنفسهم أدعية وأذكاراً يتعبدون اللـه بهـا وتركـوا مـا هـو أفضـل من ذلك مما علمناه إياه رسول الله وثبت عنه بنقل الصحابة الصادقين والتـابعين لهم بإحسـان ومـا دونـه أئمـة الهـدى من المسـلمين في كتبهم كالبخاري ومسلم وأصـحاب السـنن والمسـانيد. ولكن هـؤلاء المتصوفة المتقولين على الله لم ينسبوا هذه الأذكـار والأدعيـة إلى أنفسهم وإنما نسبوها إلي الله وإلى الرسول وزعمـوا أنـه جـاء بهـا إليهم الوحي والإلهام أو أملاها الرسول عليهم حال يقظتهم لا حـال نومهم. وليتهم إذا فعلوا ذلك أيضاً جعلوا لأذكارهم هـذه من الفضـل ما كان يذكره الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته للأذكــار من الفضل فقالوا مثلاً من قال هذا الذكر كان كمن أعتق عشرة رقـاب أو كان كمن أهدى بدنه أو لم يأت يوم القيامة رجل بأفضل مما جاء

به إلا رجل عمل مثله أو زاد، أو بنى الله له بيتاً في الجنة على نحـو ما كان يتكلم الرسول صلى الله عليه وسـلم مبينـاً فضـائل الأذكـار الـتي يعلمهـا لأصـحابه، ولكن هـؤلاء جعلـوا لأذكـارهم المفـتراة المكذوبة من الفضل والأجر شيئاً لا يبلغه الحد والوصف، وبـالغ كـل منهم في بيـان فضـل الـذكر الـذي يـزعم أن رسـول اللـه اختصـه وجماعته به مبالغة عظيمة فهذا مثلاً أحمـد التجـاني رأس الطريقـة التجانية يزعم أن (ذكره) الذي يسميه صلاة الفاتح: القراءة الواحدة له تعدل قراءة القرآن ستة آلاف مرة!!

قال مؤلف جواهر المعـاني على حـرازم في الجـزء الأول صـفحة (94) "وأما فضل صلاة الفـاتح لمـا أغلـق الخ، فقـد سـمعت شـيخنا يقول: كنت مشـتغلاً بـذكر صـلاة الفـاتح لمـا أغلـق حين رجعت من الحج إلى تلمسـان لمـا رأيت من فضـلها وهـو أن المـرة الواحـدة بستمائة ألـف صـلاة كمـا هـو في وردة الجيـوب وقـد ذكـر صـاحب الوردة أن صاحبها سيدي محمد البكري الصديقي نزيل مصـر وكـان قطباً، قال إن من ذكرها ولم يدخل الجنة فليقبض صاحبها عند الله، وبقيت أذكرهـا إلى أن رحلت من تلمسـان إلى أبي سـمعون فلمـا رأيت الصلاة التي فيها المرة بسبعين ألف ختمة من دلائل الخيرات تركت الفاتح لما أغلق واشـتغلت بهـا وهي (اللهم صـل على سـيدنا محمد وعلى آله صلاة تعدل جميع صلوات أهل محبتـك وسـلم على سيدنا محمد وعلى آله سلاماً يعدل سلامهم) لما رأيت فيها من كثر الفضل ثم أمرني بالرجوع صلى الله عليه وسـلم إلى صـلاة الفـاتح لما أغلق فلما أمرني بالرجوع إليها سـألته صـلى اللـه عليـه وسـلم عن فضلها فأخبرني أولاً بأن المرة الواحدة منهـا تعـدل من القـرآن ست مرات، ثم أخبرني ثانياً أن المرة الواحدة منهـا تعـدل من كـل تسبيحة وقع في الكون ومن كل ذكر ومن كل دعـاء كبـير أو صـغير ومن القرآن ستة آلاف مرة لأنه من الأذكار" انتهى بلفظـه (جـواهر المعاني ص94)..

فانظر إلى هؤلاء الكاذبين كيف يدعي أحدهم أن كلاماً ركيكاً كصلاة الفاتح التي هي مجرد سـطر ونصـف سـطر أو نحـو خمس عشـرة كلمة فقط يعدل أجر قراءتها أجر قراءة القـرآن سـتة آلاف مـرة!! وهذا كـذب سـخيف لا يحتـاج إلى تعليـق وبيـان وهـذه الصـلاة ذات الفضـل المزعـوم هي: "اللهم صـل على سـيدنا محمـد الفـاتح لمـا أغلق والخاتم لم سبق ناصـر الحـق بـالحق والـداعي إلى صـراطك المستقيم"!!

والعجيب أن هـذا الكلام الركيـك كلـه جهالـة، فمـا هـو الـذي أغلـق وفتحه الرسول شيء غير مذكور في هـذا الـذكر، ومـا الحـق الـذي نصره الرسول وبأي حق نصره أيضـاً مجهـول ومـا هـو الـذي سـبق وختمه النبي.. فهو كلام ليس فيه لذاته معنى مفيد، وإنما قد يفسـر بنحو صحيح بكلام آخر، وقد يفسر أيضاً على نحو فاسد كما يفسـره التجانيون أنفسـهم بمعـان فاسـدة فمثلاً قـد يقـول قائـل إن معـنى قولهم (الخاتم لما سبق) أي خاتم النبـوة وهـذا معـنى صـحيح وهـو غـير موجـود في هـذه الصـلاة الـتي يسـمونها صـلاة الفـاتح. لكن التجانيين أنفسـهم يخـالفون ذلـك ويـرون أن النبـوة لم تنتـه بـدليل قـولهم إن صـلاة الفـاتح هـذه نـزلت عليهم من السـماء في ورقـة مكتوبة بقلم القدرة!! ولذلك قالوا هي من كلام الله تعالى وليسـت من تأليف مخلوق (انظر الهديـة العاديـة إلى الطريقـة التجانيـة ص 105)!!

فمعنى هذا أن قولهم (والخاتم لما سـبق) ليس مقصـوداً بـه النبـوة والوحي لأن صلاة الفاتح المزعومة نفسـها وحي أكمـل القـرآن بـل على قـولهم هـذا أكمـل نـزولاً من القـرآن لأنهـا نـزلت مكتوبـة من السماء والقرآن نزل مشافهة وسماعاً، ومعلوم أن المكتوب أعظم من المسموع في الإثبـات بـدليل امتنـان اللـه على موسـى بـإنزال التوراة مكتوبة كما قال تعالى {وكتبنا له في الألواح من كـل شـيء موعظة..} الآية.

وهم يزعمون هنا أن صلاة الفـاتح نـزلت من السـماء مكتوبـة ولـذا جاز عندهم تفضيل قراءتها على القرآن وإن أجر قراءة القرآن كلـه سـتة آلاف مـرة فـأي كـذب على اللـه أكـبر من هـذا. ونحن نقـول لهؤلاء الكاذبين أكان يجوز لرسول الله صلى الله عليه وسلم الــذي يزعمون أنه هو الذي خص أحمـد التجـاني وجماعتـه بهـذه الفضـيلة وقال له (خبأتها لك يا أحمد)!! أكان يجـوز لـه أن يخفي شـيئاً مثـل هذا عن الصحابة رضوان الله عليهم وهم أصـحابه القـائمون بـأمره الحارسـون لدينـه البـاذلون أنفسـهم وأمـوالهم في سـبيل نصـرته.. ليعطي مثل هذه الفضيلة إلى أحمـد التجـاني وأعوانـه الـذين كـانوا وما زالوا أعظم أعوان الاستعمار الفرنسي في شـمال أفريقيـا بـل في كل القارة الأفريقية وهم الـذين مهـدوا السـبيل أمـام الجيـوش الفرنسية في معظم أنحاء القارة. أكان يجوز للرسول إخفـاء صـلاة الفــاتح الــتي يزعمــون أنهــا أعظم من القــرآن بســتة آلاف مــرة لإعطائها مجموعة من خدم الاستعمار والكفار!! والحال أن الله قـد

قال لرسوله {يا أيها الرسـول بلـغ مـا أنـزل إليـك من ربـك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس} (المائدة:67).

أم أنكم كذبتم على الله ورسوله وجاريتم في كـذبكم هـذا من قـال إن قـراءة دلائـل الخـيرات أفضـل من قـراءة القـرآن سـبعة آلاف مرة!! فانظر المجاراة والتنافس في الكذب على الله ورسوله.

ولم يكتــف صــاحب الفــاتح بــذكر مــا ذكــره من الفضــل لصــلاته المزعومة بل انظروا ما يقوله أيضاً في فضله:

قـال صـاحب الجـواهر في صـفحة 96 من الجـزء الأول في سـياق فضل صلاة الفاتح "إنها لم تكن من تأليف البكري ولكنـه توجـه إلى الله مدة طويلة أن يمنحه صلاة على النبي صلى اللـه عليـه وسـلم فيها ثواب جميع الصلوات وسر جميع الصلوات وطال طلبه مدة ثم أجاب الله دعوته فأتاه الملك بهذه الصـلاة مكتوبـة في صـحيفة من النور ثم قال الشيخ: فلما تأملت هذه الصلاة وجدتها لا تزنهـا عبـادة جميع الجن والإنس والملائكة. قال الشيخ وقـد أخـبرني صـلى اللـه عليه وسلم عن ثـواب الاسـم الأعظم فقلت: إنهـا أكـثر منـه فقـال صلى الله عليه وسلم بل هو أعظم منها ولا تقوم له عبادة" أ.هـ.

فانظر كيف جعل هـذه الصـلاة المزعومـة أفضـل من عبـادة جميـع الإنس والجن والملائكة!!

وليست هذه الفرية هي وحدها ما عند أصحاب الطريقة التجانية بل عندهم من الدواهي والأكاذيب مـا ينـدى لـه الجـبين فعنـدهم صـلاة أخرى يسمونها جوهرة الكمال ونصها:

"اللهم صل وسـلم على عين الرحمـة الرانيـة والياقوتيـة المتحققـة الحائطـة بمركـز الفهـوم والمعـاني ونـور الأكـوان المتكونـة الآدمي صاحب الحق الرباني الـبرق الأسـطع بمـزون الأريـاح المالئـة لكـل متعـرض من البحـور والأواني ونـورك اللامـع الـذي ملأت بـه كونـك الحائـط بأمكنـة المكـاني اللهم صـل وسـلم على عين الحـق الـتي تتجلى منها عروش الحقـائق عين المعـارف الأقـوم صـراطك التـام الأسقم اللهم صـل وسـلم على طلعـة الحـق بـالحق الكـنز الأعظم إفاضتك منه إليك إحاطة النـور المطلسـم صـلى اللـه عليـه وسـلم وعلى آله صلاة تعرفنا بها إياه" (الرماح ص224 ج1).

وقد قال الدكتور الشيخ تقي الـدين الهلال حفظـه اللـه تعقيبـاً على هذه الصلاة:

"إن هذه الصلاة التي زعم التجـانيون أن شـيخهم أخـذها عن النـبي صلى الله عليه وسلم وذكروا لها ما تقـدم من الفضـل يسـتحيل أن تكون من كلام العـرب الفصـحاء وهي بعيـدة منـه بعـد السـماء من الأرض، وكل من يعرف لسان العرب معرفة حقيقية لا يكـاد يصـدق أن ذلك الكلام الركيك يقوله أحد من العرب وفيهما كلمتان إحداهما سـب لا يجـوز أن يطلـق على النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم ولا يتناسب مع ما قبله وهي كلمـة (الأسـقم) فـإن الصـراط لا يوصـف بالسقم إذ لا يقال صـراط مـريض وهـذا الصـراط أمـرض من ذلـك وإنما يقـال صـراطك المسـتقيم أو قـويم وهـذا الصـراط أقـوم من ذلك".

وقد رد العلماء على التجـانيين وعـابوا عليهم هـذه الكلمـة القبيحـة فقال الشيخ الكميل الشنقيطي في أرجوزته التي انتقد بها الطريقة التجانية:

"ولم يجز إطلاق لفظ موهم نقصاً على النبي مثل الأسقم

كذا مطلسم وما يدريكا لعله كفر عني الشريكا

ولم يتفطن أولئـك العلمـاء إلى سـبب هـذا الخطـأ ولـو تفطنـوا لـه لانحل الإشكال كلـه فسـببه أن مؤلـف هـذه الصـلاة مغـربي وأهـل المغـرب في لغتهم العاميـة يقولـون (سـر مسـقم) يريـدون امش مستقيماً ويقولون كذلك (سر اسقم) بعضه ينطق به قافا وبعضـهم ينطق به كافا، ولما كان منشئ هذه الصلاة غير عالم بالعربيـة وقـد ذكر الأقوم من قبلـه في قولـه عين المعـارف الأقـوم وقـال بعـدها صراط التام، أراد أن يصف الصراط بالاستقامة مع المحافظـة على السجع لمقابلة الأقوم واستثقل أن يكرر الأقوم عـبر بالأسـقم ظنـاً منه أنهما في المعنى سواء كما يفهمه عامـة المغاربـة، وقـد علمت من مصاحبتي للشـيخ أحمـد سـكيرج وهـو من كبـار المقـدمين في الطريقة التجانية وكنت في ذلك الوقت تجانيـاً لا يخفى عـني سـراً، أن هذه الصلاة وجدت في أول أمرها عند شخص يسمى محمــد بن العربي النازي ويسميه التجـانيون الواسـطة المعظم لأنـه بـزعمهم وساطة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الشيخ أحمد التجــاني يحمل الرسائل من الشـيخ إلى النـبي ومن النـبي إلى الشـيخ وفي ذلك الوقت أي في وقت الوساطة لم يكن النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم يظهر للشـيخ التجـاني وإنمـا كـان يظهـر لمحمـد بن العـربي وزعموا أن النبي صلى الله عليـه وسـلم قـال للواسـطة محمـد بن

العربي لولا محبتك لحبيبي التجاني ما رأيتني وكـان الواسـطة يخـبر الشيخ التجاني بأنه إذا جاء الوقت الموعود يظهر النـبي صـلى اللـه عليه وسلم له بلا واسطة يحدثه ويكلمه وسنذكر شيئاً من الرسائل التي أملاها النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم على محمـد بن العـربي وأمره بكتابتها ليحملهـا إلى الشـيخ التجـاني يقرأهـا عليـه وحينئـذ لا يبقى عندك شك في جهل هـذا الرجـل بالعربيـة وأنـه سـبب ركاكـة هذه الصلاة التي هي من إنشائه" أ.هـ (الهدية الهادية إلى الطريقــة التجانية ص110،111).

والعجيب أنه من ركاكة هذا الدعاء وهذه الصلاة المزعومة ونسـبتها إلى الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم فـإنهم زعمـوا لهـا أيضـاً من الفضل ما فاق الكذب إلى الوقاحة فقد زعموا كمـا جـاء في كتـاب الرماح ص89 أن رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم ذكـر لأحمـد التجاني أن قراءة المرة الواحدة من (جوهرة الكمال) تعدل تسـبيح العالم ثلاث مرات ومن قرأها سبع مرات فأكثر بحضرة رسول الله والخلفاء الأربعة ما دام يـذكرها، ومن لازمهـا أكـثر من سـبع مـرات كل يوم أحبه النبي محبة خاصة ولا يموت حتى يكون ولياً!!

فانظر أي تقول على اللـه هـذا. بـل قـال التجـاني أيضـاً: "أعطـاني رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة تسمى جوهرة الكمـال كـل من ذكرها اثنتي عشرة مرة فكأنما زاره في قبره يعني في روضته الشـريفة!! وكأنمـا زار أوليـاء اللـه الصـالحين من أول الوجـود إلى وقتـه ذلـك. وقـال لي رسـول اللـه هـذه هديـة مـني إليـك"!!! أ.هـ (الهدية الهادية إلى الطريقة التجانية ص110).

الفصل الثاني
الشطح الصوفي

فسر أبو نصر السراج الطوسي الشطح الصوفي بأنه (عبارة مستغرقة في وصف وجد فاض بقوته، وهاج بشدة غليانه وغلبته) (اللمع ص453)، وقد لجأ المتصوفة إلى هذا التعريف لتبرير الكفر والزندقة الذي فاضت به كتب القوم وتواتر عنهم معتذرين أن ما قالوه قد قالوه في حالة سكر بما تجلى لهم من حقائق وبما عاينوا من علوم وزعموا أنها أسكرتهم وأطارت صوابهم، وجعلتهم يتكلمون بمثل هذه العبارات وهذا التبرير السمج الذي لجأ إليه الصوفية لا يغير من الحقائق شيئاً وهو أن ما قالوه كفر واضح ظاهر وافتراء على الشريعة.

وقبل أن نبدأ في تفنيد مزاعمهم نستعرض طائفة يسيرة من عباراتهم التي اعتذروا عنها بأنها من الشطح وأن قائليها معذورون فيما قالوه لأنهم بزعمهم كانوا سكارى غائبين عن وعيهم عند ذكرهم لهذه العبارات. فقد تواتر ونقل الناس عن أبي يزيد البسطامي أنه قال "رفعني مرة فأقامني بين يديه وقال لي يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك!! فقلت: زيني بوحدانيتك وألبسني أنانيتك وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك، ولا أكون أنا هنا" (اللمع ص461) أ.هـ.

وذكر عنه كذلك أنه قال "أول ما صرت إلى وحدانيته فصرت طيراً جسمه من الأحدية، وجناحاه من الديمومة فلم أزل أطير إلى أن صرت في ميدان الأزلية، فرأيت فيها شجرة الأحدية" (اللمع الطوسي ص461)، ونقل عنه أيضاً أنه قال: "سبحاني سبحاني" وقال أيضاً "ضربت خيمتي بإزاء العرش" (اللمع ص464)، ومر يوماً بمقبرة للمسلمين فقال "مغرورون" و.. لليهود فقال "معذورون"!! (اللمع ص463).

وأما الشبلي فهو أحد مقدميهم وقادتهم واسمه دلف بن جحدر فقد قيل له يوماً: يا أبا بكر أخبرنا عن التوحيد فقال: للسائل: "ويحك! من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو ملحد، ومن أشار إليه فهو ثنوي، ومن سكت عنه فهو جاهل، ومن هم أنه واصل فليس له حاصل، ومن أومأ إليه فهو عابد وثن، ومن نطق فيه فهو غافل ومن ظن

أنه قريب فهو بعيد ومن تواجد فهو فاقد، وكلما ميزتموه بأوهـامكم وأدركتموه بعقـولكم في أتم معـانيكم فهـو مصـروف مـردود إليكم محدث مصنوع مثلكم" أ.هـ.

وعندما سئل الشبلي عن أبي يزيد البسـطامي وعـرض عليـه بعض ما قاله البسطامي مما نقلناه آنفاً قال الشبلي:

"لو كان أبو يزيد ها هنا لأسلم على يـد بعض صـبياننا وقـال: لـو أن أحداً يفهم ما أقول لشددت الزنانير" (اللمع ص50).

وكان هذا الشبلي أيضاً يقـول: "لـو خطـر ببـالي أن الجحيم نيرانهـا وسعيرها تحرق مني شـعرة كنت مشـركاً" (اللمـع ص479 ومعـنى شـددت الزنـانير جمـع زنـار وهـو مـا كـان يضـعه أهـل الذمـة على وسطهم تميزاً لهم عن المسلمين).

وذكر عنه أيضاً أنـه سـمع قارئـاً يقـرأ هـذه الآيـة {اخسـأوا فيهـا ولا تكلمون} فقال الشبلي ليتني كنت واحداً منهم (اللمع ص490).

وذكـر عنـه كـذلك أنـه قـال: "إن للـه عبـاداً لـو بزقـوا على جهنم لأطفأوها" (اللمع ص490) وثبت عن أبي الحسين النوري أنـه قـال (أنا أعشق الله وهو يعشقني"!! (اللمع ص491).

وشهدوا عليه أيضاً أنه سمع المـؤذن فقـال: طعنـه وشـم المـوت!! وسمع نباح كلب فقال: "لبيك وسعديك"!! (اللمع ص492)، وكـذلك كان أبو حمزة الصوفي إذا سمع صوت هبوب الـريح وخريـر المـاء، وصياح الطيور يصيح ويقول: لبيك!!.

ودخل دار الحارث المحاسبي فسمع شـاه مرغيـاً: فقـال: "لبيـك يـا سيدي"!!.

هذه عبارات قليلـة جـداً ممـا نقـل عن هـؤلاء وتـواتر عنهم، ومهمـا حاول المرء أن يعتذر عن أصحابها بأي وجه من الوجوه فإنه لا يجـد مفـراً من الحكم بكفـر معتقـديها وقائليهـا.. فأمـا قـولهم إن هـذا شطح، وغلبة حال وغلبة سكر، ونحو هذا من الأقوال فالرد عليها ما يأتي:

1- لا نسلم أن قائلي هذه العبارات قد قالوها كمـا زعمـوا وهم في حالة هذيان وغيبة عقل، وذلك أن هذه العبارات لها لمعان محدودة، وهي نسيج مؤلـف مـركب قصـد بهـا صـاحبها أن يـدل على عقيـدة

عنده، ولم يقلها كلاماً غير منضبط ككلام السكران والغائب عن الوعي.

2- إن هذه العبارات قد تلقاها تلاميذ التصوف بالقبول واعتقدوا ما فيها بل وشرحوا العقيدة التي تشير هذه العبارات إليها في كتب كاملة.. والعقيدة هذه هي أن الأديان جميعاً دين واحد، وأن الخلق جميعاً هم عين الخالق وأنه لا موجود إلا الله!! وأن هذا الخنزير الذي كان يمر به أحدهم فيقول له عم صباحاً!! هم مظهر من مظاهر الخالق -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً- ونستغفر الله من كتابة أقوالهم وإعادتها وكذلك هذه الشاة التي ترغي فيقول لها أحدهم لبيك يا سيدي، ما قال ذلك في غلبة السكر، وفي رؤيته للنار أو النعيم، ولا لتذكره لآية من كتاب الله وإنما قال ذلك لأنه سمع ثغاء شاة، أو نباح كلب، ومثل هذه الأصوات لا تخلق في المسلم (حالة) ولا تجعل عنده وجداً يحمله على الغياب عن الوعي حتى يقول مجيباً له "لبيك يا سيدي"!!

وكذلك نقول أيضاً ما الذي يبعثه نداء المؤذن في قلب الصوفي حتى يرد عليه قائلاً.. ضربه وشم الموت!!، هل سماع المؤذن يؤدي إلى حالة وجد وغياب عن الوعي حتى يقول سامع المؤذن: ضربك أيها المؤذن وشم الموت!! وأنا أقول نعم هي حالة حقيقية للزنديق عند سماع المؤذن لأنه لا يريد لصوت الداعي إلى الله أن يعلو.. لأنه يكفر بالإسلام والصلاة ويريد لأصوات الكلاب والخنازير أن يقبلها المسلم بقولهم (لبيك يا سيدي"!!.. إقرأ في كتاب اللمع للطوسي قوله "وأخذوا عليه (يعني أبا الحسن النووي) أنه سمع أذان المؤذن فقال: طعنه وشم الموت، وسمع نباح الكلب فقال: لبيك وسعديك". ومثله تماماً ما نقلناه آنفاً عن أبي يزيد أنه اجتاز بمقبرة لليهود: فقال: معذورون. وبمقبرة للمسلمين فقال: مغرورون!! فأي غلبة حال وسكر، وهذيان غلبت على هؤلاء حتى قالوا ما قالوا.. وأليست هذه عقيدة زنديقية واحدة.. ثم ما هذا (المربي) -زعموا- الذي رأى مريده يقتل قملة فقال له: قاتلك الله شفيت غيظك بقتل قملة!! وهذا الشيخ نفسه يمر على الخنزير فيقول له: عم صباحاً!!

وكان يبدأ الكلاب والخنازير بالسلام.. المهم أن هذه العبارات التي يسمونها شطحاً لم تكن شطحاً كما زعموا وقد قالها قائلوها في

حالة صحو وليس في حالـة سـكر، وإنهـا تنـبئ عن عقيـدة وليسـت كلاماً فارغاً من المعنى وهذياناً كما زعموا.

3- ثم إننا نسأل إذا كان مثل هذه العبارات يسميها الصوفية شطحاً وهذياناً، فلماذا يعمدون إلى تأويلها وتفسيرها، وإخراج درر معانيهـا، بل وجعلها من مناقب قائليها ووصولهم إلى الحقيقة؟! فقد فسـروا كلام من أجاب الشاة بقوله: لبيك يا سيدي بأنه علم أن كل شـيء يسبح بحمد الله، وأن ثغاء الشاة تسـبيح ولـذلك أجابهـا.. فـإذا كـان كلامهم هذا شطحاً فلماذا فسروه وأخرجوا معانيـه الغاليـة!! ودرره الثمينة.. وتقول لهم جعل الشاة في موضوع السيادة ليس تعظيمـاً للخالق!! والسلام ليس موضـوعاً ليلقي على الخنـازير والكلاب بـل ولا على غير المسلم أيضاً لأن السلام تحية خاصة بالمسلمين فقـط فإلقاؤهـا على الكلاب والخنـازير مـروق من الـدين، وخـروج عن حقيقة الشريعة المطهرة وظاهرها. وأمـا تفسـيرهم لقـول النـوري الذي دعا على المؤذن بالموت عنـدما سـمع نـداءه، بأنـه خشـي أن يكون هذا المؤذن مرائياً أو يأخذ أجراً على أذانه كمـا زعمـوا فليس هذا طريق الإنكار على المؤذن وإنما النوري أنكر على الأذان وليس على المؤذن. وكان يجب لو كان يؤمن بالإسلام حقاً، وبالأذان صدقاً أن يقول كما يقول وأن يصـلي بعـد ذلـك على الرسـول ويطلب لـه الوسـيلة والفضـيلة ثم يسـارع إلى المسـجد ويشـهد الصـلاة مـع المسلمين ثم ينكر على المؤذن أخذه للأجرة لو شاء.. ولكن هـؤلاء كمـا أسـلفنا ينشـرون عقيـدة معلومـة لـديهم تلقوهـا عن الزنادقـة والملاحـدة، وهـذا الـذي يسـمونه شـطحاً مـا هـو إلا تأسـيس لهـذه العقيدة.

4- والأمـر الرابـع نسـألهم: هـذا السـكران بحب اللـه كمـا زعمتم.. وبرؤية الجلال الإلهي أو الجمال -كما تزعمـون- هـل يجلس ليؤلـف كتباً كاملة في هذا الهذيان والسكر وغلبـة الحـال كمـا تقولـون.. أو يكفيه عبارة أو عبارتان، جملة أو جملتان.. أعني لـو كـانوا صـادقين أن هذا الكلام الخارج عن موازين الشريعة هذيان وشطح حقاً لكان شيئاً قليلاً ولكن الحاصل والموجود أن هناك عشرات بل مئـات بـل آلاف الكتب قد شحنت بهذا الكفر والزندقـة فكتـاب يـزعم صـاحبه أنه تلقاه من الغيب بـالوحي الإلهي ولا يـترك كفـراً إلا ويضـعه فيـه كالحكم ببراءة قوم نوح من الشـرك، وجهـل نـوح لأنـه دعـاهم إلى التوحد، والحكم بإيمان فرعون، وجهـل هـارون لأنـه نهى قومـه عن عبادة العجل، والعجل هـذا في زعم مؤلـف كتـاب (الفصـوص) هـو

مظهر من مظاهر الله تعالى الله عما يقولـون علـواً كبـيراً، وكـذلك تبرئة إبليس والحكم بنجاته، بل والحكم بأن أهل النار منعمـون فهم في عذوبة لا عذاب وأنه وأنه..

بعضهم يسمي كل هذا شطحاً. وآخر وهـو عبـدالكريم الجيلي يكتب كتاباً يقع في أكثر من مـائتي صـفحة من القطـع المتوسـط يسـميه (الإنسان الكامل) لا يترك كفراً في الأرض إلا ويجعله فيه؛ من ذلـك أنه يصـف رحلـة مزعومـة لـه من الأرض إلى السـماء الـدنيا، حيث يصـف مـا فيهـا وأنـه قابـل فيهـا فلانـاً وفلانـاً من الأنبيـاء وناقشـهم واســتفاد منهم، ثم الســماء الثانيــة، ثم الثالثــة، ثم الرابعــة، ثم الخامسـة والسادسـة والسـابعة وإلى الكرسـي والعـرش والحجب السبعين!! ويصف مـا رآه هنـاك ثم يعـود ليهبـط إلى الأرض الأولى فالثانيــة فالثالثــة، فالرابعــة وحــتى الســابعة ويقابــل فيهــا أوليــاء وروحانيين وفلاسفة وحكماء و.. ويدعي أن من لم يصدق هـذا فهـو كافر!! ويأتي كاتب صوفي آخر ينسج على منوال هؤلاء فيكتب كتاباً يسميه (مشارق شموس الأنـوار ومقـارب حسـها في معـنى عيـون العلوم والأسرار) والكاتب هذا هو إسـماعيل بن عبداللـه السـوداني ألـف كتابـه سـنة 1262هــ فيصـف كـذلك مشـاهداته الحسـية -في زعمـه- للسـماوات السـبع العلى، وللأرضـين السـبع ويجـد القـارئ فصولاً من هذيانه وتخليطـه في بـاب (المعـراج الصـوفي) من هـذا الكتاب..

وغـير هـذا.. وهـذا شـيء يصـعب إحصـاؤه واستقصـاؤه وإن جئت تنـاقش بعض المـدافعين عن هـذا الهـذيان يقولـون لـك تـارة هـذا شـطح، وتـارة هـذه كرامـة، وتـارة هـذا فتح، وهـذا تنـاقض منهم وسـنناقش دعـوى الفتح والكرامـة في مـوطن آخـر من الكتـاب والمهم هنا أن نرد على دعواهم أن مثـل هـذا من الشـطح، فيقـول كيف يكتب كاتب كتاباً يقسم أبوابه ويضعفصوله ويقول للنـاس هـذا من عند الله وتدعون أنتم أنه شطح وهذيان وأن قائلـه معـذور لأنـه قاله في غلبة حـال وضـياع عقـل!! أليس قـولكم هـذا تلبيسـاً على الناس، واسـتهزاء بعقـولهم!! الشـطح لا يكـون كتبـاً كاملـة مؤلفـة منسقة منفصلة!! وإنمـا هـذه عقيـدة ودين بـاطني يريـد أربابـه بـه صرف المسـلمين عن عقيـدة الكتـاب والسـنة إلى الكفـر والإلحـاد والزندقة.

5- ثم نقول لهؤلاء إثباتكم أن الصوفية يشطحون ويقولون ما لا يريدونه ولا يقصدونه في أقل أحواله إثبات لأحوال غريبة وبدعة منكرة ما كان عليها أحد من سلف الأمة الصادقين كالصحابة والأئمة فهل سمعتم أن أبا بكر وعمر والخلفاء والصحابة شطحوا!! وهل وجد في التابعين لهم بإحسان من عرف عنه شيء من ذلك، وهل كان الأئمة الأربعة من أهل الشطح أليس الشطح الصوفي دليلاً على الابتداع والخروج عن الدين القويم..؟

أليس الإمام الشافعي قد قال وقد صدق والله فيما قال: "لا أرى شخصاً يتصوف في أول النهار، إلا وأصبح أحمق في آخره!!" أليست هذه كلمات من نور الإمام الشافعي الذي رأى بعينه بدايات التصوف وأخبر أن يوماً واحداً في التصوف يكفي لجعل الشخص أحمق. فأنتم باعترافكم أن هذا شطح إنما تسجلون على أنفسكم الحماقة والبدعة والخروج عن نهج السلف الصالح رضوان الله عليهم ورضي الله عن الشافعي الذي يقول أيضاً "ما لزم أحد الصوفية أربعين يوماً فعاد عقله إليه أبداً" (تلبيس إبليس).

6- ولكن بعض الصوفية وقد أحرجوا في حكاية الشطح هذه أرادوا أن يستخرجوا دليلاً من الكتاب والسنة على شطحهم وأن أحوالهم هذه وهذيانهم مؤيد أيضاً بالكتاب والسنة فقال: لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً] فدل هذا على جواز الشطح وأن الرسول فعله أو مثله.. ونحن نقول: نسبة النبي إلى الشطح كفر وزندقة.. فالنبي صلى الله عليه وسلم عاين ما عاين من أمر الله وكان في كل ذلك هو الإنسان الكامل والرسول الصادق والعبد الكامل صلى الله عليه وسلم ولم يكن له حال أو مقال يخالف عقيدته التي نشرها وبينها والتي جاء بها كتاب الله وسنة رسوله. ومن قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خالف بعض كلامه بعضاً لحال أو مشاهدة فقد كفر وافترى وكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأما استدلالكم بالحديث على أن من رأى ما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقول: من هذا الذي رأى ما رآه الرسول في الغيب: الحلاج والبسطامي، والشبلي، والنوري وأشكالهم سبحان الله أجاء هؤلاء ليطلعوا على ما لم يطلع عليه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والمبشرون بالجنة. أكان الحلاج يزعق بالشوارع، والشبلي يصرخ بالمجالس لأن الله أطلعه على الجنة والنار!! ألا تستحون من إيراد مثل هذه السخافات!!.. ونتنزل معكم درجة: هبو

صدقناكم أن هؤلاء اطلعوا على الجنة والنار وشاهدوها رأي العين ألم يكن الواجب أن يحصل فيهم ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم فيبكون كثيراً ويضحكون قليلاً وهذا ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم.

[لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً]. ما قال لشطحتم ونصحتم وافتريتم وكذبتم وقلتم "سبحاني" وما في الجبة إلا الله، ويا خنزير عم صباحاً، ويا كلب عم مساءً.

وفي ختام هذا الفصل نقول من سمع آيات الله وكان من أهل الإيمان والتقوى خشع قلبه وقد تدمع عينه، ويقشعر جلده، ثم يلين لذكر الله كما قاله سبحانه وتعالى: {الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد} (الزمر:23).

وقال أيضاً سبحانه وتعالى في وصف حال الأنبياء والرسل والمؤمنين عند سماع آيات الله بعد أن قص في سورة مريم أخبار طائفة من رسله وأنبيائه وأوليائه وهم زكريا ويحيى وعيسى ومريم وإبراهيم وموسى وهارون، وإسحاق ويعقوب، وإسماعيل وإدريس..:

{أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدوا وبكياً} (مريم: 58).

فليس عندهم عند سماع الآيات إلا السجود والبكي، وليس الشطح فهل هؤلاء الصوفية حقاً متأسون بالأنبياء والأولياء الصالحين أو أنهم صارخون مستصرخون من وخز الشياطين ولترويج عقائد الملحدين؟!

7- لقد شاهدت بنفسي كيف يصرع هؤلاء عند الذي يسمونه حالاً، والله لا أشك لحظة واحدة أنه وخز شيطان أو تصنع منافق خبيث، فقد كان أحدهم يقوم ويقعد ويصرخ ويزبد ويأخذ (بطاقيته) وقلنسوته وغترته أو عمامته فيلقيها على الأرض ويسارقنا النظر ونحن ننظر إليه راثين لأحوال هؤلاء الحمقى الذين يستفزهم الشيطان ويحركهم ويتلاعب بهم، وقد كان هؤلاء المطيرون الضاحكون يفعلون ذلك عندما كان يقال كلام كله كفر وشرك وغلو

في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم يسـمونه مـدحاً وهـو في الحقيقة ذم للرسول، وسب له.

فاعلم أخي المسلم أن هذا الشطح الذي يأتي مما يسمونه بالحــال ما هو إلا وخز شيطاني وتحريك إبليسي، هذا عنـد الصـادقين منهم، وأما الكاذبون فإنهم يفتعلون ما يفعلون لإيهام العامة والسذج بأنهم من أهل الأحوال ومن المشـاهدين لمـا يسـمونه بحضـرة الجلال أو الجمال!! وذلك كلـه من الريـاء والنفـاق وسـوء الأخلاق. ومخالفتـه هدي سلفنا الصالح والخـروج على منـاهج الأنبيـاء. فنسـأل اللـه لنـا ولإخواننا المسلمين السلامة والعافية مما ابتلي به هؤلاء.

الفصل الثالث

قواعد التربية في المنهج الصوفي

وضع المتصوفة لهم قواعد خاصة للتربية حسب منهجهم الصوفي فحددوا أهدافاً خاصة للتربية ووضعوا شروطاً في المريد (وهو اسم أطلقوه على الطالب أو المبتدئ) وشروطاً خاصة بشيخ الطريق، ومنازل يسير فيها السالك في دربهم. وقد بدأ وضع ملامح هذا المنهج منذ بدأ الفكر الصوفي في الظهور في أواخر القرن الثاني الهجري، وبلغ هذا المنهج الغاية تقريباً مع نهاية القرن الرابع الهجري حيث أسست الخانات والأماكن الخاصة التي يتجمع فيها الصوفية وكانوا يسمون بالفقراء أولاً.

وكانت لهم في هذا الوقت مشاعر خاصة، كالسماع والذكر الخاص، ورسوم وإشارات وملابس خاصة، ولم يكن لهؤلاء الفقراء أو المتصوفة في القرن الثالث وأوائل القرن الرابع شيخ خاص بكل فريق وإنما كانوا يتربون على ما يسمعونه ويتناقلونه من كلام مشايخهم بوجه عام. ولكن منذ أواسط القرن الرابع بدأ التربي على الشيخ الخاص وأن يكون لكل جماعة شيخ معلوم لا يتجاوزونه إلى غيره ثم يرثه بعد ذلك شيخ على منهجه وطريقته. وهكذا ومنذ ذلك الوقت عرف ما يسمى بالطريقة الخاصة. ثم تدرج الأمر وتحولت وراثة الطريق إلى وراثة النسب فكان الأبناء يرثون آباءهم في الطريق وأحياناً ما كانت الزوجات هن اللائي يرثن الأزواج وهن اللائي يسلكن المريدين ويعطين العهود.. باختصار تحولت الطريقة الصوفية في أواخر عهودها وخاصة بعد القرن العاشر الهجري إلى طرق وراثية، وإمارات خاصة وإقطاعيات دينية يرث فيها الأبناء جمهور الطريق والرعية التي كانت لآبائهم من قبل.

وعلى مر هذه العصور وضع المتصوفة لهم آداباً خاصة في التربية وشروطاً خاصة في المريد وها نحن نذكر لك بالتفصيل هذه الآداب والقواعد التي دونها علماء التصوف في كتبهم لينشأ لهم في النهاية الجيل الصوفي الذي يريدون.

أولاً- اتخاذ الشيخ:

أول ما يجب على مريد الطريق الصوفي أن يتخذ شيخاً له ليدله على الطريق. يقول عبدالكريم القشيري "ثم يجب على المريد أن يتأدب بشيخ فإن لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان" (القشيرية ص

181)، وهذا النص قد كتبه سنة 387هـ وهو يدلك على أن قضية وجوب اتخاذ الشيخ قضية قديمة، واتخاذ الشيخ قد تفسر بأن لها سنداً من الكتاب والسنة في أن الرسول علم أصحابه والأصحاب علموا التابعين وهكذا، ولكن هذا استدلال من لا يعلم ماذا يعني الشيخ في الطريق الصوفي! إن الشيخ يعني شيئاً آخر تماماً كما ستأتي مواصفات الشيخ والشروط والآداب التي يجب مراعاتها معه.

والمهم هنا أن نعلم أن كون من لم يتخذ شيخاً لا يفلح أبداً ليس بصحيح فمن الممكن أن يهتدي المسلم بسماعه للقرآن وقراءته للحديث من شيخ أو طالب علم، أو كتاب ولا يشترط في الهداية الالتزام بشيخ معين بل لو سمع المسلم من عشرات الشيوخ لكان هذا أحكم له وأعلم وهكذا كان سلفنا الصالح يسمعون الحديث النبوي من أهله، والفقه من أهله، والقواعد العربية من أهلها، والتفسير من أهله وهكذا..

وأما في الطريق الصوفي فيجب عليك أن تتخذ شيخاً واحداً لا تحيد عنه ولا تلتفت إلى غيره بل لا يجوز أيضاً طلب العلم من غير أهل التصوف مطلقاً.

يقول القشيري بعد أن قرر في زعمه أن طائفة التصوف هم أهل الحق وأن علومهم أشرف العلوم:

".. فإذا كان أصول هذه الطائفة أصح الأصول ومشايخهم أكبر الناس وعلماؤهم أعلم الناس فالمريد الذي له إيمان بهم إن كان من أهل السلوك والتدرج إلى مقصدهم فهو يساهمهم فيما خصوا به من مكاشفات الغيب فلا يحتاج إلى التطفل على من هو خارج عن هذه الطائفة".

وقد قرر شيوخ التصوف من أهل الطرق الحديثة أن من ترك طريقتهم إلى طريقة غيرهم ابتلي بسوء الخاتمة. وهكذا فقد كان رجال التصوف قديماً يأمرون فقط بمجرد الانتساب والسلوك في الطريق الصوفي أياً كان الشيخ أو الطريقة، المهم أن يكون السالك (الموفق) حسب زعمهم سائراً في هذا الطريق غير ملتفت إلى غيره من مذاهب العلماء والفقهاء الذين يصفهم المتصوفة دائماً بأنهم علماء رسوم وطلاب دنيا، وتجار.. الخ الأوصاف التي يطلقونها على علماء الشريعة لتنفير الناس منهم.

وانظر مثلاً إلى ما يقول القشيري في التنفير من سماع المريد إلى كلام غير كلام المتصوفة:

"ويقبح بالمريد أن ينتسب إلى مذهب من مذاهب من ليس من هذه الطريقة وليس انتساب الصوفي إلى مذهب من مذاهب المختلفين سوى طريقة الصوفية إلا نتيجة جهلهم بمذاهب أهل هذه الطريقة فإن هؤلاء حججهم في مسائلهم أظهر من حجج كل أحد وقواعد مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب والناس إما أصحاب النقل والأثر وإما أرباب العقل والفكر وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور، والذي للخلق من المعارف ومقصود فلهم من الحق سبحانه موجود فهم من أهل الوصال (أي مع الله في زعمه) والناس أهل الاستدلال وهم كما قال القائل:

ليلي بوجهك مشرق وظلامه في الناس ساري

فالناس في صدف الظلام ونحن في ضوء النهار"

(القشيرية ص180).

وها أنت ترى هنا أنه يقسم علماء الإسلام إلى ثلاثة أقسام: علماء النقل والأثر، وهم حملة القرآن والحديث والسير وعمل الصحابة والقسم الثاني من سماهم بأرباب العقل والفكر ويعني بهم الفلاسفة والمتكلمين كالمعتزلة والأشاعرة ونحوهم والفريق الثالث المتصوفة ومدح هؤلاء ويقول إن حججهم أظهر وقواعدهم أقوى وأن ما هو غيب عند الآخرين هو شهادة عند المتصوفة يعني أن المتصوفة يشاهدون الله والجنة والنار عياناً ولا يحتاجون إلى الاستدلال بالقرآن والسنة كما هو شأن علماء الأثر، ولا بالأدلة العقلية كما هو حال علماء الكلام والمنطق والجدل. أقول: كان الشأن في أول التصوف هو إلحاق المريد بركب المتصوفة أياً كانوا وكيفما كانوا، ولكن في العصور الحديثة أصبح التصوف دولاً، وإمارات خاصة، وإقطاعات دينية مستقلة، فالطريقة تدر على أصحابها وأربابها أرباحاً وفيرة ولذلك فلا بد من الاستحواذ على المريدين، وإدخالهم في سلك الطريقة الخاصة وعدم السماح لواحد منهم بتاتاً أن ينفلت من القيد الذي يوضع في رجليه والمقود الذي يوضع في رأسه وإلا ارتد عن دينه وعوقب بسوء الخاتمة. فالشيخ في الطريقة الصوفية ليس هو بتاتاً ما يعنيه الكتاب والسنة

من اتخاذ المرشد والهادي والداعي إلى الله، وإنما هو التزام أبدي بطريقة خاصة ورجل خاص يقدسه حياً وميتاً. فشتان بين اتخاذ شيخ وإمام في دين الإسلام الصحيح واتخاذ شيخ صوفي ليكون رائداً للطريقة.

ثانياً - مواصفات الشيخ:

وليس كل شيخ يصلح أن يكون شيخاً في الطريق الصوفي بل لا بد أن يمر بمراحل الطريق من أولها إلى نهايتها، أو على الأقل أن يكون قد أخذ العهد من شيخ سابق أو والد له وقد أذن له الشيخ أو الأب بتسليك المريدين، وإدخالهم في الطريق وتلقينهم الأذكار الخاصة..، الخ.

وحتى تكون المشيخة الصوفية مشيخة معتبرة فقد اخترع المتصوفة قديماً شيئاً سموه السلسلة الصوفية وهذه السلسلة المزعومة هي عبارة عن سند مزعوم يتناقله الخلف عن أسلافهم زاعمين أن هذه السلسلة تنتهي (بالجنيد) الذي يسمونه سيد الطائفة وأن هذا الجنيد قد أخذها عن سري السقطي، والسقطي عن معروف، ومعروف عن داود الطائي، وداود الطائي عن حبيب العجمي، والعجمي هذا عن الحسن البصري، والحسن البصري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه..

يقول ابن عربي في فتوحاته:

"اعلم أنه قد صح وثبت بحكم النقل عند المشايخ (هذه الطريقة المتصوفة في الإسناد فلا ذكر لشيوخ النقل ولا كيف نقلوا)، أن علياً أمير المؤمنين دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، دلني على أقرب الطرق وأفضلها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليك يا علي، بما نلت ببركة النبوة. فقال علي: ما هذا يا رسول الله: قال عليه السلام: ذكر الله تعالى.. قال علي: يا رسول الله، هكذا فضيلة الذكر وكل الناس ذاكرون. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مه يا علي، لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول: الله. الله، ثم قال: أحصيت، يا علي، حتى أنا أقوله ثلاث مرات وأنت تسمع مني فإذا أمسكت فقل أنت حتى أنا أسمع منك. هكذا لقن رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً، ثم لقن علي عليه السلام الحسن البصري، ثم لقن الحسن حبيباً العجمي، ثم لقن داود معروفاً الكرخي، ولقن

معروف سري السقطي، وهو لقن أبا القاسم: الجنيد محمد بن البغدادي وعلى هذه السلسلة باقي المشايخ رحمهم الله" أ.هـ (الفتوحات المكية).

ولا شك أن هذا يدل بغير بيان على ما فيه من الباطل وأنه كذب من أوله إلى آخره فبين ابن عربي الذي افترى هذا الكلام والجنيد أكثر من ثلاثمائة سنة، وهو يقول هنا: اعلم أنه ثبت وصح بحكم النقل عند المشايخ؛ ما هذا (حكم النقل عن المشايخ)!! وهذه السلسلة إلى الحسن البصري سلسلة مظلمة والجنيد قد اتهم من علماء زمانه بالزندقة والكفر وهو صاحب الحلاج الذي أجمع المسلمون في عصره على كفره وزندقته وهذا الحديث عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لا أصل له فيما أعلم في كتاب صحيح من كتب السنة، وهو يخالف ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه يخص أهل البيت لا علياً ولا غيره بذكر خاص أو بعلم خاص امتثالاً لقوله تعالى {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعله فما بلغت رسالته} والجواب عن هذه الشبهة في مكان آخر من هذا الكتاب، أعني، شبهة أن الرسول قد كتم علماً وخص أناساً بعلم من علوم الشريعة أو بذكر خاص أو طريقة خاصة والشاهد هنا أن هذه الطريقة المزعومة كذب وافتراء على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى علي بن أبي طالب والحسن البصري رضي الله عنهم، وقد وضع ذلك المتصوفة ليوهموا الناس أن وحيهم الشيطاني الذي يدعونه، ومشاهداتهم الإبليسية التي يشاهدونها وعلومهم الخرافية التي يتناقلونها لها أصل من الإسناد، وهي متلقاة عن الرسول.

فعجباً لمن يحاربون الإسناد والحديث والنقل ثم يدعونه هنا لأنفسهم وهذا من تخبطهم وضلالهم فالإسناد لأهل الحديث كلام ميت عن ميت هذا زعمهم والإسناد لأهل التصوف شرف واتصال وعلم واتصال بالرسول فانظر وتعجب!!

* والمهم أن الشيخ في الطريق الصوفي يزعم أن له إسناداً متصلاً، وأنه قد أخذ عهداً عن شيوخ سابقين وأن شيوخه عن شيوخ وهكذا إلى الجنيد إلى الرسول.. ومن هؤلاء الشيوخ أهل التسليك من يقنع بأن يكون مجرد شيخ في الطريقة، ومنهم من ينفصل عن طريقته السابقة ويؤسس له طريقة خاصة باسمه ويؤلف ويبتدع لها من ثم أذكاراً خاصة ومشاعر خاصة.. ولكنه لا يقر طبعاً

بالتأليف، والابتداع وإنما يـزعم لأتباعـه ومريديـه أنـه قـد أخـذ هـذه الأذكـار من الحضـرة الإلهيـة هكـذا أو من حضـرة الرسـول، أو من الخضـر.. المهم أنـه لا بـد أن يكـون للـذكر الخـاص صـلة بـالوحي الخاص، والإلهام.. وأن يكون للذكر الخاص هذا فضل عظيم لم ينله الأولون ويستحيل أن يناله الآخرون (واقرأ تفاصـيل ذلـك في البـاب الخاص بالذكر الصوفي).

وبالطبع فإن هذا الشيخ الذي ينفرد بطريقـة خاصـة لا بـد أن يجعـل لنفسه من الشرف والمنزلة ما يؤهله لأن يتبعه الناس ويأخذوا عنـه فيروي لنفسه من الكرامات والفضل والعلوم والكشف ما يتضـاءل أمامه كل منازل الأنبياء والمرسلين (اقـرأ الفصـل الخـاص بالولايـة الصوفية).

وهكذا تعلم أن اتخاذ الشيخ في الطريـق الصـوفي ليس هـو مجـرد اتخاذ معلم قد اشتهر بالعلم والعمـل والصـلاح بـل هـو اتخـاذ شـيخ خاص له كرامات وكـذلك لـه منهج خـاص بتسـليك المريـدين.. ولـه كذلك حقوق خاصة.

ثالثاً - آداب المريد:

وقد وضع المتصوفة آداباً أوجبوها على المريد والسالك في الطريق الصوفي وهـذه أهم هـذه الآداب نقـول تجـاوزاً آداب وإنمـا هي في الحقيقة جهل وانحلال وعبودية وإذلال:

1- لا تخالف الشـيخ مطلقـاً فيمـا يـأمرك بـه هـذا هـو المبـدأ الأول والشـرط الأول والأدب الأول للمريـد، وأن تكـون موافقـة الشـيخ بالقلب والجوارح فلا إنكار ولا مخالفة لشيء مما يقولـه مطلقـاً ولا اعتراض عليه بلسان أو بقلب وشعارهم دائماً:

"كن بين يدي شيخك كالميت بين يدي الغاسل"!!

يقـول القشـيري في بيـان مـا يجب على المريـد: "وأن لا يخـالف شيخه في كل مـا يشـير عليـه لأن الخلاف للمريـد في ابتـداء حالـه دليل على جميع عمره" (القشيرية ص182)

ويقول أيضاً:

"ومن شروطه أن لا يكون بقلبه اعـتراض على شـيخه" (القشـيرية ص182).

ومن الأقوال يقصد بها بالطبع إماتة القلب واستسلامه للدواهي والمصائب التي سيتلقاها المريد في طريقه الصوفي. وإليك طائفة من الأقوال والحكايات الصوفية التي يراد من ورائها في النهاية استسلام المريد لشيخه ليعبث بعقله وقلبه كيف شاء.

2. لا يجوز الإنكار على شيوخ التصوف أبداً ولو مع المنكر دليل. يقول أحمد بن مبارك السلجماسي فيما يرويه عن شيخه الجاهل الأمي عبدالعزيز الدباغ:

"* واعلم وفقك الله أن الولي المفتوح عليه يعرف الحق والصواب ولا يتقيد بمذهب من المذاهب. ولو تعطلت المذاهب بأسرها لقدر على إحياء الشريعة وكيف لا وهو الذي لا يغيب عنه النبي صلى الله عليه وسلم طرفة عين!! ولا يخرج عن مشاهدة الحق جل جلاله في أحكامه التكليفية وغيرها وإذا كان كذلك فهو حجة على غيره وليس غيره حجة عليه لأنه أقرب إلى الحق من غير المفتوح عليه وحينئذ فكيف يسوغ الإنكار على من هذه صفته ويقال إنه خالف مذهب فلان في كذا، إذا سمعت هذا فمن أراد أن ينكر على الولي المفتوح عليه لا يخلو إما أن يكون جاهلاً بالشريعة كما هو الواقع غالباً من أهل الإنكار وهذا لا يليق به الإنكار والأعمى لا ينكر على البصير أبداً" (الإبريز ص192).

وهذا داهية الدواهي لأنه زعم أن الشيخ له مذهبه الخاص الذي يتلقاه من النبي رأساً ولا حاجة عنده إلى التلقي من أي مذهب فقهي لأي إمام مجتهد فلا تعترض أيها المريد على شيخك لأنه يتلقى الوحي غضاً طرياً، وهؤلاء العلماء عميان وهو مبصر!!

ويقول أيضاً شارحاً القصيدة الرائية في آداب المريد:

"فذو العقل لا يرضى سواه وإن نأى   عن الحق نأي الليل عن واضح الفجر

المعنى أن من له عقل سليم وطبع مستقيم لا يرضي سوى شيخه ويدور معه حيثما دار وإن بعد الشيخ في ظاهر الأمر عن الحق بعداً بيناً كبعد الليل من الفجر ويقول إن للشيخ في ذلك وجهاً مستقيماً عسى أن يطلعني عليه" أ.هـ (الإبريز ص203).

وهذا ظاهر في أنه لا يجوز الإنكار على الشيخ والخروج عنه، ولو خرج الشيخ عن الحق وظهر ذلك للمريد ظهور الفجر من الليل.

وليس هذا فقط هو المدى السيء الذي يريد المتصوفة جـر المريـد إليه بل هناك ما هو أشد من ذلك وأضل وهـو مـا يـأتي في الفقـرة الآتية:

3- يقول أحمد بن المبارك:

"(ومنهـا) أني سـمعت الشـيخ رضـي اللـه عنـه يقـول جـاء بعض المريدين لشيخ عارف فقال له يا سيدي القبول لله عز وجـل. نعم، ثم أمره بالمقام عنده والعكوف على خدمتـه وأعطـاه مسّـاحة في رأسها كورة حديد زائدة لا نفع فيها إلا تثقيل المساحة وكان المريـد هو وارث الشيخ بشـرط أن لا ينتبـه لكـورة الحديـد المـذكورة فـإن انتبه وقال ما فائدتها، ولأي شـيء تصـلح، ولا معـنى لهـا إلا التثقيـل فإنه لا يرث شيئاً. قال رضي الله عنه فبقي في خدمته سبع سـنين وهو يخدم بالفأس ولا يتحرك له عرق وسـواس ولا هزتـه عواصـف رياح الشيطان وصارت الكورة المذكورة بمنزلة العدم الذي لا يـرى ولا يسمع فهذه مسألة الصادقين الموفقين رضـي اللـه عنهم واللـه تعالى الموفق" (الإبريز ص178).

فانظر كيف يكون المريد (الصادق) في زعمهم مع شيخه. إنه الذي ينفذ ما يأمره بـه الشـيخ ولا يسـأله عنـه بتاتـاً ولـو كـان شـيئاً غـير معقول المعنى ولا فائدة أصلاً منه.ككرة الحديد هذه التي كانت في رأسها المساحة (الفـأس). وقـد جعلـوا صـدق المريـد عـدم سـؤال شيخه عن هذه (الكورة) التي لا تقـع منهـا. وليت الأمـر وقـف عنـد هذا الحد ولكن...

4- لم يقتصر الأمر على طاعة الشيخ فيما لا فائدة منه ولا معقولية له بل تعدى الأمـر ذلـك إلى الاعتقـاد أن للشـيخ شـريعته الخاصـة، ودينه المستقل فله أن يشـرب الخمـر، أو يـزني وليس لمريـده أن يسأل عن شيء من ذلك. يقول السلجماسي أيضاً:

"قال محيي الدين العربي (رضي الله عنه) ومن شروط المريـد أن يعتقد في شيخه أنه على شريعة من ربه ونبيه منه ولا يـزن أحوالـه بمسيرته أنه فقد تصدر من الشيخ صورة مذمومة في الظاهر وهي محمودة في الباطن والحقيقـة يجب التسـليم وكم من رجـل كـأس خمر بيده ورفعه إلى فيه وقلبـه اللـه في فيـه عسـلاً والنـاظر يـراه شرب خمراً وهو ما شرب إلا عسلاً ومثـل هـذا كثـير وقـد رأينـا من يجسد روحانيته على صـورة ويقيمهـا في فعـل من الأفعـال ويراهـا

الحاضرون على ذلك الفعل فيه ولو رأيناه فلا يفعل كذا وهو عن ذلك الفعل بمعزل وهذه كانت أحوال أبي عبدالله المصلي المعروف بقضيب البان وقد رأينا هذا مراراً في أشخاص" أ.هـ (الإبريز ص202).

وهذا الذي نقله أحمد بن مبارك السلجماسي عن ابن عربي مقرراً ومتبعاً له هو ما عليه عامة الصوفية بعد ابن عربي الذين يعتقدون أن للشيخ الصوفي (الكامل) أن يفعل ما يشاء من المعاصي ولا حرج عليه ولا يجوز أن يظن المريد خلاف الخير لأن الخمر التي يراها المريد خمراً تنقلب عينها في الشيخ فتكون له لبناً أو عسلاً. أو أن الشيخ يشكل نفسه على النحو الذي يظهر منه الفسق والخروج على الشريعة ليؤدب المريدين ويعلمهم أن يثقوا بشيخهم ولو رأوه يفعل منكراً. أقول: وقد حدثني أستاذي وشيخي الشيخ محمد عبدالوهاب البنا حفظه الله أنه شاهد أباه وكان من هيئة كبار العلماء في الأزهر يشتري قارورة الخمر بنفسه ويعطيها لشيخ له في الطريق، ولما كلمه الشيخ محمد عبدالوهاب البنا في ذلك. قال له: يا بني إنها تنقلب في بطن الشيخ فتكون لبناً!!.. فانظر كيف يفعل مثل هذا الكلام في المريدين فيجعلهم يعتقدون في شيوخهم العصمة حتى لو رأوهم على المعصية جهاراً نهاراً، وهذا غاية في إلغاء العقول والأفهام وذلك حتى تتلقى هذه العقول ما هو شر من ذلك وأقبح من الكلام في العقائد وأصول الدين كلاماً وكفراً وزندقة لم يقلها اليهود ولا النصارى ولا المجوس.

ولم يكتف دهاقنة الفكر الصوفي بمثل هذا بل وضعوا آلاف الحكايات والروايات ليحملوا المريدين حملاً على الاستسلام لشيوخهم مهما فعلوا أمامهم وأن يطيعوهم مهما أمروهم. يقول أحمد بن مبارك أيضاً:

"(رأيت) في كتاب محيي الدين تلميذ تاج الدين الذاكر المصري رحمهما الله تعالى أن رجلاً جاء إلى بعض الأكابر فقال له يا سيدي أريد منكم أن تعطوني السر الذي خصكم الله به فقال الشيخ إنك لا تطيق ذلك. فقال المريد: أطيقه وأقدر عليه فامتحنه الشيخ بأمر سقط منه على أم رأسه وذلك أنه كان عند الشيخ مريد شاب حَدَث أبوه من الأكابر فلما قال ذلك المريد أنا أطيق السر. قال له الشيخ: إني سأعطيك إن شاء الله السر فأمره بالمقام عنده، ثم إن الشيخ أمر الشاب الحدث بالاختفاء في مكان بحيث لا يظهر

لأحد، وأدخل الشيخ خلوته كبشاً فذبحه وجعـل على ثيابـه شـيئاً من الدم فخـرج على المريـد السـابق والسـكين في يـده والـدم يسـيل على يده وهو في صورة الغضبان فقال المريد ما عندكم يا سيدي؟ فقال: إن الشاب الفلان أغضبني فمـا ملكت نفسـي أن ذبحتـه فهـا هو في ذلك المكان مذبوح يشير إلى الخلوة الـتي ذبح فيهـا الكبش فـإن أردت السـر يـا ولـدي فـاكتم هـذا الأمـر ولا تـذكره لأحـد وإن سألني عنه أبوه فإني أقول له مـرض ولـدك ومـات فإنـه يصـدقني ويحصل على المسألة لطف فعساك يـا ولـدي تسـاعدني على هـذا الأمر وتسترني فيه فإن فعلت فأنا أعطيك السر إن شاء الله تعالى فقال له المريد وقد تمعر وجهه وظهـر غيظـه حيث ظن أن الشـيخ في قبضته سـأفعل بكلام يظهـر فيـه الكـذب ففـارق الشـيخ وذهب سريعاً إلى والد الشاب وأعلمه بالقصة وقال له إن الشـيخ الكـذاب الذي كنتم تعتقدون فيه الخير قتل ولدكم في هـذه السـاعة وجعـل يرغبـني أن أسـتر ويطلب مـني أن أكتمـه عنكم وإن شـككتم في الأمر فاذهبوا معي الساعة فإنكم تجدون ولـدكم يتشـحط في دمـه فقال له الناس: ويحك فإن سـيدي فلانـاً لا يفعـل هـذا ولعـل الأمـر شبه عليـك. فقـال لهم: اذهبـوا معي حـتى يظهـر صـدقي أو كـذبي ففشا قوله في الناس وسمع به أربـاب الدولـة فـأقبلوا إلى الشـيخ سراعاً والمريد أمامهم حتى وقفوا على خلوة الشيخ فقرعوا البـاب فخرج الشيخ وقال لهم: ما لكم وأي شيء أقـدمكم، فقـالوا لـه: ألا تسمع ما يقول هذا (يشـيرون إلى المريـد). فقـال لـه الشـيخ: وأي شيء كان. فقال له المريـد: الـذي كنت ترغبـني فيـه وتطلب مـني كتمانه هو الذي كان. فقال الشيخ: ما وقـع بيـني وبينـك شـيء ومـا كلمتك قط (انظر إلى هذا الكذب المبين) فقـال المريـد: الكـذب لا ينجيك قد قتلت ولـد النـاس. فـترامى النـاس على الشـيخ من كـل ناحية.. قتلت ولد الناس فالآن نقتلـك عـدو اللـه.. تغش النـاس في عبادتك وتخدعهم بخلوتك. فقـال الشـيخ: سـلوه من أين علم بـأني قتلته. فقال المريد: ألم تخـرج علي وأثـر الـدم على يـديك وثوبـك. فقـال الشـيخ: نعم وقـد ذبحت شـاة. فقـال المريـد: فلنـدخل إلى الخلوة إن كنت صادقاً. فدخلوا فوجدوا شاة مذبوحة. فقال المريـد: إنما أخفيت القتيل وأظهرت هذه الشـاة في موضـعه لئلا تقتـل بـه. فقال الشيخ: أرأيت إن خرج الشاب ولا بأس عليه أتعلم النـاس من الكاذبين الذين لا يفلحون. فقـال المريـد: فأخرجـه إن كنت صـادقاً. فأرسل الشيخ إلى الفـتى فخـرج ولا علم عنـده بمـا وقـع فلمـا رآه

الناس تضرعوا إلى الشيخ وجعلوا يسبون المريد الكاذب وعند ذلـك قال له الشيخ: ألست تزعم يا كذاب (بـل الشـيخ هـذا هـو الكـذاب اللعين الذي يريد إلغاء عقـل تلميـذه قبـل أن يطلعـه على الأسـرار المزعومة) أنك تطيق السر وتقدر عليه فما بالك لم تقدر على كتم هذا الأمر الذي لم يكن منه شيء، وإنما صـنعنا معـك هـذا لـدعواك أنك تطيق السر، فاذهب فقد أعطيناك السـر الـذي يليـق بأمثالـك، فكـان ذلـك المريـد من يومـه موعظـة للمعتـبرين نكـالاً للمـدعين الكاذبين. نسأل الله بمنه التوفيق" (الإبريز ص188).

فانظر في هذه الحكاية؛ كيف يعلم المريـد على طاعـة أمـر الشـيخ بمثل هذا الفعل الشيطاني، حتى لا يكون بعد ذلك فكـاك عن القيـد الذي يقيده به شيخه، بل يروي أحمد بن المبارك عن شـيخه كـذلك عشرات بل مئات الحكايات التي تصب كلها في هـذا المص وانظـر هذه الحكاية:

"سمعت من الشيخ يعني (عبدالعزيز الدباغ) رضي اللـه عنـه يقـول كان بعض من أراد الله رحمته في الماضين يحب الصالحين فـألقى الله في قلبه أن خرج من ماله فباعه وجمع ثمنـه فـذهب بـه لبعض من شهر عنه الصلاح وكانت تقصده الوفود من النواحي فذهب إليه هذا المرحوم بجملة ماله حتى بلغ بلده فسأل عن داره فـدل عليهـا فدق الباب ففتح الخادم فقال: ما اسـمك فقـال: عبـدالعلي. وكـان الشـيخ المشـهور بالولايـة من العصـاة المسـرفين على نفوسـهم (انظر كيف كان الشيخ الولي عاصياً مسرفاً على نفسـه ومـع ذلـك فهو عند المتصوفة ولي عنده أسرار!!) وكان له نديم يتعاطى معـه الشراب وغيره اسمه عبدالعلي فوافق اسمه اسـم هـذا المرحـوم، فذهبت الجارية فقالت للشيخ، اسم هذا الذي دق الباب عبــدالعلي. فقال وظن أنه نديمه: ائذني له. فدخل على الشيخ فوجـد الشـراب بين يديه وامرأة فاجرة معه ورزقه الله تعالى الغفلة عن ذلـك كلـه (انظر إلى الكذب الواضح) فتقدم إليه فقال: يا سيدي سـمعت بـك من بلادي وجئتك قاصداً لتدلني على الله عز وجل وهذا مالي أتيتـك به. فقال الشيخ (يتقبل الله منك) ثم أمر الجارية أن تدفع له رغيفـاً فأخذه وأعطاه الفأس وأمره بالخدمة في بستان للشـيخ عينـه لـه. فذهب المرحوم من ساعته ونفسه مطمئنـة وقلبـه مسـرور بقبـول الشيخ له فذهب فرحاً للخدمة وقد لقي نصباً من سفره للشيخ وما استراح حتى بلغ البستان وجعل يخدم بفرح وسرور ونشاط نفسـي فكـان من قـدر اللـه عـز وجـل وحسـن جميلـه بـذلك المرحـوم أن

صادف مجيئه للشيخ الكاذب المسرف وفاة رجل من أكابر العارفين وكان من أهل الديوان فحضر وفاته الغوث والأقطاب السبعة فقالوا له يا سيدي فلان: كم مرة ونحن نقول لك اهبط إلى المدينة من مدن الإسلام فعسى أن تلقى من يرثك في سرك ولم تساعد فالآن حانت وفاتك فيضيع سرك وتبقى بلا وارث فقال لهم يا سادتي قد ساق الله إلى من يرثني وأنا في موضعي فقالوا له ومن هو؟ فقال: عبدالعلي الذي وفد على فلان المبطل فانظروا إلى حسن سريرته مع الله عز وجل وإلى تمام صدقه ورسوخ خاطره ونفوذ عزمه وصلابة جزمه فإنه رأى ما رأى ولم يتزلزل له خاطر ولا تحرك له وسواس؛ فهل سمعتم بمثل هذا الصفاء الذي في ذاته أتوافقون على إرثه؟. فقالوا: نعم. فخرجت روح الولي واتصل سيدي عبدالعلي بالسر وأثابه الله عز وجل على حسن نيته فوقع له الفتح وعلم من أين جاءته الرحمة وأن الشيخ الذي وفد عليه مسرف كذاب وأن الله تعالى رحمه بسبب نيته لا غير والله الموفق" (الإبريز ص186) أ.هـ.

فانظر كيف أن المريد (الصادق) أعطى ماله كله لشيخ يقيم على الزنا والخمر (وهو في غفلة من ذلك.. عجباً).. وكيف يقوم المريد الصادق بخدمة هذا الشيخ الزنديق الفاسق وأصبح مجرد فلاح أو مزارع في بستانه يخدم الفاجرات ويقدم الخمور، ويهيء المزرعة للشيخ الأستاذ.. وكانت المكافأة أن مات شيخ آخر معه السر فاختار ذلك المريد البعيد واتصل بروح وأعطاه السر.. ويستطرد أحمد بن مبارك هذا أيضاً فيقول:

"وسمعت من غير الشيخ رضي الله عنه أن بعض الأكابر كان له عدة أصحاب وكان لا يتخيل النجابة إلا من واحد منهم فأراد أن يختبرهم ففروا بجملتهم سوى ذلك الواحد وذلك أنه تركهم على باب خلوته فأظهر لهم صورة امرأة فدخلت الخلوة فقام الشيخ فدخل معها فأيقنوا أن الشيخ اشتغل معها بالفاحشة فتفرقوا كلهم وخسرت نيتهم إلا ذلك الواحد فإنه ذهب وأتى بالماء وجعل يسخنه يقصد أن يغتسل به الشيخ فخرج عليه الشيخ فقال: ما الذي تفعل؟ فقال: رأيت المرأة دخلت فقلت لعلك بحاجة إلى غسل فسخنت لك الماء. فقال له الشيخ: وتتبعني بعد أن رأيتني على المعصية. فقال: ولم لا أتبعك والمعصية لا تستحيل عليك، وإنما تستحيل في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولم أخالطك على أنك نبي لا تعصي وإنما خالطتك على أنك بشر وأنك أعرف مني

بالطريق ومعرفتك بالطريق باقية فيك والوصف الذي عرفتك عليه لم يزل فلم تتبدل لي نية ولا يتحرك لي خاطر. فقال له الشيخ: يا ولدي تلك الدنيا تصورت بصورة امرأة وأنا فعلت ذلك عمداً لينقطع عني أولئك القوم. فادخل يا ولدي وفقك الله معي إلى الخلوة فهل ترى امرأة فيها فدخل فلم يجد امرأة فازداد محبة على محبته والله الموفق" (الإبريز ص188) أ.هـ.

وهذه الحكاية تزيد على أن المريد الذي رأى شيخه يخرج من خلوة مع زانية معلومة مشهورة قام فسخن له الماء.. أليس هذا إلغاء تاماً للعقول، وغسلاً للأمخاخ من أي فكر أو حمية أو غيرة دينية أو عاطفية صادقة.

واقرأ أيضاً هذه الحكاية لترى العجب العجاب.. كان المريد يرى شيخه على الزنا، ويصلي وهو جنب من زنا والماء بجواره، ثم يشرب الخمر وكل هذا لم يحرك شيئاً في المريد الصادق.. قال صاحب الإبريز:

"وسمعته (رضي الله عنه) يقول: كان لبعض العارفين بالله عز وجل مريد صادق وكان هو وارث سره فأشهده الله تعالى من شيخه أموراً كثيرة منكرة ومع ذلك لم يتحرك له وساوس فلما مات شيخه وفتح الله عليه شاهد تلك الأمور وعلم أن الصواب مع الشيخ فيها، وليس فيها ما ينكره شرعاً إلا أنها اشتبهت عليه، في ذلك أن امرأة كانت من جيران الشيخ وكانت تذكر بالسوء اشتبهت بين باب الدار وبين البيوت وكان المريد لا يبلغ إليه وإنما يقف بالباب فاتفق أن دخلت المرأة المشهورة بالسوء على المريد وهو بالباب فجازت للدار واتفق أن خرجت امرأة الشيخ الشبيهة بها فدخلت على الشيخ الخلوة وكان الشيخ أرسل إليها ليقضي حاجته منها فدخلت وقام إليها الشيخ ومرت الشبيهة بها نحو البيوت فرمى المريد ببصره إلى الخلوة فرأى المرأة مع الشيخ وهو يقضي حاجته منها فما شك أنها المشهورة بالسوء، وربط الله على قلبه فلم يستفزه الشيطان ثم خرجت المرأة وحانت الصلاة فخرج الشيخ للصلاة وتيمم وكان به مرض منعه من الاغتسال فما شك المريد أن الشيخ قد تيمم من غير ضرورة وربط الله على قلب المريد وكان بالشيخ مرض منعه من هضم الطعام فصنعوا له ماء الفلنيص عصروه وأتوا له بمائه ليشربه فدخل المريد فوجده يشربه فما شك أنه ماء خمر وربط الله على قلبه فلم يتحرك عليه

وسواس فلما فتح الله عليه علم أن المرأة التي وطئها الشيخ امرأته لا المرأة المشهورة بالسوء وعلم أن التيمم الذي فعله الشيخ لضرر كان بجسده وعلم أن الماء الذي شربه الشيخ ماء فلنيص لا ماء خمر والله الموفق" (الإبريز ص178) أ.هـ.

ولست أدري كيف يتأتى هذا التخليط: شيخ مريض عاجز عن الوضوء ولكنه قادر على الزنا وشرب الخمر.. وما معنى قول الكاتب في هذه القصة وربط الله على قلبه.. والحق أن يقال وطمس الله أبصارهم وبصائرهم. والعجب أنهم لم يكتفوا بطمس أبصار المريدين وبصيرتهم حتى لا يروا ما عليه شيوخهم من الفسق والفجور بل جعلوا رؤية ما عليه هؤلاء الشيوخ دليلاً على شقاوة المريدين، والمشاهدين.

يقول صاحب الإبريز أيضاً:

"(وسمعته رضي الله عنه) يقول: إن الولي الكبير فيما يظهر للناس يعصي وهو ليس بعاص وإنما روحه حجبت ذاته فظهرت في صورتها فإذا أخذت في المعصية فليست بمعصية لأنها إذا أكلت حراماً مثلاً فإنها بمجرد جعلها في فيها فإنها ترميه إلى حيث شاءت وسبب هذه المعصية الظاهرية شقاوة الحاضرين والعياذ بالله تعالى فإذا رأيت الولي الكبير ظهرت عليه كرامة فاشهد للحاضرين بأن الله تعالى أراد بهم الخير أو معصية فاشهد بشقاوتهم وكما أن أرواحهم هي التي تتولى كراماتهم كذلك هي التي تتولى معاصيهم الظاهرة والله أعلم" (الإبريز ص196).

أليس من العجيب أن يكون مثل هذا الفكر منسوباً إلى المسلمين وجزءاً من تراثهم الذي يتوارثونه ويحسبه من يحسبه منهم كتباً للهداية والدلالة على الله.

ولم يكتف أرباب الفكر الصوفي بجعل معاصي الشيوخ من شؤم من يشاهدونها من الناظرين بل جعلوا الشيخ ربما تعمد المعصية خشية على ذاته الترابية أن تتحول من شدة التجلي إلى ذات نورانية فتتلاشى!!..

يقول السلجماسي أيضاً:

"وسمعته (رضي الله عنه) يقول: إن الولي قد يغلب عليه الشهود فيخاف على ذاته الترابية من التلاشي فيستعمل أموراً ترده إلى حسه وإن كان فيها ما يعاب عليه من باب إذا التقى ضرران ارتكب

أخفهما فإذا رآه شخص ارتكب ذلك الأمر ولا يعلم الوجه الذي ارتكبه لأجله ربما بادر إلى الإنكار عليه فيحرم بركته وقد تقرر في الشرع أي في الشريعة المطهرة أن العضو إذا أصابته الأكلة وخيف على الذات منها فإنه يباح قطعه لتسلم الذات مع أن العضو معصوم ولكنه من باب إذا التقى ضرران ارتكب أخفهما وكذلك الشخص إذا خاف على نفسه من الهلاك من شدة الجوع فإنه يباح له أكل الميتة حتى يشبع ويتزود منها"..

وهذا اعتذار في غاية القبح وكذب في غاية الوضوح لأن الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم كان الوحي يتنزل عليهم والملائكة تكلمهم وما كانوا يخشون على ذاتهم الترابية.. وأنا أعلم أن مثل هذه الحجج لا تناقش لأنها لا تنطلي إلا على سذج وأغبياء أو أناس فقدوا عقولهم وصوابهم ولكن ماذا نعمل إذا كان العالم الإسلامي قد ابتلي بهؤلاء وأفسدوا أجيالاً كثيرة من أبناء المسلمين وانظروا إلى الحكاية الآتية:

يقول أحمد بن مبارك:

"قال (رضي الله عنه) وإذا أراد الله شقاوة قوم وعدم انتفاعهم بالولي سخرهم الحق فيما هم فيه من قبح ومخالفة فيظنون أنه على شاكلتهم وليس كذلك حتى إنه يتصور في طور ولاية أن يقعد الولي مع قوم يشربون الخمر وهو يشرب معهم فيظنونه شارب خمر وإنما تصورت روحه في صورة من الصور وأظهرت ما أظهرت وفي الحقيقة لا شيء وإنما هو ظل ذاته تحرك فيما تحركوا فيه مثل الصورة التي تظهر في المرآة إنك إذا أخذت بالكلام تكلمت وإذا أخذت في الأكل أكلت وإذا أخذت في الشرب شربت وإذا أخذت في الضحك ضحكت وإذا أخذت في الحركة تحركت وتحاكيك في كل ما يصدر منك وفي الحقيقة لم يصدر منها أكل ولا غيره لأنها ظل ذاتك وليست بذاته الحقيقية فإذا أراد الله شقاوة قوم ظهر الولي معهم بظل ذاته وجعل يرتكب ما يرتكبون والله الموفق" (الإبريز ص195).

والعجب أن هؤلاء الذين هذا هو مستواهم في التقوى والعلم والصلاح وهذه هي أخلاقهم وأعمالهم استطاعوا أيضاً الاستحواذ على أموال الناس. وهذا باب واسع جداً سنبسطه في غير هذا الموضع إن شاء الله تعالى ولكننا نذكر هنا هذه الحكاية من

حكاياتهم لنبين كيف يربي المريد أيضاً على سلب ماله وإعطائه لشيخه بل سلب عقله وشرفه..

قال ابن مبارك أيضاً:

"سمعته (رضي الله عنه) يقول كان لبعض المريدين أخ في الله عز وجل فمات ذلك الأخ وبقي المريد فجعل إذا فتح الله عليه بشيء يقسمه بين أولاده وبين أولاد الأخ في الله وكان لهذا المريد أرض مع إخوته فبعث عليهم من جانب المخزن ظلماً فلما أخذوا ثمنها كان نصيب المريد منها أربعين مثقالاً (سكة زماننا) فقال له إخوته ما تفعل بدراهمك فقال أقسمها بيني وبين أولاد أخي في الله؛ فاستحمقوه وقالوا ما رأينا مثلك في نقصان العقل تسبب (أي تاجر بها وأبذل سبباً لنمائها) بدراهمك واشتر بها كذا واصنع بها كذا واترك عنك هذه الحماقة التي أنت مشتغل بها فأرادت نفسه أن تميل إلى قولهم فقال لها يا نفسي ما تقولي لله عز وجل إذا وقفت بين يديه غداً حيث يقول لي رزقتك أربعين مثقالاً فاستأثرت بها وضيعت حق الأخوة فاليوم أضيعك كما ضيعتها فوفقه الله فقسم الدراهم بينه وبين أولاد أخيه في الله فلما خرج من عندهم فتح الله عليه وأعطاه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وجعله من العارفين لصدق نيته ولصداقة عزمه ونفوذ جزمه والله الموفق" (الإبريز ص178).

5- وحتى يتم تذليل المريد تذليلاً كاملاً ويلغي عقله إلغاءً تاماً فإن شيخه يأمره بأوامر في غاية الغرابة بل فيها المعصية الواضحة والكفر الصريح امتحاناً لطاعته، ومعرفة من الشيخ هل بقي من المريد مسكة عقل، أو أثارة علم، أو بقية غيرة أو دين غير الدين الصوفي الباطني فبعضهم يأمرون مريدهم بإحضار زوجاتهم لشيوخهم ليختلي بهن فإن تلكأ أو شك في عفة الشيخ علم أنه غير صادق وشيخ آخر يأمر تلاميذه ومريديه بما هو أقبح من ذلك وهذه بعض حكاياتهم في هذا الصدد.

يقول أحمد بن مبارك مبيناً كيف يكون المريد صادقاً مع شيخه مطيعاً له ولو أمره بقتل والديه يقول: "سمعت من الشيخ رضي الله عنه قال كان لبعض المشايخ مريد صادق فأراد أن يمتحن صدقه يوماً فقال له يا فلان أتحبني قال نعم يا سيدي فقال أرأيت إن أمرتك أن تأتيني برأس أبيك أتطيعني فقال يا سيدي فكيف لا أطيعك ولكن الساعة ترى فذهب من حينه وكان ذلك بعد أن رقد

الناس فتسور جدار دارهم وعلا فوق السطح ثم دخل على أبيه وأمه في منزلهما فوجد أباه يقضي حاجته من أمه فلم يمهله حتى يفرغ من حاجته ولكن برك عليه وهو فوق أمه فقطع رأسه وأتى به للشيخ وطرحه بين يديه فقال له ويحك أتيتني برأس أبيك فقال يا سيدي نعم أما هو هذا فقال ويحك إنما كنت مازحاً فقال له المريد أما أنا فكل كلامك عندي لا هزل فيه فقال له الشيخ رضي الله عنه انظر هل هو رأس أبيك فنظر المريد فإذا هو ليس برأس أبيه فقال له الشيخ رأس من هو فقال له رأس فلان العلج قال وكان أهل مدينتهم يتخذون العلوج كثيراً بمنزلة العبيد السودانيين قال وكان أبوه غاب تلك الليلة فخانته زوجته في الفراش وواعدت عليه كافراً ومكنته من نفسها وكوشف الشيخ (رضي الله عنه) بذلك فأرسل المريد ليقتله على الصفة السابقة ليمتحن صدقه فعلم أنه جبل من الجبال فكان وارث سره والمستولي بعده على فتحه والله الموفق" (الإبريز ص186).

وهذه الحكاية الملفقة المكذوبة ما أريد بها إلا تعليم السالك في طريق التصوف أن يطيع أمر الشيخ مهما كان ولو أمره بقتل والديه وأن تنفيذه لأمر الشيخ خير له بكل حال.. فأين هذا من قول الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم {يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم} (الممتحنة:12).

فانظر إلى قوله تعالى {ولا يعصينك في معروف} فاشترط سبحانه طاعة النبي في المعروف علماً أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا بالمعروف ولكن هذا ليتعلم غير النبي أنه ليس له أن يأمر إلا بمعروف وليس لأحد أن يطيعه إلا في معروف.. ولذلك لما أمر رسول الله أميراً على عدد من المسلمين في سرية ما قال هذا الأمير لأصحابه ألست أميركم قالوا بلى، قال ألم يأمركم الرسول بطاعتي قالوا بلى، قال: فإني آمركم أن تدخلوا هذه النار، وكان قد جمع حطباً وأشعله، فقالوا: والله ما آمنا إلا فراراً من نار الآخرة فكيف ندخل النار الآن..

ولما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الواقعة قال صلى الله عليه وسلم والله [لو دخلوها ما خرجوا منها] (رواه مسلم).

ولكن الأمر يختلف تماماً عند مشايخ التصوف إذ العلوم والأسرار التي يجب على المريد أن يتلقاها من شيخه بالغة مبلغها في القبح والنكارة وما لم يكن المريد متهيئاً لقبول هذه الدواهي فإنه حتماً سينفر ويخرج من الطريق ولذلك فلا بد من تهيئته تهيئة كاملة. وتوطئته لتحمل العقيدة الصوفية.. إذ كيف سيفاجئ الشيخ مريده عندما يطلب منهل المريد السر الصوفي كيف سيقول له يا بني اعلم أنه ليس هناك إله غيري وغيرك فما هذا العالم الذي نعيش فيه إلا الله بكل مظاهره ومصنوعاته فهو عالم قد خلق نفسه بنفسه لنفسه فليس ثم غير.. كيف سيستطيع المريد تقبل ذلك كله إلا أن يكون الشيخ الصوفي قد تمكن من عقل مريده عن آخره من دينه إلى نهايته ومن أخلاقه وشرفه حتى لا يبقى من ذلك شيئاً إلا عبادة شيخه والتصديق أنه وساطته إلى الله وأنه لا نجاة له ولا فلاح له، إلا أن يكون هذا الشيخ هو كل شيء في حياته.. هذه هي الغاية التي يسعى إليها الفكر الصوفي من التربية وهي نقل هذه الأفكار الفلسفية الخبيثة إلى أذهان أبناء الإسلام ولذلك فلا بد من سلخهم أولاً من الدين حتى يكونوا بعد ذلك مطية سهلة لهؤلاء الشيوخ يغرسون في أذهانهم ما شاءوا من الخرافات والخزعبلات والهذيان الذي لم تعرف البشرية في كل عصورها مثالاً له..

6- لا حركة ولا سكون للمريد إلا بإذن الشيخ:

الأدب السادس من آداب المريد الصوفي مع شيخه أنه لا يجوز له أن يتحرك أو يسكن، أو يتصرف في نفسه أو ماله أو زوجته، أو سفره أو إقامته إلا بإذن شيخه، وأنه لا يجوز أن يجلس في مجلسه إلا بإذنه وأن يظهر قدمه أمام شيخه، أو يرفع صوته، أو يسأله من عند نفسه لأن الشيخ أعلم بما في نفس مريده فلا يجوز أن يبدأ بالسؤال، أو يستفسر عن إشكال وإنما ينتظر في كل ذلك ما يجود به شيخه.. لأنه في زعمهم هو أعلم بحاله.. وليس وراء ذلك عبودية في الأرض.. والعجيب أن المتصوفة قد أخذوا كل الحقوق والخصوصيات التي جعلها الله لرسوله فجعلوها حقاً أيضاً للشيوخ فانظر مثلاً ما يقوله صاحب الرائية وما يشرح به أحمد بن مبارك:

"قال:

ولا ترفعوا أصواتكم فوق صوته ولا تجهروا كجهر الذي هو في قفر

يقول السلجماسي: والله أعلم لا ترفعوا أيها المريدون أصواتكم فوق صوت الشيخ فإن ذلك يخل بالأدب ولا تجهروا له بالقول كجهر سكان القفار والبوادي الذين معهم جفاء وجلافة ولكن عظموه وفخموه وقولوه يا سيدي ويا أستاذي ويا ولي الله ونحو ذلك وأصل هذا الكلام الآية الشريفة {يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون} قال السهروردي في العوارف (رضي الله عنه) ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله {ولا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي} كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنه وقر وكان جهوري الصوت وكان إذا تكلم جهر بصوته وربما كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته فأنزل الله الآية تأديباً له ولغيره ثم قال بعد أن ذكروا آية في سبب نزولها وأنها نزلت في منازعة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بحضرته قال فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم لا يسمع كلامه حتى يستفهم وقيل لما نزلت الآية إلى أبو بكر أن لا يتكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم إلا كأخفى السر فهكذا ينبغي أن يكون المريد مع شيخه فلا ينبسط برفع الصوت وكثرة الضحك والكلام إلا إذا باسطه الشيخ" انتهى (الإبريز ص256).

وقد غاب عن هؤلاء الذين قرروا لشيوخهم ما أمر الله به نحو رسوله لمنزلته الخاصة غاب عنهم أن الله سبحانه وتعالى قال {كجهر بعضكم لبعض} فالمسلمون من شأنهم أن يجهر بعضهم في الكلام لبعض وأما مع النبي صلى الله عليه وسلم فيجب أن يكون للمسلمين معه أدب خاص في معاملتهم له صلى الله عليه وسلم..

وليت أنهم أعطوا الشيخ من الحقوق ما يجب على المسلم نحو الرسول واكتفوا بذلك بل جعلوا لشيوخهم من الحقوق على مريديهم ما لم يجعله الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم فقد جعلوا من حق الشيخ أن لا تنطق عنده إلا بإذنه وأن تطيل إذا أحب منك الإطالة وتختصر إذا أراد الاختصار.

قال صاحب الرائية:

"ولا تنطقن يوماً لديه فإن دعا   إليه فلا تعدل إلى الكلم النزر

وقال الشارح يقول والله أعلم لا تنطق في وقت من الأوقـات عنـد شيخك فإن سألك عن شيء فلا تعدل عن الجواب الذي تـدعو إليـه الحاجة إلى الإكثار والتطويل فإن ذلك يزيل هيبة الشيخ وهذا واللـه أعلم ما لم يطلب منه الشيخ الإكثار من الكلام فإن طلب منه ذلـك وكان للشيخ فيـه غـرض فإنـه ينبغي لـه حينئـذ الإسـهاب والتطويـل مراعيـاً خـاطر الشـيخ فـإذا رآه شـبع من الكلام فإنـه يجب عليـه الرجوع إلى أدبه وقد سبق ما كان يقوله لنا الشيخ رضي اللـه عنـه حين يغيب في المشاهدة أهدروا علي كثيراً فإن اللـه يـأجركم على ذلك يعني لأنه يرجـع بـذلك إلى حسـه. أصـل هـذا الكلام الـذي في البيت لصاحب العـوارف قـال فيهـا بعـد أن ذكـر تـأويلات في قولـه تعالى {لا تقدموا بين يـدي اللـه ورسـوله} وقيـل نـزلت في أقـوام كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا سـأل الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم عن شـيء خاضـوا فيـه وتقـدموا بالقول والفتوى فنهو عن ذلك وهكذا دأب المريد في مجلس الشيخ ينبغي أن يلزم السكون ولا يقول شـيئاً بحضـرته من كلام حسـن إلا إذا استأمر الشيخ في ذلك ووجد من الشـيخ فسـحة" أ.هــ (الإبريـز ص205).

وقد جاوزوا هنا ما أمر الله به المسلمين مع رسول الله صـلى اللـه عليه وسلم لأن قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا لا تقـدموا بين يـدي اللـه ورسـوله} معناهـا أي لا تفتـوا قبـل أن يفـتي ولا تحكمـوا في شيء حتى يأتيكم حكمـه من اللـه ورسـوله. وليس معنـاه لا تبـدأوا في أي كلام وإلا فالصـحابة كثـيراً مـا كـانوا يبـدأون ويعيـدون في شئون كثيرة والنبي جـالس يسـتمع وربمـا تبسـم صـلى اللـه عليـه وسـلم عنـدما يتكلمـون أحيانـاً في شـئون الجاهليـة. كمـا ثبت في صحيح مسلم وغيره أن الصحابة كانوا يجلسون مع النبي بعد صـلاة الصبح يستمع لهم وربما تبسم صلى الله عليه وسـلم.. وأمـا هـؤلاء الصوفية فإنهم جعلوا على المريد حجراً أن لا يتكلم بحضـرة شـيخه إلا أذن له.. وأن يختصر حيث أراد الشيخ أن يطيل إذا أمـره الشـيخ بذلك فجعلوه آلة ميتة يتحرك بحركة الشيخ ولماذا نذهب بعيداً وقـد أجملـوا هـذه الآداب مـع شـيخهم بقـولهم: "كن بين يـدي شـيخك كالميت بين يدي المغسل".. والعجيب أنهم لم يكتفوا بهذا أيضاً بـل جعلوا من جملة الآداب في خطاب الشـيخ أن يسـأل اللـه التوفيـق قبل أن يبدأ أمام الشيخ بالكلام.. انظر ما يقولون:

"وقال أيضاً من الأدب مع الشيخ أن المريد إذا كان له كلام مع الشيخ في شيء من أمر دينه أو دنياه لا يعجل بالإقدام على مكالمة الشيخ بالهجوم عليه حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له ولسماع كلامه فكما أن للدعاء أوقاتاً وآداباً وشروطاً لأنه مخاطبة لله تعالى فللقول مع الشيخ أيضاً آداب وشروط لأنه من معاملة الله تعالى (!!) ويسأل الله قبل الكلام مع الشيخ التوفيق لما يجب من الآداب" أ.هـ (الإبريز ص213).

فجعلوا الشيخ هنا بمنزلة الله سبحانه وتعالى فكما أن لدعاء الله شروطاً وآداباً وأوقاتاً.. فكذلك يجب أن يكون الكلام مع الشيخ.. وانظر قوله (لأنه.. أي لأن معاملة الشيخ من معاملة الله تعالى..) فأي عبودية في الأرض أعظم من هذه؟...

وحتى يتلبس الأمر على المريدين التباساً كاملاً ولا يستطيع المريد أن يفرق بين الشيخ والله فإن المتصوفة زعموا أن الشيخ عندما يتكلم بكلامه في الدرس لا يكون متكلماً من عند نفسه وإنما هو مستمع كذلك لما يلقى عليه من الله، وما يجري على لسانه رغماً عنه فالشيخ غير مسئول عن كلامه، لأن كلامه في الدرس وحي من الله وإلهام إليه لا حيلة له فيه. قال السلجماسي:

"قال ويكون الشيخ فيما يجريه الحق سبحانه وتعالى على لسانه مستمعاً كأحدكم فأشكل ذلك على بعض الحاضرين وقال إذا كان القائل يعلم ما يقول فكيف يكون مستمعاً (فرجع إلى منزله فرأى في ليلته في المقام كأن قائلاً يقول له: أليس الغواص يغوص في البحر لطلب الدر ويرجع بالصدف) ويرجع بالصدف في مخلاته والدر وقد حصل معه ولكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر ويشاركه في رؤية الدر من هو على الساحل ففهم في المنام إشارة الشيخ في ذلك فأحسن آداب المريد مع الشيخ السكون والخمود والجمود حتى يبادئه الشيخ بما له فيه المصلحة قولاً وفعلاً" (الإبريز ص 105).

وهذا المثال الذي ضربوه لا ينطبق على هذا الأمر لا شكلاً ولا موضوعاً.. فالقضية الأساسية وهي أن الشيخ يلقي عليه الكلام عن الغيب رأساً في الدرس ولا حيلة له فيه هذا كفر وزندقة لأنه لا وحي بعد محمد صلى الله عليه وسلم.. ومن زعم أنه ينزل عليه وحي أو يكاشفه ملك، أو يطلع على غيب بعد رسول الله فهو كافر مرتد حلال الدم بإجماع الأمة.

وأما أن الغواص يغوص فيأتي بالمحار من البحر ولا يعـرف إن كـان فيهـا لؤلـؤ أم لا ثم يفتحهـا على الشـاطئ ويطـالع مـع الموجـودين هنـاك.. إن أرادوا أن الشـيخ يغـوص في الغيب ويـأتي بالمحـار ولا يعرف هـل أتى بلؤلـؤ أم لا إن زعمـوا أن كلام اللـه الـذي يـأتي بـه الشيخ لا يعرف إن كان فيها لباب أم لا فهذا كفر صريح لأنـه تشـبيه للوحي الإلهي بأن منه ما يجوز أن يلقى مـرة ثانيـة إلى البحـر كمـا يرمي الغواص بقشـور المحـار التالفـة الـتي لا نفـع منهـا وقـد نجـد جوهرة وقد لا نجد..

وهذا المثال الذي ضربوه لمـا يجـري على ألسـنة شـيوخهم ينطبـق فقط على الإلقاء الشيطاني فالشياطين تلقي على أسـماع أوليائهـا من الإنس الأمر مما يسمعونه من السماء يكـون فيـه شـيء واحـد صادق وتسعة وتسعون كذباً وهذا هو بالفعل حـال شـيوخ التصـوف المتصلين بـالجن والشـياطين؛ قـد يطلعهم الجن على شـيء واحـد صادق ولكن الجن يكذبون مع كل خبر صـادق مئـة كذبـة كمـا أخـبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك في تفسير قوله تعالى {وأنـا كنـا نقعد منها مقاعد للسـمع فمن يسـتمع الآن يجـد لـه شـهابا رصـدا} (الجن:9) وفي قوله تعالى {لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقـذفون من كل جانب* دحوراً ولهم عذاب واصـب* إلا من خطـف الخطفـة فأتبعه شهاب ثاقب} (الصافات:8،9).

فشيوخ التصوف يحدثون بأحاديث الجن والشـياطين فيكـذبون مئـة كذبة ويفترون آلاف الافتراءات على اللـه ورسـالته، وقـد يصـدقون مرة واحدة. والمهم في هـذا الصـدد أن هـؤلاء المشـايخ بمثـل هـذا الأمر جعلوا المريـد صـنماً مـع شـيخه لا يسـتطيع أن يقاطعـه أو أن يعترض عليه لأن الشيخ أصلاً مستمع لمـا يـوحى إليـه وليس مؤلفـاً ولا ناقلاً كلام نفسه.

وجعلوا من واجب المريد أيضاً أن لا يسافر سـفراً إلا بـإذن الشـيخ. قال عبدالكريم القشيري:

"ومن أحكام المريد إذا لم يجد من يتأدب به في موضعه أن يهـاجر إلى من هو منصـوب في وقتـه لإرشـاد المريـدين ثم يقيـه إليـه ولا يبرح عن سدته إلى وقت الإذن" (القشيرية ص184).

وبـالطبع الإذن الـذي يجب على المريـد أن ينتظـره ليس هـو إذن الشيخ في زعمهم وإنمـا هـو الإذن الإلهي فالشـيخ يـأمر المريـد أن

يبقى في مكانه ولا يتحول عنه إلا إذا جاءه الأمر الإلهي بـأن يسـافر من عنـد شـيخه. وبـالطبع ليس هـذا أمـراً إلهيـاً وإنمـا هـو أوامـر شيطانية يلتزم بها هؤلاء وهؤلاء..

ويفلسـف القشـيري هـذا الأدب الصـوفي، أعـني عـدم جـواز سـفر المريد وإلا بإذن شيخه، فيقول:

"ومن آداب المريد بل فـرائض حالـه أن يلازم موضـع إرادتـه وأن لا يسافر قبل أن يقبله الطريـق وقبـل وصـول القلب إلى الـرب فـإن السفر للمريد في غير وقته سـم قاتـل ولا يصـل أحـد منهم إلى مـا كان يرجى له إذا سافر في غير وقته وإذا أراد الله بمريد خيراً أثبته في أول إرادته وإذا أراد الله بمريد محنة شـرده في مطـارح غربتـه هـذا إذا كـان المريـد يصـلح للوصـول فأمـا إذا كـان شـاباً طريقتـه للخدمة في الظاهر بالنفس للفقراء وهـو دونهم في هـذه الطريقـة رتبـة فهـو وأمثالـه يكتفـون بالترسـم في الظـاهر فينقطعـون في الأسفار وغاية نصيبهم من هذه الطريقة حجات يحصـلونها وزيـارات لمواضع يرتحل إليها لبقاء شيوخ بظاهر سلام فيشـاهدون الظـواهر ويكتفون بمـا في هـذا البـاب من السـير فهـؤلاء الـواجب لهم دوام السفر حتى لا تؤديهم الدعة إلى ارتكـاب محظـور فـإن الشـاب إذا وجد الراحة والدعة كان في معرض الفتنة إذا توسط المريـد جميـع الفقراء والأصحاب في بدايته فهـو مضـر لـه جـداً وإن امتحن واحـد بذلك فليكن سبيله احترام الشيخ والخدمة للأصحاب وتـرك الخلاف عليهم والقيام بما فيه راحة فقيره والجهد أن لا يستوحش منه قلب شـيخ ويجب أن يكـون في صـحبته مـع الفقـراء أبـداً خصـمهم على نفسه ولا يكون خصم نفسه عليهم ويرى لكل واحد منهم عليه حقـاً واجباً ولا يرى لنفسه واجباً على أحد" أ.هـ (القشيرية ص183).

وهكذا يجب أن يكون المريد أداة طيعة في يد شيخه يختـار لـه من المـراتب والمسـالك مـا يريـد. بـل يجب عليـه أيضـاً أن ينخلـع عن حرفته وصنعته وأن ينقطع كل علائقه بالدنيا، وينقطع انقطاعاً كاملاً لشيخه..

والحـق أن قضـية الانقطـاع الكامـل عن الـدنيا والإقبـال التـام على التصوف وملازمة الشيوخ كان هو الأمر في القرن الرابع وما بعـده، وما زال هذا موجوداً في الإقطاعيات الصـوفية الكثـيرة الـتي تأتيهـا دخول دائمة وأوقـاف دائمـة للمريـدين الـذين يجب أن يسـير فيـه. ويقول القشيري أيضاً:

"وكل مريد بقي في قلبه شيء من عروض الدنيا مقدار وخطر فاسم الإرادة له مجاز وإذا بقي في قلبه اختيار فيما يخرج عنه من معلومه فيريد أن يخص به نوعاً من أنواع البر أو شخصاً دون شخص فهو متكلف في حاله وبالخطر أن يعود سريعاً إلى الدنيا لأن قصد المريد في حذف العلائق الخروج منها لا السعي في أعمال البر وقبيح بالمريد أن يخرج من معلومه من رأس ماله وقنيته ثم يكون أسير حرفة وينبغي أن يستوي عنده وجود ذلك وعدمه حتى لا ينافر لأجله فقيراً ولا يضايق به أحداً ولو مجوسياً" انتهى (القشيرية ص184).

ومعنى هذا أنه يجب على المريد الخروج من الحرف الدنيوية نهائياً بزعم أنه يضايق أهل الحرف والصناعات ويزاحمهم وهذا يضاد التصوف حتى ولو كان من يزاحمهم مجوسياً.. كما أنه يجب على المريد أن لا يفعل معروفاً مع شخص إلا بأمر شيخه.

وقال أيضاً "ومن شأن المريد قصر الأمل فإن الفقير ابن وقته فإذا كان له تدبير في المستقبل وتطلع لغير ما هو فيه من الوقت وأمل فيها يستأنفه لا يجيء منه شيء.. ومن شأن المريد أن لا يكون له معلوم وإن قل لا سيما بين الفقراء فإن ظلمة المعلوم تطفئ نور الوقت" (الإبريز ص208).

يعني أن المريد يجب عليه أن لا يكون له تدبير مالي، للمستقبل أبداً ولا راتب شهري معلوم يرجع إليه لأن هذا يطفئ نوره ويؤجل مكاشفاته..

وجعلوا كذلك من آداب المريد في مجلس الشيخ ما يأتي:

"من آداب المريد مع شيخه أن لا يجلس بحضرته متربعاً، ولا مظهراً رجلاً له. قال صاحب الرائية:

ولا يعقدن قدامه متربعاً ولا بادياً رجلاً فبادر إلى الستر

ولا يجوز له كذلك أن يلبس لباس الشيوخ إلا إذا انتهى من مقام التربية" أ.هـ

وهذه حقوق أعطيت للشيخ لم يجعلها الله لرسوله فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر الصحابة أن لا يلبسوا لباسه.. أو يتشبهوا

به في عمامته أو قلنسوته أو يجلسـوا مـتربعين في حضـرته صـلى الله عليه وسلم..

بل كانوا يجلسون بحضرة النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم مـتربعين ومضطجعين وكان أحياناً يضجع معهم ولم يكن له صـلى اللـه عليـه وسـلم زي خـاص ولا مجلس خـاص، وهـذا يـدلك على ابتـداع المتصـوفة وبعـدهم عن الـدين. وجعلـوا من آدابهم أيضـاً مـا قالـه القشيري:

"ومن شروط المريد إذا زار شيخاً أن يـدخل عليـه بالحرمـة وينظـر إليه بالحشـمة فـإن أهـل الشـيخ لشـيء من الخدمـة عَـدَّ ذلـك من جزيل النعمة. (القشيرية ص184).

فجعلوا خدمة شيوخهم من جزيـل النعمـة ومن تفضـل الشـيخ على المريـد والأمـر على العكس لأن من يخـدم غـيره دون أجـر هـو المتفضل لقوله صلى الله عليـه وسـلم للـذين خـدموا إخـوانهم في السفر [ذهب المفطرون بالأجر كله]:

"وقبـول قلـوب المشـايخ للمريـد أصـدق شـاهد لسـعادته ومن رده قلب شيخ من الشيوخ فلا محالة يرى غِبَّ ذلـك ولـو بعـد حين ومن خذل بترك حرمة الشيوخ فقد أظهر رقم شقاوته وذلك لا يخطئ".. أ.هـ

وهذا يعني أن غضب الشيخ الصوفي على المريـد هـو غضـب اللـه. فليس له قبول أبداً.. وهذا من أعجب العجب..

7- كتمان لشيء من الأسرار عن الشيخ:

وحتى يتم أخذ المريد من نفسه والسيطرة الكاملـة على كـل قلبـه وإحساسه وهواجسه فإن شيوخ التصوف قد فرضوا على المريد أن لا يحجب شـيئاً من أسـراره عن شـيخه سـواء كـانت هـذه الأسـرار معاصي ارتكبها فإن الشيخ يتحملها عنـه إذا أفضـى بهـا إليـه، وهـذا نظير صكوك الغفران عند النصارى أو كانت في زعمهم مكاشـفات وأنواراً وعلوماً إلهية (لدنية) فـإن شـيخه سـيفرح بـذلك ويطلب لـه المزيد.

يقول القشيري:

"وإذا التزم المريد استدامة الذكر وآثر الخلوة فإن وجـد في خلوتـه مـا لا يجـده قلبـه إمـا في النـوم وإمـا في اليقظـة أو بين اليقظـة

والنوم من خطاب يسمع أو معنى يشاهده مما يكـون نقصـاً للعـادة فينبغي أن لا يشتغل بذلك البتة ولا يسكن إليـه ولا ينبغي أن ينتظـر حصول أمثال ذلك فإن ذلك كله شواغل عن الحق سبحانه ولا بد له في هذه الأحوال في وصف ذلك لشيخه حتى يصير قلبـه فارغـاً عن ذلك ويجب على شيخه أن يحفظ عليه سره فيكتم عن غـيره أمـره ويصغر ذلك في عينه فإن ذلك كله اختبارات والمسـاكنة إليهـا مكـر فليحذر المريد عن ذلك وعن ملاحظاتهـا وليجعـل همتـه فـوق ذلـك واعلم أن أضر الأشياء بالمريـد استئناسـه بمـا يلقى إليـه في سـره من تقريبات الحق سبحانه له ومنه بأني خصصتك بهذا وأفردتك عن أشكالك فإنه لو قال يترك هذا فمن قريب سيختطف عن ذلـك بمـا يبدو له من مكاشفات الحقيقة وشرح هذه الجملة بإثباته في الكتب متعزز.." أ.هـ (القشيرية ص183،184)

وهذا الذي يقرره القشيري هنا فيه كثير من التلبيس الذي لا بد من بيانه فالشاهد فيه أولاً هو أن المريد لا يجوز لـه كتمـان مـا يطالعـه مما يسمونه بـالأنوار أو المكاشـفات أو السـماع من الملـك أو ممـا نقض للعادة ويمثلون لـذلك بسـطوح الأنـوار في الغرفـة المظلمـة مثلاً أو رفع سقفها أو رؤيته لشيخه أمامه أو حضور الرسـول عنـده ونحو هذا مما يدعونه من الخرافات والتهيؤات الشيطانية وذلـك أن الأذكار التي تعطي للمريد بأعدادها الرهيبة وطرق أدائها كأن يكـون الإنسـان جاثيـاً على ركبتيـه مغمضـاً إحـدى عينيـه أو متجهـاً ببصـره شـمالاً أو يمينـاً، وكـذلك الجـو المحيـط بـذلك من أظلام الغرفـة، والمكث سـاعات طـوال على ذلـك مـع أعـداد تربـو أحيانـاً على عشرات بل مئات الآلاف من المرات.. كل ذلك مـع انتظـار حـدوث أمر غريب يجعل المريد يفقد السيطرة على نفسه وأعصـابه فتتهيـأ له أمور كثيرة أو يتسـلط الشـيطان عليـه لمـا هـو فيـه من البدعـة والبعد عن هدي النبـوة المسـتنير فيتلاعب بـه الشـيطان فيتهيـأ لـه أحياناً بصورة شخصية أو بصورة مكذوبة غير صورة الرسول ويلقي في روعه أنه رسول الله، وأنه يأمره بكذا وكذا.. وأحياناً ما يتهيأ لـه أن السقف انشق وأن الظلام الدامس قـد تحـول إلى نـور سـاطع، وأن الملائكة قد هبطت عليه، وهو في هـذه الحالـة الشـيطانية من قراءة الأذكار المبتدعة الـتي تشـتمل غالبـاً على أسـماء الشـياطين وتخليط بضع آيات من القرآن، مقطعة عن مواضـعها موضـوعة في غير أماكنها فتنزل عليهم الشياطين لذلك وتعبث بعقولهم وأفئـدتهم وهذا ما عناه القشيري من أن المريد إذا شرع في الذكر فلا بــد أن

يرى شيئاً من ذلك فعليه كما زعم أن لا ينظر إلى شيء من ذلك البتة لأن كما قال شواغل الحق وهو يريد أن يرى الله وأن يصلي إلى الله نفسه لا إلى هذه الأمور العارضة.. وعليه بعد رؤيته لهذه الأمور أن يحكيها لشيخه ولا يخفيها عنه..

فهذا أحمد بن المبارك يصف حال المريد مع شيخه وينقل كلام شيخه عبدالعزيز الدباغ لهم فيقول:

"وكان (رضي الله عنه) يقول: لا تكتموا عني شيئاً من الأمور التي تنزل بكم في الدين والدنيا وأخبرونا حتى بالمعاصي التي تقع لكم وإن لن تخبروني أخبركم فإنه لا خير في صحبة يستر معها شيء من أحوال المتصاحبين وكان رضي الله عنه يقول أما أنا فلا أكتم عنكم شيئاً من أموري ثم يشرح لنا رضي الله عنه حاله حتى بلغ ذلك ويذكر لنا جميع ما وقع له من العاديات وغيرها، ويقول لنا (رضي الله عنه) إن لم أخبركم ولم أطلعكم على أحوالي فإن الله يعاقبني ويحاسبني لأنكم تظنون بي الخير فاصبروا حتى أذكر لكم الأمور الباطنية التي لم تطلعوا عليها فمن شاء منكم بعد ذلك أن يبقى معي فليبق وحينئذ يحل لي أكل طعامه وقبول هديته ومن شاء أن يذهب فليذهب فإن سكوتي عن ذكر تلك الأمور غش لكم وما كان رضي الله عنه لأصحابه إلا رحمة محضة يشفع لهم في زلاتهم ويتكفل لهم بنوائبهم ويتحلل لهم ما يخشون عاقبته ويهتم لأمرهم أكثر مما يهتم لأموره. وقال لي رضي الله عنه ذات يوم الرجل الذي لا يشاطر صاحبه في سيئاته ما هو بصاحب له وقال إن لم تكن الصحبة إلا على الحسنات فما هي بصحبة. وبالجملة فما كان رضي الله عنه لأصحابه إلا رحمة مرسلة من الله عز وجل فعلى مثله يبكي الباكون ولو رمنا تفصيل أعيان الجزئيات الواقعة لنا معه ولغيرنا في هذا الباب لطال الكلام" أ.هـ (الإبريز ص212).

قلت وهذا الكلام معناه في النهاية إيقاف المريد عارياً أمام شيخه وأستاذه وإيهامه بأنه إن لم يعترف بما عنده من الأسرار فإن الشيخ بنفسه يطلع على ذلك ونقل في هذا بيت صاحب الرائية:

سوى الشيخ لا تكتمه سراً فإنه بساحة كشف السر يجري على بحر

ويقول القشيري أيضاً:

"يجب عليه حفظ سره حتى عن زره إلا عن شيخه ولو كتم نفساً من أنفاسه عن شيخ فقد خانه في حق صحبته ولو وقع له مخالفة فيما أشار عليه شيخه فيجب أن يقر بذلك بين يديه في الوقت ثم يستسلم لما يحكم عليه به شيخه عقوبة له على جنايته ومخالفته إما بسفر يكلفه أو أمر ما يراه".

أي وعليه أن يستسلم إذا خالف هذا الأدب فكتم شيئاً عن الشيخ أن يستسلم لحكم الشيخ فيما يحكم عليه به، ويكون راضياً بذلك. وإذا كان القشيري قد قال مثل هذا الكلام منذ القرن الخامس الهجري فإن الصوفية قد نسجوا على منواله وساروا على أقدامه..

وجاء من زاد في هذه الأمور ووسع فيها أكثر من ذلك تحمل الشيخ للحمالات والذنوب ولعل كل ما مضى يهون إلا أن يجعل الصوفية الشيخ في مرتبة لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإيمان المريد متعلق بشيخه بل جميع أموره الدنيوية والأخروية لا نجاح ولا فلاح له فيها إلا إذا آمن بشيخه وجعله كل شيء في حياته. وفي ذلك يقول صاحب كتاب الإبريز:

"وقد سمعت الشيخ (رضي الله عنه) يقول: الشيخ للمريد في درجة لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإيمانه متعلق به، وسائر أموره الدنيوية والدينية وأرباب البصائر يشاهدون ذلك عياناً وكنت أخرج معه كثيراً رضي الله عنه وأنا لا أعرف درجته فكان يقول لي: مثلك مثل من يظل يمشي على عالي أسوار المدينة وشرفاتها مع ضيق المحل الذي تجعل فيه رجلك وبعد محل السقوط فلم أفهم معنى هذا الكلام إلا بعد حين فكان بعد ذلك إذا جرى هذا الكلام على خاطري يحصل لي منه روع عظيم وخوف شديد وقلت له ذات يوم: إني أخاف من الله تعالى من أمور فعلتها فقال لي: ما هي؟ فذكرت له ما حصل. فقال لي (رضي الله عنه): لا تخف من هذه الأشياء ولكن أكبر الكبائر في حقك أن تمر عليك ساعة ولا أكون في خاطرك فهذه هي المعصية التي تضرك في دينك ودنياك!! وقلت له ذات مرة: يا سيدي إني بعيد من الخير. فقال رضي الله عنه: اطرح عنك هذا وانظر إلى منزلتك عندي فعليها تحمل وكنا معه رضي الله عنه على حالة قل أن يسمع بمثلها لا ينزل أمر مهم أو غير مهم إلا ذكرناه له فيتحمله عنا عياناً ويريح خاطرنا منه بمجرد ذكره" أ.هـ.

وقد بلغ هذا النص الغاية في القباحة والبعد عن الدين لأن الشيخ هنا يجعل نفسه مكان الله سبحانه وتعالى حيث يذكر لمريده أنه إذا مرت ساعة ولا يكون الشيخ في خاطر مريده كانت هذه معصية ضارة عليه في دينه ودنياه.. وهذا حق ما أوجبه الله تعالى لنفسه على عبيده بمثل هذا النحو بل رضي الله سبحانه من العباد أن يذكروه في أوقات مخصوصة وجوباً كالصلاة وعند أعمال محدودة كالطعام والشراب ونحو ذلك. أما أن تمضي ساعة ولا يذكر المرء فيها ربه ويكون لاهياً في عمل مباح غير مضيع لواجب فإن هذا لا ضرر فيه على دين المرء أو دنياه، ولكن هؤلاء المشايخ أنزلوا أنفسهم من مريديهم -أو من عبادهم- هؤلاء المساكين! الذين يضلونهم، منزلة الله، بل جعلوا حقوقهم على مريديهم أعظم من حقوق الله سبحانه وتعالى.

8- ترك العهد الصوفي كفر وردة:

وبعد فقد يظن أن المريد الذي يلقى مثل هذه الأهوال في طريق التصوف يمكنه أن ينفلت في النهاية فيما لو استيقظ فكره، أو صحا ضميره وهذا ظن بعيد ولكن من أجل هذه اليقظة المحتملة أيضاً قفل مشايخ التصوف الطريق نهائياً أمام المريد حتى لا يحاول النكال من ربقته؛ فقد جعلوا الخروج من عهد الشيخ خروجاً من الإسلام. والعهد الصوفي يؤخذ على المبتدئ والمريد في أول الطريق بأن يلتزم بالدين ويتوب مما كان عليه ويقول: تبت إلى الله على يد الشيخ فلان، وعاهدت الله أن ألتزم طريقته وأن لا أبوح بسره إلا بإذن من الشيخ وأن.. وأن..

وفي هذا الأمر يقل عبدالكريم القشيري مبيناً الوقت الذي يعطي في المريد العهد، وأنه يجب عليه التزام الطريق مهما حدث له من المشقات، يقول:

"وما لم يتجرد المريد عن كل علاقة لا يجوز لشيخه أن يلقنه شيئاً من الأذكار بل يجب أن يقدم التجربة له فإذا شهد قلبه للمريد بصحة العزم فحينئذ يشترط عليه أن يرضى بما يستقبله في هذه الطريقة من فنون تصاريف القضاء فيأخذ عليه العهد بأن لا ينصرف عن هذه الطريقة بما يستقبله من الضر والذل والفقر والأسقام والآلام وأن لا يجنح بقلبه إلى السهولة ويترخص عن هجوم الفاقات وحصول الضرورات ولا يؤثر الدعة ولا يستشعر الكسل فإن وقفة المريد شرّ من فترته والفرق بني الفترة والوقفة أن الفترة رجوع

عن الإرادة وخروج منها والوقفة سكون عن السير باستحلاء حـالات الكسل وكل مريد وقف في ابتداء إرادتـه لا يجيء منـه شـيء فـإذا جربه شيخه فيأمر أن يذكر ذلك الاسم بلسانه ثم يـأمره أن يسـوي بقلبه مع لسانه ثم يقول له: اثبت على استدامة هذا الذكر كأنك مع ربك أبداً بقلبك ولا يجري على لسانك غـير هـذا الاسـم مـا أمكنـك" أ.هـ (الرسالة القشيرية ص182).

وهكذا يكون العهد بعد التأكد من المريد تماماً، ويكون التزام المريد بالذكر المخصوص الـذي يلقيـه إليـه الشـيخ. ولا يجـوز لـه أن يـذكر باسـم آخـر إلا بـإذن الشـيخ لـه. ومعلـوم مـا في هـذه الأمـور من المخالفـات الشـرعية فالعهـد لا يجـوز إلا على الإسـلام وعلى بيعـة الإمام أو على فعل أمر من أمور الإسلام لا يحل به المسلم حرامـاً ولا يحرم حلالاً وطاعة الإمام تجب في المعروف فقـط. أمـا في أن يخترع الشيخ للمريد أذكاراً خاصـة ويعاهـده على عـدد لا مخصـوص وأعمال مخصوصة فهذا لم يـأت بـه الشـرع الحكيم وإنمـا هـذا من بدع الصوفية. ولا سيما أنهم يأمرونهم بأن يذكروا اللـه باسـم واحـد من أسمائه أو بمجرد ضمير كهو هو وهـذه كلهـا من البـدع الـتي لم يأمر بها الله ولا رسوله صلى الله عليه وسـلم. ثم يقـول القشـيري أيضاً:

"ومن شأن المريد حفظ حدوده مع الله تعالى فإن نقض العهـد في طريق الإشادة كالردة عن الدين لأهل الظاهر" أ.هــ (القشـيرية ص 186).

وبهذا يغلق الطريق نهائياً أمام المريد الذي قد يريد فكاكاً مما دخل فيه إذا اطلع على تهاويل التصوف وترهاته.

الفصل الرابع

الطرق الصوفية

تاريخ نشأة الطرق الصوفية:

يبـدو أن أول صـوفي وضـع نظـام الطـرق الصـوفية هـو الصـوفي الإيراني محمـد أحمـد الميهمي المتـوفي سـنة 430هــ والمعـروف باسم أبي سعيد. فقد أقام في بلدته نظامـاً للـدراويش، وبـنى خانـاً بجوار منزله للصـوفية، وجعـل نظـام تسلسـل الطريـق عن طريـق

الوراثية، ويبدو كذلك أنه من أوائل من كتب في طريقة التربية الصوفية وهو سابق على عبدالكريم القشيري صاحب الرسالة القشيرية والتي كتب فيها صاحبها أيضاً طائفة كبيرة من طرق التربية الصوفية والقشيري توفي سنة 465هـ وكان مولده سنة 376هـ وأما مولد أبي سعيد فقد كان في سنة 357هـ فهو أكبر من القشيري وأقدم. وقد قيل إنه اتصل بعبدالرحمن السلمي، صاحب كتاب الطبقات، وأخذ عنه الحرقة الأولى، واتصل كذلك بأبي العباس القصاب وأخذ عنه الحرقة الثانية. وقد انتشر بعد ذلك في القرنين الخامس والسادس الهجريين نظام الطرق الصوفية وانتقلت من إيران إلى المشرق العربي فظهرت الرفاعية والقادرية في العراق، والأحمدية والشاذلية في مصر، ثم ظهرت بعد ذلك الدسوقية في مصر أيضاً، ثم تتابع ظهور الطرق الجديدة وكذلك الطرق المتفرعة من طرق قديمة حتى أصبحت الطرق تعد بالآلاف.

وغالباً ما تسمى الطريقة باسم مؤسسها، وأحياناً تسمى باسم خاص (كالختمية) مثلاً (والزوامة) نسبة إلى الزم لأن ذكرهم (بالزوم) (وهي كلمة عامة مصرية معناه إخراج صوت معروف يخرج من الأنف والفم مقفول بعد الميم).

معنى الطريقة الصوفية:

الطريقة الصوفية تعني أولاً النسبة إلى شيخ يزعم لنفسه الترقي في ميادين التصوف والوصول إلى رتبة الشيخ المربي. ويدعي لنفسه بالطبع رتبة صوفية من مراتب الأولياء عند الصوفية كالقطب والغوث والوتد والبدل.. الخ.

ولا بد أن يكون من أهل الكرامات والمكاشفات، ويكون له بالطبع ذكر خاص به، يزعم كل واحد منهم أنه تلقاه من الغيب إما من الله رأساً، أو نزل منه سبحانه مكتوباً، أو من الرسول صلى الله عليه وسلم في اليقظة أو في المنام، أو من الخضر عليه السلام.. المهم لا بد أن يكون له ذكر خاص ينفرد به عن سائر الطرق، ولا بد أن يكون لهذا الذكر الخاص ميزة خاصة وفضل خاص أكبر من الموجود في القرآن والسنة، وأفضل مما عند الطرق الأخرى وهذا بالطبع لجلب (الزبائن) لهذا الطريق الخاص. ثم لا بد أن يكون لكل طريق مشاعر خاصة فلون العلم والخرقة لون مميز، وطريقة الذكر الصوفي مميزة، ونظام الخلوة مميز، وهكذا؛ والطرق

الحديثة غالباً ما يتوارثها الأبناء عن الآباء وذلك أن الطريقة التي تستطيع جلب عدد كبير من المريدين والتابعين والأنصار تصبح بعد مدة يسيرة إقطاعية دينية عظيمة تفد الوفود إلى رئيسها (شيخها) من كل ناحية، وتأتيه الإتاوات والصدقات والهبات والبركات من كل حدب وصوب وحيثما حل الشيخ في مكان ذبحت الطيور والخرفان وأقيمت الموائد الحسان، ولذلك فإن أصحاب هذه الطرق يقاتلون اليوم عنها بالسيف والسنان.

وعامة الذين يؤسسون الطرق بل جميعهم يصلون نسبهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ويجعلون أنفسهم من آل بيته.

نماذج من الطرق الصوفية:

الطريقة التجانية

1- تنسب الطريقة التجانية إلى أحمد بن محمد بن المختار التجاني المولود سنة 1150هـ 1737م ونسبته إلى بلدة تسمى (بني توجين) قرية من قرى البربر في المغرب، وينسب نفسه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كما عادة كل من أسس طريقة صوفية. سار أولاً في الطريقة (الخلوتية).

2- ثم أسس طريقة لنفسه سماها باسمه بعد أن استقر في مدينة فاس بالمغرب وبنى فيها زاوية لمريديه. ويقول صاحب كشف الحجاب عن هذه الزاوية "كانت خربة متهدمة من ملك أولاد أفومي وكانت فيها كرمة كبيرة وكانت تلك الخربة مهيبة لا يقدر أحد أن يدخلها وحده، وقد بلغني على لسان الثقة أنه كان يسمع فيها بعض الأحيان كأن جماعة يذكرون فيها وكان يقصدها غالب مجاذيب فاس" أ.هـ. ولم يترك التجاني هذا أي علم ينتفع به ولكن جمع له تلميذ من تلاميذه يسمى علي حرازم كتاباً سماه (جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني).. والكتاب كله في فضل سيده وكراماته وأخلاقه وشمائله وأذكاره وأحواله وطريقته، وإشاراته القرآنية وعلومه اللدنية..

3- ولم يترك التجاني هذا بدعة قديمة للتصوف إلا ابتدعها ولا فضلاً مزعوماً ادعاه شيخ صوفي لنفسه إلا ادعاه هو لنفسه وزاد عليه. فقد ادعى أنه هو خاتم الأولياء جميعاً والغوث الأكبر في حياته وبعد مماته، وأن أرواح الأولياء منذ آدم إلى آخر ولي لا يأتيها الفتح

والعلم الرباني إلا بوساطته هو، وأن قدمه على رقبة كل ولي لله تعالى من خلق آدم إلى النفخ في الصور، وأنه أول من يدخل الجنة هو وأصحابه وأتباعه، وأن الله شفعه في جميع الناس الذين يعيشون في قرنه الذي عاش فيه، وأن الرسول أعطاه ذكراً يسمى صلاة الفاتح يفضل أي ذكر قرئ في الأرض ستين ألف مرة بما في ذلك القرآن الكريم، وهاك بعض النصوص من كتب التجانية لكل هذه الأمور.

أ- إيمانهم بوحدة الوجود وأن كل الأديان حق:

قال أحمد بن حرازم، مؤلف جواهر المعاني، وهو أشهر كتاب عندهم كما مر آنفاً:

".. فكل عابد أو ساجد لغير الله في الظاهر فما عبد ولا سجد إلا لله تعالى لأنه هو المتجلي في تلك الألباس، وتلك المعبودات كلها تسجد لله تعالى وتعبده وتسبحه خائفة من سطوة جلاله سبحانه وتعالى، ولو أنها برزت لعبادة الخلق وبرزت لها بدون تجلية فيها لتحطمت في أسرع من طرفة العين لغيرته تعالى لنسبة الألوهية إلى غيره قال سبحانه وتعالى لكليمه موسى: {إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني} والإله في اللغة هو المعبود بحق وقوله {لا إله إلا أنا} يعني لا معبود غيري وإن عبد الأوثان من عبدها فما عبد غيري، ولا توجهوا بالخضوع والتذلل لغيري" (جواهر المعاني ص184،185 ج1).

وقال أيضاً:

".. إن جميع المخلوقات مراتب للحق يجب التسليم له في حكمه وفي كل ما أقام خلقه لا يعارض في شيء ثم حكم الشرع من وراء هذا يتصرف فيه ظاهراً لا باطناً لا يكون هذا إلا لمن عرف وحدة الوجود فيشاهد فيها الوصل والفصل، فإن وجود عين واحدة لا تجرؤ فيها على كثرة أجناسها وأنواعها ووحدتها لا تخرجها عن افتراق أشخاصها بالأحكام. والخواص وهي المعبر عنها عند العارفين أن الكثرة عين الوحدة والوحدة عين الكثرة فمن نظر إلى كثرة الوجود وافتراق أجزائه نظر عيناً واحدة على كثرته، ومن نظر إلى عين الوحدة نظرة متكثر بما لا غاية له من الكثرة، وهذا النظر للعارف فقط لا غيره من أصحاب الحجاب وهذا لمن عاين

الوحدة ذوقاً لا رسماً وهذا خارجاً عن القال.." (جواهر المعـاني ص 92 ج2).

ب- تفضيلهم ما يسمونه بصلاة الفاتح على القرآن الكريم:

ومن أعظم جـرائمهم أيضـاً وأكـبر مفتريـاتهم ابتـداعهم وتفضـيلهم ذكراً مبتدعاً سيء المعنى ركيـك العبـارة، على كـل ذكـر قـرئ في الأرض، وجعلهم قراءته أفضل من قراءة القرآن الكريم ستين ألـف مرة وهو لا يعدو ثلاثة أسطر وهذا الذكر المبتدع هو:

"اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخـاتم لمـا سـبق، ناصر الحق بالحق، الهادي إلى صراطك المسـتقيم، وعلى آلـه حـق قدره ومقداره العظيم".. أ.هـ (أحزاب وأوراد التجاني تحقيق محمد الحافظ).

ولا يخفى على عالم بالعربية ركاكة لفظ هذه الصـلاة ومـا فيهـا من المجاهيل فما هو الذي أغلق وفتحه الرسول.. وما هو الذي سبق؟! وكيف يكون هذان السطران أفضل من القـرآن الكـريم المعجـز..؟ ولا عجب في هذا الكذب فقد زعموا أيضـاً أنهـا نـزلت من السـماء. فقد قال الفوطي مؤلـف كتـاب (رمـاح حـزب الـرحيم): "ويجب أن يعتقد الذاكر أنها من كلام الله" (رماح حزب الـرحيم ج2 ص139)، وقـال مؤلـف كتـاب (الـدرة الخريـدة): "ويعتقـد المصـلي أنهـا في صحيفة من نور أنزلت بأقلام قدرة إلهية وليست من تأليف زيـد ولا عمرو بل هي من كلامه سـبحانه وتعـالى" (الـدرة الخريـدة ج4 ص 128)، وقال صاحب الجواهر أيضاً:

".. إنها لم تكن من تأليف البكري ولكنه توجه إلى الله مـدة طويلـة أن يمنحه صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيهـا ثـواب جميـع الصلوات وسـر جميـع الصـلوات وطـال طلبـه مـدة ثم أجـاب اللـه دعوته فأتاه الملك بهذه الصلاة المكتوبة في صحيفة النـور ثم قـال الشيخ فلما تأملت هذه الصلاة وجدتها مكتوبة في صحيفة من النور ثم قال الشيخ فلما تأملت هذه الصلاة وجدتها لا تزنها عبـادة جميـع الجن والإنس والملائكة قال الشـيخ وقـد أخـبرني صـلى اللـه عليـه وسلم عن ثواب الاسم الأعظم فقلت: إنهـا أكـثر منـه فقـال صـلى الله عليه وسلم بل هو أعظم منها ولا تقوم له عبادة" (الجواهر ص 96) أ.هـ.

وقال في بيان فضلها:

"وأما فضل صلاة الفاتح لما أغلق الخ.. فقـد سـمعت شـيخنا يقـول كنت مشتغلاً بذكر صلاة الفاتح لمـا أغلـق حين رجعت من الحج إلى تلمسان لما رأيت من فضلها وهو أن المرة الواحـدة بسـتمائة ألـف صلاة كما هو في وردة الجيوب. وقد ذكر صاحب الوردة أن صاحبها سيدي محمد البكري الصديقي نزيل مصر وكان قطبـاً. قـال إن من ذكرها ولم يدخل الجنـة فليقبض صـاحبها عنـد اللـه، وبقيت أذكرهـا إلى أن رحلت من تلمسان إلى أبي سمعون فلما رأيت الصلاة التي فيها المرة الواحدة بسبعين ألـف ختمـة من دلائـل الخـيرات تـركت الفاتح لما أغلق واشتغلت بهـا وهي (اللهم صـل على سـيدنا محمـد وعلى آله صلاة تعدل جميع صلوات أهل محبتك وسـلم على سـيدنا محمد وعلى آله سـلاماً يعـدل سـلامهم) ولمـا رأيت فيهـا من كـثرة الفضل ثم أمرني بالرجوع صلى الله عليه وسـلم إلى صـلاة الفـاتح لما أغلق فلما أمرني بالرجوع إليها سـألته صـلى اللـه عليـه وسـلم عن فضلها فأخبرني أولاً بأن المرة الواحدة منهـا تعـدل من القـرآن ست مرات، ثم أخبرني ثانياً أن المرة الواحدة منهـا تعـدل من كـل تسبيح وقع في الكون ومن كل ذكـر ومن كـل دعـاء كبـير أو صـغير ومن القرآن ستة آلاف مرة لأنه من الأذكار.." (جواهر المعـاني ج1 ص94) أ.هـ.

وقلت: ولا يخفى ما في هذا من الكـذب والتلفيـق، ولا يخفى أيضـاً أن تصديق مثل هذه الترهات تكذيب لله ولرسوله فقـد قـال تعـالى {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فمــا بلغت رسـالته} وقـال تعـالى: {اليـوم أكملت لكم دينكم} ومسـتحيل أن يحجب الرسـول مثـل هـذا الفضـل عن أفضـل أمتـه هم أصـحابه الأطهار، ويؤثر بذلك مجموعـة من خـدم وعبيـد الكفـار والاسـتعمار عاشوا في شمال إفريقية على أكل أموال النـاس بالباطـل وخدمـة الفرنسيين وتضليل المسـلمين وصـرفهم من التوحيـد إلى الشـرك ومن الصراط المستقيم إلى طرق الشياطين.

ولا غرو فقد فضل التجاني هذا نفسه على جميع الصحابة والتـابعين وجميع الأمة أجمعين وادعى الولاية العظمى والغوثية وختم الأوليـاء (انظر الفصل الخاص بخاتم الأولياء).

ج- ادعاء التجاني أن أتباعه يدخلون الجنة مهما عصوا:

وادعى التجاني ما لم يعطه اللـه لرسـوله من الشـفاعة من أن من رآه دخل الجنة ولو كان كافراً، وأن جميع آبائـه وأمهاتـه في الجنـة، وجميع أتباعه.

قال صاحب الرماح:

".. وليس لأحـد من الرجـال أن يـدخل أصـحابه كافـة الجنـة بغـير حسـاب ولا عقـاب ولـو عملـوا من الـذنوب مـا عملـوا وبلغـوا من المعاصي ما بلغوا إلا أنا وحدي، ووراء ذلك ما ذكر لي فيهم وضمنه لهم صلى الله عليه وسلم أمر لا يحل ذكـره ولا يـرى ولا يعـرف إلا في الآخرة.." (رماح حزب الرحيم ص143 ج2) أ.هـ.

وقال مؤلف الجواهر: "اطلعت على ما رسمه وخطه ونصه.. أسـأل من فضل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضمن دخول الجنة بلا حساب ولا عقاب في أول الزمرة الأولى، أنا وكـل أب وأم ولـدوني من أبـوي إلى أول أب وأم لي في الإسـلام من جهـة ومن جهة أمي، من كل ما تناسـل منهم من وقتهم إلى أن يمـوت سـيدنا عيسى بن مـريم من جميـع الـذكور والإنـاث. وكـل من أحسـن إلي بإحسـان حسـي أو معنـوي من مثقـال ذرة فـأكثر.. فكـل من لم يعـادني من جميـع هـؤلاء. أمـا من عـاداني وأبغضـني فلا، وكـل من والاني واتخذني شيخاً أو أخذ عني ذكراً، وكل من خـدمني أو قضـى لي حاجة.. وآباؤهم وأمهـاتهم وأولادهم وبنـاتهم وأزواجهم.. يضـمن لي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولجميع هؤلاء أن يموت كـل حي منهم على الإيمـان والإسـلام.. ثم قـال كـل مـا في هـذا الكتاب ضمنته لك ضمانة لا تتخلف عنك وعنهم أبـداً، إلى أن تكـون أنت وجميع من ذكرت في جواري في عليين.

وضمنت لك جميع ما طلبته منا ضـماناً لا يخلـف عليـك الوعـد فيهـا والسلام.. ثم قال: وكل هذا واقع يقظة لا مناماً" (جواهر المعاني ج 21 ص130،131).

قلت: لم أجد في حياتي كذباً أسمج، ولا وقاحة، ولا تقـولاً على اللـه ورسالاته أكبر من ذلك.. فماذا كان عند هذا الوقح من دين وإسـلام حتى يضمن الرسول له ذلك، وهذا الرسول صلى الله عليـه وسـلم الذي يقول [والله إني لرسول الله لا أدري ما يفعل بي غــداً] (رواه البخاري)، والذي يقول الله تبارك وتعالى له: {قل إني لا أملك لكم

ضراً ولا رشداً* قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونــه ملتحداً} (الجن:21-22).

فيأتي هذا الكذب ليفتري على الله أمثال هذه الافتراءات ويأبى الله إلا أن يكذبه فيكون أتباعه وأولاده أفضل خـدم للكفـر والاسـتعمار.. وقال أيضاً مؤكداً هذه المـزاعم: "وسـألته صـلى اللـه عليـه وسـلم لكل من أخذ عني ورداً أن تغفر لهم جميع ذنوبهم ما تقدم منها وما تأخر، تؤدي عنهم تبعـاتهم من خـزائن فضـل اللـه لا من حسـناتهم، وأن يـدفع اللــه عنهم محاسـبته على كـل، وأن يكونــوا آمــنين من عذاب الله من الموت إلى دخـول الجنـة بلا حسـاب ولا عقـاب في أول الزمـرة الأولى، وأن يكونـوا معي في علـيين في جـوار النـبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ضمنت لــك هــذا ضــماناً لا ينقطــع حــتى تجــاورني أنت وهم في علــيين" (الجيش الكفيل بأخذ الثأر ص214،215) أ.هـ.

فانظر أي أخلاق يكون عليها الذين يدعون مجاورة النبي صلى اللــه عليه وسلم في عليين.

ولم يكتف التجاني بهذا أيضاً فقد زعم كذلك أن الرسول صلى اللـه عليه وسلم لا يفارقه يومي الاثنين والجمعة من كل أسبوع، وأن مع الرسـول سـبعة أملاك وكـل من رأى التجـاني في هـذين اليـومين، تكتب الملائكة اسمه في رقعة من الـذهب ويكـون ناجيـاً أبـداً ومن أهل السعادة حتى ولو كان كافراً عند مشاهدته للتجاني فإنـه لا بـد أن يموت على الإسلام، وأن هذا كرامة من الله له.

قال صاحب بغية المستفيد شرح منيـة المريـد (هـو محمـد العـربي السائع العمري التجاني وكتابه شرح لمنيـة المريـد وهي من تـأليف أحمد التجاني بن بابـا الشـنقيطي العلـوي (التجانيـة تـأليف علي بن محمد بن الدخيل الله ص76)): "وأمـا الكرامـة الثالثـة وهي دخـول الجنة لمن رآه رضي الله عنـه في اليـومين الاثـنين والجمعـة، فهي من كراماته رضي الله عنه التي طـارت بهـا الركبـان وتـواترت بهـا الأخبار في سائر الأقطار والبلدان، بأخبار من النبي صلى الله عليـه وسلم ولفظه الشريف فيما أخبر بـه سـيدنا رضـي اللـه عنـه بعـزة ربي، يوم الاثنين والجمعة لا أفارقك فيهمـا من الفجـر إلى الغـروب ومعي سـبعة أملاك، وكـل من يـراك في اليـومين يكتبـون -يعـني الأملاك السبعة- اسمه في رقعة من ذهب ويكتبونه من أجـل الجنـة وأنا شاهد على ذلك" (بغية المستفيد ص216).

وقال أيضاً: "ورأيت في كلام بعض من كان مشاراً إليه بالفتح من الأصحاب ما يشير إلى أن المختص برئيه في اليومين هو السعادة التي لا شقاوة بعدها يعني أنه لا يراه في هذين اليومين إلا من سبق في علم الله تعالى أن يكون سعيداً، فيدخل الكفار في هذا الخطاب، وينسحب عليهم الحكم في هذا المقام بفضل الملك الوهاب فيقال لا يراه في هذين اليومين إلا من يسبق في علم الله تعالى أنه يختم له بالسعادة كائناً من كان، فإذا رآه الكافر في أحد هذين اليومين ختم له بالإيمان وعليه فتخصص الرؤية المطلقة في كل يوم بمن كان مسلماً سواء كان من الأصحاب أو لا حسبما هو مصرح به في الجواهر وهذه المقيدة باليومين بما يشمل كل من رآه ولو كان كافراً" (بغية المستفيد ص275) أ.هـ.

وهذا الذي ادعاه التجاني لنفسه لم يحصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فمعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه آلاف الناس من الكفار في كل أيام الأسبوع ومع ذلك فقد ماتوا على الكفر والشرك بل كان هناك معه من الذين صحبوه، وجاهدوا وصلوا معه، منافقون مردوا على النفاق، بل كان منهم من قال الله له في شأنهم {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم} (التوبة:80).

وكذلك كان من أصحابه أناس يعرفهم الرسول ويعرفونه ويوم القيامة يؤخذ بهم جهة النار ويطردون عن حوضه صلى الله عليه وسلم فيقول للملائكة أصحابي أصحابي فيقولون: ليسوا أصحابك إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك. (رواه البخاري ومسلم).

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم هذا شأنه فيمن رآه، وهذا شأنه مع أصحابه فماذا يكون زعم التجاني إلا أنه كذب سمج وقح.. والله إني لا أرى الرد على أمثال هذه الترهات ولكننا مضطرون أحياناً أن نذكر بالآيات والأحاديث وموازين الدين وقواعد الشريعة لأن بعض الناس قد يسمعون بمثل هذه السخافات ولا يستطيعون التمييز بين النبي الصادق والدعي الكذاب وبين عقيدة الإسلام الطيبة وعقائد الزنادقة ولذلك فإننا نضطر أحياناً أن نقابل هذا الهراء الذي لا ينطلي حتى على الصبيان والمجانين بالآيات والأحاديث فاللهم معذرة أن نخاطب بكلامك الطيب وبكلام رسولك الصادق الأمين أمثال هؤلاء الكاذبين الزنادقة.

د- زعم التجانية رؤية الرسول في اليقظة والأخذ عنه:

ومن خرافات التجانية أيضاً وافتراءاتهم زعمهم رؤية النبي صلى الله عليه وسلم دائماً، وحضوره وحاشاه صلى الله عليه وسلم مجالس ذكرهم المبتدعة وهذه أقوالهم في ذلك:

1- قال في جواهر المعاني: "قال رضي الله عنه: أخبرني سيد الوجود يقظة لا مناماً قال لي: أنت من الآمنين، ومن رآك من الآمنين إن مات على الإيمان.." (جواهر المعاني ج1 ص129).

2- وقال أيضاً: ".. سأل سيد الوجود، وعلم الشهود، صلى الله عليه وسلم في كل نفس مشهود، عن نسبه وهل هو من الأبناء والأولاد، أو من الآل والأحفاد، فأجابه صلى الله عليه وسلم بقوله: (أنت ولدي حقاً) كررها ثلاثاً صلى الله عليه وسلم، وقال نسبك إلى الحسن بن علي صحيح. وهذا السؤال من سيدنا رضي الله عنه لسيد الوجود يقظة لا مناماً، وبشر صلى الله عليه وسلم بأمور عظام جسام صلى الله عليه وسلم وشرف وكرر ومجد وعظم" (جواهر المعاني ج2 ص228).

3- وقال أيضاً عن الصلاة المسماة بياقوتة الحقائق: "هي من إملاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من لفظه الشريف على شيخنا يقظة لا مناماً" (جواهر المعاني ج1 ص30،31).

4- وقال أيضاً فيما يرويه عن شيخه التجاني: "قال رأيته مرة صلى الله عليه وسلم، وسألته عن الحديث الوارد في سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام. قلت له: ورد عنك روايتان صحيحتان واحدة قلت فيها يمكث بعد نزوله أربعين، وقلت في الأخرى سبعاً.. ما الصحيحة منها؟ قال صلى الله عليه وسلم: رواية السبع" (جواهر المعاني ج1 ص50).

وهذا الذي يزعم التجاني أنه استفاد من الرسول في اليقظة. بشأن ترجيح (رواية سبعة أيام على أربعين يوماً) قد سرقه التجاني من كتاب الإبريز للدباغ فهناك قد زعم الدباغ أيضاً أنه استفاد هذا من الرسول.. وقد كان هذا الشأن التجاني دائماً.. كلما سمع أن أحداً سبقه من رجال التصوف في قول أو نحوه قال نحوه وزاد؛ كما سمع أو قرأ أن عبدالقادر الجيلاني قال عن نفسه قدماي هاتان على رقبة كل ولي لله.. فقال التجاني وأما أنا فأقول قدماي هاتان على رقبة كل ولي لله من خلق آدم إلى النفخ في الصور.. وسمع أو قرأ أن ابن عربي قال إنه خاتم الأولياء فقال بل أنا خاتم الأولياء

وهكذا فقـد ردد معظم الكـذب الـذي سـبقه بـه شـياطين التصـوف القدامى وزاد عليهم.

ونعود فنقول إن التجانية لم يجعلوا رؤية الرسول في اليقظة خاصة بالتجاني بـل جعلوهـا بكـل من زعمـوا أنـه بلـغ درجـة العرفـان في زعمهم وهاك بعض نصوصهم في ذلك:

1- قال في رماح حزب الرحيم: "ولا يكمل العبد في مقام العرفـان حـتى يصـير يجتمـع برسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم يقظـة ومشافهة.. الخ" (الرماح ص199 ج1).

2- وقال في بغية المسـتفيد: ".. منهم من يـرى روحـه في اليقظـة متشكلة بصـورته الشـريفة، ومنهم من يـرى حقيقـة ذاتـه الشـريفة وكأنه معه في حياته صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء هم أهل المقـام الأعلى في رؤيته صلى الله عليه وسـلم" أ.هــ (بقيـة المسـتفيد ص 79،80).

* وهذا هو الذي نبهنا عليـه في أول الكتـاب أن المفـترق الأول بين دين الإسـلام ودين التصـوف هـو الافـتراق في التلقي بينمـا يتلقى المسلمون دينهم بعـد وفـاة الرسـول من الكتـاب والسـنة وإجمـاع الأمة فقط هذا هو المعصوم ثم من اجتهاد الأئمة المعرض للصواب والخطأ، أقول بينما يفعل المسلمون ذلك، فإن المتصـوفة يجعلـون تلقيهم للدين من كـل هب ودب ممن يـزعم ملاقـاة الرسـول وهـذا كذب بإجماع الأمة. أو ملاقـاة الخضـر وهـذا كـذب وافـتراء بين فلم يتعبدنا الله بخضـر أو بغـيره أو ممن يـزعم رؤيـة الملائكـة وسـماع دينهم أو ممن يزعم تلقي الـدين من اللـوح المحفـوظ رأسـاً وممن يتجاوز كل ذلك فيقول حدثني قلـبي عن ربي.. أو من يقـول يـأتيني كلام الله مكتوباً في ألواح من نـور.. فكـل مشـايخ التصـوف رسـل وأنبيـاء ومشـرعون ومتلقـون للـدين من طـرق أخـرى غـير طريـق المسلمين وبهذا تتأكد أن دين هـؤلاء حتمـاً ليس بـدين المسـلمين.. وأنهم يفترقون عن المسلمين في الأصل الأصيل وهو مصدر الدين.

ولو فرضنا جدلاً أن الرسول صلى الله عليـه وسـلم يمكن أن يعـود بجسده الشـريف أو روحـه الطـاهر صـلى اللـه عليـه وسـلم ليلقى بعض المسلمين فإننا نجزم أن لقاءه هـذا سـيكون لتعزيـز شـريعته الـتي بثهـا في حياتـه لا لهـدمها، فنتصـور مثلاً في مثـل التجـاني أن يقـول لا تكن أنت وأتباعـك عبيـداً للاسـتعمار الفرنسـي ولا خـدماً

للكفار، وقوموا بنصرة الدين، وجاهدوا في سبيل الله وأما أن يــأتي النبي صلى الله عليه وسلم ليقول للتجاني أقطعتك الجنــة وأتباعــك ولــو كــانوا مجــرمين فاســقين وكــل من رآك دخــل الجنــة ولــو كــان كافراً، وأمر أتباعك أن يدعوك من دون الله ويشركوا بالله في كــل شــيء. يــأتي بــآخر فيقطعــه قطعــة من الجنــة ويؤمنــه من العــذاب ويقول لا حرج عليك وعلى أتباعك واعمل مولداً لنفسك ومولــداً لي تستباح فيه الحرمات وتهتك فيه الأعراض ولا حــرج عليــك من ذلــك لأن كل ذنوب أصحابك أنا أغفرها لكم.. هذه هي المهمة التي بقيت لرسول الله في الأرض.. يا سبحان الله كم يكذب هــؤلاء على اللــه وعلى رسوله وهم لا يستحون.

هـ- دعوة التجانية إلى الشرك الجلي:

والطريقة التجانية كغيرها من الطرق رأس مالها وقطب رحاهــا في الدين أن تدعو الناس إلى الشرك بالله فبدلاً من دعــوة النــاس إلى الصــلاة الصــحيحة، والصــوم الصــحيح المشــروع والحج، والزكــاة، والجهاد في سبيل الله قد اســتبدلوا كــل ذلــك بوســيلة واحــدة وهي الاستغاثة بالمشايخ ودعــوتهم من دون اللــه والالتجــاء بهم إلى اللــه والاعتقاد أن اللــه لا يقبلهم إلا عن طريــق هــؤلاء الشــيوخ الضــالين بزعم أن هؤلاء المشايخ هم أبواب الله، ولا دخول على اللــه إلا من طريقهم، ولا قبول لتوبــة تــائب إلا برضــاهم، وأي قربــان أو زكــاة لا تقبل إلا إذا كانت أيدي هــؤلاء المشــايخ أول من يلتقطهــا، وأول من يأكلها.. هذا هو دين الصوفية في نهايته إخراج الناس من عبادة الله عز وجل إلى عبادة هؤلاء المشايخ أحياءً وأمواتاً..

قال مؤلف رماح حزب الرحيم: "وأما كيفية التوسل بــه رضــي اللــه عنه وبجده صلى الله عليه وســلم فهي أنــك مهمــا أردت حاجــة من حوائج الدنيا والآخرة فصل على رسول الله صلى الله عليــه وســلم بصلاة الفاتح لما أغلق مائة، واهد ثوابها لرسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء الحاجة التي تريدها ثم تقول: يا رب توسلت إليك بجاه القطب الكامــل ســيدنا أحمــد بن محمــد التجــاني وجاهــه عنــدك أن تعطيني كذا وكذا، وتسمي حاجتك بعينهــا عشــراً" أ.هــ (الرمــاح ج1 ص165).

وهكذا لا يوجهون الناس في الملمات والمهمات إلا إلى التوجــه إلى الرسول والتجــاني.. وعلى الــرغم من أن التوســل إلى اللــه بــالنبي بعد موته بدعة منكرة لم يفعلها أحد من سلف الأمــة المشــهود لهم

بالخير، فإن اقتران اسم الرسول صلى الله عليه وسلم باسم هذا الدعي الكذاب من أكبر الإثم والزور والجرأة على الله..

والعجيب في أمر التجانية أيضاً أنهم جعلوا التوسل بالأموات عند أتباعهم خاصاً بالرسول والتجاني فقط، وأنه من توسل منهم بغير الرسول والتجاني فإنه يخرج من الطريقة خروجاً نهائياً وينسلخ منها انسلاخاً كاملاً لا رجعة فيه كما ينسلخ جلد الشاة عن الشاة والبيضة عن الدجاجة؛ ومعلوم أن جلد الشاة إذا سلخ منها يستحيل إعادته إليها وأن بيضة الدجاجة إذا انفصلت عنها يتعزز إعادتها إليها.. فانظر كيف حكموا بأكبر من الردة عن الدين لمجرد أن واحداً منهم توسل بشيخ غير شيخهم.

قال مؤلف الدرة الخريدة: "ومن زار من الإخوان الأحمديين شيخاً من المشايخ حياً كان أو ميتاً بقصد التوسل به والاستمداد غير شيخنا أبي الفيض (شيخهم أبو الفاضل هو أحمد التجاني والفيض في زعمهم هو علم الغيب والخير الذي يفيضه على أتباعه).. فقد خرج عن طريقة الأحمدية ولا إذن عنده فيها، بل انسلخ منها انسلاخ الجلد عن النعاج وانفصل عنها انفصال البيض عن الدجاج.." أ.هـ (الدرة الخريدة).

فانظر كيف يكون الاستعباد والاستبداد وضرب طوق جهنمي عمن وقع في شباكهم أن لا يتصل بشيخ آخر مطلقاً ولا يعلق قلبه به.

و- تفضيل التجاني نفسه على جميع الأولياء:

كل شيخ صوفي صاحب طريق يؤثر عنه أنه يفضل نفسه على سائر الأولياء، وذلك حتى يستطيع جلب الناس لطريقته، ويتفانى فيه أتباعه من بعده تعصباً لشيخهم وترويجاً لطريقتهم، والتجاني لعله أكثرهم جرأة في هذا الصدد، فلم يترك فضلاً مزعوماً لأحد قبله إلا نسبه إلى نفسه، فقد ادعى أنه خاتم الأولياء تقليداً لمن سبقه من مشايخ التصوف (راجع الفصل الخاص بخاتم الأولياء) وادعى لنفسه أنه هو الذي يمد جميع الأولياء بالعلوم والمعارف منذ خلق آدم أي قبل أن يخلقه الله وإلى النفخ في الصور.. فهو الذي تنبع منه المعارف والعلوم والأسرار الإلهية -حسب زعمه- إلى الأولياء السابقين قبل وجوده وإلى جميع الأولياء اللاحقين إلى نهاية العالم.

1- وقال مؤلف بغية المستفيد: "قال رضي الله عنه إن الفيوض التي تفيض من ذات سيد الوجود صلى الله عليه وسلم تتلقاها ذوات الأنبياء، وكل ما فاض وبرز من ذوات الأنبياء تتلقاه ذاتي، ومني يتفرق على جميع الخلائق من نشأة العالم إلى النفخ في الصور.. وقال: لا يتلقى ولي فيضاً من الله تعالى إلا بوساطته رضي الله عنه من حيث لا يشعر به، ومدده الخاص به وإنما يتلقاه من النبي صلى الله عليه وسلم" أ.هـ (بغية المستفيد ص225).

2- وقال مؤلف الدرة الخريدة: ".. فسيدي أبو الفيض أصل جميع الوسائل المتقدمة والمتأخرة، وشيخ المشايخ، وبرزخ البرازخ، والمنبع الذي تنفجر منه العلوم والفيوض والمعارف والأسرار لجميع الأولياء والأقطاب والعارفين والأحباب.." أ.هـ (الدرة الخريدة ج1 ص26).

وقال في منية المريد:

لا شك أن شيخنا التجاني مم كل عارف صمداني

يعطي ويمنع ويسلب فمن كمثله من الورى في ذا الزمن

(بغية المستفيد ص226).

ولا يخفى أن هذا اعتقاد خرافي ثم هو شرك واضح لأنه رفع للمخلوق إلى مرتبة الخالق فالذي يهب المعارف والعلوم والفقه ويشرح القلوب هو الله سبحانه وتعالى {ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً} فهو الذي يفهم سبحانه وتعالى وقال أيضاً سبحانه: {الرحمن* علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان} وقال تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله}. فالله هو الذي يري رسوله وكل ذلك بمدده هو سبحانه وتعالى وفضله {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام} فشرح الصدر ونور الفؤاد منه سبحانه وتعالى وليس من التجاني ولا غيره ومن ظن هذا الظن في أنه لا يأتيه علم ولا مدد إلا عن طريق التجاني أو غيره من البشر فلا شك في كفره ومروقه من الدين.

ز- أذكارهم وبدعهم الخاصة:

هـذه أخي المسـلم هي أهم القواعـد والقضـايا الـتي تقـوم عليهـا الطريقة التجانية إضافة إلى بدعهم الخاصة في الأذكـار والعبـادات، فقد ابتـدعوا صـلاة سـموها (جـوهرة الكمـال) فيهـا سـب للرسـول واشترطوا لقراءتها أن يكون قارئها متطهراً بالطهارة المائية فقـط، فلو فقد الماء أو لم يستطع استعماله فلا يجوز له قراءتها فرفعوهـا بذلك عن منزلة القـرآن الكـريم والصـلاة. وهـذه الصـلاة المبتدعـة هي:

"اللهم صل على عين الرحمة الربانية.. والياقوتة المتحققة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني ونور الأكوان المتكونة الآدمي صاحب الحق الربـاني الـبرق الأسـطع بمـزون الأريـاح المائلـة لكـل متعـرض من البحور والأواني ونورك اللامع الذي ملأت بـه كونـك الحائـط بأمكنـة المكاني، اللهم صل وسلم على عين الحق التي تتجلى منها عروش الحقائق عين المعارف الأقـوم صـراطك التـام الأسـقم، اللهم صـل على طلعة الحق بالحق الكـنز الأعظم إفاضـتك منـك إليـك إحاطـة النور المطلسم صلى الله عليه وسلم، وعلى آلـه صـلاة تعرفنـا بهـا إياه" أ.هـ (أحزاب وأوراد التجاني ص13،14).

فهـذه الصـلاة إلى جـوار ركاكـة ألفاظهـا فيهـا معـان سـيئة كقولـه (صراطك التام الأسقم).. (إحاطة النور المطلسم).. (ونور الأكـوان المتكونة)..

وبمثـل هـذه المبتـدعات صـرفوا النـاس عن الصـلوات والطيبـات الزاكيات التي نطق بها فم الرسول الطاهر صلى الله عليـه وسـلم وحرموا المسلمين الأجر الحقيقي واتباع الرسـول إلى اتبـاع هـؤلاء المبتدعين المارقين.

* هذه خلاصة وعجالة لهذه الطريقة الـتي انتشـرت انتشـاراً ذريعـاً في شمال إفريقية وفي وسطها وغربها، وضمت تحت لوائها ملايين كثيرة من أبناء المسلمين. وهذا جانب يسير من واقعهـا الفعلي وإلا فقد جاء من بنى على هذا الواقع الفاسد، وزعم أنه صاحب الفيضة التجانية الذي بشر به التجاني، وأن أتباعه يدخلون جميعاً الجنة بغير حساب ولو كانوا كفاراً ولو أنهم لم يفعلوا شـيئاً قـط من الـدين، أو اسـتحلوا كـل المحرمـات لأن اللـه اختـارهم لـذواتهم فقـط وهـذا الشخص هو (الحاج إبراهيم السنغالي) والذي كان لـه شـأن عظيم، وبسط دعوته تلك في أصقاع كبيرة من القارة الأفريقية.

الطريقة الرفاعية

تنسب الطريقة الرفاعية إلى أحمد الرفاعي بن سلطان علي، ويصل أتباعه نسبه إلى موسى الكاظم بن جعفر الصادق إلى علي بن أبي طالب. ولد أحمد الرفاعي في قرية (حسن) بالقرب من أم عبيدة بالعراق 512هـ وتوفي سنة 578هـ ودفن في قرية أم عبيدة.

ما نسب من كرامات للرفاعي:

1- أشهر ما يعرف عنه زعم أتباعه أنه لما حج عام 555هـ ووقف أمام قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، قال هذين البيتين:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبل الأرض عني وهي نائبتي

وهذه دولة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

ويزعم أتباعه أن النبي خرج من قبره ومد له يده من بين حديد شباك القبر فقبلها الرفاعي.. (الطريقة الرفاعية ص133).

2- وينسبون من كراماته أيضاً أنه إذا كان ألقى الدرس سمعه الأصم والسميع، والقريب والبعيد، وأن الله أحيا له الميت، وأقام له المقعدين، وقلب له الأعيان، وصرفه في الخلق (الطريقة الرفاعية ص134). ويذكرون كذلك أن الله أبرد لأتباعه النيران، وأزال لهم فاعلية السموم.. وألان لهم الحديد، وأذل لهم السباع والأفاعي، وأخضع لهم طغاة الجن، وصرفهم في العوالم، وأطلعهم على عجائب الأسرار.

3- دعا الناس إليه وإلى طريقته بطرق شتى؛ من ذلك قوله: "إنكار العبد نعمة من موجبات السلب، أنا من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. إن الله إذا وهب عبده نعمة ما استردها، شكر النعمة معرفة قدرها" (البرهان المؤيد ص28).

وقال أيضاً في بعض مواعظه ودروسه يمدح نفسه ويدعو إلى طريقته: "أي خاصة أي عامة فاض بحر الكرم (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد). أنا مأوى المنقطعين، أنا مأوى كل شاة عرجاء

انقطعت في الطريق. أنا شيخ العواجز أن شـيخ من لا شـيخ لـه فلا يتشيخ الشيطان على رجل من أمة محمد صلى اللـه عليـه وسـلم، عهد مني بالنيابة عن النبي صلى الله عليه وسـلم، عهـداً عامـاً إلى يوم القيامة، العرش قبلة الهمم، والكعبة قبلة الجبـاه، وأحمـد قبلـة القلـوب. قـال لي حبيـبي أنت وجـه لا يخزيـه اللـه في أتباعـه أبـداً (سلام عليك بما صبرتم فنعم عقبى الدار) هات يا منشــد الفتح في حضرة المنجي. قل كيف شـئت مجلس مـأتم ومجلس فـرح (يـولج الليـل في النهـار) (ألا إلى اللــه تسـير الأمـور) (وكفى باللـه وليـاً) عليكم بتقوى الله لا تخرجوا من ساحة التوحيد، ربنـا اللـه لا شـريك له نعم الولي ونعم النصـير والحمـد للـه رب العـالمين" (المجـالس الرفاعية ص112).

ولا يخفى هنا زعمه أن الرسول خاطبه وكلمه (قال لي حبيــبي أنت وجه لا يخزيه الله في أتباعه أبداً).

وقال أيضاً في مقام آخر:

"صحبتنا ترياق مجرب، والبعد سـم قاتـل، أي محجـوب تـزعم أنـك اكتفيت عنا بعلمـك، مـا الفائـدة من علم بلا عمـل، مـا الفائـدة من عمل بلا إخلاص، الإخلاص على حافة طريق الخطـر، من ينهض بـك إلى العمـل. من يـداويك من سـم الريـاء، من يـدلك على الطريـق الأمين بعـد الإخلاص (أهـل الـذكر إن كنتم لا تعلمـون) هكـذا أنبأنـا العليم الخبـير، تظن أنـك من أهـل الـذكر، لـو كنت منهم مـا كنت محجوبـاً عنهم لـو كنت من أهـل الـذكر مـا حـرمت ثمـرات الفكـر، صدك حجابك، قطعك عملك. قال عليه الصلاة والسلام: (اللهم إني أعوذ بكم من علم لا ينفع)، لازم أبوابنا، أي محجوب فإن كل درجـة وآونة تمضي لـك في أبوابنـا درجـة وإنابـة إلى اللـه تعـالى، صـحت إنابتنا إلى الله، قال تعالى: (واتبع سبل من أناب) أيها المتصوف لم هذه البطالة صر صوفياً حتى نقول لك أيها الصوفي" أ.هـ (البرهــان المؤيد ص35).

وكان يقول أيضاً: "أيها البعيد عنا، الممقوت منا ما هذا يـا مسـكين، لو كان لنا فيك مقصد يشـهد بحسـن اسـتعدادك وخـالص حبـك إلى الله وأهله اجتـذبناك إلينـا، وحسـبناك إلينـا. شـئت وإلا.. لكن الحـق يقال: حظك منعك، وعدم اسـتعدادك قطعـك، لـو حسـبناك منـا مـا تباعدت عنا، خذ مني يا أخي علم القلب، خذ مني علم الـذوق، خـذ

مني علم الشوق. أين أنت مني يا أخا الحجاب اكشـف لي قلبـك.." أ.هـ (البرهان المؤيد ص33).

وقال أيضاً في هذا المعنى:

"أقامنا الله أئمة الدعوة بالنيابة عن نبيه صلى الله عليه وسـلم من اقتدى بنا مسلم، ومن أناب إلى الله بنا غنم، الحق يقـال نحن أهـل بيت ما أراد سلبنا سالب إلا سلب، ولا نبح علينـا كلب إلا جـرب، ولا هم على ضـربنا ضـارب إلا ضـرب، ولا تعـالى علينـا حائـط إلا وخرب"!! (البرهان المؤيد ص31).

ومع هذه الأقوال التي كان يـذكر نفسـه فيهـا على هـذا النحـو فقـد نقلت عنه أقوال تناقضها حيث يقول:

"كل الفقراء رجال هـذه الطائفـة خـير مـني، أنـا أحميـد اللاش، أنـا لاش اللاش".. أ.هـ (البرهان المؤيد ص24).

بل يقول ما هو أبلغ من هذا أيضاً:

"أي سادة أنا لسـت بشـيخ، لسـت بمقـدم على هـذا الجمـع لسـت بواعظ، لست بمعلم، حشرت مع فرعون وهامان إن خطـر لي أني شيخ على أحد من خلق الله برحمته فـأكون كأحـد المسـلمين" أ.هـ (البرهان المؤيد ص23).

ويقول أيضاً في مجلس آخر:

"أيش أنا حتى أدعـوك، مـا مثلي إلا كمثـل ناموسـة على الحائـط لا قدر لها، حشرت مع فرعون وهامان وقارون وأخذني ما أخـذهم أن كان خطر لما في سـري أني شـيخ هـذا الجمـع، أو مقـدمهم أو من يحكم عليهم، أو ثبت عندي أني فقير منهم، وكيف تدعوه نفسه إلى ذلـك من هـو لا شـيء، ولا يصـلح لشـيء، ولا يعـد بشـيء" أ.هـ (البرهان المؤيد ص52).

ومع كل هذا التبري من الحول والطول فإن أحمد الرفـاعي ينـاقض نفسه كثيراً حيث يزعم ضد ذلك تماماً فيقول:

"وعدني رسول كرمه أن يأخـذ بيـد مريـدي وحُـبي ومن تمسـك بي وبذريتي وخلفائي في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة عند انقطاع الحيل، بهذا جرت بيعة الروح لا يخلـف اللـه وعـده، لا تصـح المكالمة لمخلوق مع الخالق بعد النبـيين والمرسـلين الـذين كلمهم

سبحانه وحياً أو من وراء حجاب، وإنما وعد إحسانه ينجلي إلى قلوب أوليائه وأحبابه بالرؤيا المنامية، والواسطة المحمدية والإلهام الصحيح الذي لا يخالف ظاهر الشريعة الأحمدية بحال من الأحوال وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء" أ.هـ (البرهان المؤيد ص82،83).

قلت: كيف لا يكون هذا الوعد المزعوم مخالفاً لظاهر الشريعة وقد أخبرنا سبحانه وتعالى أن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام طلب ما هو دون هذا الطلب لذريته فلم يعطه الله تبارك وتعالى حيث يقول الله تعالى: {وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين}.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى لم يرض أن يعطي إبراهيم عهداً بأن يكون كل ذريته صالحين أئمة في الدين من بعده فكيف يعطي الرفاعي مثل هذا العهد المزعوم فانظر قوله: "وعدني رسول كرمه أن يأخذ بيد مريدي ومحبي ومن تمسك به وبذريتي وخلفائه في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة"!!

ثم ما يدريه أن الله قد أعطاه هذا الوعد: يقول الرفاعي إنه بالإلهام والرؤيا المنامية، هل مثل هذا العهد يعطي بإلهام وبرؤيا منامية؟ وما يدريه أنها رؤيا شيطانية.. وإلهام شيطاني.. وكيف تكون غير ذلك والقرآن بضد ذلك.. بل كيف تكون غير ذلك والرجل يزعم أنه ليس بشيخ وأنه يموت ويحشر مع فرعون وهامان وقارون إن قال إنه شيخ على أحد من الناس فأي كلام من كلامه يصدق؟

من أقوال أحمد الرفاعي:

وقد نسب صاحب طبقات الصوفية عبدالوهاب الشعراني طائفة من الأقوال لأحمد الرفاعي فيها أمور كثيرة من الباطل ولم أقرأ في كتب الطريقة الرفاعية المؤلفة ما ينفي هذه الأقوال وهاك بعضاً من هذه الأقوال:

".. الكشف قوة جاذبية بخاصيتها نور عين البصيرة إلى فيض الغيب، فيتصل نورها به اتصال الشعاع بالزجاجة الصافية حال مقابلتها المنبع إلى فيضه، ثم يتقاذف نوره منعكساً بضوئه على صفاء القلب ثم يترقى ساطعاً إلى عالم الفصل فيتصل به اتصالاً معنوياً له أثر في استفاضة نور القلب على ساحة القلب، فيشرق نور العقل على إنسان عين السر، فيرى ما خفي عن الأبصار

موضعه ودق عن الأفهام تصـوره، واسـتتر عن الأغيـار مـرآه".. أ.هـ (طبقات الشعراني ص141،142).

ونقل عنه أيضاً أنه قال:

وكان يقول: إذا صلح القلب صـار مهبـط الـوحي والأسـرار والأنـوار والملائكة، ويقول أيضاً: إذا صلح القلب أخـبرك بمـا وراءك وأمامـك ونبهـك على أمـر لم تكن تعلمهـا بشـيء دونـه".. أ.هــ (طبقـات الشعراني ص141،142).

وهذه نصـوص يـزعم قائلهـا أن الصـوفي يطلـع على حقـائق عينيـة وأسرار وقد بين سابقاً فساد هذا الاعتقاد.

وقال أيضاً: ".. إن العبد إذا تمكن من الأحوال بلغ محل القــرب من اللــه تعـالى وصـارت همتــه خارقــة للســبع السـماوات، وصـارت الأرضون كالخلخال برجله، وصار صفة من صفات الحـق جـل وعلا، لا يعجزه شيء وصار الحق تعالى يرضى لرضاه ويسخط لسـخطه، قال: ويدل لما قلناه ما ورد في بعض الكتب الإلهية يقـول اللـه عـز وجل (يـا بـني آدم أطيعـوني أطعكم، واختـاروني أخـتركم، وارضـوا عــــني أرض عنكم وأحبــــوني أحبكم وراقبــــوني أراقبكم وأجعلكم تقولون لشيء كن فيكون، يا بني آدم من حصلت له حصـل لـه كـل شيء ومن فته فاته كل شيء)" أ.هـ (طبقات الشعراني ص142).

ولا يخفى مـا في هـذا النص من الباطـل لأن العبـد مهمـا بلـغ من منازل القرب مع الله يبقى عبداً محكوماً بسنن الله الكونية مفتقراً إلى الله عز وجل كما كان أحوال الرسل وأولياء الله الصادقين فلم تكن الأرض كالخلخال برجل أحدهم بل كانوا يجوعـون، ويمرضـون، ويتألمون، ويهزمون أحياناً، ويسبون ويشتمون، وقد يتـوب للـه على من يؤذيهم فيكونون مسـلمين، كمـا فعـل اللـه سـبحانه بمن قتلـوا أفضل أوليائه في أحد وقال رسول الله فيهم [كيف يفلح قوم شجو وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى الله عـز وجـل..] فـأنزل اللـه سـبحانه وتعالى قوله {ليس لك من الأمر شـيء أو يتـوب عليهم أو يعـذبهم فإنهم ظالمون} (رواه البخاري).

وأما ما نقله الشعراني هنا عن الرفاعي، وما زعمه أن هذا مكتـوب في بعض الكتب الإلهية فما هذه الكتب الإلهية؟.. ولماذا نهتدي بغير هدي القرآن والسنة وقد نهينا عن ذلـك، وهـل أنـزل اللـه في هـذه الكتب الإلهيـة المزعومـة: وأجعلكم تقولـون للشـيء كن فيكـون..

وماذا بقي لله إذن إذا أصبح كل من أطاع الله إلهاً صـغيراً يتصـرف في الكون كما يتصرف الله.. مـاذا بقي للـه من دون صـفاته.. لقـد سلبوا منه كل صفاته وجعلوها لأنفسهم ولم يرضوا أن يكونوا عبيداً له سبحانه وتعالى كما أمرهم.

ومما يدلك على أن المتصوفة يريدون فعلاً الوصول إلى هذا، أعـني سلب صفات الله عنه وإلباسها لأنفسـهم حـتى يكونـوا عنـد النـاس آلهة من دون الله، ما نقل هنا الشـعراني أيضـاً عن الرفـاعي واللـه يعلم هل هذا النقل صحيح أم لا؟: "إذا أراد الله عز وجـل أن يـرقي العبد إلى مقامات الرجال يكلفه بـأمر نفسـه أولاً، فـإذا أدب نفسـه واستقامت معه كلفه بأهله، فـإذا أحسـن إليهم وأحسـن عشـرتهم، كلفهم بجيرانه وأهل محلته فإن هو أحسن إليهم وداراهم كلفه جهة من البلاد فإن هو داراهم وأحسن عشرتهم، وصلح سريرته مع اللــه كلفـه مـا بين السـماء والأرض، فـإن فيهم خلقـاً لا يعلمـه إلا اللـه تعالى، ثم لا يزال يرتفع من سماء إلى سماء حتى يصـل إلى محـل الغوث، ثم ترتفع صفته إلى أن يصير صفة من صفات الحـق تبـارك وتعالى، وأطلعه على غيبه حتى لا تنبت شجرة، ولا تخضـر ورقـة إلا بنظره وهناك يتكلم عن الله تعالى بكلام لا يسـعه عقـول الخلائـق" (طبقات الشعراني ص143) أ.هـ.

قلت: فانظر كيف سيرتقي الصوفي إلى أن يكلفه الله أمـر خلائـق بين السماء والأرض. ولست أدري ماذا سـيكلفه اللـه هنـاك.. ولكن صاحب هذا القول يزعم أنه سيكون صفة من صفات الحـق والحـق هنا يعني الله سبحانه وتعالى، يطلع على غيب الله فلا تنبت شجرة، ولا تخضـر ورقـة إلا بنظـره.. باختصـار يأخـذ مكـان اللـه سـبحانه وتعالى، (راجع مراتب الأولياء في الفصل الخاص بذلك).

وهكذا يجعل الصـوفية غـوثهم المزعـوم هـو القـائم في مقـام اللـه يتصرف في هذا الكون أعلاه وأسفله فانظر الغاية التي يريد رجـال التصوف أن يوصـلوا النـاس إليهـا إنهـا باختصـار صـرف النـاس عن عبادة الواحد القهار إلى عبادة من يبولون ويتغوطون ويهرفون بمـا لا يعرفـون، ويسـتمدون علـومهم من الجن والشـياطين، ويزعمـون للناس أنها وحي من رب العالمين.

وعلى كل حال فتحقيقاً لهذه الأقوال أعني أن الولي قد يكلف بـأمر الخلائق فإن الشعراني يزعم أيضاً أن الله قد كلف أحمـد الرفـاعي بالنظر في أمر الدواب والحيوانات.. ولذلك كـان ينهي أصـحابه عن

قتل القمل فقد رأى بعض مريديه يقتل قملـة فقـال لـه: لا وأخـذك الله شفيت غيظك بقتل قملة..

وكذلك زعمـوا أن الرفـاعي كـان إذا لقي الكلاب والخنـازير بـدأهن بالسلام وكان يقول لهن أحياناً: أنعمـوا صـباحاً (طبقـات الشـعراني ص143).. أ.هـ.

وهكذا يظهر أثر التكليف الإلهي المزعوم برعايته الحيوانات فتكـون النهاية عن قتل القمل، وإلقاء السلام على الخنازير والكلاب..

قلت: ليس عندي ما أقوله في هذا المقامإلا أن أقـول إنـا للـه وإنـا إليه راجعون. التحية التي جعلها اللـه خاصـة بالمسـلم فقـط وحـرم الرسول إلقاءها إلا على مسلم ونهى بدء اليهود والنصارى بها علماً أنهم آدميون وقد يهتدون في مستقبل أيامهم هذه التحية التي قـال فيها {فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة} هانت على رجال التصوف فأعطوها هدية للكلاب والخنازير..

أرأيت إلى المستنقع الذي يريد رجـال التصـوف إغـراق المسـلمين فيه.. ومع هذا كلـه فقـد زعم الشـعراني أيضـاً أن الشـيخ الرفـاعي كان إذا تجلى الحق تعالى عليه بالتعظيم يذوب الرفاعي حتى يكون بقعـة مـاء ثم يتداركـه اللطـف فيجمـد شـيئاً فشـيئاً حـتى يـرد إلى جسمه المعتاد (طبقات الشعراني ص143).

الشعائر الخاصة للطريقة الرفاعية:

وللطريقة الرفاعية مشاعر خاصة كشأن كل الطرق الصوفية وإليك أهم هذه الشعائر والعقائد..

1- من أهم ما يميز الطريقة الرفاعية هو التتلمذ لكـل شـيخ، بنقـل الشعراني أيضاً عن الرفاعي أنه قال:

"من تمشيخ عليكم فتتلمذوا له، فإن مـد يـده لكم لتقبلوهـا فقبلـوا رجله.. ومن تقدم عليكم فقـدموه وكونـوا آخـر شـعرة في الـذنب، فإن الضربة الأولى تقع في الرأس" (الطبقات الكبرى ص141).

2- تبنت الطريقة مذهب التفويض في الأسماء والصفات زاعمة أنه مذهب السلف، ولكن الرفاعيين مـع ذلـك يخـالفون ذلـك ويؤولـون تأويل الأشاعرة فيزعمون أن الله لا يوصف بفوقية أو سفلية وليس في جهـة من الجهـات، ولا يثبتـون مـا أثبتـه اللـه لنفسـه، وكـذلك يقولون بوجوب القليد الفقهي.. (الطريقة الرفاعية ص42).

3- ويجعلون السماع والمواجيد والتواجد من الصراخ وغيره مما درج عليه أهل التصوف ديناً ويكفرون من يقول ببدعية ذلك أو يعيبه. قالوا "وإن من أنكر ذلك فقد كفر، لأنه عاب خيراً أمر الله به، ومن عاب ما أمر الله به فهو كافر" (الطريقة الرفاعية ص 64،78).

4- أنكر أحمد الرفاعي ما قاله الحلاج ونفى أن يكون ولياً أو واصلاً حيث قال: "أي سادة تفرقت الطوائف شيعاً، وأحميد (يعني نفسه) بقي مع أهل الذل والانكسار والمسكنة والاضطرار، إياكم والكذب على الله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً). ينقلون عن الحلاج أنه قال: أنا الحق. أخطأ بوهمه، لو كان على الحق ما قال أنا الحق، يذكرون له شعراً يوهم الوحدة كل ذلك ومثله باطل، ما رآه رجلاً واصلاً أبداً، ما أراه شرب، ما أراه حضر، ما أراه سمع إلا رنة وطنيناً، فأخذهم الوهم من حال إلى حال، وما زاد قرباً ولم يزدد خوفاً فهو ممكور. إياكم والقول بهذه الأقاويل إن هي إلا أباطيل".. أ.هـ (البرهان المؤيد ص26).

وهذه أقوال صريحة في رفض أقوال الحلاج الكفرية، والتمسك بالحق والحكم على قائلها بما حكم به أهل الإسلام جميعاً في عصره أنه كافر زنديق وأنه يستحق القتل والصلب الذي وقع له.

ويستطرد الرفاعي أيضاً مبيناً أن حال الأولياء الصادقين لا تكون كحال فرعون الذي قال أنا ربكم الأعلى.. وليست كذلك كحال نمرود الذي قال (أنا أحيي وأميت) فيقول:

"درج السلف على الحدود بلا تجاوز. بالله عليكم هل يتجاوز الحد إلا الجاهل وهل يدوس عنوة في الجب إلا الأعمى! ما هذا التطاول وذلك التطاول ساقط بالجوع. ساقط بالعطش. ساقط بالنوم. ساقط بالوجع. ساقط بالفاقة. ساقط بالهرم. ساقط بالعناء. أين هذا التطاول من صدمة صوت (لمن الملك اليوم). العبد متى تجاوز حده مع إخوانه يعد في الحضرة ناقصاً. التجاوز علم نقص ينشر على رأس صاحبه. يشهد عليه بالغفلة. يشهد عليه بالزهو. يشهد عليه بالحجاب. يتحدث القوم بالنعم لكن مع ملاحظة الحدود الشرعية. الحقوق الإلهية تطلبهم في كل قول وفعل. الولاية ليست بفرعونية. ولا بنمرودية قال فرعون أنا ربكم الأعلى. وقال قائد الأولياء وسيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم (لست بملك) نزع ثوب التعالي والإمرة والفوقية. كيف يتجرأ على ذلك العارفون: والله

يقول {وامتـازوا اليـوم أيهـا المجرمـون} وصـف الافتقـار إلى اللـه وصف المؤمنين. قال تعالى {يا أيهـا الـذين آمنـوا أنتم الفقـراء إلى الله} هذا الذي أقوله علم القـوم. تعلمـوا هـذا العلم. فـإن جـذبات الرحمن في هذا الزمان قلت. اصـرفوا الشـكوى إلى اللـه في كـل أمـر. العاقـل لا يشـكو لا إلى ملـك ولا إلى سـلطان. العاقـل كـل أعماله لله" أ.هـ (البرهان المؤيد ص26).

وهـذا كلام جيـد جيـداً في رفض دعـاوي الصـوفية وشـطحهم ولكن أتباعه اليوم يخالفون هذا تماماً فيترضون على ابن عربي ومن على شاكلته ويطبعون أقوال هؤلاء جنباً إلى جنب مـع أقـوال الرفـاعي.. ويعتذرون عما قاله الحلاج وغيره أنه من الشطح ولا يصـرحون بمـا صرح لنا في إبعاد قائل هذه الأقـوال من الـدين. وبـذلك يتناقضـون على عاداتهم في قـولهم أحيانـاً في رفض الـدعوى والشـطح، وفي نشرهم لهذه الدعاوي وترضيهم على فاعليها.

5- ومن المشـــاعر الخاصـــة بالطريقـــة الرفاعيـــة أيضـــاً الخلـــوة الأسـبوعية السـنوية وتبـدأ عنـدهم في اليـوم الحـادي عشـر من المحرم كل عام، ومن شروطها أن لا يأكل المريـد طعامـاً أخـذ من ذي روح، ويذكر المريد في اليوم الأول لا إلـه إلا اللـه بعـدد معلـوم واليـوم الثـاني اللـه اللـه، والثـالث وهـاب وهـاب، والرابـع حي حي والخامس مجيد مجيد.. والسادس معطي معطي.. والسابع قـدوس قدوس، وكل ذلك بعدد معلـوم، وكـذلك أن يقـول المريـد بعـد كـل صلاة من صلوات هذا الأسبوع (اللهم صل على سيدنا محمـد النـبي الأمي الطاهر الـزكي وعلى آلـه وصـحبه وسـلم) يقـول ذلـك مائـة مرة،وزعموا أن لهذه الخلوة فتوحات محمدية، وعنايـات أحمديـة لا تحصى وأن من فعلها شاهد من البراهين العظيمـة وكـأن لـه شـأن عظيم (الطريقة الرفاعية ص115).

* ولا يخف أن هذه الخلوة في هذا الوقت المخصوص بدعـة ضـلالة وكل بدعة في النار كما قال صـلى اللـه عليـه وسـلم وأنهـا تشـريع جديد لم يأذن به الله ولا رسوله، وأن فيها مشـابه لصـيام النصـارى الـذين يصـومون عن ذوات الأرواح، وأن فيهـا تقربـاً من الرافضـة حيث يخصـص الحـادي عشـر من محـرم من كـل عـام بـذلك حيث تنتهي مشاعر الرافضة الخاصة ليدخل مشاعر الرفاعية ولعـل ذلـك السبب في قولهم إن الرفاعي تأتي منزلته بعد الأئمة الاثـني عشـر مباشرة (الطريقة الرفاعية ص127).

وأما تخصيصهم كل يوم بذكر خـاص فهـو بدعـة، وأمـا ذكـرهم اللـه بالاسم المفرد فقط الله، حي، مجيد فبدعـة عظيمـة ولم يـرد ذكـر الله بالاسم المفرد مطلقاً.. بل لا يذكر الله إلا بجملة مفيدة نحو (لا إله إلا الله) فهي جملة (وسبحان الله، والحمد للـه، واللـه أكـبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله)، ونحو ذلك فكلها جمل تفيـد معـنى تعظيمـاً، فكل من ذكـر اللـه باسـم فـرد من أسـمائه فهـو مبتـدع، ولـذلك لا يستغرب على هـؤلاء المبتدعـة أن يـروا في خلـواتهم هـذه النـيران الشيطانية التي يحسبونها أنواراً ملائكية رحمانية وما هي كـذلك لأن اللـه لا يشـرق نـوره إلا في قلـوب الصـالحين المتبعين للحـق من عباده.

6- ومن مشـاعر الطريقـة الخاصـة أيضـاً جـواز المحاضـرة وربـط الروح بأرواح من شاء استحضار روحه من كافر ومسـلم (الطريقـة الرفاعيـة ص120) وكـذلك من مشـاعرهم مـا يسـمى بالاستفاضـة وهي ربـط قلب المريـد بقلب الشـيخ طلبـاً لإفاضـة العلم البـاطني إليه، وهذه بدعة صوفية معلومـة. ففي التربيـة الصـوفية يطلب من المريد أن يستحضر روح شـيخه عنـد الـذكر ويتمثلـه أمامـه ويطلب من شيخه أن يربط روحه بروح الرسول الـذي يزعمـون أنـه يفيض العلوم والأسرار على قلوب شيوخ الصوفية. والحق أن هذه العملية عملية شيطانية لأن المريد الذي يغيب عقلـه بالـذكر المبتـدع الـذي يذكره آلاف المرات وعشرات الآلاف حتى يكل عقلـه ودماغـه وهـو في كل ذلك يحاول استحضار صورة شيخه أمامـه، وقـد يكـون هـذا في ظلام دامس فإن هذا هو الوقت المناسب ليدخل الشيطان إليه زاعماً أنـه هـو شـيخه وأنـه يـراه الآن، وأنـه يربـط الآن قلبـه بقلب الرسول ليفيض عليه العلوم والأسرار الإلهية، ويبدأ الشـيطان يلقي في قلوب هؤلاء وساوسـه الإبليسـية فيـوهم الواحـد منهم أنـه الآن صاعد إلى السماء، وأن هذا هو عرش الله، وهـذا هـو كرسـيه هـذه هي الأرض، وأن قد أصبحت الحـبيب والعظيم وصـاحب الهمـة ومـا إلى ذلك من هذا النفح الشيطاني حـتى يتصـور المسـكين فعلاً أنـه وصل إلى مكان القرب من الله، وأن السماوات قد أصـبحت طـوع أمره، والأرض أصـبحت كالخلخـال برجلـه، وأنـه يسـتطيع أن يقـول للشيء كن فيكون.. وهكذا يكون المريد الذي دخـل الخلـوة، وذكـر هذه الأذكار المبتدعة، وقطع نفسـه بـالظلام على هـذا النحـو يعـود بنفس أخرى وحال أخرى غير الحال التي دخل بها.

وهذا سر قولهم إن لهذه الخلوة أسراراً وبراهين عظيمة، ولو علموا أنهم يربطون قلوبهم بالشياطين لعرفوا الحق المبين وأنهم نهوا عن سلوك الطرق المعوجة لأنه لا توصل إلا إلى الهاوية والضلال المبين.

7- وقد جعل الرفاعية الفضيلة العظمى والشرف الأسمى لهم على سائر الفرق ببركة الرفاعي فإن الله قد أبرد لأتباعه النيران، وأزال لهم فاعلية السموم، وألان لهم الحديد، وأذل لهم السباع والحيات والأفاعي، وأخضع لهم طغاة الجن (الطريقة الرفاعية ص 134). ولذلك فإنهم في موالدهم ومؤتمراتهم العامة يأتون بمن يشعل النار ويدخلها إلى فمه، ومن ينفخ ناراً من فمه على هيئة التنين.. ومن يحمل الأفاعي ويلعب بها، ونحو ذلك من الشعبذات والخزعبلات التي لا يكاد يخلو منها قوم من أقوام أهل الشرك كالهنادك والفرس، وغيرهم (اقرأ الفصل الخاص بمناظرة ابن تيمية للبطائحية الرفاعية).

الرفاعية في طور جديد:

في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري تزعم الطريقة الرفاعية رجل يسمى محمد مهدي الصيادي الرفاعي، الذي رفع نفسه إلى مرتبة الغوثية الكبرى، ودعا الناس إلى طريقته واقتفاء أثره، وزعم أنه سالك سبيل جده مؤسس الطريقة الرفاعية، ولكنه جاء بما لم يسبقه أحد من الدعاوي في علو منزلته، والحق أنني لم أجد أجرأ منه على مدح نفسه وكذبه فيما نسبه إلى الله ورسوله من تعظيم نفسه إلا أحمد التجاني وابن عربي، وإليك بعضاً من نصوصه في هذا الصدد..

1- الدرة البيضاء:

ألف كراسة صغيرة سماها (الدرة البيضاء) ملأها بالجهل والغباء، وبدأها للأسف بقوله "أمرني بكتابتها وإذاعتها حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم" (المجموعة النادرة ص8) وزعم في هذه الرسالة أن الله خلق الرسول من نوره (المجموعة النادرة ص15) فأشرك بالله سبحانه وتعالى. وأن على المسلم أن يشفق على الخلق كلهم فخالف أمر الله القائل {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم} ومن جملة مزاعمه في هذه الكراسة دعوة الناس إلى الاستمداد وطلب الإغاثة والإعانة من الأنبياء

والأولياء (المجموعة النادرة ص18) فـدعا بـذلك إلى الشـرك باللـه سبحانه وتعالى، ودعا إلى العمل بأي رأي فقهي لأن اختلاف الأئمــة رحمة (المجموعة النادرة ص23) ودافع عن ابن عربي واصـفاً إيـاه بأنــه العــارف الشــيخ محــيي الــدين ابن عــربي طيب اللــه ثــراه (المجموعــة النــادرة ص26). وزعم أن آل الرســول من أجزائــه النورانية (المجموعة النـادرة ص26) وبالتـالي فهم أجـزاء من اللـه حسب زعمه أن الرسـول مخلـوق من نـور اللـه.. وقسـم في هـذه الرسالة الأولياء فجعـل منهم المجـاذيب وأهـل الشـطح والأمـيين.. وجعل نفسه في آخر هذه الكراسـة أفضـل الأوليـاء في زمنـه على الإطلاق حيث يقول عن نفسه: "الاختصـاص رحمـة من اللـه تعـالى للعبد لا بسعي ولا بعمل ولا برأي، ولا بِجَعْلٍ يختص الله برحمته من يشاء واللـه ذو الفضـل العظيم: هـو عطـاءٍ ربـاني، ومنح صـمداني، وفضل أسبغ في القدم، قبل أن تتعين النسم، والعناية قسم، فأهـل الاختصاص جـذبتهم يـد المشـيئة الربانيـة، بمحض الفضـل والعنايـة الصمدانية، إلى أقصى المراتب العلية وهـذا المنح البـاهر، والفضـل الوافر، هو اليوم حصـتي، ومنصـته منصـتي، أقـامني اللـه في هـذه المنزلة إماماً، واختارني لرتبة هـذه الخصوصـية ختامـاً، وكشـف لي مخبـآت الغيب بــاطلاع من كرمــه، وجليــل نعمــه، ففهمت أســرار الرموز الفرقانية وسبرت خفايا دقائق البطـون القرآنيـة، ولم تـبرح تترقى همتي بكشف تلك الحجب اللطيفة، وبشـق ديباجـات هاتيـك المحاضر الشريفة، فأنا اليوم ولربي الحمد والشكر، ولـه الإحسـان والبر، كنز الفيوضات الطاهرة المحمدية، وسجل العلـوم المقدسـة النبوية، وهذه النوبة نوبتي، تتقلب في وراث منزلتي، وخدام قـدمي إلى ما شاء الله، بهذا بشـرت من صـاحب الوعـد الصـادق، وقرأتـه في صحف الرموزات العلوية التي طفحت بدقائق الحقائق، سينشر علم ظهور حالي بعد هذا الخفاء في الأكـوان ويـبرز بـروز الشـمس من بطن ليل الطمس للعيان، وتعكف على بـابي القلـوب والأرواح، ويسري سر إرشادي في الجبال والأودية والبطــاح ولم يمس شــأن نهجي المبارك غبار دنيوي، ولم يرجع منه حرف إلى قصـد نفسـاني بل كله لله" (المجموعة النادرة ص37) أ.هـ.

وبعد أن مدح نفسه بكل ما اسـتطاع من نعـوت يقـول: "جـاءت لي بــذلك البشــرى المحمديــة الصــحيحة والعنايــة النبويــة الصــريحة بوساطة روح سـلطان الأوليـاء وزعيمهم وسـيد منصـتهم وكـريمهم

مولانا السيد أحمد الرفاعي الحسيني" أ.هـ منه بلفظـه (المجموعـة النادرة ص37).

2- برقمة البلبل.

وتكاد تكون كل الوسائل التي ألفها هذا الصـياد الرفـاعي على هـذا النحو ولكن في رسالة أخرى سماها (برقمة البلبل) أتى فيها بما لم يسبقه به أحد من الكذب، ولا أظن أن لاحقاً يستطيع مجاراته أيضـاً في مثل هذا الكذب السـمج حيث يقـول في أول رسـالته هـذه أنـه كان في سنة 1252هـ في مكة المكرمة في بيت الله الحرام، وأنه سمع بلبلاً يتكلم مع بلبل آخر وعلى حد تعبيره (يبرقم) بلغـة فهمهـا لأنه زعم أن رجلاً من رجال الغيب كان قد علمه لغة البلابل، فـزعم أن أحـد البلبلين كـان يتكلم مـع صـديقه فـأخبره أن أولاد آدم كلهم مكرمون، وجميعهم مرحومون وأنـه لا يجـوز أن نحتقـر ذرة واحـدة منهم، وأن منهم أيضاً أولياء عارفين، وأن من هـؤلاء الأوليـاء قسـم يتصرفون في العالم؛ ومن جملة مـا يتصـرفون فيـه الطـير فيقـول البلبل لصـديقه (ومنهم المتصـرفون في وفيـك وفي عـالم الأكـوان والنائبون بإذن الله عن نبي الرحمن) ثم يستطرد الصيادي الرفاعي في هذيانه الصوفي فـيزعم أن أحـد البلابـل قـال لصـديقه: إن هـذا الرجل الملتحف بكسائه الرث المستقبل الكعبة (يعـني نفسـه) هـو من آل الرسول وقد فهم لغتنا وعرف ما قلناه وهـو نـائب الرسـول الآن في هذا الوقت، وهو عالم الزمان وشيخ الأوان.. فقـال البلبـل الآخر إذن تعال نتبرك به ونقبل قدميه..

ويسـتطرد الصـيادي الرفـاعي قـائلاً إن البلبلين جـاءا إليـه، وعكفـا عليه، وسألاه الدعاء، وأنهما أخبراه بعد ذلك أنه إمام الـدين، وسـيد الأولياء وإن نوره لا يعدله نور، وإن مدده سـيعم الأمصـار والأقطـار حيث تشب قلوب الحاسدين له بنار، وتنفلت عليه ألسنة الجاحـدين (كذا..)..

ويستطرد الصيادي قائلاً بأن البلبلين أخبراه أن الله قد كتب صحيفة منزلته ووضعها فوق مقام إبراهيم فقـام الصـيادي من فـوره وأخـذ الصحيفة وفرح بما وجد فيها حسب زعمه من إطناب الله في الثناء عليه، ومدحه له وتبشيره إيـاه بظهـور طريقتـه وعلـو شـأنه. يقـول الصيادي هذا:

"وقد طبت بالله تعالى حين قرأت ما في الصحيفة المباركة بشأني، وبشأن ظهور أمر طريقي، وكدت أطير سروراً لما امتن الله تعالى علي به من إطناب في الألقاب فيها ما نصه بلفظه: هذا غريب الغرباء أبو البراهين، وأحد آل طه ويس. خلف الأئمة الهادين. بقية أعيان العترة الطاهرين، سيف الرسالة المسلول على أهل الضلالة. المجدد الأكمل. الأشعث الأغبر. سنجنجل الحكمة والفراسة المحمدية. رافع ألوية الشريعة الطاهرة الأحمدية. باني مباني أحكام الطريقة المرضية الرفاعية. شيخ الأئمة. نور المدد المصطفوي الذي سيتجلى به الظلمة. الرفاعي الثاني. الإمام الأوحد الرباني. طلسم البرهان المحمدي الذي لا يدافع. معنى ناطقة البيان النبوي الذي لا ينازع. بحر الفتح. هادم الدعوى والشطح. الفتى ابن الفتى. محمد مهدي بهاء الدين. باب النبي صلى الله عليه وسلم في العصر. وجه علي في الدهر. الفقير الغني. الضعيف القوي. الخفي الظاهر. العاجز القادر. شمس الإفاضة المصطفوية للذرات كلها من التحق بها سلم ومن أبغضه عن جحد أو حسد ندم ومن آذى نوابه وأحبابه لم يقم. ولو التفت عليه المحافل، وسارت لأمره الكتائب، وصفت له الصفوف، ومرت لديه من قناطير الذهب المقنطرة الألوف. هذه آيه الله المخبأة في دفتر الغيب ينتفع بقراءة فحواها، والاندماج في ظل معناها، كل من لله في عناية، يصل به الله ويقطع، ويعطي ويمنع، ويرفع ويضع، هذا الزاهد الواجد، الآبد الماجد، هذا بركة الله في الكون. هذا الممهد هذا الموطد. هذا القائم لله، ولإعلاء كلمة الله، ولخدمة رسول الله، لا لغرض من أغراض الأكوان، ولا لعلو، ولا لغلو، ولا لتقدم، ولا لترفع، ولا لعظمة نفسانية، بل هو بحر مطمطم رباني، وكنز مطلسم سبحاني، أفيض له مددنا بواسطه (كذا والصواب: بوساطة)، جده سر الوجود وبارقة النظم الأول في كيانتي النسقين الطموس والشهود (محمد) صلى الله عليه وسلم هذا سيد عشاق رسول الله، وسيد محابيب الله اليوم في ملك الله عليه سلام الله ورضوان الله. وهناك غبت عني، وأخذت مني، وذبت معنى، وترقرقت مهنى، وانطمست بوجودي وظهرت بمجدي" انتهى منه بلفظه (برقة البلبل من المجموعة النادرة ص 77-79).

ولا يكتفي الصيادي بهذا الكذب الأبلج على الله سبحانه وتعالى فإن الله لم يخاطب أحداً بمثل هذا الخطاب المزعوم، فخطاب الله

لصفوة أوليائه وهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يكن فيـه عشر معشار هذا المدح بل كـان عامتـه تأديبـاً وعتابـاً؛ كمثـل قولـه لنوح: {يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسـئلن مـا ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين} وذلـك لمجـرد قول نوح: {رب إن ابني من أهلي} وكذلك قوله لإبراهيم: {لا ينـال عهدي الظالمين} عندما طلب إبـراهيم أن يكـون من ذريتـه أئمـة.. وقوله لمحمد صلى اللـه عليـه وسـلم: {إنـك لا تهـدي من أحببت} وقوله سبحانه وتعالى: {ليس لك من الأمـر شـيء} وقولـه: {عفـا الله عنك لم أذنت لهم} وقولـه: {عبس وتـولىّ} وقولـه: {وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه} هذا بعض من خطـاب اللـه في قرآنـه لرسـله فـانظر كيـف يـزعم هـذا الصيادي أن الله كتب في صحيفة له "هذا أبو البراهين، هـذا سـيف الرسالة المسلول على أهل الضلالة.. هذا الإمـام الأوحـد الربـاني.. بـاني مبـاني الطريقـة المرضـية الرفاعيـة.. هـذا شـمس الإفاضـة المصطفوية للذرات كلها.."..الخ، هذا الكفر والضلال وهـذا الكـذب الصريح.. ومثل هذا لو كان يسمى باللغة تجـوزاً مـدحاً فـإن أسـقط الساقطين يـنزه أن يمـدح غـيره بمثـل هـذا الكلام فلـو أن شـاعراً متملقاً كاذباً قام يمدح رجلاً بمثل هذه الأوصاف لاسـتحق السـقوط واللعنـة، ولـرمي بـالتزلف والجهالـة والمبالغـة الممقوتـة، ورفـع الإنسان الحقير عن مكانته. فكيف يسوغ أن ينسب مثل هـذا الكلام الحقير الذي يقع في آخـر سـلم المـدح الممجـوج فينسـب إلى رب العباد سبحانه وتعالى؟ أيليق أن ينسب مثل هذا التزلف الحقير للـه جل وعلا..؟

ولا يكتفي الصـيادي بالكـذب المكشـوف هـذا على رب العـالمين فيكمل بعد ذلك كذبه على سيد المرسلين صـلى اللـه عليـه وسـلم فيقول أنه بعد أن قرأ هذه الرسالة (الربانية) التي كانت فوق مقام إبراهيم انجلى له مظهر الرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم ثم نـاداه قائلاً:

"قد ملأناك علماً وفهمـاً ومـدداً وقـدره بهـاء وعرفانـاً ونـوراً وحظـاً كبيراً، ورفعنا لـك منـبراً لا يسـقط، ووهبنـاك ناطقـة تتـدرج كتـائب مددها في الأكوان فلا تسكت إلى يوم الدين، أنت هو القبول عندنا، المؤيد بنورنا، المبـارك بعلمنـا، المنصـور بمـددنا، نـوالي من والاك، ونعادي من عاداك، ونصون بعون الله من حاماك، يرفـع علمـك من أفلاذ بيتنا حبيب لنا فأعـد عليـه نظـر حنانـك، وعلمـه رقرقـة قلبـك

وناطقة لسانك، ولا توافق أهل البدعة، ولا تلايم أرباب الـدعوى، ولا تجنح بالقلب ولا باللسان إلى القول بالوحـدة المطلقـة، ولا تتعمـق بالكلام على الذات والصفات، ولا تعمل الفكر في المتشابهات، خـذ ما أخذ أجدادك الآل الطاهرين، وسـر سـير الصـحابة، واتبـع منـاهج السلف، ووافـق إمامـاً ترتضـيه من أئمـة المـذاهب المتبعـة اليـوم، فالأربعة على حق ولا تقلد غـير نبيـك، وتحقـق بـالحب للـه ولكتابـه ولرسوله، ولا تشق العصا، ولا تجمع القلوب عليك بل اجمعهـا على اللـه، وعلى شـريعة نبيـك، وعليـك بمشـرب جـدك السـيد أحمـد الرفاعي، واثبت على طريقته فإنها الطريقة المحمدية الحقة..

واعلم أنك اليوم خاتمة الصديقين وشيخ الطريقة القويمة المحمدية ثم الأحمديـة.. وأنت سـيد الآل فمن دونهم وصـل علي وسـلم" أ.هـ منه بلفظه (البرقمة ص83).

ويزعم الصيادي أنـه بعـد أن سـمع خطـاب الرسـول هـذا غـاب عن نفسه ستة أشهر كاملة، لا يصـحو إلا أوقـات الفـروض فقـط، وأنـه شكر الله بعد ذلك إذ جاءته هذه النعمة الكبرى على يد طير صـغير (برقمـة البلبـل ص82).. فـانظر إلى هـذا الإسـناد العجيب "حـدثنا الصيادي حدثنا البلبل قال اللـه تعـالى.." فـأين نضـع هـذا البلبـل يـا علماء الحديث وعلماء الأصول.. هـل هـو عـدل ضـابط، وهـل الـذي يحدث عن بلبل أيضاً يكون عـدلاً ضـابطاً.. وليتهم لم يقحمـوا اسـم الله واسم رسـوله في هـذه الخرافـات الممقوتـة والمـدح الكـاذب لأنفسهم! وليتهم إذا أرادوا هذا العلو في الأرض وأكل أموال الناس بالباطل سلكوا غير هذا السبيل! فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حـول ولا قوة إلا بالله العظيم.

الطريقة الرفاعية والتشيع:

تلتقي الطريقة الرفاعية مع التشيع في أمور كثيرة أهمها ما يلي:

1- جعـل أحمـد الرفـاعي في المنزلـة بعـد الأئمـة الاثـني عشـرة مباشرة:

بالرغم من أن الرفاعية ينسبون إمامهم أحمد الرفاعي إلى أنـه من أولاد إبراهيم بن موسى الكاظمي بن جعفـر الصـادق بن محمـد بن الباقر بن زين العابـدين علي بن الحسـين بن علي رضـي اللـه عنـه (الطريقـة الرفاعيـة ص129)، إلا أن الغـريب حقـاً أنهم يجعلـون منزلته بعد منزلة الأئمة الاثني عشـر مباشـرة، وهـذا لا شـك مبـني

على قول الإمامية في أن الأئمة الاثني عشر هم وُرَّاثُ الـدين، وأن إماميتهم بالنص، وجعل أحمد الرفاعي آتيـاً في المنزلـة بعـد الإمـام الثاني عشر الذي يـزعم الشـيعة أنـه ابن سـنتين أو ثلاث أو خمس على خلاف بينهم وأنه دخل السرداب في سامراء سنة 206هـ وأنه مهدي آخر الزمان، وأنه سيخرج ليملأ الدنيا عدلاً.. لا شـك أن قـول الرفاعية في أحمد الرفاعي اعتراف منهم بهذه العقيدة التي يعتقـد أهل السنة أنها من المفتريات والمكذوبات وأن الحسـن العسـكري لم ينجب أحداً، وأن هذا المهدي لا وجود له.

يقول الأستاذ محمد فهد الشقفة صاحب كتاب التصـوف بين الحـق والخلـق: "لـدى تصـفحي مواضـيع كتـاب بـوارق الحقـائق للـرواس وجدت نقاطاً تحتاج إلى بيان شاف -إن كان لها بيـان شـاف-.. وقـد علقت عليه بملاحظات". ثم ذكر المؤلـف من هـذه الملاحظـات مـا يلي:

"الأولى -يذكر ناشر هـذا الكتـاب ومحققـه في ذيـل صـحيفة 141-142 ناقلاً عن (روضة العرفان) لمؤلفها السـيد محمـود أبـو الهـدى خليفة الرواس قال فيها: (الأئمة الاثنا عشر) رضي الله تعالى عنهم أئمة آل بيت الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، تشمل إمـامتهم كثـيراً من المعـاني اختلـف فيهـا الفـرق- ثم بعـد أن يـذكر رأيين لفرقـتين من الشـيعة الاثـني عشـرية من هـؤلاء الأئمـة، يقـول: وأشرف المذاهب فيهم، مذهب أهل الحق من رجال الله العـارفين فإنهم يقولون: إن الأئمة الاثني عشر، هم أئمـة العـترة فكـل واحـد منهم إمـام لآل في زمانـه، وصـاحب مرتبـة الغوثيـة المعـبر عنهـا بالقطبيـة الكـبرى، وهم : 1- سـيدنا أمـير المؤمـنين (علي بن أبي طالب) كرم الله وجهه، 2- والإمام الجليل ولده أبو محمد(الحسن)، 3- والإمام الشهيد (الحسين)، 4- والإمـام زين العابـدين (علي)، 5- والإمـام (محمـد البـاقر)، 6- والإمـام (جعفـر الصـادق)، 7- والإمـام (موسـى الكـاظم)، 8- والإمـام (علي الرضـا)، 9- والإمـام محمـد (الجـواد)، 10- والإمـام (علي الهـادي)، 11- والإمـام (الحسـن العسكري)، 12- والإمام (محمـد المهـدي) المنتظـر الحجـة، رضـي الله عنهم جميعاً.

الثانية- ويـذكر أيضـاً عن (روضـة العرفـان) بعـد مـا تقـدم في ذيـل الصحيفة 142 تحت عنوان (تحفـة): أن بعض الأجلاء رأي الرسـول عليه الصـلاة والسـلام في المنـام وسـأله عن الإمـام السـيد أحمـد

الرفاعي رضي الله عنه، فقال له عليه الصلاة والسلام: هو ثالث عشر أئمة الهدي من أهل بيتي.

الثالثة- ويذكر الرواس في صحيفة 212 من هذا الكتاب (بوارق الحقائق) أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال له: تمسك بولدي (أحمد الرفاعي) تصل إلى الله فهو سيد أولياء أمتي بعد أولياء القرون الثلاثة وأعظمهم منزلة، ولا يجيء مثله إلى يوم القيامة غير سميك (المهدي) بن العسكري" أ.هـ (التصوف بين الحق والخلق ص196).

وهذه الملاحظات التي أوردها محمد فهد الشقفة نقلاً من كتاب بوارق الحقائق للرواس الرفاعي لا تحتاج إلى مزيد شرح وإيضاح أن العقيدة الرفاعية هي عين العقيدة الشيعية الإمامية حول الأئمة عموماً والإمام الغائب خصوصاً. وإن كان الصيادي قد زعم تارة أن أحمد الرفاعي يأتي في المنزلة بعد المهدي الغائب، وتارة يجعله مساوياً له..

2- إسناد الطريقة الرفاعية عن الإمام الغائب مهدي الشيعة المنتظر:

وقد جعل محمد الصيادي الرفاعي المتوفي سنة 1327هـ 1909م والذي يسمونه مجدد الطريقة الرفاعية، والرفاعي الثاني، أحد أسانيده المزعومة في الطريقة إلى المهدي الغائب منتظر الشيعة حيث يقول:

"لي أربعة أسانيد في المصافحة الأول عن ابن عمي السيد إبراهيم الرفاعي المفتي وسنده في المصافحة سنده في الإجازة إلى الإمام الأكبر سلطان الأولياء مولانا السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنه وهو صافح جده يوم مد اليد والقصة أشهر من أن تذكر. والثاني عن ابن عمي وشيخي السيد عبدالله الراوي الرفاعي وسنده أيضاً سند إجازته وهو يتصل بالإمام الكبير الرفاعي رضي الله عنه وعنا به وهو قد صافح جده عليه الصلاة والسلام. والثالث عن حجة الله الإمام المهدي ابن الإمام العسكري رضوان الله وسلامه عليهما في طيبة الطيبة تجاه المرقد الأشرف المصطفوي وقال صافحت رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا لي بخير. قال شيخنا (رضي الله عنه) ثم دعا لي الإمام المهدي رضوان الله عليه بخير. قال والرابع عن الخضر عليه السلام

صافحته سبعاً وثلاثين مرة آخر مرة منها في مقام الشيخ معروف الكرخي (رضي الله عنه) ببغداد عصر يوم جمعة فقال صافحت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لي صافحت كفي هذه سرادقات عرش ربي عز وجل" انتهى (المجموعة النادرة ص 230،231).

وهذا اعتراف صريح لعقيدة الشيعة في الأئمة الاثني عشر، وبالإمام الغائب المزعوم. فأي صلة أكبر من هذا بين الطريقة الرفاعية والتشيع.

3- وحدة الشعار بين الرفاعية والشيعة:

وتلتقي الطريقة الرفاعية أيضاً في شعار واحد مع التشيع وهو السواد، ولبس العمامة السوداء.. يقول محمد مهدي الصيادي الرفاعي في كتاب قذلكة الحقيقة في أحكام الطريقة:

"المادة التاسعة عشرة في المائة الثالثة:

لبس العمامة السوداء، ولبس العمامة البيضاء وكلاهما سنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا كان زي إمامنا في طريقتنا السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه وعنا به العمامة السوداء فهي خرقته المباركة"!! (الطريقة الرفاعية ص126).

فاختيار اللون الأسود ليكون الخرقة والشعار لا شك أنه توافق ظاهر آخر مع الشيعة الذين جعلوا هذا اللون شعاراً لهم.

4- الخلوة الأسبوعية:

ومن مشاعر الطريقة الرفاعية الخاصة الخلوة الأسبوعية في كل عام، وابتداء دخلوها في اليوم الثاني من عاشوراء يعني الحادي عشر من محرم، وقد جعلوها شرطاً لكل من انتسب إلى هذه الطريقة، وطعامها خال من كل ذي روح (الطريقة الرفاعية ص 115).

ولا شك أن هذا التوقيت السنوي ليس اختياره عبثاً، لأنه يأتي بعد المشاعر الخاصة للشيعة رأساً.

5- ادعاء الاختصاص بالرحمة:

يدعي الصياد وهو المؤسس الثاني للطريقة الرفاعية أنه مختص برحمة الله، ووارث رسول الله، والمختار من الله الذي كشف له

الغيب، وعرف أسرار الرمـوز القرآنيـة، وبـاطن القـرآن، وأنـه كـنز الفيوضات المحمدية، وأنه إمـام الـوقت، والإماميـة تظـل فيـه وفي أعقابـه إلى يـوم القيامـة.. وهـذه الـدعاوي جميعـاً هي من دعـاوي الشيعة في أئمتهم وهذه بعض نصوص عباراته في ذلك:

يقول الصيادي الرفاعي:

"فأهـل الاختصـاص جـذبتهم يـد المشـيئة الربانيـة، بمحض الفضـل والعناية الصمدانية، إلى أقصى المراتب العلية، وهـذا المنح البـاهر، والفضل الوافر، هو يوم حصتي، ومنصته منصـتي، أقـامني اللـه في هذه المنزلة إماماً، واختارني لرتبة هذه الخصوصية ختامـاً، وكشـف لي مخبآت الغيب باطلاع من كرمـه، وجليـل نعمـه، ففهمت أسـرار الرموز الفرقانية، وسبرت خفايا دقائق البطـون القرآنيـة ولم تـبرح تترقى همتي بكشف تلك الحجب اللطيفة، وبشـق ديباجـات هاتيـك المحاضر الشريفة، فأنا اليوم ولربي الحمد والشـكر ولـه الإحسـان والبر، كنز الفيوضات الطاهرة المحمدية، وسجل العلـوم المقدسـة النبوية، وهذه النوبة نوبتي، تتقلب في ورّاث منزلتي، وخدام قـدمي إلى ما شاء الله، بهذا بشـرت من صـاحب الوعـد الصـادق، وقرأتـه في صحف الرموزات العلوية التي طفحت بفائق الحقائق، سينشـر علم ظهور حالي بعد هذا الخفاء في الأكوان، ويبرز بـروز الشـمس من بطن ليل الطمس للعيان، وتعكف على بـابي القلـوب والأرواح، ويسري سـر إرشـادي في الجبـال والأوديـة والبطـاح، ولم يمسـس شأن نهجي المبارك غبـار دنيـوي، ولم يرجـع منـه حـرف إلى قصـد نفساني، بل كله لله، على منهاج رسول الله، عليه صـلوات اللـه، لا يعبأ معناه بحال من أحوال هذه الـدنيا الدنيـة، ولا يلتفت قائـد حالـه إلى مظاهرها الزائلة المطوية، وقد تفرغ رجال وراثتي حـال النـبي في الأمة، وتقوم بأطوار السـادة القـادة الأئمـة، ومن رجـالي وجـه مولاي علي أمير المؤمنين، صهر النـبي الأمين، الأسـد البطين، ليث العرين، ولي هذا الخط الذي سيبرز، وكأني أراه على يد عبـد يحبـه الله ورسـوله، ويحب اللـه ورسـوله، من الـبيت الفـاطمي، والفـرع الأمـدي، خـزامي الفصـيلة، خالـدي القبيلـة، يجـدد المجـد العلـوي، ويرفع قواعد البيت الرفاعي، ويمهـد فخـار العنصـر الصـيادي، ينبلج شارق طالعه قرب متكين، فيقوم كما أنا حيرة للمفتـونين، وجاذبـة للموفقين، ويترعرع مجده في ساحة الظهور، فيرتقي إلى الشهباء، ثم إلى فــروق، وبهــا تظهــره لوامــع بــروق، وفي بحبوحــة تلــك الترقيات، وسمو هاتيك المنصات، فالمفتون قادح، والمـأمون مـادح

ونور الله ساطع، وفي فضاء الوجودات لامع، وما النصر إلا من عند الله، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله، ويقبل عليه من ارتضيناه وأعناه، وأسعفناه بمدد واجتذبناه، ولا يزال الأمر منبلج المظهر، ولذكر الله أكبر" أ.هـ منه بلفظه.

ولا يخفى على القارئ اللبيب كلمات هذا الصيادي أن وارثه سيجدد المجد العلوي، وأنه من البيت الفاطمي.. فكلها عبارات تنبئ عن المقصد والمعتقد.

* ولعلنا لا نستغرب بعد ذلك ممن ترجم لهذا الصيادي الرفاعي بعد موته فقال عنه:

"قام السيد أبو الهدىرحمه الله مدة حياته الكريمة بأعمال جليلة نافعة ومآثر حميدة طيبة تبقى شافعة له عند ربه يوم اللقاء، وأعماله كانت منصبة على تعمير الأضرحة لآل البيت الكرام" (المجموعة النادرة ص37،38).

الفصل الخامس

مناظرة شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية

للبطائحية الرفاعية

بعد أن استكملنا بحمد الله الخطوط العريضة للطرق الصوفية قديماً وحديثاً نتبع هذا البيان بمناظرة شيخ الإسلام ابن تيمية لمن عاصروه من الرفاعية البطائحية فقد زعم الرفاعية أن الله قد ألان لهم الحديد وأزال لهم فاعلية السموم والنيران، وأخضع لهم طغاة الجن، وما زالوا منذ ذلك اليوم يمخرقون بمثل هذا على الناس إلى يومنا هذا. وقد وقعت مناظرة بين شيخ الإسلام والرفاعية حول هذه الأمور التي يدعونها. فتحداهم شيخ الإسلام فيها وبين لهم أن ما يدعونه كذب وتمويه ودجل وليس من الولاية في شيء، وقد أثبت هذه المناظرة بكاملها بقلم الشيخ ابن تيمية لما فيها من القواعد العظيمة والجليلة، ولمناسبتها لما نحن في صددها من بيان الحق فيما عند الصوفية من الزيغ والباطل والله المستعان.

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العـالمين، وأشـهد أن لا إلـه إلا اللـه رب السـماوات والأرضين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين، صلى اللـه تعالى عليه وعلى آله وسلم تسليماً دائماً إلى يـوم الـدين (منـاظرة ابن تيمية لدجاجلة البطائحية).

(أما بعد) فقد كتبت مـا حضـرني ذكـره في المشـهد الكبـير بقصـر الإمـارة والميـدان بحضـرة الخلـق من الأمـراء والكتـاب والعلمـاء والفقراء العامة وغـيرهم في أمـر (البطائحيـة) يـوم السـبت تاسـع جمادي الأولى سنة خمس (أي بعد السـبعمائة) لتشـوف الهمم إلى معرفة ذلك وحرص الناس على الإطلاع عليـه. فـإن من كـان غائبـاً عن ذلك قـد يسـمع بعض أطـراف الواقعـة، ومن شـهدها فقـد رأى وسمع ما رأى وسمع، ومن الحاضرين من سمع ورأى مـا لم يسـمع غيره ويرى لانتشار هذه الواقعة العظيمة، ولمـا حصـل بهـا من عـز الـدين، وظهـور كلمتـه العليـا، وقهـر النـاس على متابعـة الكتـاب والسنة، وظهـور زيـف من خـرج عن ذلـك من أهـل البـدع المضـلة والأحوال الفاسدة والتلبيس على المسلمين.

وقـد كتبت في غـير هـذا الموضـع صـفة حـال هـؤلاء (البطائحيـة) وطريقتهم وطريق (الشيخ أحمد بن الرفـاعي) وحالـه، ومـا وافقـوا فيه المسلمين وما خالفوهم. ليتبين ما دخلـوا فيـه من دين الإسـلام وما خرجوا فيه عن دين الإسلام، فـإن ذلـك يطـول وصـفه في هـذا الموضع، وإنما كتبت هنا ما حضرني ذكره من حكايـة هـذه الواقعـة المشهورة في مناظراتهم ومقابلتهم.

وذلك أني كنت أعلم من حالهم بما قد ذكرته في غير هذا الموضع - وهو أنهم وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام، وطريقة الفقر والسلوك، ويوجد في بعضهم التعبـد والتألـه والوجـد والمحبـة والزهـد والفقـر والتواضــع ولين الجــانب والملاطفــة في المخاطبــة والمعاشــرة والكشف والتصرف ونحو ذلك ما يوجد- فيوجد أيضاً في بعضهم من الشـرك وغـيره من أنـواع الكفـر، ومن الغلـو والبـدع في الإسـلام والإعـراض عن كثـير مـا جـاء بـه الرسـول، والاسـتخفاف بشـريعة الإسلام، والكذب والتلبيس وإظهار المخـارق الباطلـة وأكـل أمـوال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله ما يوجد..

وقد تقدمت لي معهم وقـائع متعـددة بينت فيهـا لمن خاطبتـه منهم ومن غيرهم بعض ما فيهم من حق وباطل، وأحوالهم التي يسمونها الإشـارات، وتـاب منهم جماعـة، وأدب منهم جماعـة من شـيوخهم،

وبينت صـورة مـا يظهرونـه من المخـاريق: مثـل ملابسـة النـار والحيات، وإظهـار الـدم، واللاذن والزعفـران ومـاء الـورد والعسـل والسـكر وغـير ذلـك، وأن عامـة ذلـك عن حيـل معروفـة وأسـباب مصنوعة، وأراد غير مرة منهم قوم إظهار ذلك فلما رأوا معارضـتي لهم رجعـوا ودخلـوا على أن أسـترهم فـأجبتهم إلى ذلـك بشـرط التوبة، حتى قال لي شيخ منهم في مجلس عام فيه جماعـة كثـيرة ببعض البساتين لما عارضتهم بأني أدخل معكم النار بعد أن نغتسـل بمـا يـذهب الحيلـة، ومن احـترق كـان مغلوبـاً، فلمـا رأوا الصـدق أمسكوا عن ذلك.

وحكى ذلك الشيخ أنه كان مـرة عنـد بعض أمـراء التـتر بالمشـرق، وكان له صنم يعبده، قال: فقال: هذا الصنم يأكـل من هـذا الطعـام كل يوم ويبقى أثر الأكل في الطعام بيناً يرى فيـه!! فـأنكرت ذلـك، فقال لي إن كان يأكل أنت تموت؟ فقلت نعم، قال: فـأقمت عنـده إلى نصف النهار ولم يظهر في الطعام أثر! فاستعظم ذلـك التـتري وأقسم بأيمان مغلظة أنه كل يوم يـرى فيـه أثـر الأكـل، لكن اليـوم بحضورك لم يظهر ذلك. فقلت لهذا الشيخ: أنا أبين لك سبب ذلـك. ذلك التتري كافر مشرك، ولصـنمه شـيطان يغويـه بمـا يظهـره من الأثر في الطعام، وأنت كان معك من نور الإسلام وتأييد الله تعـالى مـا أوجب انصـراف الشـيطان عن أن يفعـل ذلـك بحضـورك، وأنت وأمثالك بالنسبة إلى أهل الإسلام الخالص كالتتري بالنسبة لأمثالك. فالتتري وأمثاله سود، وأهل الإسلام المحض بيض، وأنتم بلـق فيكم سواد وبياض. فأعجب هذا المثل من كان حاضراً!!!

وقلت لهم في مجلس آخر لما قالوا تريد أن تظهر هذه الإشـارات؟ قلت: إن عملتموها بحضور من ليس من أهل الشأن: من الأعـراب والفلاحين، أو الأتـراك أو العامـة أو جمهـور المتفقهـة والمتفرقـة والمتصـوفة لم يحسـب لكم ذلـك. فمن معـه ذهب فليـأت بـه إلى سوق الصرف إلى عند الجهابذة الذين يعرفون الذهب الخـالص من المغشوش ومن الصفر، لا يذهب إلى عند أهل الجهل بذلك. فقـالوا لي: لا نعمـل هـذا إلا أن تكـون همتـك معنـا، فقلت: همـتي ليسـت معكم، بل أنا معارض لكم مـانع لكم، لأنكم تقصـدون بـذلك إبطـال شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كـان لكم قـدرة على إظهار ذلك فافعلوا. فانقلبوا صاغرين.

فلما كان قبل هذه الواقعة بمدة كان يدخل منهم جماعـة مـع شـيخ لهم من شـيوخ الـبر. مطـوقين بـأغلال الحديـد في أعنـاقهم، وهـو وأتباعه معروفون بأمور، وكان يحضر عندي مـرات فأخاطبـه بـالتي هي أحسن؛ فلما ذكر الناس ما يظهرونه من الشعار المبتدع الـذين يتميزون به عن المسلمين. ويتخذونه عبادة وديناً يوهمون به الناس أن هذا للـه سـر من أسـرارهم، وأنـه سـيماء أهـل الموهبـة الإلهيـة السالكين طريقهم –أعني طريق ذلك الشـيخ وأتباعـه- خاطبتـه في ذلك بالمسجد الجامع، وقلت هذا بدعـة لم يشـرعها اللـه تعـالى ولا رسوله، ولا فعل ذلـك أحـد من سـلف هـذه الأمـة ولا من المشـايخ الذين يقتدي بهم، ولا يجوز التعبـد بـذلك، وإلا التقـرب بـه إلى اللـه تعالى لأن عبادة الله بما لم يشرعه ضلالة، ولباس الحديد على غير وجه التعبد قـد كرهـه من كرهـه من العلمـاء للحـديث المـروي في ذلك وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى على رجـل خاتمـاً من حديد فقال: [مالي أرى عليـك حليـة أهـل النـار]. وقـد وصـف اللـه تعالى أهل النار بـأن في أعنـاقهم الأغلال، فالتشـبه بأهـل النـار من المنكرات. وقال بعض الناس قـد ثبت في الصـحيح عن أبي هريـرة عن النبي صلى الله عليه وسـلم في حـديث الرؤيـا قـال في آخـره [أحب القيد وأكره الغل. القيد ثبات في الـدين] فـإذا كـان مكروهـاً في المنام فكيف في اليقظة؟!

فقلت لـه في ذلـك المجلس مـا تقـدم من الكلام أو نحـواً منـه مـع زيادة، وخوفتـه من عاقبـة الإصـرار على البدعـة، وأن ذلـك يـوجب عقوبة فاعله، ونحو ذلك من الكلام الذي نسيت أكـثره لبعـد عهـدي به. وذلك أن الأمور التي ليست مستحبة في الشرع لا يجـوز التعبـد بها باتفاق المسلمين، ولا التقـرب بهـا إلى اللـه ولا اتخاذهـا طريقـاً إلى الله وسبباً لأن يكون الرجل من أولياء الله وأحبائـه، ولا اعتقـاد أن الله يحبها أو يحب أصحابها كذلك، أو أن اتخاذها يزداد به الرجـل خيراً عند الله وقربـة إليـه، ولا أن يجعـل شـعاراً للتـائبين المريـدين وجه الله الذين هم أفضل ممن ليس مثلهم.

فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به، وهو أن المباحـات إنمـا تكـون مباحـة إذا جعلت مباحـات، فأمـا إذا اتخـذت واجبـات أو مسـتحبات كـان ذلـك دينـاً لم يشـرعه اللـه، وجعـل مـا ليس من الواجبات والمستحبات منهـا بمنزلـة جعـل مـا ليس من المحرمـات منها، فلا حرام إلا ما حرمه الله، ولا دين إلا مـا شـرعه اللـه؛ ولهـذا عظم ذم الله في القـرآن لمن شـرع دينـاً لم يـأذن اللـه بـه، ولمن

حرم ما لم يأذن الله بتحريمه فـإذا كـان هـذا في المباحـات فكيـف بالمكروهات أو المحرمات؟ ولهذا كانت هذه الأمور لا تلـزم بالنـذر، فلو نذر الرجل فعل مباح أو مكـروه أو محـرم لم يجب عليـه فعلـه كما يجب عليه إذا نذر طاعة الله أن يطيعـه؛ بـل عليـه كفـارة يمين إذا لم يفعل عند أحمد وغيره، وعند آخرين لا شيء عليه. فلا يصـير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة طاعة وعبادة.

ونحو ذلك العهود التي تتخذ على الناس لالتزام طريقـة شـيخ معين كعهود أهل (الفتوة) و (رماة البنـدق) ونحـو ذلـك ليس على الرجـل أن يلتزم من ذلك على وجـه الـدين والطاعـة للـه إلا مـا كـان دينـاً وطاعة لله ورسوله في شرع الله؛ لكن قد يكون عليـه كفـارة عنـد الحنث في ذلك؛ ولهذا أمرت غير واحد أن يعدل عما أخـذ عليـه من العهد بالتزام طريقة مرجوحة أو مشتملة على أنواع من البـدع إلى ما هو خير منها من طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم واتباع الكتاب والسنة؛ إذا كان المسلمون متفقين على أنـه لا يجـوز لأحـد أن يعتقد أو يقول عن عمل: إنه قربة وطاعة وبر وطريـق إلى اللـه واجب أو مستحب إلا أن يكون مما أمر الله به ورسـوله صـلى اللـه عليه وسلم، وذلك يعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك، وما علم باتفاق الأمة أنـه ليس بـواجب ولا مسـتحب ولا قربـة لم يجـز أن يعتقـد أو يقال إنه قربة وطاعة.

فكذلك هم متفقون على أنه لا يجوز قصد التقرب بـه إلى اللـه، ولا التعبد به ولا اتخاذه ديناً ولا عمله من الحسنات، فلا يجوز جعلـه من الدين لا باعتقاد وقول، ولا بإرادة وعمل.

وبإهمـال هـذا الأصـل غلـط خلـق كثـير من العلمـاء والعبـاد يـرون الشـيء إذا لم يكن محرمـاً لا ينهى عنـه، بـل يقـال إنـه جـائز ولا يفرقون بين اتخاذه ديناً وطاعة وبراً، وبين اسـتعماله كمـا تسـتعمل المباحات المحضة، ومعلوم أن اتخاذه دينـاً بالاعتقـاد أو الاقتصـاد أو بهمـا أو بـالقول أو بالعمـل أو بهمـا من أعظم المحرمـات وأكـبر السيئات، وهذا من البدع المنكـرات الـتي هي أعظم من المعاصـي التي يعلم أنها معاص وسيئات.

فصل

فلما نهيتهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعـة ومضـت على ذلـك مـدة والنـاس يـذكرون عنهم والإصـرار على الابتـداع في الـدين،

وإظهار ما يخالفشرعة المسلمين، ويطلبون الإيقاع بهم، وأنا أسلك مسلك الرفق والأناة، وأنتظر الرجوع والفيئة، وأؤخـر الخطـاب إلى أن يحضر (ذلك الشيخ) لمسجد الجامع. وكان قد كتب إلي كتاباً بعد كتاب فيه احتجاج واعتذار، وعتب وآثار، وهو كلام باطل لا تقـوم بـه حجـة، بـل إمـا أحـاديث موضـوعة، أو إسـرائيليات غـير مشـروعة، وحقيقة الأمر الصد عن سبيل الله وأكل أموال الناس بالباطل.

فقلت لهم: الجواب يكون بالخطاب. فإن جواب مثل هذا الكتـاب لا يتم إلا بذلك وحضر عندنا منهم شخص فنزعنا الغل من عنقه.

وهـؤلاء هم من أهـل الأهـواء الـذين يتعبـدون في كثـير من الأمـور بأهوائهم لا بما أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم {ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله}. ولهذا غالب وجدهم هـوى مطلق لا يدرون من يعبدون، وفيهم شبه قـوي من النصـارى الـذين قال الله تعالى فيهم: {يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غـير الحـق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضـلوا من وأضـلوا كثـيراً وضـلوا عن سـواء السبيل}، ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع أهل الأهواء.

فحملهم هــواهم على أن تجمــع الأحــزاب، ودخلــوا إلى المســجد الجـامع مسـتعدين للحـراب، بـالأحوال الـتي يعـدونها للغلاب. فلمـا قضـيت صـلاة الجمعـة أرسـلت إلى شـيخهم لنخاطبـه بـأمر اللـه ورسوله صلى الله عليه وسلم، ونتفق على اتبـاع سـبيله - فخرجـوا من المسجد الجامع في جموعهم إلى قصر الإمارة، وكـأنهم اتفقـوا مع بعض الكبـار على مطلـوبهم، ثم رجعـوا إلى مسـجد الشـاغور - على ما ذكر لي- وهم من الصياح والاضطراب، على أمر من أعجب العجاب. فأرسلت إليهم مرة ثانية لإقامة الحجـة والمعـذرة، وطلبـاً للبيان والتبصرة، ورجاء المنعة والتذكرة. فعمـدوا إلى القصـر مـرة ثانية، وذكر لي أنهم قـدموا من الناحيـة الغربيـة مظهـرين الضـجيج والعجيج والإزباد والإرعاد، واضطراب الـرؤوس والأعضـاء، والتقلب في نهر بردى وإظهار التوله الذي يخيلوا به على الـردى، وإبـراز مـا يدعونــه من الحــال والمحــال، الــذي يســلمه إليهم من أضــلوا من الجهال.

فلما رأى الأمير ذلك هاله ذلك المنظـر، وسـأل عنهم فقيـل لـه هم مشــتكون، فقــال ليــدخل بعضــهم، فــدخل شــيخهم، وأظهــر من الشكوى عليّ ودعوى الاعتـداء مـني عليهم كلامـاً كثـيراً لم يبلغـني جميعه؛ لكن حدثني من كان حاضراً أن الأمير قال لهم: فهـذا الـذي

يقوله من عنده أو يقوله عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: بل يقوله عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، قال: فأي شيء يقال له؟ قالوا: نحن لنا أحوال وطريق يسلم إلينا، قال: فنسمع كلامه فمن كان في الحق معه، قالوا: ولا بد من حضوره؟ قال: نعم، فكرروا ذلك فأمر بإخراجهم، فأرسل إلى بعض خواصه من أهل الصدق والدين ممن يعرف ضلالهم وعرفني بصورة الحال وأنه يريد كشف أمر هؤلاء.

فلما علمت ذلك ألقي في قلبي أن ذلك لأمر يريده الله من إظهار الدين، وكشف حال أهل النفاق المبتدعين، لانتشارهم في أقطار الأرضين، وما أحببت البغي عليهم والعدوان، ولا أن أسلك معهم إلا أبلغ ما يمكن من الإحسان، فأرسلت إليهم من عرفهم بصورة الحال، وأني إذا حضرت كان ذلك عليكم من الوبال، وكثر فيكم القيل والقال، وأن من قعد أو قام قدام رماح أهل الإيمان، فهو الذي أوقع نفسه في الهوان. فجاء الرسول وأخبر أنهم اجتمعوا بشيوخهم الكبار، الذين يعرفون حقيقة الأسرار، وأشاروا إليهم بموافقة ما أمروا به من اتباع الشريعة، والخروج عما ينكر عليهم من البدع الشنيعة. وقال شيخهم الذي يسيح بأقطار الأرض كبلاد الترك ومصر وغيرها: أحوالنا تظهر عند التتار لا تظهر عند شرح محمد بن عبدالله. وأنهم نزعوا الأغلال من الأعناق، وأجابوا إلى الوفاق.

ثم ذكر لي أنه جاءهم بعض أكابر غلمان المطاع وذكر أنه لا بد من حضورهم لموعد الاجتماع. فاستخرت الله تعالى تلك الليلة واستعنته، واستهديته، وسلكت سبيل عباد الله في مثل هذه المسالك، حتى ألقي في قلبي أن أدخل النار عند الحاجة إلى ذلك، وأنها تكون برداً وسلاماً على من اتبع ملة الخليل، وأنها تحرق أشباه الصابئة أهل الخروج عن هذا السبيل. وقد كان بقايا الصابئة أعداء إبراهيم الحنفاء بنواحي البطائح منضمين إلى من يضاهيهم من نصارى الدهماء.

وبين الصابئة ومن ضل من العباد المنتسبين إلى هذا الدين، لسبب يعرفه من عرف الحق المبين، فالغالية من القرامطة والقاطنية، كالنصيرية والإسماعيلية، يخرجون إلى مشابهة الصابئة الفلاسفة، ثم إلى الإشراك، ثم إلى جحود الحق تعالى. ومن شركهم الغلو في البشر والابتداع في العادات، والخروج عن الشريعة له نصيب من

ذلك بحسب ما هو لائق، كالملحدين من أهـل الاتحـاد، والغاليـة من أصناف العباد.

فلمـا أصـبحنا ذهبت إلي الميعـاد، ومـا أحببت أن أستصـحب أحـداً للإسعاد، لكن ذهب أيضاً بعض من كان حاضراً من الأصحاب، واللـه هو المسبب لجميع الأسباب، وبلغني بعد ذلك أنهم طافوا على عـدد من أكابر الأمراء، وقالوا أنواعاً مما جـرت بـه عـادتهم من التلـبيس والافـتراء، الـذي اسـتحوذوا بـه على أكـثر أهـل الأرض من الأكـابر والرؤسـاء، مثـل زعمهم أن لهم أحـوالاً لا يقـاومهم فيهـا أحـد من الأولياء، وأن لهم طريقاً لا يعرفه أحد من العلماء. وأن شـيخهم هـو في المشـايخ كالخليفـة، وأنهم يتقـدمون على الخلـق بهـذه الأخبـار المنيفة. وأن المنكر عليهم هو آخذ بالشرع الظاهر، غير واصـل إلى الحقائق والسرائر. وأن لهم طريقاً وله طريق. وهم الواصـلون إلى كنه التحقيق وأشباه هذه الدعاوي ذات الزخرف والتزويق.

أنواع من تلبيسات الرفاعية:

وكــانوا لفــرط انتشــارهم في البلاد، واســتحواذهم على الملــوك والأمراء والأجناد، لخفاء نور الإسلام، واستبدال أكـثر النـاس بـالنور الظلام، وطموس آثار الرسـول في أكـثر الأمصـار، ودروس حقيقـة الإسلام في دولة التتار، لهم في القلوب موقع هائل، ولهم فيهم من الاعتقاد ما لا يزول بقول قائل.

قـال المخـبر: فغـدا أولئـك الأمـراء الأكـابر، وخـاطبوا فيهم نـائب السلطان بتعظيم أمرهم الباهر، وذكر لي أنواعاً من الخطاب، والله تعالى أعلم بحقيقة الصـواب، والأمـير مستشـعر ظهـور الحـق عنـد التحقيق، فعاد الرسول، إلي مرة ثانية فبلغه أنّا في الطريق، وكـان كثـير من أهـل الاتحـاد مجـدين في نصـرهم بحسـب مقـدورهم، مجهزين لمن يعنيهم في حضورهم. فلمـا حضـرت وجـدت النفـوس في غاية الشوق في هذا الاجتماع، متطلعين إلى ما سيكون طالبين للاطلاع. فذكر لي نائب السلطان وغيره من الأمراء بعض ما ذكروه من الأقوال المشتملة على الافـتراء. وقـال إنهم قـالوا: إنـك طلبت منهم الامتحان، وأن يحموا الأطواق نـاراً ويلبسـوها، فقلت هـذا من البهتان.

وها أنا ذا أصف ما كان. قلت للأمير: نحن لا نسـتحل أن نـأمر أحـداً بأن يدخل ناراً، ولا تجـوز طاعـة من يـأمر بـدخول النـار. وفي ذلـك

الحديث الصحيح. وهؤلاء يكـذبون في ذلـك، وهم كـذابون مبتـدعون قـد أفسـدوا من أمـر دين المسـلمين ودنيـاهم مـا اللـه بـه عليم. وذكرت تلبيسهم على طوائف من الأمراء، وأنهم لبسوا على الأمـير المعروف بالأيد مري، وعلى قفجق نائب السلطة وعلى غيرها، وقد لبسـوا أيضـاً على الملـك العـادل كتغـا في ملكـه، وفي حالـة ولايـة حماة، وعلى أمير السلاح أجـل أمـير بـديار مصـر، وضـاق المجلس عن حكاية جميع تلبيسهم. فذكرت تلبيسهم على الأيـد مـري، وأنهم كانوا يرسلون من النساء من يستخبر عن أحـوال بيتـه الباطنـة، ثم يخبرونه بها على طريق المكاشفة، ووعدوه بالملـك، وأنهم وعـدوه أن يروه رجال الغيب. فصنعوا خشباً طوالاً وجعلوا عليها من يمشي كهيئة الذي يلعب بـأكر الزجـاج، فجعلـوا يمشـون على جبـل المـزة وذاك يرى من بعيد قوماً يطوفـون على الجبـل وهم يرتفعـون على الأرض وأخذوا منه مالاً كثيراً ثم انكشف له أمرهم.

قلت للأمير: وولده هو الذي في حلقة الجيش يعلم ذلك، وهـو ممن حدثني بهذه القصة. وأما قفجق فإنهم أدخلـوا رجلاً في القـبر يتكلم وأوهمـوه أن المـوتى تتكلم، وأتـوا بـه في مقـابر بـاب الصـغير إلى رجل زعموا أنه الرجل الشعراني الذي بجبل لبنان، ولم يقربوه منه بـل من بعيـد لتعـود عليـه بركتـه، وقـالوا إنـه طلب منـه جملـة من المال؛ فقال قفجق: الشيخ يكاشف وهو يعلم أن خزائني ليس فيها هذا كلـه، وتقـرب قفجـق منـه وجـذب الشـعر فـانقلع الجلـد الـذي ألصقوه على جلده من جلد الماعز.

فـذكرت للأمـير هـذا؛ ولهـذا قيـل لي إنـه لمـا انقضـى المجلس وانكشف ما لهم للناس كتب أصحاب قفجـق إليـه كتابـاً وهـو نـائب السلطنة بحماة يخبره صورة ما جرى.

وذكرت للأمير أنهم مبتدعون بأنواع من البدع، مثل الأغلال ونحوها، وأنّا نهيناهم عن البدع الخارجـة عن الشـريعة، فـذكر الأمـير حـديث البدعة وسألني عنه، فذكرت حـديث العربـاض بن سـارية، وحـديث جـابر بن عبداللـه، وقـد ذكرتهمـا بعـد ذلـك بـالمجلس العـام كمـا سأذكره.

ابن تيمية يتحداهم بدخول النار معهم:

قلت للأمير: أنا ما امتحنت هؤلاء، لكن هم يزعمـون أن لهم أحـوالاً يدخلون بها النار، وأن أهل الشريعة لا يقدرون على ذلـك، ويقولـون لنا: هذه الأحوال التي يعجز عنها أهل الشرع ليس لهم أن يعترضـوا علينا، بل يسلم إلينا ما نحن عليـه -سـواء وافـق الشـرع أو خالفـه- وأنا قد استخرت اللـه سـبحانه أنهم إن دخلـوا النـار أدخـل أنـا وهم ومن احترق منا ومنهم فعليه لعنة الله، وكان مغلوباً، وذلـك بعـد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار.

فقــال الأمــير: ولم ذاك؟ قلت: لأنهم يطلــون جســومهم بأدويــة يصنعونها من دهن الضفادع، وباطن قشـر النـارنج، وحجـر الطلـق، وغير ذلك من الحيل المعروفة لهم، وأنا لا أطلي جلدي بشيء فـإذا اغتسلت أنا وهم بالخـل والمـاء الحـار بطلت الحيلـة وظهـر الحـق، فاستعظم الأمير هجومي على النار، وقال: أتفعل ذلـك؟ فقلت لـه: نعم! قد استخرت الله في ذلك وألقي في قلبي أن أفعلـه، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداء فإن خوارق العادات إنما تكـون لأمـة محمـد صلى الله عليه وسلم المتبعين لـه باطنـاً وظـاهراً لحجـة أو حاجـة، فالحجة لإقامة دين الله، والحاجة لما لا بد منـه من النصـر والـرزق الذي به يقـوم دين اللـه، وهـؤلاء إذا أظهـروا مـا يسـمونه إشـارتهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تبطل دين الله وشـرعه وجب إلينـا أن ننصر الله ورسوله صلى الله تعـالى عليـه وسـلم، ونقـوم في نصـر دين الله وشريعته بما نقدر عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا، فلنا حينئذ أن نعارض ما يظهرونه من هذه المخاريق بما يؤيـدنا اللـه بـه من الآيات.

وليعلم أن هذا مثل معارضة موسى للسحرة لمـا أظهـروا سـحرهم أيد الله موسى بالعصا التي ابتلعت سحرهم. فجعل الأمـير يخـاطب من حضره من الأمراء على السـماط بـذلك، وفـرح بـذلك، وكـأنهم كانوا قد أوهموه أن هؤلاء لهم حال لا يقدر أحد على رده، وسـمعته يخاطب الأمير الكبير الذي قدم من مصر الحـاج بهـادر وأنـا جـالس بينهما على رأس السماط بالتركي ما فهمته منه إلا أنه قـال: اليـوم ترى حرباً عظيماً، ولعل ذلك كان جواباً لمن كان خاطبـه فيهم على ما قيل.

وحضر شيوخهم الأكابر فجعلوا يطلبون من الأمير الإصـلاح وإطفـاء هذه القضية ويترفقون، فقال الأمير: إنما يكـون الصـلح بعـد ظهـور الحـق، وقمنـا إلى مقعـد الأمـير بزاويـة القصـر، أنـا وهـو وبهـادر،

فسمعته يذكر له أيوب الحمال بمصر والمولهين ونحو ذلك، فدل ذلك على أنه كان عند هذا الأمير لهم صورة معظمة، وأن لهم فيهم ظناً حسناً والله أعلم بحقيقة الحال؛ فإنه ذكر لي.

وكان الأمير أحب أن يشهد بهادر هذه الواقعة ليتبين له الحق؛ فإنه من أكابر الأمراء وأقدمهم وأعظمهم حرمة عنده، وقد قدم الآن وهو يحب تأليفه وإكرامه، فأمر ببساط يبسط في الميدان. وقد قدم البطائحية وهم جماعة كثيرون، وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية من الإزباد والإرغاء وحركة الرؤوس والأعضاء، والظفر والحبو والتقلب، ونحو ذلك من الأصوات المنكرات، والحركات الخارجة عن العادات، المخالفة لما أمر به لقمان لابنه في قوله: {واقصد في مشيك واغضض من صوتك}.

فلما جلسنا وقد حضر خلق عظيم من الأمراء والكتاب والعلماء والفقراء والعامة وغيرهم، وحضر شيخهم الأول المشتكي، وشيخ آخر يسمي نفسه خليفة سيده أحمد، ويركب بعلمين، وهم يسمونه: عبدالله الكذاب، ولم أكن أعرف ذلك. وكان من مدة قد قدم علي منهم شيخ بصورة لطيفة وأظهر ما جرت به عادتهم من المسألة فأعطيته طلبته ولم أتفطن لكذبه حتى فارقني، فبقي في نفسي أن هذا خفي علي تلبيسه إلى أن غاب، وما يكاد يخفى علي تلبيس أحد، بل أدركه في أول الأمر فبقي ذلك في نفسي ولم أره قط إلى حين نظرته، ذكر لي أنه ذاك الذي كان اجتمع بي قديماً فتعجبت من حسن صنع الله أنه هتكه في أعظم مشهد يكون حيث كتم تلبيسه بيني وبينه.

الرفاعية البطائحية ينكلون عن دعاويهم ويقرون بما هم فيه من الباطل:

فلما حضروا تكلم منهم شيخ يقال له حاتم بكلام مضمونه طلب الصلح والعفو عن الماضي والتوبة، وإنا مجيبون إلى ما طلب من ترك هذه الأغلال وغيرها من البدع، ومتبعون للشريعة. (فقلت) أما التوبة فمقبولة. قال الله تعالى: {غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب} وقال تعالى: {نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم* وأن عذابي هو العذاب الأليم}.

فأخذ شيخهم المشتكي ينتصر للبسهم الأطـواق وذكـر أن وهب بن منبه روى أنه كان في بني إسرائيل عابد وأنه جعل في عنقه طوقـاً في حكاية من حكايات بني إسرائيل لا تثبت.

(فقلت) لهم: ليس لنا أن نتعبد في ديننـا بشـيء من الإسـرائيليات المخالفة لشرعنا، وقد روى الإمام أحمـد في مسـنده عن جـابر بن عبدالله أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بيـد عمـر بن الخطـاب ورقة من التوراة فقال: [أمتهوكون يا ابن الخطاب؟ لقد جئتكم بهـا بيضاء نقية، لو كـان موسـى حيـاً ثم اتبعتمـوه وتركتمـوني لضـللتم] وفي مراسيل أبي داود أن النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم رأى مـع بعض أصحابه شيئاً من كتب أهل الكتاب فقـال: [كفى بقـوم ضـلالة أن يتبعوا كتاباً غـير كتـابهم أنـزل إلى نـبي غـير نـبيهم] وأنـزل اللـه تعالى: {أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم}.

فنحن لا يجـوز لنـا اتبـاع موسـى ولا عيسـى فيمـا علمنـا أنـه أنـزل عليهما من عند الله إذا خالف شرعنا، وإنما علينـا أن نتبـع مـا أنـزل علينـا من ربنـا ونتبـع الشـرعة والمنهـاج الـذي بعث اللـه بـه إلينـا رسـولنا. كمـا قـال تعـالى: {فـاحكم بينهم بمـا أنـزل اللـه ولا تتبـع أهواءهم عما جاءك من الحق لكـل جعلنـا منكم شـرعة ومنهاجـاً}. فكيـف يجـوز لنـا أن نتبـع عبـاد بـني إسـرائيل في حكايـة لا تعلم صحتها؟! وما علينا من عباد بني إسرائيل؟! {تلك أمة قـد خلت لهـا ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون} هـات مـا في القرآن وما في الأحاديث الصحاح كالبخاري ومسلم وذكرت هذا وشبهه بكيفية قوية.

فقـال هـذا الشـيخ منهم يخـاطب الأمـير: نحن نريـد أن تجمـع لنـا القضاة الأربعة والفقهاء ونحن قوم شافعية.

(فقلت) لـه هـذا غـير مسـتحب ولا مشـروع عنـد أحـد من علمـاء المسلمين؛ بل كلهم ينهى عن التعبد به ويعـده بدعـة، وهـذا الشـيخ كمال الدين بن الزملكاني مفتي الشافعية ودعوته وقلت: يـا كمـال الدين! ما تقول في هذا؟ فقال هذا بدعة غير مستحبة بل مكروهة. أو كما قال. وكان مع بعض الجماعة فتوى فيها خطـوط طائفـة من العلماء بذلك.

(وقلت) ليس لأحد الخروج عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ولا الخروج عن كتاب اللـه وسـنة رسـوله صـلى اللـه عليـه وسـلم،

وأشك هل تكلمت هنا في قصة موسى والخضر؛ فإني تكلمت بكلام بعد عهدي به.

فانتدب ذلك الشيخ (عبدالله) ورفع صوته. وقال: نحن لنا أحوال وأمور باطنة لا يوقف عليها، وذكر كلاماً لم أضبط لفظه: مثل المجالس والمدارس والباطن والظاهر؛ ومضمونه أن لنا الباطن ولغيره الظاهر، وأن لنا أمراً لا يقف (نسخه: لا يقدر) عليه أهل الظاهر فلا ينكرونه علينا، (فقلت) له -ورفعت صوتي وغضبت- الباطن والظاهر والمجالس والمدارس، والشريعة والحقائق، كل هذا مردود إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ليس لأحد الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا من المشايخ والفقراء، ولا من الملوك والأمراء، ولا من العلماء والقضاة وغيرهم، بل جميع الخلق عليهم طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وذكرت هذا ونحوه.

فقال -رفع صوته-: نحن لنا الأحوال وكذا وكذا. وادعى الأحوال الخارقة كالنار وغيرها، واختصاصهم بها، وأنهم يستحقون تسليم الحال إليهم لأجلها.

ابن تيمية يتحدى البطائحية بالدخول في النار ومن احترق فعليه لعنة الله:

فقلت -ورفعت صوتي وغضبت- أنا أخاطب كل أحمدي من مشرق الأرض إلى مغربها أي شيء فعلوه في النار فأنا أصنع مثل ما تصنعون، ومن احترق فهو مغلوب، وربما قلت فعليه لعنة الله، ولكن بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار؛ فسألني الأمراء والناس عن ذلك؟ فقلت: إن لهم حيلاً في الاتصال بالنار يصنعونها من أشياء: من دهن الضفادع، وقشر النارنج، وحجر الطلق. فضج الناس بذلك، فأخذ يظهر القدرة على ذلك فقال: أنا وأنت نلف في بارية بعد أن تطلى جسومنا بالكبريت. (فقلت) فقم.

وأخذت أكرر عليه في القيام إلى ذلك، فمد يده يظهر خلع القميص، فقلت: لا! حتى تغتسل في الماء الحار والخل، فأظهر الوهم على عادتهم فقال: من كان يحب الأمير فليحضر خشباً أو قال حزمة حطب. فقلت هذا تطويل وتفريق للجمع؛ ولا يحصل به مقصود؛ بل قنديل يوقد وأدخل إصبعي وإصبعك فيه بعد الغسل؛

ومن احترقت إصبعه فعليه لعنـة اللـه؛ أو قلت: فهـو مغلـوب. فلمـا قلت ذلك تغير وذل. وذكر لي أن وجهه أصفر.

ثم قلت لهم: ومـع هـذا فلـو دخلتم النـار وخـرجتم منهـا سـالمين حقيقة، ولو طرتم في الهـواء، ومشـيتم على المـاء، ولـو فعلتم مـا فعلتم لم يكن في ذلك ما يدل على صـحة مـا تدعونـه من مخالفـة الشرع، ولا على إبطال الشرع، فإن الـدجال الأكـبر يقـول للسـماء أمطـري فتمطـر؛ وللأرض أنبـتي فتنبت، وللخربـة أخـرجي كنـوزك فتخرج كنوزها تتبعه، ويقتل رجلاً ثم يمشي بين شقيه، ثم يقـول لـه قم فيقوم، ومع هذا فهـو دجـال كـذاب ملعـون، لعنـه اللـه، ورفعت صوتي بذلك فكان لذلك وقع عظيم في القلوب.

وذكرت قول أبي يزيد البسطامي: لو رأيتم الرجل يطير في الهـواء ويمشي على المـاء فلا تغـتروا بـه حـتى تنظـروا كيـف وقوفـه عنـد الأوامـر والنـواهي، وذكـرت عن يـونس بن عبـدالأعلى أنـه قـال للشافعي أتدري ما قال صاحبنا يعني الليث بن سعد؟ قال: لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء فلا تغـتر بـه. فقـال الشـافعي: لقـد قصـر الليث لـو رأيت صـاحب هـوى يطـير في الهـواء فلا تغـتر بـه؛ وتكلمت بهذا ونحوه بكلام بعد عهدي به. ومشايخهم يتضرعون عنـد الأمير في طلب الصلح وجعلت ألح عليـه في إظهـار مـا ادعـوه من النار مرة بعد مرة وهم لا يجيبون، وقد اجتمع عامة مشايخهم الـذي في البلد والفقراء المولهون منهم، وهم عدد كثير، والناس يضـجون في الميدان، ويتكلمون بأشياء لا أضبطها.

فذكر بعض الحاضرين أن الناس قالوا مـا مضـمونه: {فوقـع الحـق وبطل ما كانون يعملون* فغلبوا هنالك وانقلبوا صـاغرين} وذكـروا أيضاً أن هذا الشيخ يسمى عبدالله الكذاب. وأنه الذي قصـدك مـرة فأعطيته ثلاثين درهماً، فقلت: ظهر لي حين أخذ الدراهم وذهب أنه ملبس، وكان قد حكى حكاية عن نفسـه مضـمونها أنـه أدخـل النـار في لحيته قدام صاحب حماة، ولما فارقني وقع في قلبي أن لحيتـه مدهونة، وأنه دخل الروم واستحوذ عليهم.

رجوع الرفاعية وإقرارهم العمل بالكتاب والسنة:

فلما ظهـر للحاضـرين عجـزهم وكـذبهم وتلبيسـهم، وتـبين للأمـراء الـذين كـانوا يشـدون منهم أنهم مبطلـون رجعـوا، وتخـاطب الحـاج بهـادر ونـائب السـلطان وغيرهمـا بصـورة الحـال، وعرفـوا حقيقـة

المحال؛ وقمنا إلى داخل ودخلنا، وقد طلبوا التوبة عما مضى، وسألني الأمير عما تطلب منهم، فقلت: متابعة الكتاب والسنة مثل أن (لا) يعتقد أنه لا يجب عليه اتباعهما، أو أنه يسوغ لأحد الخروج من حكمهما ونحو ذلك، لو أنه يجوز اتباع طريقة تخالف بعض حكمهما، ونحو ذلك من وجوه الخروج عن الكتاب والسنة التي توجب الكفر وقد توجب القتل دون الكفر، وقد توجب قتال الطائفة الممتنعة دون قتل الواحد المقدور علي.

فقالوا: نحن ملتزمون الكتاب والسنة؟ نحن نخلعها. فقلت: الأطواق وغير الأطواق، ليس المقصود شيئاً معيناً، وإنما المقصود أن يكون جميع المسلمين تحت طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. فقال الأمير: فأي شيء الذي يلزمهم من الكتاب والسنة؟ فقلت: حكم الكتاب والسنة كثير لا يمكن ذكره في هذا المجلس، لكن المقصود أن يلتزموا هذا التزاماً عاماً، من خرج عنه ضربت عنقه -وكرر ذلك وأشار بيده إلى ناحية الميدان- وكان المقصود أن يكون هذا حكماً عاماً في حق جميع الناس؛ فإن هذا مشهد عام مشهور قد توفرت الهمم عليه، فيتقرر عند المقاتلة، وأهل الديوان، والعلماء والعباد، وهؤلاء وولاة الأمور أنه من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه.

فظائع الرفاعية في الصلاة:

قلت: ومن ذلك الصلوات الخمس في مواقيتها كما أمر الله ورسوله؛ فإن من هؤلاء من لا يصلي، ومنهم من يتكلم في صلاته، حتى إنهم بالأمس بعد أن اشتكوا علي في عصر الجمعة جعل أحدهم يقول في صلب الصلاة: يا سيدي أحمد شيء لله. وهذا مع أنه مبطل للصلاة فهو شرك بالله ودعاء لغيره في حال مناجاته التي أمرنا أن نقول فيها: {إياك نعبد وإياك نستعين} وهذا قد فعل بالأمس بحضرة شيخهم فأمر قائل ذلك لما أنكر عليه المسلمون بالاستغفار على عادتهم في صغير الذنوب. ولم يأمره بإعادة الصلاة. وكذلك يصيحون في الصلاة صياحاً عظيماً وهذا منكر يبطل الصلاة.

فقال: هذا يغلب على أحدهم كما يغلب العطاس.

فقلت: العطاس من الله والله يحب العطاس ويكره التثاؤب ولا يملك أحدهم دفعه، وأما هذا الصياح فهو من الشيطان، وهو

باختيـــارهم وتكلفهم، ويقـــدرون على دفعـــه، ولقـــد حـــدثني بعض الخبـيرين بهم بعـد المجلس أنهم يفعلـون في الصـلاة مـالا تفعلـه اليهود والنصـارى: مثـل قـول أحـدهم أنـا على بطن امـرأة الإمـام، وقول الآخر كـذا وكـذا من الإمـام، ونحـو ذلـك من الأقـوال الخبيثـة وأنهم إذا أنكر عليهم المنكر ترك الصلاة يصلون بالنوبــة، وأنــا أعلم أنهم متولون للشياطين ليسوا مغلوبين على ذلك كما يغلب الرجــل في بعض الأوقات على صيحة أو بكاء في الصلاة أو غيرها.

فلما أظهروا التزام الكتاب والسـنة وجمـوعهم بالميـدان بأصـواتهم وحركـاتهم الشـيطانية يظهـرون أحـوالهم (قلت لـه) أهـذا موافـق للكتاب والسنة؟ فقال: هـذا من اللـه حـال يـرد عليهم، فقلت: هـذا من الشيطان الرجيم لم يأمر اللـه بـه ولا رسـوله صـلى اللـه عليـه وسلم ولا أحبه الله ولا رسـوله، فقـال: مـا في السـماوات والأرض حركة ولا كذا ولا كذا إلا بمشيئته وإرادتـه، فقلت لـه: هـذا من بـاب القضاء والقدر، وهكذا كل ما في العالم من كفر وفسـوق وعصـيان هم بمشيئته وإرادته وليس ذلك بحجة لأحد في فعله؛ بل ذلـك ممـا زينه الشيطان وسخطه الرحمن.

فقـال: فبـأي شـيء تبطـل هـذه الأحـوال؟ فقلت: بهـذه السـياط الشـرعية. فـأعجب الأمـير وضـحك، وقـال: أي واللــه! بالسـياط الشرعية، تبطل هذه الأحوال الشيطانية، كمـا قـد جـرى مثـل ذلـك لغير واحد، ومن لم يجب إلى الدين بالسـياط الشـرعية فبالسـيوف المحمدية. وأمسـكت سـيف الأمـير وقلت: هـذا نـائب رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم وغلامه، وهذا السيف سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم. فمن خرج عن كتـاب اللـه وسـنة رسـوله ضـربناه بسيف الله، وأعاد الأمير هـذا الكلام، وأخـذ بعضـهم يقـول: فـاليهود والنصـارى يقـرون ولا نقـر نحن؟ فقلت: اليهـود والنصـارى يقـرون بالجزيـــة على دينهم المكتـــوم في دورهم، والمبتـــدع لا يقـــر على بدعته، فأفحموا لذلك.

و(حقيقة الأمـر) أن من أظهـر منكـراً في دار الإسـلام لم يقـر على ذلك، فمن دعا إلى بدعة وأظهرها لا يقر، ولا يقر من أظهر الفجور، وكـذلك أهـل الذمـة لا يقـرون على إظهـار منكـرات دينهم، ومن سواهم فإن كان مسلماً أخذ بواجبات الإسلام وترك محرماتــه، وإن لم يكن مسلماً ولا ذمياً فهو إمـا مرتـد، وإمـا مشـرك، وإمـا زنـديق ظاهر الزندقة.

وذكرت ذم المبتدعة فقلت: روى مسلم في صحيحه عن جعفــر بن محمد الصادق عن أبيـه أبي جعفـر البـاقر عن جـابر بن عبداللـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في خطبته: [إن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمـد، وشـر الأمـور محـدثاتها، وكـل بدعـة ضـلالة]. وفي السـنن عن العربـاض بن سـارية، قـال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ذرفت منها العيـون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل يا رسول اللـه كـأن هـذه موعظـة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: [أوصيكم بالسـمع والطاعـة فإنـه من يعش منكم بعـدي فسـيرى اختلافـاً كثـيراً، فعليكم بسـنتي وسـنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسـكوا بهـا، وعضـوا عليهـا بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعـة ضلالة] وفي رواية [وكل ضلالة في النار].

فقال لي: البدعة مثل الزنـا، وروى حـديثاً في ذم الزنـا، فقلت هـذا حـديث موضـوع على رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم، والزنـا معصية، والبدعة شر من المعصية، كما قال سفيان الثوري: البدعـة أحب إلى إبليس من المعصية؛ فإن المعصية يتـاب منهـا والبدعـة لا يتاب منها. وكان قد قال بعضهم: نحن نتوب النـاس، فقلت: ممـا ذا تتوبونهم؟ قال: من قطـع الطريـق، والسـرقة، ونحـو ذلـك. فقلت: حالهم قبل تتويبكم خير من حالهم بعد تتويبكم؛ فإنهم كـانوا فسـاقاً يعتقدون تحريم ما هم عليه، ويرجون رحمة اللـه، ويتوبـون إليـه، أو ينوون التوبة. فجعلتمـوهم بتتـويبكم ضـالين مشـركين خـارجين عن شريعة الإسلام، يحبون ما يبغضه الله ويبغضون ما يحبه الله، وبينت أن هذه البدع التي هم وغيرهم عليها شر من المعاصي.

قلت مخاطبـاً للأمـير والحاضـرين: أمـا المعاصـي فمثـل مـا روى البخاري في صحيحه عن عمـر بن الخطـاب أن رجلاً يـدعى حمـاراً، وكان يشرب الخمر، وكـان يُضـحك النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم، وكان كلما أتي به النبي صلى اللـه عليـه وسـلم جلـده الحـد فلعنـه رجل مرة. وقال: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي صلى اللـه عليه وسلم؟! فقال النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم: [لا تلعنـه فإنـه يحب الله ورسوله]. قلت: فهذا الرجل كثير الشرب للخمر ومع هذا فلما كان صحيح الاعتقاد يحب الله ورسـوله شـهد لـه النـبي صـلى الله عليه وسلم بذلك فنهى عن لعنه.

وأما المبتدع فمثل ما أخرجا في الصحيحين عن علي بن أبي طالب وعن أبي سعيد الخدري وغيرهمـا -دخـل حـديث بعضـهم في بعض- أن النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم كـان يقسـم، فجـاءه رجـل نـاتئ الجبين كث اللحية، محلوق الرأس، بين عينيه أثر السجود، وقال مـا قال. فقال النبي صلى الله عليـه وسـلم: [يخـرج من ضئضـئي هـذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صـيامهم، وقراءتـه مـع قـراءتهم، يقـرأون القـرآن لا يجـاوز حنـاجرهم، يمرقـون من الإسلام كمـا يمـرق السـهم من الرميـة؛ لئن أدركتهم لأقتلنهم قتـل عـاد] وفي روايـة [لـو يعلم الـذين يقـاتلونهم مـاذا لهم على لسـان محمد لنكلوا عن العمل] وفي روايـة [شـر قتلى تحت أديم السـماء خير قتلى من قتلوا].

(قلت): فهؤلاء مع كثرة صـلاتهم وقيـامهم وقـراءتهم ومـا هم عليـه من العبـادة والزهـادة أمـر النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم بقتلهم، وقتلهم علي بن أبي طالب ومن معه من أصحاب النبي صـلى اللـه عليه وسلم وذلـك لخـروجهم عن سـنة النـبي وشـريعته، وأظن أني ذكرت قول الشـافعي: لئن يبتلى العبـد بكـل ذنب مـا خلى الشـرك بالله خير من أن يبتلى بشيء من هذه الأهواء. فلما ظهر قبح البدع في الإسلام، وأنهـا أظلم من الزنـا والسـرقة وشـرب الخمـر وأنهم مبتدعون بدعاً منكرة فيكون حالهم أسوء من حال الزاني والسارق وشارب الخمر أخذ شيخهم عبدالله يقول: يا مولانـا لا تتعـرض لهـذا الجانب العزيز -يعني أتبـاع أحمـد بن الرفـاعي- فقلت منكـراً بكلام غليظ: ويحك؛ أي شيء هو الجانب العزيز، وجنـاب من خالفـه أولى بـالعز يـا ذو الزرجنـة (كـذا بالأصـل) تريـدون أن تبطلـوا دين اللـه ورسوله، فقال: يا مولانا يحرقك الفقـراء بقلـوبهم، وقلت: مثـل مـا أحرقـني الرافضـة لمـا قصـدت الصـعود إليهم وصـار جميـع النـاس يخوفوني منهم ومن شرهم، ويقول أصحابهم إن لهم سراً مـع اللـه فنصر الله وأعان عليهم. وكان الأمراء قـد عرفـوه بركـة مـا يسـره الله في أمر غزو الرافضة في الجبل.

وقلت لهم: يا شـبه الرافضـة يـا بيت الكـذب، فـإن فيهم من الغلـو والشرك والمروق عن الشريعة مـا شـاركوا بـه الرافضـة في بعض صفاتهم. وفيهم من الكذب ما قد يقاربون به الرافضة في ذلــك، أو يساوونهم. أو يزيدون عليهم، فإنهم من أكذب الطوائـف حـتى قيـل فيهم: لا تقولوا أكذب من اليهود على اللـه، ولكن قولـوا أكـذب من

الأحمدية على شيخهم، وقلت لهم: أنا كافر بكم وبأحوالكم {فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون}.

ولما رددت عليهم الأحاديث المكذوبة أخذوا يطلبون مني كتباً صحيحة ليهتدوا بها فبذلت لهم ذلك، وأعيد الكلام: من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه، وأعاد الأمير هذا الكلام واستقر الكلام على ذلك. والحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

الباب الخامس

الصلة بين التصوف والتشيع

1- أوائل المتصوفة وعلاقتهم بالتشيع:

يذكر الدكتور كامل مصطفى الشيبي في كتابه (الصلة بين التصوف والتشيع) أن أول من تسمى باسم الصوفي في الإسلام ثلاثة، هم جابر بن حيان، وأبو هاشم الكوفي، وعبدك الصوفي.

فأما جابر بن حيان فقد كان تلميذاً لجعفر الصادق أو عبده، والشيعة يرون أن جابراً هذا من كبارهم وأنه أحد الأبواب (الباب عند الشيعة هو المتكلم باسم الإمام) وأنه ألف كتباً في التشيع، وكان له مذهب خاص في الزهد ويذكر القفطي صاحب كتاب (إِخْبارُ العلماء بأخبار العلماء) أن جابر بن حيان هذا كان مشرفاً على كثير من علوم الفلسفة ومتقلداً للعلم المعروف بعلم الباطن وهو مذهب المتصوفين من أهل الإسلام كالحارث المحاسبي، وسهل بن عبدالله التستري ونظرائهم، وقد كان جابر هذا بارعاً في الكيمياء ويقول عنه صاحب كتاب روضات الجنات (وأما البارع في هذه الصناعة على الإطلاق -علوم الطلسمات- فهو المقدم فيها الشيخ الآجل أبو موسى جابر بن حيان الصوفي منشئ كتاب المنتخب).

وأما الرجل الثاني الذي تسمى قديماً باسم الصوفي فهو أبو هاشم الكوفي وأنه أول من بنى خانقاه (دار خاصة للمنقطعين إلى التصوف) للصوفية في الرملة، وأنه كان يلبس لباساً طويلاً من الصوف كفعل الرهبان وكان يقول بالحلول والاتحاد مثل النصارى

غير أن النصارى أضافوا الحلول والاتحاد إلى عيسى عليه السلام وأضافهما هو لنفسه ويقول الدكتور كامل الشيبي:

"ويظهر من كل ما دار حول أبي هاشم أن أخباره كانت قليلة وهي في اضطرابها تعدل الأخبار الواردة عن جابر بن حيان أو تزيد، ولكن أبا هاشم على كل حال كان معاصراً لجعفر الصادق أي معاصراً لجابر بن حيان ويسميه الشيعة مخترع الصوفية وينقلون عن الصادق أنه قال فيه (إنه فاسد العقيدة جداً، وهو ابتدع مذهباً يقال له التصوف وجعله مقراً لعقيدته الخبيثة) كل ذلك لينفوا أن يكون التصوف من اختراع شيعي وذلك أمر يدل على التنصل من مسؤولية لم تمحص نتائجها ولا أغراضها" أ.هـ (الصلة بين التصوف والتشيع).

* وأما عبدك الصوفي فيذكر الدكتور كامل الشيبي أيضاً أن الدكتور قاسم غني نقل عن ماسنيون أنه كان آخر شيوخ فرقة نصف شيعية ونصف صوفية تأسست في الكوفة، وظهرت كلمة (صوفية) في آثار المحاسبي والحافظ اسما لها، وأن (عبدك) هذا كان رجلاً منزوياً زاهداً توفي ببغداد سنة 210هـ وأنه أول من أطلق عليه اسم الصوفي وكان يطلق في ذلك الحين على بعض زهاد الكوفة من الشيعة، وعلى مجموعة من الثائرين في الإسكندرية، وأن (عبدك) هذا كان من كبار المشايخ وقدمائهم قبل بشر بن الحارث الحافي، والسري بن المغلّس السقطي، و(عبدك) هذا كان رأس فرقة من الزنادقة الذين زعموا أن الدنيا كلها حرام محرم لا يجوز الأخذ منها إلا القوت من حيث ذهب أئمة العدل، ولا تحل الدنيا إلا بأيام عادل، وإلا فهي حرام ومعاملة أهلها حرام. ولا يجوز الأخذ إلا مقدار القوت فقط.

ويضيف كامل الشيبي أن اسم (عبدك) هذا هو عبدالكريم وأن حفيده محمد بن عبدك كان مقدم الشيعة. وهكذا يبدو عبدك هذا جامعاً لاتجاهات عديدة مختلفة نابعة من التشيع الممتزج بالزهد الذي انتشر في الكوفة وأنه أول كوفي يطلق عليه اسم الصوفي.

ويعلق الدكتور كامل الشيبي على كل هذا قائلاً:

"أما بعد فإن نتيجة هذا كله أن كلمة (صوفي) التي قطع الباحثون المحدثون بصدورها عن الصوف قد صارت كذلك لأن الصوف قد عم زهاد الكوفة نفسها حيث ظهرت هذه الكلمة أولاً. وقد اشتق

التصوف من الصوف. وقد رأينا أن لبس الصوف قد نبع من بيئة الكوفة التي عرف تمسكها بالتشيع ومعارضتها وحربها بالسيف أو بالقول أو بالقلب لمن نكل بالأئمة العلويين. وذلك -إذا صح- يقطع بأن التصوف في أصوله الأولى كان متصلاً بالتشيع" (الصلة بين التصوف والتشيع ص272).

2- أوجه التلاقي بين التصوف والتشيع:

المطلع على حقيقة مذاهب الصوفية، وعلى حقيقة مذاهب التشيع يجد أن المذهبين ينبعان من أصل واحد تقريباً ويهدفان في النهاية إلى غاية واحدة ويشتركان في عامة العقائد والشرائع التي ينتحلها كل منهم. وإليك التفصيل لهذا الإجمال.

أ-ادعاء العلوم الخاصة:

أول شيء يجب الشيعة أن ينفردوا به عن سائر فرق المسلمين أن عندهم علوماً خاصة ليست مبذولة لعموم الناس وهم ينسبون هذه العلوم تارة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه بزعم أن عنده أسرار الدين، وأنه وصي الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كتم عنده ما لم يطلع عليه باقي المسلمين، وتارة يزعمون أن عندهم علوم الأئمة أولاد علي من فاطمة وأن هؤلاء الأئمة يعلمون الغيب كله ولا يخطئون ولا ينسون، ولا يستطيع أحد أن يفهم الإسلام إلا من طريق الأئمة، فأسرار القرآن وحقيقة الدين عند الأئمة وحدهم، وتارة يزعمون أن عندهم قرآناً خاصاً يسمونه قرآن فاطمة وأنه يعدل هذا القرآن الذي بأيدي المسلمين ثلاث مرات (الدين بين السائل والمجيب للحاج ميرزا الحائري الإحقاقي ص89)، وليس فيه حرف من القرآن الذي بأيدي المسلمين اليوم. وأخرى يزعمون أن عندهم الجفر، وهو جلد قد كتب فيه كل العلوم.

وهكذا يزعمون لأنفسهم علوماً في الدين ليست عند أحد إلا عندهم فقط، ومرة أخرى يزعمون أن عندهم التفسير الحق لآيات القرآن بل يقولون إن الله بعث محمداً بالتنزيل (يعني حروف القرآن) وبعث علياً بالتأويل - (يعنون التفسير) (فرق الشيعة ص38).

ولقد درج المتصوفة أنفسهم على هذا المنوال نفسه فأعظم ما يلوح به المتصوفة ويتفاخرون به على الناس أن لديهم علوماً لدنية لا يطلع عليها إلا هم ولا يصل إليها إلا من سار على طريقهم بل

إنهم احتقروا ما عند عامة المسلمين بل والرسل أنفسهم بجوار ما زعموا لأنفسهم من العلم كما قـال كبـيرهم أبـو يزيـد البسـطامي: "خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله" وقال أيضاً: "أخذتم علمكم ميتـاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت يقول أحدكم: حـدثنا فلان عن فلان وأين فلان قالوا مات، وأما أحـدنا فيقـول: قلـبي عن ربي". وهكذا زعم المتصوفة أنهم أصحاب الكشف والعلوم اللدنيـة وأن من سـار خلفهم تلقى عنهم واسـتفاد منهم، بـل إنهم يزعمـون ربط قلب المريد بقلب الشـيخ ليتلقى العلم اللـدني من الشـيخ، ثم إن الشيخ أيضاً يربط قلب المريـد بالرسـول ليتلقى العلـوم اللدنيـة من عند الرسول صلى الله عليه وسلم.

وجعل المتصوفة كـذلك مصـدر علـومهم الخاصـة التأويـل البـاطني للقـرآن والحـديث حيث يزعمـون تـارة أنهم تلقـوا هـذا التأويـل من الله، وتـارة يزعمـون أنـه من الملـك، وأخـرى أنـه بالإلهـام وكـذلك ينسبون علومه الباطنية إلى معرفة أسـرار الحـروف المقطعـة في المصحف، والتلقي عن الخضر عليه السلام، بل والزعم بأن تلقيهم يكـون أحيانـاً عن اللـوح المحفـوظ بالسـماء، وهـذا عين مـا ادعتـه الشيعة أيضاً في أئمتهم حيث زعمـوا لهم أنهم يعلمـون الغيب وأنـه لا تسقط ورقة إلا يعلمونهـا، ولا يحـدث حـدث في الأبـد أو الأزل إلا هم على علم منه. وهذا عما ادعته المتصوفة لأنفسهم وأئمتهم.

وهكذا تتطابق عقيدة التشيع مع معتقد المتصـوفة في قضـية العلم الباطني حتى لكأنهما شيء واحد.

ب- الإمامة الشيعية والولاية الصوفية:

مـا زعمـه الشـيعة في أئمتهم هـو عين مـا ادعـاه المتصـوفة فيمن سـموهم بالأوليـاء أيضـاً. فقـد بـني مـذهب الـرفض على أن الأئمـة أنـاس مختـارون من قبـل اللـه سـبحانه وتعـالى لقيـادة الأمـة بعـد الرسـول، وأنهم لـذلك يملكـون علومـاً خاصـة لدنيـة، وهم لـذلك لا يخطئــون ولا ينســون ولهم مــنزلتهم من اللــه الــتي اســتحقوها اسـتحقاقاً ووهبـاً واختصاصـاً واجتبـاءً ثم غلـوا في هـؤلاء الأئمـة فجعلوهم آلهة أرباباً بكل ما تحمله الكلمة من معان فهم متصرفون في كل ذرات الكون، وهم يدخلون الجنة من شاءوا ويـدخلون النـار من شاءوا، ومن الرافضة من جعل روح الله حالـة فيهم كمـا قـالت الإسماعيلية والنصيرية، ومنهم من جعل منزلتهم فوق منازل الأنبياء والرسل والملائكـة جميعـاً وقـال: "إن لأئمتنـا مقامـاً لا يبلغـه ملـك

مقرب ولا نـبي مرسـل وأنهم يتحكمـون في قـرارات هـذا الكـون" (الخميني في الحكومة الإسلامية ص54).

* وهذه العقائد نفسـها هي الـتي أخـذها المتصـوفة وأطلقوهـا على من سموهم بالأولياء فكما خلع الرافضة صـفات الألوهيـة والربوبيـة على الأئمة خلع المتصوفة صـفات الربوبيـة والألوهيـة على الأوليـاء المزعـومين. فجعلـوهم أيضـاً متصـرفين في الكـون أعلاه وأسـفله ويعلمون الغيب كله، ولا يغرب عنهم صغير من أمر العـالم أو كبـير، وأن مقامهم لا يبلغه الأنبياء والملائكة، وأنهم نواب الله في مملكتـه والمتصـرفون في شـأن خلقـه، وأنهم يـدخلون الجنـة من شـاءوا ويخرجون من النار من شاءوا.

* وإذا كان الرافضة قد جعلوا بعد مقـام الإمامـة مقامـات أقـل من ذلك كالنقبـاء وهم وكلاء الإمـام.. وهـذه الفكـرة نفسـها قـد أخـذها المتصوفة وجعلوا مقام الـولي الأعظم وسـموه القطب الغـوث، ثم يليه الأقطاب الثلاثـة ثم يليـه الأبـدال السـبعة ثم النجبـاء السـبعون وهكذا.. مقتبسين كـل ذلـك من الـترتيب الشـيعي للـولاة والأئمـة.. وهكذا يتطابق الفكـر والعقيـدة الرافضـية في الإمامـة مـع العقيـدة الصوفية في الولاية.

يقول ابن خلدون في المقدمة:-

"ثم إن هــؤلاء المتــأخرين من المتصــوفة المتكلمين في الكشــف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك، فذهب الكثـير منهم إلى الحلـول وفيما وراء الحس، توغلوا في ذلك، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة.. وملأوا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات لـه، وغيره، وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميـذهما، ثم ابن العفيـف وابن الفــارض، والنجم الإســرائيلي في قصــائدهم، وكــان ســلفهم مخــالطين للإســماعيلية المتــأخرين من الرافضــة الــدائنين أيضــاً بالحلول وإلهية الأئمة مذهباً لم يعرف لأولهم فأشرب كل واحـد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشـابهت عقائـدهم، وظهـر في كلام المتصوفة القول بالقطب،ومعناه رأس العارفين يزعمــون أنه لا يمكن أن يسـاويه أحـد في مقامـه في المعرفـة حـتى يقبضـه الله، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتـاب الإشـارات في فصـول التصـوف منهـا فقـال: "جـل

جناب الحق أن يكون شرعه لكل وارد، أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد" وهكذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي، وإنما هو نوع من أنواع الخطابة، وهو بعينه ما تقوله الرافضة في توارث الأئمة عندهم، فانظر كيف سرقت طباع هؤلاء القوم هذا الرأي من الرافضة ودانوا به، ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب، كما قال الشيعة في النقباء، حتى إنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجلوه أصلاً لطريقتهم ونحلتهم رفعوه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو من هذا المعنى أيضاً، وإلا فعلي رضي الله عنه، لم يختص بين الصحابة بنحلة ولا طريقة في لباس ولا رجال، بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكثرهم عبادة ولم يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه على الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة.

تشهد بذلك سيرهم وأخبارهم. نعم إن الشيعة يخيلون بما ينقلون من اختصاص علي بالفضائل دون سواه من الصحابة ذهاباً مع عقائد التشيع المعروفة لهم، والذي يظهر أن المتصوفة بالعراق لما ظهرت الإسماعيلية من الشيعة وظهر كلامهم في الإمامة وما يرجع إليها مما هو معروف، فاقتبسوا من ذلك الموازنة بين الظاهر والباطن وجعلوا الإمامة السباق والخلق في الانقياد إلى الشرع، وأفردوه بذلك أن لا يقع اختلاف كما تقرر في الشرع (يشير ابن خلدون رحمه الله بذلك إلى ما هو معروف عن الرافضة في إثباتهم الإمامة أنه لا بد من إمام معصوم يليه إمام معصوم وهكذا السياسة الدين والدنيا بعد الرسول حتى لا يقع خلاف بين الناس، ولا يكون مرد أمرهم إلى الاجتهاد الذي لا يخلو من الخطأ.. ومعلوم فساد هذا القول لأنه ما معصوم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وهؤلاء الأئمة الذين قال الشيعة بعصمتهم قد وقع منهم، ما ينكره الشيعة أصلاً أو يقولون فعلوه تقية وخوفاً)، ثم جعلوا القطب لتعليم المعرفة بالله لأنه رأس العارفين، وأفردوه بذلك تشبيهاً بالإمام في الظاهر، وأن يكون على وزانه في الباطن.

وسموه قطباً لمدار المعرفة عليه، وجعلوا الأبدال كالنقباء (الأبدال عند المتصوفة، والنقباء عند الشيعة. انظر الفصل الخامس بالولاية) مبالغة في التشبيه. فتأمل ذلك. يشهد بذلك كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي، وما شحنوا به كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو إثبات وإنما مأخوذ من

كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي إلى الحــق" (مقدمة ابن خلدون ص875-877).

وهكـذا يقـرر ابن خلـدون تطـابق التصـوف مـع التشـيع في القـول بالعلوم الباطنية، ومراتب الولاية، والقول بالحلول والاتحاد.

ويقــول الــدكتور كامــل الشــيبي في كتابــه (الصــلة بين التصــوف والتشيع):

"وقد دخلت في التصوف فكرة إسماعيلية صريحة أخرى هي فكرة النقباء التي دارت -في الإسماعيلية- حول رجال عـددهم اثنـا عشـر يسمون الحجج يبثون الـدعوة في غيبـة الإمـام أو في حضـرته وهم مقدسون وعددهم ثابت ويسندهم تكوين العالم الطبيعي كما يسـند عدد الأئمة السبعة في السلسلة الواحدة، وقد بين لنا المقريزي أن هؤلاء الحجج متفرقون في جميـع الأرض، عليهم تقـوم. ويضـيف أن عدد هؤلاء الحجج أبداً اثنا عشر رجلاً" (خطـط المقريـزي ص489). وهكذا يشارك الحجة الإمام في العلم والدعوة والسـند الإلهي ومن هنا نفـذت الصـوفية إلى منـازل القطب والأبـدال. وهـذا ابن عـربي يـــذكر، في الفتوحـــات، عن الصـــوفية مـــا ذكـــره المقريـــزي عن الإسماعيلية فيقول في النقباء: "وهم اثنا عشر نقيباً في كـل زمـان لا يزيـــدون ولا ينقصـــون على عـــدد بـــروج الفلـــك الاثـــني عشـــر" (الفتوحـات المكيـة 2/9). وهـذه الإشـارة تكفي للدلالـة على أخـذ المتصوفة فكرة هذه المنازل المقدسة عن الإسـماعيلية. ويجب أن نشير هنا إلى أن ابن تيمية قد تنبه إلى أن هذه المصطلحات ليست مـأثورة عن النـبي فكأنـه يشـير إلى أن الصـوفية قـد أخـذوها عن الإسماعيلية الذين قالوا بها أول من قال. وقد تنبه ابن خلدون أيضاً إلى أخـذ المتصـوفة -وبخاصـة ابن عـربي- عن الإسـماعيلية القـول (بالقطب) وكذلك ابن قصي وعبدالحق بن سبعين وابن أبي واصل: تلميذه" (الصلة بين التصوف والتشيع ص209).

ج- القول بأن للدين ظاهراً وباطناً:

اتفقت أيضاً كلمة التصوف مع التشيع في أن للدين ظـاهراً وباطنـاً، فالظاهر هو المتبادل من خلال النصوص والـذي يفهمـه العامـة من ذلك، وأما الباطن فهو عندهم العلم الحقيقي المراد من النص وهذا لا يفهمه ولا يعلمه إلا الأئمة والأولياء.. فقوله تعـالى مثلاً: {وأقيمـوا

الصلاة، وآتوا الزكاة} أي أخرجوا زكاة أمـوالكم المفروضـة حسـب المقادير والنصاب الشرعي والشروط الشرعية لذلك.

ولكن الشيعة والمتصوفة زعموا أن ظـاهر القـرآن والحـديث الـذي يفهم منـه العـوام مـا يفهمـون لا يلـزم الأئمـة والأوليـاء لأن الأئمـة والأولياء تتنزل عليهم المعاني المقصـودة والمـرادة من ذلـك.. بـل قال الشيعة: إن محمداً جاء بالتنزيل وعلياً جاء بالتأويل. وزعموا أن الأئمة من بعده هم الذين يعلمون معاني القرآن الحقيقية، وللقـرآن عندهم باطن وظاهر، فالظـاهر للعامـة، والبـاطن للخاصـة، ولـذلك (فأقيموا الصلاة) عندهم مثلاً يعني بـايعوا الإمـام المعصـوم، (وآتـوا الزكـاة)، أي أخلصـوا وانقـادوا للإمـام.. وهكـذا تصـبح الألفـاظ والعبارات القرآنية لا مدلول لها.

ويمكن تفسيرها حسب الأهواء والأمزجة، لتوافـق العقائـد الباطنيـة التي يدعو بها هؤلاء وهؤلاء، وقد سمى المتصوفة تفسيرهم الباطن هـذا للنصـوص القرآنيـة (بالحقيقـة) وسـموا التفسـير الظـاهري (بالشريعة) وقالوا الحقيقة للأولياء، والشريعة للعامة..

وتصرفوا بعـد هـذا التقسـيم في نصـوص القـرآن والحـديث حسـب أهوائهم، وأدخلوا في الـدين مـا شـاءوا من مـزاعمهم وافـتراءاتهم. وأفقدوا النصـوص الشـرعية جلالهـا واحترامهـا، لأنهم أبعـدوها بهـذا التأويل عن المعـاني الحقيقيـة الـتي سـيقت من أجلهـا تمامـاً، فمـا علاقة مثلاً تفسير {التين} أن يكون هـو الرسـول، و{الزيتـون} أن يكون هو علي بن أبي طالب {وطور سينين} أن يكون هو الحسن، و{هذا البلـد الأمين} أن يكـون الحسـين، وهكـذا ومـا علاقـة قولـه تعالى:

{مرج البحرين يلتقيان} أن يكون بالبحرين عليـاً وفاطمـة و{يخـرج منهما اللؤلؤ والمرجان} الحسن والحسين؟!.

وقد كتب الدكتور كامل الشيبي فصلاً مطولاً حول هـذا المعـنى في كتابه (الصلة بين التصوف والتشيع) من هذا قوله:

"وقد أورد لنا الخوانساري أمثلة من هذه التأويلات كتأويـل الوضـوء بموالاة الإمام، والتيمم بالأخذ من المأذون عند غيبة الإمام الذي هو الحجة، والصلاة هي الناطق الذي هو الرسول بدليل قوله تعالى إن الصـلاة تنهى عن الفحشـاء والمنكـر، والاحتلام بإفشـاء السـر إلى غريب دون قصـد، والغسـل بتجديـد العهـد، والزكـاة بتزكيـة النفس

بمعرفـة مـا هم عليـه من الـدين، والكعبـة بـالنبي، والبـاب بعلي، والميقات والتلبية بإجابة المـدعو، والطـواف بـالبيت سـبعاً بمـوالاة الأئمة السبعة، والجنة براحة الأبدان عن التكاليف، والنـار بمشـقتها بمزاولة التكاليف (روضات الجنات ص731)، وتلك أحكـام تعـود بنـا إلى الغلو الذي عرفناه أنه قرر أن الـدين طاعـة رجـل وأن الصـلاة والزكـاة وغيرهمـا إنمـا هي كنايـات عن رجـال. ثم إن الإسـماعيلية تجعل النقباء إلهيين أيضاً وإن كـانوا من غـير الأئمـة وتسـندهم بـأن عددهم اثنا عشـر رجلاً في كـل زمـان كمـا أن عـدد الأئمـة السـبعة وأنهم مع كل إمام قائمون متفرقون في جميـع الأرض عليهم تقـوم (خطط المقريـزي 2/231،233)، ثم يعين المقريـزي مركـز هـؤلاء النقباء أو الحجج بأن مقامهم هو مقام الفـاهم المطلـع على أسـرار المعاني وينص على أن ظهور أمر الإمام (إنما هو ظهور أمره ونهيه على لسـان أوليائـه) (خطـط المقريـزي 2/231،233). ويـذكر أبـو يعقوب السجستاني أن ميراث النبي من العلم يتحـول إلى الوصـي ومنه إلى الإمام ومن الإمام إلى الحجة (كشف المحجوب في شرح قصيدة الجرجاني ص65).

ثم تتضح المسألة أكثر باطلاعنا على النص الـذي يـورده المقريـزي أيضـاً من أن "الإمـام إنمـا وجـوده في العـالم الروحـاني إذا صـرنا بالرياضة في المعـارف إليـه" (خطـط المقريـزي 2/233). المعـنى الذي يعبر عنه السجستاني الإسماعيلي بقولـه: "إن هـذه العلـوم لا تصل إلى مستحقيها بالرياضـة ولـو كـان حبشـياً أو سـندياً" (كشـف المحجـوب ص92). وبـذلك تتضـح لنـا فكـرة السـلوك الإسـماعيلي الذي يتيح للمريد أن يصل إلى حقيقـة التأويـل عن طريـق الرياضـة العقليـة الـتي بلـغ بهـا النقيب أو الحجـة مـا بلغـه الإمـام من علم. ويوضح جولـد تسـيهر ذلـك بـأن "الحقـائق لا توجـد إلا في المعـاني الباطنــة. أمــا المعــاني الظــاهرة فهي حجب مضــطربة وأقنعــة متناقضة. ومريدو الاندماج في الفرقة الإسماعيلية تـزاح عنهم هـذه الحجب والأقنعة بالقدر الـذي يناسـب اسـتعداداتهم، ويتـدرجون في هـذا المضـمار حـتى تتهيـأ لهم القـدرة على مواجهـة الحقـائق وهي سـافرة" (العقيـدة والشـريعة في الإسـلام ص216). ولا بـد أننـا لاحظنا موازاة هذه المعاني للمثل والمبـادئ الصـوفية. وقـد لاحـظ ذلك جولد تسيهر فـأورد لنـا قصـيدة لجلال الـدين الـرومي الشـاعر الصوفي يفصح بها عن فكرتي الجانبين المعبرة عن حقيقـة واحـدة بقوله: "اعلم أن آيات القرآن سـهلة يسـيره، ولكنهـا على سـهولتها

تخفي وراء ظاهرها معنى خفياً مستتراً. ويتصل بهذا المعنى الخفي ثالث يحير ذوي الأفهام الثاقبة ويعييها والمعـنى الرابـع مـا من أحـد يحيط به سوى الله واسع الكفاية من لا شبيه له. وهكـذا نصـل إلى معان سبعة الواحـد تلـو الآخـر، ولـذا لا تتقيـد يـا بـني بفهم المعـنى الظاهري كما لم تر الشـياطين في آدم إلا أنـه مخلـوق من الطين. فالمعنى الظاهري في القرآن شبيه بجسد آدم، فمـا نـراه منـه هـو هيئته الظاهرة وليس روحه الخفية المسـتترة" (العقيـدة والشـريعة في الإسلام ص216)، وهذا السـلوك يصـف الإنسـان بـالعلم الإلهي إلى حـد أن الإسـماعيلية رآوه -كالمتصـوفة- "أن الأنبيـاء النطقـاء أصحاب الشرائع إنما هم لسياسة العامة وأن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصـة" (خطـط المقريـزي 2/223)، وذلـك أن الفـاطميين كـانوا "يتـدرجون في دعــوتهم فــإذا تمكن المــدعو من التعــاليم الأولى أحالوه على ما تقرر في كتب الفلسفة من علم الطبيعيات وما بعـد الطبيعة والعلم الإلهي وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية، حـتى إذا تمكن المدعو من معرفة ذلك كشف الداعي قناعه وقال: إن ما ذكــر من الحــدوث والأصــول رمــوز إلى معــاني المبــادئ وتقلب الجواهر.." (خطط المقريزي 2/232) والظاهر أن هـذه الـدرجات متأخرة جدت في بـدء دولـة الفـاطميين وليسـت من أوائـل عقائـد الإسماعيلية. ويورد عبدالله عنـان المـراتب التسـع في دار الحكمـة التي أسسها الحاكم بـأمر اللـه الفـاطمي، ويـذكر أن الطـالب يلقن تعاليم الثنوية في المرتبة السابعة، وفي الثامنـة تنقض كـل صـفات الألوهيـة والنبـوة ويعلم الطـالب أن الرسـل الحقيقـيين هم رسـل العمل الذين يعنـون بالشـؤون الدنيويـة كـالنظم السياسـية وإنشـاء الحكومــات المثلى، وفي التاســعة والأخــيرة يــدخل إلى حظــيرة الأسرار ويعلم أن كل التعـاليم الدينيـة أوهـام محضـة وأنـه يجب ألا يتبـع منهـا إلا مـا هـو لازم لحفـظ النظـام.. "وأن إبـراهيم وموسـى والمسيح وغيرهم من الأنبياء ليسوا إلا رجالاً مسـتنيرين تفقهـوا في المســائل الفلســفية" (الجمعيــات الســرية في الإســلام ص42). والواقع أن هذه النظرة المادية إلى المذهب الإسماعيلي تسلبه كل ما فيه من غنوصية وروحانية، فليس الأمر كـذلك وإلا مـا قـامت لـه خلافة ولا حدثت في دولتهم طاعة، بل لقد وجدنا الفاطميين أخلص من غيرهم في عقيدتهم وأسرع إلى بــذل النفس، ولا يكــون البــذل إلا بالعاطفة الفياضة والإيمان الذي لا يتزعزع، وكذلك يـرى الأسـتاذ محمد كرد علي أن "العقل عندهم هـو حقيقـة معبـودهم" (الإسـلام

والحضارة العربية، دار الكتب 1936،ـ 2/63)، ولكن أي عمل؟ إنه العقل الإلهي لا المادي وهذا ما يورده (فيليب حتي) من أن "المريد يتدرج بتأن وهدوء في مراق بطيئة دقيقة حتى يعلو ذروة العقائد الباطنية الخفية بعد أن يكون قد أقسم على الكتمان، ومن هذه التعاليم والعقائد الباطنية فكرة نشوء الكون متجلياً عن الجوهر الإلهي وتناسخ الأرواح وحلول الألوهية في إسماعيل وانتظار رجعته مهدياً. والمراتب التي يتدرج فيها المريد سبع وقد تكون تسعاً، وهي تذكرنا بدرجات الماسونية اليوم" (تاريخ العرب 2/533). ومع تناول الباحثين لهذه الدرجات بالبحث على أنها قضية مسلمة فإن آدم متز يشكك في كل ما يقال عن درجات الإسماعيلية إلا ما يذكره ابن النديم من أنه "كان عندهم سبع درجات من الأتباع خلافاً لما ذكره أخو محسن من درجات تسع" (الحضارة العربية في القرن الرابع 2/51). والمهم في الأمر أن كلاً من هذه الدرجات له كتاب خاص يلقى على الواصلين إليها، وكل كتاب يسمى البلاغ. والبلاغ السابع هو الذي فيه نتيجة المذهب والكشف الأكبر ويقول ابن النديم: "إنه قرأه فوجد فيه أمراً عظيماً من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها" (الفهرست ص282). وما دام الوضع من الشرائع وإباحة المحظورات مقصورة على الدرجة السابعة فإنها تعني -إن صح قول ابن النديم- أن المريد قد بلغ درجة الحلول وأن العقل الأول قد اتصل به فلم يعد ثمة مجال لإفهامه لماذا حرم كذا وأحل كذا لأنه صار بنفسه للتشريع، وتلك عقيدة وجدناها من قبل عند فرق الغلاة وليست هي جديدة على الإسماعيلية. ومن أهم ما يرد في هذا المقام تقرير محمد بن سرخ النيسابوري الإسماعيلي (المتوفي في القرن الخامس) "أن ذلك اليوم هو يوم قوة العقل ودولته، فيه يتعلق بالنفس آثار القائم الذي يعيد للعقل إشراقه، وتعود إلى النفوس الفيوض الإلهية التي حجبت عنها من قبل" (شرح قصيدة ابن الهيثم الجرجاني، طهران 1955). وهذه المكانة في الإسماعيلية تقابلها في التصوف درجة المحو والاتحاد بحيث يقول الصوفي في صراحة: أنا الله، وقد رأينا أنها آتية من الغلاة أولاً ثم نظمتها الإسماعيلية وأصلتها وأسست فأخذتها الصوفية جاهزة، وقد رأينا في رسائل جابر بن حيان الإسماعيلي قوله: "إن حدّ علم الباطن أنه العلم بعلل السنن وأغراضها الخاصة اللائقة بالعقول الإلهية" وقد وجدنا هذا التفاوت في العلم -من قبل- في هذه الرسائل أيضاً ووجدنا أن طبقات

الناس الإلهيين تعد خمساً وخمسين طبقة للواصلين لا سبعاً ولا تسعاً كما قال الفاطميون بعدئذ. وتبدأ هذه الدرجات بالنبي الإمام فالحجاب فالبسيط فالسابق فالتالي فالأساس.. حتى تنتهي بالناسك فالحياة فالناهي فذي الأمر الذي إذا ظهر فلا بدل منه إذ كان كل واحد منهم مندوباً لأمر لا يخالطه فيه غيره" (الصلة بين التصوف والتشيع لكامل الشيبي ص205-209) أ.هـ منه بلفظه.

ويقول أيضاً الدكتور أبوالعلاء العفيفي:

"وترجع المقابلة بين الشريعة والحقيقة -في أصل نشأتها- إلى المقابلة بين ظاهر الشرع وباطنه. ولم يكن المسلمون في أول عهدهم بالإسلام ليقروا هذه التفرقة أو يكفروا فيها. ولكنها بدأت بالشيعة الذين قالوا إن لكل شيء ظاهراً وباطناً، وإن للقرآن ظاهراً وباطناً، بل لكل آية فيه وكل كلمة ظاهر وباطن. وينكشف الباطن للخواص من عباد الله الذين اختصهم بهذا الفضل وكشف لهم عن أسرار القرآن. ولهذا كانت لهم طريقتهم الخاصة في تأويل القرآن وتفسيره. ويتألف من مجموع التأويلات الباطنية لنصوص القرآن ورسوم الدين وما ينكشف للسالكين من معاني الغيب عن طرق أخرى مما أطلق عليه الشيعة اسم (علم الباطن) الذي ورثه النبي صلى الله عليه وآله وسلم علي بن أبي طالب -في زعمهم- وورثه علي أهل العلم الباطن الذين سموا أنفسهم بالورثة.

وقد اتبع الصوفية طريقة التأويل هذه واستعملوا فيها أساليب ومصطلحات الشيعة إلى حد كبير. ومما سبق تدرك مبلغ الصلة الوثيقة بين التصوف والتشيع الباطني" (التصوف والصورة الروحية في الإسلام).

د- تقديس القبور وزيارة المشاهد:

تقديس القبور وزيارة المشاهد تقديس شيعي في نشأته، فالشيعة هم أول من بنى المشاهد على القبور والمساجد عليها في الإسلام بعد أن جاء النبي صلى الله عليه وسلم بهدم ذلك حتى لا تكون ذريعة إلى الشرك كما قال صلى الله عليه وسلم: [لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد] (متفق عليه).

وفي صحيح مسلم أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أرسل أبا الهياج الأسدي إلى اليمن وقال له: ألا أبعثك على ما بعثني به

رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن لا تدع قبراً مشرفاً (أي ظاهراً بارزاً عالياً عن الأرض) إلا سويته ولا تمثالاً إلا طمسته.

ولكن الشيعة تتبعوا قبور من مات قديماً ممن يعظمونهم من آل البيت كعلي بن أبي طالب والحسين ومن سموهم بالأئمة من أهل البيت وراحوا يبنون على قبورهم.. ويجعلونها مشاهد ومزارات، وجعلوا ذلك أيضاً وسيلة للتكسب والعيش.. كما جاء في رسائل إخوان الصفا أن من الشيعة من جعل التشيع مكسباً، مثل الفاتحة والقصاص، وجعلوا شعارهم لزوم المشاهد وزيارة القبور (رسائل إخوان الصفا ج4 ص199).

وكان هذا البناء وإظهار هذه الشعائر منذ بداية القرن الثالث الهجري، ولكن بعض خلفاء بني العباس شرعوا يهدمون ما افتروه وبنوه من هذه القبور. كما ذكر ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية أن الخليفة العباسي المتوكل أمر في سنة 236هـ بهدم القبر المنسوب إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما وما حوله من المنازل والدور ونودي في الناس أن من وجد هنا بعد ثلاثة أيام ذهب به إلى المطبق، فلم يبق هناك بشر، واتخذ ذلك الموضع مزرعة تحرث وتستغل (البداية والنهاية ص315 ج1).. وكان هذا القبر مزاراً لفرقة الإسماعيلية من الشيعة الذين كانوا يزورون هذا القبر ثم يذهبون إلى (سلمية) (قرية من قرى سوريا كانت وما زالت مأوى للفرق الباطنية. وهي قاعدة الإسماعيلية في هذا الوقت)، لزيارة أئمتهم هناك (العبر ج3 ص361).

وجاء الصوفية فنسجوا على هذا المنوال فجعلوا أهم مشاعرهم زيارة القبور وبناء الأضرحة، والطواف بها والتبرك بأحجارها، والاستغاثة بالأموات، فقد جعلوا قبر معروف الكرخي، وهو رائد من رواد التصوف، مكاناً لزيارتهم وقالوا: قبر معروف ترياق مجرب (طبقات الصوفية للسلمي ص85).

بل جعل المتصوفة جل همهم بناء هذه القبور وتعظيمها ودعوة الناس إليها، وجعلوا أعظم مشاعرهم الطواف بها، والتبرك بها ودعاءها من دون الله عز وجل.. بل لا يوجد شيخ متبع إلا وبنى لنفسه قبة كبيرة ومقاماً.. وهكذا أعادوا من جديد شرك الجاهلية الأولى.

هـ- العمل على هدم الدولة الإسلامية:

الحلاج والتشيع:

قال الدكتور كامل الشيبي: لم يكن أمر الصلة بين الحلاج والتشيع مقصوراً على التداخل بين كلامه وكلام الأئمة، وإنما كان مطلقاً على مذاهب التشيع كلها، وقد استخدمها كلها في بناء مذهبه الحلولي الجديد الذي يشير إلى ظهور حركة غلو جديدة في مطلع القرن الرابع الهجري. والحلاج هو القائل:

"ما تمذهبت بمذهب أحد من الأئمة جملة وإنما أخذت من كل مذهب أصبعه وأشده وأنا الآن على ذلك" وستجد.. أن الحلاج كان صورة من أبي الخطاب الزعيم الغالي الذي قتل في الكوفة سنة 138هـ، وأما علاقته بالاثني عشرية فتنعكس مما رواه الطوسي من أن الحلاج صار إلى قم البلد الشيعي القديم، وكانت قرابة أبو الحسن النوبختي الشيعي تستدعيه ويستدعي أبو الحسن أيضاً ويقول:

"أنا رسول الإمام ووكيله" أ.هـ (الصلة بين التصوف والتشيع ص 368).

وقال أيضاً:

"وكانت إحدى التهم التي قتل الحلاج من أجلها تتضمن إنكار الحلاج للحج إلى مكة بالذات، ودعوته إلى الحج القائم على النية الخالصة والتوجه القلبي. وكان من أهم ما أخذ على الحلاج أنه يقول ببديل للحج يمكن إتمامه في بيت المسلم دون حاجة إلى تجشم مصاعب السفر والطواف حول الكعبة. وقد تطرق القاضي التنوخي إلى ذلك فذكر أن (هذا شيء معروف عند الحلاجية وقد اعترف لي (به) رجل منهم يقال: إنه عالم لهم) (الصلة بين التصوف والتشيع ص369) وقد برر هذا (العالم) ذلك بأن (هذا رواه الحلاج عن أهل البيت صلوات الله عليهم) (الصلة بين التصوف والتشيع ص396) (وصلوات الله عليهم) هذه من لوازم الإسماعيلية بالذات إلى ما عرف عنهم من أخذ بالتأويل على أوسع الحدود، وذلك يبين حداً آخر لاتصال الحلاج بالإسماعيلية.

وقد كان مصداق هذا الاتصال منبعثاً من أنه (أغار القرامطة على مكة ونهبوها بعد موت الحلاج بتسع سنوات واختطفوا الحجر الأسود منها)، وحققوا مذهب الحلاج، ولعله كان مذهباً من مذاهبهم أسرع هو بالتعبير عنه من عند نفسه. أ.هـ

وقد ذكر القاضي التنوخي أن الحلاج أرسل إلى بعض دعاته يقول: "وقد آن الآن أذانك للدول الغراء الفاطمية الزهراء المحفوفة بأهل الأرض والسماء وأذن للفئة الظاهرة وقوة ضعفها في الخروج إلى خراسان ليكشف الحق قناعه ويبسط العدل باعه" (نشوار المحاضرة ص86).

الحلاج داعية الإسماعيلية في المشرق:

قال الدكتور الشيبي أيضاً:

"ويذكر الخطيب البغدادي وابن كثير أن أهل فارس كانوا يكاتبون الحلاج بأبي عبدالله الزاهد.. هذه الكتبة أطلعت على الداعية الإسماعيلي المشهور أبي عبدالله الشيعي الذي ساعد على قيام دولة العبيديين قبل تحولها إلى مصر. فكأن الإسماعيليين كانوا يعتمدون على داعيتين يحملان كنية واحدة أحدهما بالمشرق وهو الحلاج، والآخر بالمغرب وهو أبو عبدالله الشيعي الذي يروي الإسماعيلية أنفسهم سبق صوفيته على إسماعيليته) (ص73).

شهادة العمار الحنبلي أن الحلاج قرمطي:

ذكر العمار الحنبلي أن الحلاج رحل إلى بغداد سنة 301هـ "مشهوراً على جمل وعلق مصلوباً ونودي عليه: هذا أحد القرامطة فاعرفوه".

وعلى الرغم من أن الحلاج قد قتل سنة 309هـ فإن الدعوة الفاطمية التي حمل لواءها قد استفحل خطرها وشرها؛ فقد استطاع أبو طاهر الجنابي القرمطي الإسماعيلي حليف الدولة الفاطمية والداعي إليها أن يدخل البصرة سنة 311هـ، والكوفة بعد ذلك بعامين. وكذلك استطاع القرامطة دخول مكة بعد مقتل الحلاج بتسع سنوات فقط، وقتل المسلمين حول الكعبة، وانتزاع الحجر الأسود، وكانوا بقيادة أبو سعيد القرمطي، وكان أبو سعيد هذا زميلاً للحلاج الحسين بن منصور (تذكرة الأولياء ج2 ص109).

ولذلك قال ابن النديم إن الحلاج كان يظهر مذاهب الشيعة للملوك، ومذاهب الصوفية للعامة، ويدعي أن الألوهية قد حلت فيه (الفهرست لابن النديم ص269).

ومع ذلك رأينا من يقول من شيوخ التصوف، وهو محمد بن حفيف المتوفي سنة 371هـ: "الحسين بن منصور عالم رباني"!!.

ووجدنا كذلك من يجعل العبارات الباطنية التي أطلقهـا الحلاج على أنها نهاية علوم التصوف كقوله: "في القرآن علم كـل شـيء، وعلم القرآن في الأحرف الـتي في أوائـل السـور وعلم الأحـرف في لام ألف".

الحلول عند الحلاج الصوفي وعند أبي الخطاب الشيعي:

وقضـية الحلـول تكـاد تكـون متطابقـة عنـد الحلاج الصـوفي وغلاة الشيعة، فقد كـان الحلاج يقـول في دعائـه: "يـا إلـه الآلهـة ويـا رب الأرباب، ويا من لا تأخذه سـنة ولا نـوم رد إلي نفسـي لئلا يفتن بي عبادك، يا من هوأنا، وأنا هو لا فرق بين إنيـتي وهويتـك، إلا الحـدث والقدم" (طبقات الصوفية).

والحلاج هو الذي وجد عنده ورقة مكتوب فيها "من الرحمن الرحيم إلى فلان ابن فلان".. إذا قارنا ذلك بمذهب أبي الخطاب الرافضـي الذي زعم أن الله خلق روح علي وأولاده وتوجـه إليهم أمـر العـالم فخلقوا هم السماوات والأرض. ومن هنـا قلنـا في الركـوع سـبحان ربي العظيم، وفي السجود: سبحان ربي الأعلى لأنـه لا إلـه إلا علي وأولاده، وأما الإله الأعظم فهو الذي فوض إليهم العـالم (اعتقـادات فرق المسلمين والمشركين ص57).

لا شـك أن مثـل هـذا الكلام وكلام الحلاج ينبعثـان من مصـدر واحـد ويصدران عن عقيدة واحدة، ويهدفان بالتـالي إلى هـدف واحـد هـو تحويل المسـلمين عن عقيـدتهم الحقـة وتضـليل سـعيهم، وإذهـاب دولتهم، وتمزيق وحدتهم وجماعتهم.

ومما مضـى يتـبين لنـا أن منهج الصـوفية وغلاة الشـيعة في القـرن الثالث كان منهجاً واحداً وعقيدة واحدة، فالحلاج كان زميلاً وصـاحباً لكبـار رجـال التصـوف المشـهورين في القـرن الثـالث كالجنيـد البغدادي والشبلي.

فالجنيد نفسـه قـد أرسـل إليـه عنـدما حكم عليـه بالقتـل والصـلب يقول: "أنك أفشـيت أسـرار الربوبيـة فأذاقـك طعم الحديـد"! وأمـا الشبلي فيقول: "كنت أنا والحسن بن منصور (الحلاج) شـيئاً واحـداً غير أنه تكلم وسـكت أنـا" فالصـوفية كـانوا مـع غلاة الشـيعة شـيئاً واحداً عقيدة وهدفاً.. عقيدة في الحلول، وإنمـا اختلفـوا فيمن حلت فيه روح لله، وهدفاً واحداً في العمـل على إسـقاط دولـة الإسـلام، وتمزيق وحدة المسلمين، وتشتيت الأمة، عقائد ومللاً وغلاة.

و-الطرق الصوفية والتشيع:

كانت الطرق الصوفية هي البداية العظيمة التي دخل عن طريقها الفكر الشيعي والمذهب الشيعي إلى العالم الإسلامي السنّي. وستقرأ فيما يلي إن شاء الله تعالى عن طريقتين مشهورتين تأسست الأولى في منتصف القرن السابع الهجري وما زال لها أتباع إلى اليوم وهي الطريقة البكتاشية، وتأسست الثانية في منتصف القرن السادس الهجري وما زال لها أتباع إلى اليوم وهي الطريقة الرفاعية.

والطريقة الأولى أعني البكتاشية شيعية قلباً وقالباً ومع ذلك نشأت في تركية عاصمة الخلافة الإسلامية واستطاعت التسلل حتى وصلت إلى الجيش الجديد (الانكشارية) بل وإلى بيت السلطان العثماني نفسه وأسهمت إسهاماً فعالاً في تحويل العقيدة السنية.

وسيعجب القارئ عندما يطلع على حقيقة هذه الطريقة كيف وجدت مكاناً ورداداً عند أهل السنة والجماعة ولكن عجبه سيزول عندما يعرف كيف التدرج بالمريد إلى ذلك المعتقد الباطني.

الطريقة البكتاشية:

الطريقة البكتاشية طريقة صوفية شيعية الحقيقة والمنشأ، ولكنها مع ذلك تربت وترعرعت في بلاد أهل السنة في تركية ومصر.

* تنسب هذه الطريقة إلى خنكار الحاج محمد بكتاش الخراساني النيسابوري -المولود في نيسابور سنة 646هـ - 1248م وينسب خنكار هذا نفسه إلى أنه من أولاد إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ويقال إنه تلقى العلم عن الشيخ لقمان الخراساني ولا يعرف من لقمان هذا،.. ولكن يقال إنه هو الذي أمره أن يسافر إلى تركية لنشر طريقته الصوفية، فسافر أولاً إلى النجف في العراق، ثم حج البيت وزار وسافر بعد ذلك إلى تركية، وكان هذا في زمان السلطان أورخان العثماني المتوفي سنة 761هـ.

* ويذكر أحمد سري البكتاش (دده بابا) شيخ مشايخ الطريقة البكتاشية في مصر الحالي.. في كتابه (الرسالة الأحمدية في تاريخ الطريقة البكتاشية) أن خنكار هذا نزل في قرية (صوليجية فترة

أويوك) والتي قسمت بعد ذلك بناحية الحاج بكتاش وما زالت تحمل هذا الاسم إلى اليوم. وأنه استضاف هناك رجل يسمى الشيخ إدريس وزوجته (فاطمة قوتلو ملك) وأنهما أنفقا أموالهما في سبيل نشر دعوة الشيخ خنكار الخراساني ولكن جاء وفد من خراسان لزيارة الشيخ خنكار فلم تجد المرأة ما تضيفهم به إلا أن باعت ثيابها.. واشترت طعاماً لضيوف الشيخ خنكار الخراسانيين. ولما كان من عادة المرأة فاطمة هذه أن ترحب بضيوف الشيخ فإنها لم تخرج إليهم لأنها لا تملك ثياباً.. فعلم الشيخ خنكار بهذا من الغيب فمد يده فأخرج صرة ملابس لها، ثم مد يده أيضاً تحت البساط الذي يجلس عليه فأخرج كيسين من الذهب وأعطاهما للمرأة التي جاءت وقبلت يدي الشيخ ورحبت بضيوفه، وآمنت بكراماته (الرسالة الأحمدية ص11 ولا يخفى ما في هذه القصة من الخدعة فخنكار هذا لم يخلق ثياباً. وإنما جاء بذلك الوفد الخراساني الذي تجرد بعد ذلك للدعوة الصوفية في تركية، وصنع الشيخ هذا على أنها كرامة ليسهل ذلك له طريق دعوته في أوساط العامة).

وكانت هذه القصة هي البداية لنشر الطريقة البكتاشية وكذلك مجيء هذا الوفد الخراساني الذي راح يروج للشيخ خنكار الذي كان قد مهد الطريق للدعوة الصوفية ولهذه الطريقة الشيعية الباطنية.

ثم انتحل الشيخ خنكار كرامة أخرى فادعى (أن فاطمة قوتلو) هذه زوجة الشيخ إدريس قد حملت عندما شربت قطرات من دم الشيخ.. وذلك أن فاطمة هذه لم تحمل من زوجها إدريس التركي مدة عشرين عاماً فلما جاء خنكار الخراساني وكانت تصب الماء له ليتوضأ فوقعت قطرات من دمه في الطشت فشربتها المرأة فحملت وتكرر حملها فولدت حبيباً، ومحموداً، وخضراً.

وهؤلاء الأولاد أصروا على أن أباهم هو الشيخ خنكار.. فيما يذكر أحمد سري شيخ مشايخ الطريقة البكتاشية في مصر أن الشيخ خنكار هو أبوهم الروحي فقط وأن أمهم حملت من شربها دم الشيخ وأن الشيخ خنكار لم يتزوج قط طيلة حياته.

* أسس الشيخ خنكار أول (تكية) صوفية للطريقة وابتدأ الأتباع والرواد يكثرون، ويسكنون في هذه القرية التي لم تكن إلا سبعة بيوت فقط ثم اكتشفوا جبلاً من جبال الملح. سموه جبل ملح الحاج بكتاش، واشتهر هذا الملح حتى كان يمون ويزود مطابخ السلطان

العثماني الذي كان يحصل منه على مليونين (أقة) (الأقة وزن يكــبر من الكيلو بقليل) كل عام..

ولما ذاع صيت الشـيخ خنكـار بكتـاش ووصـل الأمـر إلى السـلطان أورخان العثمـاني المتـوفي سـنة 761هـ عمـد هـذا السـلطان إلى الشيخ خنكار ليعلم أولاد الأسرى من أهل الذمة، وممن لا أب لهم.. ينشئهم على طريقة الدارسين البكتاشية.

وكانت هذه الفرصة الذهبية لانتشار الطريقة وذلـك أن هـذا الجيش الذي عرف بعد ذلك بالجيش الإنكشـاري -أي الجيش الجديـد- وهـو الـذي كـان عمـاد الحـروب التركيـة بعـد ذلـك، ثم كـان هـو الجيش المتسلط على مرافق الحياة كافـة في تركيـة.. وهكـذا اسـتطاعت الطريقة البكتاشية أن تنتشر وأقيمت المقامات على قبور من مات من مشايخها، وبعض هذه القبـور غطيت بالـذهب الخـالص. تنـافس السلاطين العثمانيون في بناء التكايا والزوايا والقبور البكتاشية.

مر على الطريقة البكتاشية أيام مد وجزر في تركية فبينما ناصــرها بعض السلاطين، عارضها آخرون مفضلين طريقة أخرى غيرها فقــد أمر السلطان محمـود الثـاني بإلغـاء الإنكشـارية بعـد أن عـاثت في الأرض فساداً، وأغلق كذلك الزوايا البكتاشـية ولكن السـلطان عبـد المجيد المتوفي سنة 1255هـ عاد وأمر بفتح الزوايا البكتاشية مرة أخرى.

* وفي سنة 1925م صدر مرسـوم الحكومـة التركيـة بإلغـاء جميـع الطــرق الصــوفية ومن ضــمنها الطريقــة البكتاشــية، وكــان آخــر مشايخها هو صالح نيازي الذي سافر إلى ألبانية وانتخبـه الـدراويش البكتاشـيون ليكـون (رده بابـا) وهي أعلى منزلـة في الطريقـة أي شيخ مشايخ الطريقة. وبعد اغتيال صـالح نيـازي هـذا سـنة 1942م تولى بعده ابنه عباس دده بابا الذي قتـل نفسـه سـنة 1949م بعـد دخــول البلاشـفة إلى ألبانيــة. ومنــذ ذلــك الــوقت انتقــل المركــز الرئيسـي للطريقـة ليتحـول إلى مصـر وتكـون القـاهرة هي المقـر الحالي والأخـير لهـذه الطريقـة.. فكيـف دخلت هـذه الطريقـة إلى مصر وكيـف اسـتقرت فيهـا ثم أصـبحت هي مكانهـا الرئيسـي بعـد تركية وألبانية؟.

الطريقة البكتاشية تنتشر في مصر:

* استطاع مؤسس الطريقة البكتاشية وهو خنكار محمد بكتـاش أن يربي مجموعة من المريـدين وكـان منهم (أبـدال موسـى سـلطان) الذي كان خليفـة بعـده، وربى أبـدال هـذا رجلاً يسـمى (قبوغوسـز) وهذا القبوغوسـز لا يعـرف من أبـوه ولا أمـه، وإنمـا تسـمى بغيـبي (الرسـالة الأحمديـة ص34)، واسـتطاع هـذا الرجـل أن يرتحـل مـع مجموعة من الدراويش من تركية إلى مصر واختار لمن يصحبه في هـذه الرحلـة دراويش من النـوع الـذين يطيعـون في كـل صـغيرة وكبيرة حتى إنه كان يقول لهم عن الشجرة الباسقة الطويلة.. هذه شجرة قثاء فيقولون نعم هي قثاء (الرسالة الأحمدية ص38). ولمـا دخل بهم مصر. أمرهم أن يضع كـل منهم على عينـه قطعـة قطن؛ فلمـا سـألهم الشـرط والجنـود عن ذلـك قـالوا: إننـا نغمض عين الظاهر، وننظر بعين الباطن.. والناس على دين ملوكهم.. وكان قـد علم قبوغوسز أن الأمير يشـتكي من وجـع عينـه!! وأراد الملـك أن يختبرهم فعمـل لهم وليمـة كـبرى ووضـع لهم ملاعـق طويلـة جـداً وأحضر وجهاء الناس ليأكلوا، وأمـرهم ألا يـأكلوا إلا بهـذه الملاعـق، فعجـز الجميـع عن الأكـل إلا قبوغوسـز ودراويشـه فـإنهم تنـاولوا الملاعق الطويلة، وكان كل منهم يطعم من أمامه وهكذا. وسر بهم الأمير الذي أعطاهم مكاناً يبنون فيه (تكيـة) أي زاويـة ورباطـاً لهم. ومنذ ذلك الوقت وهو سنة 800هـ بـدأ انتشـار الطريقـة البكتاشـية في مصر في بداية القرن التاسع الهجري وسمى قبوغوسـز نفسـه عبدالله المغاوري، وسموا أول تكية لهم تكية القصر العيني.. وظـل هذا الحال قائماً في مصر إلى سـنة 1242هــ - 1826م حـتى جـاء السلطان محمود الثاني العثماني فأمر بإلغاء الإنكشارية والطريقــة البكتاشـية، وأعطيت أملاكهم للطريقــة القادريــة.. ولكن في عهـد السلطان عبد المجيد عادت الطريقة البكتاشية مرة ثانية إلى مصر بعد أن سمح لهم هذا السلطان بالعمـل والنشـاط وذلـك منـذ عـام 1525م حيث حصل الشيخ علي الساعاتي على لقب (دده بابـا) أي شيخ المشايخ، فجمع الدراويش حوله مرة ثانية وبـنى تكيـة جديـدة في باب اللوق، وأخذ يعطي العهود ويقيم حلقات الذكر.

وفي سـنة 1276هــ – 1859م صـدرت أوامـر الحكومـة المصـرية بتخصيص المغـاره الـتي دفن فيهـا عبداللـه المغـاوري (قبوغوسـز) للطريقة البكتاشية، فبنوا تكية عظيمة هناك بعد أن طـردوا الرعـاة والبـدو الـذين يلجـأون إليهـا بأغنـامهم وإبلهم وبنـوا قبـة عظيمـة

لمؤسس طريقتهم في مصر. وأصبحت هذه التكية فيما بعد قبلة الشعب المصري حيث يؤمونها لزيارة (ولي الله المغاوري)!! الذي تخصص (بتحبيل النسوان) وشفاء الأمراض وتلبية الحاجات فكانت تقصده كل امرأة لا تلد، وكانت المرأة تدخل في المغارة ضمن كهوف مظلمة طويلة.. وبقيت تكية المغاوري هذه تابعة للمركز الرئيسي للطريقة في تركية، ثم أصبحت تابعة للمركز الرئيسي في ألبانية، ثم بعد أن قتل صالح نيازي بابا نفسه سنة 1949، اجتمع أتباع الطريقة واختاروا أحمد سري شيخ تكية قبوغوسز (عبدالله المغاوري) شيخاً لمشايخ علوم الطريقة وكان ذلك في 30 يناير سنة 1949م (الرسالة الأحمدية ص31) ومنذ ذلك الوقت أصبحت مصر هي المقر الرئيسي لهذه الطريقة، وأصبح أحمد سري (دده بابا) هو شيخ مشايخها. وفي يناير سنة 1957م أمرت الحكومة المصرية بإخلاء تكية المقطم لوقوعها ضمن المناطق العسكرية، وأعطت الحكومة أرباب الطريقة مكاناً آخر في ضاحية المعادي. حيث أسس المقر الجديد على غرار التكايا البكتاشية ثم نشط البكتاشيون، وجددوا التكايا القديمة التي لهم.

* هذه لمحة سريعة عن تاريخ هذه الطريقة التي نشأت وترعرعت في أوساط أهل السنة في تركية ومصر، وسيعجب القارئ أشد العجب عندما يعلم أن هذه الطريقة شيعية خالصة في المعتقد والأذكار والمشاعر، وأنها لا تمت إلى أهل السنة بصلة مطلقاً.. سيعجب كيف خفي مثل ذلك على علماء الإسلام ورجال السنة في تركية ومصر، ولكن يزول العجب عندما نعلم أن الظاهر الصوفي كان دائماً خداعاً يخفي تحته ما يخفي من العقائد الباطنية.

أصول الطريقة البكتاشية:

الطريقة البكتاشية مزيج كامل من عقيدة وحدة الوجود، وعبادة المشايخ وتأليههم، وعقيدة الشيعة في الأئمة.

يقول أحمد سري (دده بابا) شيخ مشايخ الطريقة:

"الطريقة العلية البكتاشية هي طريقة أهل البيت الطاهر رضوان الله عليهم أجمعين" (الرسالة الأحمدية ص67) ويقول أيضاً:

"وجميع الصوفية على اختلاف طرقهم يقدسون النبي وأهل بيته ويغالون في هذه المحبة لدرجة اتهامهم بالباطنية والاثني عشرية" (الرسالة الأحمدية ص68).

ويقول أيضاً:

"والطريقة العلية البكتاشية قد انحدرت أصولها من سيدنا ومولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعن أولاده وأحفاده إلى أن وصلت إلى مشايخنا الكرام يداً بيد، وكابر عن كابر، وعنهم أخذنا مبادئ هذه الطريقة الجليلة" (الرسالة الأحمدية ص69).

مراتب الطريقة البكتاشية:

وقد قسم أرباب هذه الطريقة المنتسبين إلى طريقهم على النحو التالي حسب درجاتهم:

1- العاشق: وهو الذي يحب الطريق ويعتنق مبادئها وتسيطر عليه الروح البكتاشية، وله رغبة في الانضمام إلى الطريقة، ويكثر من الحضور إلى التكية ويسمع ما يدور بها. ويرشحه الشيخ ليكون في المنزلة التالي وهي درجة الطالب.

2- الطالب: وهو الذي يعلن رغبته في الانضمام ويرشحه الشيخ لذلك ليتقبل الإقرار، ويعطي العهد. وتقام له حفلة بذلك.

3- المحب: وهو الطالب الذي انتسب إلى هذه الطريقة بعد حفلة الإقرار والبيعة.

4- الدرويش: الذي يتبحر في آداب الطريقة وعلومها ويلم بأركانها ومبادئها. ويهب نفسه للخدمة العامة فيها.

5- البابا: وهي درجة المشيخة ولا يصل إليها الدرويش إلا بعد مدة طويلة حيث يكون قد عرف الرموز الصوفية وأحاط بها..

6- الددة: وهو الخليفة، ولا يمنح هذه المنزلة إلا شيخ المشايخ ويكون هذا رئيساً لفرع من فروع الطريقة في مصر.

7- الددة بابا: شيخ المشايخ وينتخب من بين الخلفاء وهو المدير العام لشئون الطريقة في العالم وهو الذي يعين البابوات وله حق عزل المشايخ..

التكية البكتاشية:

التكية البكتاشية في الغالب عبارة عن ضيعة كبيرة بها قصر فخم وقبور مزخرفة مبنية، ويقيم بها الدراويش أبداً منقطعين للخدمة، وقد تضم التكية آلاف المواشي والأنعام من البقر والغنم، وتأتيها

الإتاوات والأرزاق من منتسبي التكية في القطر. إذ لا يجـوز للزائـر الدخول إليها إلا وهو يحمـل شـيئاً مـا يقدمـه قربانـاً.. ونسـتطيع أن نقـول إنهـا مملكـة أو إمـارة خاصـة.. ولـذلك فالمنتسـب إلى هـذه الطريقة لا بد أن يكون خادمـاً في هـذه المملكـة الخاصـة لأسـياده المشايخ الذين يتربعون على عـرش الولايـة البكتاشـية. يقـول أحـد سري (دد بابا): "والمنتسـب إلى الطريقـة العليـة تنتظـره واجبـات كثـيرة يؤديهـا في منزلـه وفي التكيـة عنـد زيارتـه لهـا. فالواجبـات المنزليـة هي إقامـة الصـلوات في أوقاتهـا وتلاوة الأوراد والأذكـار المأذون بتلاوتها وحفظ الأدعية المأثورة، وفي التكية يكلف بالخدمة مـع الـدراويش ثم يخصـص لخدمـة مثـل سـقاية القهـوة أو خدمـة الضيوف أو إعداد الطعام وتجهيز المائـدة وغسـل الأواني أو خدمـة الحديقة، فإذا حذق التعاليم كلفه الشيخ بخدمة أرقى فيعين نقيباً أو دليلاً أو ميدانجياً. وهكذا.." أ.هـ (الرسالة الأحمدية ص72).

العهد ودخول الطريقة:

لتعميد المريد أو الطالب نظام خاص في الطريـق البكتاشـي فعنـد دخولـه إلى ميـدان التكيـة يقـرأ الـدليل أبياتـاً معينـة من الشـعر ثم يقول:

اللهم صـل على جمـال محمـد، وكمـال علي والحسـن والحسـين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ثم يقول:

جئت بباب الحق بالشوق سائلاً

مقراً به محمداً وحيدراً (حيدر هو علي بن أبي طالب)

وطالب بالسر والفيض منهما

ومن الزهـراء وشـبير (وشـبير المقصـود علي بن أبي طـالب أيضـاً ويعنون بهذا القصير) شبراً

ثم يقرأ الشيخ على الطالب آية البيعة:

{إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً} (الفتح:10).

ثم يقول الطالب أبياتاً من الشعر يعلن بها دخول الطريق ومن هذه الأبيات:

وبالحب أسلمت الحشا خادماً لآل العبا (آل العبا يعنون بهم أهل الكساء وهم علي وفاطمة والحسن والحسين والعباس، وبعد دخول الطالب وإقامة الحفل على هذا النحو يسلم الطالب خدمة ما في التكية كأن يكون ساقياً للقهوة أو فلاحاً، أو خادماً للضيوف أو طباخاً.. الخ)

وملاذي هو الحاج بكتاش قطب الأوليا!!

آداب الطريقة البكتاشية:

1- آداب زيارة التكية:

فرض أرباب الطريقة على المريد أن يغتسل قبل زيارة التكية وأن يأخذ معه هدية ولا بد ولو كان ملحاً. فإذا وصل الباب سمى ولا يجوز له أن يطأ العتبة برجله لأنها مقدسة ثم يلتحق بالخدمة التي تطلب منه، وفي وقت المجلس يجلس حسب مرتبته، ولكل شخص مرتبة خاصة، والمراتب بالأقدمية.

* ثم يذهب المريد بعد دخول التكية والاستراحة فيها إلى القبر الموجود في التكية، ولزيارة القبرة آداب خاصة منها السلام المخصوص، ثم العودة بظهره إلى خارج الضريح.

والشيخ في العادة لا يجلس مع المريدين، ولا يزار إلا إذا صدر الإذن بذلك من الشيخ، ولا يزوره المريد إلا بصحبة الدرويش المختص، وعلى المريد أن يخلع حذاءه ويدخل مطأطئ الرأس ويقف على بعد خطوات من الشيخ ويقرأ:

وجهك مشكاة وللهدى منارة

وجهك لصورة الحق إشارة!!

وجهك الحج والعمرة والزيارة

وجهك للطائعين قبلة الإمارة

وجهك القرآن الموجز العبارة (الرسالة الأحمدية ص74)!!

ولا يخفى أن هذا هو عين الفكر الباطني في جعل الدين هو طاعة رجل كما تقول الإسماعيلية "الدين طاعة رجل"، وهذه العبودية

الكاملة هي عين ما تهدف إليه هذه الطريقة حيث تجعل معاني الحج والعمرة والزيارة والقرآن بل والله سبحانه وتعالى هو هذا الشيخ الصوفي الباطني.

وبعد ذلك يتقدم المريد فيقبل يد الشيخ ثم يعود بظهره بضع خطوات ولا يجلس حتى يأذن له الشيخ بالجلوس وعند الوقوف أمام الشيخ لا بد من مراعاة ما يلي:

1- أن يضع إبهام القدم اليمنى فوق اليسرى.

2- وضع اليدين على الصدر فوق السرة!!.

الأوراد البكتاشية:

والناظر في الأوراد البكتاشية يرى كيف أسست هذه الأوراد على عقيدة الشيعة الإمامية الاثني عشرية، فالورد البكتاشي يبدأ بذكر لله ثم للرسول ثم لعلي ثم لفاطمة ثم للحسن ثم للحسين ثم لعلي زين العابدين ثم الباقر، وهكذا إلى الإمام الثاني عشر عند الشيعة ثم الإعلان أن الذاكر بهذا الذكر متول للشيعة، بريء من جميع أهل السنة، ثم بعد ذلك ورد خاص في لعن الصديق أبي بكر رضي الله عنه، وكل من رضي وتابع له، ثم في النهاية إشهاد الله أن الخلفاء بعد الرسول هم الأئمة الأثنا عشر دون غيرهم. وإليك بعض نصوص هذه الأوراد البكتاشية.

1- اللهم صل وسلم وزد وبارك على السيد المطهر، والإمام المظفر والشجاع الغضنفر إلى شبير وشبر -قاسم طوبى وسقر- (شبير: هو لقب يطلقونه على علي لأنه كان قصيراً دون الربعة. ومعنى أنه قاسم طوبي وسقر أن له الجنة والنار وهو يدخل من يشاء كيف يشاء فالقسمة إليه).

2- اللهم صل وسلم وزد وبارك على السيدة الجليلة الجميلة الكريمة النبيلة المكروبة العليلة ذات الأحزان الطويلة!! في المدة القليلة المعصومة المظلومة، الرضية الحليمة، العفيفة السليمة، المدفونة سراً، والمغصوبة جهراً، المجهولة قدراً، والمخفية قبراً، سيدة النساء الأنسية، الحوراء البتول العذراء، أم الأئمة النقباء النجباء فاطمة التقية الزهراء عليها السلام.

ولا يخفى ما في هذا الكلام من الدس والطعن واتهام الصحابة رضوان الله عليهم بظلم فاطمة رضي الله عنها وغصبها، وادعاء العصمة المطلقة لها.

3- اللهم صل وسلم وزد وبارك على السيد المجتبى والإمام المرتجى سبط المصطفى وابن المرتضى علم الهدى.. الشفيع ابن الشفيع المقتول بالسم النقيع - المدفون بأرض البقيع.. الإمام المؤتمن.. والمسموم الممتحن.. الإمام بالحق أبي محمد الحسن.. (الرسالة الأحمدية ص83).

ولا يخفى ما في هذا أيضاً من الدس وأن الحسن بن علي رضي الله عنه مات مسموماً.

4- وأما في الصلاة على الحسين فيقول الورد البكتاشي:

اللهم صل وسلم وزد وبارك على السيد الزاهد والإمام العابد الراكع الساجد.. قتيل الكافر الجاحد.. الإمام بالحق عبدالله الحسين..

5- وهكذا تستمر هذه الأوراد على هذا النحو ذاكرة إماماً من أئمة الشيعة الاثني عشرية إلى أن يأتي الورد الخاص بمهدي الشيعة المنتظر الذي يسمونه محمد بن الحسن العسكري فيقول الورد بالنص:

اللهم صل وزد وبارك على صاحب الدعوة النبوية، والصولة الحيدرية، والعصمة الفاطمية، والحلم الحسينية والشجاعة الحسينية، والعبادة السجادية، والمآثر الباقرية، والآثار الجعفرية، والعلوم الكاظمية، والحجج الرضوية، والجود التقوية والنقاوة والنقوبة والهيبة العسكرية، والغيبة الإلهية، القائم بالحق والداعي إلى الصدق المطلق، كلمة الله، وأمان الله، وحجة الله، القائم لأمر الله، المقسط لدين الله، الذابّ عن حرم الله، إمام السر والعلن، دافع الكرب والمحن، صاحب الجود والمنن، الإمام بالحق أبي القاسم محمد بن الحسن، صاحب العصر والزمان، وخليفة الرحمن، ومظهر الإيمان وقاطع البرهان وسيد الإنس والجان، المولى الولي، وسمي النبي والوصي، والصراط السوي، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، الصلاة والسلام عليك يا وصي الحسن، والخلف الصالح، يا إمام زماننا، أيها القائم المنتظر المهدي، يا ابن رسول الله، يا ابن أمير المؤمنين، يا إمام

المسلمين، يا حجـة اللـه على خلقـه، يـا سـيدنا ومولانـا إنـا توجهنـا واستشـفعنا وتوسـلنا بـك إلى اللـه، وقـدمناك بين يـدي حاجتنـا في الدنيا والآخرة يا وجيهاً عند الله اشـفع لنـا عنـد اللـه بحقـك وبحـق جدك وبحق آبائك الطاهرين (الرسالة الأحمدية ص88،89).

6- وأما في ورد التولي والتبري فإنهم يقولون:

بسم اللـه الـرحمن الـرحيم، الحمـد للـه الـذي هـدانا لهـذا ومـا كنـا لنهتدي لولا أن هدانا الله. وما توفيقي واعتصامي إلا بالله. إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهـل الـبيت ويطهـركم تطهـيراً. والصـلاة والسلام على رسولنا محمـد الـذي أرسـله بالهـدى. قـل لا أسـألكم عليـه أجـراً إلا المـودة في القـربى. وعلى آلـه وأصـحابه وأزواجـه الهدى. يا سـادتي ويـا مـوالي إني تـوجهت بكم أنتم أئمـتي وعـدتي ليـوم فقـري وفـاقتي وحـاجتي إلى اللـه. وتوسـلت بكم إلى اللـه واستشفعت بكم إلى الله. وبحبكم وبقربكم أرجـو النجـاة من اللـه. تكونوا عند الله. رجائي يا سادتي يـا أوليـاء اللـه. صـلى اللـه عليكم أجمعين. اللهم إن هؤلاء أئمتنا وساداتنا وقاداتنا وكبراؤنـا وشـفعاؤنا بهم نتـــولى ومن أعـــدائهم نتـــبرأ في الـــدنيا والآخـــرة. والعن من ظلمهم. وانصر شيعتهم واغضب على من جحدهم. وعجل فــرجهم. وأهلك عدوهم من الجن والإنس أجمعين من الأولين والآخــرين إلى يوم الدين. اللهم ارزقنا في الدنيا زيـارتهم وفي الآخـرة شـفاعتهم. وزدنا محبتهم. واحشرنا معهم. وفي زمرتهم. وتحت لـوائهم. بمنـك وكرمك يا أكـرم الأكـرمين.. ويـا أرحم الـراحمين. والحمـد للـه رب العالمين. اللهم صل على محمد وآل محمد.

ولا يخفى أيضاً ما في هذا الورد من التبري من أهـل السـنة جميعـاً بادعاء أنهم ظلموا أهل الـبيت وجحـدوهم حقهم. وفي الـورد الـذي يلي هذا القول:

"اللهم العن أول ظالم ظلم حـق محمـد وآل محمـد وآخـر تـابع لـه على ذلك" (الأحمدية ص90)، ولا يخفى أنهم يعنون بـذلك الصـديق أبا بكر رضي الله عنه وكل مسلم رضي بولايته إلى يوم القيامة!!

وفي ختام الأوراد على المريـد البكتاشـي والسـالك أن يشـهد هـذه الشهادة ويقول:

"وأشهد أن الأئمة الأبرار. والخلفاء الأخيـار. بعـد الرسـول المختـار: على قامع الكفار. ومن بعده سيد أولاده الحسن بن علي. ثم أخــوه

السـبط التـابع لمرضـات اللـه الحسـين. ثم العابـد علي ثم البـاقر محمـد. ثم الصـادق جعفـر. ثم الكـاظم موسـى. ثم الرضـا علي ثم التقي محمـــد. ثم النقي علي. ثم الـــذكي العســـكري الحســـن. ثم الحجة الخلف الصالح القائم، المنتظر المهدي المرجى، الذي ببقائه بقيت الدنيا، وبيمنه رزق الورى، وبوجوده ثبتت الأرض والسماء، بـه يملأ الأرض قسـطاً وعـدلاً، بعـدما ملئت ظلمـاً وجـوراً، وأشـهد أن أقوالهم حجة وامتثالهم فريضة، وطاعتهم مفروضة، ومودتهم لازمة مقضية، والاقتداء بهم منجية، ومخالفتهم مردية، وهم سـادات أهـل الجنة أجمعين، وشـفاء يـوم الـدين، وأئمـة أهـل الأرض على اليقين وأفضل الأوصياء المرضيين" (الرسالة الأحمدية ص92).

ولا شك بعد ذلك أن هذه عقيدة شيعية كاملـة حملتهـا هـذه الأوراد، والعجيب حقـاً أن هـذه العقيـدة الشـيعية قـد انتشـرت في تركيـة الدولة السنية، وفي مصر كذلك، واستمرت هـذه العقيـدة الباطنيـة تنتشر وتنمو طيلة هذه القرون الطويلة من أواسـط القـرن الثـامن تقريباً إلى يومنا هذا في القرن الخامس عشـر الهجـري وكـل ذلـك تحت جنـاح التصـوف.. فـأي تلازم أبلـغ بعـد ذلـك وأي تطـابق بين التصوف والتشيع.. وهـل كـان التصـوف إلا المعـبرة الـتي عـبر عن طريقها الفكـر الشـيعي البـاطني إلى ديـار الإسـلام.. بـل هـل كـان التصوف إلا المعبرة التي عـبرت بهـا كـل الفلسـفات وكـل أشـكال الإلحاد والزندقة والتخريف إلى العالم الإسلامي؟!!.

دور الفرس في التشيع والتصوف:

لقــد كــان للفــرس والجنس الإيــراني الــدور الممــيز الخــاص في التصوف والتشيع. فأئمة التصوف ورواده الأول بلا استثناء قد كـانوا من الفرس والموالي ولم يكن منهم عربي قط. وقد ارتبط التشــيع أيضاً قديماً باسم الفرس حتى إنه لا يكـاد يـذكر التشـيع إلا ويقـترن ذكره بذكر الفرس.. وقد كـان لـذلك أسـبابه الخفيـة بلا شـك. وقـد كتب الدكتور كامل الشيبي في كتابه (الصلة بين التصوف والتشيع) فصلاً خاصاً بذلك حيث يقول:

أثر الشعب الإيراني في التشيع والتصوف:

"ويهمنا في هذا المجال أن نورد رأياً لـبراون رواه البـاحث الإيـراني المعاصر الدكتور قاسم غني -ومر بنا أصله- مـؤداه أن (الإيرانـيين - بعد رضوخهم لسيف العرب إثر حروب القادسـية وجلـولاء وحلـوان

ونهاوند- بذلوا استقلالهم وشـوكتهم عن يـد وهم صـاغرون، وسـواء أشـاءوا أم أبـوا دخلـوا الإسـلام بحكم غريـزة المحافظـة، غـير أن العـرب -الـذين نظـر إليهم الإيرانيـون بعين الاحتقـار من قـديم- لم يستطيعوا مـع غلبتهم أن يحملـوا الإيرانـيين على مشـاركتهم طـراز التفكير والعقيدة والسلفية والمنطق والآمـال والمطـالب الروحيـة، لأن التبـاين -شـكلاً ومعـنى- كـان عظيمـاً في العنصـر وطريقـة المعيشـة والأوضـاع الاجتماعيـة. وعلى ذلـك فـإن انتهـاء الصـراع بهزيمة إيران أوجد انفعالات روحية وتـأثرات معنويـة في الإيرانـيين على شـكل صـراع فكـري ظهـر في التـاريخ الأدبي والمـذهبي والاجتمـاعي والسياسـي، وأثـر العـرب في الإسـلام، وكـان التشـيع وكـذلك التصـوف من أهم ردود الفعـل الـتي أورثهـا هـذا الصـراع الفكري) (تاريخ تصوف در إسلام 3 -ترجمة-). وقـد أوضـح الـدكتور قاسم غني هذه الفكرة وبين جوهرها بقوله: (ويجب أن نبين هنا أن رد الفعل هذا لم يأت عن عمد واختيار وإرادة على خطـة مرسـومة يراد بها الانتقام بل كان أكثره متأنياً بحكم الانفعـال النفسـي وتحت تأثير العواطف والأحاسيس الخفية التي يعرفها علم النفس، أي أن ذلك قد حدث غالبـاً دون أن يجـد لـه النـاس علـة واقعيـة ودون أن يحللوه، ولكن ذهنهم كان مسـوقاً إلى هـذا العمـل بهـذه الطريقـة) (تاريخ تصوف در إسلام 3-ترجمة) ولقد نطـق إيـراني معاصـر -في صراحة وجلاء- بهذه الحقيقة واعـترف بـأن التصـوف قـد ظهـر في إيران (في عصر تسلط على وطننـا فيـه عـدو قـوي، فلمـا لم يجـد الإيرانيـون قـدرة على المخالفـة والمبـارزة سـلكوا سـبيل الهزيمـة واتخذوا القوى الغيبية معتقداً لهم وألقوا سلاحهم في ميـدان تنـازع البقاء... وعلى هذا فقد كان التصوف حينئذ ضرورة من الضـرورات وليس اليـوم كـالأمس، ويجب ألا نحمـل الأفكـار الصـوفية محمـل الجد) (تصوف للبرفسور عباس مهرين: المقدمة -ترجمـة- الواقـع أن هذه المعاني متضـمنة في صـورة واضـحة في عبـارة ابن حـزم الواردة في كتابه -الفصـل- طبـع مصـر 1321م 2/115. وقـد عـبر عنها براون وغيره بألفاظهم).

على أن هذا كله لا يقدح في أن التصوف قد ظهر في سائر الأقطار الإسلامية حينئذ، ولكن الواضح أيضاً أن التطور لم يخالـط الزهـد إلا في خراسان وعلى يد الفـرس في البصـرة والكوفـة بـل حـتى في الشام حين دخلها إبراهيم بن أدهم وصحبه. وينبغي أن نـذكر الـدور الذي قام به الفرس من إدخالهم مثلهم الدينيـة في التشـيع الغـالي

الأول حين نصروا المختار، وعاضدوا حركة الغلو العجلية، وانضموا إلى حركة أبي هاشم حتى أدى بهم الأمر إلى تأليه أبي مسلم الخراساني، كما فعلوا مع أئمة الشيعة من العلويين. يضاف إلى ذلك أنهم نصروا حركة عبدالله بن معاوية في فارس أيضاً وأسبغوا عليه النور الإلهي الذي سنجده في التصوف واضحاً جلياً. وهذا كله يعني أن الفرس قد بدؤوا إضافة القداسة إلى البيت النبوي باعتبارها أساساً موازياً لأسسهم السياسية والدينية السابقة من تأليههم الملوك، وقولهم بالنور الذي ينتقل من ملك إلى آخر، فثبتت الولاية لعلي بن أبي طالب على نحو مبالغ فيه، وانتقلت هذه الولاية المقدسة مع زيادات وإضافات وحواش إلى الأئمة من بعده حتى بلغ الأمر حد التأله" (الصلة بين التصوف والتشيع ص341-343).

وهذه الشهادات تعني في الجملة أن التصوف والتشيع عند الإيرانيين كان دائماً وسيلة إلى غاية ولم يكن عقيدة وانتحالاً خالصاً، وهذا يصل إليه الدكتور كامل الشيبي في خلاصة بحثه حيث يقول:

"وقد استعان المختار بالوالي لأول مرة في تاريخ التشيع وكان ذلك من أسباب فشل حركته، وانفضاض العرب عنه، ويجب أن نلاحظ هنا أن دور الفرس في التشيع المبكر كان مؤقتاً فقد انصرفوا من بعد المختار إلى موالاة العباسيين وعادوا إلى التشيع من جديد بعد أن نزلت بهم ضربة السفاح أولاً. ثم المنصور ثم الرشيد. بل لقد وجدناهم يمنعون العلويين الخلافة حين تسلم البويهيون أزمة الحكم من العباسيين. وبهذا يتبين لنا أن دور الفرس في التشيع بل في الإسلام كان مجرد وسيلة لاستعادة المجد القديم، وإلغاء التسلط العربي عن كواهلهم" (الصلة بين التصوف، لكامل الشيبي ص 101).

الباب السادس

أئمة الإسلام والتصوف

في هذا الباب نجمع طائفة من كلام علماء المسلمين قديماً وحديثاً لبيان مواقفهم من التصوف:

1- لم تعرف كلمة التصوف قط في عصر الصحابة ولا التابعين ولم يكن هنـاك بتاتـاً من يسـمى بالمتصـوف، ولـذلك فالتصـوف بدعـة منكـرة لم تظهـر إلا في أواخـر القـرن الثـاني الهجـري، ولـذلك لم يدركها الإمامان أبو حنيفة ومالك رضي الله عنهما.

الإمام الشافعي:

وأما الإمام الشـافعي فقـد أدرك بـدايات التصـوف وكـان من أكـثر العلماء والأئمة إنكاراً عليهم. وقد كان مما قاله في هذا الصدد: "لو أن رجلاً تصوف أول النهار لا يأتي الظهر حتى يصير أحمق".

وقال أيضاً: "ما لزم أحـد الصـوفيين أربعين يومـاً فعـاد عقلـه أبـداً، وأنشد:

ودعوا الذين إذا أتوك تنسكو وإذا خلوا كانوا ذئاب خفاف

(تلبيس إبليس ص371)

وقـال أيضـاً عنـدما سـافر إلى مصـر: "تـركت ببغـداد وقـد أحـدث الزنادقة شيئاً يسمونه السماع" (يعني الغناء والرقص الـذي ابتدعـه الصوفية في القرن الثاني وما زال مسلكهم إلى اليوم).

الإمام أحمد بن حنبل:

وأما الإمام أحمد بن حنبل فقد كان لهم بالمرصاد فقد قال فيما بدأ الحـارث المحاسـبي يتكلم فيـه وهـو الوسـاوس والخطـرات. قـال أحمـد: "مـا تكلم فيهـا الصـحابة ولا التـابعون". وحـذر من مجالسـة الحارث المحاسبي وقـال لصـاحب لـه: "لا أرى لـك أن تجالسـهم". وذكر أبو بكر الخلال في كتاب السنة عن أحمد بن حنبل أنه قال:

"حذروا من الحارث أشد التحذير!! الحارث أصل البلبلـة -يعـني في حوادث كلام جهم- ذاك جالسه فلان وفلان وأخـرجهم إلى رأي جهم ما زال مأوى أصحاب الكلام. حارث بمنزلة الأسد المرابط انظر أي يوم يثب على الناس!!" (تلبيس إبليس 166-167).

وهذا الكلام من الإمام أحمد يكشف فيه القناع أيضاً عن أن الحارث المحاسبي الذي تسربل ظاهراً بالزهد والـورع والكلام في محاسـبة النفس على الخطرات والوسـاوس كـان هـو المـأوى والملاذ لأتبـاع جهم بن صفوان المنحرفين في مسائل الأسماء والصفات والنـافين لها، وهكذا كان التصوف دائماً هو الظاهر الخادع للحركات والأفكـار

الباطنية. ولذلك وقف الإمام أحمد لهـؤلاء الأشـرار الظـاهرين منهم والمتخفين بالزهـد والـورع وأمـر بهجـر الحـارث المحاسـبي وشـدد النكير عليه فاختفى الحارث إلى أن مات. (تلبيس إبليس 167).

الإمام أبو زرعة الدمشقي:

وجاء بعد الإمام أحمد بن حنبل الإمام أبـو زرعـة رحمـه الله فقـال أيضاً عن كتب الحـارث المحاسـبي وقـد سـأله سـائل عنهـا: "إيـاك وهذه الكتب هذه كتب بدع وضلالات. عليك بالأثر فإنك تجد فيـه مـا يغنيـك عن هـذه الكتب. قيـل لـه: في هـذه الكتب عـبرة. بلغكم أن مالك بن أنس وسفيان الثوري والأوزاعي والأئمة المتقدمين صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوسـاوس وهـذه الأشـياء هـؤلاء (يعـني الصوفية) قوم خالفوا أهل العلم يأتوننـا مـرة بالحـارث المحاسـبي، ومرة بعبدالرحيم الديبلي ومرة بحاتم الأصم ومـرة بشـقيق البلخي ثم قال: ما أسرع النـاس إلى البـدع" أ.هـ (تلـبيس إبليس ص166-167).

الإمام أبو اليسر محمد بن محمد بن عبـدالكريم الـبزودي المتـوفي سنة 478هـ ببخارى:

قـال في كتابـه (أصـول الـدين) عنـد التعريـف بالتصـوف: "وأمـا (الصوفية) فأكثرهم من (أهل السـنة والجماعـة). وفيهم من يكـون صاحب الكرامة، إلا أنه قد ظهـر فيهم مـذاهب رديـة أكثرهـا ضـلال وبدعة. منهم (الحبية) يقولون: إن الله تعالى إذا أحب عبداً رفع عنه الخطاب فيحـل لـه كـل النعم ويسـقط عنـه العبـادات ولا يبقى في حقه حظر فلا يصلون ولا يصومون ولا يسترون العورة، ولا يمنعـون عن الزنا وشرب الخمر، ولا عن اللواطة ولا عن محظور ما.

ومنهم (الأوليائية) يقولون: إن الولي أفضل من النبي والرسول من الآدميين والملائكة جميعاً. ويقولون: إن الرسول دون المرسل إليـه ودون المرسل، على هذا رأينا عادات الأكابر. وهؤلاء يقولون أيضـاً: إذا بلـغ الإنسـان في العبـادة الدرجـة القصـوى وفي الولايـة الرتبـة العليا لا يبقى في حقه خطاب الإيجاب ولا خطاب الحظر ويحـل لـه كل شيء.

ومنهم (الإباحتية) يقولون: الأموال كلها على الإباحـة، وكـذا الفـروج وليس للملاك إلا مجرد الاكتساب، ويستبيحون أموال الناس وفروج نسائهم.

ومنهم (الحلولية) وهم قوم يستبيحون الـرقص والغنـاء والنظـر إلى الشاب الأمرد المليح الصبيح، ويقولون قد حلت بهذا الأمرد الصـبيح صفة من صفات البارئ، فنحن نحبه ونعانقه لأجل تلك الصفة.

ومنهم (الحورية) يقولـون باسـتباحة الـرقص والغنـاء والمبالغـة في الرقص حتى يسقطون على الأرض من كثرة الإتعـاب في الـرقص، ثم يقومـون ويغتسـلون ويقولـون إن الحـور العين يحضـرن (الحـق أنهم كانوا ينسبون في هذا الوقت إلى أهل السنة والجماعـة وكـان هذا ظاهرهم ولكنهم في الحقيقة كانوا زنادقة في الباطن يضمرون عقائد الباطنية كما شرح البزدوي نفسه أحوالهم)، ونجامعهن وكـأن إبليس جامعهم لشر صنيعتهم.

ومنهم (الواقفية) يقولون: إنه لا يمكن معرفة الله تعـالى، وتوقفـوا في معرفة الله تعالى، وقالوا أبياتاً في الفارسية والعربية فيها:

تراكه داندكي		تراتو داني تو

ترانداند كس		تراتو داني بس

وقال آخر:

تاتوتوي زعلت خالي ني		يا باعلل ومحك ويرا مجوي

وقال آخر:

جه خبر فهم وه، را ازتو		بحقيقت تراتو داني تو

روح وقلب وخردبتوا محدث		محدثات تراجه علم ازتو

وللآخر بالعربية:

لا يعرف الحق إلا من يعرفه		لا يعرف القديم المحدث الفاني

(الشطر الثاني من البيت جاء مكسور الوزن)

وقالوا: إن العجز عن المعرفة هو المعرفة.

ومنهم (المتجاهلة) وهم قـوم يضـربون المزامـير ويشـربون الخمـر ويـأتون ببعض الفـواحش ويلبسـون ثيـاب الفسـقة ويقولـون: تـرك الإرادة واجب فبمثل هذا تترك الإرادة.

ومنهم (المتكاسلة) رضـوا بملءِ البطن من الطعـام حرامـاً كـان أو حلالاً يـأكلون مـا يجـدون حرامـاً أو حلالاً، ويسـكنون في الحانـات لا

يكسبون بل ينامون في غالب الأزمان ويصلون قليلاً قليلاً، ويـأكلون كثيراً إن وجدوه ويرقصون إن وجـدوا قاريـاً (أي مضـيفاً من القـرى بمعنى الضيافة)، واختاروا الكسل ولا يتعلمون شيئاً ولا يتزوجون إلا أنهم لا يعتقدون مذهباً رديًا ولا ينازعون مع أحد فهؤلاء لا بـأس بهم. ومنهم العامة الأتقياء البررة، وأصحاب الكرامات يكونـون أبـداً على الطهارة ويتبعون سنن النبي صلى اللـه عليـه وسـلم في المشـرب والمأكل واللباس والكلام والنيام والعبـادة إلا أنهم تركـوا سـنته في تبليغ الوحي، وفوضوا ذلـك إلى العلمـاء. وينبغي أن يـترك الإنسـان الطعن في الصـوفية ويقطـع لسـانه عنهم (قلت كيـف يجب ذلـك وهذه هي أحوالهم بل يجب الإنكـار عليهم)، فـإن فيهم خيـار الأمـة، وإنما ذكرت هؤلاء لأنه ظهـر في بلادنـا بعض هـؤلاء خصوصـاً بـديار فرغانة قد يحضرون بخـاراً أحيانـاً ثم يخرجـون إذا علمنـاهم فهـؤلاء (الأوليائية) و(الحبية) شر عباد الله مال مذهبهم إلى الزندقة.

وفي (الصوفية) قوم يدعون الإلهام يقولون: حدثني قلبي عن ربي، ثم يـذكرون بعض مـا وضـعه (القرامطـة) من الإشـارات الفاسـدة بالألفاظ الهائلة يغرون بهم العامة، وجعلـوا ذلـك مكسـبة لأنفسـهم وأنكروا الشرائع أجمـع، شـر خليقـة اللـه تعـالى، وواحـد من هـؤلاء الصوفية حضر بلدة بخارى سنة ثمـان وسـبعين وأربـع مائـة، وجمـع (الصوفية) وبعض (أصـحاب الشـافعي) على نفسـه، وكنت خـرجت من بلدة بخارى إلى بعض قراها فلمـا حضـرت أخـبروني بحضـوره، وكان قبـل ذلـك يعتقـد مـذهب (أبي حنيفـة) ويميـل إلى الاعـتزال، فبعثت إليه اثنين من أصحابي قلت لهما: قولا لـه لم تـركت مـذهب (أبي حنيفة) وأخرجت هذه البدع. فقال: ما تركته؛ فقلت لهما: قولا له لماذا ترفـع اليـدين عنـد الركـوع وعنـد رفـع الـرأس من الركـوع فاضطر إلى كشف سريرته الخبيثة فقال: ظهر لي ما لو ظهـر لكم ترفعون أيديكم فقلت لهما: قولا له مـاذا ظهـر لـك هـل تقـدر على إظهاره أو لا تقدر فإن كنت تقـدر على إظهـاره فـأظهر وإن كنت لا تقدر على إظهاره فذلك بدعة عجزت عن إظهارهـا، ثم قلت لهمـا: قـولا لـه إنـا على الطريقـة الـتي كـان عليهـا الرسـل والأنبيـاء والصـالحون من الفقهـاء من جميـع الأعصـار وأتقيـاؤهم وأوليـاؤهم وقراؤهم وأنت أيها التلبيس (هكذا بالأصل) الضال الغـاوي المغـوي أعرضـت عن طريقـة هـؤلاء وسـلكت طريقـة إبليس وهـو طريقـة (الروافض) و(القرامطة) فعند ذلـك فـر من بلـدة بخـارى ونواحيهـا فرار القـرود من الأسـود والهنـود والقيـود. وقـد أخـبرني واحـد من

فقهائنا أنه سأل هذا المبتدع لم تـركت مـذهب (أبي حنيفـة) وترفـع اليدين عند الركوع وعند رفع الرأس من الركـوع، فقـال: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بأصـحابه صـلى اللـه عليـه وسلم وغيرهم ويرفعون أيديهم عند الركوع وعنـد رفـع الـرأس من الركوع (بالرغم من أن السنة هي رفع اليدين عنـد الركـوع والرفـع منه إلا أن احتجاج الصـوفي بأنـه يـرى الرسـول يفعـل ذلـك يقظـة تلبيس وزندقـة وكـذب على الرسـول وقـد زعمـوا أيضـاً أنـه أعـني الرسول يحضر مجالس سماعهم وموالدهم، بل وديوانهم في حـراء الذي يزعمـون أنـه تقـدر فيـه المقـادير) فقـال: قلت لـه رأيت في المنام قال: بل في اليقظة" انتهى بلفظه.

الإمام ابن الجوزي:

وأما الإمام أبو الفـرج عبـدالرحمن بن الجـوزي البغـدادي المتـوفي سـنة 597هــ فقـد كتب كتابـاً فريـداً سـماه (تلـبيس إبليس) خص الصـوفية بمعظم فصـوله وبين تلـبيس الشـيطان عليـه وكـان ممـا ذكره هذه الصفحات:

"وكـــان أصـــل تلبيســـه عليهم أنـــه صـــدهم عن العلم وأراهم أن المقصـود العمـل فلمـا أطفـأ مصـباح العلم عنـدهم تخبطـوا في الظلمـات. فمنهم من أراه أن المقصـود من ذلـك تـرك الـدنيا في الجملة فرفضوا ما يصلح أبدانهم. وشبهوا المـال بالعقـارب، ونسـوا أنه خلق للمصالح وبالغوا في الحمـل على النفـوس حـتى إنـه كـان فيهم من لا يضطجع. وهؤلاء كانت مقاصدهم حسـنة غـير أنهم على غـير الجـادة. وفيهم من كـان لقلـة علمـه يعمـل بمـا يقـع إليـه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري. ثم جـاء أقـوام يتكلمـون لهم في الجوع والفقر الوساوس والحظوات وصنفوا في ذلك مثـل الحـارث المحاسبي. وجاء آخرون فهذبوا مذهب التصـوف وأفـردوه بصـفات مـيزوه بهـا من الاختصـاص بالمرقعـة والسـماع والوجـد والـرقص والتصفيف وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة. ثم مـازال الأمـر ينمى والأشياخ يضعون لهم أوضاعاً ويتكلمـون بواقعـاتهم. ويتفـق بعـدهم عن العلماء لا بل رؤيتهم ما هم فيه أو في العلوم حتى سموه العلم الباطن وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر.

ومنهم من خـرج بـه الجـوع إلى الخيـالات الفاسـدة فـادعى عشـق الحق والهيمان فيه كأنهم تخايلوا شخصاً مستحسن الصورة فهـاموا به، وهـؤلاء بين الكفـر والبدعـة، ثم تشـعبت بـأقوام منهم الطـرق،

ففسدت عقائدهم، فمن هؤلاء من قال بالحلول ومنهم من قال بالاتحاد. وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سنناً، وجاء أبو عبدالرحمن السلمي فصنف لهم كتاب السنن، وجمع لهم حقائق التفسير، فذكر عنهم فيه العجب في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم. وإنما حملوه على مذاهبهم. والعجب من ورعهم في الطعام وانبساطهم في القرآن. وقد أخبرنا أبو منصور عبدالرحمن القزاز، قال: أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: قال لي محمد بن يوسف القطان النيسابوري، قال: كان أبو عبدالرحمن السلمي غير ثقة، ولم يكن سمع من الأصم إلا شيئاً يسيراً فلما مات الحاكم أبو عبدالله بن البيع حدث عن الأصم بتاريخ يحيى بن معين وبأشياء كثيرة سواه. وكان يضع للصوفية الأحاديث.

قال المصنف: وصنف لهم أبو نصر السراج كتاباً سماه لمع الصوفية ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول ما سنذكر منه جملة إن شاء الله تعالى. وصنف لهم أبو طالب المكي قوت القلوب فذكر فيه الأحاديث الباطلة ومالا يستند فيه إلى أصل من صلوات الأيام والليالي وغير ذلك من الموضوع وذكر فيه الاعتقاد الفاسد. وردد فيه قول - قال بعض المكاشفين- وهذا كلام فارغ وذكر فيه عن بعض الصوفية أن الله عز وجل يتجلى في الدنيا لأوليائه. أخبرنا أبو منصور القزاز أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: قال أبو طاهر محمد بن العلاف. قال: دخل أبو طالب المكي إلى البصرة بعد وفاة أبي الحسين بن سالم فانتمى إلى مقالته وقدم بغداد فاجتمع الناس عليه في مجلس الوعاظ فخلط كلامه فحفظ عنه أنه قال: ليس على المخلوق أضر من الخالق. فبدعة الناس وهجروه فامتنع من الكلام على الناس بعد ذلك، قال الخطيب: وصنف أبو طالب المكي كتاباً سماه قوت القلوب على لسان الصوفية وذكر فيه أشياء منكرة مستشبعة في الصفات.

قال المصنف: وجاء أبو نعيم الأصبهاني فصنف لهم كتاب الحلية. وذكر في حدود التصوف أشياء منكرة قبيحة ولم يستح أن يذكر في الصوفية أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وسادات الصحابة رضي الله عنهم. فذكر عنهم فيه العجب وذكر منهم شريحاً القاضي والحسن البصري وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل وكذلك ذكر السلمي في طبقات الصوفية وإبراهيم بن أدهم ومعروفاً الكرخي وجعلهم من الصوفية بأن أشار إلى أنهم من الزهاد.

فالتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحد وقد ذموا التصوف على ما سيأتي ذكره وصنف لهم عبدالكريم بن هوازن القشيري كتاب الرسالة فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء، والقبض، والبسط، والوقت، والحال والوجد والوجود، والجمع، والتفرقة، والصحو، والسكر، والذوق، والشرب، والمحو، والإثبات، والتجلي، والمحاضرة، والمكاشفة، واللوائح، والطوالع، واللوامع، والتكوين، والتمكين والشريعة، والحقيقة، إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء وتفسيره أعجب منه، وجاء محمد بن طاهر المقدسي فصنف لهم صفة التصوف فذكر فيه أشياء يستحي العاقل من ذكرها سنذكر منها ما يصلح ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وكان شيخنا أبو الفضل بن ناصر الحافظ يقول: كان ابن طاهر يذهب مذهب الإباحة، قال: وصنف كتاباً في جواز النظر إلى المراد أورد فيه حكاية عن يحيى بن معين، قال: رأيت جارية بمصر مليحة صلى الله عليها. فقيل له تصلي عليها، فقال صلى الله عليها وعلى كل مليح، قال شيخنا ابن ناصر: وليس ابن طاهر بمن يحتج به، وجاء أبو حامد الغزالي فصنف لهم كتاب الإحياء على طريقة القوم وملأه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها، وتكلم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه. وقال: إن المراد بالكوكب والشمس والقمر اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه أنوار هي حجب الله عز وجل ولم يرد هذه المعروفات. وهذا من جنس كلام الباطنية. وقال في كتابه المفصح بالأحوال: إن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصورة إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق.

قال المصنف: وكان السبب في تصنيف هؤلاء مثل هذه الأشياء قلة علمهم بالسنن والإسلام والآثار وإقبالهم على ما استحسنوه من طريقة القوم. وإنما استحسنوها لأنه قد ثبت في النفوس مدح الزهد وما رأوا حالة أحسن من حالة هؤلاء القوم في الصورة ولا كلاما أرق من كلامهم. وفي سير السلف نوع خشونة، ثم إن ميل الناس إلى هؤلاء القوم شديد لما ذكرنا من أنها طريقة ظاهرها النظافة والتعبد وفي ضمنها الراحة والسماع والطباع تميل إليها. وقد كان أوائل الصوفية ينفرون من السلاطين والأمراء فصاروا

أصدقاء (أي بعد أن صار التصوف حرفة وتكسباً صاحبوا الأمراء والسلاطين).

وجمهور هذه التصانيف التي صنفت لهم لا تستند إلى أصل وإنما هي واقعات تلقفها بعضهم عن بعض ودونوها وقد سموها بالعلم الباطن. والحديث بإسناد إلى أبي يعقوب إسحق بن حية قال سمعت أحمد بن حنبل وقد سئل عن الوساوس والخطرات. فقال: ما تكلم فيها الصحابة ولا التابعون.

قال المصنف: وقد روينا في أول كتابنا هذا عن ذي النون نحو هذا، وروينا عن أحمد بن حنبل أن سمع كلام الحارث المحاسبي. فقال لصاحب له. لا أرى لك أن تجالسهم. وعن سعيد بن عمرو البردعي، قال شهدت أبا زرعة، وسئل عن الحارث المحاسبي وكتبه، فقال للسائل: إياك وهذه الكتب. هذه الكتب كتب بدع وضلالات، عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب. وقيل له. في هذه الكتب عبرة. قال: من لم يكن له في كتاب الله عز وجل عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة. بلغكم أن مالك بن أنس، وسفيان الثوري، والأوزاعي، والأئمة المتقدمة، صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم يأتوننا مرة بالحارث المحاسبي ومرة بعبدالرحيم الدبيلي ومرة بحاتم الأصم ومرة بشقيق، ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي ثنا أبو محمد رزق الله بن عبدالوهاب التميمي عن أبي عبدالرحمن السلمي قال: أول من تكلم في بلدته في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية ذو النون المصري فأنكر عليه ذلك عبدالله بن عبدالحكم وكان رئيس مصر وكان يذهب مذهب مالك وهجره لذلك علماء مصر لما شاع خبره أنه أحدث علماً لم يتكلم فيه السلف حتى رموه بالزندقة. قال السلمي: وأخرج أبو سليمان الداراني من دمشق. وقالوا إنه يزعم أنه يرى الملائكة وأنهم يكلمونه، وشهد قوم على أحمد بن أبي الحواري: إنه يفضل الأولياء على الأنبياء فهرب من دمشق إلى مكة، وأنكر أهل بسطام على أبي يزيد البسطامي ما كان يقول حتى إنه ذكر للحسين بن عيسى أنه يقول: لي معراج كما كان للنبي صلى الله عليه وسلم معراج فأخرجوه من بسطام، وأقام بمكة سنتين ثم رجع إلى جرجان فأقام بها إلى أن مات الحسين بن عيسى ثم رجع إلى بسطام، قال السلمي: وحكى رجل عن سهلي بن عبدالله

التستري أنه يقول: إن الملائكة والجن والشياطين يحضرونه وإنه يتكلم عليهم فأنكر ذلك عليه العوام حتى نسبوه إلى القبائح فخرج إلى البصرة فمات بها، قال السلمي: وتكلم الحارث المحاسبي في شيء من الكلام والصفات فهجره أحمد بن حنبل فاختفى إلى أن مات.

قال المصنف: وقد ذكر أبو بكر الخلال في كتاب السنة عن أحمد بن حنبل أنه قال: حذروا من الحارث أشد التحذير، الحارث أصل البلية يعني في حوادث كلام جهم ذاك جالسه فلان وفلان وأخرجهم إلى رأي جهم ما زال مأوى أصحاب الكلام، حارث بمنزلة الأسد المرابط انظر أي يوم يثب على الناس" (تلبيس إبليس 167/163). انتهى منه بلفظه.

الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية:

وأما الإمام ابن تيمية رحمه الله فقد كان من أعظم الناس بياناً لحقيقة التصوف، وتتبعاً لأقوال الزنادقة والملحدين منهم وخاصة ابن عربي، والتلمساني، وابن سبعين.

فتعقب أقوالهم وفضح باطنهم وحذر الأمة من شرورهم وذلك في كتبه ومؤلفاته الكثيرة وفي فتاويه، وكذلك تتبع أقوال المخلطين منهم الذين خلطوا بين القول الطيب والقول الخبيث كالترمذي صاحب كتاب (ختم الولاية) والغزالي صاحب إحياء علوم الدين. ولا شك أن من أعظم ما ألف الإمام ابن تيمية في هذا الصدد هو كتابة (الفرقان بين أولياء الرحمة وأولياء الشيطان) فقد فصل فيه القول في الولاية الرحمانية وبيان صفاتها من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، وفرق بين ذلك والولاية الشيطانية الصوفية التي تعتمد على الشعبذات والدجل، والكذب، وأكل أموال الناس بالباطل، والسماع والغناء والرقص والبدع المنكرة في الدين، والتظاهر بالصلاح والتقوى، ولقد أجاد الإمام ابن تيمية رحمه الله أيما إجادة في بيان الكرامة الرحمانية التي هي حق لولي الله، والكرامة الشيطانية التي تجري أحياناً على أيدي هؤلاء كتظاهرهم بالدخول في النيران وزعمهم أنها لا تضرهم، وحملهم الحيات والثعابين، وضربهم أنفسهم بالسيوف والسهام وغير ذلك من أنواع المخاريق التي يزعمون أنها من كراماتهم، وقد قام الإمام ابن تيمية نفسه بتحدي هؤلاء الصوفية الذي يزعمون هذه الكرامات وأنه يدخل معهم النار التي يزعمون دخولها وأنها تحرقهم إن شاء

الله ولا تحرقه، شريطة أن يغسلوا أنفسهم أولاً بالخل لإزالة دهن الضفادع الذي يدهنون به أنفسهم حتى لا تؤثر فيهم النار. فلما كشف حيلهم وتحداهم وكان ذلك بمحضر السلطان تراجعوا عن ذلك وظهر كذبهم ومخاريقهم، وكان هؤلاء الصوفية من أتباع الرفاعي البطائحي (انظر مناظرة ابن تيمية لدجاجلة البطائحية الفتاوي الكبرى من ص445-476).

والمهم أن الإمام ابن تيمية كان من أعظم الرجال الذي كشفوا عوار التصوف وتتبعوا ترهاته، وما كتبه ودونه وقام به في هذا الصدد شيء يطول وصفه جداً.

الإمام برهان الدين البقاعي المتوفي سنة 885هـ:

ألف هذا الإمام الجليل كتاباً فذاً فريداً سماه (تنبيه الغبي بتكفير عمر بن الفارض وابن عربي) قال في خطبة هذا الكتاب:

"وبعد: فإني لما رأيت الناس مضطربين في ابن عربي المنسوب إلى التصوف، الموسوم عند أهل الحق بالوحدة، ولم أر من شفى القلب في ترجمته وكان كفره في كتابه الفصوص أظهر منه في غيره، أحببت أن أذكر منه ما كان ظاهراً، حتى يعلم حاله، فيهجر مقاله، ويعتقد انحلاله، وكفره وضلاله، وأنه إلى الهاوية مآله ومآبه، امتثالاً لما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان] وفي رواية عن عبدالله بن مسعود: [وليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة من خردل]، وما أحضر من النسخة التي نقلت ما تراه منها إلا شخص من كبار معتقديه، وأتباعه ومحبيه.

عقيدة ابن عربي وكيده للإسلام:

وينبغي أن يعلم أولاً أن كلامه دائر على الوحدة المطلقة، وهي: أنه لا شيء سوى هذا العالم، وأن الإله أمر كلي لا وجود له إلا في ضمن جزئياته. ثم إنه يسعى في إبطال الدين من أصله، بما يحل به عقائد أهله، بأن كل أحد على صراط مستقيم، وأن الوعيد لا يقع منه شيء، وعلى تقدير وقوعه، فالعذاب المتوعد به إنما هو نعيم وعذوبة، ونحو ذلك!!. وإن حصل لأهله ألم، فهو لا ينافي السعادة والرضى، كما لم ينافها ما يحصل من الآلام في الدنيا، وهذا يحط

عند من له وعلى اعتقاد: أنه لا إله أصلاً، وأنه ما ثم إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما وراء ذلك شيء.

منهاج الصوفية في الكيد بدعوتهم:

وكل ما في كلامه من غير هذا المهيع فهو تستر وتلبيس على من ينتقد عليه، ولا يلقي زمام انقياده إليه، فإنه علم أنه إن صرح بالتعطيل ابتداء بعد كل من قبوله فأظهر لأهل الدين أنه منهم، وقف لهم في أودية اعتقادهم، ثم استدرجهم عند المضائق، واستغواهم في أماكن الاشتباه، وهو أصنع الناس في التلبيس، فإنه يذكر أحاديث صحاحاً، ويحرفها على أوجه غريبة، ومناح عجيبة، فإذا تدرج معه من أراد الله -والعياذ بالله- ضلاله، وصل -ولا بد- إلى مراده من الانحلال من كل شرعة، والمباعدة لكل ملة. وخواص أهل هذه النحلة يتسترون بإظهار شعائر الإسلام، وإقامة الصلاة والصيام، وتمويه الإلحاد بزي التنسك والتقشف، وتزويق الزندقة بتسميتها: بعلم التصوف، فهو ممن أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: [يحقر أحدكم صلاته مع صلاته، وصيامه مع صيامه، يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية].

وقد أصل لهم غويهم هذا كما صرح به في الفص النوحي: أن الدعوة إلى الله مكر!! ونسب ذلك إلى الأنبياء عليهم السلام، فقال: أدعو إلى الله. فهذا عين المنكر.. إلى آخر كلامه.

وهذا هو السر في تنسكهم. على أنهم قد استغنوا في هذا الزمان عن التنسك، لانقياد أهله بغير ذلك، وقد يستدرجهم الله وأمثالهم -ممن يريد ضلاله- بإظهار شيء من الخوارق على أيديهم، كما يظهره الله على يد الدجال، وأيدي بعض الرهبان، ليتبين الموقن من المرتاب.

مثالهم في الزندقة:

وقد ضربوا -لتصحيح زندقتهم- مثالاً مكروا فيه بمن لم ترسخ قدمه في الإسلام، ولا خالط أنفاس النبوة، حتى صار يدفع الشبه.

حاصل ذلك المثال: أنهم يصلون إلى الله بغير وساطة المبعوث بالشرع، فتم لهم المكر، وتبعهم في ذلك أكثر الرعاع، ولم يبالوا بخرق الإجماع، وذلك المثال: أن ملكاً أقام على بابه سيفاً، وقال له: من دخل بغير إذنك فاقتله، وقال لغيره: أذنت لك في الدخول

متى شئت، فإذا دخل الغير ، فقد أصاب، وعنوا بالسياف الشارع. فما أفادهم مثالهم مع زندقتهم به شيئاً، فإنهم اعترفوا فيه بإباحة دمائهم، وهو قصد أهل الشريعة، ومن يعتقد أن لأحد من الخلق طريقاً إلي الله من غير متابعة محمد صلى الله عليه وسلم، فهو كافر من أولياء الشيطان بالإجماع، فإن رسالته صلى الله عليه وسلم عامة ودعوته شاملة" (تنبيه الغبي إلى كفر الفارض وابن عربي لبرهان الدين البقاعي ص18-21). انتهى منه بلفظه.

ثم شرع المؤلف رحمه الله بعد ذلك يورد كلام أئمة الدين والعلم في بيان كفر هؤلاء وزندقتهم، وشرح ما جاء في الفصوص لابن عربي وبين كفره وزندقته وكذبه على الله ورسوله واستهزاءه بالأنبياء والمرسلين وادعاءه أن كل موجود هو الله. وكذلك استعرض قصيدة ابن الفارض المشهورة التائية وبين ما فيها من كفر وزندقة وأنها والفصوص وجهان لعملة واحدة وصورتان لكتاب واحد وهي وحدة الوجود التي ينادي بها هؤلاء الزنادقة.

وعلى كل حال لو تتبعنا كلام علماء المسلمين قديماً في شأن التحذير من التصوف فإنه أمر يطول شرحه.

وأما في العصر الحديث فإن التصوف على الرغم من انتشاره في غفلة من المسلمين عن علوم الكتاب والسنة، فإن الله سبحانه وتعالى قيض للمسلمين في العصر الحديث الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب الذي كان لدعوته المباركة في الجزيرة العربية الفضل في إيقاظ الأمة من سباتها العميق، واطلاعها على حقيقة التصوف الضال فانتشرت دعوة التوحيد شرقاً وغرباً، وقام الرجال المخلصون بملاحقة فلول التصوف في كل صقع من أصقاع الأرض حتى انزاحت الغمة أو كادت بفضل الله ورحمته بعد أن كان الظلام والشر قد عم الأرض كلها إلا القليل القليل من أهل الدين الحق والتوحيد. وأحب في هذا الباب من هذا الكتاب المبارك إن شاء الله تعالى أن أسوق شهادتين لرجلين مشهورين من رجال العصر الحاضر ممن أكرمهم الله بالنجاة من التصوف الخاسر إلى رحاب التوحيد والإيمان وهما الدكتور تقي الدين الهلالي شيخ التوحيد والسنة في بلاد المغرب، بل في العالم الإسلامي كله، والذي كان صوفياً (تجانياً) فأكرمه الله بدعوة التوحيد فلما رأى النور والخير كتب كتابه (الهدية الهادية إلى الطريقة التجانية). وأما الرجل الآخر الذي ننقل شهادته فهو الشيخ عبدالرحمن الوكيل

رحمه الله، وكيل جماعة أنصار السنة بمصر، والذي جرّد قلمه السيال لبيان فرية التصوف الكبرى فكتب كتابه المشهور (هذه هي الصوفية).

شهادة الدكتور الشيخ تقي الدين الهلالي:

"الحمد لله الذي أرسل خاتم النبيين وإمام المرسلين، محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين بشيراً لمن آمن به، واهتدى بهديه، بالفوز المبين ونذيراً لمن كفر به وخالف سنته بالعذاب المهين، وصل اللهم على محمد وأزواجه وذرياته كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذرياته كما باركت على إبراهيم، صلاة تشمل آله ومن تمسك بسنته إلى يوم الدين.

فيقول أفقر العباد إلى الغني الكبير المتعال، محمد تقي الدين بن عبدالقادر الحسيني الهلالي غفر الله ذنبه وستر عيبه:

نشأت في بلاد سجلمانة، وحفظت القرآن وأنا ابن اثنتي عشرة سنة، ورأيت أهل بلادنا مولعين بطرائق المتصوفة لا تكاد تجد واحداً منهم لا عالماً ولا جاهلاً إلا وقد انخرط في سلك إحدى الطرق، وتعلق بشيخها تعلق الهائم الوامق، يستغيث به في الشدائد ويستنجد به في المصائب، ويلهج دائماً بشكره والثناء عليه فإن وجد نعمة شكره عليها، وإن أصابته مصيبة اتهم نفسه بالتقصير في محبة شيخه والتمسك بطريقته، ولا يخطر بباله أن شيخه يعجز عن شيء في السماوات ولا في الأرض فهو على كل شيء قدير، وسمعت الناس يقولون: من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه. وينشدون قول ابن عاشور في أرجوزته التي نظمها في عقيدة الأشعرية، وفي فروع المالكية، وفي مبادئ التصوف:

يصحب شيخاً عارف المسالك ... يقيه في طريقه المهالك

يذكره الله إذا رآه ... ويوصل العبد إلى مولاه

ورأيت الطرق المنتشرة في بلادنا قسمين:

1- قسم ينتمي إليه العلماء وعلية القوم.

2- وقسم ينتمي إليه السوقة وعامة الناس.

فمالت نفسي إلى القسم الأول، وسمعت أبي وهو من علماء بلـدنا مراراً يقول: لولا أن الطريقة التجانية تمنع صاحبها من زيـارة قبـور الأولياء والاستمداد منهم وطلب الحاجات إلا قـبر النـبي صـلى اللـه عليه وسلم والصـحابة، وإلا قـبر الشـيخ التجـاني، وقبـور من ينتمي إلى طريقته من الأولياء، قال أبي: لـولا ذلـك لأخـذت ورد الطريقـة التجانية، لأني لا أستطيع أن أتـرك زيـارة جـدنا عبـدالقادر بن هلال، وجدنا كان مشهوراً بالصـلاح ولـه قـبر يـزار وهـو معـدود من جملـة الأوليـاء في ناحيـة الغرفـة من القسـم الشـرقي الجنـوبي في بلاد المغرب.

والطريقة التجانية، والدرقاوية، والكتانية، وإن كـان أهلهـا في بلادنـا قليلاً، تؤلف القسم الأول، فاشتاقت نفسـي إلى أخـذ ورد الطريقـة التجانية وأنا قـد نـاهزت البلـوغ فـذهبت إلى المقـدم وقلت لـه: يـا سيدي أريد منـك أن تعطيـني ورد الطريقـة التجانيـة، ففـرح كثـيراً، وقـال لي: تأخـذ الـورد على صـغر سـنك؟ قلت: نعم، فقـال: بخ بخ أفلحت ونجحت، فأعطاني الورد وهو:

ذكر لا إله إلا الله مائة مـرة، والاسـتغفار مائـة مـرة، والصـلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بأي صيغة مائة مرة، لكن صيغة الفـاتح لمـا أغلـق هي أفضـل الصـيغ، وسـيأتي إن شـاء اللـه ذكـر فضـلها (الفضـل المزعـوم عنـدهم) في هـذا الكتـاب بعـون اللـه وتوفيقـه، وأعطاني كذلك الوظيفة وهي أستغفر اللـه العظيم الـذي لا إلـه إلا هو الحي القيوم ثلاثين مرة، وصلاة الفاتح لما أغلق خمسـين مـرة، ولا إله إلا الله مائة مرة، وجوهره الكمـال وهي: اللهم صـل وسـلم على عين الرحمة الربانية.. الخ، وسيأتي ذكر ألفاظهـا اثنـتي عشـر مرة، وهذه الصلاة لا تذكر إلا بطهارة مائية، فمن كان فرضه التيمم فعليـه أن يـذكر بـدلها صـلاة الفـاتح عشـرين مـرة، قـال: وإنمـا اشترطت الطهارة المائية على ذاكرهـا لأن النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم والخلفـاء الراشـدين يحضـرون مجلس كـل من يـذكرها ولا يزالون معه ما دام يذكرها.

ويجب ذكر الورد مرة في الصباح ومـرة في المسـاء بطهـارة تامـة كما يشترط في الصلاة، ويكون الذاكر جالساً كجلسـة التشـهد على الأفضل مغمضاً عينيه مستحضراً صورة الشيخ أحمـد التجـاني وهـو رجل أبيض مشـرب بحمـرة ذو لحيـة بيضـاء، ويتصـور في قلبـه أن عموداً من النور يخرج من قلب الشيخ ويدخل في قلب المريد.

أما الوظيفة فيجب أن تذكر جماعة بصوت واحد، إن كان للمريد إخوان في بلده، فإن لم يكن له إخوان تجانيون في بلاده جاز له أن يذكرها وحده مرة في كل يوم.

وأخبرني المقدم الشيخ عبدالكريم المنصوري ببعض فضائل هذا الورد وسأذكرها فيما بعد إن شاء الله واستمررت على ذكر الورد والوظيفة بإخلاص ملتزماً الشروط مدة تسع سنين، وهناك ذكر آخر يكون يوم الجمعة متصلاً بغروب الشمس وهو: لا إله إلا الله ألف مرة، والأفضل أن يكون معه سماع قبله أو بعده، وهو إنشاد شيء من الشعر بالغناء والترنم جماعة ثم يقولون جميعاً: الله حي، والمنشد ينشدهم وهم قيام حتى يخلص عند تواجدهم إلى لفظ آه، آه، آه، ويسمون هذه الحالة العمارة، وقد تركوها منذ زمان طويل لأن أبناء الشيخ التجاني لا يستعملون هذه العمارة، وهم يأتون من الجزائر إلى المغرب وقد أشاروا على المغاربة أن يتركوا العمارة لأنهم لا يستحسنونها، ولكن في كتب الطريقة أنها فعلت أمام الشيخ أحمد التجاني وبرضاه وإقراره.

وكنت كلما أصابتني مصيبة أستغيث بالشيخ فلا يغيثني، فمن ذلك أني كنت في الجزائر مسافراً من ناحية (بركنت) بقرب حدود المغرب إلى (المشرية)، وكان لي رفيق له جمل فعلقه وأوصاني بحراسته وتركني في خيمة وقلنا فيها من خيام أهل البادية، فانحل عقال الجمل وانطلق في البرية فتبعته فأخذ يستهزئ بي، وذلك أنه يبقى وقفاً إلى أن أكاد أضع يدي على عنقه ثم يجفل مرج واحدة ويجري مسافة طويلة ثم يقف ينتظرني إلى أن أكاد أقبضه ثم يهرب مرة أخرى وذلك في نحر الظهيرة وشدة الحر، فقلت في نفسي: هذا وقت الاستغاثة بالشيخ فتضرعت إليه وبالغت في الاستغاثة أن يمكنني في قبض الجمل وإناخته فلم يستجب، فعدت على نفسي باللوم واتهمتها بعدم الإخلاص والتقصير في خدمة الطريقة ولم أتهم الشيخ البتة بعجز عن قضاء حاجتي، ومع أن شيوخ الطريقة يوصون المريد أن لا يطالع شيئاً من كتب التصوف إلا كتب الطريقة التجانية وقع في يدي مجلد من كتاب (الإحياء) للغزالي فطالعته فأثر في نفسي واجتهدت في العبادة والتزمت قيام الليل في شدة البرد، فبينما أن ذات ليلة أصلي قيام الليل أمام خيمتي الصغيرة التي كنت جالساً فيها يكاد رأسي يمس سقفها إذ رأيت غماماً أبيض سد الأفق كالجبل المرتفع من الأرض إلى السماء وأخذ ذلك الغمام يدنو مني آتياً من جهة الشرق -وهي

قبلة المصلي في المغرب والجزائر- حتى وقـف بعيـداً مـني وخـرج منه شخص وتقدم حتى قرب مني ثم شـرع يصـلي بصـلاتي مؤتمـاً بي، وثيابه تشبه ثياب جارية بنت خمس عشـرة سـنة، ولم أسـتطع أن أميز وجهه بسبب الظلام.

ولما شرع يصلي معي كنت أقـرأ في سـورة ألم السـجدة ففـزعت وخفت خوفاً شديداً، فخرجت منها إلى سـورة أخـرى أظنهـا سـورة سبأ، ولم أستطع قراءة القرآن مع شدة حفظي لـه بسـبب الـرعب الذي أصابني، فتركت السور الطوال وأخذت أقـرأ بالسـور القصـار التي لا تحتاج قراءاتهـا إلى رباطـة جـأش واستحضـار فكـر. فصـلى معي سـت ركعـات، ولم أرد أن أكلمـه، لأن كتب الطريقـة توصـي المريد أن لا يشتغل بشيء مما يعـرض لـه في سـلوكه حـتى يصـل إلى الله، وتنكشف له الحجب فيشـاهد العـرش والفـرش، ولا يبقى شيء من المغيبات خافياً عليه، ولمـا طـال علي زمـان الاضـطراب دعوت الله في سجود الركعة السادسة فقلت: يـا رب إن كـان في كلام هذا الشخص خير فاجعله هـو يكلمـني، وإن لم يكن في كلامـه خير فاصرفه عني، فلما سلمت من التشـهد بعـد الركعـة السادسـة سلم هو أيضاً، ولم أسمع له صوتاً ولكني رأيتـه التفت عنـد السـلام إلى جهة اليمين كما يفعل المصلي المنفـرد على مـذهب المالكيـة، فإنه يسـلم مـرة واحـدة عن يمينـه، السـلام عليكم دون أن يضـيف إليها رحمة الله وبركاته، وإن كان مؤتماً بإمام يسلم ثلاث تسليمات إن كـان بيسـاره مصـل تسـليمة عن يمينـه وهي تسـليمة التحليـل وتسليمة أمامه للإمـام، وتسـليمة ثالثـة عن شـماله للمصـلي الـذي يجلس عن شـماله وقـد ثبت في الحـديث الـذي رواه أبـو داود وصححه الحافظ أن النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم كـان يسـلم عن يمينه السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وعن يساره السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وهذا هو الذي ينبغي لكل مصل أن يعتمد عليه سواء أكان إماماً أو مأموماً أو منفرداً.

وبعـد السـلام انصـرف ومشـى على مهـل حـتى دخـل في الغمـام الأبيض الذي كان قائماً في مكانه الذي كـان ينتظـره، وبعـد دخولـه في الغمام فوراً أخذ الغمام يتقهقـر إلى جهـة الشـرق حـتى اختفى عن بصري وكان في قبيلة (حميان) شيخ شنقيطي صـالح مـا رأيت مثلـه في الزهـد والـورع ومكـارم الأخلاق وسـأذكره فيمـا بعـد، فسافرت إليـه وحكيت لـه تلـك الحادثـة فقـال لي: يمكن أن يكـون

ذلك شيطاناً لو كان ملكاً ما أصابك فزع ولا رعب، فظهر لي أن رأيه صواب.

وبعد ذلك بزمن طويل أخذت أدرس علم الحديث، فرأيت كتاب (صحيح البخاري) ما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم حين جاءه جبريل وهو في غار حراء، فظهر لي أن رأي ذلك الشيخ رحمه الله غير صحيح وبقيت المشكلة بلا حل إلى الآن وكنت حينئذ مشركاً أستغيث بغير الله وأخاف غير الله. ومن هذا تعلم أن ظهور الخوارق وما في عالم الغيب ليس دليلاً على صلاح ما ظهرت له تلك الخوارق ولا على ولايته لله البتة فإن كل مرتاض رياضة روحية تظهر له الخوارق على أي دين كان وقد سمعنا وقرأنا أن العباد الوثنيين من أهل الهند تقع لهم خوارق عظام.

وبعد ذلك بأيام رأيت في المنام رجلاً نبهني وأشار إلى الأفق فقال لي: انظر فرأيت ثلاثة رجال فقال لي إن الأوسط منهم هو النبي صلى الله عليه وسلم فذهبت إليه فلما وصلت إليه انصرف الرجلان اللذان كانا معه فأخذت يده وقلت يا رسول الله خذ بيدي إلى الله فقال لي اقرأ العلم ففكرت وعلمت أني في بلاد الجزائر وكان الفرنسيون مسؤولين عليها وكان فقهاء بلدنا يكفرون كل من سافر إلى الجزائر وإذا رجع من سفره يأمرونه بالاغتسال والدخول في الإسلام من جديد ويعقدون له عقداً جديداً على زوجته فقلت في نفسي هذا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرني بطلب العلم، وأنا في بلاد يحكمها النصارى، فإما أن أكون عاصياً أو كافراً فكيف يجوز لي أن أطلب فيها العلم. هذا كله وقع في لحظة وأنا لا أزال واقفاً أمام النبي صلى الله عليه وسلم فقلت في بلاد المسلمين أم في بلاد النصارى، فقال لي البلاد كلها لله، فقلت يا رسول الله ادع الله أن يختم لي بالإيمان فرفع اصبعه السبابة إلى السماء وقال لي عند الله.

وبعدما خرجت من الطريقة التجانية على أثر المناظرة التي سأذكرها فيما بعد إن شاء الله بزمان رأيت النبي صلى الله عليه وسلم مرة أخرى في المنام على صورة تخالف الصورة التي رأيته عليها في المرة المذكورة، ففي الأولى كان طويلاً أبيض نحيفاً مشرباً بحمرة، لحيته بيضاء، أما في هذه المرة فكان ربعة من الرجال إلى الطول أقرب ولم يكن نحيفاً، ولحيته سوداء، وبياض وجهه وحمرته أقرب إلى ألوان العرب من المرة الأولى، وكانت

رؤيـتي لـه في فلاة من الأرض وكنت بعـدما خـرجت من الطريقـة التجانية توسوس نفسي أحياناً بمـا في كتـاب جـواهر المعـاني ممـا ينسب إلى الشـيخ التجـاني أنـه قـال: (من تـرك ورده وأخـذ وردنـا وتمسـك بطريقتنـا هـذه الأحمديـة المحمديـة الإبراهيميـة الحنفيـة التجانية فلا خوف عليـه من اللـه ولا من رسـوله ولا من شـيخه أيـاً كان من الأحياء أو من الأموات أما من أخذ وردنا وتركـه فإنـه يحـل بـه البلاء وأخـرى ولا يمـوت إلا كـافراً قطعـاً وبـذلك أخـبرني سـيد الوجود صلى الله عليه وسلم يقظة ومناماً) وقـال لي سـيد الوجـود صـلى اللـه عليـه وسـلم فقـراؤك فقـرائي وتلاميـذك تلاميـذي وأنـا مربيهم. وسيأتي من هذه الأخبار وأمثالها إن شاء الله كثير في ذكر فضائل الأوراد والأصحاب فكنت أدفع هذا الوسـواس بأدلـة الكتـاب والسـنة، وأرجم شـيطانه بأحجارهـا فيخنس ثم يخسـأ ويـدبر فـأراً منهزماً فلما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المرة خطر ببالي ذلك فعزمت على أن أبـدأ الكلام مـع النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم بـأن أسـأله أن يـدعو اللـه لي أن يختم لي بالإيمـان، وأظن القارئ لم ينس أني سألته في المرة الأولى فلم يدع لي ولكنه رفع إصبعه السبابة إلى السماء وقال عنـد اللـه، فقلت يـا رسـول اللـه، ادع اللـه أن يختم لي بالإيمـان، فقـال لي ادع أنت وأنـا أؤمن على دعائـك، فـرفعت يـدي وقلت اللهم اختم لي بالإيمـان، فقـال النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم آمين وكـان رافعـاً يديـه فـزال عـني ذلـك الوسواس ولكني لم آمن مكر الله تعالى فإنه لا يأمن مكـر اللـه إلا القوم الخاسرون، والرؤيا تبشر ولا تغر، وبين هذه الرؤيا الـتي دعـا لي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يختم الله لي بالإيمان بتأمينه على دعائي والرؤيا الـتي قـدمت ذكرهـا ولم يـدع لي فيهـا، عشـرون سـنة، وتـأولت اختلاف الصـورة وعـدم الـدعاء في الرؤيـا الأولى والـدعاء في الرؤيـا الثانيـة بمـا كنت عليـه من الشـرك في العبادة وبما صرت إليه من توحيد الله تعالى واتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والله أعلم.

سبب خروجي من الطريقة التجانية:

لقد كنت في غمرة عظيمة، وضلال مبين، وكنت أرى خروجي من الطريقة التجانية كالخروج من الإسلام. ولم يكن يخطر لي ببال أن أتزحزح عنها قيد شعرة، وكان الشيخ عبدالحي الكتاني عدواً للطريقة التجانية لأنه كان شيخاً رسمياً للطريقة الكتانية، وإنما قلت رسمياً لأن أهل (سلا) أعني الكتانيين أنصار الشيخ محمد بن عبدالكبير الكتاني، مؤسس الطريقة الكتانية، لا يعترفون به أي بالشيخ عبد الحي ويقولون إن الاستعمار الفرنسي هو الذي فرضه على الكتانيين فرضاً، والذي حدثني بذلك هو العالم الأديب النبيل الشيخ عبدالله بن سعيد السلوي فإنه كان حامل لواء نصرة الشيخ محمد بن عبدالكبير الكتاني، وكان يعادي أخاه عبدالحي عداوة شديدة ويرميه بالعظائم والكبائر التي لا يسوغ ذكرها هنا والاستطراد بذكر أسباب العداوة بين الشيخين الكتانيين الأخوين يخرج بنا عن الموضوع، أقول مر بنا الشيخ عبد الحي في (وجدة) وأنا عند العالم الأديب الشاعر المتفنن في علوم كثيرة الشيخ أحمد سكيرج، قاضي القضاة بناحية (وجدة)، معلماً لولده الأديب السيد عبدالكريم وابن أخيه السيد عبدالسلام، كنت أعلمهما الأدب العربي بدعوة من الشيخ أحمد سكيرج، فمدحت عبدالحي بقصيدة ضاعت مني ولا أذكر شيئاً منها، ولكنه أعجب بها أيما إعجاب، حتى قال لي عاهدني أنك إذا قدمت (فاساً) تنزل عندي ضيفاً فعاهدته على ذلك. ففي ربيع الأول من سنة أربعين من هذا القرن الهجري سافرت إلى فاس ونزلت عنده. وولد له في تلك الأيام سماه عبدالأحد فالتمس مني نظم أبيات في التهنئة وتاريخ مولده فنظمتها ولا أذكر منها شيئاً، وفي اليوم السابع من مولده عمل مأدبة عظيمة دعا لها خلقاً كثيراً وبعد ما أكلوا وشربوا قاموا (للعمارة) (ذكر بالرقص والتمايل) التي تقدم ذكرها ودعوني أشاركهم في باطلهم فامتنعت لأن من شروط التجاني المخلص أن لا يذكر مع طريقة أخرى ذكرهم وأن لا يرقص معهم. وفي كتاب البغية للشيخ العربي ابن السايح وهو شرح المنية للتجاني ابن بابا الشنقيطي حكاية في وعيد شديد لمن يشارك أصحاب الطرائق الأخرى في أورادهم وأذكارهم وحاصلها أن شخصاً تجانياً ذهب إلى زاوية طريقة أخرى لغرض دنيوي فاستحى أن يبقى منفرداً عنه وهم يذكرون وظيفتهم فشاركهم في الذكر فلما فتح فاه ليذكر معهم أصابه الشلل في فكيه فبقي فاه مفغوراً ولم يستطع سده حتى مات. ولكن الجماعة

ألحوا علي وجروني جراً حتى أوقفـوني في حلقتهم فـرأيت أفواهـاً مفغورة من وجوه بعضها فيه لحية سوداء، وبعضـها فيـه لحيـةخطها الشيب، وبعضها أمرد ليس لـه لحيـة من الغلمـان الـذين لم يلتحـوا بعـد، أمـا حلـق اللحى فلم يكن موجـوداً في ذلـك الـزمن إلا عنـد الفرنسيين المستعمرين وقليل جداً من حواشيهم وسـمعت أصـواتاً تنبعث من تلك الأفواه ليس لها معنى في أي لغة بعضها آآآ وبعضـها آه آه آه، وبعضــها أحن أح أح فاســتنكرت تلــك الهيئــة وقلت في نفسي إن الله لا يرضى بهذه الحالة أن تكون عبادة له لبشاعتها ثم ندمت على ذلك ندامة الكسعي أو الفرزدق حين طلق نوار فقال:

ندمت ندامة الكسعي لما عدت مني مطلقة نوار

وكانت جنتي فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار

وقلت في نفسي كيف يسـوغ لي أن أنكـر شـيئاً حضـر مثلـه خـاتم الأولياء القطب سيدي أحمد التجـاني فتبت من ذلـك الخـاطر ولكن جـاءني امتحـان آخـر وذلـك أن الشـيخ عبـد الحي الكتـاني قـال لي منتقداً: إن الطريقة التجانية مبنيـة على شـفا جـرف، وأنـه لا ينبغي لعاقـل أن يتمسـك بهـا فقلت لـه: (والطريقـة الكتانيـة الـتي أنت شيخها)؟ فقال لي كل الطرائق باطلة، وإنمـا هي صـناعة للاحتيـال على أكل أموال الناس بالباطل وتسخيرهم واستعبادهم، فقلت إذن أنت تستحل أموال الناس بالباطل وتسخرهم وتستعبدهم، قال: أنـا لم أؤسس الطريقة وإنما أسسها غيري، وهذه الأموال الـتي آخـذها منهم أنفقتها في مصالح لا ينفقونها هم فيها. ثم قلت له: ومن الذي حملك على الطعن في الطرائق وما دليلك على بطلانهـا؟ قـال لي: ادعاء كل من الشيخين أن النبي صلى الله عليه وسلم يحضر بذاتـه وظيفة أصحابه حين يذكرونها وهذه قلة حيـاء منهمـا، وعـدم تعظيم للنـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم كيـف تكلفونـه أن يخـرج من قـبره ويقطـع هـذه المسـافات من الـبر والبحـر ليجلس أمـامكم فـأنتم تبسطون له ثوباً أبيض ليجلس عليه وأصحابنا يقومون ويذهبون إلى البـاب ليتلقـوه، فقلت: إذاً أنت لا تعتقـد صـحة طريقـك؟ فقـال: لا أعتقدها أبداً وقد أخبرتك أنها صناعة لأكـل أمـوال النـاس بالباطـل. وأزيدك على ذلـك اعتمـاد طـريقتكم على كتـاب (جـواهر المعـاني) الـذي تزعمـون أن شـيخكم أحمـد التجـاني أملاه على علي حـرازم نصفه مسروق، فأحد المجلدين وهـو الأول مسـروق بـالحرف وهـو تأليف لمحمد عبداللـه المـدفون بكـذا وكـذا بفـاس، وسـمى ناحيـة

نسـيتها الآن، قـال وأنـا قـابلت الكتـابين من أولهمـا إلى آخرهمـا فوجدت المجلد الأول من (جواهر المعـاني) مسـروقاً كلـه من كلام الشيخ المذكور ففارقته. وبعد أيام كنت جالساً عند الشيخ عمــر بن الخياط بائع الكتب بقرب القرويين فقال لي: هل اجتمعت بالأسـتاذ الشيخ محمد بن العربي العلـوي، فقلت :لا، فقـال لي: هـذا الرجـل من أفضل علماء فاس وعنده خزانة كتب لا يوجـد مثلهـا في فـاس وأثنى عليه بـالعلم والأدب فقلت لـه أنـا لا أجـالس هـذا الرجـل ولا أجتمع به لأنه يبغض الشيخ أحمد التجاني ويطعن في طريقته فقـال لي: إن طالب العلم يجب أن يتسـع فكـره وخلقـه لمجالسـة جميـع الناس وبذلك يتسع علمه وأدبه ولا يجب عليه أن يقلدهم في كل ما يدعون، يأخـذ مـا صـفا ويـدع مـا كـدر، وإن لم تجتمـع بهـذا الرجـل يفوتك علم وأدب كثـير فـذهبت إليـه لأجتمـع بـه، وكـان قاضـياً في محكمة فاس الجديدة فنظمت أربعة أبيات لا أحفظ منهـا إلا شـطر البيت الرابع وهو (وهذا مـدى قصـدي ومـا أنـا مسـتجد).. أعـني أن غرضـي بالاجتمـاع بـك المـذاكرة العلميـة فهي غايـة قصـدي وإن اعتبرنا ما موصـولة يكـون المعـنى والـذي أسـتجديه أي أطلبـه وإن اعتبرناها نافية تميمية يكون المعنى ولست مستجدياً أي طالباً مالاً، فلما خرج من المحكمة وأراد أن يركب بغلته التي كـانت على بـاب المحكمة ولجامها بيد خادمه تقـدمت إليـه وأعطيتـه الصـحيفة الـتي فيها الأبيات فلما قرأها رحب بي، وقال لطالب كـان يرافقـني وهـو الحاج محمد بن الشيخ الأراري: أنت تعرف بيتنا، فقـال: نعم، قـال: فأتى به على الساعة التاسعة صباحاً، فخرجت مع الرفيق المــذكور من مدرسـة الشـراطين، وكـان يسـكن فيهـا على السـاعة الثامنـة والنصف، لنصل إلى الشيخ على الساعة التاسعة، وكان ذلـك اليـوم الثـاني عشـر من ربيـع الأول، وهـو عيـد عنـد المغاربـة وكثـير من البلدان الإسلامية وفي المغرب طائفة يسمون (العيسـاويين) أتبـاع الشـيخ بن عيسـى المكناسـي، وهـؤلاء لهم موسـم في كـل سـنة يجتمعـون فيـه في اليـوم الثـاني عشـر من ربيـع الأول ويـأتون من جميـع أنحـاء المغـرب، فيضـربون طبـولهم ومزامـيرهم، ويـترنمون بأناشــيدهم إلى أن يظهــر للنــاس أنهم أصــيبوا بــالجنون وحينئــذ يفترسون الغنم والدجاج بدون زكاة بل يقطعونه بأظافرهم ويأكلون لحمه نيئاً والدم يسيل منـه وقـد ملأوا أزقـة فـاس وهي ضـيقة في ذلك الزمن، وحتى في هذا الـزمن، فلم نسـتطع أن نصـل إلى بيت الشيخ إلا بعد مضي ساعتين ونصف من شـدة الزحـام فلمـا وصـلنا

وأخبرنا بوابه ذهب ثم رجع إلينا وقـال: إنكمـا لم تجيئـا في الموعـد المضروب والشيخ مشغول عنده حكام فرنسيون فارجعـا إليـه بعـد صلاة العصر فرجعنا وقلت لصاحبي: لا نرجع إليه فقد كفانا الله شر لقائه لأنه مبغض لشيخنا وطريقته فالخير في ما اختاره الله تعـالى. فقال لي ليس الشيخ بملـوم وقـد اعتـذر بعـذر قـائم والصـواب أن نرجع إليه، فرجعنـا إليـه بعـد العصـر، ووجـدت عنـده من الـترحيب والبشاشة والإكرام والتواضع مـا لم أجـده عنـد الشـيخ الكتـاني ولا عند أحد من علماء فاس.

وأخذنا في أحاديث أدبية وكان يقوم ويأتي بـالكتب ويضـعها أمـامي. ووجدته كما قال السيد عمر بن الخياط. ولما كادت الشمس تغرب استأذنته في الانصراف فقـال لي: أين تـذهب، أنت غـريب في هـذا البلد وهذا المكان معـد للضـيوف لا نحتـاج إليـه فـامكث، وبت هنـا؛ وقبلت دعوتـه، وبعـد أن صـلينا المغـرب جـاء أصـحابه، أذكـر منهم الشيخ عبدالسلام الصرغيني، والشيخ المهدي العلوي، وهـو لا يـزال في قيد الحياة؛ أما الأول فقد مـات فأخـذ بعضـهم يلعب الشـطرنج وهو يراهم ولا ينكر عليهم فقلت في نفسي هذا دليـل على أنـه من العلماء الذين لا يعملون بعلمهم فهو جدير أن ينكر على أوليـاء اللـه ما خصهم الله به من كرامة. ثم تركـوا الشـطرنج وأخـذوا ينتقـدون الطريق الكتانيـة ويسـتهزئون بهـا ويسـخرون من أهلهـا وكـل منهم يحكي حكاية. فقـال الشـيخ عنـدي حكايـة هي أعجب وأغـرب ممـا عندكم؛ جاءني شاب كان متمسكاً بالطريقة الكتانية تمسكاً عظيماً فقـال لي: أريـد أن أتـوب على يـدك من الطرائـق كلهـا وتعلمـني التمسك بالكتاب والسنة، فقلت له: ومـا الـذي دعـاك إلى الخـروج من طريقتـك الـتي كنت مغتبطـاً بهـا. فقـال لي: إنـه أمس شـرب الخمر وزنا وتـرك صـلاة العصـر والمغـرب والعشـاء فمـر بالزاويـة الكتانيــة وســمع المريــدين يرقصــون ويصــيحون بأصــوات عاليــة والمنشد ينشدهم، وكانت بقية سـكر لا تـزال مسـيطرة عليـه، فهم أن يدخل الزاوية، ويـرقص معهم، ولكنـه أحجم عن ذلـك لأنـه جنب ولم يصـل شـيئاً من الصـلوات في ذلـك النهـار، إلا أن سـكره غلب على عقله فدخل الزاوية ووجد الشيخ محمد بن عبدالكبير في صدر الحلقـة، والمريـدون يرقصـون فاشـتغل معهم في الـرقص، وكـان أنشطهم فلما فرغوا من رقصهم دعاه الشيخ وقبله في فمـه وقـال (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم قبلـك فاقتـديت بـه)! قـال ولمـا دعاني خفت خوفاً شديداً وظننت أنه انكشف له حالي وهو يريد أن

يوبخني على ذنوبي فلما قال لي أيقنت أنه كاذب في كل ما يدعيه ويدعو إليه وإلا كيف يرضى عني النبي صلى الله عليه وسلم ويقبلني في فمي مع تلك الكبائر التي ارتكبتها في ذلك اليوم. قال: فهذا سبب مجيئي إليك لأتوب إلى الله من الطرائق كلها وأتبع طريقة الكتاب والسنة.

ولما رأيتهم أنا يعيبون الطريقة الكتانية ويستهزئون بها أصابني خوف شديد وندمت على زيارتي للشيخ فقلت لنفسي هذا الذي كنت أخافه وقد وقعت فيه فكيف الخلاص؟

وذكرت قول التجاني ابن بابا في منيته:

ومن يجالس مبغض الشيخ هلك وضل في مهامة وفي حلك

وشدد النهى لنا الرسول في ذاك فلتعمل بما أقول

والشيخ قال هو سم يسري يحل من فعله في خسر

ومعنى ذلك أن الشيخ أحمد التجاني قال قال لي سيد الوجود صلى الله عليه وسلم يقظة لا مناماً قل لأصحابك لا يجالسوا المبغضين لك فإن ذلك يؤذيني فصممت على أن أخرج من ذلك المجلس. فقمت فقال لي الشيخ إلى أين؟ فقلت: إلى بيت الخلاء، كذبت عليه، فلما وصلت إلى الباب منعني البواب من الخروج، وقال لي: وهل أذن لك الشيخ في الخروج، فقلت: نعم، فقال لي: هذا محال لأنك غريب والقانون الفرنسي يقضي بأن التجول بعد الساعة العاشرة ليلاً فيه خطر، فإنك لا تمشي خطوات حتى يقبضوا عليك وتؤخذ إلى السجن، وتبقى فيه إلى ضحى الغد وحينئذ ينظر في إطلاق سراحك. وقال لي: أنا لا أفتح لك الباب إلا إذا سمعت الإذن من الشيخ، فقلت له: إذا أرجع. ورجعت وجلست في مكاني، ولم تخفى حالي عن الشيخ فقال لي أراك منقبضاً؛ فما سبب انقباضك؟ فقلت سببه أنكم انتقلت من الطعن في الطريقة الكتانية إلى الطريقة التجانية، وأنا تجاني لا يجوز لي أن أجلس في مجلس أسمع فيه طعن في شيخي وطريقته. فقال لي: لا بأس عليك، أنا أيضاً كنت تجانياً وخرجت من الطريقة التجانية لما ظهر لي بطلانها، فإن كنت تريد أن تتمسك بهذه الطريقة على جهل وتقليد فلك علي ألا تسمع بعد الآن في مجلس انتقاداً لها أو طعناً

فيهـــا. وإن كنت تريـــد أن تســـلك مســـلك أهـــل العلم فهلم إلى المناظرة، فإن ظهرت علي رجعت إلى الطريقة، وإن ظهرت عليك خرجت منها كما فعلت أنـا. فأخـذتني النخـوة ولم أرض أن أعـترف أني أتمسك بها على جهل فقلت قبلت المناظرة.

مناظرة حول ادعاء الشيخ التجاني في أنه رأى النبي في اليقظة:

قـال الشـيخ أريـد أن أنـاظرك في مسـألة واحـدة إن ثبتت ثبتت الطريقة كلها، وإن بطلت بطلت الطريقة كلها، قلت ما هي؟ قـال: ادعاء التجاني أنه رأى النبي صلى الله عليه وسـلم يقظـة لا منامـاً، وأعطاه هذه الطريقة بما فيها من الفضائل فـإن ثبتت رؤيتـه للنـبي صلى الله عليه وسلم يقظة وأخـذه منـه الطريقـة فـأنت على حـق وأنا على باطل والرجوع إلى الحق، وإن بطل ادعاؤه فأنا على حـق وأنت على باطل فيجب عليك أن تـترك وتتمسـك بـالحق. ثم قـال: تبدأ أنت أو أبدأ أنا؟ فقلت: ابدأ أنت، فقال: عنـدي أدلـة كـل واحـد منها كاف في إبطال دعـوى التجـاني. قلت: هـات مـا عنـدك وعلي الجواب، فقال:

الأول: إن أول خلاف وقع بين الصحابة بعـد وفـاة النـبي صـلى اللـه عليه وسلم كان بسبب الخلافة؛ قالت الأنصار للمهاجرين منـا أمـير ومنكم أمير، وقال المهاجرون: إن العرب لا تذعن إلا لهذا الحي من قريش. ووقع نزاع شديد بين الفريقين حتى شغلهم عن دفن النـبي صلى الله عليه وسلم فبقي ثلاثـة أيـام بلا دفن صـلاة اللـه وسـلامه عليه فكيف لم يظهر لأصحابه ويفصل الـنزاع بينهم ويقـول الخليفـة فلان فينهي النزاع؟ كيف يترك هذا الأمر العظيم لو كان يكلم أحـداً يقظة بعد موته لكلم أصحابه وأصـبح بينهم، وذلـك أهم من ظهـوره للشيخ التجاني ألف ومائتي سنة، ولماذا ظهـر؟ ليقـول لـه أنت من الآمـنين، ومن أحبـك من الآمـنين، ومن أخـذ وردك يـدخل الجنـة بلا حساب ولا عقاب هو ووالده وأزواجه لا الحفدة، فكيف يـترك النـبي صلى الله عليه وسلم الظهور يقظة والكلام لأفضل الناس بعده في أهم الأمور ويظهر لرجل لا يسـاويهم في الفضـل ولا يقـاربهم لأمـر غير مهم فقلت له:

إن الشيخ رضي الله عنـه قـد أجـاب عن هـذا الاعـتراض في حياتـه فقال: إن النبي صلى الله عليـه وسـلم كـان يلقى الخـاص للخـاص والعام للعام في حياته، أما بعد وفاته فقد انقطع إلقاء العـام للعـام وبقي إلقاء الخاص للخاص لم ينقطع بوفاتـه وهـذا الـذي ألقـاه إلى

شيخنا من إعطاء الورد والفضائل هو من الخاص للخاص. فقال أنا لا أسلم في أن الشريعة خاصاً وعاماً لأن أحكام الشرع خمسة وهذا الورد وفضائله إن كان من الدين فلا بد أن يدخل في الأحكام الخمسة لأنه عمل أعد الله لعامله ثواباً؛ فهو إما واجب أو مستحب ولم ينتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى حتى بين لأمته جميع الواجبات والمستحبات. وفي صحيح البخاري عن علي بن أبي طالب أنه قيل له هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم معشر أهل البيت بشيء فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما خصنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء إلا فهماً يعطاه الرجل في كتاب الله، وإلا ما في هذه الصحيفة ففتحوها فإذا فيها العقل وفكاك الأسير وألا يقتل مسلم بكافر فكيف لا يخص النبي صلى الله عليه وسلم أهل بيته وخلفاءه بشيء ثم يخص رجلاً في آخر الزمان بما يتنافى مع أحكام الكتاب والسنة. فقلت: إن الشيخ عالم بالكتاب والسنة وفي جوابه مقنع لمن أراد أن يقنع. قال احفظ هذا.

الثاني: اختلاف أبي بكر مع فاطمة الزهراء رضي الله عنهما على الميراث فلا يخفى أن فاطمة طلبت من أبي بكر الصديق رضي الله عنه حقها من ميراث أبيها واحتجت عليه بأن إذا مات هو يرثه أبناؤه، فلماذا يمنعها من ميراث أبيها، فأجابها أبو بكر الصديق بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة. وقد حضر ذلك جماعة من الصحابة فبقيت فاطمة الزهراء مغاضبة لأبي بكر حتى ماتت بعد ستة أشهر بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم. فهذا حبيبان لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه قال: فاطمة بضعة مني يسؤني ما ساءها، أو كما قال عليه الصلاة والسلام وصرح بأن أبا بكر الصديق أحب الناس إليه، وقال ما أحد أمنّ علي في نفس ولا مال من أبي بكر الصديق رواه البخاري. وهذه المغاضبة التي وقعت بين أبي بكر وفاطمة، تسوء النبي صلى الله عليه وسلم، فلو كان يظهر لأحد بعد وفاته لغرض من الأغراض لظهر لأبي بكر الصديق وقال له: إني رجعت عما قلته في حياتي فأعطها حقها من الميراث، أو لظهر لفاطمة وقال لها يا ابنتي لا تغضبي على أبي بكر فإنه لم يفعل إلا ما أمرته به فقلت له ليس عندي من الجواب إلا ما سمعت قال احفظ هذا.

الثالث: الذي وقع بين طلحة والزبير وعائشة من جهة، وعلي بين أبي طالب من جهة أخرى واشتد النزاع بينهما حتى وقعت حرب

الجمل، في البصرة فقتل فيها خلق كثير من الصحابة والتابعين وعقر جمل عائشة فكيف يهون على النبي صلى الله عليه وسلم سفك هذه الدماء ووقوع هذا الشر بين المسلمين بل بين أخص الناس به، وهو يستطيع أن يحقن هذه الدماء بكلمة واحدة، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى في آخر سورة التوبة برأفته ورحمته بالمؤمنين وأنه يشق عليه كل ما يصيبهم من العنت، وذلك في قوله تعالى: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم} فقلت له ليس عندي من الجواب إلا ما سمعت وظهوره وكلامه للشيخ التجاني فضل من الله، والله يؤتي فضله من يشاء. قال احفظ هذا وفكر فيه.

الرابع: خلاف علي مع الخوارج وقد سفكت فيه دماء كثيرة، ولو ظهر النبي صلى الله عليه وسلم لرئيس الخوارج وأمره بطاعة إمامه لحقنت تلك الدماء، فقلت الجواب هو ما سمعت، فقال لي: احفظ هذا وفكر فيه، فإني أرجو أنك بعد التفكير ترجع إلى الحق.

الخامس: النزاع الذي وقع بين معاوية وعلي، وقد قتل في الحرب التي وقعت بينهما خلق كثير، منهم عمار بن ياسر، فكيف يترك النبي صلى الله عليه وسلم الظهور لأفضل الناس بعده وفي ظهوره هذه المصالح المهمة من جمع كلمة المسلمين وإصلاح ذات بينهم وحقن دمائهم، وهو خير المصلحين بقوله تعالى: {وأصلحوا ذات بينكم} وقوله تعالى: {إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم} ثم يظهر للشيخ التجاني في آخر الزمان لغرض غير مهم وهو في نفسه غير معقول لأنه مضاد لنصوص الكتاب والسنة.

فلم يجد عندي جواباً غير ما تقدم ولكني لم أسلم له فقال فكر في هذه الأدلة وسنتباحث في المجلس الآخر، فعقدنا بعد هذا المجلس سبعة مجالس كل منها كان يستمر من بعد صلاة المغرب إلى ما بعد العشاء بكثير. وحينئذ أيقنت أنني كنت ضلال، ولكن أردت أن أزداد يقيناً فقلت له (من معك من العلماء هنا في المغرب على هذه العقيدة وهي أن مسألة في العقائد أو في الفروع يجب أن نعرضها مع قصر باعنا وقلة اطلاعنا على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ظهر لنا أنه موافق لهما قبلناه وما ظهر لنا أنه مخالف رددناه) فقال لي يوافقني على هذا أكبر مقدم للطريقة التجانية في المغرب كله وهو الشيخ الفاطمي الشرادي، فكدت أكذبه لأن المشهور في جميع أنحاء المغرب أن هذا الرجل

من كبار العلماء، وهو أكبر مقدم للطريقة التجانية، ولم أقل أكبر شيخ لأن الشيخ التجاني لا يبيح أن يكون شيخاً للطريقة سواه، لأن تلقيبه بالشيخ قد يفهم منه أنه يجوز لغيره أن يتصرف في أوراد الطريقة وفضائلها وعقائدها وذلك ممنوع لأن الذي أعطى هذه الطريقة هو النبي صلى الله عليه وسلم يقظة لا مناماً كما تقدم والمتلقي الأول لها هو الشيخ أحمد التجاني والنبي صلى الله عليه وسلم سماه شيخاً لهذه الطريقة، وكل ناشر للطريقة وملقن لأورادها يسمى مقدماً فقط فالطريقة لها مصدر واحد وشيخ واحد ولا يجوز تعدد المصدر ولا تعدد الشيخ حسبما في كتب الطريقة.

مع الشيخ الفاطمي الشرادي:

فتوجهت إلى الشيخ الفاطمي رحمه الله وكان الوقت ضحى وقد أوصاني شيخنا محمد بن العربي ألا أسأله إلا في خلوة فوجدت عنده جماعة فانصرف بعضهم وجاء آخرون وبقيت عنده أنتظر أن أخلو به حتى صلينا الظهر وجاء الغداء فلم أستطع أن أخلو به وكان ثلاثة ممن كانوا في مجلسه حاضرين فقلت له إن الشيخ محمد بن العربي العلوي يقول يجب علينا أن نعرض جميع المسائل أصولاً وفروعاً على كتاب الله وسنة رسوله فما وافق في نظرنا القاصر قبلناه وما خالف رددنا ولو قال به الإمام مالك أو الشيخ أحمد التجاني، فأشار إلي بيده يستمهلني، وكان جلوسي عنده قد طال فانصرفت إلى مدرسة الشراطين حيث كنت نازلاً قبل لقائي بالشيخ العلوي، وفي ذلك اليوم بعد صلاة العشاء جاءني بواب المدرسة وقال لي إن الشيخ الفاطمي الشرادي أرسل إليك عبده وبغلته يطلب أن تزوره فتعجبت كثيراً لأمرين، أحدهما أن الوقت ليس وقت زيارة، وثانيهما أنه لم تجر العادة أن كبار العلماء الطاعنين في السن، يبعثون الدابة للركوب إلا لمن هو مثلهم في السن والعلم وأنا شاب فركبت البغلة وسار العبد أمامي حتى وصلت إليه وسلمت عليه فرد أحسن رد ورحب بي وقال لي يا ولدي أنا رجل كبير طاعن في السن ليس لي قدرة على القتال، أما سيدي محمد بن العربي العلوي فهو شاب مستعد للقتال وأنت سألتني أمام الناس عن مسألة مهمة لا يسعني أن أكتم جوابها، ولا أستطيع أن أصرح به أمام الناس، فأعلم أن ما قال لك سيدي محمد بن العربي العلوي هو الحق الذي لا شك فيه، وقد أخذت الطريقة القادرية وبقيت فيها زماناً، ثم أخذت الطريقة الوزانية وبقيت فيها زماناً، ثم أخذت الطريقة التجانية والتزمتها حتى صرت

مقدماً فيها فلم أجد في هذه الطرائق فائدة، وتركتها كلها ولم يبق عندي من التصوف إلا طلب الشيخ المربي على الكتاب والسنة علماً وعملاً، ولو وجدته لصاحبته وصرت تلميذاً له، وأنت تريد أن تسافر إلى الشرق فإن ظفرت بشيخ مرب متخلق بأخلاق الكتاب والسنة علماً وعملاً فاكتب إلي وأخبرني به حتى أشد الرحال إليه فازددت يقيناً بالنتيجة التي وصلت إليها في مناظرتي مع الشيخ العلوي. ولو كان عندي من العلم مثل ما عندي الآن لقلت له إن ضالتك المنشودة هي أقرب إليك من كل قريب فإن هذا الشيخ الذي تطلبه وتريد أن تشد الرحال إليه ولو بعدت الدار وشط المزار هو أنت نفسك. بشرط أن يكون عندك العزم التام على العمل بالكتاب والسنة وطرح التقليد جانباً كيفما كان الأمر فجزاهم الله خيراً وتغمدهما برحمته.

مع الشيخ عبدالعزيز بن إدريس:

وبعد ذلك بعشرين سنة اجتمعت مع الشيخ عبدالعزيز بن إدريس من علماء تطوان وهو أحد تلامذة الشيخ الفاطمي فذكرت له الحكاية السالفة فقال لي وأنا أيضاً وقع لي ما يشبه هذا فإني بعد إتمام دراستي في جامع القرويين ذهبت إليه وهو أفضل شيوخي فقلت له أيها الشيخ أريد أن أرجع إلى وطني تطوان فأريد أن تزودني بدعائك الصالح وأن تلقنني ورد الطريقة التجانية، فقال لي يا أسفي عليك، أنت تحفظ كتاب الله وقد درست العلوم الإلهية التي تمكنك من فهم كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يكفك ذلك كله حتى تطلب الهدى في غيره، والطريقة لا شيء فعليك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فكشف الله عني بفضله ظلام الشرك والبدعة، وفتح لي باب التوحيد والاتباع فله الحمد والمنة نسأله أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة إنه الهادي إلى الصراط المستقيم (الهدية الهادية من ص7-21) انتهى منه بلفظه.

شهادة الشيخ عبدالرحمن الوكيل:

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، والصلاة والسلام على عبدالله ورسوله محمد خاتم النبيين وسيد ولد آدم أجمعين، وبعد: فإنه كانت لي بالتصوف صلة هي صلة العبر بالمأساة، فهنالك -حيث يدرج بي الصبا في مدارجه السحرية، وتستقبل النفس كل صروف الأقدار بالفرحة الطرب، وتستثني الروح ربا الجمال والحب من كل معاني الحياة- هنالك تحت شفوف الأسحار الوردية من ليالي القرية الوادعة الحالمة، وفي هيكل عبق بغيوم البخار، جثم على صدره صنم صغير يعبده كثير من شيوخ القرية، هنالك في مطاف هذه الذكريات الولهى: كان يجلس الصبي بين شيوخ تغضضت منهم الجباه، وتهدلت الجفون، ومشى الهرم في أيديهم خفقات حزينة راعشة، وفي أجسادهم الهضمية تحولاً ذابلاً، يتراءون تحت وصوصة السراج الخافت أوهام ضيعته الخيبة، وبقايا آمال عصف بها اليأس.

وتتهدج ترانيم الشيوخ تحت السحر -نواحاً بينها صوت الصبي- بالتراتيل الوثنية، وما زال الصبي يذكر أن صلوات ابن بشيش، ومنظومة الدردير كانتا أحب التراتيل إلى أولئك الشيوخ، وما زال يذكر أن أصوات الشيوخ كانت تشرق بالدموع، وتئن فيها الآهات حين كانوا ينطقون من الأولى: "اللهم انشلني من أوحال التوحيد!!" ومن الثانية "وجدلي بجمع الجمع منك تفضلاً" يا للصبي الغرير التعس المسكين!! فما كان يدري أنه بهذه الصلوات المجوسية يطلب أن يكون هو الله هوية وماهية وذاتاً وصفة!! ما كان يدري ما التوحيد الذي يضرع إلى الله أن ينشله من أوحاله!! ولا ما جمع الجمع الذي يبتهل إلى الله أن يمن به عليه.

ويشب الصبي، فيذهب إلى طنطا ليتعلم، وليتفقه في الدين. وثمة يسمع الكبار من شيوخه يقسمون له، ولصحابه: أن "البدوي" قطب الأقطاب، يصرف من شئون الكون، ويدبر من أقداره وغيوبه الخفية!! ويجرؤ الشاب مرة فيسأل خائفاً مرتعداً: وماذا يفعل الله؟! ويهدر الشيخ غضباً، ويزمجر حنقاً، فيلوذ الشاب بالرعب الصامت، وقد استشعر من سؤاله، وغضب الشيخ، أنه لطخ لسانه بجريمة لم تكتب لها مغفرة!! ولم لا؟ والشيخ هذا كبير جليل الشأن والخطر، وما كان يستطيع الشاب أبداً أن يفهم أن مثل هذا الخبر الأشيب –الذي يسائل عنه الموت- يرضى بالكفر، أو يتهوك

مع الضلال والكذب. فصدق الشاب شيخه وكذب ما كـان يتلـو قبـل من آيات الله {10:3 ثم استوى على العـرش، يـدبر الأمـر، مـا من شفيع إلا من بعد إذنه}! ثم يقرأ الشـاب في الكتب الـتي يدرسـها: أن الصوفي فلاناً غسلته الملائكة، وأن فلاناً كان يصـلي كـل أوقاتـه في الكعبة، في حين كان يسكن جبل قاف، أو جزائـر واق الـواق!! وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مد يده من القبر وسلم على الرفـاعي!! وأن فلانـاً عذبتـه الملائكـة، لأنـه حفـظ القـرآن والسـنة وعمل بما فيهما، ولكنـه لم يحفـظ كتـاب الجـوهرة في التوحيـد!!! وأن مـذهبنا في الفقـه هـو الحـق وحـده، لأنـه أحـاديث حـذفت أسانيدها!! ويصدق الشاب بكل هذا، ويؤمن، ومـا كـان يمكن إلا أن يفعل هذا.

إذ قـال في نفسـه: لـو لم تكن هـذه الكتب حقـاً، مـا درسـت في الأزهـر، ولا درسـها هـؤلاء الهرمـون من الأحبـار ولا أخرجتهـا المطبعة!! وهل كان يمكن أن يسأل نفسه مثلاً مثـل هـذا السـؤال: أين من الحق البين من كتـاب اللـه، هـذا الباطـل العربيـد في هـذه الكتب؟! لا، فلقد جيء به إلى طنطا ليتفقـه في الـدين على هـؤلاء الشيوخ، وهاهو فقه الدين يسمعه من الشيوخ، ويقـرؤه في الكتب، وحسبه هذا!!

وتموج طنطا بـالوفود، وتعج بـالآمين بين الطـاغوت الأكـبر من كـل حـدب، ويجلس الشـاب في حلقـة يـذكر فيهـا الصـوفية اسـم اللـه بخنات الأنوف، ورجات الأرداف ووثنية الدفوف، وثمة يسـمع منشـد القـوم يصـيح راقصـاً: "ولي صـنم في الـدير أعبـد ذاتـه" فتتعـالى أصـوات الـدراويش طروبـة الصـيحات: "إيـوه كـده اكفـر، اكفـر يـا مربي" ويرى الشاب على وجوه القوم فرحـاً وثنيـاً راقص الإثم بمـا سـمعوا من المنشـد الكـافر، فيسـأل شـيخنا ممن وفـدوا من أهـل قريته: يا سـيدي الشـيخ، مـا ذلـك الصـنم المعبـود؟! فـيزم الشـيخ شـفتيه، ثم يجـود على الشـاب الوالـه الحـيرة بقولـه: "انتـه لسـه صـغير"!! ويسـكت الشـاب قليلاً، ولكن الكفـر يضـج في النعيـق، فيسمع المنشد يقيء "سلكت طريق الدير في الأبدية" "وما الكلب والخنزير إلا إلهنا" ويطوي الشاب نفسـه على فـزع وعجب يسـائل الذهول: ما الكلب؟ ما الخنزير؟ ما الدير وأنى للذهول بأن يجيب؟! ولقد خشي أن يسأل أحد الشيوخ مـا دام قـد قيـل لـه: "انتـه لسـه صـغير" ثم إنـه رأى بعض شـيوخه الكبـار يطوفـون بهـذه الحمـآت،

يشربون "القرفة" ويهنئون الأبدال والأنجاب والأوتاد بمولـد القطب الغوث سيدهم السيد البدوي!!!

وتكفن دورات الفلك من عمـر الشـاب سـنوات، فيصـبح طالبـاً في كلية أصول الدين فيدرس أوسع كتب التوحيد -هكـذا تسـمى- فيعي منها كل شيء إلا حقيقـة التوحيـد، بـل مـا زادتـه دراسـتها إلا قلقـاً حزيناً، وحيرة مسـكينة. ويجلس الشـاب ذات يـوم هـو وصـديق من أصدقائه مع شيخ صوفي أمي. فيسأله عن معاني بعض تهاويـل ابن عطاء السكندري "إرادتك التجريد مع إقامة الله إيـاك في الأسـباب من الشـهوة الخفيـة، وإرادتـك الأسـباب، مـع إقامـة اللـه إيـاك في التجريد، انحطاط على الهمة العلية". ويحار الطالبان، ولا يدريان بم يجيبان هذا الأمي عن هـذه الحكم المزعومـة -وقـد عرفـا بعـد أنهـا تهدف إلى تقرير أسـطورة رفـع التكليـف- فتمتلئ نفسـاهما بـالغم المهموم، إذ رسبا في امتحان عقده لهما أمي صوفي؟!

ويدور الزمن فيصـبح الشـاب طالبـاً في شـعبة التوحيـد والفلسـفة، ويدرس فيها التصوف، ويقرأ في كتـاب صـنفه أسـتاذ من أسـاتذته، رأي ابن تيمية في ابن عـربي. فتسـكن نفس الشـاب قليلاً إلى ابن تيمية، وكان قبل يراه ضالاً مضلاً. فهذا البهتان الأثيم نعته الدردير!!

وكانت عنده لابن تيمية كتب، بيد أنه كـان يـرهب مطالعتهـا، خشـية أن يرتاب في الأولياء، كما قال له بعض شيوخه من قبل!!

وخشية أن يضـل ضـلال ابن تيميـة.. ويقـرأ الشـاب، ويسـتغرق في القراءة، ثم ينعم القدر على الشاب يصبح مشرق يهتـك عنـه حجب هـذا الليـل، فيقـر بـه سـراه المضـني عنـد جماعـة أنصـار السـنة المحمديـة، فكأنمـا لقي بهـا الواحـدة النديـة السلسـبيل بعـد دوي ملتهب الهجير. لقد دعته الجماعة على لسان منشئها فضيلة والـدنا الـروحي الشـيخ محمـد حامـد الفقي إلى تـدبر الحـق والهـدى من الكتاب والسنة، فيقرأ الشـباب ويتـدبر مـا يقـرأ وثمـة رويـداً رويـداً ترتفع الغشـاوة عن عينيـه، فيبهـره النـور السـماوي، وعلى أشـعته الهادية يرى الحقائق، ويبصر القيم. يرى النور نوراً والإيمـان إيمانـاً، والحق حقاً، والضلال ضلالاً، وكان قبـل -بسـحر التصـوف- يـرى في الشـيء عين نقيضـه، فيـؤمن بالشـرك توحيـداً، وبـالكفر إيمانـاً، وبالمادية الصماء من الوثنية: روحانية عليا، ويدرك الشـاب -وهـو لا يكـاد يصـدق- أن التصـوف دين الوثنيـة والمجوسـية، دين ينسـب الربوبية والإلهية إلى كل زنـديق، وكـل مجـرم، وكـل جريمـة!! دين

يرى في إبليس، وفرعون، وعجل السامري، وأوثان الجـاهلي، يـرى في كل هؤلاء الذين لعنتهم كتب الله، بل لعنتهم حتى العقول، يـرى فيهم أرباباً وآلهة تهيمن على القـدر في أزلـه وأبـده، دين يـرى في كل شيء إلهاً يجب أن يعبد. ورباً يخلق ما يشـاء ويختـار، دين يقـرر أن حقيقة التوحيد الأسمى: هي الإيمان بأن الله -سبحانه- عين كـل شيء. دين لا تجد فيه فيصلاً بين القيم، ولا بين حقـائق الأشـياء، ولا بين الضد وضده، ولا بين النقيض ونقيضه. دين يقـول عن الجيـف -يتأذى منها النتن، وعن الميكروبات تفتـك سـمومها بالبشـرية - إنهـا هي الإلها، وسبحان ربنا!! دين يقول عن القاتـل، عن السـارق، عن الباغي، عن كـل وغـد تسـفل في دناءتـه، عن كـل طاغيـة بغى في تجبره. يقول عن كل هؤلاء: إنهم عينـات الـذات الإلهيـة!! فـأي إلـه هذا الذي يقتل، ويبغي، ويفسد في الأرض؟ أي إله هـذا الـذي يـدب تحت جنح الليــل تتلظى في عينيــه، وعلى يديــه الإثم والجريمــة الضارية؟ أي إله هذا الذي يلعق دم الضحايا يبرد به غلتـه، ويخضـب بدماء الأعـراض الـتي سـفحها يديـه الظـالمتين؟ أي إلـه هـذا الـذي مشى في أيام التاريخ ولياليه بطشاً وظلماً وجبروتاً يدمر، ويخــرب، ويصــنع القصــة الأولى لكــل جريمــة خاتلــة؟! ومن يكــون إلا إلــه الصـوفية الـذي ابتـدع أسـطورته سـلف ابن عـربي، وابن الفـارض وغيرهما!!؟.

أيتها البشرية التي تهـاب القـانون، أو تـرهب السـماء!! هـا هـو دين التصـوف ينـاديـك ملحـاً ملهـوف النـداء: أن تنحـدري معـه إلى حيث تترعين من كل خمرة مخمـورة، وتتلطخين بكـل فسـق، وتتمـرغين في أوحال الإثم!! وأنتم أيها العـاكفون في المسـاجد؛ لا حاجـة بكم إلى الصلاة والصوم والحج والزكاة، بل لا حاجة بكم إلى رب تحبونه وتخافونه، وترجونه، ولا إله تعبدونه.

لم هذا الكدح والجهاد والنصب والعبودية؟ لم هـذا وكـل فـرد منكم في حقيقته هو الرب، وهو الإله كما يزعم الصـوفية!!؟ ألا فـأطلقوا غرائزكم الحبيسة، ودعوها تعش في الغاب والدخل وحوشاً ضـارية، وأفـاعي فتاكـة! وأنتم يـا بـني الشـرق! دعـوا المسـتعمر الغاصـب يسومكم الخسف والهوان، ويلطخ شرفكم بالضعة، وعزتكم بالــذل الهين، ويهيمن على مصــائركم بمــا يهــوى ببطشــه البــاغي، وبغيــة الظلوم. دعوه يهتك ما تحمون من أعراض، ويدمر مـا تشـيدون من معـال، وينسـف كـل مـا أسسـتم من أمجـاد، ثم الثمـوا ضـارعين خنــاجره وهي تمــزق منكم الحشاشــات، واهتفــوا لسـياطه، وهي

تشوي منكم -أذلاء- الجلود. فما ذلك المستعمر عند الصوفية سوى ربهم، تعين في صورة مستعمر.

دعوا المواخير مفتحة الأبواب، ممهدة الفجاج. ومباءات البغاء تفتح ذراعيها الملهوفتين لكل شريد من ذئاب البشر، وحانات الخمور تطغى على قدسية المساجد، وأقيموا ذهبي الهياكل للأصنام، وارفعوا فوق الذرى منتن الجيف، ثم خروا ساجدين لها، مسبحين باسم ابن عربي وأسلافه وأخلاقه فقد أباح لكم أين تعبد الجيفة، وأن تتوسلوا إلى عبادتها بالجريمة!!

ذلكم هو دين التصوف في وسائله وغاياته وتلك هي روحانيته العليا!!.

ألا فاسمعوها غير هيابة ولا وجلة، واصغوا إلى هتاف الحق يهدر بالحق من أعماق الروح: إن التصوف أدنأ وألأم كيد ابتدعه الشيطان ليسخر معه عباد الله في حربه لله، ولرسله، إنه قناع المجوسي يتراءى بأنه رباني، بل قناع كل عدو صوفي، العداوة للدين الحق، فتش فيه تجد برهمية، وبوذية ، وزرادشتية، ومانوية وديصانية، تجد أفلوطينية، وغنوصية، تجد يهودية ونصرانية، ووثنية جاهلية، تجد فيه كل ما ابتدعه الشيطان من كفر، منذ وقف في جرأة الصوفية يتحدى الله، ويقسم بعزته أنه الذي سيضل غير المخلصين من عباده. تجد فيه كل هذا الكفر الشيطاني، وقد جعل منه الشيطان كفراً جديداً مكحول الإثم متبرج الغواية، متقتل الفتون، ثم سماه للمسلمين: (تصوفاً) وزعم لهم -وأيده في زعمه القدامية والمحدثون من الأحبار والرهبان- أنه يمثل أقدس المظاهر الروحية العليا في الإسلام!! أقولها عن بينة من كتاب الله، وسنة خير المرسلين صلوات الله وسلامه عليه، وبعون من الله، سأظل أقولها، لعلي أعين الفريسة التعسة على أن تنجو من أنياب هذا الوحش الملثم بوشاح الدعة الحانية العطوف.

ولكن الصوفية سوداً وبيضاً، خضراً وحمراً، سلوهم: ما ردكم على هذا الصوت الهادر من أعماق البحر؟ سيقولون ما قالت وثنية عاد (إن نراك إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) وآلهتهم هي قباب أضرحة الموتى وأعتابها!! دمغناهم بالحق، فراحوا يعوون عواء اللص الحذر، وقع فجأة في قبضة الحارس، وجأروا بالشكوى الذليلة إلى النيابة، فلم تر النيابة فيمن يمسك بالبريء إلا مجرماً، وشكوا إلى رئيس حكومة سابق، وختموا الشكاة بهذه الضراعة الذليلة: "والله

نسأل لمقامكم الرفيع الخير والسؤدد في ظل حامي الدين حضــرة صاحب الجلالة المعظم صان عرشه، وأيد حكومته الرشيدة وألهمها التوفيق" (قدموا هذه الشكوى بتاريخ 4 أغسـطس سـنة 1951م)، فلم يرى الرئيس السابق فيمن يثرم أنياب الرقطاء مجرمـاً. وطـاح الحق ببغي إلههم وملاذهم حامي دينهم، كما كانوا يلقبونه.

وما زلنـا -بعـون من اللـه-نسـتلهمه- بكتـاب اللـه نتحـداهم، وبسـنة رسـوله صـلى اللـه عليـه وسـلم نحـاججهم، واللـه على كـل شـيء شهيد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

سيقول الناعمون -من ذوي الألسـنة الـتي اسـتمرأت كلمـات الـذل والعبوديـة، وليونـة النفـاق، وممن يتملقـون الجمـاهير على حسـاب الحق، ويزعمون أنهم لا يحبـون إثـارة شـقاق، أو جـدال، ولا الطعن على أحـد -سـيقول هـؤلاء: مـا هكـذا يكـون النقـد، ولا هكـذا يكـون البحث العلمي!! لا. أيها المـدللون الخـانعون للأسـاطير، فإنـا لسـنا أمـام جماعـة مسـلمة، فنخشـى إثـارة الشـقاق بينهم، ولـو خشـي الرسول مثل هذا لما لأ قريشاً على حساب الحق، ولكنه صلى اللـه عليه وسلم أطاع أمر ربه {94:15 فاصدع بما تـؤمر، وأعـرض عن المشركين} ووعى قلبه - المشرق المؤمن الطهور التقي- موعظة ربه فيمـا قالـه لـه العلي الكبـير {9:68 ودوا لـو تـدهن فيـدهنون} وفيما قال له {75:17 وإن كادوا ليفتنونـك عن الـذي أوحينـا إليـك، لتفتري علينا غيره، وإذا لاتخذوك خليلاً، ولـولا أن ثبتنـاك لقـد كـدت تركن إليهم شيئاً قليلاً، إذا لأذقناك ضـعف الحيـاة، وضـعف الممـات ثم لا تجد لـك علينـا نصـيراً} فكـان سـيد مـا يسـتغفر بـه الرسـول الكـريم الأمين ربـه: [اللهم أنت ربي، لا إلــه إلا أنت، خلقتــني وأنــا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت] فكيف بنـا نحن اليـوم الذين أمرنا أن جعل الرسول وحده لنا الأسوة؟!

ولسنا كذلك أمام فئة تحـترم العقـل، بـل تزدريـه وتحقـره، ثم تهب في قحة طاغيـة الجـراءة لتشـتم اللـه، وتـذود عن إبليس وفرعـون وعباد العجل والوثن، داعية المسلمين إلى اتخاذ هؤلاء أرباباً وآلهــة، وسيرد على القارئ عشرات النصوص من نصوص ابن عربي وتائية بن الفـارض شـهيدة عليهم بمـا ذكـرت، وابن عـربي وابن الفـارض قطبا التصوف، وإماما الصوفية المعاصرة. فكيـف يعـاب علينـا أننـا ندافع عن دين الله، وأنا نقول للشيطان: إنك أنت الشيطان؟

ما نقول عن رجل –وهو ابن عربي- يفـتري أدنـأ البهتـان على اللـه، فيصوره في صورة رجل وامـرأة يقترفـان الإثم، مؤكـداً لأتباعـه أن الجسدين الآثمين هما في الحقيقـة ذات اللـه، سـبحانه؟! وسـبحان رب العزة عما يصف الإثم.

فلا نلام إذا هتكنا القناع عن وجه هذا الرجـل، ليبصـره المخـدوعون به، ليبصره مسخاً ثانياً للشـيطان؟ إننـا في ميـدان مسـتعر الأتـون، يقاتلنا فيه عدو دنيء يتراءى أنه الأخ الشقيق الحنو، الندي الرحمة، فلا أقـل من أن نحاربـه بمـا يـدفع ضـره وشـره، ويحـول بينـه وبين الفضـاء على الرمـق الـذابل من عقائـد المسـلمين، وبين تشـتيت الحشاشة الباقية من الجماعة الإسلامية. (مقدمة كتاب تنبيه الغـبي إلى كفر ابن عربي من ص3-10، بقلم عبدالرحمن الوكيل).

****

****